المجموعة الكاملة

الإمام
علي بن أبي طالب

عبد الفتاح عبد المقصود



منشورات مكتبة العرفان - بيروت


مكتبة الروضة الحيدرية

الإمام
علي بن أبي طالب

الجزء الثالث

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

لم يكن خافياً عليه ما بيتوا ، بل كان أمامه كما فى كتاب مفتوح . . إن له عينا بكل مكان حسبوا أنهم يأمنون فيه الرقيب ، وله فى أرضهم رجال لم تقعدهم الشدة عن الولاء له ، ونسوة وددن لو افتدينه وجنبنه المصير الذى راح يعده أولئك الخصوم . ولئن كانت مكة لذلك العهد حصن عدوه وموئله ، فإن حركات أهلها كانت لديه محصاة لا يغيب عنها تفصيل . وكانت الكتب ترد منها عليه وهو بظاهر المدينة فى النفر القليل من رجاله الذين خرج بهم يبتغى — فى البدء — أرض الشام . وإنها لتحمل له صوراً واضحة من مأساة الفتنة ، وتكشف عن كثير من الخطوط التى رسمها المتآمرون عليه من أجل السلطان . فما أغفلت الرقاع الآتية من البلدة الحرام حركات الجند المتأهب ، ولا تدبير الحزب المفتون باحتلاب السيادة ، ولا الموارد التى غذت جيش عدوه بالعتاد . . وحتى حديث الهمس والمسارة بين كبار مناوئيه لم يقف به دون علمه أن كان فى خلوة بين الجدران الصماء !

فلعله أسف إذ استعرض هذه الصورة وجال بعين ذهنه فيما تومئ إليه . إنها نذر الانحلال ، وبوادر التدهور الخلق تتجمع فى أفق الإسلام كما تتجمع علائم العاصفة ولما يكد يغيب عن عيون الناس طيف الرسول . فها هى « الدنيا » تنتصر ثانية أو توشك على الانتصار كأنها قد تعجلت الثأر ! . . وها هى « المادة » ترفع ألويتها على أنقاض الروح وما جف بعد المداد الذى سطروا به تعاليم الدين . إن حب الحياة الذى أورد الغابرين مهاوى الهلكة قد هم يطوح أمته الناشئة فى الغابرين ، وأهواء الأنفس التى ألهبتها سياط الأطماع راحت ترين على صفاء القلوب . ولو أن الخلاف الناشب كان مناجزة حرة بين فكرة وفكرة لوسعه أن يقدم باسم الثغر كفارس يلق كفؤاً له فى ميدان نزال . ولكنها كانت أشبه بإغارة قطاع طريق استبيحت فيها المبادئ المثلى وجيشت قوى الهدم والظلام

تريد أن تطغى على البناء والنور . وهل غاب يا ترى من حقه جانب عن أولئك الذين قاموا يناصبونه العداء ؟ . . .

ليس هذا عليه بجديد : ليس هذا كله نبت ساعته بل هو قديم ممتد فى غور الماضى كجذور دوحة موغلة فى الأرض حتى الصخر أو نبع الماء . فقد كان دائما فريسة بغضاء مجنونة ، وضحية اختارتها شياطين الحسد لتكون قربانا يتقدم به قومه على مذبحها البغيض . وإنه لصورة أخرى مما أريد برسول الله لولا أن عصمه ربه فأنقذه من بين مخالب الغل الفوار فى الصدور . فاسمعه كيف يجيب عقيلا أخاه حين أتاه منه ما ينبئ عن تجهيز القوم لحربه بعد نكثهم بيعته وخلعهم ماكان فى رقابهم له من ولاء مفروض .

« . . . دع عنك قريشاً وتركاضهم فى الضلال ، وتجوالهم فى الشقاق ، وجماحهم فى التيه . فإنهم قد أجمعوا على حربى كإجماعهم على حرب رسول الله قبلى . . . جزت قريشاً عنى الجوازى ! . . لقد جهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، وقطعوا رحمى . وسلبونى سلطان ابن أمى ، وجدوا فى إطفاء نور الله . . » .

كان يعلم هذا كله من البدء ، ويوطن النفس على الاصطلاء بنيرانه . وما أغفل قط من حسابه أن الزمن سوف يتكشف له يوما عن حرب تشنها عليه النفوس المقروحة وتتقدم فيها بكل سلاح وبأى سلاح تستطيع أن تشهره . فلم يعجب قط حين جاءته الأخبار بائتلاف النقائض عليه ممثلة فى الواتر وفى الموتور . . . نعم ، فقد اجتمع أولياء الدم المهراق بمن عملوا جهد طاقتهم على إراقته وسفكه . . اجتمع بنو أمية وأولياء عثمان الشهيد بأولئك الذين فرشوا الأرض تحت قدمى الخليفة الشيخ بالقتاد ووضعوا الحجر المسموم فى أيدى قاتليه ، وتألفت من النقيضين قوة موحدة الغرض هدفها الأول هو القضاء على مظلوم جديد !

ولكنه تقبل هذا منهم بنفس راضية ، ألهمها حقها الثقة ، فلم تستشعر الخوف من المجهول القادم ، ولا أشفقت مما عسى أن تنجاب عنه الأيام من مصير

مظلم أو مرهوب . أليس طريق الصواب واضح المعالم وإن اعترضه الصخر وتناثرت فيه الأشواك ؟ . . وهل الحق إلا أولى بالبذل وإن سدت سبله المشاق والصعاب ؟ . إنه لـكاف دائماً باستهداف غايته ، وإنها لأمثل الغايات ، ولن يقعده عنها حائل أو يعوت . فليدع إذن أولئك المناجزين وما وطنوا عزمهم عليه ، فما أهونهم عنده إذ اصطنعوا باطلا والتفوا به ينصرونه ، كأنهم عابد الوثن يصنعه بيده من حجر الأرض ثم تعنو جبهته بالسجود له ! وما أكثر مزالقهم بعد ، لأن الخطأ الأول سوف يقود حتما إلى سلسلة أخرى من الأخطاء والضلالات — تماما كطليعة الإبل فى القافلة يجر خلفه قطاراً طويلا من الجمال ! وحسبه الآن ، مصداقا لشعوره ، هذه البوادر التى أخذت تبدو له خلال أعمالهم حين حاولوا التماس المنعة بتأليب القوى عليه وساروا فى الطريق الملتوية معصوبى الأعين . . . فقد تنادوا بدعوة ظالمة ، وأغروا باتباعهم كل مفتون ، وشطروا وحدة الأمة . فلما تبينوا أنفسهم فى ساحة كفاح يجب أن يوفروا عتاده وعدته ، أقبلوا فى لهفة يعدون أيديهم إلى مال حرام فاحتجزوه ، واستباحوه ، ثم قدموه وقوداً لهذا الـكفاح الحرام !

هكذا فعل القوم ، وإلى مثل هذا المنحدر انزلقت أقدامهم . . . فقد أباحهم ابن عامر ما جلبه من أموال البصرة بعد خروجه منها ، ووهبهم يعلى بن منية ما حمله من أموال صنعاء . وما كان لأى الرجلين حق فيما وهب وأباح إلا كما لرسول من رسالة مولاه . فقد كانت العادة المسنونة أن يجتمع عمال الأمصار فى موسم الحج بالخليفة كل عام ومعهم ما وسعهم جمعه من خراج ليسلموه إياه كى يضمه إلى بيت المال ويعده للإنفاق فى الأوجة التي يراها تعود بالخير على مجموع الأمة . فهم أمناء حفاظ على ما جلبوه وليسوا يملـكون توليه بالبذل ولا بالعطاء . ولـكن هذين استهوتهما الدعوة التى تنادت بها عائشة فى أرجاء مكة عقيب مصرع عثمان فانحازا إليها ، وأقرتهما هى وصاحباها على احتجاز أموال المسلمين لخدمة مأرب خاص ، ولتـكون عدة الحرب الأهلية التى لن تلبث أن تستشرى وتفـكك عرى الإسلام .

لكم آلم عليا أن يرى صفوة قومه فريسة للهوى المغرض ، هم الذين كانوا أكرم على نفسه من أن ينزلقوا فى مثل هذا المهوى الذى احتفرته لهم الأطماع ، وأولى الناس عنده بمجانبة الباطل ، وأجدرهم بمداناة التنزه والسمو على مآثم الحياة ... ولكنهم اختاروا لأنفسهم ، وسلكوا الطريق الذى شاءوا دون تردد كثير . ولعل منهم طائفة استشعروا الندم على ما اقترفوا ، واستجابت لهم ضمائرهم بالوخز ، ولكنها يقظة ساعة ثم راحت القلوب بعدها فى سبات ! إنه دون ريب ندم موقوف ، ووخز كأنه مس كف حنون ! فلقد ساروا أشواطاً تعذر بعدها النكوص ، وبدا الهدف البراق يلتمع لهم من قريب على قيد ذراع ! . . .

لات حين ارتداد ! . . . النكوص على العقب الآن عسير وإن كان فى نصرة واجب ، والإقدام هين يسير وإن كان فى نصرة فتنة ، وما إلى وجهة الحق الذى خلفوه دبر الظهور منفذ بعد أن وقفت نزغات الأنفس وأحلام النصر تسد المسالك كردة الظلام ! . . . ولكنك مع هذا لا تعدم عذرا لكل مفتون ضال يضيفه إلى صحيفته ، ويحرص أن تنعكس أخطاؤه من خلاله كالمآثر ، لأن الإقرار بالذنب على النفس ثقيل . . . وهذه عائشة تزعم أنها ما دعت دعوتها تلك إلا وهى تبتغى من ورائها توحيد الكلمة ، وما نهضت إلا لتحاجز بين أتباع على وبين الذين تواروا خلف الطلب بدم عثمان . . . تزعم هذا هى التى صاحت صيحة البسوس — غب المصرع — تستنهض الناس للثأر ، ثم سارت على رأسهم تحدوهم للحرب وتشحذ عزائمهم ليثيروا فتنة شعواء على البلاد التى كانت تدين للإمام بالولاء . . فما كان أصدق نظرة ضرتها أم سلمة وأبلغ كلمتها حين أرسلت إليها تقول :

« . . . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهمل إلى منهمل ؟ . . . ما كنت قائلة وقد هتكت حجابه الذى ضرب الله عليك ؟ . . . ألا لو أنى أتيت الذى تريدين ثم قيل لى : ادخلى الجنة ، لاستحييت أن ألقى الله ! . . . »

ولكن ابنة أبى بكر مضت لطيتها ، ولم تقعدها هذه النصيحة الخالصة عما انتوته . لقد كانت تشعر أن الأقدار نصبتها لأمر خطير ، وأن فرصة العمر جاءتها أخيراً دون تدبير ! . . ولئن قامت أم سلمة تثبط همتها ، وتحاول بالحجة ومنطق اللسان أن تحول بينها وما تبتغيه فهذا من السيدة الناصحة معلوم مفهوم ولكنه غير مقبول . فمتى أقرتها عائشة على أمر ؟ . وكيف تنتظر أن تحظى منها بالرضاء والإقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التنافر والازورار ؟ . . . إنها لم تكن قط لها صاحبة ترتاح إليها النفس ، ولم يجمعهما أبدا فكر وإن جمعهما رجل ، وما زاد ما بينهما — وما نقص — عما يكون عادة بين الضرائر من تباعد المشاعر . وها هو الماضى يطل عليهما فلا ترى فى ذكرياته إلا صورا من التنافس بين الضرة التى جملها الحسن والضرة التى جملها الصبا والشباب ، تتهافت كلاهما على حب الزوج المحبوب . . . وأما الأمومة فقد كانا فى ميدانها سيان ، حرمتهما الطبيعة نعمتها إذ ضنت عليهما معاً بنسل طاهر من صلب سيد الناس . ولكن إحداهما ذاقتها من قبل فلما أن احتواها بيت محمد ووسع قلبه الكبير أبناءها الذين أصابهم ذل اليتم ، كان قلبها ما زال نابضا بعاطفة الأم فراحت تفيض من ذخرها على الزهراء المحرومة من حنان الأم . واستطاعت برقتها أن تعوض عليها بعض عواطف خديجة حتى تجاذبت روح المرأة وروح الفتاة . أما الأخرى فكانت طفلة — طفلة فى حساب الزمن وفى حساب المشاعر الناضجة . . . كان قلبها الصغير أضيق من أن تسع رقعته حبا آخر إلى جوار حبها الزوج ، فبقيت عمرها كله مفتونة برجلها دون سواه ، حريصة على ألا يشركها غيرها فيه وإن كان ابنته الزهراء . . .

ولقد كان طبيعياً أن تعترض أم سلمة سبيل عائشة اليوم ، وتجهد لتحولها عنه . فما هى إلا أم لفاطمة بالعاطفة والتآلف ، تحرص ما وسعها على إسعاد ابنتها ثم على إسعاد زوجها بعد أن غاب جدثها فى التراب . وإنها لخليقة الآن إذن بأن تحفظ ذكرى الطاهرة التى ارتحلت ، وتجدد ولاءها لها بالولاء لزوجها الإمام . بل الأليق بها فى المحنة الحاضرة أن تشهر — لو استطاعت — سيفا

في وجوه خصومه ومبغضيه وتقود جحفلا ضخما من الموالين لتقطع على ضرتها وصحبها درب الفتنة الذى ارتادوه وتدفعهم عنه بقوة الحديد ! ولـكنها كانت امرأة تعرف ما خلقت له فلم تقحم نفسها فى غير ما هيأتها له الطبيعة ، وآثرت النصح — فى البدء — تزجيه عسى أن يصلح الله به نفوس من جانبوا الروية والحـكمة ومالوا مع الهوى الذاتى حيث مال . . . كانت تأمل فى بقية من رشاد بعقول القوم العادين كفيلة بردهم إلى الصواب فعلقت أملها المخدوع بسراب ! .

٢

عاد ثانية إلى الحياة ذلك الصراع الخفى الذى طوته الأعوام . . . برز من الماضى بما فيه من مرارة وذكريات تهيج التنافر القديم ، واستوى قائماً على قدميه ليأخذ مكانه فى قيادة الأحداث . فما ثمة صفحة حب ولا صفحة حرب إلا سطرها مداد العوامل النفسية التى تتناوب القلوب الإنسانية . ولا مصير لأمة أو لفرد إلا استوحت الأقدار عواطف النفوس قبل إبرامه . عائشة تعلم هذا تمام العلم لأنها فى الفتنة القائمة أمثولته الحية . . . فما بالها أغفلته من حسابها اليوم ؟ . أم ترى آثرت أن تنساه لحظة من زمان وهى تحسب أن فسحة الوقت التى مضت راكدة بعد وفاة الرسول قد سلت بذرة النفور من قلب ضرتها ؟ . . إن الزمن لم يفعل شيئا ، ولم يشفها هى أيضاً من شعورها الغابر ، وما استطاع فيما ترى إلا أن يغيب إحساسهما المتبادل تحت ستر رقيق من أعوامه . فلعلها أسيت بعد أن تقدمت إلى أم سلمة تستنصرها على الإمام وأخفقت فيما ترجوه . ولعلها قد استشعرت طعم الندم بعد هذا الرد الذى جاءها ناطقاً بالملام . فما كان أغناها عنه وعما طوى من ترفع واستعلاء . أفما شت حتى ترى تلك تزجيها النصح وتبصرها بمواطن الغى والرشاد ؟ . أما زالت فى عين السيدة نفس الطفلة الصغيرة الغريرة التى يلزمها التدبر ويعوزها حسن الإدراك ؟ .

فى الحق أبداها النصح — فى عين نفسها أيضاً — صغيرة ، هى السيدة

الأولى فى الإسلام التى يتلقف الناس الحكمة من طرف لسانها وينهلون من علمها كما يفعل الظامئ بنبع الماء ، يقبل وهو صاد ويصدر وهو ريان ! . . ولكن ضرتها المتمرسة بالحياة عرفت كيف تلعب أمامها دور المؤدب، وراحت بين وقت وآخر ترسم لها طريق السداد . . . فلم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى تقدمت فيها إليها بالنصح ، ولم ينته عندها دورها الكبير ! وكم طالما بذلت لها الحكمة فى رفق ، ، وبصرتها بعاقبة ما تسير فيه غير مدخرة وسعاً فى الكشف لها عن الحقائق التى سترها هوى النفوس . بل قد عمدت فى أحاديثها إلى صفحات من حياة الرسول تقلبها أمام ناظريها لتريها آيات من إعزازه وتقديره للإمام ، ولتبدى لها صوراً واضحة المعالم بليغة الدلالات قال فيها الإلهام النبوى كلمته العليا فى قدر هذا المظلوم وما سوف يتربص له به أعداؤه البغاة . . . وإن قصة واحدة مما روته لها أم سلمة كانت حرية وحدها بتنكيس السيوف المشرعة وتفريق الجند المتأهب لهذا النضال الحرام . ولكن القدر كان قد أبرم قضاءه فلم يهد النصح المبذول . وكانت القلوب الشائنة قد امتلأت إلى حافتها بأحقاد الماضى ولا بد لها أن تفيض. وعميت العيون التى عصبتها الأغراض فراح أصحابها يتخبطون فى الظلمات المتراكبة حولهم ولا يشعرون أنهم يقتحمون درب الضلال .

على أى حال وضعت عائشة نصح السيدة دبر أذنيها فلم تع منه إلا أنه أتاها على لسان ضرة !.. ومضت فى سبيلها تستعدى على غريمها من توسمت فيهم الاستجابة لدعوتها مبادرين . وما كان أكثر من جمعتها وأياهم وحدة الفكر واتساق الشعور !.. فلتول إذن وجهها إلى معسكرها . . إلى الذين يدينون لها بالولاء وتفنى ذواتهم فى شخصيتها القوية الطاغية . وإذا أريد لدعوة أن تبلغ الأسماع وتهفو النفوس لها بالانصياع فليلتف بها أولا صاحب هيبة أو اسم رنان . وكان هذا ميسوراً اليوم بعد أن انحاز الزبير وطلحة إلى الدعوة فضمنت بهما نصرة الكثير من رجالهم بالكوفة والبصرة . ولكنها شاءت أيضاً لحركتها أن تبدو لغير غرض دنيوى خاص ، وفى سبيل شىء آخر سوى التناحر على الخلافة وجاه السلطان . ولم يكن خافياً عليها أن صاحبيها هذين قد أغرقتهما الأطماع

السياسية حق الأذنين ، وأن وجودها ــ دون سواها من ذوى الماضى البراق — إلى جوارها قد يدمغ الدعوة بسمة التطلع إلى زخرف المنصب . فراحت تجد لتضم إليها نوعا آخر من العلية الذين لم تعلق بأذيالهم أمثال هذه الشبهات .

ولم يكن هذا عليها بعزيز — هكذا لاح لها الأمر فى بدئه ومكة إذ ذاك تعوج فى موسم الحج بنخبة من الرجال والنساء توفى سمعتهم على مراتب القداسة ، ولأسمائهم رنة فى الأسماع تعنو لها قلوب عامة القوم بالإكبار . وهل ثمة آثر عند الناس من أزواج الرسول ؟.. إنهم يتنسمون من ثيابهن روح الهداية ويتبعونهن كما يتبعون مشاعل نور . وإن كانت أم سلمة قد أبت الانحياز فحسب عائشة سواها كثيرات . بل كفاها من بينهن أن تضم ابنة عمر الجبار .

وكرة ثانية وحدت العاطفة بين السيدتين ابنتى أول خليفتين فى الإسلام . وكأنما عاد الحزب القرشى المناهض للخلافة الطبيعية إلى الحياة . وكأنما بعث أبو بكر وعمر إلى هذه الدنيا يعيدان ما أبرماه فى البدء ويحولان بين على وبين حقه فى ولاية الأمر كما فعلا غب موت الرسول . ولم يكن عجبا أن تنحاز حفصة إلى جانب عائشة وتشد أزرها فى إشعال نار الفتنة المقبلة ، بل العجب لو ترددت أيما تردد هى التى كانت ذيلا لها طول حياتهما الزوجية تعمل برأيها ، وتسير على السنن الذى ترسمه حتى فى الشئون البيتية ، وترجح كفتها على الدوام لو وقع بينها وبين غيرها من الزوجات أدنى خلاف . . . إن ابنة عمر الجبار لم تنحلها الأقدار شيئاً من شخصية أبيها العاتية فرضيت من قبل أن تعيش فى ظلال عائشة ، وهى اليوم تلعب دورها السابق بنفس الإتقان ، سواء أكان مرد هذا إلى اعتيادها عليه أم إلى بقية من شعورها القديم بالنفور من الرجل الذى نافس أباها ذات يوم على سلطان الإسلام . . . أما بقية من كن بمكة من أزواج محمد فأمرهن على عائشة هين ، فقد ألفوا الانقياد لها وهى بعد طفلة حين كان لها فى بيوت الرسول ما يشبه العرش والصولجان ! .. وها هن أولاء فى ركابها ثانية ، أشارت فتبعنها مسلمات الوجوه ، تماما كما كن فى الماضى لا يصدرن عن عمل قد يغضب سيدة الزوجات ! . .

فلعل عائشة حسبت أنها قد كسبت بهن قوة ، وخرجت بالدعوة من دائرة الشبهة فى خضوعها لشرعة السياسة إلى نطاق العمل فى سبيل مطلب سام يتطلب الفداء ونكران الذات . ولكنها فى الواقع ظلت بعيدة عن الرضا بما فازت به ، وظل أصحابها أيضاً كذلك . وهل فات الناس أن يتبينوا الحقائق الخفية من وراء هذا الستار الرقيق ؟ . . هل يستطيع انضمام زوجات رسول الله إلى دعوتها أن يجعلها فى عيونهم خالصة لوجه الحق بعيدة عن المطامع والآراب ؟ . . هل يستر انحيازهن إلى صفها ما كان معروفا من تكالب كل من عداهن فى ذلك الحزب على أبهة الحكم ! إن طلحة نفسه استشعر فى حركتهم ثغرة وجب أن يسدوها حتى يستقيم لهم الأمر باطمئنان الناس إلى خلوص الدعوة من الأطماع الذاتية وبعدها عن أن تكون مطية لخدمة غرض خاص . وكاشف بهذا صاحبه الزبير ذات يوم :

« . . . ليس شىء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر . . . »

فأسرع يستجيب له . وانطلقا سوياً إلى الرجل الذى لا يشك امرؤ مطلقا فى أنه قد باعد ما بينه وبين الدنيا واشترى دينه بزخرف الحياة . . . فلو أن مثله انضم إلى الحزب لكان عنوانا براقا أمام الشعب . . .

قالا له يبسطان الأمر بالطريقة التى يحسبانها تغريه :

« يا أبا عبد الرحمن . . إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس . فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة . . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها . »

فما أبهظ الثمن الذى يعدانه لو أنهما صدقاه القول ! . . ولكنه فى حساب النفوس النقية هين تافه ، وإن كان جاه المنصب ، وإن كان عز الدنيا ، وإن كان عرشاً يضم ما بين قرنى الشمس ! . .

وتبسم لهما ضاحكا ، ثم قال بهدوء :

« ... أتريدان أن تخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟

أيها الشيخان ، إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وقد تركت هذا الأمر، فانصرفا عنى ! . . »

نخرجا من لدنه وقد خبا فى صدريهما أمل وهاج . ومع ذلك فلا بد للقافلة أن تسير ! . . لقد قطعا من الشوط مراحل طويلة وجب بعدها أن يتما الرحلة . أما إلى أين المسير فهذا لعائشة وحدها تبت فيه ، وما عليهما إلا الائتمار بما تراه لأنها تضفى بشخصيتها على حركتهما نوعا من القداسة فى أعين الكثيرين وهو أمر له حسابه فى نجاح المشروع . .

كانت ابنة أبى بكر منذ البدء ترى تسديد الضربة أولا إلى القلب فتتداعى بعده سائر الأعضاء ، وتخف ، لو نجحت ، بقية الأمصار فى الدولة الإسلامية إلى الخضوع . وكانت الخطة فى ظاهرها معقولة ، تتفق وما قامت فيه من وجوب القضاء على رجال الثورة التى قضت على عثمان . وإذ رأت أولئك الغوغاء قد لاذوا بالمدينة ، والتف بهم الأعراب والعبيد فيها ، فقد بان لها أن السير إليهم هو العمل الوحيد الذى يخلص منهم حاضرة الإسلام ويستأصل شأفتهم من بقية البلاد . . ولم يكن رأى الزبير وطلحة يعارض هذا التدبير — أو هكذا فهم الناس مما ردداه . ولكنهما اليوم يستشعران رهبة ، ويتوقعان فشلا ساحقاً لهذه الحملة العسكرية المعدة يقضى إلى أبد الدهر على حلمهما المنشود . فما لرجالهم طاقة بأولئك الثائرين المتأهبين لرد القصاص المنتظر غاية التأهب . ولن يدع ابن أبى طالب أيضا عاصمته نهباً مستباحا للقوى المقتتلة تفعل بها ما تشاء وهو جالس يقلب ناظريه فى سكون. إنه صاحب الرأى الأخير ، وله حق الدفاع عن دولته أمام أى الناس تحدثه نفسه بحمل السلاح ، وليس يملك سواه إقرار النظام فيها سواء بالقضاء على عناصر الشغب أو بالضرب على أيدى غيرهم ممن يحاولون الانفراد دونه بالعمل كأنهم قوامون عليه . ولقد أوضح لهم رأيه من قبل ، ودعاهم إلى الحذر والتريث حتى تسكن الفتنة ، ويتبين كل موقفه منها ، وتخف قبضة الثوار عن عنق الدولة وهو اليوم كمثله بالأمس ، لن يدع هيبته ملهاة فى يدى عابث يسترعبثه بالثأر لمظلوم . وهبه خلى بينهم وبين ما يريدون ثم أظهرهم الله على الثائرين .

أفثمة نتيجة سينجاب عنها النصر إلا استتباب الأمر لابن أبي طالب وتوطيد دعائم نظامه ؟ . . .

لغير هذه الخاتمة جيشوا الجيوش ! . . ولو قد كانوا حقاً مخلصين لما ادعوه من وجوب القضاء على عوامل الشغب وتخليص الأمة الإسلامية من شرورها ، إذن لوسعهم أن يتلاقوا والإمام فى نقطة يبدأون العمل منها سويا . وما كان أهون عليهم لو أبدوا له الرغبة فى الائتلاف للقضاء على العدو المشترك وأبلغوه أنهم يملكون عسكة قوى تأتمر بأمره إن أشار وتنتظر كلة منه فتقبل مددا . ولكن قصة عملهم على محق الثوار لم تكن غاية يجدون فى سبيلها لذاتها بغية إعلاء كلة الحق أو تطهير الدولة من فساد محيق ، بل هى وسيلة أريد بها اضطراب أمره ، وذريعة للقضاء على سلطانه قبل أى شىء سواه .

فلير الصاحبان إذاً رأياً . وليجمعا الأنصار والأتباع يعرضان عليهم خلاصة هذا التفكير عسى أن يفوزوا برأى جديد كفيل بما يرومان . وما أيسر إقناع عائشة بالتخلى عن خطتها ، إذا أجمعوا هم الرأى ، ورسموا النهج الذى به يقضون أولا على دولة الإمام ! . .

٣

جمعتهم دار عائشة ، ندوة أصحاب الفتنة المتآمرين إذ ذاك . وغلقت أبوابها عليهم أعوانا وأولياء وكانوا بالأمس خصوما وأعداء ! .. ولكنها شرعة المطامع والأهواء تستذل النفوس حتى لتعرضها فى السوق سلعة رخيصة ، تقوم بجاه منصب أو ببريق دينار !

مامن رجل فيهم إلا استبق به مأربه إلى هذا الاجتماع . . . لوحت لهم الدنيا فتبعوها ، وما كانت لتقودهم إلى صواب ! .. إن منهم من خدعته مظاهر الأمور فلم يرسل عينه لتكشف الحقائق الراسبة فى الأعماق . ومنهم من أضله هواه فسار كالمفتون كأنه طائر استهوته حية رقطاء فزحف إلى جحرها وهو مبصر

وليس يقظان ! . . . ومنهم من لمه علم وقدر ثم آثر أن يمضى قدما على أشلاء ضميره الملقاة فى الطريق ! . . . ولكنهم كلهم جمعهم هدف ووحدتهم فكرة ، وهم اليوم يجهدون لتحقيق رغباتهم وبلوغ آرابهم من أيسر سبيل .

وحين بدأوا الحديث لم يكن ثمة امرؤ بمكة يجهل أنهم قد تجهزوا لغزو المدينة ، فبهذا تحدثت عائشة بعد المصرع ، وإليه دعت الناس . ولعلها اليوم وهى تشهد اجتماع صحبها من خلف ستار لم يطف بخلدها أن خطتها تلك سوف يتناولها التعديل . وإنما اجتمعت بهم لتشاورهم فى الأمر ، وتعرف ماسوف ينجاب عنه النقاش بعد أن أعدت العدة ، وتزودت لحملة « التطهير » بما تستطيع .

ومن البدء ظهر جليا أن غزو المدينة ، واقتحام العرين على أسده ليس بيسور . ذهبت الآن عنهم حدة الحماس . وأفسحت العواطف الصاخبة الطريق أمام العقل والتدبر . إنهم فى كفاح تتأرجح فيه مصايرهم ، ويتجاذبهم الموت والحياة من طرفين . فأولى بهم إذن أن يدرسوا الموقف بهدوء ، ويتبينوا مواقع الخطأ قبل الإقدام . وهل يجديهم أن ينفذوا إلى هدفهم من أضيق باب ؟ .

لأول مرة منذ رفعوا راية العصيان يقرون راغمين بحكمة على ، ولا ينكرون — فى ضمائرهم — بعد نظره وإدراكه السليم للحقائق التى كانت خافية عليهم من قبل أو التى أضلهم عنها هواهم . إن شعورهم ليهيب بهم أن يسددوا أولى الضربات لقلب المدينة عسى أن يقضوا بهذه على غريمهم الممسك بأعنة السلطة . ولكن عقولهم تأبى عليهم الانسياق مع العاطفة الهوجاء ، وتقبض على خناق هاتفها الملحاح . فإذا بهم يرتدون إلى ما ارتآه الإمام فى البدء ، وما نصح به لصاحبيهما الزبير وطلحة من وجوب التريث وإرجاء مقاتلة الثوار حتى يعد عدته وها هى الكثرة منهم — وفيها الزعيمان — ذلك اليوم بدار عائشة فى البلدة الحرام ، تردد رأى على ، وتتوخى الأمانة فى نقله بروحه ومعناه ، فنسمعها تقول دون حرج وبغير إخفاء .

« المـــدينة ؟ ... ليس لنا بأهلها طاقة ، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء . . . »

فأعظم بها كلمة حق من لسان باطل ! . . . وأين منها ادعاؤهم السالف أنهم ما خرجوا على سلطة الإمام إلا لأنه أبى عليهم رغبتهم فى المبادرة بالقضاء على رجال الثورة الذين اغتالوا عثمان ؟ . . . إنهم اليوم قد جمعوا الجند والسلاح فلم أحجموا عن المسير إلى وكر الفتنة ! . . وكيف يؤثرون — وهم فى قوتهم المتأهبة — نفس التريث الذى نصحهم به أمير المؤمنين حين كان فى وهن لا يسده عتاد وجنود ؟ ... إن لسان العقول الذى نطقوا به اليوم قد أنصف — برغمهم — عليا ، وغسل ما أعلقوه بثوبه من ادعائهم القديم ، ثم هلهل عنهم مسوح الرياء التى طالما خطروا بها أمام السذج من الجماهير . فما كانت رغبتهم فى الثأر لعثمان ، ولا حرصهم على تخليص الأمة من طغيان الثوار ، ولا أى من الأسباب التى اعتسفوها هى الدافع لهم على العصيان . . .

وتداولوا فيما بينهم الآراء وعائشة من وراء سترها تنصت ولا يغيب عنها حرف . وبدت الشام لهم ملاذاً أمينا ، وبؤرة تنتشر منها جيوشهم الغازية فتغطى بقية أمصار الدولة وتقضى على الحكم المكروه . وتلقف الزبير الرأى بحماس ، ثم راح يقول :

« نعم إلى الشام ، فبها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتى نجتمع يولنا معاوية . . . » .

ثم ألقى عينه على طلحة ليرى أثر هذا الحديث فيه بما احتواه من أمل معسول !.

ولكن يعلى بن منية كان أقدر من زعيمه على استشفاف الحقائق فصاح وفى صوته رنة تحذير :

« أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا . . . » .

« فقل . . . » .

« إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا فى فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم . . . أفرأيتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ، أتقاتلونه ؟ . . أم تجعلونها شورى فتخرجا منها ؟ . . » .

فلم يدريا ما يقولان . ما زال الخطر الذى يهدد حلمهما جاثما بالشمال ! . .

وما كانا ليغفلا عن هذا ، اليوم ، وما أغفلاه من قبل ، ولـكنها السياسة اللعينة تعرف كيف تهادن بين الأعداء المتنافسين حتى حين ، وتدفع الأكف إلى المصافحة إبداء للأمن والطمأنينة وإن انطوت القلوب على توجس مدفون . ولقد صدقهما اليوم ابن منية وأخلص لهما النية . فما عبرت كلماته إلا عما انطوى ذهناهما عليه . فثمة بدمشق قد ربض الغول الأموى يتحفز للوثوب بغية اقتناص الفريسة من الغاصب المرتقب بعد المغصوب ! . . .

وسار الحديث ثانية فى فنون فلم يعنيا بالجدل الذى أسفر عنه . بل راحا من أفكارهما فى غمار . . وكانت عائشة ما زالت تصغى للقوم من وراء حجابها والقلق ينهب قلبها خشية أن ينتهى بهم نقاشهم إلى خلاف يجر التخاذل . وكان مروان بن الحكم قد زم شفتيه واكتفى ببسمة صفراء تلون ثغره وتبدى من سخريته ما أراد ألا تكشفه الكلمات : فهو مؤمن بالنتيجة المقدورة ، عالم بها قبل أن تنحسر عنها أسجاف الغيب المجهول . . وهل راوده الشك لحظة واحدة فى أنهم الأداة الطيعة التى سيلتقط بها بنو أمية شرائح الشواء الشهية من فوق النار؟ . . وكان ابن عامر وسعيد بن العاص يتلاحيان ، ويرمى ثانيهما الأول بنقيصة الجبن إذ فر من البصرة ولم يكفكف فتنتها عليه فيكفيهم مصرا آخر يدين اليوم بطاعة الإمام كما كفاهم معاوية الشام ...

على أن مروان لايفى خبثه يلح عليه ، ولا تنى رغبته فى العبث بالصاحبين تراود نفسه حتى يستجيب لها ، ويقذف الشيخين بنصيحة هى فى حقيقتها أحبولة صائد أعدها لصيد غرير ! . . يقول كأنه يخلص المشورة ويمحضهما النصح الذى يزرى بكل ما عداه :

« ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة على ؟ . . . لئن أجابوكما فقد عارضتماه ببيعة كبيعته . وإن لم فقد عرفتما ما لـكما فى نفوس الناس . . » .

فلو أجاباه لهتكا إذن الستر الذى يبقى عليهما بعض الهيبة والتقدير فى أعين الـكثيرين من الأتباع . فقد حرصا دائما على إخفاء الغرض الحقيقى لهذه الحركة ونأيا جهدهما عن الظهور بمظهر الطامع فى الحـكم ، المشغوف بابتزازه ولو على

حساب المبادئ . فأحر بهما لو طلبا البيعة أن يبدوا على نقيض ما يرجوان فينفض عنهما من أحسنوا بهما الظن فضلا عن وقوفهما من أمير المؤمنين موقف عداء سافر صريح .

فلعلهما انتبها لأحبولة مروان وما تسوقهما إليه من خطر قبل أن يؤلفا حولها بقية الأمصار . . أو لعلهما حسباها آية من آيات غفلته وليس العهد بحمقه وضعف رأيه عليهما ببعيد . . أو لعلهما أرادا الإبقاء على المظاهر المضللة حتى يئين الكشف عن الأغراض المستورة . وكيفما كان ما فهماه من مرامى هذه النصيحة فإنهما رفضاها دون تردد ، فقال طلحة بحذر السياسى ولباقته :

« إن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم ننقضها ؟ »

وعقب الزبير ، الرجل الصريح الذى يثب قلبه دائماً إلى طرف لسانه :

« ويعنعا أيضا تثاقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة على ! » .

فهز مروان كتفيه بلا مبالاة وهو يقلب بصره فى الوجوه . إنه على أى حال لن يعدم فرصة أخرى يستطيع أن ينصب فيها شراكه ويوقع الصيد ، وموعدها فى حسبانه قريب . وران الصمت قليلا على القوم ، لحظات أوشك فيها تخاذلهم أن يتجسم حقيقة ماثلة بعد أن فشلوا حتى الآن فى الإجماع على قرار . . . ولكن ابن عامر أتاهم فى اللحظة الأخيرة برأى يكشف الأزمة ، دبت به فى أذهانهم الحياة . . . قال وهو يوجه الخطاب إلى زعيمى الجمع :

« اذهبا إلى البصرة ، فإن لى بها صنائع » .

البصرة ؟ . . . كيف فاتهما أن يفطنا إليها من قبل ؟ . . . أو الكوفة فهما سيان ؟ . . . وهل كشعبيهما فى الدولة الإسلامية شعوب تنضم قلوب أهليها على مثل ما يحسه نحوها أهل المصرين ؟ . . . ومن أولى باحتضان دعوتهما ونصرتها منها ، ولها هوى فى طلحة معروف ؟

أحسن إذن عبد الله ! . . . إنه قد لمح الإعجاب برأيه تلتمع به عيون الشيخين . ورأى أيضاً الموافقة تكاد تلعب على شفاه أكثر المجتمعين ، فسارع يعزز اقتراحه ويلق بما يؤيده أمام القوم :

« اذهبا إلى البصرة أيها الشيخان : فإن غلبتم علياً فلكم الشام ، وإن غلبكم على كان معاوية لكم جنة . . . وهذه كتب أهل البصرة إلى . . . »

هذه حقا هي الخطة المثلى ، وما أجدرهما بالتزامها ما دامت توفر لهما نصراً يعز فى سواها . ثم هى قبل هذا كفيلة بأن تبقى هيبتهما عند معاوية ، وتدنيه من الولاء لهما دون أن تقسرهما على الولاء له . فبها سيصبحان فى منعة ، ولن يكونا كلا على ابن أبى سفيان ينزلان عند أمره ويتبعانه كالظل . بل ستكون لهما الكلمة ، ويكون الرجل فى أيديهما أداة ! . . .

وتدبر مروان الرأى فى دخيلته . لتكاد هذه الخطة أن تبعدها عن كنف صيد بيته وعن العمل كهواه وستطلق أيديهما ولو إلى حين . ومع ذلك فليس ثمة من حرج عليه أن يظهر الموافقة ويتبعهما أينما يسيران . فأيان ذهبا سيستطيع أن ينصب شراكه ؟ وما أهونه من حمى يقودهما إليه ابن عامر الرجل الذى هان شأنه على أهل إقليمه وهو أمير مزود بالنفوذ فقام يدعى الآن القدرة على امتلاك ناصية البصرة وهو الهارب الطريد ! . .

ونادى هاتف القوم عائشة من وراء الحجاب :

« يا أم المؤمنين . دعى المدينة ، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلدا مضيما ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة . . . »

٤

أبرموا الأمر . . . حسبهم أن أقرتهم عليه عائشة وتركت عزمها القديم على اقتحام المدينة ، فما كان شأنهم ليستقيم لو أنها خالفتهم ولها كل هذا النفوذ الروحى عند عامة الناس . ووافقهم أيضاً مروان ، عميد الأمويين بالحجاز ، والحليف الذى لا بد سينقاد له أهل بيته ، وكل مغلوب على أطماعه من حاشية عثمان ، وكل عامل فى دولته المنهارة يحسب أن نفوذه لا بقاء له فى ظلال حكم الإمام .

وسوف يأمن أصحاب الفتنة بهذا كله معاوية ، ويؤلفون وإياه حلفا عاطفياً ينتهى حتما لحلف سياسى تباركه وحدة الهدف واتساق العمل الجاهد لبلوغ غايتهم المشتركة . فهل ينتقض من عنفوانه حركة المقاومة التى دبروها ألا يتحمس لها سعيد بن العاص أو ينأى بجانبه كما بدا منه قبيل ختام الاجتماع ؟ .

كلا ! . ففى غيره من زملائه غناء . بل هو أدنى إلى النزول على عزمهم ومتابعتهم لو جد الجد وأخذ ركبهم فى المسير . فلقد كانوا أعلم به من نفسه وأعلم بأمثاله من عباد الجاه . . . حسبوا هذا حتى ركنوا إليه كأنه يقين ، وباتوا على ثقة من معونة أصحاب المآرب والغايات . إن الأحلام غذاء شهى لبعض الأذهان ولهم منها ذخر لا ينفد معينه . . . وهذا طلحة قبلهم يبسم الأمل فى خاطره وتتهاوى عليه المنى السواطع ! فلم يعد يرى طريق البصرة خطوته الأولى بعد كفاح مرير بقدر ما كان يراه مجازا إلى النصر ! . . وإنه ليكاد أن يجده مفروشاً بالزهور ، ممتداً حتى ملتقى الأفق دون أن تعترضه العقبات والصعاب . وهل يسعه أن يغفل بها حزبه القوى والدور الذى لا ريب سيلعبه فيستميل أهليها إلى جانبه ويجنح بهم إلى الطاعة لدولته المنتظرة ؟ . . أما الكوفة فأمرها وأمر أختها سواء ، وحين يطلق أولى علائم الفتنة القريبة ستعنو هى الأخرى له وبها حزب الزبير صاحبه يعرف كيف يجذبها إلى الخضوع أو تنحدر على أطرافها سيول جيشهما اللجب من البصرة فتحمل قومها على احترام منطق السيف ؟ ... وما أضعف حيلة ابن أبى طالب بعد هذا وما أقل خطره أمام قوة هذين الإقليمين وبأس حليفتهما الأموية بالشمال ! .

ومع ذلك فقد آثر الصاحبان ألا يغفلا أثر العوامل المادية فى تدبيرهما المقرر . ولم ينسيا الحذر فى غمرة الحلم الجميل تمام النسيان . فأولى بهما أن يعدا كل عدة ، ويضربا فى سبيل غايتهما بالظفر وبالناب ! .. وما دامت لابن عامر صنائع بالبصرة فلتكن لهما مددا . وليجندا منها دعاة يشدون الأزر ويعملون وأولياءهما فى نفس الميدان . أليس على قدر قوة الضربة المسددة إلى صدر على يكون تداعى بنيانه ؟. وهل تكتيل القوى وتجميعها سوى العامل الكفيل بتعجل ساعة النصر المرقوب؟

ومتى كان للزمن حسابه الذى يتقدم على كل حساب إن لم يكن ذلك فى أوقات الكفاح والصراع ؟ .

لهذا قادهما التفكير ، وبه أغرتهما الكتب التى حدثهما ابن عامر أنها جاءته تحمل فى طواياها رغبة صفوة البصريين فى خلع طاعة الإمام . فلم يكن عجباً أن يشاوراه ويلتمسا عنده ما يحقق الخروج بالنوايا المكتوبة إلى مجال العمل الحاسم السريع . . سأله الزبير :

« ومن رجال البصرة يا عبد الله ؟ . »

فقال :

« ثلاثة كلهم سيد مطاع . . كعب بن سور فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة » .

فما بارحوا مكانهم حتى كتبوا لهم يستنهضوهم ويستنهضون بهم أقوامهم للغضب من أجل عثمان ، وللقيام فى ثأره ، وللتأهب لاستقبال جيشهم السائر نحو البصرة الاستقبال المرجو منهم ، والحقيق بسادة مثلهم أن يبادروا إليه . . . وإنك لتلمح فى الكتب ما يثير النخوة ، ويتملق حتى مفاخر الجاهلية القديمة . . اسمعهم كيف أهابوا بهذه الأمجاد التي تقدس الثأر فى كلتهم المبعوثة إلى ابن ربيعة :

« . . . إن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام . . وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . . . ولقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك . . . »

ومع ذلك فما أغنت عنهم كتبهم فتيلا ! . . . لم تؤجج حمية النفوس ، ولم تشعل نار الفتنة المنتظرة . . . ولعل أبلغ رد جاءهم هو ما بعث به إليهم ابن ذلك الرئيس الجاهلى المجيد ! . . فقد كتب لهم فى إيجاز :

« إنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ! . . »

فأصدق بها من كلمة صورت لهم حقيقة ما وعته عنهم القلوب ! . . وهل ظنوا ، هم الذين استعدوا لهم شيعة من البصرة على عثمان وهو فى عقر داره حتى حانت ساعة مصيره ، أن الشعب بها قد فاته ما كانوا دبروه لعثمان بالامس ! . .

لو أن طلحة أنصف لما قام فى الأمر بنفسه ، ولكان وسعه أن يعمل فيه من خلف قفاز يخفى كفه التى جنت على الشيخ المقتول . ولكن الأهواء لا ترى الحقائق وإن تجلت سافرة كشمس الصيف . ورجل بنى تيم يستطيع النسيان حين يريد ، ويستطيع أيضاً أن يغرى غيره على النسيان . فليس كصاحبه الزبير الذى يستبق الحق على لسانه فيقر بالذنب ويعلن الندم عليه . . بل هو ماهر فى مداورة الناس ومداورة نفسه على السواء ! . .

لم تلق إذن دعوتهم بالبصرة أذنا سميعة ، ولم يسارع أهلها إلى طاعتهم وعونهم كما حسبوا ، وكما صور لهم حديث ابن عامر عن صنائعه . . . بان لهم الآن أن سعيد بن العاص لم يكن متجنيا على زميله كل التجنى حين لاحاه خلال اجتماعهم بدار عائشة ، ونصحهم ألا يركنوا إلى كلامه المعسول . . . وراحت كلمات سعيد تقرع ثانية آذانهم ، أعلى جرسا منها من قبل ، وأحد نبرة كأنها صوت نذير :

« . . . يدعوكما إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم فى طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم علياً وهم فى طاعة على ! » .

إن السخرية لتقطر منها فياضة ثم يكون لها فى قلبى الصاحبين مثل طعم العلقم المرير . أما الحيطة فقد ولى زمنها الآن ، والنصح الذى رغبا عنه ذهب مع الماضى ولم يعد فى مقدورها العودة إلى الانتفاع به . فقد جاءت مشورة ابن عامر بنقيض المرجو من ورائها . وبعد أن كانت لهما بالبصرة كلمة مسموعة لعلها كانت كفيلة بلف قومها حولهما لو أحسنا استغلال الظروف ، أصبحا اليوم والبلدة تكاد تجمع على استنكار الدعوة التى بثاها فيها بعد أن نبهت كتبهما أذهان كثير من أهلها — وفيهم صنائع ابن عامر نفسه ! — إلى ضعف الحجة التى توسلا بها لتبرير العصيان . وكفاهما أن كتبهما تلك قد استقبلت بالبصرة أسوأ استقبال حين ورودها عليها . فما هو أن تلقفها أولئك السادة وأظهروا عليها الناس حتى أقبلت وفودهم من كل مكان يعلنون رأيهم فى الفتنة وفى مثيريها . ووقف فيهم من خطبهم فقال :

« مالنا ولهذا الحى من قريش ! . . أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد

أن دخلنا فيه ، ويدخلونا فى الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ . . . لقد قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . . » .

هذه هى السياسة التى حددها لنفسهم أهل البصرة ، ورسموا بهـا موقفهم من الفتنة المقبلة . إنها سياسة حياد صريح ، لا يتحيف ملتزموه على فريق من أجل فريق ، ولا يبادرون بالنفخ فى نار لم يشعلوا هم جذوتها الأولى . فالرأى عندهم هو أن الأمر أمر العاصمة الإسلامية قبل غيرها من البلاد ، وأمر أهلها من المهاجرين والأنصار قبل غيرهم من المواطنين . . . فهم قتلوا وهم ولوا ، وعليهم التبعة من قبل ومن بعد ، وليس لسواهم أن يقحم نفسه فيما لم يكن له فيه رأى ولا مشورة . وهى ذات السياسة التى التزمها عثمان ابن حنيف عامل الإمام بالبصرة حين أقبلت عليها جيوش عائشة وكان بها معبرا عن الرأى العام فى ولايته أصدق التعبير . فلم يبادر الرجل بقتال جحافل المتمردين ، ولا هز فى وجوههم قناة إذ ذاك . بل صبر عليهم . وترك لشعبه أن ينضم إليهم منه من شاء دون إكراه . وأمهل لهم حتى آذوه ، ونقضوا عهده ، وجازوه شر الجزاء على هذا التسامح الكريم . . .

وعاود أصحاب الفتنة مرة ثانية شعورهم بالنقص ، وبحاجتهم إلى الشخصية التى تضفى على حركتهم قوة معنوية فى أعين الناس بعد هذا الخذلان الذى نم عنه موقف البصرة . . . كرة أخرى وجب أن يقنعوا الشعب بتجرد هذه الحركة عن المطامع الذاتية وبعدها عن خدمة أغراض خاصـــة لامرئ أو لسواه ، فمـا يتحقق النجاح لأمر لم يستهدف غاية مثلى تستجيب لها العواطف النبيلة . . . وهل أبلغ فى استمالة أهواء النفوس من رجل نقى الصفحة لم تشب ماضيه شائبة ، ولم يدمغ من قبل بسمة التطلع إلى زخرف الحياة ؟ . . .

وكأنما عجموا الأعواد فلم يروا فيها أقوم من ابن عمر فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه النفوس تنحرف عن الجادة وراحت الدنيا تجذب وراءها البقية الباقية من صفوة صحب رسول الله . عبد الله له وحده فى قلوب أمته مكانة إذ هو وحيد رجال الشورى الذين لم يطمعوا قط فى الخلافة ، ولم تجرفه تيارات السياسة

الهوجاء من قبل ، ولم يأخذ من الدنيا أبداً بنصيب لفرط ورعه وعزوفه عنها ، بل كان فيها يعيش كالغريب منطويا على نفسه ، قد اتخذها فحسب مجازا إلى آخرته . . . ومع أنهم أخفقوا من قبل فى جذبه إلى جانبهم ، فقد رأوا الحاجة تدفعهم ثانية إليه عسى أن ينجحوا اليوم فيتخذوه علما للدعوة يلتف به الكثير من العارفين بنقائه . فإن هو أن تحدث مروان فى شأنه إلى الزبير وطلحة حتي أسرع إليه الشيخان . . .

ولكنهما فى هذه المرة أبعدا عنهما ظنون سعيهما إلى ابتزاز السلطان من ابن أبى طالب ، وحاولا أن يرسما صورة جديدة أنيقة تبدى رغبتهما فى جمع كلمة الأمة الإسلامية ، وتجنيبها الفرقة الوشيكة أن تقع فى صفوفها بسبب اختلاف البلاد على الإمام ، وقيام بعضها بالدعوة لسواه . . .

قالا له وهما يخلطان الذنب بالتوبة ، ويلقيان على غيرهما أمر الخلاف ، ثم يبديان الرأى الذى يريانه يحسم الأمور :

« يا أبا عبد الرحمن . . إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضيناه بالحق فيه . . إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، ومعاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نردها شورى . فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة . . » .

فتمهل الزاهد برهة قبل أن يجيب بنبرة اعتذار :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ! »

ثم ارتفع فجأة صوته ، ورمى إليهما بنظرة نفاذة ، وأردف يقول فى صراحة مريرة :

« أيها الشيخان ! . . اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ! . . لن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه ! . . أما الشورى فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما ! . . . » .

فغادراه دون أن يقدرا على جواب ! . فلما أن قابلا مروان راح يوسوس لهما ثانيــة ، ويدفعهما إلى طريق جديد ظن أنهما يستطيعان من خلاله الفوز برضاء عبد الله ... دفعهما إلى أم المؤمنين حفصة ورضاؤها عن خطتهم معروف ، ورأيها لرأى عائشة تبع من قبل ومن بعد فى كل أمر من الأمور ، لعلها تعرف كيف تحمل أخاها على القبول .

ولـكنها كانت أعلم به منهم ، وأعرف بعناده ، فردتهم عنه . وقالت تجيب الصاحبين :

« لو أطاعنى أطاع عائشة . . دعاه . . »

وبهذا فشل جهدهما فى التستر وراء امرىء نقى الصفحة من المطامع السياسية التى وسمهما بها القوم ووصمتهما جهودهما الدائبة من قبل على الظفر بالسيادة من كل سبيل . ولم يبق إلا أن يوجها الركب للمسير ، وحسبهما أن يكون فيه ابن عامر ، وابن عقبة ، ومروان وأضرابهم من الموغرة صدورهم ، المفتونين بالمناصب وجاه السلطان . . .

٥

دق طبل الحرب حين هتف منادى القوم فى أرجاء مكة :

« أيها الناس . . إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . . » .

فتهافت الناس من كل صوب ، قد استهوتهم الدعوة المغشاة بالجهاد كما يجتذب الضوء اللألاء فراشات رقيقة . وأقبلوا يحملون رءوسهم على أكفهم ، ويلتحقون بكتائب أم المؤمنين .

وتم جهاز الجند ، وزودوا بالمطايا والسلاح مما أعـد ابن منيه وابن عامر بأموال اليمن والبصرة . والتأمت الصفوف ، وتهيأت قافلة القتال للمسير . . .

فإذا « عسكر » قد خلف مريضة ، وخطر أمام هـذا الحشد الزاخر متلع الجيد فى الفضاء ، ثم راح يدب مزهوا بين غيره من الإبل والنياق . ألعله استيقن قدره من هذه الأنعام وعزته عليها براكبته المهيبة التي هيأوه لها مطية ؟ . . إنه ليتهادى والعيون ترمقه ، والقلوب تهفو نحوه ثم يستقر لجها وخفقها جميعا على هذا الهودج الفاخر المرتكز على سنامه . فهاهنا سيدة الموقف ، الصارخة الأولى فى هذا الوادى وكل هذه الجموع أصداء . . . إنها تخلف اليوم الحذر إلى مهوى الأسنة والسهام المريشة . . . تترك رقة المرأة فى بيتها وتخرج مع القوم فياضة القلب بحمية القتال . . . تسير بهذه الحشود إلى وديان الموت . . . حتى الهودج الذى احتواها فقد هو الآخر دلالته وبدا كحصن منيع يحمل نفوس من التفوا به على ارتقاب صراع خطير .

البلدة يتحدر أهلوها فى دروبها كالسل ، رجالا ونسوة ، كأن هذه الدروب غدت أنهاراً من الناس ! فما من بيت أغلق بابه إذ ذاك على إنسان وما من أحد آثر القعود إلا القليل . بل خرجت جموعهم تسير فى ظلال زوج الرسول . . . بعضهم قد التحف زرده ليكون درعا يدرأ عن السيدة قبل أن يدرأ عن نفسه ، وحمل سلاحه ليضرب فى سبيلها به وإن اقتضاه الصراع أن يبل مواطئ قدميها بدمه المهراق . . . وبعضهم سار خلفها على هدى دمعه ، لأن لساعة الوداع فى القلوب وقعا تستجيب له العيون البوادر ، ولذعا كألسنة النار هو نتاج الخشية على هذه الأمة من المصير الكامن وراء الفتنة المشبوبة . وحين انتهى بهم الموكب إلى « ذات عرق » وآن لركب القتال أن ينفصل عن مودعيه ، غامت الأعين المتطلعة ، وشرقت الحلوق بالدموع المنثالة ، وسجل القدر فى كتابه ميلاد « يوم النحيب » ! . . . فلقد تجاوبت كثبان الرمل المبثوثة على الأديم بصوت بكاء القوم يرج الأرض والسماء فى آن . واهتزت الصحراء بأنة جامعة صدرت منهم فكأنها ندت من الفضاء الرحيب ! . . . لم يكن من قبل حزن كهذا ، وما أتيح للشمس أن تبرز من برجها على يوم كان أكثر منه باكياً للإسلام وباكيا عليه — ذلك اليوم من ربيع الثانى ، الذى فتح الباب على مصراعيه أمام

الحرب الأهلية لتدلف منه أداتها الرهيبة تمزق وحدة الأمة الإسلامية وتدمر وشائج الصلات القائمة بين أولئك وهؤلاء من الإخوة فى الوطن والله . . .

والتف زوجات محمد بصاحبتهن يذرفن الدمع أسى ولوعة ، ويبدين معه الأسف لهذا الفراق الذى لم يكن فى الحسبان . . . كن جميعا قد عاهدنها على المسير ، وأظهرن العزم ليكن فى الركاب . ولكن اليوم ليس كالأمس ، والمقصد غير المقصد . وما يسعهن أن يسرن الآن وإياها على درب البصرة وقد كانت الوجهة المتفق عليها هى المدينة دون غيرها من البلدان . أما وقد اختلف القصد فقد لذن بالعودة ، والأسى وحده يشيع السيدة الأولى عنهن ويسير خلفها حيثما تسير . والحسرة أيضاً لا تبرحها وقد رأت نفسها تنطلق فى زحمة الحوادث وحيدة إلا برجال — وإن سمت بهم شجاعتهم — ليسوا ممن تطمئن القلوب التى لم تشبها الأغراض إلى نواياهم المكنونة ... وحتى حفصة تخلت هى الأخرى عنها . حفصة صفيتها وظلها الذى لا يغيب ! . . . أم تخلفت برغمها حقا كما أبلغوها إذ حال أخوها بينها وبين الخروج ؟ ... ويغفر الله لابن عمر ! . . . إنه أبى أن يعد الحركة بقوة معنوية هى فى أشد الحاجة إليها الآن ، فلم يقرن بها اسمه اللماع الرائق الصفاء ، ولا اسم أخته . . . فيا ترى هل كان إباؤه هو الأسوة التى اتبعتها أمهات المؤمنين ؟ . . .

لكم أضناها الفكر وهى تقلب الأمر وتستعيد فى ذهنها كل هذه القصة ، هذه الفصول الجريئة التى استهلتها بالتخذيل عن على كتخذيلها عن عثمان إلى أن تصل بها الخاتمة إلى اليوم المغيب القريب عندما تنطق الأسنة ويفتح الموت صدره مرحبا بالرجال ! . . . إنها لا تعلم على أية هيئة سيكون ، ولكنها فى دخيلتها تستشعر الرهبة حين تفكر فيه . فها هى تسير على أرض ميادة لا يستقر فوقها شىء ، خطوها المضطرب سوف يقودها دون ريب إلى مجاز رهيب ، كقاطع غاب يدلج بليل تتخبطه مرابض الوحش ومسارب الأراقم كلما حرك قدميه ! . . . الأفكار فى خاطرها تتلاحق وتزدحم كموج اللجة فى يوم عاصف مجنون الريح تختلط فيه لمحات الضوء الخاطف الرقيق بقتامة الظلال الكثيفة السود . . . إنها تشعر أين

هى ولـكنها لا ترى موقعها برأى الذهن المدرك المستنير ـــ لا تستطيع أن تهتك كل هذه الظلمات المتراكبة طبقات فوق طبقات ، ويعسر عليها أن تفعل إذا أرادت وإن التمست فى خاطرها أقباس من الضياء الضئيل بين حين وحين . . . خيط الشعاع الخابى الذى يرتسم على صفحة الأفق الدكناء معلنا ولادة الفجر لا يكشف أحناء متاهة ملتوية الدروب أمام حيران ضال . . وهذا قبس أوقدته لها أم سلمة فما لبث أن ابتلعه الاعتداد ، وآخر جاء به ابن عمر فغاب فى ظلمة العناد . . . فلعلها الآن تحس أنها منطلقة إلى طريق ليس فيه نور ، أما اللألاء الباهر فخلف ظهرها خلفته هناك قبل أن تصرخ صرختها وقبل أن يخطر بها « عسكر » التياه الرشيق ، وتركت كل من نـكصوا عنها يسبحون فيه ! . . .

ومع ذلك فلا معدى لها عن التقدم . . إن الهائم فى بحار الرمال يرى الموت فى المـكث ويجدد السير أمله ، ثم قد يقوده إلى راحة الأمان .. وقد سارت هى . عاودت المسير عسى أن تلمح عند حد الأفق شجرا يانع الخضرة تنعـكس ظلاله على الأرض الصفراء .. فماذا يا ترى يخفى لها الزمن فى جعبته ؟ . . النبع والدوح أم السراب الخداع ؟ . .

ولـكن نبع الرجاء لم يجف كله فى قلبى الصاحبين . . طلحة قبل زميله كان متفتح النفس ، يستقبل معالم الطريق مشوقا به حنين ، فهو إلى منازل حزبه يسير ... وإنه ليحس القدر ذاته فى ركابه ، يؤيده ويعمل له . وهل كان يحسب من قبل أن يتبعه من الناس كل هؤلاء ؟ . . وإذا كانت نسوة النبى قد قعدن عنه بعد اتفاق فحسبه عائشة تلتف بها الجماهير كأنها العلم والجنود . ثم ها هنا أيضاً سعيد بن العاص ، قد راجع عقله فيما يلوح ورأى الخير فى الانضمام إلى الحركة بعد أن تأبى عنها يوم الاجتماع . . وها هنا المغيرة بن شعبة سيد ثقيف ، وداهية العرب فى الجاهلية وفى الإسلام .. أقبلا معا وهما يجهدان ليستطيعا اللحاق بالركب قبل أن يغيب .

وخف إليهما الزبير وطلحة ، فإذا سعيد ينتحى بالصاحبين ناحية ، ويهمس لهما بسؤال :

« إن ظفرتما أيها الشيخان لمن تجعلان الأمر ؟ . . أصدقاني . . »

فتوجسا شرا منه ، ولكنهما آثرا أن يجيباه :

« لأحدنا أينا اختاره الناس »

« بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه » .

« ولد عثمان ! . ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ »

فلما وضح له أنهما يتخذان من دم الخليفة الصريع أداة تقتضى لهما السيادة ، هز رأسه آسفا وقال :

« لا أراني إذن أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف ! »

واستدار ومعه المغيرة . ولكنهما لم يعودا فى التو ، بل انطلقا إلى صاحبة الهودج . وتقدم سعيد فسألها هى الأخرى :

« أين تريدين ياأم المؤمنين ؟ »

« البصرة » .

« وما تصنعين بها ؟ » .

« أطلب بدم عثمان » .

فاستضحك ساخرا وقال :

« فهؤلاء قتلة عثمان معك ياأم المؤمنين ؟ . . »

ومضى فالتقى بمروان بن الحكم فى نفر من صحبه وأوليائه ، فيهم أبان والوليد ابنا عثمان ، قد انطلقوا جميعاً فى ركاب طلحة والزبير ، يدعون بدعوتهما ، ويعلون حيث يبغيان . . فإذا سعيد يصيح فيهم وقد بدوا له مطايا إلى غايات الشيخين ، ويوجه أعنف حديثه إلى ابن الحكم عميد هذا الفريق :

« وأنت أيضاً تريد البصرة ؟ »

« نعم ، أطلب قتلة عثمان . . »

« فهؤلاء هم ! . . »

وأشار إلى حيث كان الصاحبان ، ثم أردف يقول :

« إن هذين الرجلين قتلا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ، قالا نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة ! . . »

فهل تجنى عليهما سعيد ونسب إليهما ما لم يقولاه ؟ . . أبدا . . بل ليكاد ينقل إلينا نفس الكلمات التي بدرت من أحدهما من قبل ، حين ذهب إليهما عبد الله بن خلف وقد علم بعزمهما السير إلى البصرة يريد لو أقعدهما عنه . . قال ابن خلف إذ ذاك :

« إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه فى عثمان شىء إلا وقد بلغ أهل العراق . وقد كان منكما فى عثمان من التخليب والتأليب ما لا يدفعه عنكما جحود ولا ينفعكما فيه عذر . وأحسن الناس فيكما قولا من أزال عنكما القتل وألزمكما الخذل ! . . وقد بايع الناس علياً بيعة عامة . . فإذا لاموكما غداً ، فماذا تقولان ؟ . . »

فكان الجواب الذى أتاه من طلحة :

« ننكر القتل ونقر بالخذل ! . . ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم عليه ، وقد ندمنا على ما كان منا . . »

وهو الجواب الذى نقلته كلمات سعيد بأمانة تعز عند الرواة ! . .

وهتف سعيد ثانية بمروان ومن معه :

« تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ! . . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم يا قوم ! »

ونادى المغيرة بعده بصوت جهير :

« أيها الناس . . من كان ها هنا من ثقيف فليرجع . . »

ثم امتطى كل راحلته ، وتبعهما كثيرون تبينوا من الأمر ما كان خافياً عليهم من قبل ، وتركوا بقية الركب تسير إلى مصيرها المجهول . . .

٦

أذن مروان للصلاة . . ابن الحكم دون غيره من أتباع الجمل قام يدعو بدعوة السماء فى الناس ! . . فلعلة فعل الرجل ، وسارع قبل سواه بهذا النداء . وهل كان — فيما عودنا من قبل ومن بعد — إلا مفتوناً بالتدبير ونسج خيوط الأحابيل ! . إنه نفس مروان القديم صانع الدسيسة ، وهو اليوم يعد عدته لنصب شرك جديد ؟ . .

واستجاب القوم للداعى وللدعوة . وتهيأوا لأداء شعيرة الإسلام الأولى فأقبلت حشود الجيش تنتظمها الصفوف ، وتتجه منها العيون والقلوب وجهة واحدة شطر المسجد الحرام — نحو البلد الذى خلفوه منذ قليل وشهد مولد الرسالة السماوية التى رفع محمد مشاعلها تبدد غياهب الظلام . . وران عليهم الخشوع وهم يوشكون أن يلقوا الله فى الصلاة . كل قد اتخذ مكانه فى هدوء ، ساجى البصر ، خاشع الفؤاد ، فلا حركة ولا نأمة إلا ما تهمس به الشفاه من دعاء وتسبيح . . . ولكن إمامهم وحده لم يقف موقفه — بل من هو يا ترى كان ذلك الإمام ؟ . . طلحة أم الزبير ؟ . . الرجل الذى حالفته عائشة من البدء ودعت له بالإمرة حتى فى أيام عثمان ، أم الزميل الجديد الذى ربطته به حوادث الخلاف الجديد ؟ . من ذا يدرى من القوم الحاشد أى الصاحبين سيبرز أمام الصفوف ليؤمهم فى الصلاة ؟ . .

لا أحد يدرى على التحقيق وإن توزعت عواطفهم بين هذا وذاك . فلكل فى الجيش حزب وأعوان . وقد أرهف التساؤل حذر الفريقين معا وخشية الواحد من تقدم زعيم الآخرين إلى الاضطلاع بالإمامة فى هذه اللحظة الحقيقة بأن ترسم المصير السياسى للصاحب وللفريق الذى يناصره فالإمامة عندهم زعامة على الصلاة ، وزعامة بعدها فى كل ميدان للدنيا وللدين . وأحر بمن يتقلدها الآن أن ينعقد له لواء الخلافة من بعد . .

ولكنهم كبحوا عاطفتهم إلى حين . . ادخروها حتى يأتى لهم أن يروا رأى العين من سيكون صاحب الأمر ، وأى الرجلين منهما سيخطو أولى خطواته إلى السيادة إذ يتقدم الصفوف المنتظرة ويرفع صوته بتكبيرة الإحرام ! . . حبسوا الشعور فى الصدور ، فما يحسن أن يدعوا ريح الخلاف تعصف بهم ولما يتبينوا بعد نصيبهم من النصر أو الخذلان ، وأولى بهم وأجمل أن يتريثوا فقد آن وقت الأداء . .

هكذا حرك مروان رماد الغيرة بين الفريقين عسى أن يكشف تحته عن جمر التحاسد والخلاف ، وأوقع فى قلوب كل فريق التوجس من الآخر . فكلاهما الآن على حذر ، وكلاهما أيقن أنها هدنة موقوتة لم تكتب لها حياة طويلة ، لأن ظلها وشيك أن يتقلص غداً إن لم يتقلص اليوم ، ثم يتجاذبون بينهم السيادة كما يحاول الصاحبان جذبها من أمير المؤمنين . أما ابن الحكم فلم يكشف شيئاً مما أضمر قلبه ، بل سار إلى طلحة والزبير وعلى وجهه من سلامة الطوية قناع كثيف . . وإذا به يسألهما فى هدوء :

« على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ؟ »

على أيهما ؟ . . ذات السؤال الذى يراود الآن ذهن كل إنسان . . . ودون الجواب عليه بغضاء ودماء ! . .

فكأنه ألقى عليهما ناراً تتسعر ! . . للحظة ثبتت عيونهما على وجهه نظرة ذاهلة تفصح عن عجبهما تمام الإفصاح . . هذا أمر لم يدر لهما ببال ، أو قد دار ثم أرجآ الجواب عنه حتى حين — حتى اليوم الذى يتدخل فيه القدر على نحو من الأنحاء فيخلى الميدان لأحدهما دون صاحبه ويأتيه بالإمرة له وحده دون شريك . . لقد شغلهما على عن التفكير فى كل ما عداه . . وشغلهما ابتزازهما إياه أريكة الحكم عن التفكير فيمن سيعقبه عليها منهما الاثنين . فالوقت لم يتسع لتدبير كل هذا ، ولا الذهن اتسع لتدبره وإعداد العدة لأى احتمال قريب وبعيد . أما الآن — هذه اللحظة التي أثار فيها ابن الحكم ما كانا يتناولانه بالمطل والتسويف فراراً من الواقع الذى يخشيان . . الآن وقد فاجأهما الرجل بسؤاله العارى عن الكياسة ، أو قل عن المواربة والتمويه —

وصاح به عبد الله بن الزبير فى حنق وفى اعتداد :

« على أبى عبد الله ! » .

« بل على أبى محمد ! » .

فلم تختلج لمروان جارحة . بل نقل بصره وهو ساكن بين ابن الزبير وابن طلحة ، ثم راح يرمق الشيخين بثبات كأنه يستحثهما على الجواب .

ولكن طلحة كان قد حزم أمره . . العمل الحاسم السريع أجدى عليه فى هذا المقام من ألف جواب . فما أسرع أن هم يريد أن ينطلق إلى مكان الإمامة ويتقدم الصفوف . فإذا الزبير يهم كذلك ، كأنما قد استجابا معاً لتوجيه ذهن واحد . وتدافع الرجلان كل يبغى أن يكون له وحده هذا الشرف المأمول ويجهد فى دفع صاحبه عنه ! . وكان لابد أن يثير تدافعهما جدالا كريها كانا فيه كطفلين يتجاذبان بينهما دمية ! ... ولغط لساناهما بملاحاة ، وتلاحى أيضاً عبد الله ومحمد ، ومروان لا تنى البسمة الساخرة الخبيثة تلعب على شفتيه . . . فما كان أعمقها من هوة حفرها لهما بتدبيره ، وما كان أجداها من أحبولة ، ما نصبها حتى تخبط فيها الصيد لا يدرى كيف يكون الخلاص ! . .

وهمس معاذ بن عبيد الله لنفسه وقد شهد هذا السباق العجيب بين زعيميه على إمامة الصلاة :

« والله لو ظفرنا لافتتنا ، ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر ! . . » .

فلعل هذا المشهد كان شعاعاً جديداً أرسله القدر عسى عائشة أن تستضىء به ، وترى مستقبل الحركة التى احتضنتها على هديه . ولكنه لمع هو الآخر فى خاطرها لمعة البرق ثم غيبته الظلمة ، فلم تتبين شيئاً على سناه . أو هى قد آثرت أن تغضى أيضاً عنه كما أغضت من قبل عن سواه . وكما تفعل الأم التى تشهد الخطر يكاد أن يدهم وليدها فعلت هى إذ استشعرت الخطر على حركتها من فتنة مروان التى ألبسها براءة المظهر وسلامة الطوية . فسرعان ما أرسلت إلى الرجل الخبيث تقول :

« ويحك ! . أتريد أن تفرق أمرنا ؟ . . »

ثم أصدرت أمرها :

« فليصل ابن أختي . »

بهذا استطاعت أن تجتاز الأزمة العارضة وتسكن الفتنة التي كاد يوقظها مروان . وسعها أن تحسم خلاف الشيخين على السيادة ثم تقف برأيها حائلا بين أعوانها وبين الافتتان بتهدئته نفوسهم المتحفزة للتناحر . . . ولكن رأيها في الواقع لم يكن حكمة كله ولا دواء ناجعاً للداء . ولو قد أتيح لها النصر لتحقق قول معاذ . كذلك هي جنحت به عن موقف الحياد السليم بين صاحبيها المتنافسين حتى أوشك الناس أن يعلموا إلى أين تميل وأي الرجلين تختصه بالتقديم على صاحبه وتستخصه حتما بالاجتباء لمقعد الحكم لوخلي بينهما فيما بعد وبين الاختيار . أو ليس عبد الله هو ابن الزبير من أختها أسماء ؟ . إن حفيد أبي بكر قد بدأ الآن أولى خطواته نحو تحقيق الآمال الضخمة التي تملأ قلبه . مهدت له خالته صاحبة الهودج سبيل الطموح فأخذ يسير قدما فيه ، ولن يتأخر كثيراً ذلك اليوم الذي سنراه فيه قابض على ناصية الأمور ببلاد الإسلام بيد حديدية ، يناجز دولة الأمويين ويقض مضاجع ولاتها ثم يشيع الهزيمة المرة في صفوف جندها حتى ليوشك أن يهدم بنيانها كله في بضعة أعوام .

كانت عائشة برأيها ذاك أن تقدم لأنصار الجمل عنوانا واضحا على موقفها القابل من الصاحبين . وهل كان يغيب عنهم المعنى الذي يضمره اختيار عبد الله للصلاة ؟ . لئن كان الولد جديرا بالزعامة السياسية فأبوه منه أجدر . ولأولى بالزبير أن يتسلمها منه ثم يفوز أيضا بالزعامة السياسية بعد حين قريب .

هذه الخواطر كانت خليقة بأن تجول بأذهان الناس إذ ذاك ، وتتأرجح بهم بين الرجاء والخوف حسبما كانت مشاعرهم وكان اتجاهها نحو الشيخين . ولم تكن كلها رجماً بالغيب ، ولا أوهاما جسمتها أخيلتهم السباقة إلى اكتناه الخواتيم . فهاهي المقدمات أمامهم جلية ، تنبئ عما سيسفر عنه حجاب المستقبل ، وتوحي إلى أميرهم المنتظر كأنه قد تسنم عرشه ودان له شعبه بالولاء . . فالزبير الذي ظفر ابنه بالإمامة قد صارت له هو أيضا إمرة الجنود كأنما الأقدار تحرص على تجميع

كل مظاهر السلطان وأدواته فى يديه . . انعقد له لواء الجيش السائر إلى الظفر المرجو فمن ذا ياترى يقوى على سلبه ثمرة النصر حين يأتى قطافها وقد اجتمعت له قوة الجند والسلاح ؟ . هل يجرؤ أحد حينئذ على مجاهرته بالعداء ؟ . . لعل طلحة غدا يرى من الحكمة أن يؤثر طريق السلامة فيهادن رفيق اليوم ، ويتبع ركاب جبروته مشيراً أو وزيرا أو فى أيما ثوب يختاره له الأمير المرقوب ! .

من يدرى ؟ . لعله سيؤثر هذا لو جرت على سننها البادى مراكب الأحداث . وقد جنح منذ البدء إلى المهادنة فاستجاب لأمر عائشة ، وارتضى فى الزبير إماما يصلى خلفه ويأتم به . قنع من كل أطماعه العريضة بدور الشريك المغلوب على نصيبه ، يملك دون أن يكون له حق التصرف فيما يملك . . حتى مظهر هذه الشركة بدوا كأن قد أرادوا أن يسلبوه إياه . فكان الناس يتجهون للزبير بتحية الإمارة ويدعونه « أيها الأمير » ! . أم ترى هذه دلالة على إمرته الجند فحسب ؟ على أى حال لقد كان اللقب يقترن باسمه هو أيضاً فى قليل من الأحيان كلما طاب لبعض أعوانه أن يشعروا أنفسهم أنهم وأعوان رفيقه بمنزلة سواء ! .

ويبدو أن عائشة أحست أنها تحيفت أكثر مما ينبغى لها على حق مرشحها القديم للخلافة ، لأننا لا نلبث أن نرى مشهداً آخر فى التاريخ تنجاب أسجافه عن أمير للصلاة سوى عبد الله ... فقد أنبأتنا بعض روايات الرواة أنها قدمت أيضاً عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليصلى بالناس . فلعلها أرادت بهذا أن ترد على طلحة بعض اعتباره ، وتوحى إليه أنها ما اختارت ابن الزبير وهى ترمى إلى أمر . ولعل عبد الرحمن وعبد الله كانا يتناوبان بالإمامة فى فترات حسبما سمحت بهذا السوانح ، أو اجتزأ أحدهما بفريق واجتزأ الآخر بفريق من أولئك الأتباع الكثيرين . ومع ذلك فما لهذا كله من دلالة سوى تناحر الفريقين على السيادة ، وجريهما أبدا وراء موكبها الفاخر ! . . ولقد كانت السمة البارزة لهذه الحقبة من الزمان الافتتان ببلوغ السلطان حتى أوشكت الخلافة أن تكون صيداً يطمع فيه كل من استشعر فى نفسه قدرة على هز رمح ، أو اجتلاب أعوان ، أو انتحال قصة قد ترفع من قدره فى أعين الناس . دع عنك طلحة فغرامه بها قديم مشهور .

ودع الزبير الذى استهواه صاحبه فأوشك أن يكون فارسها الجلى كما رأيناه . ثم انحرف أيضاً عن عاهل الشام فله وحده حساب وكتاب ! . . . ومل بنا إلى نفر من ركب الفتنة نجد أشخاصاً قد استذلتهم شهوة الحكم أيما استذلال أو استطاع حب السيادة أن يدنى منهم العروش المؤثلة ولو فى يقظة الخيال ! . . فلعلنا لا نحرم ابنى عثمان : الوليد وأباناً ، من لذة الحكم بعد أن علما حديث سعيد بن العاص ! . ومن يدرى ، فقد تجرى لهم ريحهما رخاء . . . وهذا أيضاً مروان بن الحكم كيف لا يأمل أن يجتمع له إمرة الإسلام والمسلمين ذات يوم قريب وهو الذى نفخ فى نيران هذه الفتنة لتفىء عليه المغنم المطلوب ؟ . . لقد كان الرجل هو الخليفة الفعلى ردحاً من عهد عثمان ، بغيره لا تبرم الأمور ولا تساس البلاد ، فهلا يكون حقاً له الآن أن يستأنف سيادته ، بمظهرها وجوهرها كليهما ، حين تنضج ثمار تدبيره ؟ . . إنه لم يتخل قط عن مطمحه حتى بعد أن ذهبت ريح فتنته وفشل تدبيره مع خصوم الإمام . وعندما خانته الأيام ، وسبقه ابن أبى سفيان إلى السطوة بقى وفياً لحلمه يغذوه ويرعاه وهو مستيقن أنه التالى بعده على عرش الأمويين . فلما أن أكره معاوية الناس على البيعة لابنه المفسود يزيد ، كاد مروان يثيرها حرباً شعواء على سيد بيته لولا أن توسل إليه هذا بالمداهنة والدهاء . . كذلك نجد عبد الله بن الزبير بين هذا الفريق المفتون بالسيادة وإن حدثت سنه . ولكنه لم يعدم اتساع أفق الآمال ولا انبساط الخيال . والأمل والخيال الوثاب حليفا الشاب وها هو اليوم قد استعان بعدته منهما فطلع على الناس بقصة عجيبة ، زعم فيها أنه الخليفة الشرعى لعثمان عن وصية منه قبيل مصرعه يوم الدار ! فهو إذن أولى بالأمرة من سواه وأجدر وإن كان الساعى إليها أباه .

كانوا بالركب عصبة أربها معا استلاب خلافة ابن أبى طالب ، وأرب كل فرد منها وحده احتجازها لنفسه دون غيره . . . فأعجب به من هدف جمعهم وفرقهم فى آن ! . . وما أشبها كتيبة تتنازع الأسلاب ولما تبدأ المعركة . ولكنهم حازوا بأخيلتهم النصر ، وأغفلوا حكم الواقع الذى لن يلبث حتى يرفع عن عيونهم غشاوتها . ثم لا يكادون يتبينون مواقفهم حتى يتبدد حلمهم ، ويرقد أكثرهم صرعى على ثرى البصرة . . .

٧

توالت الرقاع على الإمام تحمل له أنباء الفتنة ، والخطة التي رسم القوم العصاة لأتقسهم كي يناوئوه . وما زالت الرسل مقبلة عليه بالأخبار ، محصية حركات حزب عائشة بين يوم ويوم ، من مكة أولا ، ثم من الطريق التي سلكوها وهم يقصدون البصرة بعد أن عقدوا العزم على السير فى عصيانهم إلى مداه . ولعل أكثر هذه الكتب وقعا فى نفسه كان كتاب أم سلمة . إن هذه السيدة الفضلى بقيت على ولائها له لم يبدلها الزمن ، ولم تقطع وفاة فاطمة ما كان موصولا بينه وبينها من إكبار وعطف متبادلين منذ دخولها منازل رسول الله . . . فلما عادت من البلدة الحرام بعد أن أعياها رد عائشة عما أبرمته ، سارعت تلقى الإمام فتحدثه وفى عينيها دموع :

« يا أمير المؤمنين . . . لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى لخرجت معك ... فهذا ابنى عمر ، وإنه والله لأعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فاستوص به خيرا يا أمير المؤمنين ... »

فهى وما ملكت ! .. نضحت عنه بمنطقها ، ثم بهذه البضعة الحية منها تذود عنه . . . وكانت بهذا صورة ناطقة للوفاء ، وللفناء فى سبيل ما تؤمن به . . . وإنك لترى أشباها منها كثيرين زخرت بهم هذه الحقبة التى غلبت الأهواء فيها على نبالة النفوس . ولكن الحق أبدا لا يعدم النصير .

ونهض على لشأنه . للواجب الذى ألقته الأقدار على عاتقه ، فإذا هو أشق واجب وأكرهه لقلب سليم ، إن صبر وسالم أكلوه ، وإن قام يقابلهم عدة بعدة وسلاحاً بسلاح لم يأمن أن تتفرق الأمة شيعاً بينهم وبينه ، يضرب بعضها بعضاً ، وتأتى على عنفوانها أداة الحرب ... وها هو الخبر اليقين يأتيه من قثم بن عباس ، وكان قد بعثه إلى مكة يستنبىء له سير الأحداث ، بأن المتآمرين قد اختاروا الطريق الوعر ، لم يقعدهم عنه حلمه ولا تريثه بهم عسى أن يجنحوا إلى الهداية . . أرادوها فتنة وأضرموها ، وانطلق اللهب فى آثارهم صوب البصرة .

فكم غمه ما بلغه ، وأثقل قلبه ، وألقى ستراً من الظلمة أمام عينيه ! . .
لو كانت له أزمة النفوس البشرية لمال بهم عن الغى . ولو كانت بلاغته مغنية فى هذا الوطن لأوسعهم النصح حتى لايبرح المنبر ! . ولكن المحنة أينعت وأوشكت أن تثمر أشلاء ! . وها هى رائحة الحرب تملأ الجو وتزكم الأنوف ، فما بقى غير حديث واحد يصغون إليه : حديث السيوف للسيوف ! . .

ومع ذلك فثمة أمل لا يزال يبرق فى خاطره ويكاد يلهمه الطمأنينة . ولعل القدر يسعفه بتحقيقه فتعلو كلمة العقل الراشد على صخب الهوى العزيز ! . إن البصرة تدين لسلطان عامله فهى أميل إلى الولاء له ، ومسيرهم إليها كفيل بأن يحد من غلوائهم عندما يرون أهلها لا يسارعون بالانحياز إلى فتنتهم . فإذا بان للخواطر أن غالبية سكانها ليست من أصل عربى أوشك استمساكها بدولة الإمام أن يكون حقيقة واقعة بعد أن عرفوه رجلا جعل المساواة التامة بين العناصر جميعها عماد سياسته . هذا ما قر فى ذهن على وزوده بالأمل حينما علم أن العصاة لم يقصدوا الكوفة مباءة العرب الذين تسودهم شريعة العصبيات . . وبه تحدث مظهرا ارتياحه فقال لابن عباس .

« لأن يأتوا البصرة لأحب إلى من أن يأتوا الكوفة » .

« وكيف يا أمير المؤمنين ؟ » .

« إن الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم ؟ » .

فلعل ابن عباس حسب أن رجالات العرب بالكوفة أقدر على الوقوف فى وجه الفتنة وأحرص على كبحها من سواهم لو سار جيشها إليهم ، أو رأى فى افتتان زعمائهم بالسيادة وتناحرهم الرتقب فيما بينهم عليها ما يفسد اتحادهم فى عداء الإمام ، فقال :

« إن الذى يسرك من ذلك ليسوءنى يا أمير المؤمنين . . الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله ، فإذا كان كذلك شغب على الذى قد نال فيفسد بعضهم على بعض » .

وكان رأى قيس بن سعد بن عبادة جامعاً لما أجمله صاحباه ، وكاشفاً عما ينطوى عليه قلبه نحو أصحاب الفتنة وهو يقول :

« . . والله ماغمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأنهما عندنا حلالا الدم لنكثهما بعد البيعة ، ولأنها من علمت مقامها فى الإسلام ، ومكانها من رسول الله ، وفضلها ، ودينها ، وأمومتها منا ومنك . . »

وهز رأسه أسفاً ، ثم أردف يشير بما يراه :

« يا أمير المؤمنين . . إنهما يقدمان البصرة وليس كل أهلها لهما ، وتقدم الكوفة وكل أهلها لك ، وتسير بحقك إلى باطلهم . . لقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام فيقال صاحبا رسول الله وأم المؤمنين فيشتد البلاء وتعظم الفتنة . . فأما إذ أتيا البصرة وقد سبقت إليها طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليها عاملك — فسر فإن الله معك »

وأى وجهة انتهى إليها عزمهم فقد بقى على كعهده جانحاً إلى السلام ، يود لو استجاب خصومه له بالحسنى فجنبوا الأمة شر الانقسام والفرقة . لقد كان المسير إلى الكوفة رأياً صواباً كله قد يحمل عربها على الالتفاف حوله قبل أن تستهويهم مظاهر المروءة التى لبستها الدعوة العائشية ، وقبل أن يفتنهم التشيع للعصبية العربية ، التى يكلفون بها غاية الكلف لاستعلائهم بجنسهم على بقية الأجناس ، والتى لا ريب كانت حرية بأن تميل بهم إلى جوار طلحة والزبير وأضرابهما من رجال العصيان إذ كانوا المعبرين عن خواطر السواد من قريش المفتونة بخلاف الهاشميين . وكانت أيضاً موقعاً وسطا بين الحجاز والشام ، يستطاع منه صد الفتنة لو غالت البصرة وانطلقت إلى الشمال لتتصل بمعاوية ورجاله ، أو شاء ابن أبى سفيان أن يمدها بعونه لتنتزع بقية البلاد الإسلامية من يد الإمام . . ومع ذلك فلم يتخل على قط عن أمله فى معالجة الأمر بالهوادة ، لعل الله أن يصلح النفوس فتفىء إلى السلم . لم يقعده عن غايته تلك حماسة أصحابه ، ولا إيمانهم بحقه وجور مناجزيه عليه . وإنك لتسمع منهم آيات من الوفاء كانت حقيقة بأن تبطر غيره فى مثل هذا الوطن ، وتحرف به عن هدفه السلمى إلى سل الحسام وهز القناة تعجيلا لنصر مسلح . . وإنك لترى أضراباً من أبى قتادة كثيرين ، يحملهم إليه الولاء وتدعوهم الرغبة الخالصة فى الفناء من أجله ، يهيبون به أن يدفعهم إلى

القتال ، وأن يرمى بهم فى غمرة الوغى كيف شاء ، فإذا به هادىء ساكن . لا يفتنه كل هذا الوفاء عما عزم عليه من الإعذار قبل تسديد ضربته ، ومن تقديم الهوادة والنصح على التحدث إلى أخصامه بمنطق الحرب .

يقول له أبو قتادة وقد استغرقه حماسه وفاضت به حميته ؛ وهو يهز فى يده حساماً مغموداً :

« يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله قلدنى هذا السيف ، فشمته فطال شيمه . وقد أنى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا ! . . فإن أحببت أن تقدمنى . . . » .

فلا يكون لهذا القول ولأمثاله بضعة من أثر نحوله عما اعتزم عليه . . . إن الحرب التى تنتظره ليست حربا تتهاوى فى حتلها الرءوس وتتمزق الأجسام . . ليست صراعا صاخباً بين الرماح والأسنة . . . ليست كفاحا يقاس فيه النصر بمقدار الأرض التى يحتلها فريق وتنحسر عنها جيـــوش الآخر ؛ بل هى فتنة هوجاء ويل فيها للغالب والمغلوب ، الأمة كلهاحقلها وساحتها وحين تحيق الهزيمة بإحدى الطائفتين فستلقى فى قلوب أفرادها بذور حقد تنمو على الزمن دوحا شامخا يظل أبداً ظامئاً للدم ! . . أما النصر فلن يكون فى يد الأخرى غير ثمرة فاسدة مريرة المذاق . . . ولكن الإمام يعزف عن نصر مسلح يجر فى أعقابه حقداً يرسخ بأفئدة غرمه ولا يزول أو يزول الدهر الداهر . إنما غايته أن ينتصر على النفوس الضالة والقلوب التى ضرب الهوى عليها أكنة . آثر أن يسمو بالعواطف الإنسانية إلى ذروتها الطاهرة فتستجيب للنبل والحق المطلق . ويوم يستطيع التغلب بسلاح رفقه على عدوه فستذوى الدوحه الخبيثة فى منبتها قبل أن تبدو لها ساق ، وتمحى كلة الثأر من سجل العلاقات بين أبناء أمته . . وإنه إذن ليوم النصر المرجى الذى تعقبه وحدة وثيقة تؤلف قومه ، ويرفرف فيه على الرءوس لواء واحد ، ويسجل القدر فى لوحه مجداً للاسلام ليس بعده مجد .

هذا هو الأمل الذى جاش بصدره فعمل جاهداً على تحقيقه ، وبه استهدى وهو يسرع إلى طريق نجد بتلك النواة لجيشه الذى كان قد بدأ يعده لغزو الشام

ولما يتم اكتماله . وكانت خطته أن يسبق أصحاب الجمل ببعض الطريق ثم يردهم بالحسنى عن البصرة قبل أن يبلغوها ويفتنوا الناس . ولم تكن له فسحة من الوقت ليتأهب بما يكفيه من عتاد ورجال تحوطا لما عسى أن يسفر عنه عدوه من لجاج قد يثير حرباً لا تتعادل فيها القوتان . ومع ذلك فإنه لم يتردد كأنما كان موقناً بنصره السلمى عند اللقاء ، وخرج بفئته القليلة دون أن يتعبأ تعبئة حرب تامة ، بلا كفاية من زاد ولا سلاح ، متخففين ما وسعهم كأنهم يسيرون إلى مرتاد نزهة ! . .

ولقيهم بالطريق عبد الله بن سلام . . . الصحابى الجليل كشفت له نفسه الصافية عن أمر فسارع يرد القوم عن مهوى القضاء المنتظر . وإنه ليندفع إلى الإمام وليأخذ بعنان دابته فيلويه كأنما أراد أن يدفعها عن السير . وكانت الدموع تلتمع فى عينيه ، وكيانه كله يهتز بما انطوى عليه صدره من مشاعر كما تهز الزلزلة الأرض . . ثم هتف وصوته المهتاج تفيض منه نبرة التوسل :

« لا تخرج ! . . لا تخرج منها يا أمير المؤمنين ... فو الله لئن خرجت منها . . لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين . . أبداً . . »

فبادرت إلى الشيخ طائفة تصده . وزجرته طائفة . . . وهمت به أخرى تؤذيه بالقول الخشن وتكاد أن تنال منه . . . فإذا على يصيح بالجمع :

« دعوه فنعم الرجل ! . . . »

أفلس يا ترى الصدق فى كلمات هذا الصاحب الكريم ؟ . . لا ريب . فذاك رأى للإمام قديم . وإن قلبه لما زال يردد — حتى فى هذه اللحظة التى يستهدى فيها بأمله — نفس هذه الطيرة التى رددها إمامه عبد الله . . إنه منذ قليل طالع صحبه بذات الرأى وهم يوشكون أن يبرحوا المدينة . . . ألم يقل لهم حينذاك :

« . . . إن فى سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها . . والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً . . . »

ومن له الآن بمن يضمن اعتصامهم بأمر الله فى هذا الزمن الذى حكمته الأهواء ؟ . . .

.. ثم سرى رجال الكتيبة والليل ، يشتدون فى مشيهم قدما . . . وكان يسير على رأسهم وشعوره يعصف به ، ومع ذلك فقد دفع عنه يأسه وراح يضرب مع القوم . . . وإنهم ليتوثبون لغايتهم أيما توثب ، ويسرعون الخطا حتى ليكاد يحملهم من نشاطهم جناح : أفكانوا والقدر أفراس رهان فجهدوا ليغلبوه فى ساحة الزمن ويسبقوا تصريفه المغيب ؟ . لقد تزودوا بالرجاء فى رحلتهم النبيلة فلم يأبهوا فيها بمشقة . وسلوا عزمهم مرهفا كما تسل السيوف البواتر . ومضوا مبادرين نحو ما أرادوه . . . ولكن القدر سبقهم ، وبسط الصحراء الفسيحة أمامهم كسجل مفتوح ، أقدامهم عليها أقلامه التى راحت تخط دراكا سطور المأساة القريبة كلما تقدمت بهم على أنقاء الرمال ! . . .

٨

كانت ليلة من ليالى الخريف ، وسنانة الريح ، شف جوها دفء رقيق لعله بقية الصيف الراحل . . . ساجية كحلم هانىء ، نديه كنسمة البحر ، قد أشاع فيها السحر الطلول أنفاساً ريانة حملت لها بشائر الشتاء . وكانت صافية الأفق كصقال مرآة ، يرامق نجمها الساهر الرمل بلمحه فيتألق كذهب سيال ... نقية السما لايشوبها ظل . الصحراء الفضاء تحت صفوها بدت كلوحة الذهن الذاكر ، تلاقى عليها ضياء السماء بلألاء الأرض كالتقاء الماضى الغابر بالحاضر الغض فى خيال مدكر !

الكتيبة الآن تدرج على هدى النجم ، يتراءى رجالها فى خفقات ضوئه كأشباح . لاتكاد السرعة البالغة تتيح لأقدامهم لمس الأرض ... إنهم يتحدرون بين الرمال ولهم مثل صوت اللجة فى بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعته أمامها الريح حين إعصار . كلهم انطوى على الرجا . وإن أحس يد الرهبة تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى فراغ وفراغ . وأينما وجهوا العيون طالعتهم الرمال الجدبية ، صامتة خرساء لاتكشف لهم عن سر القـــوم الذين ركبوا المشقة ليدركوهم . . لا أثر هنا لجيش ، ولا لمدلج بليل . . وحتى مواقع الأقدام التى

لعلها قطعت قبلهم هذا المجاز لم يحفظها الرمل بل انطوت فى خضمه ، ولم يبق لهم سوى أمامهم يتأرجح بخيط .

ولكنهم مضوا يغالبون الصحراء ، ويقتطعون الشقة بعد الشقة من رقعتها المبسوطة لعلها تشرف بهم على الغاية الموجودة فى نهاية الطواف . . . انطلقوا على أديمها المياد صامتين إلا دبيبا مكتوما ينجاب عن وطء الأرجل ، وأنفاساً لاهثة ترددها الصدور ويبددها حفيف النسيم أما المشاعر فلها فى القلوب اصطفاق تدافع وتتراجع ، وقد أثارها السكون الذى لف السكون . فما أكثر ما يهيج الهدوء ذكريات النفس فتنبعث خواطرها الدفينـــة فوارة كماء الينبوع ! . وما أسرع ما يلهم الصفاء التأمل ! .

كان ينطلق فى طليعة الكتيبة ، خفيفا مبادرا ينتهب الأرض . ولكنه لم تغمره ضوضاء جيشه ولا ضجيجه . . فى حساب إحساسه كان نائيا عن رجاله بواد سحيق بعيداً عن دنيا الناس ، وقد احتجزته لنفسها الذكرى واحتواه التأمل إنه فى ركاب قافلة الفكر ! . . ولئن ضربت به راحلته مهاد الأرض فليس لوقع أرجلها صوت ... ولا كل هذه الجلبة المنبعثة من سير جنوده تطرق سمعه. وحين التقت عينه بصفحة هذا المكان السابح فى ضوء النجم ، انبثق أمامه الماضى كانبثاق ألوان الطيف عن وجه الغيم فى يوم ماطر ! . . فها هو الفضاء الرحب يزخر بمشاهد من حياته قديمة . وها هى الصحراء قد انقلبت نخاية نحل تئز بأصوات عادت له من الغابر الغائر فى أعماق ذاكرته كأنها بنت اللحظة الوليدة . . . التقى أمسه على صفحة ذهنه بيومه ، وذابت حدود الزمن وأحيازه فلا سلطان له على الذكريات . وازدحم حوله السكون بالأصداء والصور ، وكلها جلى غض . . وإنه ليتبين منها صورة قريبة إلى قلبه ، فيها صاحب جليل له وللرسول راح يدرج على بساط الرمال وقد براه الهزال وآده ضعفه ، وفيها صدى من الماضى يهتف رءوفا حانيا وراءه : « يمشى وحده . . » . . . ثم تبدو له أخرى تهز مشاعره وتجعل نفسه تسيل من الأسى والتفجع . انطبع عليها ذلك الهزيل الضعيف وهو مسجى مما كن الجوارح على جلد شاة وقد نزفت من أوصاله الحياة . . . فلا يلبث الصدى الرحيم أن يهمس : يموت وحده . . . »

وقد مشى الصاحب وحده ، ومات وحده مصداقا لحكمة الغيب التى أنطق الله بها لسان رسوله وأعادتها الذكرى ثانية صدى فى أسماع الإمام . وذهب مثلا خالداً فى الأعصر لإنكار الذات والفناء فى سبيل غاية نبيلة ، ولم يبق الزمن منه إلا لمحة فى الخواطر المستعيدة ...

ويهتف الدليل الذى أم الفرقة فى مسراها ، بصوت يشق السكون :
« الربذة . . »

الربذة المنفى الذى انتجعه أبو ذر حين ضاق به عثمان فسيره نأيا به عن أصحاب الثروات ؟.. المثوى الذى ضم رفاته فطهر به ؟.. روى الله ثرى الشهيد المرهوب! وأصدق بمحمد إذ قرأ له مصيره هذا وهو بعد فى لوح الغيب : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض . . » وها هى الفلاة .. ها هنا فى ثراها انطوى الشيخ الذى قهر الدنيا لأنها نادته فأدبر ، وراودته فاستعصم منها بإيمانه بالجوهر دون المظهر . . عليها كان محياه ، وفيها رقد جثمانه ، ومنها مجازه من زيف الحياة الرخيصة إلى العيش الآبد فى عالم ليس يكدره سلطان الناس . . .

وألقاها على نظرة عجلى على وادى الرمل تروده إلى ناحية فيها أطلال وفيها آثار . . فاذا عينه تنهمع بدمعة ، وإذا قلبه تملؤه رهبة ، وإذا كيانه كله يحتوى الخشوع وهو يكاد أن يسمع من جانب المثوى الساكن ذات الكلمات النقية التي رددها صاحبه الثاوى منذ أعوام :

« رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله . . »

أما الآن فقد مضى محمد ، ومضى أبو ذر ، ومضى فى أعقابهما كثيرون ستظل أحيازهم فى الدنيا فارغة لا يستطيع أن يملأها إنسان .. فكأنما الخير ولى بعدهم على الأثر ، وفارق حتى هذه النفوس التى كان يرتجى منها الخير . فللدنيا اليوم سطوة على الخلق تفتنهم بزخرفها وان انطوى على ضلالة . وتسير بهم كيف تشاء فيتبعونها كأنهم ظلال . . .

وما عتم أن التوى عن الذكرى ذهنه ، وخلف قافلة الفكر ليتابع موكب الحاضر . . . فإن هى إلا لحظة حتى انفرج الأفق الأشهب عن راكب يطير نحوه مع خيوط الفجر . أهذا بعض طلائعه التى بعثها ترود السبل قد جاءه بنبأ عن القوم ؟ . . .

وهدأ سير الركب . وتعلقت أنظار من فيه بالفارس الذى أطلعته جوانب الظلمة الرقيقة . إن عليه لوعثاء مرتحل نشر من البوادى وطوى مراحل صبغت أردانه . وهذه أذياله انبسطت على جانبيه كالجناحين . وفى وجهه وجمة محاذر ، وعلى آثاره انطلقت كتائب القلق تهم أن تغزو القلوب التى لعبت بها أكف التوجس . . . وعندما طالعهم كان أملهم لا يزال معلقاً بخيطه ، ولكنه إذ قاربهم زحف إلى صدورهم خوف غامض هو طليعة ذلك القضاء المرهوب الذى يوشك أن تنفرج عنه شفتاه . . . أفآن يا ترى لهذا الأمل أن يذوى عوده ثم تسقط ثمرته فتضيع بين رمال هذه التاهة كما تغيض قطرة الماء ؟ . . .

على لمح النجم تبينوه وهو يسعى مبادراً إلى مكان الإمام . وحين ترجل كانت أنفاسهم تلاحقه . فلما أن فتح بالحديث فاه سكنت تلك الأنفاس . . تعلقت بالهواء الذى حفهم لا تذهب ولا تروح . . وأرهفوا حواسهم كلها فنى جوارحهم كلها آذان . . .

وهتف عطاء بن رئاب وفى كلامه مثل رنة النذير :

« لقد أمعنوا يا أمير المؤمنين . . . » .

فما أسرع ما حملت لهم هذه اللحظة كل ماصادفهم من المشاق فى الطريق الذى قطعوه واستشعرت أوصالهم إعياء كان يخفيه عنها شعورهم السالف بقرب النجاح . أما وقد غاض أملهم فإن نشاطهم ذاب فى دفعة واحدة . . رسب إلى القاع وطفت فوقه المتاعب التى كانوا ينفضونها عن كواهلهم من بدء الرحلة . إنك لتنسى أوصابك ولا تحس بها وأنت تستبق الأخطار إلى هدفك المنشود ، حتى إذا كبوت دونه وانقطع بينه وبينك الطريق حضرك من آلامك ماكان هونه أملك . . فالأمل دائما خفيف مفراح ، وعلى النفس اليائسة من قنوطها مثل أوثاق الصخر ؛

ومع ذلك فليس الشعور الذى امتلك الـكتيبة الصغيرة كان من خشية عدوها السباق ، ولا إشفاقاً من لقاء الأسنة التى أعدتها لها جيوشه . . . بل هو وليد الأسف على مصير الأمة التى حلقت فى جوها هامة الحرب تنادى بظمأها للدماء ! إن أصابع القدر لتـكاد كلها تشير إلى صراع دموى عنيف ينتظر قوى الإسلام فيفرق بين الإقليم والإقليم ، وبين البلدة والبلدة ، وبين المرء وأخيه ، وما لعلى الآن يد بإدراك العصاة قبل أن يشعلوا نار هذا الخلاف الرهيب ، وليس له سلطان على عقولهم يهديها كما يرجو إلى مسالك السلام . . .

أمعنوا ؟ . . . مضوا إذن لطيتهم ضاربين فى الطريق إلى وجهتهم وعما قليل يشارفون أســوار البصرة ثم يدقونها للدخول أفيستجيب لهم أهلها ويلحقون بركب الفتنة أم يصدونهم عما جاءوا فيه ؟ . . لا معـدى عن التحام الأسلحة فى الحالين ، وعن ضرب الهام وتمزيق الأجسام ، وإذا تـكلم السيف ساعة تحدثت بعده المداوات ، وضربت معاول الفرقة فى بنيان الوحدة الإسلامية ، فلن يستكين لهم عامل على هناك : عثمان بن حنيف ، على الأقل لن يدعهم يبتزون منه سلطان مولاه وهو ساكن ينظر دون أن يهز رمحا أو يحاول رفع حيفهم ولو بإشارة بنان ، وحينئذ لا محيص عن اقتتال الفريقين : أحدهما يضرب ليفوز ، والآخر يدفع ليذود عن كيانه وعن الولاء المفروض عليه حيال صاحب الأمر الشرعى فى البلاد .

وخفض أمير المؤمنين رأســه وهو يطوى على الرثاء جنبيه . . . ما لهذا القدر الذى سبق بالتدبير فأبرم ما شاء ! . . على أنه مع ذلك لم ينفض يديه من رجائه فثمة بقية فيه لعلها تترعرع إن ظل بالنفوس الضالة فضل إدراك . . ومن يدرى ما عسى أن يسفر عنه الغد ؟ . . أما اليوم فواجبه أن يضن على الإعياء بقوى الرجال . لزام عليه التأهب للصراع المنتظر إن طالعته الظروف بالصراع . وهل كان يفوته وجوب الحيطة وأخذ حذره لـكل احتمال ودون بلوغه البصرة مراحل تأكل جهد الجيوش المعبأة للحرب بغير عتاد وغير زاد دع عنك كتيبته الصغيرة هذه التى خرجت وليس فى حسبانها خوض غمرة القتال ؟ . .

على هذا حزم أمره فآثر المكث بالربذة حتى يأتيه المدد من الجند والسلاح والمؤونة ، ثم يزحف بأداة قتال مكتملة التعبئة إلى مواقع عدوه . . ذلك أدنى إلى إرهاب العصاة ، وأدعى أن يفيئوا إلى السلم المنشود أو يقعوا صرعى إن ركبوا طيشهم وقاتلوه . . . وكما ترك لقثم بن عباس أن يشرف على التعبئة بالحجاز فكذلك بعث برسله إلى بقية الأمصار الموالية يستمدها العون ، ويدعو الناس فيها أن ينفروا إليه غير مكرهين . . . كتب لأهل الكوفة يقول :

« أما بعد . . فإنى خرجت من حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما ، وإما باغيا وإما مبغياً عليه . وإنى أذكر الله من بلغه كتابى هذا لما نفر إلى . فإن كنت محسناً أعانني ، وإن كنت مسيئاً استعتبني . . . » .

وإذا عزم على البقاء حط رجاله الرحال . وغار النجم تلك الليلة والربذة تعج بالقلوب التى عمرها الولاء للرجل الذى ائتلف على هضمه الزمن والنفوس . ولكنه كان راسخ الإيمان بحقه ، عظيم الثقة فى أنه يسير على النهج الواضح المستقيم . وهل عمل قط لدنياه أو انقاد لزخارف الأباطيل التى طالما استهوت من الناس أشدهم أخذا بأسلوب التوقى من إغراء الحياة ؟ . . . إن تحت الثرى قلباً يعلم هذا فيه — وعيه عنه منذ أعوام ، ويود لو هتف به الآن على الملأ الحاشد لو كان لجانب قبره لسان ! . . ها هنا ذاك القلب ، فى هذا الركام الذى لعبت به أيدى الريح وسفت عليه رمال الصحراء ! . . . ولو قد تستطيع أعظم الثاوى أن تتجمع ثم تلتئم بشرا قادرا كما كان أبو ذر لهبت من رقدة العدم تنضح عن الإمام وتسير فى ركابه أينما سار . فما علم هذا الصاحب الذاهب امرءاً يستمسك بالحق كمثل على ويحتذيه ، ولا أحداً أكلف منه بالتزام الجادة السواء . . . لا أحد مطلقاً بعد رسول الله سواه ... وليس أصدق صورة لنفس ابن أبى طالب من تلك التى رسمتها كلماته المزجاة للشهيد الراقد بهذه الفلاة يوم شيعه حين أخرجه عثمان . إنها سكة قلب ملهم مستنير فمل بنا إلى قبر الزاهد نسمعها منه أو لعلنا نجد منها على رفاته بقية آثار ! . . .

« يا أبا ذر . . . إنك غضبت لله فارج من غضبت له . إن القـوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً . . . يا أبا ذر ، لو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا . . . يا أبا ذر ، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك ! . »

فهل من كلمة أبلغ دلالة على الأنفس البشرية بلونيها من هذه التى نطق بها الإمام ؟ . . . إنها لترسم لنا صورة من قلبه النقى كيف كلف بالمثل الأعلى حتى رمى دبر ظهره كل فتنة الحياة ، وتصف السادر فى غمرة الدنيا حتى لينسى أن ثمة نهاية لدنياه . ولسوف ينطلق الزمن فى بروجه بالجميع ، وتنطوى صحائف الرجال فلا ينشرها بعد على الأجيال إلا ذكر يرفع صاحبه أو يهوى به إلى قرار . فإذا ذهب العمر وبقى الذكر فستنشر من أمجاد على أسفار وأسفار تجعله فى الموت أقرب إلى حسد عدوه منه فى حياته . ذلك أنه اشترى الحق بهذه الدنيا فراجت سلعته ، ونفقت بضاعته ، وضلوا هم عن سوائه فأقبلوا على تجارة مآلها عند الأحقاب المتعاقبة ثم عند ربهم بعدهم ، خسران وبوار ! . . .

٩

بهت الليل . . . شحب ظلامه كأن يد السحر راحت ترفع أسجافه واحداً بعد واحد عن وجه الكون حتى بقى منها وشاح رقيق شفاف . وأخذت نضرة الضوء تترقرق فى صفحة الأفق ، على طرف الصحراء البعيد ، وتتكسر موجاتها الصغيرة خابية اللون ، خافة إذ تهمس بالبشرى عن النهار الوليد . . . وحين جرى اسم الله على وادى الرمل شاعت فيه صحوة الحياة . فنى أركانه رنت دعوة الفجر ، وانطلق داعى السماء يردد نداءه فى الفضاء الرحيب فتخشع له الكائنات ، حتى الحصا والندى ونسمة الريح ... وما أسرع ما استجاب رجال الإمام النداء ،

كأنه الصوت وهم صداه . خفافا قاموا للصلاة نافضين عنهم مشقة المسير وانتظمتهم فى عقدها الصفوف . وخفافا ألقوا قلوبهم إلى رب الكون ، متجردة إلا من خفقها الرتيب الوئيد . . .

وسرت على خيط الضوء قافلة تسير ، فى خطوها الرفيق وسن وهى تدرج فوق بساط الرمل كأنها تمشى على ماء . . إبلها المكدودة قد أعياها طول السرى حتى أوشكت أخفاقها أن تلتصق بالأرض ، وبدت لبطئها لا تقبل ولا تريم . وركبها لفهم برد النوم ونأى بهم عن دنيا الوعى . ولكن نداء الفجر شق عنهم الغطاء ، فأيقظ هاجعهم ، وأسرى الحية فى أوصال البهم فمضت تستبق إلى ذلك الحشد المتهيء لاستقبال بيت الله ، المتولى صوبه بالأفئدة وبالوجوه . . . عندما كان أصحاب الركب على مبعدة حسبوا الحشد قطعة من الليل لم تمسها يد البكور الوضىء ، ولكنه الآن فى مجال عيونهم رجال . . . أصحاب وغى كما يلوحون ، فهذه أدراعهم حولهم غطت جانباً من المكان إذ خلعوها وهم يهمون للصلاة . وتلك أنعامهم على كثب رابضة فى سكون وتهويم . . . ولو انجاب آخر وشاح من الظلمة لتبينهم الركب ، إلا أن غبشة السحر كانت ترد الأنظار .

مالت القافلة الصغيرة إلى النداء . . . وغمرها مع أضواء الفجر غامر الزحام فاندست فيه . . . تلك الطائفة من أهل الكوفة التى خرجت تروم العمرة قد استقبلت بالطريق أفواجا مناط آمالهم رجال الكوفة ، علقوا بقصبة السواد لأم الصدع الذى يوشك أن يصيب الإسلام . . . فهاهنا الإمام ، وهاهنا صحبه الذين مضوا يتبعونه اتباع الظل ثم تريثوا معه حتى يأتيه المدد الذى بعث يستمده — أفتدع القافلة أمير المؤمنين وتمضى لشأنها صوب مكة ؟ . . . أم تلحق به لكفاح أعدائه الذين ركبوا السرعة فجاوزوا بها يده الممدودة للصلح والسلام ؟ . . . أم الخير يا ترى فى الخروج على سلطانه انحيازا إلى الصاحبين وأم المؤمنين ؟ . . . إن طرفا من أنباء الفتنة التى أشعلها حزب الجمل لاريب قد بلغ الركب على ظهور الرواحل التى كانت تجوب الصحراء ، ونتفا منها قد تجمعت فى أخلادهم مرة من هنا ومرة من هناك . ولكنهم لم يستشعروا حقيقة الخطر الذى توشك

الأمة أن تكون هدفه إلا فى هذه اللحظة ، حين رأوا العزمة التى بدت فى عيون هذا الجيش الصغير . . . سينطلق الرجال إذن ، قدما سينقلون ، إلى مكان سوف يخضبه الدم . وهذا القتال الوشيك يهز كيان الأنفس المخلصة للوطن ويزلزل القلوب . إنه يقدها قداً وإن لم تندلع شرارته بعد ، وإن لم يشهر سلاحه ! . . . فللمشاعر عيون . والأفئدة النقية تستطيع أن ترى الأحداث قبل أن تنجاب عنها الغيوب . . .

وغشت الوجوه وجمة مباغتة ، وخالط لونها الأسمر شحوب الحيرة . . . إن الشفاه لتنضم وتنفرج ثم لا يند عنها كلام ، والعيون تتذبذب قلقة فى محاجرها ، والصدور تضطرب بأنفاسها المحبوسة . وحينما فاءت النفوس إلى أمنها مض الفىء ، تردد الهمس خافتاً بين أصحاب الركب :

« . . . إنا لله وإنا إليه راجعون . »

نعم فهذه كلمة من أعيته الحيلة ، وغلب على باله الاضطراب . . وكم من أناس فى العالم الإسلامى إذ ذاك كان شأنهم كشأن رجال هذه القافلة الحيرى بين مسلك فريق عائشة وفريق الإمام ، يتجاذبهم شعورهم آونة إلى أولئك وأخرى إلى هؤلاء ، وقد غم عليهم الحق فما عرفوا أى جانب يحتويه . وما أكثر من ظلوا حيارى مضيعين فى ميـدان هذا الصراع الأهلى ، لا يقطعون برأى حاسم ، بل يظلون يهمسون لأنفسهم ما همس به لنفسه طارق بن شهاب وقد أوفت به قافلته على أصحاب أمير المؤمنين بالربذة ، تلك الساعة الباكرة من ذلك الصباح :

« . . . آتى عليـا فأقاتل معه الرجلين وأم المؤمنين ؟ أم أخالفه وإن هذا لشديد ؟ . . . » .

ولـكنها حيرة تفسر لنا الأمور أجلى تفسير . فهى مرد توانى الـكثيرين من عامة الناس عن نصرة الإمام ، وعن الخروج فى جيشه الناهض لرد العصاة . وهى كذلك نار صهرت القوم فلم يثبت منهم لشدة حرها إلا الخلصاء الذين آمنوا بحق على أثبت الإيمان . فما لحق به إلا عيوف عن الهوى ، زاهد فى العرض ونشب دنياه . وما انضم لركب أخصامه إلا كل سادر فى غيه ، حريص على إشباع

نوم نفسه من مفاتن الحياة . وهذه الظاهرة النفسية لم تغفل عنها قط نظرة الإمام . فطالما رد الكثيرين عن السير معه . وكم من قبائل أتته تعرض عليه أن تحارب تحت لوائه فأبى عليها أن تنتصر له ، وآثر أن تكف وتقعد عنه . . كان يعلم أن ثمة — سوى الإيمان بقضيته — دوافع من الكسب والغنم فى القتال هى التى استقدمتهم له ، فكان يرفض عونهم ويقول :

« . . الزموا قراركم أيها الناس . فى المهاجرين كفاية ! . . »

وهذه دون شك ، من وجهها الآخر ، خطة رجل يؤثر السلام ، ويكاد أن تسبق رغبته فيه وحرصه عليه ما نعلمه من تكالب بناة الدول على توفير كل أسباب القوة حولهم ليؤيدوا بها ملكهم ويدعموه . . . ولكنه كان صاحب رأى قبل أن يكون صاحب سلطان — صاحب مبدأ سام يعنى بنشره وإقامة دعامته فى نفوس الناس عناية الهداة من أصحاب الرسالات . فما فرح قط بما فى يديه ، ولا استهواه زخرف السطوة الذى أفاءته الخلافة وتقطعت دون بلوغه أعناق سواه . إنما كان خير أمته هو شاغله والغاية التى يسعى لها ، والإمرة وسيلته . وكل دفاعه عن الإمامة كان دفاعا عن الأمة التى علمها لن تنال فى ظل غيره ما تناله فى ظلال سلطانه القويم ... دخل عليه ابن عباس ، ذات يوم قابل وهو بذى قار ، وكان جالسا يخصف نعله ، فما استقر حتى رفع على إليه عينه وقال :

« يا ابن عباس . . ماقيمة هذا النعل ؟ . »

« لا قيمة له يا أمير المؤمنين » .

فتبسم يتم الحديث :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا ! »

على أن هذه السماحة وهذا الزهد لم يقعدا به عن التزام جانبا الحزم حين تأزف الأمور . فليس بخوار . ولا رهبة تسكن قلبه من مخلوق . وعندما وجب عليه أن يختار بين الصبر على المهانة ، التى لحقته كحاكم شرعى لما خلع طلحة وأصحابه عنهم الولاء له ، وبين السير لهم حتى البصرة لردهم ولو دعت الحال بقوة السلاح ... حين بدا ألا معدى عن المفاضلة بين العنف والتخاذل ، لم يتوان لحظة واحدة

فى طروق السبيل الذى يوائم رجولته ، ويودى به إلى قضاء الواجب المفروض عليه حيال سلامة الدولة الإسلامية وحفظ وحدتها غير مصدوعة ...

ووقف عقيب أداء فريضة الفجر يهم أن يخطب الجميع مفضيا لهم بما قد رآه . فإذا ابنه الحسن ينهض له ، ويقبل نحوه على تردد واستحياء وإن حنانه وإشفاقه على أبيه ليغلبانه حتى أصابه الحسر وذاب فى دموعه الكلام . وتلبث على به هنيهة ، وقطع من الحديث ما كان يتدافع على لسانه منذ لحظات . فلما رأى الفتى ممعنا فى بكائه صاح :

« جئت تحن حنين الجارية ! ... » .

فأغضى الحسن حتى فاءت إليه نفسه الحزينة ، ثم أجاب :

« أمرتك فعصيتنى ، فأنت اليوم تقتل بضيعة ، لا ناصر لك ... » .

فكان بهذه الإشارة منبئا عما طوى عليه نفسه من رأى قديم ... إن خواطر هذا الابن الرقيق الفؤاد لاتشغل من بال الإمام أكثر مما يشغل هذا الجمع الصغير من رقعة الصحراء ، وليست عنده بذات خطر لأنها وليدة عاطفة جياشة حساسة تجسم توافه الأوهام ... إنها رؤى أبدعتها عاطفته ولم ينجبها عقله ، وما بالقلوب تساس عظائم الأمور .

ومع ذلك فقد آثر على أن يدع الحسن وما يراه ، وأن يجلى له فى الكشف للناس عن خاطره المكنون حتى يتبين لهم أين الخطأ وأين الصواب ، ثم يدع الحجة وحدها تأتى بفصل الخطاب ...

قال يستحث الفتى أن يفصح عما أراد :

« حدث القوم بما أمرتنى به ... »

« أمرتك يوم أحيط عثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل ولست بها ، وأمرتك يوم قتل الا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب وتأتيك وفود أهل الأمصار وبيعة كل مصر ... وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ماصنعوا أن تلزم دارك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد على يدى غيرك .. فعصيتنى فى ذلك كله ... »

وهذا حديث معاد مردود ! . . وهل كان على يملك أن يدع عثمان محصوراً ثم يكف يده عن الدفاع عنه وتخذيل المتآمرين كلما استطاع ؟ . ألو فعل لأعفاه اعتزاله من عذل أعدائه الذين لم يعوزهم عذله حتى بعد دفعه عن الشيخ المهيض ؟ أم كان ذاك يرفع عنه التهمة أمام التاريخ ؟ . . لقد طالما خرج لماله بينبع حين كانت تعييه الحيل فى إصلاح عثمان والتوفيق بينه وبين الثوار فكان الخليفة إذا تأزمت عليه الأحداث يبعث إليه فيدعوه . فلما جرى القدر بالقضاء فى القتيل فر على من البيعة ، وراح يطاول الناس ويتأبى عليهم لعلهم يختارون للإمرة سواه . ولكن تأبيه لم يغن شيئاً ، ولم ينزع من قلوبهم افتتانهم به فحملوه حملا من داره إلى المسجد فبايعوه . إنه ليرسم صورة حية من حرص الناس عليه يوم البيعة تكاد تنقلنا إلى الجماهير التى أحاطت به حينذاك ، وتحى بنا فى الجو الذى تم فيه السلطان له إذ يقول :

« ... وبسطتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقطت الرداء ، ووطئ الضعيف . وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب ... »

فما بال الحسن يقول ما قال ؟ ... وهل أنسى أن البيعة كانت من حق أهل المدينة وحدهم . وأنهم اختاروا من قبل أبا بكر ، وأقروا عمر ، وأبرموا بيعة عثمان ، فلم تأت بيعة الأمصار لكل هؤلاء إلا بعد أن تربعوا عرش الخلافة ؟ .. أم كان يرى أن يدع أبوه الأمر فوضى فى يد الأقاليم الإسلامية — وليس يخلو واحد منها من طامع فى السيادة — فيتفرق أمر الناس بين طائفة من نهازى الفرص والأدعياء ؟ . . ذلك إذن رأى مردود ! . . وأضعف منه أن يصبر الإمام على عباد المنصب فيدعهم يحتلبون الإمرة الى أولاه الشعب ولا يمد يده لإقرار الأمن والنظام . .

ونهض على فاستقبل الجمع . ونقض آراء ولده بما شاء ، حتى إذا انتهى إلى

ذكر حركة العصيان كان لا بد له أن يختار بين مذلة الجبن والتخاذل وبين العنف والاحتكام إلى السيف فصاح :

« . . . والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ! . . ولكننى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه ، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبدا ، حتى يأتى على يومى . . »

١٠

وصل مدد المدينة ، وأخذت الربذة تموج بالرجال . ولكن الكوفة لم ترسل مددها بعد ... الكوفة التى قدمها على الأمصار وآثر أهلها على غيرهم حتى كتب لهم يقول :

« . . . إنى اخترتكم والنزول بين أظهركم . . . وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا . . . »

أفقعدوا عنه أم أريدوا على القعود ؟ ... لا خبر . لم يأته من محمد بن أبى بكر نبأ عن القوم ، ولا كيف استقبلوا رسالته إليهم ومحمداً سفيره . الظن وحده لا يشفع عنده للقطع برأى وإن كانت بنفسه شكوك من واليه أبى موسى الأشعرى الذى تملكه طبيعة التردد . . .

بوسعه الآن أن يبدأ الزحف ، وئيدا وئيدا ، ثم يصله رجال الكوفة وهو ببعض الطريق . إن الزمن يمر مسرعا كالغيمة وقت العاصفة التى تزأر فى أجوائها هوج الريح . . . وحزب الجمل لا بد قد بلغ البصرة ، وطرق أبوابها أو اغتصبها عنوة . هو لا يخشى أن يفوز طلحة دونه بالخلافة ، أو يفوز الزبير ، ولكنه يود لو استطاع أن يخمد الفتنة قبل أن يملق شررها ببقية البلاد . الصاحبان ليسا عنده بذوى خطر مرهوب لأنه بقدريهما لدى شعبه عليم ، ويكنون نفسيهما على بينة . الأيام كفيلة بهما وبما انتوياه ، تكشفه اليوم أو غداً أو بعد عام . حتى

لو أتيح لهما الظفر لما أمهل القدر لهما فى الفرح به ، لأن التناحر على السيادة سيقطع ما بينهما فى نهاية الأمر ، ويردهما عدوين يتخاصمان . . . وما كان على بالذى تشكل عليه خبيئة الأنفس التي يشى بها الفعل وتنم عن مكنونها مقدمات من الهوى والشهوات . . . وهذا حديثه عنهما يصورهما كحقيقة الحال ، بما فيها من الأضواء والظلال . . . وصفهما مرة فقال :

« . . . كل واحد منهما يرجو الأمر له ، ويعطفه عليه دون صاحبه . . . لا يمتان إلى الله بحبل ، ولا يمدان إليه بسبب . . . كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعما قليل يكشف قناعه ، والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا ، وليأتين هذا على هذا ! . . . » .

وقر رأيه على المسير فنادى مناديه فى الناس ، ورتب للأهبة جيشه الصغير . الراية لابنه محمد بن الحنفية ، وعلى المقدمة أبو ليلى ، وعلى الميمنة ابن عباس ، يقابله على ميسرة القوم عمر بن أبى سلمة الذى خرج يدرأ عن الإمام فى المقام الذى طالما تمنت أمه زوج رسول الله أن تقوم فيه ... وعندما أوشكت القوة أن تبارح الربذة نهض ابن رفاعة يستنبئ السياسة التى انتهى إليها عزم أميره ، فقال يسأله :

« أى شىء تريد ، وإلى أين تسير بنا يا أمير المؤمنين . . . » .

فأجابه دون تردد :

« إن أريد إلا الإصلاح ، إن قبلوا منا ، وأجابونا إليه » .

« فإن لم يجيبونا ؟ . . . » .

« ندعهم بعذرهم ، ونصبر . . . » .

« فإن لم يرضوا ؟ » .

« ندعهم ما تركونا . . . » .

« فإن لم يتركونا ؟ » .

« امتنعنا منهم » .

وكذلك وضح أنه ما زال يستمسك بالسلم ويحرص عليه حتى اللحظة الأخيرة وإن خالفه أعداؤه وأقاموا على العناد . وسيصبر عليهم جهده ، ويركن للحسنى

فلا يبادئهم بعدوان ، بل قد عزم أن يمتنع عنهم ما وسعه الامتناع عسى أن يكون فى هذه المقاومة السلبية ما يفل من حدة افتئاتهم عليه فيرتدوا إلى محجة الصواب . . .

وهتف ابن غزية الأنصارى مثنياً على هذه السماحة التى تعز فى الدعاة دع عنك رجال الحرب والقتال :

« والله لأرضينك بالفعل كما أرضيتنى بالقول ، ولأنصرن الله كما سمانا أنصارا ! . . . » .

وانطلق الجيش ، يؤمه على على ناقة حمراء ، والراجز أمامه يهزج للجنود التى أفعم قلوبها الإيمان :

« سيروا أبابيل وحثوا السيرا إذ عزم السير وقولوا خيرا ... »

إلى ذى قار كان يرنو طرفه فيها يستطيع أن ينتظر مدد الكوفة وهو منها ومن البصرة قريب ، أو ينتظر من ابن أبى بكر أنباء الأشعرى ومدى اهتمامه بالدعوة إلى النهوض بالجند والسلاح . . . مضى برجاله يقطع الصحراء ، فى تريث ومهل ، يكاد يستنبئ الأرض نفسها خفى الأخبار . ولم يكن طريقه موحشاً كله . بين كل مرحلة وأختها كان يطلع له الناس ، من أهل القبائل الضاربة فى البيد ، يعرضون أن يستلحقهم بجيشه ليكون لهم أجر الكفاح من أجل مثله ، وتحت رايته ... ولكنه استمسك بعزمه الأول فردهم . كان يتحرج أن يشرك معه أحداً من الأعراب خشية أن يكونوا ممن أعان على عثمان فيكون فيهم لأعدائه حجة عليه . . . أتته أسد إذ نزل بفيد يعرضون أنفسهم فأباهم ، وأتته بعدهم بكر بن وائل فلم يفوزوا فى كتائبه بمكان . . . وعندما بلغ من طريقه بعض مراحله ، استقبل رجلا من أهل الكوفة فاستنبأه خبر بلدته ، لعل لديه من أمر الأشعرى نبأ قال يسأله :

« من الرجل ؟ . . . » .

« عامر بن مطر » .

« فما وراءك ؟ . . . » .

فأجاب بعد أن تحدث بطرف من أخبار المصر :

« إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فما هو بصاحبه . . . » .

فمنذ أعلم الوالى المتخاذل أن الإمام كان يضمر لأعدائه غير ما كان يتحدث الناس أنه يبديه ؟ . . . أم هى وسيلة الأشعرى إلى القعود وتثبيط همة أهل إقليمه عن النهوض استجابة لأمر الأمير ؟ . . . وكيف أحل لنفسه أن يتصرف فى الأمر من دون ولى أمره فيسمع حين يشاء وبالشرط الذى يرضاه ، ويرفض إذا شاء ؟ . . .

ولكن الأخبار ما برحت تأتيه دراكا كلما اتسع خطوه فى الفلاة واقترب من ذى قار . . . فى فيد علم طرفا من سياسة أبى موسى ينم عن انحيازه إلى التخاذل والتثبيط . وفى الثعلبية بلغه نبأ المهانة التى لحقت بعثمان بن حنيف ، عامله على البصرة ، من رجال عائشة الذين دخلوا البلدة فى ثياب الغزاة ... وفى الأساد عرف بما أصاب حكيم بن جبلة ، وبالمقتلة التى أشاعها حزب الجمل فى جماعة كبيرة ألصقت بها تهمة اغتيال ابن عفان . . . الله وحده يجزى الطغاة الباغين ! . . . وهل يملك على فى هذه الآونة إلا أن يسترجع ويردد أسفه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب . . . » ؟ . . .

ولكنه ظل يطوى نفسه على أساه فما يستطيع أن يرد الأقدار . ومضى بجنده عبر الصحراء . فإن هو إلا قليل حتى بدا له راكب يسرع السير ، على وجهه وعثاء رحلة طويلة ، وتكاد أن تستروح النفس الملهمة من أردانه ريحاً تشى بسر يطويه . . ولم تخب فراسة الإمام ولم يضله حدسه ، فالراكب كان حقاً على بينة من كثير وكثير . .

وهتف على به يدعوه :

« أيها الراكب ! »

فأقبل .

« أين أتيت الظعينة ؟ . . »

فغلبت الدهشة على سيماه . من أين لأمير المؤمنين علم ما كان ؟ . . ولكن الرجل أحس أنه حيال امرئ بصير ، كأن الأنباء تصل إليه على متن الريح ! . .

وحدث بما شهد ، لم يضمر شيئا . . كل تلك الرحلة التي كان هو دليلها منذ بارح ركب أم المؤمنين مكة حدثهم عنها . . وكان حديثه قصة ضمنت الأعاجيب ! . .

ثم أردف من بعد يتم الكلام :

« وهذه معي ناقتها ، بعتهم بها جملي الأحمر يا أمير المؤمنين . . »

« فهل لك دلالة بذي قار ؟ . . » .

« لعلي أدل الناس . . » .

عاني ليال مضين عليه وهو بالطريق منذ غادر المدينة ولم يعد بعد محمد ابن أبي بكر من سفارته لأهل الكوفة . إن آفة الأمر هي هذا الأشعري دون ريب ، الذي أباح نفسه ما لا يجوز من عامل مأمور بالطاعة ، وراح يبث العقبات في سبيل الإمام . ولو أنه استجاب للدعوة فبعث من لدنه يحدون جيش علي الصغير لبلغت كتائبه البصرة قبل أن يستطيع أصحاب عائشة أن ينالوها بشيء ولوسع عليا أن ينفذ خطة الإصلاح التي انتواها ساعة الخروج . . ولكن الوالي العاصي سدر في تردده ، وفي تقاعده ، حتى تجمعت كل أسباب الخلاف وافتتن الناس ولج العصاة في الطغيان بعد أن أغراهم النصر الرخيص الذي نالوه بالبصرة على واليها الذي صبر عليهم وجنح للسلام حتى خدعوه . . آفة الخطة كلها هذا الأشعري المتخاذل ، وإنه عن الأحداث اللاحقة لأول مسئول . . وها هو الإمام وقد نزل بذي قار يأتيه عنه ما يثير غضبه ، ويعلأ بالحزن والأسف قلبه . إن الشيخ المفتون يمعن في عناده إلى غير حدود . . وهل أدل على خطل رأيه وبروز العداء من موقفه من هذه الرسالة الموجزة التي بعث بها هاشم بن عتبة إلى علي وكان قد أرسله للكوفة ليسبر غور ذلك العامل الخارج على طاعة مولاه ؟ . . « . . قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشنآن ! . . »

١١

هذا حديث العرنى ، صاحب عسكر ، الذى تحدث به حين صادف الإمام قبيل ذى قار :

« . . بينا أنا أسير على جمل ، إذ عرض لي راكب فقال :

« يا صاحب الجمل ، أتبيع جملك ؟ »

« نعم »

« بكم ؟ »

« بألف درهم »

« ويحك ! . . . أمجنون أنت ؟ . . جمل يباع بألف ؟ . . . »

« نعم . جملى هـــذا . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته . . »

على أى حال قد أرضوه فى نهاية الأمر ، ومنحوه مالا وناقة فى نظير عسكر الجليل . . وسار أمام رواحلهم يدلهم على الطريق . . كلما نزل بأرض أعلن لهم منزله ، أو مر بماء صاح باسمه مهونا عليهم بقية المراحل . إنه لم يكن رجلا يميل للتنازع الذى غمر القوم ، ولا كان يعنى مثلهم بالنشاط السياسى الذى مارسوه . كل همه أن يقطع الأرض ، ويطوى ذنى الصحراء الوسيمة ، وعد بأنفه المرهف فيعرف الفجاج والدروب كأنه يشم ريح فريسة ! . . فهذه هى حياته ، وذلك عمله منذ عرف الحياة ، وعندما أشرف على تلك البقعة أحس أنه قد وصلها وإن لم ترشده إليها المعالم ، وإن لفها الظلام فى وشاح . كان شعوره هو الذى يهديه ، وكان يسبق نظرات عينيه فيعلن المكان قبل أن يتبين للحظه . . وقبل أن يصل إلى مسامعه رغاء بعير أو ثغاء شاة أو حفيف غصن ينم عن الحياة فى جانب هذا البلقع المديد ، رفع العرنى صوته فأعلن المكان :

« الحوأب ! . . »

ولكن الكلمة تاهت فى دوى النباح الذى أطلقته كلاب الدائرة الساهرة ، فلم يصل جرسها إلى ساكنة الهودج صافيا يحمل لها دلالته . . الحوأب يا ترى قال ؟ . . سمعها ولم يعنها ، ولم يعدها الرجل ثانية . . للحظة قضت عائشة ترهف السمع ، وتكاد أن تمسك الأنفاس . ودت لو أرسلت أذنها عبر هواء الأمسية لتلتقط الكلمة قبل أن تبددها الريح ! ولكن حروفها توارت عنها فى ثنايا النباح . . الكلاب الساهرة تلقفتها قبلها بأفواه منهومة ! وراحت حلوقها تتبارى بهرير وعواء وزئير ! . .

ومدت السيدة أصابعها فى قلق فحسرت بعض الستر الذى كان يغشى الهودج ، وألقت نظرة على ما حولها فإذا ابن طلحة منها قريب . .

« أى ماء هذا يا محمد ؟ . . »

« ماء الحوأب يا أم المؤمنين » .

فكأنما انقضت على فؤادها صخرة . . . وهتفت وهى تلهث حتى لأوشك صوتها أن يبدو قادما من أعماق سحيقة الأغوار :

« ما أرانى إلا راجعة ! . . . »

« راجعة ؟ . . ولم ؟ تقدمى يرحمك الله ! »

فلم تصغ إليه ، إنها لم تعد هى . مضت المرأة الراسخة القلب الثابتة الجنان وجاءت على أثرها أخرى قد ملكها هلع مجنون ! . . كفها التى حسرت بعض الستر انطلقت تضرب عضد عسكر ، راجفة مضطربة ، بغير وعى ولا إرادة ، وصوتها الهامس اللاهث استحال صرخة مدوية شقت هدأة الفلاة :

« إنى لهيه ! . . ردونى ردونى ! . . »

فيم هذه الثورة وهذا الصراخ ؟ . . العرنى لا يدرى شيئاً ، ولم يدرك أن كلمة من بضعة أحرف تحتل موقع مكان لها مثل هذا الأثر المفزع فى نفس أم المؤمنين . لعل الركب كله كان مثله ، ليس على بينة من الدلالة التى عليها دل ماء الحوأب ، فقد تلقفوا الصرخة واجمين ، وراحت الألسنة تتجاوب بالهمس والتساؤل . وقع الاضطراب فى الجيش الذى يجرونه كأنما لقيه عدو عنيد

سؤال ، وتناوبته سيوفه من كل جانب . . وأقبل الناس صوبها فى دهشة غامرة ، فأناخوا مطيهم حيث أناخت بعيرها وما زالت تبكى . . . ودلف بينهم فتى أشم فارع ، صلب العود ، يتوثب فى مسيره كأنه ذئب ، أطلس بلونه ، على وجهه المضيم لمح العزم وإن حدثت به السن ، وفى عينيه ومضات رجولة وإن بدا أمرد ، لا لحية له ولا شعر يحف وجنتيه . فما أسرع ما أفسحوا له حين تبينوا فيه عبد الله ابن الزبير ، ربيب عائشة ، وحفيد الصديق . . .

« يا أمه ؟ . . » .

فصاحت ثانية ولما تبرحها غاشية خوفها الجياح :

« أنا والله صاحبة كلاب الحوأب ! . . ردونى . ردونى ! . . »

وكانت صاحبتها حقا ! . فلو أصغت من قبل لنصح أم سلمة لما رأت نفسها بهذا الموقف العسير ، ولغالبت قدرها وتجنبت هـذا المصير . ولـكنها كلمة حق نطق بها رسول الله ذات يوم وهو يلقى بعينيه فى غمرة الغيب فيرى زوجه بهذا المكان ، ناهضة فى فتنة شاء لو ارتدت عنها . . ذلك يوم منقوش بذهن عائشة ، لم يبدد ذكراه الزمن ، ولم يغشها النسيان . منذ أيام قلائل أعادتها لذهنها ثانية ضرتها أم سلمة وهى تحاول أن تثنيها عن عزمها فى المسير على رأس جيش العصاة . ولـكنها لم تسمع منها ، ركبها عنادها أو اعتدادها حتى أغفلت ذلك الحديث . . أما الآن فهو يدوى فى سمعها دوى الطبول . ويعيدها بخيالها إلى ذات المشهد الذى مرت عليه الأعوام . . إنها لترى نفسها جالسة وأمامها إناء تأخذ من مائه فتغسل رأس زوجها العظيم ، وإلى جوارها أم سلمة تخلط تمراً بلبن وتعد منه طعاما . . فأى خاطر إذ ذاك قفز بذهن رسول الله حتى جاوز السنين وأشرفت عينه على الموقف الذى تقفه عائشة اليوم ؟ . . أومضة إلهام ؟ . . أفرجة فى ستر الغيب انجابت أمام بصيرته المشرقة اللماحة ؟ . . لقد حرر رأسه من كفيها ، وألقى نظرة عجلى تنقلت بين المرأتين وهو يهتف بهما فى صوته الهادئ الرزين قولا تذكر من معناه أنه كان يضم مثل هذه الـكلمات :

« يا ليت شعرى . أيتكن صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . »

فرفعت أم سلمة يدها من الطعام مذعورة ، وسارعت تجيب :

« أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ! »

« كأنى بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب . . . »

وضرب بكفه على ظهر عائشة وهو يتم الحديث :

« إياك أن تكونيها يا حميراء . »

فكانتها ! . . كانتها ولم ينفعها التحذير . . . لودت لو أصغت لنصح أم سلمة فقد وضح كيف أخلصت لها النصح منذ أيام . أكتب عليها أن تكون حقاً صاحبة ذلك القدر المقدور ؟ . . أما يسعها أن تهرب منه ؟ . . لترجعن ! ولتهربن إذن فرار الريم . . .

أفتستطيع ؟ . . لولا ابن اختها لفعلت ، ولارتدت على عقبيها إلى مكة مخلفة ركب الفتنة عن فيه . . ولكن عبد الله كان يدرك الخطر الذى سينجم من فرار عائشة — الخطر على الدعوة الباغية وعلى حزب أبيه ! . . لقد كانت أم المؤمنين لواء جيشهم ، من أجلها تبعهم الناس ، وبها اقتدت العامة المفتونون بالأسماء البراقة . ولو خلى بينها وبين العودة .فأحر بأكثر جندهم أن ينفضوا عنهم ، فتفشل خطتهم ، وتذهب ريحهم ، وتتقوض أركان مطامعهم التى وضعوا أسسها على مناهضة سلطة الإمام .

فليتخذ الفتى إذن قربانا يضحى به على هيكل غرضه ، وليكن قربانه العرنى المسكين . . . ما كان أهون أن ينسب الغفلة إلى الدليل . ويلصق به خطأ هو منه براء عسى أن يبقى على أم المؤمنين بين الصفوف . . فى لحظات قلائل وسعه أن يدبر ، وأن يحكم تدبيره ، وأن ينزع بذرة الخوف من قلب خالته الجزعة . . فلقد أقسم لها وأتاها بشهود من الأعراب أقسموا أمامها أنها واهمة ، وأن الماء ليس بالحوأب الذى كانت تخشاه ، فكانت أول شهادة زور سجلت فى الإسلام ! . .

ولكن عائشة ظلت حيرى بين الشك واليقين . لم يقنعها تماماً قسم عبد الله ، ولا شهادة أعرابه الذين وضع فى أفواههم حيلته الكذابة . وأوشك التردد الذى ملك السيدة أن يفسد على الفتى تدبيره ، ويردها ثانية ميالة إلى الرجوع حرصاً منها على التزام الصراط ، واستجابة لحديث زوجها وتحذيره . . فإن هى إلا لحظات أخرى حتى فتح جعبته على حيلة جديدة ، نجحت حيث أخفقت سابقتها وكانت أجدى عليه .

رد طرفه عن الأفق المترامى ، ثم أقبل وهو يصيح بصوت مدوى الرنين :

« النجاء النجاء ! . . لقد أدرككم والله على بن أبى طالب . . . »

فركبت الناس فزعة جعلتهم يستبقون إلى مطيهم ، يضربون آباطها للفرار . . وكانت عائشة أول الناجين ! . . حملها عسكر ، ومضى بها فى هودجها على رأس الركب .

أما العرنى فقد خلفوه ولم يكد ينجو من سبابهم المقذع ، لأنه تكلم بما عرف وهو لا يعرف أنهم كانوا يؤثرون له السكوت ! . . ومضى الرجل حائراً ، وحيداً فى البيد ، حتى لقيه الإمام ، فروى له حديثه العجيب .

وسار الركب . وجلست أم المؤمنين فى ملاذها تستعيد الأحداث ! . . لنوشك أن نراها فريسة للظنون ، يراودها الشك فيما أكده لها عبد الله . يا ترى أصدقها القول ؟ . . محمد بن طلحة ليس عندها بمتهم ، وقد قرر أنه ذلك الماء . والدليل نفسه كذلك . وقلبها أيضا ! . . . قلبها ما زال يأكله الريب . كلما اهتز بها الهودج نفث ذهنها من ذكرياته شيئا يزيد فى بناء قلقها لبنة . إنها تكاد توقن الآن أن عدوها هى غيرتها ، فلولاها لأبصرت طريقها لايغشيه ضباب الأغراض ، ولتبينت الحقيقة ، ولرأت الحق فى جانب الإمام ثم لم تتحيف عليه إن لم تعنه وتدعو له . ولكنها نظرة المرأة . . طبيعتها الغلابة هى التى أوقفتها هذا الموقف العسير . وكم من قبل أوقفت بها على مثله لم تصغ لصوت العقل . . حتى وزوجها بهذه الحياة كانت عاطفتها تركب بها الشطط ، أم إفراطها فى حب ذلك الزوج هو الذى

جنبها الحكمة ؟ . . . بل هو هذا الحب الذى جرفها تياره فلم تملك معه لقلبها قياداً ولا لعقلها عقالا يمسكه أن ينحرف إلى المغالاة . . إنها لتذكر يوماً حدث هذا فيه ، ولم يحد من غلوائها ولا اندفاعها عنها فى العاطفة أن كان رسول الله منها قريباً يشهد ما تورطت فيه . أم سلمة أيضا شهدته ، وذكرتها بخبره قبيل سير مواكب الفتنة ، فلم يغن عنها التذكير . . أما الآن وقد خلت بنفسها بخيالها يهيم فى الماضى حتى يلم بالحادث الذى أورثها حياء يضرج لونها لهذه الساعة . . كان رسول الله قد هبط إذ ذاك من قديد ذات الشمال، ومعه بعض نسائه ، فيهن عائشة وفيهن أم سلمة ، فخلا بعلى ناحية يناجيه . وأسرف — فيما بدا لابنة أبى بكر — فى الحديث والمناجاة . ولعبت بقلبها الغيرة فكبحتها ... ، ثم جدت ، ثم زأرت ، ثم عصفت حتى غلبتها على نهاها وحكمتها . . وتوسمت أم سلمة فى صاحبتها أمرا تهم أن تبرمه فردتها عنه . ولكن عائشة لم تصبر ، ولم تسمع للصاحبة الناصحة الأريبة . بل انطلقت غضبى إلى الرجلين لتنفث ما اعتمل بصدرها من غل الغيرة . .

هجمت على على وصاحت به وهى لا تدرى أى خطل تأتيه :

« . . . ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ، أفما تدعنى يا ابن أبى طالب ويومى ! . . . »

فلم يفه بكلمة . بل أغضى عنها فى هدوء وحلم . . .

ولكن محمداً لم يصبر ، حلمه الوسيع ضاق هذه اللحظة عن غيرة زوجه ، فإذا وجهه يندفع إليه الدم ، وإذا بصره يشتعل بالغضب ، فينهرها بحدة غير مألوفة منه :

« ارجعى وراءك ! . . . »

فوقفت باهتة حيرى . . الآن فقط عرفت أنها ركبت الشطط . .

وأتم رسول الله حديثه وهو ما زال غضبان :

« . . . والله لا يبغضه أحد من أهل بيتى ، ولا من غيرهم إلا وهو خارج عن الإيمان ! . . . »

فاساقط الندم فى قلبها كمثل الدمع الذى ابتدرت عيناها به ، وجرت قدميها ، وعادت على خزى .

أفكانت هى تبغض عليا كما تعنى كلمة البغض ؟ . . . كلا ، قطعا ! . . وإن هى إلا نزوة نفسية ، أيا ما كانت وكان باعثها ، فقد كانت توقفها منه دائما موقف المنافر . وحتى حين جاءها بمكة نبأ إمرأته وأبت عليه أن يؤول إليه سلطان الإسلام . لم تكن تبغضه . هى لا تستطيع سبيلا إلى بغضه وتحرص أبداً أن تنأى بنفسها عن هذه الخطيئة . فما نسيت أنه كان أدنى قومه إلى قلب محمد ، وآثرهم وأحبهم إليه . وهو لليوم أنقاهم معدنا وأطهرهم طبيعة . . . إنها تعلم هذا ولا يخالجها فيه شك ولكنها مغلوبة على علمها بذلك الشعور المنافر . وهل غاب عنها كيف أوشك زوجها ذات يوم أن يوصى له بالأمر بعده وصاة سافرة لا تحتمل التأويل لولا خشيته أن يتفرق عنه الناس لهذا السبب أو لذاك ؟ . . لم تنس . لا يسعها إلا أن تذكر . كرة أخرى يرن فى سمعها حديث أم سلمة كأن السيدة معها الآن بالهودج تحدثها به . فالحادث وقع فى سفر أيضاً . كسفرها هذا ، وإن طوح به الزمن فى غور الغابر . . . وشهدته معها أم سلمة كالآخر . كانتا ذلك اليوم ورسول الله فى خلوة عندما طرق أبو بكر وعمر الباب ، فقامت السيدتان إلى الحجاب . . .

وأقبل الشيخان وقد أذن لهما فسلما على محمد ، حتى إذا استقر بهما المجلس راحا يحدثانه فيما جاءا فيه . . . قالا له :

« يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر ما تصحبنا . . . فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا . . . » .

فرمى ببصره إلى بعيد ، كأنما ينظر إلى ناحية ليس تصل إليها عينا سواه ، ثم قال بهدوء :

« أما إنى قد أرى مكانه ! . . » .

وعندما توقعا أن يدلها عنه ، باغتهما بهزة من رأسه وقال فيما يشبه صوت الآسف الحزين :

« . . . لو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنـو إسرائيل عن هارون ابن عمران ! . . » .

فغضا الطرف . وخرجا بعد قليل من لدنه لا يلويان . . .

أى الناس يا ترى كان رسول الله يعنيه ؟ . . السيدتان خلف الحجاب يأ كلهما الفضول . لو انساقتا مع الترجيح لوصلتا معا بذهنيهما إلى رجل واحد . . فرد من الصحابة المجتبين يكاد أن يوفى إليه هذا الحديث . إن ثمة دلالة أخرى تشير إليه . . حلقة ها هنا تربط بين حديثه هذا وبين آخر سلف به لسان محمد ذات يوم إلى التصريح ووجه خطابه فيه إذ ذاك إلى ابن عمه فقال :

« . . . أنت منى بمنزلة هارون من موسى . . . » .

ذات الـكلمات ، وذات التشبيه ! . . . أعليا كان يعنى وقد قال فيه من قبل نفس ما أعاد ؟ . . لا تعلمان . لا تحبان أن تركنا فى مثل هذه الأمور إلى اتباع الظن الذى قد يخطئ كما يصيب . وإن نهم المرأة إلى الثرثرة ثم إلى إشباع الفضول الغلاب ليدفعهما معا إلى الاستقصاء . ما عليهما من حرج لو فعلتا الآن . وها هى عائشة تهيج بها قبل صاحبتها الرغبة إلى المعرفة واستـكناه المجهول ، فتبارح الستر ، وتندفع متسائلة إلى زوجها الـكريم :

« يا رسول الله . . . من كنت مستخلفا عليهم ؟ . . . » .

« خاصف النعل ! . » .

ولم يزد . وتركها لنفسها تحدس كما تشاء . . .

ولـكن الظن لم يطل بها مداه . فى لحظات قصار أصبح يقينا لا يغشيه من الشك نقاب . عرفت هذا فى وجه محمد ، ومن لسانه أيضاً بعد قليل ، وقد خرجوا جميعاً يبارحون المـكان . . . فعلى مقربة ، وفى ظل سمرة رأت بعينها خاصف النعل المنشود يرتق نعلا لزوجها بين يديه . وعندما ألقت على وجهه نظرة مستطلعة عرفته أى الرجال كان . . . لقد صدق الحدس ، وثبتت الدلالة ، ووضح لديها أن الحلقة بين الحديثين قائمة بلا انفصام .

وهتفت وصوتها هذه المرة به من العجب أكثر مما فيه من الفضول :

« . . . ما أرى إلا عليا يا رسول الله ! » .

« هو ذاك ! . . . » .

ثم ها هى الآن ! . . . فى هذا الهودج على ظهر عسكر ، وبين هذا الحشد المحشود من الجند الشاكى السلاح ، وعلى هذا الطريق المؤدى إلى أسوار البصرة قد خرجت لغاية لا تعلم أى مصير سوف تجره على أمنها ، وعلى الرجل الذى اجتمعت عليه كلمة الشعب قبل كل الرجال . . . وأى خروج ؟ وأى رجل ؟ . . إنه نظير هارون الذى تفرقت عنه بنو إسرائيل !

فرسان حكيم

١

ألقت نظرة من خلل الستر إلى الوراء ، فإذا الصحراء مديدة ، فارغة ، تغرق فى فضائها الرحيب العين . لا أثر ثمة لجيش على ، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار . ولا ما ينبئ عن اقترابه . كانت إذن صرخة ابن الزبير حيلة لحملها على المسير . . .

ثم ردت الطرف فطالعت وجهة الركب . بدت الحفير لها على قيد عين . أما البصرة فإن هى إلا مسيرة يوم وبعضه ثم تشارفها . . . وأهلها آمنة لا يدرون على أى حال سوف يصبحهم أو يمسيهم هذا الجيش الزاحف من البلدة الحرام . . . لو ترك الأمر للسيدة لتنادت تطلب من رجالها أن يلووا أعنة المطايا عائدين . ولكن أتستطيع ؟ . . أيسمعون ؟ . . إن كل نقلة خف تدنى جملها من الهدف تحس هى كأنها على فؤادها المثقل . ليست تدرى كيف تبدل شعورها هكذا من النقيض للنقيض . وليست تدرك لم الإقدام ، والإحجام كان أولى وأمثل . الدلالات على خطئها قائمة لها أعلام ، والطريق إلى الحق معلم مرسوم ، يتجه إلى وراء لا إلى أمام ، ومع ذلك فهى تنطلق قدما على كره كأنما شدوها إلى الركب الزاحف ؟ . . . كلما عاودتها الذكرى ورن فى سمعها هاتف الرجوع دوت أصوات سواه فأغرقته فى ضوضائها الرفيعة وراحت تزين لها دعوة الإصلاح . كلاب الحوأب ذاتها عفى على نباحها الدوى الرفيع ! . . وخاصف النعل ذابت صورته فى ضباب الأبنية التى تراقصت أمامها الآن كالأشباح ! . . . فى غمرة قلقها تشبثت بظنها فى أن تكون ذات بركة على الناس . تؤلف بينهم ، وتردهم كرة أخرى إخوانا على صفاء . أما كيف سيكون هذا التوفيق ، وأنى لأداة حربها هذه أن تكون أداة سلام ، فهذا ما لم تكن تدريه ! حسبها أن تضمر نية نقية ثم تفيد من مر الأحداث !

على أن ثمة أمراً آخر كان يدفعها إلى المسير . ليس هو بالحقد على أمير المؤمنين ، ولا بالرغبة فى استنزاف ملكة من يديه . بل تلك الهامة التى تبدو فى الخيال قائمة بناحية من حش كوكب ، على قبر تائه فى اللحود احتوى جثمان الخليفة القتيل . . . لتكاد المشاعر أن تعود إلى خرافة الجاهلية فتسمع روح عثمان على طرف قبره تصيح : « اسقونى » وهى ظمأى إلى الدماء ؟ . الكلف بالثأر كان هو الذى يقود خطا أم المؤمنين . إنها تنهض للقصاص . . . موتورة تسعى إلى رى الهامة الظمآنة ! . فذلك وحده عذرها فى المسير .

كانت تعلم أن القتلة قد خلفتهم خلفها بمكان غير هذا المكان . وفى الحاضرة خلفتهم ، يملكونها بقوائم الزودة بالحديد والسلاح . وكأن أولى بها أن تضم قواها الجيشة هذه إلى صاحب الأمر الشرعى فتكون عوناً له على الخصوم . ولكنها مضت وانتهى الأمر ، قطعت الشوط كله فليس ثمة مجال إلى النكوص . على أى حال ها هنا جانب من أهل الفتنة يجدر أن ترتوى الظبا منهم فجيئها إذن لا ينقصه التبرير ! . . . ولو وسعها لثأرت ثم رجعت خفيفة الضمير ، لا يعلق بها ندم على ما سلف منها فى حق الشيخ الذى ألبت عليه إنكار الناس فى كل الأقاليم وكان قذفها فيه أول سلاح ماض أشهر عليه . . . ستأخذ له اليوم بقدر ما أخذت منه ثم تستريح ! . . .

ذلك كان ظنها أو ما عقدت النية عليه . ولكن النوايا مرايا لا تطابق دائماً بين الأصل والخيال . لطالما خالف الفعل النية وقضت الأحداث بغير ما تضمر الطوية عائشة الآن توشك أن تضلها المرآة فلا تعكس من فعالها ما لعلها حسبته نتيجة محتومة لنيتها الخالصة . ستبدى لها بعد قليل صورة قبيحة شوهاء حتى لتنكرها أشد الإنكار ثم تندم أشد الندم ما عاشت فى هذه الحياة . ولكن أنى لها أن تقتحم الغيب وتتبين سره حتى تجتنبه قبل أن تجرى به المقادير ؟ ...

لا حيلة لها فيما لا حيلة فيه ! ... أما اليوم فصرخة الهامة يملأت عليها الآفاق ، وأبنية البصرة قربت ما بينها وبين القصاص . . . أتقتحم البلدة ؟ . . . أتسير إلى ثأرها على طريق تمهده الأشلاء ؟ . . كيف لها برضاء ابن حنيف

عما جاءت فيه لتجتنب مقتلة قد يصلاها كثير من الأبرياء ممن لا يد لهم فى مصرع عثمان ؟ . . .

هذا عمير التيمى قد أقبل عليها بالجواب المطلوب . فما أسرع أن رأت نفسها قد بارحتها الحيرة حين سمعته يقول :

« يا أم المؤمنين . . . أنشدك بالله أن تقدمى اليوم على قوم لم تراسلى منهم أحدا فيكفيكهم . . » .

فهتفت مبسوطة الأسارير :

« إنك لامرؤ صالح ! . . . جئتنى بالرأى . . . »

« فعجلى ابن عامر فليدخل ، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمى فيسمعوا ما جئتم فيه . . . » .

فعلت . لولا ما هى فيه من ضيق ما ألقت بدعوتها بين يدى هـذا الذى تعلم أنه طريد أهل البصرة منـــذ وقت قصير . ولـكنه على أى حال أداة . بل الأداة الوحيدة التى تملكها اليوم ولا بد لها من الضرب بها عسى أن تجىء بعض المأمول ، فلن يعدم الرجل أن يكون له بين جدران البلدة أنصار وإن كانوا من بطانة التفت به أيام إمرته لتصيد الآراب . . . ظهوره لا ريب سيحيى الأمل فى نفوس أعوانه القدامى ويدفعهم إلى العمل بجانبه ومن أجل حزبه لعل عهد مجدهم يعود ! . . .

وقد نجحت هذه الفكرة بعض النجاح ، بل كان لها أثر فى تحويل جانب من الرأى العام بالبصرة لناحية عائشة ، وجانب آخر أشاعت فى نفوس أصحابه التردد فما يعلمون بأى فريق من الفريقين يلحقون ، وبقيت طائفة على ولائها للإمام لا تحيد . ولم يخف هذا عن الوالى وإن ظلت بنفسه بقية من شك لا يملك معها القطع برأى فى مدى تبلبل الأفكار ، فلما أراد أن يسبر غور النفوس ، دس بالمسجد رجلا قام يتحدث فى الملأ الحاشد ويقول :

« . . . أيها الناس . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير . . وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . . . أطيعونى فيهم فردوهم . . . » .

فما بلغ من كلامه هذا الموضع حتى صاح به آخر معارضا فى استنكار :

أو زعموا أنا قتلة عثمان ! . . إنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلته ، منا ومن غيرنا . وإن كان القوم أخرجوا من ديارهم ، فمن يعنهم ؟ . . الرجال أم البلدان ؟ . » .

عندئذ أيقن ابن حنيف أن للزاحفين ناصراً بدار إمرته . . . نوعا من جيش سرى يتأهب دونهم فى الخفاء . . .

بعثت عائشة إذن بابن عامر إلى البصرة ليتألف صنائعه ويتخذ منهم دعاة يضمنون لحزبها بعض التأييد . وبعثت أيضا بكتب منها إلى وجوه البصرة تناشدهم أن يلتفوا حولها وينصروها . . . بذرت بذرها ثم قرت فى انتظار ساعة الحصاد ! . . .

أما الوالى فقد اضطرب عليه حزمه ، والتوت مسالك البت فى الأمور . الظواهر كلها تفزعه ، وتشير إلى فتنة هوجاء تسندها الأسنة ويسعى إليها القوم ، وإلى عصيان سافر بغير نقاب ينتقص أولا من هيبة مولاه ثم لا يلبث أن تصير له عقبى واحدة جد معلومة هى هدم السلطان القائم على الشعب وبالشعب ولكنه مع ذلك كان يشفق من إطلاق يده فى التصرف حسبما توحى إليه هذه الظواهر . فما يعلم لو ضرب ضربته ودفع بقواه المسلحة لرد العصاة إن كان سوف يرضى الإمام . وما يعلم أيضا لو صبر عليهم وكف عنهم سلاحه أنهم لا يثبون عليه ولا يعاجلونه بالعدوان قبل أن يصله من على أمره الذى يحتذيه . وبين هذين الرأيين تأرجح فكره وحارت نظرته . ولكنه لم يستطع أن يسكن إلى التردد ، بل رأى لزاما عليه أن يستطلع غاية أصحاب عائشة من هذا المسير الذى يوشك أن يحدث فى الإسلام حدثا خطير العقبة . فلما انتهى به هداه إلى هذا الحد سارع فأرسل رسولين من لدنه تخير أن يمثلا الوعى الأهلى أقرب تمثيل : عمران بن حصين ، رجل عامة ، له عاطفتها ، وفيه خفة الفكر التى تستهويها الأعراض قبل الجواهر ، وأبا الأسود الدؤلى ، رجل خاصة ، له عمق

التفكير وعناية بالغوص إلى العوامل الخفية حتى ليحسن استخلاص الرأى من بين غمرة العواطف ، ولا يفوته أن يحكم التدبر قبل اعتناق فكرة من الأفكار وقبل تمحيصها أشد التمحيص . . .

وبلغ الرجلان الحفير فقصدا إلى عائشة ، فلما أذنت لهما تحدثا إليها فى هدوء:

« . . . يا أم المؤمنين ، إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ . . . » .

فأجابتهما :

« والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . . . » .

ثم راحت تسرد عليهما رأيها الجديد فى نقاوة صحيفة عثمان وما كان من قاتليه من استحلال دمه بغير عذر عليه ! . . . نعم رأيها الجديد الذى لم يجل بخلدها إلا بعد ولاية الإمام ! . . . فلما أطنبت فى حديثها بما شاءت انثنت تدعو بدعوة الثأر فى لباس من رقيق الألفاظ :

« . . . إنما خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا . . . لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . . . . . . » .

« فهل معك عهد من رسول الله فى هذا المسير ؟ . . »

فردت وهى تكتم ما هم أن يشتمل بنفسها من الحنق :

« غضبنا لكم من السوط والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل ؟ . . . » .

إن ريحا من الأمانة يهب لا ريب من كلام السيدة حتى ليقرها السامع على ما جاء فيه ، فالقصاص كان غايتها وما لها من غاية سواه ، ولكن أعلى هذا يا ترى كان صاحباها ؟ . . .

ويمم الرسولان شطر العسكر ليلما رأى الرئيسين المسيطرين على مصائر هذا الجيش ونادیا ، فلما أن برز لهما طلحة سألاه :

« ما أقدمك علينا ؟ . . . » .

« الطلب بدم عثمان » .

فانبرى له أبو الأسود يقول :

« يا أبا محمد ، قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلى إذ بويع ... ثم بدا لكم فأردتم خلع على ، ونحن على الأمر الأول . فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ! ... »

وقال عمران :

« يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ، ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ! . . ثم بايعتم عليا وبايعنا من بايعتم ... فإن كان قتل عثمان صوابا فسيركم لماذا ؟ . . وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر ! ... »

هنا استطاع طلحة أن يقول :

« يا هذان ! . . إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ! ... » .

فنهضا عنه . وضحت لهما طويته حتى قال أبو الأسود لصاحبه وهما فى الطريق :

« أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك يا عمران ! ... » .

وأتيا الزبير .. فإذا هو أكثر صراحة ، وإذا نفسه الشفافة لا تخفى عنهما شيئاً مما يطويه ، وإذا قلبه يسبق لسانه بالحديث وهو يقول :

« . . . إن طلحة وإياى كروح فى جسدين . وقد كانت منا فى عثمان فلتات احتججنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ... » .

وكانت لهما حجة أخرى إلى جوار ما أخبرا به الرسولين ، قوامها أنهما بايعا الإمام وعنقاهما تحت شفرة السيف ! . . الله وحده يعلم إن كان هذا قد حدث ، ومتى ، وهل ليد على فيه تدبير ! . . ولكنها حجة على أى حال ساقاها تخلصا من عار النكث الذى وقعا فيه ، ما أهون شأنها ، وما أوهى بناءها كأنها نسيج عنكبوت ! . . فلقد غاب عن البيعة كثير ، وأباها كثير فلم يسر إليهم على قط ، ولم يفرضها على أحـــدهم كرها ، بل خلى بينهم وما اختاروه . . وهل موقف ابن عمر وموقف ابن أبى وقاص وموقف أسامة بن زيد غفلت عنها الأذهان ؟ . .

ولكنها كما أسلفنا حجة على أى حال ، وتبرير لنقض البيعة هو اعتذار عن الذنب بالذنب المعن فى الخطيئة وفى البطلان . . عذر يخفى وراءه تبييت القوم لم يخف عن ذهن الدؤلى . فحين مضى إلى أميره لم يزد فى رواية خبرهم ورأيه على أن قال :

« يا بن حنيف قد أتيت فانفرْ وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمر ! . . »

تلك كانت نصيحته وما هداه إليه إدراكه حقائق الأمور المستورة . دواء الداء عنده قبل استفحاله هو الكى ، ولا إمهال قبل هذا ولا تردد . وبنفس هذا الرأى طالع عائشة أثناء عودته من مجادلة صاحبها ، لم يخف عنها ولم يداور. سألته إذ ذاك مستطلعة :

« بلغنى أن ابن حنيف يريد قتالى . . . »

فسارع يجابهها بما يراه ، وبما ظن أن الوالى لا ريب سيأخذ به :

« نعم والله ! . قتالا أهونه تندر منه الرءوس ! . . . »

ولكن ابن حنيف كان لا يزال فى غمرة من الحيرة ، فما سمع دعوة صاحبه له إلى امتشاق الحسام حتى هز رأسه كالأسيف المضيع وهتف :

« إنا لله وإنا إليه راجعون : دارت رحى الإسلام ورب الكعبة . . »

وقال عمران :

« . . . والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لايساوى ما بقى منكم كثير شىء »

« فأشر على . . »

هنا جاء الرجل بالرأى الذى تمليه العاطفة المندفعة ولا تمليه الحكمة والسياسة التى تحسب قبل كل شىء حساب العواقب والمغبات ... قال كاشفا عن فكره :

« إنى قاعد فاقعد ! »

« أقعد ؟ . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين . . »

« بل يحكم الله ما يريد ! . . »

وخرج فلحق بداره وقد أشفق أن يشهر السيف فى وجوه إخوان له فى الإسلام، ولو تبصر لعلمها حربا واجبة..حربا مقدسة تمسك على الإسلام وحدته وترد عوادى

الشقاق عنه . ومن يدرى إن كان قد عولج الأمر بالحزم قبل استفحاله أكان لا يجنب البلاد ويلات الحروب والخلافات اللاحقة الناجمة عن فتنة عائشة وطلحة والزبير . ولكن هكذا كانت نظرته وليس على العواطف رقيب حساب ! ...

وجمع عثمان بن حنيف صحبه من ذوى الرأى يشاورهم فى الأمر . وقام فخطبهم مبينا لهم ما يراه :

« يأيها الناس ... إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . . والله لو علم على أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، فلقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ! . وطلبا ثواب الله من العباد ... » .

كان مؤمناً بعدوانهما على حق مولاه وبحسدهما إياه ، يعلم أن نكثهما البيعة له ما وراءه من الأهواء والمطامع الذاتية وإن ألبسوه ثوباً من التمويه . ولكنه مع ذلك لم يرد أن يركب العنف ، ولعله فى هذا كان مشفقا من الشقاق الذى لاح أنه يوشك أن يعم أهل إقليمه ويقسمهم فريقين بين الحزبين . . . فلقد شهد كيف كان موقف عمران يعارض موقف الدؤلى ، وإنهما لمثلان لبقية الناس ... بل قد كاد يركن قليلا إلى التزام واجبه فى إطفاء الفتنة بقوة السلاح ، حتى قال له هشام بن عامر :

« يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره . . . إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمر على ، ولا تحادهم » .

وتفكر ملياً ودفعت الحمية حكيم بن جبلة نهتف به :

« إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناهما ... ووالله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى ! أيها الأمير ، هذه دعوة قتيلها شهيد وحيها فائز ، فهلم ! وهذه ريبة معك ! . . . » .

ولكنه آثر الأولى وجنح للسلام . . .

٢

تحركت قوات عائشة ، وزايلت مواقفها بالحفير . لعل صبر ابن حنيف قد أطمعهم فيه . أولعلهم رأوا أن المربد خيرمكاناً من موقفهم الأول فسعوا إليه . وربما لم يكونوا قد أزمعوا بعد أخذ أخصامهم بحد السيوف وإنما ساروا ليخبروا عزم القوم . . إن فى بالهم أن طائفة من البصريين جمة العديد سوف تنصرهم وإن كان الوالى قد أخذ الحيطة وتواقف جنده مدججين . . .

وتوافد عليهم أهل البلدة ، فيهم المبغض الزارى وفيهم الولى الحميم . ولم ينم عنهم عثمان بن حنيف ، بل خرج فى رجاله حتى غص المكان بأولئك وهؤلاء . أفكان أصحاب الجمل قد جاءتهم الأخبار من عيونهم بأن صنائع ابن عامر فعلوا فعلتهم وأغروا النفوس حتى خلعت أو كادت تخلع طاعة الإمام ؟ . أوشك هذا أن يكون ما عمر أخلادهم وبات إلى حسبانهم أقرب من جند عتاة يلكون عليهم المسالك ويدفعونهم دفعا عن استهواء الناس وتجييشهم فى صف الفتنة . . وكان حدسهم صوابا أو قريبا من الصواب إذ بدت الطريق أمامهم مكشوفة لا يعترضها حماة . وحتى حين التقوا فى نواحيها ببعض قوات الوالى لم تلقهم مقاومة ، بل أوسعت لهم دون قتال . .

على اللاينة عقد ابن حنيف العزم ، فالسلم رام . كان رأيه بعد أن شاور صحبه أن يكف عن هذه الجيوش النازحة إليه من الجنوب ما كفت عنه ، حتى يأتيه من أمير المؤمنين أمر . كبح عنها سلاحه ، ورد جماح الكثيرين من رجاله الذين كانوا يرون الخير فى المبادرة إلى قط الهام ! . . وبالمربد اجتمع الفريقان ، كل إلى ناحية منه : جيوش عائشة فى الميمنة ، وبالميسرة الوالى وأهل الإقليم . لاموقف سلام كان أدنى للحرب من مقامهم ذاك ، ولا أسنة كأسنتهم أقرب إلى صدور مشرعيها . . لو طارت شررة واحدة فى الجو حينئذ لكانت كفيله بأن ترتد حريقا يؤجج سعر النار ، فالنفوس فى أعماقها ثورة كالبركان قبل أن يدفع حممه ، والحواس متحفزة ، والأعصاب توترت كمثل القوس عند إعدادها للتصويب .

وكان طلحة هو الذى أثار الشررة انه . حينما مد بصره بين الجموع المزدخرة لم ير ثمة ميدانا خيراً من هـــذا يخرج منه ملىء الـكفين بالأسلاب ! . . غايته وطائفته من هذه الرحلة كسب الأنصار والأولياء ، وما أقربهم الآن إليه . فقريباً كان للبصرة هوى فيه ، قريبا قبل ما دون العام ، من شهور ، خلال الأحداث التى جرت بمصرع عثمان . فيها له حزب قوى لاريب يسارع إلى نصرته إذا أشار . وفيها أيضاً صنائع ابن عامر ومن عسى أن يكونوا قد اجتذبوا لناحيتهم من أناس استهوتهم الدعوة أو غرتهم الأمانى المبذولة بغير حساب . أما بقية الأهلين ففرقتان واحدة لن ينزع نازع من قلوبها الولاء للإمام ، وثانية حرية بأن تميل مع الهوى ومع الإغراء كل مميل ، وما الأولى عليه بذات خطر بعد أن علم أن ابن حنيف يحد من غلوائها ويكبح حميتها ليبقى على السلام .

فى هذه الحشود الزاخرة وقف طلحة بجانب المربد الأعن يزجى الـكلام رقيقا معسولا يدغدغ به عواطف الناس . فـكأنه نسى ما سلف من عيبه على عثمان وشدته فى التأليب عليه ولم يذكر سوى أنه كان بارا ، فاضـلا ، مظلوما جوزى من مناجزيه أسوأ الجزاء . . أيطل دمه يا ترى ويضيع ؟ . بل القصاص أولى وأقوم وأدعى إلى احترام أوامر الله واجتناب نواهيه :

« . . . أما الطلب بدم الخليفة المظلوم فحد من حدود الله ، فيه إعزاز دين الله وسلطانه وإنـكم أيها الناس إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليـكم ، وإن تركتم لم يكن لـكم سلطان ولم يقم نظام . . . » .

وتـكلم بعده الزبير بمثل كلامه والجموع حولهما تتهاتف وتصيح بين المعارضة والتأييد . ليوشك الأمر أن يصل حد الاقتتال ، فإذا قامت عائشة تتحدث بين الناس فأحر بها أن تـكسب لحزبها أولياء ، وأن تضع عن نفسها هذه المعرة التى لحقتها إذ تركت ما كان أولى بها أن تلتزمه من الحجاب والتستر خلف الجدران . فما زال الناس يلمونها لهذا الخروج ، وما فتئوا ينـكرون منها إذ هى قدوة لنسوة المؤمنين . . .

وقامت ، وخاطبت الجموع بصوت جهير :

« أيها الناس . . . »

فمطى هتافها على الشغب المشبوب ، وألقوا إليها الأسماع .

كرة أخرى جردت عثمان من كل ما سبق أن أعلقته بثوبه حتى أعادت الثوب نقيا ناصع البياض ! . . إن عذرها فى تغيرها هذا معلوم وإن أخذت خصومه أن حمموا لها حق قتلوه ! . . أما الآن فالرجل مظلوم ، ودمه المطلول لا بد أن يرده القصاص .

وقالت للقوم :

« . . . كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا . . فننظر فى ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة كذبة غدرة ! . . »

فلو قالت هذا قبل بضعة أشهر فلعلها كانت تؤخر نهاية الصريع الشيخ ! . ولكن عائشة اليوم غيرها بالأمس . فقد اجتثت من فؤادها دوحة الغضب واستنبتت على أثرها دوحة رحمة وإشفاق وتشيع لعثمان ! . . من حقها دون ريب أن تحزن للقتيل ، وأن تدعو للثأر ممن بغوا عليه لأن القتل جريمة نكراء لها قصاص مفروض ، وليس يجدر أن يخلى بين قاتل وبين الحياة يستمرئ فيها العيث بالرقاب . وإذا كان تطرفها فى الغضب بالأمس قد أنساها الحكمة حتى أهابت بالمسلمين أن يأخذوا على يد ابن عفان بالعنف ولو قتلوه ، فذلك لم يكن فى حسباننا إقرارا منها لشرعية الجريمة ولادعوة إليها جادة . . كان تأليبها على الخليفة بصورته القاسية تلك خطأ منها بغير شك ، استشعرت له الندم فيما بعد فقامت بحركتها لتكفر عنه . ولكنها الآن تهم أن تعالج نتائجه بخطأ أفحش منه ينصف المظلوم بظلم بريء سواه ! . . ألا تراها كيف راحت تدعو الناس ، إلى جوار حماهم على الثأر للقتيل ، بدعوة جائرة تحيف على حق الإمام أبلغ التحيف وتوشك أن تؤجج عليه نيران الفتنة فى كل الأقطار ؟ . . كانت تقول:

« . . . ألا إن ما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة كتاب الله . . . من الرأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به . . . ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله ابن الخطاب ! . . . » .

فيالها من دعوة ! ويالة من منطق ساقته السيدة عجيب ! . . .

وتصايح الناس . وساد الشغب والهرج جوانب الفريقين حتى لقد تقاذفوا بأقذع التهم ثم تحاثوا فيما بينهم بالحصباء . وأوشكت الفتنة أن تشيع فى الصفوف والأكف تشتد على مقابض السيوف ثم تهم أن تهزها للنضال . ولكن عائشة على أى حال قد بلغت بعض شأوها أو شأو حزبها فى الصحيح ؛ ربحت الجولة الأولى من معركة البصرة ، ووسعها أن تعدو على الصقر الهاشمى وهو بعيد فتنال من طرف جناحه بعض ريشات ! . فما انجاب خطابها إلا عن خلاف بين رجال البلدة التى كانت تدين حتى ساعة بطاعة الإمام . وتفرق النفر الأكبر من أصحاب الوالى عنه بعد أن فتنتهم السيدة عما كانوا عليه ، ثم انطوى تحت لوائها منهم فريق عظيم . . .

كادت الأسلحة أن تتحدث بين رجال ابن حنيف : الباقين فى أمره ومن انشقوا عليه وخالفوه . ولولا بقية حكمة تذرع بها الناس لشاعت فيهم المقتلة بأسنتهم . أما عائشة فقد انحدرت برجالها ومن تبعها من مفتونى البصريين إلى المربد فى موضع الدباغين ، وإنها لتشهد كيف أثار وجودها هذا الشقاق بين الإخوة الآمنين ، ولسوف تشهد له آثارا دامية عما قريب .

وخرج جارية بن قدامة وقد بلغه نبأ هذا النزاع فلحق بالقوم . فحين وسعه أن يصل إلى مقام السيدة تقدم إليها وقد ران الحزن على قسمات وجهه وغلفها أسفه ، ثم قال لها فى إنكار :

« يا أم المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك . . . أما والله إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ! . »

فكأنما فلك حديثه عقالا كان يمسك ألسنة الناس ! . . . سرت فيهم الجرأة بعد التهيب ، وغدوا أدنى إلى معارضة أشياع السيدة وجدالهم مما كانوا من قبل .. فاذا رجل ينفلت من بينهم يهتف باسم طلحة ، حتى إذا جاءه صاح به على ملأ من القوم وهو يهز كتابا فى يده أمام عين الزعيم :

« ياطلحة بن عبيد الله . . . أتعرف هذا الكتاب ؟ . . »

فتريث برهة ، والقوم حوله يرهفون الأسماع ، ثم أجاب :

« نعم » .

« فما ردك على ما كنت عليه ؟ . . . »

فلما لم يأته جواب نزع إلى الإيضاح فى غير إبهام وهو يستأنف الحديث :

« . . . كنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ! . . زعمتما أن عليا دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله . . . فأبيتما إلا أن تقدماه وبايعتماه . . . فكيف تنكثان ؟ . . . »

« إنه دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل . . . ولو فعل لأبى ذلك المهاجرون والأنصار . وخفنا أن نرد بيعته فنقتل فبايعناه كارهين ! . . . »

« فما بدا لكما فى عثمان ؟ . . »

« ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إياه فلم نجد من ذلك مخرجا إلا الطلب بدمه ! . . »

فخروجهما إذن ندم على ما سلف وتكفيرا ! . . .

« فما تأمرانى به ؟ . . »

« بايعنا على قتال على ونقض بيعته »

« أرأيتما أن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه ، ما نصنع ؟ . . »

« لا تبايعه ! » ،

فارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة وأجاب :

« ما أنصفتما ! . . أتأمرانى أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهى فى أعناقكما ، وتنهيانى عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ . . . »

ثم استطرد وفى صوته نبرة تهكم واستنكار :

« أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئتما ، بايعناكما . . بيسار أيدينا ! . . »

وتوالت بعد هذا مشاهد شتى تؤذى أعين الرجلين وأسماعهما ثم يكون

لها فى فؤاديهما مثل وخز النصال . . . أقبل عليهما فتى من بنى سعد كان سمع حديث ابن قدامة لأم المؤمنين منذ قليل ، فبادرها بهذا السؤال :

« أرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » .

« لا » .

فهز كتفيه دون اكتراث ، ثم لوى عنهما وجهه وهو يقول :

« ما أنا إذن منكما فى شىء ! . . »

ومضى يتهاتف بشعر يصور سخريته ويزرى بهما أشد الإزراء . . .

إن تلك الفترة من الزمن التى قضياها بالمربد ، والتى حسباها فى البدء أطلعت عليهما أول خيوط شمس النصر ، قد حملت لهما من شكوك الناس ومن لجيهم وتهكمهم أنواعا لم تجر لهم فى حسبان . ولكن ثمة نوع آخر كان أقسى عليهما من سوابقه ، إذ جاءهما على لسان ولى لا ينكر إخلاصه لكليهما أو لأبيه منهما فى القليل . . . فلقد صك سمع طلحة إذا ذاك حديث لولده محمد جثم على صدره وأصاب من براءته ومن كبريائه حتى لأوشك أن يوقع الخلاف بينه وبين فتاه . . . كان ذلك حين أقبل شاب من جهينة ، على محمد بن طلحة ، فقال له :

« . . . أخبرنى يا محمد عن قتلة عثمان . . . »

فتفكر ملياً ، ثم أجابه بالرأى الذى يرتأيه وإن عينه لتقع على البعير الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه :

« دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه ، وثلث على على بن أبى طالب . . . »

فتضاحك الفتى الجهنى وقال :

« ألا أرانى على ضلال ؟ . . »

وانقلب يروم عسكر الإمام ليلحق به وإنه ليهتف وهو يبارح ابن طلحة :

« . . . صدقت على الأولين ، وأخطأت فى الثالث ! . . . » .

وإذ بلغ نبأ هذا الحديث طلحة سارع إلى ابنه يلحاه .

« أتزعم عنا قولك إنى قاتل عثمان وكذلك تشهد على أبيك ؟ . . . »

فلما لم يأته منه إلا الصمت . صاح مغضباً به :

« كن كعبد الله بن الزبير ، فو الله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه . وكف عن قولك أو فارجع ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فسادعامة ! »

فلم يكتم الشاب حينئذ رأيه ، وقال دون مبالاة :

« ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود ! . . »

٣

ساد البصرة الاضطراب الذى يجىء عادة فى أعقاب الانقسام . لا يتلاقى رجلان من أهلها إلا كان ثالثهما جدالا أو ملاحاة وخصومة أو صراعا قد يوفى على إراقة الدماء . ولا بيت فيها انضم بعد ذلك اليوم على هدوء أو ذاق طعم السلام . ولا قبيلة بقيت لها عروتها وثيقة فأجمعت كلها الرأى على نصرة فريق من المتناجزين دون سواه ... أولئك الذين فتنتهم عائشة بدعوتها رأوا حقاً عليهم الطلب بدم عثمان المظلوم وإن جرت دونه أنهار من الدماء وأنهار . وأولئك الذين حالفوا الإمام ثبتوا حيث أوجب الوفاء عليهم الثبات . ولكنهم فى حقيقة الأمر لم يصدروا فى ثباتهم هذا عن الرغبة وحدها فى استمساكهم بالولاء للأمير الذى بايعوه ، بل عن حافز أقوى وأشد هو عندهم جماع هذه الحياة . . . إنه التقيد بالمبدأ الذى اختطوه لأنفسهم ونافحوا عنه ، والتزام محجة المثل الأعلا الذى كافحوا طويلا حتى أوشكت أن تبزغ فى سمائهم شموسه . أما اليوم فثمة غيم فى الأفق كثيف يكاد أن يحجب الضياء . النذر تتجمع حولهم فى كل مكان مشيرة إلى طلوع عهد جديد ، بغيض ، تثور فيه العواصف وتجمح الأعاصير . . أم هو يا ترى عود إلى الماضى المظلم ؟ . . أينما وجهوا العين فى صفوف هذا الجيش الذى جاء ليغلبهم على ما كسبوه طالعتهم الوجوه البغيضة . . . بدت أشباح ذلك الماضى الذى انفرط ، وما كاد ، على سحن كثيرين ممن احتوتهم الصفوف . فها هو ابن عامر ، عاملهم القديم الذى قشروه عن البلدة ، يعود ! . . . وهذا ابن عقبة الفاسق

الخليع هو الآخر يعود ! . . . وها هنا أيضاً يرون مروان ابن طريد الرسول . . مروان الطاغيه الذى أشعل النار فى الديار وأودى حمقه بحياة عثمان ! . . . ثمة هؤلاء كلهم ومن أشباههم كثر كلما تطلعت إليهم الأبصار أصابت الحلوق غصة ورجفت القلوب مشفقة على مصائر الأمة التى نكبت بهم فى العهد الخالى ونكب الشعب حتى ساموه الخسف وسلبوه كرامة الحياة . . . أفما وجدت عائشة خيراً من أولئكم ظهيرا يسندون دعوتها ويسيرون حولها فى الركاب ؟ .

ليس الأمر أمر أشخاص ، يؤخر فيه هذا ثم يقدم ذاك . . . ليس قصة خليفة يعزل وآخر على أنقاض عرشه يقوم . بل هو أخطر من هذا وأجل . فما يفيد الناس أن يذهب على ويأتيهم من هو خير منه ، إن استطاعوا إليه السبيل ، أو مثله ، فى القليل ، يقوم على أحوالهم فيحسن القيام . وهل لهم فى الإمام هوى غير هواهم بمثله وأهدافه الكفيلة بأن تهبهم الحرية والعدل والمساواة ؟ . ولكن النفر القادمين من الجنوب زاحفين على صليل السيوف وقعقعة السلاح هم عنوان الكتاب الذى تهم السيدة أن تضمه أمام أهل الإسلام وتقول هاؤم اقرأوه ! . ويا شره من عنوان وأتعس به من كتاب . . .

هذا لا ريب عود إلى ظلام الماضى ، بما فيه من إجحاف بحق الشعوب الإسلامية فى الحياة الأبية التى لا يسيطر عليها طغيان طائفة من الخاصة والأشراف . ليست دعوة الثأر لعثمان إلا غطاء يستر جشع السادة الذين غلبهم الشعب على مآربهم وتحرر من ربقتهم ونأى برقابه أن تطأها أقدامهم الثقيلة . . . إنها غشاء لنهمهم إلى السلطان والتملك والتحكم كيفما يوحى لأفرادها الاستعلاء . ولو قد أتيح ثانية لهذه الطغمة أن تعود سيرتها الأولى لعرفت كيف تسوس من أبوا أن يقروا لها بذلة العبيد .

ما من رجل بين الذين أوجسوا من حركة عائشة إلا كان يراود خاطره من هذا التفكير نصيب . كلهم لا ينكرون عليها دعوة القصاص ، ولكنهم يعلمونه قصاصاً ظاهره عدل وباطنه هدم . . هو هدم للأسس التى جاهد الشعب

جهاده حتى أقامها بعد مشقة وجلاد وطول كفاح . وهو هدم للمبادئ التى أريد بها لم الأمة بطبقاتها جميعا فى وحدة تسودها العدالة الاجتماعية وتنمحى منها فوارق الجنس وفوارق الطبقات . وهو هدم للرجل الفرد الذى يستطيع أن يحقق وحده هذه المثل الكريمة لكل من جمع بينهم الإسلام ثم ينافح عنها ما أفسحت له فى رحابها الحياة . . . وإذا كان الأسى قد أخذ بقلوب فريق من أهل البصرة إذ ذاك إذ يشهدون كيف فرقت دعوة أم المؤمنين بينهم وبين إخوتهم . فإن أشد الأسى وآلمه لذعاً أنها باعدت بينهم جميعاً وبين تحقيق المبادئ التى صبوا إليها لأن دونها اليوم ميادين وسيعة من الخلاف والمناجزات . . .

نعم فقد هبت الريح ، وأوشكت النذر المتجمعة أن تشير إلى جو عاصف ونوء قاصف تودى بسفينة الإصلاح . فعنوان الكتاب معروف ! . . . والمستقبل الذى تتحدث عنه صفحاته صورة من الأمس الراحل الذى حسبوه قد ذهب وانطوى ولن يعود . . . ثم ها هم الآن ، فكيف الخلاص ؟ . . .

من استطاع من أهل البصرة صبراً قهر نفسه على الصبر المر ، وقليل استطاع ؛ ومن دان لأميره ابن حنيف بالطاعة سكن كمثله مؤثراً الإبقاء على السلام أن يتمزق إهابه وتتقطع أسبابه ؛ هؤلاء انحرفوا عن جيش عائشة ، ومن لاذوا به ، ووقفوا على فم السكة ناحية المسجد عن يمين الدباغين يمنعون الناس ويأخذون عليهم الطريق . ولكن ثمة طائفة أثارتهم خيانة ذلك الفريق من مواطنيهم الذى تنكر لمبدئه وانحاز لعسكر الغزاة ، فلم يملكهم الصبر ، وآدهم الصمت والقعود . . أولئك نفذت أبصارهم إلى ما خلف المظاهر البادية ، وما وراء السلم الذى يلبسهم ثوب تخاذل ثم قد تكون له مغبة تضيع فيها المبادئ التى ناضلوا عليها من قبل ، ويأتيهم غدهم بشر مما كانوا فيه بالأمس فى عهد عثمان الذى كان مروان وأضرابه يتربعون عرشه . . لم يستطيعوا صبراً على ما يشهدون ، وهذه ثمار جهادهم توشك أن يبتزها حزب عائشة ، وتلك الطغمة من مواطنيهم الخائنين ، وتلك الشرذمة من الولاة المنبوذين . فحين تسامعوا بالأنباء كان يعتمل فى صدورهم مثل إحساس الأسد يتأهب لحماية عرينه ، ويدفع عنه العاديات بالظفر والناب . وكانت الأنفة

فى دمائهم تضطرم كنار . فليس لعلى غضبتهم بقدر ما هى لكيانهم القومى وكرامتهم كشعب له منزلته الواجبة فى نفوس حكامهم وإن كانوا عربا خلصا من ذلك العنصر الذى حسب لنفسه السيادة على بقية الأجناس . فما عادت العنصرية شيئاً يؤمنون به ، بل الإسلام . فلقد علمهم كيف يكون الناس كلهم سواسية ، إخواناً على سواء ، فلا سادة بعد ولا دهماء . . .

بهذا دارت الأمور فى الخواطر ذلك اليوم عند المربد وأصحاب الحمية يرون تلك الطغمة من الخونة ومن الولاة القدامى أهل الطغيان . . . ومنه استشعروا قوة غامرة تدفعهم دفعاً إلى النضال ، حماية لحريتهم وقوميتهم أن تطأها أقدام الأشراف . . . وإنك لتكاد أن تشهد كيف يتوثب بهم حماسهم فلا يستقرون ، ولتسمع أصواتهم اللاغطة تبدأ همسا خافتا ثم تسرى قليلا قليلا ، وتشتد قليلا قليلا ، حتى تعلو فتشبه الصياح . فإذا انزاح عن صدورهم وقر الصبر الذى اصطنعوه ، تبدلت بهم الحال غير الحال ، فلم يصغوا لنصح ناصح ، ولا لردع رادع وإن كان عاملهم وصاحب الأمر فيهم بعد الإمام . بل يتهافتون مغضبين ، وتلعب بهم ثائرة الثورة ، وترتجف فى أكفهم رماحهم ثم يكرون كالسيل الدافق على عسكر عائشة ليس يردهم ولا يرهبهم أنهم قلة أمام كثرة حسنة العتاد . . .

ويصيح حكيم بن جبلة ، الرجل الذى ود لو قاتل وحده جموع الجمل الغزاة ، فيهتف بمن تبعوه من الفرسان :

« إنها قريش ! إنها قريش ! . . ليردينها جبنها والطيش ! . . »

فما أسرع ما يستجيبون لندائه فتنحدر بهم خيلهم حتى تركب زمر الملتحقين بعائشة وجندها حتى لتذهلهم المفاجأة فيقفوا كأنهم حيارى مضيعين . ويشد عليهم حكيم ، وتنزاح قدامهم رويداً رويداً عن الأرض التى كانوا قد اتخذوها لمنزلهم . فلعل فريقاً منهم حسب لو لقى المهاجمين بالأناة وكف عنهم انثنوا عنه . ولكنها كانت دفعة ليس يمسكها صبر ، فإذا الأسنة بعد قليل تعتنق وتتشابك فيختلط فى الغمرة الفريقان . ثم يملك الحماس طائفة أخرى ممن شهد هذا القتال من أهل البصرة ، أولئك الذين كانت دورهم تشرف على ميدانه ،

فيحصبون بالحجارة وهم بأعالى بيوتهم من كان على قيد مرماها من هذا الفريق أو من ذاك . هنالك سالت الدماء على فم السكة عند المربد حتى أوشك لونها أن يغلب الناس على حكمتهم وكادت الفتنة أن تم فيأ كلهم القتال . ولقد كان أقرب إلى الحدوث أن يتقهقر الفرسان بعد قليل أمام عدوهم حين يرتد إليه جنانه الذى طاشت به المفاجأة فى البدء ، ولكن ما حدث كان النقيض . فإذا برجال عائشة الكثر يجنحون للانسحاب وما تزال الخيل تشد عليهم وتضغط أيما ضغط ، ولولا أن وقعت عليهم ظلمة الليل ما تحاجزوا ولا انثنى عنهم فرسان حكيم .

أمرت عائشة إذن رجالها بالتقهقر إبقاء على هيبتهم أمام الناس أن تنال منها مثل هذه القلة ، أو رغبة فى الظهور كمن يحرص على السلام . فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن يلقفون أنفاسهم مليا ويستريحون . وكان الليل قد غشاهم هنالك بستر وجدوا فيه الأمن والطمأنينة . وبدت لهم من بعيد أشباح خصومهم تنحسر رويدا رويدا عن الساحة التى خلفوها ، وتثوب راجعة إلى البلدة تنفض عنها وعثاء القتال . وإذ حسبوا أنهم الآن قد باتوا بمعتصم يعسر على عدوهم أن يفاجئهم فيه ، فقد أوشكوا أن يجعلوه مثابا . غير أن رجلا من تميم عليما بمواقع الأرض فى أرجاء البصرة ، جاءهم فدعاهم إلى مكان سواه أمثل وأحصن ، فتابعوا رأيه . ومضوا خلفه فى وادى الموت ، خلال القبور ، تحت ستر المساء حتى انتهوا إلى دار الرزق فضربوا فى ساحها معسكرهم ، ثم أقبلوا فى همة وجلد يعدون العدة ويتأهبون لمعركة الغد . لقد عزموا أمرهم على الأخذ بالثأر حين يسفر النهار .

فأى مشاعر كانت تتناوب الوالى تلك الليلة وقد ثاب إلى دار الإمارة ؟ . إنه ليرى بعينيه كيف اشتبكت عليه الأمور وغدت هوادته شرآ لن يسلم معه هو أو امرؤ ممن بايعه على السلام . فعددهم جميعاً قليل ، وعدوهم فى منعة بمن أجلب معه ومن حالفوه من رجال الإقليم . لقد حمق حقاً حكيم إذ ركب حزب الجمل بفرسانه وإن أوشك أن تظهره عليهم شجاعته وكادت تدنيه من النصر . ولكنها كانت دفعة ، وكانت غمرة حقيق بجندهم الضخم أن يثوب من غشيتها فيعود

أقوى على معاودة الصراع بعد قليل . وها هم لا ريب قد ملكوا أعصابهم ، وراحوا يتأهبون . أفيهجمون ؟ . أيسيرون إليه فى جحافلهم عند إشراقة الصبح ليقهروه ؟ . ومن له بقتالهم لو عقدوا العزم حقاً على القتال ؟ ...

ثمة أمل واحد كان ما زال يداعب قلب ابن حنيف : أن يثبتوا عند عهدهم له فيصبروا عليه حتى يأتيه رد من الإمام . فقد كان ذلك عهدهم قبل أن يفجأهم حكيم ... لقيهم الوالى غب قدومهم فسألهم :

« ما نقمتم على صاحبكم ؟ ... » .

فقال له الصاحبان :

« لم نره أولى بها منا . وقد صنع ما صنع ... » .

فلم يحاجهما فى شىء ، وإنما أجاب وهو يبغى أن يسود بينه وبينهما الأمن والصفاء :

« ... فإن الرجل أمرنى . فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى بالناس حتى يأتينا كتابه ... » .

فأظهرا الرضا ووافقاه ، وكتب بهذا إلى أمير المؤمنين ...

ولكنه الآن لا يأمن أن يظلا على ذلك العهد بعد ما كان من ثورة حكيم . بل هو لم يأمنه كذلك من قبل وفى حزبهما كل أولئك الرجال أصحاب الخدع المفتونين بالغدر وتدبير المؤامرات أم يصبر يا ترى مروان . ويجنح للسلم أشياعه من صنائع العهد البائد ولن يأتى من على إلا ما يفضح تبييتهم ويكشفهم أمام الناس عرايا لا يستر غاياتهم تمويه ؟ ... قلبه يقول لا ، وماضيهم أيضا ، وسيرى كيف يغدرون ...

وغدا الرجل فسار والشمس ، كلما قطع من الطريق شوطا تكاثرت عليه الأنباء عن تأهب القوم للقتال . ولكنه رأى لزاما عليه أن يلقاهم عسى أن يؤيدوا له عهدهم بالسكون . وسار فوجدهم بساحة دار الرزق على رجل ، مدججين شاكين . وما نحسبه قد مشى إليهم يبغى قتالا وهو أعلم بما صار إليه من فقر فى السلاح والنصير بعد أن فتنوا عنه كل أولئك الجوع من أهل الإقليم . لقد كان كل أربه

أن يقفوا مواقفهم ، بسلام ، حتى يأتيه جواب أمير المؤمنين وما نحسب أيضاً أن ثمة طائفة من أهل البصرة كانوا يطمعون أن يفوزا على خصومهم بحد السيوف . ولكن ابن جبلة كان لا يقر هذه السياسة ومن تابعه من عبد القيس ، وإنهم لقلة . غير أنه كان أنفذ من صاحبه بصراً وأجلى بصيرة ولو أطاعه ابن حنيف منذ البدء فالتى جموع عائشة بالعنف لما وسعها أن تقص هكذا جناحيه ، وتجعل لها اليد العليا فى مصائر الأمور . . .

وفى لمحة عين تبدل الجو ، وذاعت فى ثناياه رائحة الحرب . . . فما بدا حكيم ورجاله أمام أصحاب الجمل حتى طارت الشررة التى أججت النار . . . لم يصبر هو أن يدع أعوان الباطل وأمنهم ، ولم يصبروا أن يدعوه ولا ينالوا منه ثأر ليلة الأمس . وكان شديد الإيمان بما يقوم فيه وإن أورده هلكه . وكان مشبوب الحدة فوار الغضبة فما يطيق أن يعترض سبيله شىء . وإنه ليمضى إلى القوم وهو يزمجر كالليث ، ويندفع سخطه من فيه كسم الرقطاء ينوش عائشة التى يراها أصل كل هذا البلاء ... وعندما يلحاه رجل من الناس على نيله من السيدة بلسانه الهدار بالزراية يسرع فيلقمه الرمح جواباً على هذا اللوم ! . . نعم قد فعل ، ثم عاود أيضاً فطعن امرأة قدحت فيه كما قدح ذاك وصاحت به فى إنكار :

« يا ابن الخبيثة ! . . ألأم المؤمنين تقول هذا ؟ . . . »

على أى حال ، مالاح حكيم ورجاله لأشياع الجمل حتى شب القتال . الله يدرى أيهم أنشبه ، وإن كان لصحب عائشة دم عند عبد القيس قد يناديهم للثأر ، وكانت لابن جبلة دفعة قد لايطيق معها الصبر على قناتة أن تظل نظيفة لا يلوثها دم ! . .

وقعت الواقعة . وحمى فيها الصراع والشمس تخطو أولى الخطا نحو الضحوة وتأور لهبه وهى تجنح للغرب . قضوا النهار كله يتقاتلون ، ولايصغون لغير صليل السلاح . لم يصخ منهم واحد لصوت العقل كأنما همهم أن يحيلوا مواقع الأقدام تحتهم بركة قانية ! . . وحين بلغ من جزع عائشة أن دفعت مناديا يدعوهم للكف غرق صوته فى هدير المعركة . وبقوا على حالهم مفتونين عن التبصر حتى كثر القتلى فيهم وشاعت الجراحة . . .

ثم تداعوا إلى الصلح حين لم يعد منه محيص بعد أن نالت الوغى منهم أيما منال ثابت نفوسهم أخيراً إلى قرار ، فأوقفوا عجلة الموت . . . شدوا على رحاها الدائرة وقد كادت أن تردهم إلى مهل وتراب ! . . وتواقفوا على أشلاء صرعاهم متحاجزين ، منكسى القنا والرماح . . .

كذلك جاءت هدنتهم غب محنة ولأواء ، فكتبوا عهداً بينهم وأبرموه أن يقيم كل فريق منهما حيث أدركه الصلح على ما فى يده لا يضار فى مسجد ولا سوق ولا طريق ، على أن يبعثوا أمينا إلى المدينة يأتيهم بحقيقة مبايعة الزبير وطلحة أمير المؤمنين ، فإن كانت عن رضا دخلا فيما دخل فيه الناس أو غادرا البصرة ، وإن كانت كرها فلهما الأمر فى البلدة وخرج منها عثمان بن حنيف .

وعلى هذه الهدنة جفت الصحف ورفعت الأقلام ! . . .

٤

أقرت السيوف فى أغمادها بعد الهدنة ؟ . . أبقيت صفحة الماء هادئة لا يحركها شيء ؟ . . لم يتح ذلك ، وجاء الأمر على نقيض ما كان الناس يرجون كأنما إذ أنسوا للسلم من وراء ذلك العهد المكتوب إنما كانوا فى حلم سوف تبدده يقظة مباغتة يذوب بها فى أضواء النهار .

وكان أولى القوم بعلم زيف عهدهم أولئك الذين جاءوا فى ذيل عسكر يقطعون الفلاة لأمرهم وحدهم مبيتوه . فهذا الحزب من قريش رسم خطاه قبل أن يسير ورتب مواطىء أقدامه بحيث تقوده فى نهاية الشوط إلى الهدف المأمول . ما كان لهم من غاية إلا نقض بيعة الإمام واحتلاب سلطانة تحت ستر موهوه بدم الخليفة القتيل . استباحوا فى البدء ذلك الدم ثم قاموا من بعد ينوحون عليه كالثواكل . وذوو الغايات ، فى سبيل مآربهم ، لا يأنفون من ركوب كل محظور

أرسلوا إذن أمينهم عقب الهدنة إلى المدينة ليأتى لهم من لدن أهلها بحقيقة مبايعة الصاحبين أمير المؤمنين . . . فكأن هذين قد غابت عنهما الحقيقة

أو ألبست بشبهة ! .. ولو قد آثرا تجنب الانحياز إلى هواهما لطالما الناس بالصدق الذى لا يغشاه زيف ولا تمويه ، ولصارحاهم بما يعلمان أو بما يكتمان . . . إن فى جعبتهما كتاباً يجيد رسم هذه الحقيقة ، ولكنهما ليسا من الإخلاص لعهدلهدنة فى درجة تدفعهما لنشر ذلك الكتاب ! . . من خطل الرأى — فيما يظنان — أن ينشراه ، ومن الإدراك السياسى ـ الذى لا يتكلم بغير لغة التوصل إلى الغايات بأى ما سبيل — بحيث يقدمان الكتمان ويطويان على سطوره الوفاض . . . وإذا أتيح لامرىء أن يقرأ ما فيه لرآه جاءهما من أمير المؤمنين ، يلزمهما به الحجة ويلزمهما البيعة التى أراداها بالنكث إذ كانت كادعائهما من غير رضا واقتناع .. كتب لهما على يدحض زعمهما ويقيم الأمور حيث يجب أن تقام :

« . . . قد علمتما — وإن كتمتما ! — أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى . . وإنكما ممن أرادنى وبايعنى ... فإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب . وإن كنتما بايعتمانى كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية !.. ولعمرى ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . . . » .

ثم عرج على قصة مصرع سلفه ، فأنصف غاية الإنصاف إذ أراد أن يجعل الحكم بينه وبينهما فيها كل رجل من المدينة آثر أن ينأى بجانبه عن التشيع له والانحياز لصفهما ، لعلهما بهذا التحكيم يأمنان أن يتحيف عليهما الناس بالاتهام . قال بذيل ذلك الخطاب ولم يغفل أن يسديهما النصح خالصا لوجه الله :

« ... وقد زعمتما أنى قتلت عثمان . فبينى وبينكما من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتمل ... فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار ! ... » .

ولكنهما آثرا أن يطويا الكتاب عن الأنظار كما طويا من قبل حقيقة ما كان من بيعتهما التى كانت عن رضا واختيار . . أفأمنا يا ترى الناس أن يعلموا ما أخفياه ؟ .

بل الحق معلم له نور يهتك دائماً حجب الظلمات . وإذا كانت البصرة ، موئلهما الآن ، بعيدة عن يد الإمام . فما هي ببعيدة عن الأخبار تسرى إليها مع الركبان من كل إقليم ، ومن جارتها الكوفة قبل غيرها من البلدان . فإلى هذه كتب على يروى نبأ صاحبيه ، وموقفهما وموقفه من عثمان بن عفان ، لم يستر شيئاً إلا رواه فى هوادة وترفق وإن وسعه أن يعنف ولا يجاوز بالعنف حد الإنصاف :

« إنى مخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه . إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلا من المهاجرين . أكثر استعتابه ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف . وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . . . » .

بمثل هذا تناقلت الألسنة حقيقة القضية التى أخفوا خلفها المطامع والآراب . وبأعنف منه وأقرب إلى الصراحة التى ترسم مكان الصاحبين فى مأساة المصرع فلا تغفل أدق الخطوط ، كان الأمام يتحدث فتطير أحاديثه إلى كل مكان . . . وصلهما طرف من كلامه هذا بغير شك ، ووصل أيضا حليفتهما فجعلهم جميعاً أدنى إلى مجالس الاتهام ! . . ولقد ألقاه ذات مرة حديثاً مدويا زلزل تحتهم أركان الأرض ، وجاوز فيه الهوادة إلى الصراحة المريرة ، فهل ارعووا وسالموه ؟ .

كلا ، بل لجوا فى الغى ! . . ومضوا فى طريقهم — وهم الفئة الباغية كما طبعهم بلفظه — يطلبون حقاً هم تركوه ، ودما هم سفكوه ! . . فلعلهم — إذ فتنوا أهل البصرة — قد حسبوا أن قد ملكوا فى أيمانهم الشمس ، لو شاءوا أطلعوها أو شاءوا طمسوها ! . . فكذلك كان شأنهم من البيعة ، قالوا قلدناه إياها كرها وعلى الناس أن يؤمنوا بما يقولون ، على الأمة جمعاء أن تخلعها من أعناقها لأنهم أرادوا النكث وحنث اليمين ! . أما المدنة فإنها نظرة إلى خلاص أو تلبث إلى خلاص أو تلبث إلى حين . وهل كانت إلا عهداً كبيعتهم تلك يجوز عليها نفس ما جاز على سابقتها منذ قليل ؟ .

إنك لن تحسب أن الحال قرت بالبصرة تلو ذلك العهد المكتوب ، وساد فى جنبات البلدة الهدوء . . . عبثا تضع الحطب بين ألسنة النار ثم تكف عنه الاشتعال ! . . عبثا تسكت زمزمة الريح ! . . عبثا تقف حاجزا فى مسيل الطوفان ! . .

لم يهدأ الخلاف بالبلدة وإن خفت حدته بين الحزبين . ففى النفوس نزع ليس للعقول عليه سلطان . وقد بقى من فريق الولاء ابن جبلة وفرسانه ، وأهله وشيعته من عبد القيس ، لا يزالون يضطربون غيظا وموجدة أن يروا دولة الحق هكذا تدول تحت أبصارهم وتعدم الولى والنصير . وبقى الفريق الثانى على ما كان عليه من خطته المرسومة ، يرتب ويبيت وينتظر ساعة التنفيذ . كل طائفة كانت تتوجس شراً من غريمتها ، وتتوقع منها الغدر فى كل حركة . فإذا اقترب بعض الموالين عفواً من منازل الغزاة كانوا فى حسبان هؤلاء قادمين فى شر ، أو مرت بضعة من أصحاب الجمل دانية من رجال عامل الاقليم استقبلوها بالتحفز إذ يحسبونها تحمل الغدر . ولقد حدث يوما أن أقبل محمد بن طلحة فقام مقاما قريباً من عثمان ابن حنيف ، فأسرع نحوه الحرس فنحوه خشية أن يكون قد أقبل ينتزع حياة واليهم غيلة . ولو شهد هذا الحديث فريق مسلح من أعوان محمد لما انجاب إلا عن معركة خطيرة . . . .

على هذا التوتر كانت الحال بين الحزبين ، لم تهدأ ثائرتها الهدوء الذى كان تحتمه الهدنة . بل بقى الناس يتوشهم قلق خفى كأنما تشيع فى الجو أنفاس الفتنة ، ويمتلىء الهواء حولهم برائحة الدم . وما كانوا فى شعورهم هذا إلا صادقين لأن الزمن كان يثب بهم وثباً إلى محنة مجتاحة . فإن هى إلا ليلة ذات ظلام ورياح حتى زأر قصف الأحداث .

كانت العاصفة تدوى زمزمتها بين دروب البلدة حتى بدت معها البصرة كغاب ملأته ليوث هائجة وأسود غضاب . والليل فى بكوره ذاعت فيه وحشة السحر المتأخر . وكانت أعين السماء وسنانة ، رانت عليها كسف من الغيم حتى طمست النجوم . وأسبل الظلام أستاره على الطرقات ، كثيفة لا تنم عن شىء ،

فلا أضواء ولا ظلال . ولولا حركة الريح وهى تذرع المكان فى خطوات نشوان لا يعرف إلى أين يتجه به السير ، لكان أشبه بمقبرة ثقيلة الصمت ، ساعة هجوع الأحياء ، لا تسودها إلا هدأة الموت . . .

وكان المسجد بادى الفراغ ، يوشك أن يخلو من الناس إلا نفراً تفرقوا فى جنباته ، لفوا أردانهم حولهم اتقاء قرة الليلة ، والتصقت لحائم بركبهم وهم منكمشون فى جلسة القرفصاء . . . ولكن ثمة أيضا أشياء غير الجسوم المرتجفة أحتوتها الثياب — ثمة سيوفا ونصالا مخبوءة ، أعدت للحظة الطعان .

إنك لو كنت معهم يومذاك ، لشهدت من مجلسك فى عيون هذا الفريق من المنكمشين لمة تحفز ، ولأوشكت أن تقرأ لغتها فلا يفوتك أن تراها حروفا إذا التأمت لكونت لفظة الغدر ! . . كيف استباحوا هذا ؟ . . وفى وقت هدنة ؟ . . وفى بيت الله ؟ . . ولكنها شريعة السياسة تستهين حين تشاء بكل الشرائع ، ولا يقعدها عن تحقيق آرابها وازع أو دافع . . .

اجتمعت تلك الطائفة من رجال الجمل بمسجد البصرة ، تلك الأمسية المظلمة من أماسى الشتاء ، لا يعلم عنهم غيرهم إلا أنهم جاءوا يصلون . وكان موعدالعشاء لم يحن ، فأهل البلدة درجوا على تأخيرها منذ دخلهم الإسلام . والليل ما زاله فى بكوره وإن تقدمت الظلمة السابغة بغمره . . ولم يكن كثيرون من أهل الولاء للإمام قد حضروا بعد ، فبالوقت فسحة ممدودة ، والرياح الهوجاء ترود طرقات البلدة وتعوقهم بعض التعويق . ولم يكن الوالى نفسه قد حضر لإمامة المصلين ، وإنما انتشر نفر من حرسه خارج المسجد وبمقربة منه يسهرون على سلامته حين يجىء . . . وها قد أوشك أن يبدو لهم خلال ساعة أو بعضها ليقوم بفريضة الله ، ويؤدى بالناس الصلاة . . .

ولكنها صلاة لم يكتب لها الأداء فى موعدها المفروض . لأمر أو لآخر حسب النفر من أصحاب الجمل أن ابن حنيف قد أبطأ فدفعوا ولياً لهم هو عبد الرحمن ابن عتاب ، ليأخذ مكانه أمام صفوف المصلين . . . أكان ذلك حرصا منهم ألا يؤخروا الصلاة أم لغاية عزموا عزمهم عليها من قبل ؟ . . . على أى حال كان

فعلهم نـكثا لما عاهدوا عليه الوالى من قيامه وحده بالإمامة . فإذا أضفنا إلى هذا ما تواضع الناس عليه بالبصرة من تأخير العشاء ، لتوقعنا كيف يستقبل حرس ابن حنيف هذا الخرق للهدنة بين أميرهم وهؤلاء الخصوم . نعم قد استقبلوه بالغضبة الواجبة منهم لحق ولى أمرهم أن يضيع ويسلبه أعداؤه تحت ستر الصلاة ، فما أن رأوا عبد الرحمن يتقدم نحو المحراب حتى أشهروا السلاح فى الوجوه لعل أصحابها يفيئون إلى العهد ويرتدعون عما أوشـكوا أن يقترفوه .

فإذا المسجد فى الحال ينقلب إلى ساحة قتال . . . فى لمحة عين ظهر السلاح الخبيء تحت الأثواب ليعمل فى الصدور والرقاب، وفى لحظة ضاق المسجد الوسيع عن كانوا فيه ، وانقلب القلة من أصحاب الجمل المتفرقين بجنباته إلى كثرة غالبة تملأ رحابه حتى يضيق بها ، كأنما أطلعتها الأرض أو أمطرتها السماء . . . وهل يسع الحرس أن يردوا كل هذه الجموع المبثوثة حولهم فى كل مكان تنوشهم من كل جانب ، وما يعدون أربعين رجلا أمام قوة مناجزة تستطيع لو شاءت أن تقتلع حصنا باذخا ذا معاقل وأسوار ؟ .

ولـكنهم مع ذلك جالدوا القوم جلاداً شديداً ، وصبروا لهم ما أمكنتهم أسنتهم وما بقيت أقدامهم تمس بطونها صفحة الأرض . فلم يلقوا السلاح من أكفهم قط ، ولا نبت بهم مواقفهم أو تزحزحوا قيد شبر ، بل ظلوا حيث كانوا لا يريمون حتى تخطفهم الموت ، واحداً إثر واحد ، كراماً . ووقعوا صرعى بأحناء المسجد، تروى دماؤهم رحابه . . .

فلعل رجال عائشة قد ازدهاهم هـذا النصر الذى أحرزوه وإن جاءهم على حساب هيبة بيت الله والمفروض من توقيره . إنهم لا ريب كانوا يدفعون عن حياتهم أن يسترخصها حرس ابن حنيف ، أو هكذا بدوا فى عيون أنفسهم وهم يغفلون أنه لولا عدوانهم على حق الوالى فى إمامة الصلاة لم يكن ذلك الدفاع . . ولـكنه نصر حازوه كيفما كانت المقدمات والأسباب ، وسواء أ كانوا قد بيتوا من قبل عزمهم عليه أو جاءهم عفوا بغير تبييت ، فإنهم راحوا يفيدون منه ، ويتبعونه الخطوات الباقية التى توفى بهم على تمام الانتصار .

نسوا وشيكا فريضة العشاء ، ونسوا هـذه الإمامة التى خاضوا من أجلها نهراً من دم ، وذكروا عامل الإقليم . فى هذه الآونة التى قضوا فيها على فرقة حرسه ذكروه . ولم يشاءوا أن يصبروا هنيهة حتى يأتيهم فينبئوه لو كانوا قد عدى عليهم وهم براء لوسعهم الصبر والانتظار لأن العنف ليس شيمة البرىء المنتصر بل التمذير . ولو ساروا إلى ابن حنيف — إذ استبطأوه — يشكون إليه ما كان من حرسه الملق برحبة المسجد لا تسع لهم تبرير سفك تلك الدماء . . ولـكنهم لغير هذا مشوا إليه ، تحت خمة الليل . . . إنما ليتبعوا الضربة الضربة ، أقوى هذه المرة وأشد ، عسى أن يفرغوا من أمر هذه البلدة ، وواليها ، وما بقى فى أحنائها من قوى ما زالت تصدهم عن السلطان المطلوب . . .

إلى قصر الإمرة مضوا فى غاشية المساء والريح حولهم تدرى وتعصف ، لا يتريثون ولا يمهلون . وكان ابن حنيف لم يبرحها بعد لأداء العشاء ، وبضعة من جنوده على حوافيها تسهر عليه أن يناله بعد تأزم الأحداث مكروه . . . ولم يكن الرجل يعلم شيئاً عن وقعة المسجد ، ولا ما أصاب حرسه ، فهو بهذه الغفلة فى طمأنينة وأمان ، وكانت فرقته الساهرة برحبة الدار قد لاذت بمواضع منها تمتنع فيها من قصف الريح ، والسماء تمطر غيثا كأنه الطوفان . كل ما حول القصر لا يشى بمحنة وشيكة ولا ينبىء عن اقتراب خطر الهدوء فى جنباته ، والسلام فى قلوب ساكنيه .

ولـكن ظلالا ، تحركت فى أطراف الرحبة ، خافية فى ثنايا الظلام السابغ عن العيون ، مضت تزدلف كالأشباح ، ليس لسيرها على الأرض وقع مسموع ، ضلت عنها أسماع فرقة الحراسة وأبصارها الحديدة ، بين زمجرة العاصفة وجهامة المساء الضرير . كذلك تسلل رجال عائشة إلى دار الإمرة ، وكذلك باغتوا الجنود . . . وعندما أوشكت حركاتهم أن تنبه إليهم الحرس ، كانت أسيافهم قد سبقت إلى الرقاب تطيح بها ولما يكد فرد من جند الوالى يبعث من صدره صيحة استغاثة . . .

وعلى الأثر عصف الهاجمون بالدار ، على رأسهم قائدهم رائد الغدر مروان

ومن خلفه طلحة ورديفة الزبير . . . من عجب أن يخرج الشيخان مخرجا كهذا لا يحمد عند أضرابهما من ذوى القلوب التى تدين بشرعة الفروسية وهى مروءة وإيثار ولكنهما الآن حقيقان بأن ينسيا ما هو أمثل بهما فى غمرة النصر . حريان بأن يركبا فى سبيل هدفهما كل صعب ومحظور . . .

ألقوا قياد رحلتهما إذن إلى ابن الحكم يفعل كما يملى عليه طبعه فلما أمكنهم الحظ من حرس القصر وتركوهم صرعى برحبته بعد أن أضافوا إلى سجل القتلى من ضحاياهم تلك الليلة أربعين جثة جديدة ، وجهوا نحو ابن حنيف وهو وحيد مهيض النصر . . .

ولكن كرامة الوالى أوقفته أمامهم على قدميه ، يذود كريما عن نفسه ويدفعهم حسبما يستطيع . . . ونال منهم ونالوا منه ، وتكاثر عليه أعوانهم حتى ضيقوا الحلقة عليه ، فوقع أسيرا فى يد مروان .

واستقبله الطاغية ببسمة حاقدة ، وبنظرة أفعى رقطاء . ما لأعزل عند ابن الحكم حرمة تعنه منه ، ولغير الرفق بهذا الضعيف يتسع قلبه ، فالرحمة على أموى مثله حرام ! . . وإنك لترى كيف يخلص الرجل لطبعه فيفعل كوحش الفلاة إذ يلغ فى دماء فريسته وإن لم تهمد بعد فى قبضة الموت ! . . يقبل فيأخذ بخانق الأمير . ويدفع به إلى بضعة من رجاله كزبانية النار يقيدونه ويشلون حراكه . فإذا رآه قد فقد القدرة على مقاومته أخذ سوطه وراح يجلده حتى كلت يداه فلعل مروءة الفروسية قد استيقظت هذه الآونة بجنبي طلحة والزبير وهما يشهدان المنظر الأليم . ولكنها كانت يقظة موقوتة لم تغن شيئا عن ابن حنيف ولم تنقذه من قسوة جلاده . بل ومضت لحظة بأعين الصاحبين فى نظرة إنكار ثم توارت كخطفة البرق ! . . الوحش الأموى كان إذ ذاك أجدى على قضيتهما من الوالى المغلوب ! . . .

وعند ما حسب الناس أن خطوط الدم التى رسمها السوط على جسد الأمير قد روى غليل مروان ، كانوا لا يدركون نزوات طبعه الكلف بالنكال . . . فقد أكب على الوالى ، المهيض كأنه حطام ، وراح يتم رسالة التعذيب ! . . مضى

وأنيابه منفرجة عن بسمة شامتة ، يشد شعر الرجل ، ويسله شعرة شعرة ، من رأسه ، ومن لحيته ، ومن حاجبيه ، وحتى من أهداب عينيه . وإنه ليستعذب أن يشهد كيف يتجسم الألم الصارخ فى ملامح الوجه الذى خضبته الدموع والدماء ، ويحس فى تعذيب غريمه لذة سابغة ، ومسلاة أى مسلاة . . .

ويستقبل ابن حنيف قدره وهو يجاهد ليكتم وجعه ، ثم يرفع إلى معذبه عينين تبديان الجلد والتصبر من وراء ضباب الدمع ، ويهتف بصوت خافت كالأنين :

« أما أنك إن فتنى بها فى الدنيا يامروان ، لم تفتنى بها فى الآخرة . . . » .

ولكنها شكاية لا تحد من طغيان الجبار ، يمضى لشأنه ، يعذب فريسته وإن راحت فى غشية ، ليتم ما لم يؤده بعد من رسالة النكال ! . .

٥

أضحت البصرة لقى مستباحا لحزب عائشة بعد أسر ابن حنيف ، فقد عملوا وفق خطتهم ، وأخذوا القصر ، وسيطروا على جند الوالى ، وأمكنهم الليل من إنفاذ بقية المؤامرة فلم يصبح الصباح إلا وفى أيديهم أيضاً بيت المال . . .

وغشيت البلدة غشية من القلق والتردد ، ثم لم يلبث أكثر سكانها المسالمين أن عرفوا إلى أى جانب يميلون . وهل يسعهم اليوم خلاف قد شهدوا مغبته وأمثولته البادية عاملهم المسكين ؟ . . اليد العليا الآن لأصحاب عسكر ، ومالناس بساحة غيرهم ملاذ . . .

ووقف طلحة وقد تملك السلطة بين أصابعه كالخيوط ، فخطب الجموع التى التأمت بدافع من الخوف وبدافع من الفضول ، فقال :

« أيها الناس . . . يا أهل البصرة . . . توبة بحوبة ! . . . » .

فدعاهم إذن أن يتوبوا عما اقترفوه ، أم كان يرى أن الخليفة القتيل قد أثم ثم تاب فلا عليه من بأس ؟ . . هذا رأى لعائشة قديم ، يردده الشيخ التيمى بألفاظ أبدتها أم المؤمنين فى رسم آخر يوم قالت : « استتابوه ثم قتلوه . . . » .

وسرت همهمة خافتة من أفواه الحشد ، ولـكنها لم تقطع على الخطيب الكلام :

« .. إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ، ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه . . » .

فلم يصبر بعض السامعين على هذه المغالطة الصارخة وموقف طلحة من ابن عفان معروف . فصاح أحدهم به مجاهراً بكلمة الحق التى لا ينبغى أن تضيع بين زخرف الأحاديث :

« يا أبا محمد ! . . قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! ... »

فأرتج على الشيخ وأصابه الحسر ! . . ورأى الزبير أن أمرهما يوشك بهذه الفلتة القديمة من صاحبه أن ينقلب وبالا ساعة النصر الحاسم ، فسارع يتبوأ مكان زميله ، وقال لذلك المجادل العنيد :

« فهل جاءكم منى كتاب ؟ . » .

واستطاع بهذه اللفتة أن ينأى بأفـكار القوم عما أوشكوا أن يلجوا فيه . ولـكنها أيضا كانت بادرة الاختلاف ، أو نقطة التحول فى ذلك الوفاق الظاهر بينه وبين صاحبه لو أتيح للزمن أن يمتد بهما وهما على الحلف الذى أملته وحدة الهدف . فالزبير لا ريب أنقى صحيفة من صاحبه لو كانت النقاوة عنوانا لموقفهما من عثمان . وهو بهذا أدعى أن يلتف به الناس دونه وأدنى أن يتبعوه . ومن قبل آثره معاوية بالتقدم ، لنفس السبب فيما حسب ، فدعاه بلقب الإمارة ، وآثرته أيضا عائشة فقدمت ابنه للصلاة بالناس !...

ولـكنه مع ذلك لم يكن موفقا تمام التوفيق فى خطابه . . . ازدهاه نصره المفاجىء فأنساه كيف يجب عليه فى هذه الآونة الفاصلة أن يمسح على رءوس الجماهير المفتونين ببطولة الأبطال فيحدثهم الحديث الذى لا يسىء إلى مشاعرهم ، وكلهم دون ريب منضم على هوى للإمام وتقدير وإن خشوا القوة الظافرة فـكتموا عواطفهم . نعم ، فقد زلق لسان الزبير ، ومضى به فى غمرة زهوه بظفره ينال من على — من بطلهم ويلحاه ، والقوم يشدون على صدورهم أن تنفث فى وجهه حقيقة ما يشعرون . حتى إذا بلغ من ذمه ولحيه مبلغا ترخص فيه

الخشية على الحياة ، انتفض امرؤ قائما من بين الجمع ، يصيح مغضبا بلا مبالاة :

« أيها الرجل ! .. أنصت حتى نتكلم ... » .

فاضطرب على الأثر حبل الهدوء . كل من فى الحشد ألقى عيناً على هذا الجرىء من عبد القيس أتبعها كلمة إعجاب أو نفثة عجب ، فقد وضع الرجل فى هذه اللحظة رأسه على كفه .

وكان عبد الله بن الزبير فى الحاضرين ، فبدا له أن ترك العبدى وشأنه كفيل بأن يفسد عليهم الأمر ويطمع فيهم الجموع ... هذا « ابن جبلة » جديد ... من نفس القبيلة التى ما فتئت ترفع عليهم علم العصيان ، فليرده إذن عما يروم . . .

وهتف به عبد الله :

« ومالك أنت وللكلام ! . . »

فلم يأبه له . بل مضى وما أراد ، يجبههم باستئثارهم وحدهم باختيار الخلفاء — وقتلهم أيضاً ! — دون مشورة من البصريين، فكيف بهم اليوم يسألون البصرة فى أمر لم تكن لها يد فيه ؟ .

وأصغى الناس للعبدى وهو يتم حجته :

« ... ثم اخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه ، عن غير مشورة منا ! . . ثم بايعتم علياً ، عن غير مشورة منا ، فما الذى نقمتما عليه فنقاتله ؟ . . هل استأثر بفىء ؟ . . أو عمل بغير الحق ؟ . . أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ . . »

فاستعصى عليهم الجواب ! . . ولكن للقوى لغة أخرى غير منطق الحجة هى حديث السيف . وهل كانت القوة المادية إلا ضعفا يستتر دائما خلف مظاهره التى تشيع الرهبة ولا تشيع قط الرضا والاقتناع ؟ . .

لذلك ملك أصحاب الجمل ما يملك أشباههم من الأقوياء الضعفاء فى مثل هذا الموطن الذى يزرى بالعتاد والسلاح ، فقاموا إلى الرجل يهمون أن يقتلوه عسى أن يخرسوا لسانه عن كلمة حق يستطيع أن يقف بها رافع الرأس وهو يهزأ بأعتى الأسلحة والجيوش ! . . أفعبد الله بن الزبير يا ترى قد أغراهم به ليأمن أن تهدر أمام الناس هيبة حزبه الكبير ؟ . .

ولـكنهم على أى حال لم يقدروا على النيل من العبدى ذلك النهار، فقد وقفت لهم عشيرته تحميه، وتمنعه أن يصيبه عدوان العادين . وعندما بدا لأخصامه أن انسياقهم لدفعتهم قد يؤجج عليهم النار فى وقتهم فيه أحوج إلى اكتساب رضوان الناس، كفوا أيديهم عن الرجل، سكتوا عنه وهم يضمرون فى نفوسهم أن يؤخروا ضربتهم المسددة إلى قلبه حتى حين ...

ولم يطل بهم الإضمار ولا الانتظار، فما أن جاء الغد حتى نالوا منه وطرهم فقتلوه . لم تغن عنه عشيرته شيئا هذه المرة ولم تحاجز دونه، شهدتهم الشمس فى شروقها صرعى على الثرى مجندلين، سبعين رجلا، حول جثة صاحبهم الشجاع .

ليست هذه قصة الغدر الأولى بصحائف البصرة فى تلك الحقبة القصيرة من أحقاب التاريخ، لا ولا الأخيرة فمثلها حدث كثير، ولعل العذر الذى يقف بجانب الشيخين فى أمثال هذا العدوان أنهما كانا يبنيان ملـكا جديدا فليس يضير إن قام البناء على جثث وأشلاء ! وأنهما أيضا كانا أمام سيل عرم من أعوان لهما انضمت نفوسهم على حب الغدر وأفعمها الـكلف بالدس والتآمر ! . . وهل من عجب أن تصدر هذه الأفعال من رجال كان فيهم مروان وأشباه له كثيرون ؟ . . إنما العجب أن تمر الصفحات التى سطروها نقية لا يدونها قلم غمسوه فى مداد من دم . .

ثم ها هم الآن ! . . البصرة اليوم قد غدت تحت الأقدام وإن هى إلا فترة من الزمن وجيزة ثم تدين لهم بالطاعة . كل ما كان يعنيهم فى البدء أن يملـكوا مواردها . وقد فعلوا الآن سيطروا على قواها المادية جميعا فغدت فى أيديهم مصائر الأمور . استولوا على السلاح، وأخضعوا الحرس، وملـكوا ثروة الإقليم بعد أن استولوا على بيت المال . ولم تعد ثمة حيالهم غير نفوس يسير عليهم ابتزاز ولائها أو حياتها لو عرفوا كيف يبذرون الذهب أو يهزون السيف ! . . فعلى الشدة والمال تقوى دعائم الملك العضود المنشود . .

ومضوا إلى بيت المال خفاقاً على أجنحة النصر وقد عزموا أن يشتروا الولاء بالسخاء ويبذلوا لأعوانهم من أهل البصرة ثمن الطاعة أرزاقا وأعطية .

ولـكن ابن الزبير وحده ليس يرى ما يرون. أبى عليه شحه وغل كفيه أن يرتضى سياستهم المرسومة ، فراح يحاج أباه :

« إن ارتزق الناس تفرقوا . . »

فلم يأبه له . وأقبل وصحبه يفرقون الأموال ويغدقون منها على صنائعهم وأوليائهم وقد قر فى أخلادهم أن البصرة كلها رهينة بهذه الدنانير ، آتية على رنينها ولمعها لتلقى لديهم السمع والخضوع . وهل من رجل فيها يجسر الآن على مجاهرتهم بخلاف ؟ . . لقد تقلص منها اليوم ظل الإمام ، وغدا واليه فى أيديهم لا يملك من نفسه غير ما يشاءون . ولسوف ينال منهم كفاء عنته جزاءاً يستنزفه ما بقى فيه من دماء . .

تركوه لقية فى يد عائشة تختار له المصير الذى تراه حقيقاً بأمثاله من العصاة ، لعله يكون أمثولة تردع عنهم من تحدثه نفسه بعده بمناجزة حزبهم الظافر . وكانت السيدة اليوم غيرها بالأمس ، أولتها الحرب قسوة العنف ، بعد رقة الضعف ، فلم ترفق بأسيرها المخذول ، ولم ترع فيه الأمن الذى يفيئه الأسر ولا الرحمة الواجبة من القوى القاهر على المهيض المقهور ، بل اصطنعت شدة الطغاة وهتفت بابان ابن عثمان إذ جاءها يستلهمها رأيها فى ابن حنيف :

« اقتلوه ! . »

فأسرع الفتى يتعجل فى الرجل قضاء الله، بل قضاء السيدة التي لبست ثوب الخصم وثوب الحـكم فى آن ، وأوشك أن يتلون سيفه بدم الضحية . ولـكن امرأة أخرى — امرأة لم تأكل الأحداث من قلبها رقة الأنوثة ولم يجف فيها نبع الرحمة ، هالها الحـكم فصاحت منـكرة ، ومتوسلة ، فى رنة بها ضراعة وبها تأنيب :

« نشدتك بالله ياأم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله . . نشدتك بالله ! . »

فأغضت عائشة ، ثم تحدثت هامسة بعد قليل :

« ردوا أباناً . . . »

فردوه . وألقت إليه بأمرها الجديد . هذه المرة بدت قسمات وجهها ألين وأرق :

« احبسوه ولا تقتلوه . »

فأحنى لها الفتى رأســه موافقا ، ومضى عنها كارهاً لأمرها وإن لم يسمه العصيان ، حتى لقد قال قبل أن يبرح :

« لو علمت أنك تدعينى لهذا لم أرجع ! . . »

على أن الغدرة التي نزلت برجل عبد القيس وعشيرته السبعين ، والمؤامرة التى قضت على الحرس ساعة العشاء وعصفت بقصر الإمارة ومن فيه ، والجزاء الباغى الذى أصاب الوالى المخذول لم تذهب كلها هباء فى ربع خال ، بل كان لها صدى له دوى شديد . ابن جبلة ساهر لم تنم عينه ، ولم يطر جنانه ، ولم تذهب الأمثولة القاسية التى رسموها على صفحة وجه أميره بشجاعة قلبه الثابت الركين . فما جاءته أخبار البغى حتى هب كالليث وقد أثاره من أولئــكم القوم انحدارهم مع الطغيان ، ونقضهم الهدنة التي عاهدوا عليها ابن حنيف . ووقف غاضبا يزأر فى أعوانه وفرسانه :

« لست أخاف الله إن لم أنصره ! . . »

وتأهب للسير نحو مجتمع القوم وهو يهدر هديره . وعلمت عائشة نبأه فناشها القلق خشية أن تستشرى فتنته ويتألب على حزبها الناس . ورأت من الحــكمة أن تسكن الثورة قبل أن تضطرم وتتسعر فأرسلت إلى صاحبها تقول :

« إن حكيما فى الجمع . لا تحبسا عثمان ودعاه ... »

وتناقلت الألسن رسالة أم المؤمنين وما احتوت من رفق على الوالى الأسير . فلعل السيدة رأت أن تحرير هذا الذى نكلوا به كان كفيلا أن يهدىء ثائرة من غضبوا له ، ويفرق الناس عن حكيم . . .

على أنها ضربة سياسية — لو كانت السيدة قد عنتها حقا — لم تأخذ من تدبير ابن جبلة ، ولم تصبه على غرة منه ، فقد كان أمعن فى المــكر وأقدر على إحسان التدبير . نظر الرجل فيما حوله فهاله أن يسير هكذا إلى قوم كثر كاملى التعبئة وهو فى نفر من فرسانه قليل ، فهداه دهاؤه أن يستغل نزوة النفس البشرية وكلفها بعرض الحياة . فإذا به يذيع على الطوائف المضمرة بقية من غضب على

المتصرين أن هؤلاء قد زووا عنهم ما يستحقونه من عطاء وأباحوه أولياءهم فحسب . . . فمن أراد رزقا فليسر خلفه إذن إلى بيت المال ؟ . . .

فهذه حرب تكافأ فيها سلاح الفريقين ! . . تألفوا الناس بالمال فأغراهم هو أيضاً بالطمع فيه . وكذلك زاد عديده ، وانطلق على رأس كوكبة فرسانه الأجلاد ، وطائفة من أفناء ربيعة ، ورجال عبد القيس الموتورين ، وجموع أخرى من بكر بن وائل ، سار أكثرهم حباً فى الثروة قبل مسيرهم فى حق أو بغية الانتصاف لمظلوم . . .

وكرة ثانية غلبت الدفعة على ما فى نفس حكيم من الحذر والتبصر . تماما كما حدث بالأمس ... إنه ليهدر هديره ويخوض بمقذع سبابه فى أم المؤمنين إذ يراها خالقة الفتنة المشبوبة ، فتقف له امرأة فتلحاه . فإذا سيفه يسبق إليها لسانه فيرديها صريعة . . . عندئذ يملك الغضب قومها من أوليائه فيثورون به :

« فعلت بالأمس وتعود لمثلها اليوم ؟ . . والله لندعنك حتى يقيدك الله ! . . » .

ويتخلفون عن صفوفه راجعين ، فلعلهم إذ عادوا قد حالفوا القدر عليه ، وقربوا هلاكه الوشيك . ومن يدرى كيف تكون مغبة الصراع المنتظر بينه وبين أصحاب الجمل لو لم يتخل عنه كل أولئك الأعوان فى لحظة كان فيها أشد حاجة إلى تألف النصير . . .

ومع ذلك فلم يفل هذا من عزمه ، ولم يرده عما أراد . وإنما سار فى الفلول الباقية له وهو أمضى عزيمة منه قبل ، لا يخيفه وهن قواته ولا ترهبه كثرة الخصوم . وسار بنفره القليل حتى بلغ بهم مدينة الرزق منزل الأعداء . . . هناك لقيتهم جنود عائشة وأداتها الحربية الرهيبة . وبدا لهم من بعيد عبد الله بن الزبير يسعى إليهم ، فلما وقفوا بالرحبة ، مثل أمامهم مدلا فى خيلاء واعتداد ، وقال غاضبا يخاطب قائد الثوار :

« ما لك يا حكيم ؟ . . »

فتخابث هذا وأجاب فى هدوء .

« تريد أن نرتزق من هذا المال » .

أفلم يكن يعلم ياترى أن هذا الأطلس البخيل حقيق بأن يرفض طلبه ويتنكر له وقد أوشك منذ قليل أن يزوى الأرزاق عن أوليائه لولا أن منعه أبوه ؟

وجاءه الجواب الذى لا جواب سواه عند ابن الزبير حين يسأل العطاء وبذل الأموال :

« لا نرزقكم شيئاً ! . . »

فلعل ابن جبلة قد سره هذا الكلام ، واستشعر له صدى بقلبه فرحة غامرة أن زوده خصمه بالوقود الذى يشعل نار الغضب فى نفوس من ساروا كل هذه الأشواط من أجل الارتزاق . . .

واستطرد يتحدث بتخابثه إلى ابن الزبير فى السبب الأصيل الذى قدم فيه :

« . . وأن تخلوا عثمان بن حنيف ، فيقيم فى دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم الإمام . . »

فكان رد عدوه أن شمخ بأنفه استعلاء وكبراً ، وقال له دون مبالاة ، بلهجة من استيقن أنه بموقف يستطيع فيه الإملاء :

« لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى . . . يخلع طاعة على ! . . . »

هكذا ؟ . . برح إذن الخفاء ، وكشف الحزب عن مراميه ؟ وما حديث إطلاقه الأسير إلا حيلة أريد بها تثبيط الناس ؟ . . وما هو أيضاً بغادر قيده إلا أن يشترى حريته بخيانة مولاه ؟ . . وكذلك كانت غايتهم من خروجهم ابتزاز سلطان ابن أبى طالب وإن طالما ستروه بدعوة الثأر لعثمان ؟ . .

وصاح حكيم ، عند هذا ، محنقا غاية الحنق وهو يراهم ينحدرون بأهل بلدته من خيانة إلى خيانة ، ويغرونهم أن ينكثوا مواثيقهم وبيعتهم ، آونة بالمال وآونة بتجنيبهم ذل الأسر وسياط النكال :

« والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم ! . . . »

ثم ألقاها نظرة استفزاز إلى الجموع التى سعت معه لهذا المكان كأنه يشعل دماء رجولتها ويستثير نخوتها أن تقول : « ها نحن أولاء ! . . . » فلما رآهم

تلهبوا بغضبهم واستجابوا لحيته المشبوبة ، رد عينه ثانية متأورة بجمرة إلى وجه عبد الله ، وعاود حديث التحدى والاستنكار :

« . . . والله لقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا ! أما تخافون الله ؟ . . . بم تستحلون سفك الدماء ؟ . . . »

« بدم عثمان بن عفان ! »

« فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ . . . »

فكانت الحجة الدامغة التى تخرس ألسنة المكابرة والجدال ! . . . أم يسع ابن الزبير أن يزعم أن مذبحة المسجد ، وصرعى القصر ، وقتلى عبد القيس ، كل أولئك كان ثأر عثمان ؟ . . إن أباه ، وطلحة ، وعائشة وأعوانهم أجمعين رأموا قاتلا فرموا بنصالهم مئات لم يكن بينهم ذلك القاتل الذى وقمت على رأسه دماء الخليفة الصريع . . . أفهذه عندهم عدالة القصاص ؟ . . .

ورفع ابن جبلة بصره إلى السماء يشهد الله :

« اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ! . . . »

والتفت إلى زمر رجاله خلفه ، وقال :

« أيها الناس . . . إنى لست فى شك من قتال هؤلاء ، فمن كان منكم فى شك فليرجع ! . . . »

وكانت كلماته هذه نفخة البوق التى آذنت بالقتال . . .

٦

شجاعة ابن جبلة وحدها هى التى أدارت المعركة ، وشبتها نارا تلظى على عدوه . من بدء دخول عائشة وأصحابها البصرة كان الرجل يتحرق شوقا إلى لقائهم فى ساحة وغى يحتكمون فيها إلى منطق الأسنة . لم يبال قط بأن يكاثروه بجحافل مجيشة تبدو قواته أمامها كبقايا الطلل أو كظلال الدارة بين متاهة الفلاة . الموازنة بينهم وبينه لم تدر بخلده ، ومراجعة الأرقام لم تطف بباله وهو يعشق حسامه

ليضرب فى صفوف مرصوصة متكتلة كأنها كسف الغيم . عاطفته هى التي كانت تمثل ، وعقل وراءها عقله . وعندما أشهر سيفه فى وجوه أصحاب الجمل ذلك اليوم برحبة مدينة الرزق ، لم يقدم فى خاطره إلا أنه يهز منجل حصاد ! . .
ثم فقد وجب عليه أن يقطف هذه الرءوس التى خرجت لفتنة ، ومضت على وجوهها كل هذه المراحل الطويلة من بطاح مكة لسواد البصرة ، وهى تروم أن تنكث وتنقض وتقوض دعامة الخلافة التي شادها الإمام . أليس الدفع عن دولة على فى الله وما بايعوا إذ بايعوه سوى الله ؟ . .

لم يعن حكيم قط بأن يتفكر فى أنه بحيال آلاف وآلاف من الرجال المزودين بخير العتاد والسلاح ، وهو فى ثلثمائة من الأعوان فحسب . ولكنه كان قائماً فى حق ، فيحسبه أن يسنده إيمانه . وليدع لهم كتائبهم المعبأة تغرقه لو شاءت فى خضمها العجاج ، فلعله يستطيع أن يغالب سطوة اللجة ويشق جبال هذا الطوفان .

والتحمت الأسنة . كل فرد من أعوان الجمل خرج يهز رمحه فى وجوه هذه الطائفة الصغيرة ، ويضرب ويجول . حتى طلحة خرج ، وحتى الزبير أيضاً ، كأنهما يقومان لجيش عات عديده الألوف . بل قد رتبا لها الفرق ، وقدما عليها القواد : أربعة زحفوا جادين إلى تلك الفئة المستضعفة بعددها ، القوية بعزمها ، كان طلحة أحدهم ، يقود كتيبة فى وجه حكيم ولكن هذا لم تهله الكثرة المتدفقة ، ولم يخلع لها فؤاده ، بل قابلها ثابتاً مالكا جأشه وسيفه ، شعاره أن يهزج فيقول :

« أضربهم باليابس ضرب غلام عابس
من الحيــاة آيس ! »

فلقد قدم الوفاء على الدماء . ورمى بحياته رخيصة على مذبح إيمانه . . .

كان من البدء يعلم أنه لن يقوم لكل هذه الجموع الزاخرة من جند المنتصرين ، ولن يستطيع دفعاً لأداتهم الحربية الرهيبة أن تطأه وتدهس أعوانه القلائل وكان أيضا عارفاً بخلجات أنفس أولئك الخصوم ، علما أن لواءهم الأكبر الذى التفوا به وما يزالون هو عائشة بنت الصديق ، فلو سقط ذلك اللواء — لو فقدوه وهم فى عنفوان المعركة إذن لأخذتهم الرهبة وتبددت شجاعتهم وقد غدوا وليس

أمامهم ما يتضحون عنه إن تقديس السيدة كان وحده يمسك عليهم وحدتهم ، ويثير فى دمائهم الحمية ، ويحبب إليهم القتال . . . الله يعلم إن كان حكيم قد أراد فى هذه الآونة أن ينال عائشة بسوء ، أو أزمع سعيه إليها ليأخذها رهينة ثمينة يستطيع أن يبادل بها قومها صلحا مشرفا يرد للإمام شوكته بالبصرة . ويعيد سلطانه المسلوب . . .

ما إن نشبت المعركة حتى اندفعت طائفة من أصحابه إلى دار أم المؤمنين عند رحبة مدينة الرزق لتقتحمها على صاحبتها الآمنة بعض الأمان . إنها بغير ريب مجاز أولئك القلائل إلى النصر ، وأملهم الباقى لإفاءة الهدوء على بلدتهم وعلى أمتهم على السواء . ولكن بابها كان أمنع من أن تعصف به تلك الحفنة المهاجمة وتفض رتاجه ، فدونه كانت صفوف من الأولياء من قيس والأزد والرباب ، كلهم وقفوا يردون عنه العوادى ، ويتمثلون فى دفاعهم عن الدار أن وراء جدرانها الصامتة امرأة لها قداسة أن لاذت أعواما بكنف رسول الله .

وأخذت المعركة بعد قليل تميل جذوتها إلى الخمود عن التأور والاحتدام . وشهد باب عائشة حينذاك أجساما يفريها الطعن ، ورءوسا تتبعثر على الثرى فى جواره ، تحت ضربات سيوف أولئك الحراس الشداد . لم يغن إقدام هذا النفر القليل عنهم شيئاً ، ولم يؤخر قدرهم المحتوم . بات واضحا أن شجاعة ابن جبلة ، وإن أبلغته مكانة الأبطال فى الأساطير ، لم تعد مستطيعة أن تحمله على متن النصر المأمول . وإنما تناولته الأسنة من كل صوب ، وتعاورت صحبة ألوف من الأيدى وألوف ، تمتد إليهم بسلاح سطعت شفراته كومض البروق وحملت أطرافه الموت الناقع . . لو كان أعداؤه جميعا عزلا لوسعهم أن ينالوه . ولو حصبوه وصحبه بدقائق الحصا والتراب لبلغوا منهم الوطر . . . ولكنه مع ذلك لم يتقهقر قط ، ولم يدر ظهره ، ولم تزلزله المحنة ، بل ثبت بموطنه لا يبرحه كأنما بنى فيه على قدميه . ! وظل سيفه بكفه لا يكفه لحظة عن الحركة . . .

ثم آنت أخيراً اللحظة التى بدأت تحسم النزاع . . . ازدلف امرؤ من أصحاب الجمل إلى حكيم ، فبالقضاء عليه تسكن ثائرة اللظى المشبوبة ... وعند غرة منه ،

أتاه من خلفه ، وضرب بحسامه إحدى رجليه . فما أن مرق الحسام ثم ارتد حتى طارت الساق . أفرأى الضارب يا ترى أن حكيما بنيان راسخ القواعد لا ينقض إلا إذا قوض تحته أساسه ؟ . . كذلك حسب ، وكذلك أيقن يقينه واثلج فؤاده وهو يشهده كيف اهتز للضربة الصيبة حتى اختلجت كفه ، فسقط سيفه بين أشلاء الصرعى وساقه المبتورة ! . . .

فى هذه الفترة الحازبة التى تذهل المرء من نفسه فتحيله كيانا من الألم الصارخ لم يهن جلد الجريح ، ولم تتخل عنه شجاعته المثلى التى يعز شبيهها فى بطولة الأساطير . . . لوى عنقه فى التو إلى غريمه ، وألقى عليه نظرة صارمة استوعبت حقده المرير . فلعلها استقبلت فى نظيرها أخرى سودتها الشماتة وبسمة سخرية وآراء طافت هنيهة بشفتى حليف الجمل إذ رأى موتوره أعزل لا يملك أن يرد عليه ضربته . بل عساه استشعر أيضاً الرثاء حتف رغبته ، هذا الضارب الصحيح المنتصر ، وقد شهد حكيما يميل كمن مادت به الأرض فيوشك أن يهوى من تخاذل وإعياء . . . أمن إعياء ! . . أحقا أوشك الجبار أن يتخذ له مرقداً بين الأشلاء إذ هو حطام ؟ . . إن لمح الطرف لأوسع فسحة من أن يضيق عن الحركة المباغتة التى أتى بها الجريح ، ففى أقصر منها كان قد مال ، ثم رفع ساقه المبتورة ، ثم استوى كما استطاع الاستواء على ساق ، ثم رمى عدوه برجله البتراء فصرعه حيث كان . وقبل أن ينتبه الصريع كان الموتور قد وثب عليه ، وبالسلاح الذى لم يعد يملك سواه — بأصابعه ، راح يجهز عليه حتى اعتصر من بدنه الحياة ! . . .

وتريث حكيم هنيهة يلقف أنفاسه المبهورة ، وإن الرضا ليشيع على قسمات وجهه فيستر ألمه ويخفيه . بين الرءوس الطائرة والأشلاء المتناثرة ، وفوق أديم المعركة التى لم يكف فيها الصراع ، اتخذ على جثمان عدوه مجلسا لعله لم يقتعد أوثر منه قبل اليوم ؟ . . وكانت نهكة الجهد قد نالت منه ، ودمه النازف من جرحه الكبير يجرى به وئيداً وئيداً إلى غشية قريبة ، يجرى الفلك عن أضناه طول الإبحار إلى شاطئ ظليل فيه راحة واستقرار . ولكنه حتى فى هذه الغمرة

التى تشبه الوسن لم يذهل عن طبعه ، أو لعله كان يحلم بسجية الشجاعة وهو يهم أن يتقيه فى نعاس الموت . . . فراح يردد بصوته الضعيف ، ويرتجز نفسه يزدهيها الفخار :

« ليس على أن أموت عار   فالعار فى الناس هو الفرار
والمجد لا يفدحه الدمار . . . »

وكانت به بقية من حياة عندما مر فارس من أعوانه وهو بمرقده ذاك ، هتف به إذ رآه .

« حكيم ! . . مالك يا حكيم ؟ . . »

« قتلت . . . »

« ومن قتلك ؟ . . . »

فلم تغب عنه قوة جنانه ، وهو بموقفه الضنك ، ولم يتخل عنه مرحه فأجاب وهو يبتسم :

« وسادتى ! . . . »

فسارع الرجل يحمله إلى مكان آمن عليه مما هو فيه . والتف به بقية صحبه الذين أخطأتهم الأسنة حتى الآن . فلما شهدهم حوله ، انتحل من حياتهم حياة ، ومن قوتهم قوة ، وأمرهم فسندوه حتى وقف بينهم على رجل واحدة . . إن النصر قد فر حقاً منه ، ولكن النفوس تستطيع أن تختزن الحقد أجيالا طويلة ، وتتوارثه ، وتنقله إلى سواها كما تنتقل العدوى ، فما له لا يؤلب قومه مرة أخرى على هؤلاء الغزاة العادين قبل أن يموت ، فتكون لكلماته الأخيرة قداسة وصية واجبة الإنفاذ ؟ .

وأنصت له النفر الملتفون به ، وإن السيوف لتأخذهم فلا يتهيبها ولا يرعون . . . ومضى هو يقول :

« أيها الناس . . إن خلفنا هذين ، وقد بايعا عليا ، وأعطياه الطاعة . . . ثم أقبلا ، مخالفين ، محاربين ، يطلبان بدم عثمان بن عفان ، ففرقا بيننا ، ونحن أهل دار وجوار . . . اللهم إنهما لم يريدا عثمان »

ولم يطل به الحديث ، فقد جمدت أنفاسه وحالت بين كلماته الباقية أن تبلغ الأسماع ، الموت أطبق بأصابعه الباردة على شفتيه وإن بقية حديثه ليلحقه ، فماتت ألفاظه قبل أن تولد . وعندما انجاب غبار المعركة ، وسكن صليل السيوف والسلاح ، كان الرجل لقى على التراب الذى رواه الدم ، إلى جوار أشلاء ولده الأشرف ، وأخيه الرعل ، وبين جثث أولئك النفر من فرسانه ، الذين ظلوا يصغون إليه حتى اللحظة الأخيرة ثم تبعوه مسارعين فى مجاز الموت كما قادهم من قبل فى دروب الحياة . . .

ومهما اختلفت الآراء فيه ، وتباينت نظرات من يفحصون فعاله تحت أضواء شتى يشعها تغاير النزعات . . ومهما أنكر المنكرون عليه إزراءه بعائشة ، وقذفه إياها بهجر القول ، وسعيه أن يقتحم عليها بيتها — وهى امرأة لها من أنوثتها سياج ، دع ما يجب لها من توقير عند الناس . . . مهما يكن من أخطاء الرجل أو ما يبدو أمام خصومه كأنه أخطاء ، فليس من ريب فى أنه مضى مثلا فذا لإنكار الذات ، والذود عن رأيه وإيمانه حتى ليعز أن يكون له شبيه فى الرجولة بين الرجال ، وفى البطولة بين الأبطال . وكفاه أن آثر اعتناق الموت على أن يعيش مستذلا ، ومستظلا أفياء الدعة والتخاذل . فمضى لربه وما عزم عليه ، راضياً بموقفه : قريرا أن ناضل عن حرية شعب أبى له أن يركبه عدوه بالطغيان ويقهره ليدين بما ليس يؤمن به كل الإيمان . . . إن حكيما كان يرى فى رجال عائشة جيشاً غازياً ، عاديا ، يهم أن يسود البصرة بقوة السلاح ، ويبدل شعبها بعهد النور والتحرر ، الذى بزغت شمسه وماكادت ، عهداً كله عسف وظلام . لهذا هب هبته وقام يدرأ النكبة بلسانه وقلبه ودمه . وها هى كلماته تحمل عقيدته وترسم نفسه التي لم تقر الخضوع والإذعان . . . دوت هنيهة فى الآذان فصارت لواء التف به أعوانه ومن رأى رأيه ، وناضلوا عنه حق نضال حتى غاض منهم معين الحياة . . . ولسوف تدوى مثيلاتها أبداً ماكان للحرية فى هذا العالم صوت مسموع وما بقى لها على أديمه ناصر . . كان قد قدم قبيل المعركة يستثير همم ذويه وتخوتهم أن يظاهروه فى كفاحه ودفعه الغزاة عن بلده الأبى الأمين ، فراح يهيب بهم ويقول :

« يا معشر عبد القيس . . اشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو . . فإما أن تموتوا كراما ، وإما أن تعيشوا أحرارا . . . »

فاستجابوا للنداء وماتوا وهم كرام . . . ذهبوا فى سبيل الحرية ، صرعى ، ضحايا وقرابين . . .

ولكنهم كانوا ثمناً أرخص لمطلب ثمين ! فكم للحرية من شهداء ، وما أكثر ما يبذل من أجلها من فداء ! . : لم تكن دماؤه وصحبه آخر ما أريق ذلك اليوم على مذبحها المرموق . النصر الباغى لا يشبع نهمه ولا تكف أنيابه عن النهش ولا بلعومه عن البلع والازدراد ! . . . فما أن أيقن أصحاب الجمل أن وسن الموت قد غشى ميدان الصراع وأتى فيه على كل خصومهم سوى قليل ، حتى تنادوا فى أرجاء البلدة بين القبائل التى أفزعتها أنباء المذبحة :

« من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة ، فليأتنا بهم . . . » .

فمن غزا المدينة ؟ . . لأن مصير سوف يساق هؤلاء يا ترى وهم مئات ؟ . . . وبأى جريرة يساقون ؟ . . وهل غابت عن الزبير وطلحة أنه كان لهما فيهم أنصار طالما استعدوهم إذ ذاك على عثمان ؟ . . إن عائشة نفسها كانت ترثى أيام ابن عفان للقوم — أولئك الذين قصدوا المدينة — لأنهم كانوا فى عينها مظلومين يبغون رفع ظلاماتهم عند الخليفة ، ويجب لهم عليه الإنصاف ، فكيف تدعهم اليوم وتتخلى عنهم ؟ .

الهوى يبدل أسباباً بأسباب ويختلق ما يشاء من المعاذير ! .. وها هو الرثاء ينقلب نقمة على مستضعفى الأمس المظلومين فتتنكر لهم نفوس من اتخذوهم لهم أنصاراً وأولياء من قبل . بغير هذه النقمة وهذا التنكر لا تستقيم الدعوة العائشية المنادية بالانتقام لعثمان ! . . وما أهون على طلحة وصاحبه من اصطناع ضحايا يكفرون عن خطاياهما فى حق الشيخ حين يجب عليهما التفكير ! . . . أم حسبها الناس سيؤمنون أنهما بريئان وقد شهدوا غيرهما يناله القصاص ؟ . . كلا والله ، وقد أخطآ لو حسباه ! . . بل طلحة يعلم بأى شىء تلونت كفه فى محنة عثمان وهو القائل :

« . . كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه ! . . . »

ومع ذلك فقد آثر أن يسفك دم سواه ! . . بوجىء له ولحزبه بأولئك القوم « ممن غزا المدينة ! ! » من أهل البصرة ، كما يجاء بالكلاب فقتلوا جميعاً أمام أعينهم ، لم يتسع لأحد منهم عذر ولا تبرير ! . . الله وحده يعلم كم من مظلوم قتلوا وكم من برىء ، ويعلم أيضا إن كانت نقمة أعوانهم عند هذا القصاص لم تتسع لكثير « ممن لم يغزوا المدينة » وإنما ألصق بهم قسرا ذلك الاتهام ! .

إن السياسة على أى حال لها أسلوبها الخاص ، وليست بذات قلب وضمير !..

كفى بها أن أنالتهم ما يبغون فها هى البصرة دانت لهم بعد طول تمنع وازورار ، وخضعت ولو تحت سيف الإرهاب . . وها هم أهلوها يبايعون الصاحبين على الطاعة والخضوع . النصر الأكبر منهما الآن جد قريب ، يوم تدين بقية الأنصار . . .

وعلى ذلك بادرا وعائشة يرسلون الرقاع إلى الأقاليم تحمل نبأ ظفرهم وتدعو بدعوتهم ، التى تؤلب على الإمام ، أو تهيب بالناس أن يقعدوا من نصرته . . .

كتبوا بهذا إلى الشام ، وإلى اليمامة ، وإلى المدينة ، ثم إلى أهل الكوفة وهم يأملون أن يأتيهم من كل أولئكم نصير يشد أزرهم ويعينهم على ما يريدون . . .

ولكنهم كانوا يبدون بكتبهم غير ما يخفون . حرصوا أن يظهروا أمام الناس كمن لا يبغى أربا من سيادة أو سلطان ، بل هى نهضة لله تقتص للقتيل المظلوم .

« . . . إنا نناشدكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا ، وقضينا الذى علينا . . »

فما كان أرقه من ستار يشف عما خلفه ! . . فهذا الزبير ، لا يكاد يرفع يده عن كتبهم هذه ، حتى يمضى بين أهل البصرة — أعوانه الجدد — يحفز ولاءهم أن يستجيبوا له فلا يكون كلامه إلا دعوة سافرة تكشف عن مبلغ طمعه فى السلطان . . . ينادى فى الناس :

« ألا ألف فارس ، أسير بهم إلى على ، فإما بيته وإما صبحته ، لعلى أقتله قبل أن يصل إلينا ! . . . »

فتذهب دعوته الظالمة بدداً فى الريح ، ويذهب معها اعتزازه بما أصاب من نصر لم تخلق جدته الأيام ! . . .

وما أسرع ما ينتاب الرجل الضيق والتردد . وإنه ليحس ، فى ساعة تأمل وقد خلا بنفسه ، أن سحابة من الشك تغشى بصيرته فلا يجيد تبين الأمور . . اشتبه عليه موقفه وملأ قلبه التوجس مما هو فيه وما صيرته إليه الأحداث ، حتى ليهمس محدثا نفسه :

« إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدث عنها . . . » .

فإذا أذن أخرى قد لقفت همسه ، فيرتد عما كان فيه من شرود الذهن على صوت مولاه :

« أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ . . »

« ويحك ! . . إنا نبصر ولا نبصر . . . »

ثم هز رأسه فى أسف وأردف يقول :

« . . . ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمى فيه غير هذا الأمر ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! » .

عــــزلة

١

بعد الصبر عن القصد ! . .

فى علاج الأنفس المنحرفة عن الجادة يستطب بالرفق فتستقيم ، وبالعظة الحسنة فتفىء إلى الحق إذ تراها مشعلا يضىء أمامها فيكشف المفترق بين الضلال والهداية . . بين عماية الباطل ويقظة الصواب المنير ، ولكن الذين أغواهم هواهم ليس يهديهم من غى راشد ، ولا يميط عن قلوبهم أكنتها . . . الأرب الذاتى وحده غايتهم ، إليه يسعون ، على الصعب والذلول ، بأى وسيلة وظهر ، ومن أى سبيل ، إن الطريق تزين لهم فى غلالة من الضوء رقيقة هى أشبه بلمعة الفجر الكاذب فى جانب السماء وإن حسبوها بشير الإصباح . المنى الآن حيالهم بارقة ، لها سنى بانت تحته الدارة المنشودة فيها مياه وظل ظليل . والمرحلة الباقية قصيرة ، خطوات ثم يبلغون ما يشتهون . أفيلقون ثمة جنى وغصونا وارفة فينانة أم هى يا ترى خفقة السراب ؟ . . .

إن هذا لوهم المخدوع عن بصره وعن بصيرته ، فقد جمحت بهم مطايا الغايات وهاموا فى فلاة يختلط فيها انعكاس السراب بفراغ كأنه التيه . جاوزت بهم أمانيهم القصد ، نأت عنه كما نأى الصبر بالإمام . عندما ترفق بهم ونزع إلى الحسنى كان صبره عليهم فى الله ، وللوطن الذى شاء من أجله أن يمهل لدعاة الانقسام عسى أن يكون فى إمهاله إياهم علاج ما بنفوسهم من انحراف . أما اليوم فقد عرف أن داءهم عزيز على دوائه فليس له أن يدعهم إذن عدوى تصيب الباقين . نصرهم بالبصرة — وإن جاءهم على متن الغدر — حرى أن يفتن ضعاف النفوس بغيرها من البلدان وما أكثر ما يحسب الخلق الحق فى جانب الظافر . وإذا كان قد أمهلهم بالأمس فقد وجب الآن أن يعالجهم حتى لا تسير الأقاليم الأخرى على آثارهم فى درب الفتنة . فكم بها من متربص يهزه جشعه للسيادة أن يغامر بالانتقاض على إمرته وهو لا يهدف ، إذ يفعل ، إلا إلى إرضاء شهوة خاصة ، أما خير وطنه ودينه فتلو مشتهاه . . .

على الإمام الشخوص إلى مباءة العصاة ليئد هناك فتنهم . وليلحد فى حلبة نصرهم قبرا يضم مطامعهم . إن لهم فى جعبته لدواء ناجعاً يشفى من أدوائهم العصية ما عز على الموعظة والترفق — لهم عنده العنف ولهم السيف ! ... ومع ذلك فلم تبرح الرحمة قلبه قط ، بل كان دائما أقرب إلى الرثاء لهم من هذا الغى الذى سدروا فيه ، وظل يرجو أن يتغلب التبصر فى نفوسهم على الطيش فيبقى السلام ويلتئم صدع الإسلام . وما كان عدوانهم على البصرة ، ولا سومهم أهلها الخسف بذلك الإرهاب الذى اختطوه ، لينزع من قلبه الرجاء فى عطفهم إليه باللين والهوادة . وحين جاءه ابن حنيف وبوجهه آثار مثلتهم كتم فورة غضبه قدر وسعه حتى لا يثير لواعج الألم فى نفس الوالى المغلوب ، وتلقاه قائلا فى دعابة :

« انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب ! . . »

ثم ربت ظهره مواسيا وقال :

« ... أصبت أجراً وخيراً يا عثمان . . . »

ومع ما بدا من تهوينه شأن هذا العدوان فلم يغفل عما قد يجىء فى أعقابه من أخطار لو ظل مستمسكا بصبره . ولكنه كان من أمره كالمضيع ، يرى الخطر تحت قدميه ولا يملك رده . فما زال ينقصه مزيد من الرجال والعتاد ولو أن امرأ آخر كان مكانه لما أبى نصرة القبائل التى أتته دراكا تعرض نفسها عليه أن يقبلها فى جيشه ، أما هو فقد بقى وفيا لرأيه الأول لا يحيد عنه حتى يظل نقى الصفحة أبدا ، نائيا عن اقتحام الشبهات . ولكم غل يديه استمساكه بهذا المبدأ وتركه رهينة رأى أبى موسى الأشعرى والى الكوفة الذى لم يكفه القعود عن نصرته بل راح يحض أهل إقليمه ألا يلحقوا به ولا يمدوه بالرجال والسلاح . فما كان أعجب موقف الأشعرى المتخاذل ، وأتعس به من نصير ووال ! . . .

كم حز فى نفسه أن تثبط همة الكوفة عنه ، هى التى آثرها بحبه على بقية البلاد وشاء أن يتخذها ردءاً له وللوطن يدفع عنهما غائلة العصاة . وكم عانى إذ ذاك من قلق الانتظار . لقد أرسل يستمدها مرة ، ثم ثانية ، ثم أخرى فما بالها لم تلب دعوته ؟ . . آفتها دون ريب واليه ، فهل من عجب أن تحوم حول الأشعرى

الشكوك حتى ليحسبه الناس ضالعا مع الأعداء ؟ . . لم تجد الرسل ، ولم يغير العامل العاصى موقفه . وهذا محمد بن أبى بكر يعود من الكوفة ولا جند وراءه ، ويخبر الإمام كيف خبر بنفسه حقيقة دخيلة أبى موسى فاستيقن أنه تنكر لأدنى واجبات الولاء . . . كان محمد قد مضى بكتاب من على إلى الوالى يستنفره فيه وأهل إقليمه أن يوافوا جيش التأديب بذى قار ، فلم يلق عند الأشعرى أذنا سميعة ، وعندما بلغ الناس قدوم رسول الإمام ذهب وجوههم إلى عاملهم يطلبون منه المشورة :

« ما ترى فى الخروج ؟ . . . »

فقال دون مبالاة :

« كان الرأى بالأمس ليس باليوم . إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون . . . »

ثم أردف يبث فيهم التخاذل فقال :

« . . . إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا أيها الناس ! . . » .

فكان من الطبيعى أن يثاقلوا عن دعوة الإمام بعد هذا الرأى الذى ساقه واليهم الحصيف ! . . .

وعلم محمد بما كان من الرجل فأسرع يجادله فى الأمر . ولعله ذكره بما عساه قد غفل عنه أو أغفله من وجوب استمساكه بالولاء لأمير المؤمنين فى هذه المحنة التى أوشكت أن تزلزل صرح الإسلام . ولكن أبا موسى تشبث بعناده . وبدا كأن قد حزم حزمه على القعود ، وعلى تثبيط الناس ، وعلى عمل كل ما هو كفيل بغل يد الإمام عن قمع الثوار . لم يصغ للنصح ولم يلن أمام غضب رسول مولاه . بل ظل بموقفه العجيب لا يتزحزح عنه . . . وكأنه أراد أن يبدو فى عينى ابن أبى بكر كمن يخشى على الحق أن يضيع ، ويحرص على العدالة لتسير فى نهجها ، فقال بعد قليل يبرر مسلك العناد الذى التزمه :

« والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبك . فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . »

فهذا ترديد لقول قديم نطق به طلحة والزبير عقب بيعتهما الإمام ! . . فبأى عدة ياترى يستطاع الفراغ من قتلة عثمان وثمة أحزاب شتى كلها يدعى لنفسه الحق فى القصاص ولا يدفع إلى يد الحاكم الشرعى للدولة بجندى واحد يستعين به فى إنفاذ العدالة فى أولئك القتلة المطلوبين ؟. ومن كانوا الجناة المخضبة أكفهم بدماء الخليفة القتيل ؟ . . وكيف يساغ أن يطلب من الإمام الثأر لعثمان وقد تفرق دمه بين القبائل وأهل الأمصار بل الطائفة التى نهضت تدعى لنفسها ولاية الدم ؟ . . إن العجب كل العجب أن يسألوه الاقتصاص من كل أولئك الجماهير ثم يضنون عليه بالسلاح الذى يقابلها به ، وبالجند الذى هو عدة من يريد إقامة حق ودحض باطل ليس إليهما من سبيل إلا بقوة السواعد وحد السيوف ! .

لقد أوشك الأشعرى بمسلكه أن ينحاز لأهل الفتنة المنتقضين على الإمام . وهل كانت فتنتهم سوى عصيان يكاد الرجل أن يقرهم عليه ؟ . ويعلى لهم فيه ؟ . . ويغرى غيرهم بتأثر خطاهم المريبة ؟ . . فتقاعده عن نصرة مولاه مكن لهم فى البصرة ، وهو كفيل بعد أن ينيلهم أربهم فى البلدان الأخرى ما دام على لا يملك ردهم عما يريدون . لا ريب كان مفتاح الموقف كله فى يد أبى موسى تلك الأيام لو شاء خذل أو شاء نصر . وكان فيما يبدو يستشعر هذه القوة التى حباه بها زمانه وأصبح من طريقها قواما على مصير الدولة ، فظل طويلا يستمتع بما أضفته عليه من اعتزاز بنفسه ومقداره ، وغلا فى عناده ما وسعه الغلو والتيه فراح يلوى جيده عن رسل الإمام الذين ما فتئوا يقصدونه تباعاً ليستجيب لدعوة أمير المؤمنين . . قصده ابن أبى بكر وابن جعفر ، ثم من بعدهما عمار بن ياسر ، والأشتر ، وابن عباس ، والحسن سبط رسول الله . وكانوا جميعا نخبة من خيرة الناس تتفتح أعصى المغاليق والأبواب لكلمة تند منهم إلا باب قلب الأشعرى المفتون بالعناد . فما زال الرجل ممعنا فى غلوائه ، أو فى عدائه ، حتى ضاق عنه صدر على الذى لا يضيق ، وكتب له يقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغنى عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولى عليك فارفع ذيلك ، واشدد مئزرك ، واخرج من حجرك ، واندب من معك . فإن حققت فانفذ وإن فشلت فابعد . . . وايم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ! . . وما هى بالهوينى التى ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى ، يركب جملها ، ويذل صعبها ، ويسهل جبلها ؛ فاعقل عقلك ، واملك أمرك ، وخذ نصيبك وحظك . . فإن كرهت فتنح إلى غير رحب ولا فى نجاة . . والله إنه لحق مع محق ، وما نبالى ما صنع الملحدون . »

أفكان التفشل أو الجبن هو وحده باعث تقاعد الأشعرى عن نصرة الإمام ؟.. على ترفق غاية الترفق بواليه العاصى ، الذى خذله وخذل عنه فلم ير فى خطابه أن يرميه بالخيانة ، واكتفى بأن رسمه خواراً ضعيف الرأى قصير النظرة بالغ التردد ، يتشابه عليه أمره حتى لا يدرى أين يجب عليه أن يضع قدميه . ولقد تجتمع الآراء فى نظرتها لهذا الرسم وتتفق غاية اتفاق ، ولكن منها بغير شك ما لا يحرم الوالى صفة أخرى هى التنكر لطاعة الإمام وبعده عن الولاء له . هذه الصفة كانت ثوبا لنفس أبى موسى لم تخلعه فى أحرج المواطن وأدعاها إلى الاستجابة للوفاء والنصرة ، بدت جلية خلال محنة البصرة ، وستبدو من بعد أجلى وأظهر حين يسخر القدر سخريته المرة فيجعل من الأشعرى ، الذى لم يؤمن قط بحق مولاه ، صاحب الكلمة الفاصلة فى هذا الحق عند التحكيم . .

على أنها كانت محنة اختبرت فيها نفوس الرجال فنضح إناء أبى موسى بما فيه ! . . . وقد آثر الرجال أن يبقى بموقفه ، تماما كالأتان الحرون ، وإن ألهبت ظهره من ألفاظ أميره سياط لساعة ! . . . وإن تناوبه الرسل بالحث واللحى والوعيد . فلأمر كتمه كان مسلكه ، أو كان من غفلة لا يصلح معها أن يؤتمن على ولايته ولا ثقة مولاه . . . وعندما يئين الوقت فسوف نراه ، ليس فحسب ذلك العامل العاصى الغافل ، بل الأداة القاطعة التى سدد القدر حدها لدولة الإمام .

٢

العزلة . . .

هذه هى السياسة التى شاء أبو موسى الأشعرى أن يحمل عليها أهل إقليمه ، وإنها للفظ هين رقيق يرسم صورة لنواياه لو استطعنا إحسان الظن بما يطوى عليه خاطره وأغفلنا مابدا من تنكره لواجب الولاء لأميره وفى عنقه بيعة توجب عليه هذا الولاء . ولكن الرجل رأى رأيه ، وخط سبيله وسار قدما فيه . وهو بهذا يوشك أن يكرر مرة أخرى نفس المأساة التى وقعت فى العام السالف بحاضرة الإسلام ويلعب دور ذلك الفريق من الصحابة ، الذين تقاعدوا خلال محنة عثمان فى وقت دعتهم الدواعى فيه إلى عمل إيجابى حاسم ، وآثروا النأى بأنفسهم عن تناول الأمور حتى أبرم القدر قضاءه فى الخليفة الشيخ . . . فلو أدلوا بدلوهم إذ ذاك ، ومضوا وما تفرضه عليهم مكانتهم بحسبانهم رءوس الناس ، وواجبهم من نصر الحق أو كبح الباطل فربما وسعهم يومها أن يكتبوا صفحة أخرى فى التاريخ أنقى وأطهر ، لا يلوث أديمها مداد الدم ، ولاستطاعوا أن يدفعوا عن عثمان عادية الفتنة ، أو يحملوه على التزام السبيل السوى فيجنبوه مصرعه . وها اليوم يعيد الأشعرى قصتهم ، ويرد ما كان من تواكلهم ثانية إلى الحياة وهو ينأى بنفسه وبأهل إقليمه عن أميره كما ينأى الناس عن راع استصرخهم على ذئاب جياع ! . .

وكان رأى أبى موسى أن يدع الراعى ويدع الذئاب ، لا يعدو من أجل فريق منهما على فريق ! . . جماع سياسته كان هـذا القعود وأمر العادى والمستصرخ كليهما للأقدار ! . فتنه الاعتزال شر افتتان لا نحسبه يجىء إلا عن غفلة تجاوز كل الغفلات ، أو عن مكر سيئ يراد من ورائه أن يشتبك الأمر وينتقض على أمير المؤمنين . ولقد كاد الخطب يدلهم ، وأوشك أن يطلع عواقب وخيمه ؛ فما هز هذا شعرة فى لحيته ! وما دفعه قط عن سياسته السلبية ، بل ظل ودأبه ، يحض أهل بلدته أن يقعدوا مثل قعدته كأن الأمر ليس يعنيه . وكأن كل ما فى

جعبته من علاج للداء الموشك على الأخذ بخناق أمته من وراء الخلاف المشبوب هو ما تحمله هذه الكلمات :

« . . . أغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار حتى تنجلى هذه الفتنة . . . » .

فالدولة إذن والأقدار إن شاءت مالت بها إلى يمين أو طوحت بها إلى يسار ... مصير الأمة الإسلامية كلها كان لا يساوى عنده خطوة يخطوها فى توفيق أو سيفا يسله فى دفاع ونصرة . . . لا عمل سوى ألا يعمل ! . . .

فما أعجب أن تكون هذه هى الخطة التى ظنها تودى لخير ! . . . أم كانت عزلة حقيقية لا ترجح كفة جانب من الفريقين ؟ . . الأشعرى هكذا آثرها ، وقام يبشر بها بين الناس كأنها حيدة صريحة أمينة لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من الطائفتين اللتين ثارت أو كادت أن تثور بينهما الحرب الأهلية . وحين تحسن الظن بالرجل قد تراها برأى عينه ، ولكنك لو فكرت قليلا لكدت تنكر على المصادفة وحدها أن تضع فى فيه لسان ببغاء يردد نفس كلمات عائشة أو يكاد ! . .

نعم وإنك لحق فى هذا الإنكار ، أو متردد — فى القليل — يجتذبك الشك وتلعب بك الريبة ، فما تستطيع أن تنسى أن بمثل دعوته دعت عائشة من قبل وبعثت بكتبها إلى أهل الكوفة عقب انصياع البصرة لطاعتها عنوة بعد ما لفها جيشها فى وشاح إرهاب ... كتبت إذا ذاك إلى بلدة هذا الأمير تقول فى خطاب لها طويل !

« . . . فثبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، وجلسوا فى بيوتكم . . . . . » .

وبمثله أيضاً بعثت إلى طائفة من رجالات هذا المصر ، تحضهم على القعود ، وجرت هكذا رسالتها إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبى بكر . أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد ، فإذا أتاك كتابي فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن على . . . . » .

فلصالح من كان هذا التخذيل ؟ . . وإذا كانت السيدة لم تجد فى زيد لسانا ناطقا بدعوتها فها هو الأشعرى يرفع بها عقيرته ولا يكف لحظة واحدة عن ترديدها وصبها فى الآذان . كان دأبه الدائب أن يثبط الناس عن مولاه استجابة منه — على أهون افتراض — لخطته التى سماها سياسة الاعتزال .

ويمر الوقت . وتستطير الفتنة فلا تخفى مغبتها الخطرة عن ذى عينين ، منذرة بشر مآل ينتظر دولة الإسلام ، وآخذة بين يوم ويوم من هيبة الرجل الذى أقسم له يمين الولاء ، ومع ذلك فما يفى أبو موسى يسدر فى غيه ، ويمعن فيه أيما إمعان . بل هو يكلف بالحرص على هذا الإصرار فلا يزحزحه عنه شيء ، ولا يرده إنسان . وكلما جاءه رسول من الإمام يهيب به أن يندب الناس ، بدا كأنما فى الإهابة مايغريه باللج فى عناده . ولا يكاد يمضى عنه ابن أبى بكر يائساً من استمالته ومن هدايته ، ويقبل ابن عباس مبعوثاً جديداً من قبل الإمام ، حتى يعاوده كلفه بالتثبيط هذه المرة أعمق وأشد ، فيردد ما كان قد سلف منه للجموع وإنه ليصطنع لنفسه فى خطابه الجديد مقاما يجعل لحديثه عذوبة فى الأسماع . . . اسمعه كيف قام يقول :

« يا أيها الناس . . إن أصحاب النبي الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ! . . وإن لكم علينا حقا ، فأنا مؤديه إليكم . . . »

فهو إذن أبصر بالموقف ، أعرف منهم بالحقائق الخفية إذ كانت له بالنبي صحبة وله إذن عليهم السمع ، ولقوله فصل الخطاب والقطع ! . .

وكرة ثانية يلم بحق عثمان على الناس إقامة يغلفها التلميح دون التصريح ، ويشير بها هونا لما اجترحه الشعب فى ولايته التى ما كان لامرئ أن يخلعها أو يخدشها وهى منحة من عند الله آثره بها دون سواه . ثم يمضى وحديثه المعاد المعهود . فإذا به الآن لا ينسى أن يضمنه دعوة أخرى إلى جوار دعوته السالفة إلى التخاذل والقعود . . . يقول وهو يستأنف الكلام :

« . . . كان الرأى ألا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا على الله . . . وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ! . . . »

ويحار الذهن أشد حيرة وأبلغها حين يحاول أن يستقصى المعنى المستتر وراء هذه الكلمات . إنها لتنضم على بغى سافر على حق أمير المؤمنين وتكاد تجأر بوجوب نقض بيعته التى تمت عن رضا من وجوه المسلمين واختيار حجة الأشعرى فى هذا أن ثمة طائفة لم تجتمع بعد على على ولم تدن له بالطاعة وإن علمها العامل الشاق قد نكثت عهدها السالف وحنثت بيمين الولاء . وإنه ليسدر فى بغيه حتى الغاية ، ويمضى ودعوة تخذيله وانتقاصه إلى حد أن يشترط ثمنا لاستجابته لأوامر الإمام — أى إمام كما يلوح ! — أن يتفق على تأييده كل الناس ولا يتردد أحد منهم فى الادلاء بالبيعة له . فما أعجب أن تكون هذه هى نظرة الرجل إلى إمرة أميره ، وما أدلها كلمات فضحت نواياه ! . . أم يعوز المرء أن يتلمس أبلغ منها دلالة على رأى الأشعرى فى ولاية على ، وهى ترسمه لنا مستهيناً بها ، لا على احتفال ، يرى نفسه فى حل منها لو شاء ، وخاصة وما غفل قط عن الإعلان بأن بيعة عثمان ما زالت فى عنقه ! . .

من العبث أن نصطنع العذر المقبول الذى يكون تبريراً لما قال . فما يستطيع أحد قط أن يكون مخلصا ظاهر الولاء لعهد ثم يخلص فى ذات الوقت لعهد آخر قام على أنقاض الأول . وقد يصح هذا لو لم تنثغر ثمة ثغرة بين العهدين تباعد أحدهما عن سابقه وتضرب بين أنصار كليهما بالعداء والخلاف . فلأى الحزبين كان أبو موسى يميل ! . . ولدولة من من الخليفتين يهب تأييده ! . .

الجواب الصريح نضحت عنه ذات الخطبة التى ألقاها والى الكوفة ، ذلك اليوم بمسجدها ، فى حضرة ابن عباس . إن الدعوة الأخرى التى رافقت دعوة القعود ونادى بها بين سامعيه . إنه الرأى الثانى الذى قوامه : أن يأخذوا من قدم عليهم من المدينة فيردوهم إليها . . .

من قدم من المدينة ؟ . . لو قد جرت الأنباء بأن طائفة من خصوم الإمام همت أن تنزح إلى الكوفة أو تزحف إليها بجيش لوسعنا فهم دعوة الأشعرى . ولكن هؤلاء الخصوم ، وكلهم لعائشة شيعة حتى الآن ، أتوا من مكة لم يخرجوا من المدينة ، وساروا صوب البصرة دون غيرها من البلدان ، فليسوا إذن من عناهم الرجل . ولو مشت فرق من الحزبين المصطرعين تؤم أرض إمرته لاستطعنا أن نسيغ دعوته على ضوء افتتانه بالوقوف منهما معا موقف حيدة واعتزال ، ولكننا أيضاً لم نسمع قط بنفر جاهر علياً بالعصيان أوشك أن يتخذ من الكوفة ملاذا ودار هجرة أو تأليب . فمن كان إذن أولئك القادمون ؟ . .

ما كان ليكفى الأشعرى أن يخذل الناس عن على جريا على السياسة السلبية التى اختطها لنفسه لأنه بات لا يرى الجدوى إلا من وراء عمل إيجابى حاسم يقوم به ، ويحض أهل إقليمه على مظاهرته فيه . وكان هذا العمل وقوفه حجابا حاجزاً بين « من قدم من المدينة » وبين الكوفة يردهم عنها إلى دار خروجهم حتى يجمعوا أمرهم على إمام ! أى إمام ! فليكشف لنا إذن نواياه ، وليبد لنا من سياسته سوأتها البغيضة فيدفع عن بلدته أنصار مولاه الذين قدموا وحدهم من المدينة ويردهم أن يلوذوا بحماه . أم يا ترى ثمة غير على قد تنادى باللياذ بالكوفة وقد كتب إلى أهلها عقب خروجه من حاضرة الإسلام كتابه الذى قال فيه : « إنى اخترتكم والنزول بين أظهركم » ؟ . .

فهى إذا سياسة عداء متصلة الحلقات دبرها هذا الوالى العاصى ليصاول بها أمير المؤمنين . بدأت بالدعوة إلى الاعتزال الظاهر الذى يخفى خلفه العصيان ثم سارت حتى بلغت منه ذروة الجحود والتنكر ، فطوعت له نفسه أن يصد مولاه عن بعض أرض ولاياته ، ويحرم عليه دخولها كأنه طريد ! . . فهل ترى أراد الأشعرى بدعوتيه ، وبث سمومهما بين أهل إقليمه ، أن يهيء أذهانهم بعد تثبيطهم عن الإمام إلى شنها حربا شعواء عليه ، حين تتوافر لدى الداعية الأسباب وتسنح فرص الأيام ؟ . .

دخيلة قلب هذا الباغى يعلمها الله ! . . ولكنك تعجب غاية العجب لو كنت تصغى إلى خطبته حتى لتكاد أن تنكر على أذنيك ما سمعتاه . . . أما هو فقد سار وشأنه ، هادئا فى غير استحياء ، ينفث سمه الناقع ، وينفخ فى رماد نار سوف تشب عما قليل ، وإن دخانها ليكاد أن يتخلل شعيرات لحيته فيصبغها بالسواد ، لو أنك أوتيت من رأى العين مثل حدة الخيال ! .

٣

فى بدء المحنة ، ظل شعب الكوفة مبقيا على هيبة أميره . لم يجاهره رجل فيها باستنكار السياسة التى جهد الوالى جهده لإنفاذها حتى الغاية . ولكنه كان إبقاء لا يستجيب لدافع غير ولع الناس بالدعة وإيثارها على الحرب بما هى حقيقة أن تجره من دماء ودموع . أما الولاء فما نحسب امرأ بالبلدة كان يضمر سواه للإمام . بل ثبتوا على عهدهم منه ، وعلى نظرة الإكبار التى كان يقتضيهم إياها ماضى على ، ومقامه من محمد ، وحسن بلائه فى الإسلام ، ومزاياه الخلقية التى يكاد أن يتفرد بها وتؤهله لإعزاز الدولة . والدين ولو أتيح لهم من البدء من يهز عواطفهم الكامنة بالقلوب إذن لاندلعت لهباً وفاضت كحمم البركان فى ثورته تجتاح أمامها كل ما يعترض سبيلها من دعوات التخذيل وصيحات المثبطين .

ولكن سحرهم من أميرهم دعوته الخلابة ، فما ينكر أحد ولا يكره نداء السلام وقد كاد أبو موسى أن يدخل أذهان الناس داعية سلام ، يبشر بحقن الدماء وإحلال الأخوة والصفاء فى مكان العداء والخصام . وأقبل القوم فى البدء يصغون إليه ، وتخدر عقولهم بحديثه الناعم . ولكن الزمن كان من عداته يتربص له ، ويزخر أيامه ولياليه لسحق خطته ، وردها فى نهاية الأمر شراً عليه ، ففى كل لحظة كانت الحقيقة الخافية وراء معسول اللفظ تتبلج لذهن من الأذهان وتلتمع كومضة شعاع . وبكل ومضة كان الوالى المتمرد يفقد أذنا كانت من قبل مصيخة لتناديه . ولئن بقى القوم زمانا مبقين على هيبة الرجل بينهم لا يردعونه

جهرة عما افتتن بالقيام فيه فلأن مشاعرهم الزارية عليه لم يتح لها المحرك المثير . .
على أن يوم النكس لم يغب طويلا . طلعت شمسه وأبو موسى قد أمن إشراقها
على أرضه لفرط ما آمن بجدوى دعوته . لم يظن قط أن عصاه السحرية لن تعود
أفعى حية ! . .

كان سلاحه الذى ضرب فى الميدان هو الإعادة ، يتحدث برأيه ، ثم يتحدث ،
ثم يعيد التحدث ما وسعه أن يعيد . وكان فى هذا عزيز الضريب فلم يكف لسانه
قط عن التخذيل ، ولم يعل تثبيط الناس . بدا كأن قد وكل بهيبة الإمام ينتقص
منها ويغرى شعبه بالانتقاص . فلملك لا تلحى الرجل كل اللحى وقد علمت مدى
إيمانه ببيعة على وبحقه عليه من الولاء والوفاء . غيرأن القوم لم يظلوا عندظنه بهم
ولم يظل أمامهم صاحب النصح الذى يبصرهم بمواطن السلام ليلتزموها فيحقن
دمهم أن يهراق . بطل اليوم سحر دعوته . وأخذت غشاوة البصائر تنجاب عنها
قليلا قليلا حتى راحت الشكوك فى نواياه تنتهب الأنفس . وبدلا من أن يصغى
الناس إلى دعوته الخبيثة فى سكون ويلقفوها إذ هى من لسان صاحب لرسول الله
أعلم منهم بالحقائق المغيبة ، راح همس الحيرة يتنقل بينهم من فم إلى أذن ، ثم يتبعه
حديث إنكار ، ثم ثورة الغضب تضطرم فيم تبادلوه من كلام .

وأينع إنكارهم عليه بعد قليل . نفست الصدور الجياشة عن غضبها المكتوم .
كان لا بد أن يلقى الرجل عاقبة هذا التمويه الذى به غرر بأهل إقليمه لأن حبل
الزيف مآله إلى انقطاع . وحين وقف ذلك اليوم يردد نفس أنشودته ، لم يكن
يحسب أن قليلا من الناس ، بل واحداً منهم ، سوف ينأى بسمعه عن شدوه .
فإذا بثقته تنهار فجأة عندما قام عبد خير الحيوانى يقطع عليه الحديث . آن وقت
مناقشة هذا الأشعرى الحساب ! . . .

قال عبد خير وهو يعنى ما كان من فتنة طلحة والزبير اللذين لا شك كانا
صاحبي الغنم من وراء دعوة واليه :

« يا أبا موسى . . . هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليا ؟ . . . »

فلم ير سبيلا إلى الإنـكار ، وأجاب :

« نعم » .

« هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ ... »

« لا أرى » .

فصاح به فى حنق ولم يتهيب :

« لا دريت ! . . وإنا تاركوك حتى تدرى ... »

ولـكنه لم يشأ أن يبرح مكانه حتى يسد على العامل المتمرد مسالك المعاذير ، فأنشأ يبين موقف كل طائفة من المسلمين من هذه المحنة النازلة بالبلاد ، وإنها جميعا لتمد إليها بسبب من الأسباب ، ولـكل دور فى غمارها معلوم :

« يا أبا موسى . . هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التى تزعم أنها هى الفتنة ؟ . . . »

فاستغلق الرد على الأشعرى ، ومضى عبد خير يتم الحديث :

« يا أبا موسى . . إنما بقى أربعة قرون : على بظهر الـكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجبى بها فىء ولا يقاتل عدو . . »

« أولئك خير الناس . . . »

« بل غلب عليك غشك ! . . »

وكان حقا للبلدة أن تعجب لواليها كيف يدعو هكذا بدعوة لا معنى لها غير الإملاء للعصاة فى العصيان ، وللنا كثين فى النكث . فقد تبين أن انتقاض زعيمى الثوار على الإمام لم يكن وليد غيرتهما على صالح الرعية ، ولا نتيجة لازمة لحدث أحدثه فحل به خلع طاعته من أعناق الناس ، بل هو ناشىء عن حب التسلط الذى سيطر على أنفسهما وعلى بضعة نفر معهما فتنتهم الأطماع والمآرب الخاصة . . وكان ثمة طائفة من أهل الـكوفة تميد بهم مواطنهم ، ولا يستطيعون ثبوتا على ولائهم لأمير المؤمنين بعد هذا التبلبل فى الآراء ، ولا انحيازا إلى أخصامه المناوئين وإن كانت دعوة الثأر التى نادى بها أولئك الخصوم ظلت تخاطب فى نفوسهم النخوة التى تستجيب مسارعة لنصرة المظلوم . . . هذه الطائفة لم تقدم

مبادرة إلى اختيار جانب من الجانبين ، وإنما بقيت ردحاً بمفترق الطريق تصطرع في نفوسها نزعاتها المختلفة . حتى إذا استبدت بهم في النهاية حيرتهم رأوا واجبا عليهم نحو الحق أن يبعثوا من لدنهم فريقا إلى حاضرة الدولة يستقصى لهم ما أحاط بمصرع عثمان وأدى إليه في مواطنه ، عسى أن يروا بعد هذا إلى أين ينتهى خط ذلك الدم الحرام المسفوح . . .

ولكنهم ما كادوا يشرعون في إنفاذ عزمهم حتى جاءهم الحسن بكتاب الإمام ذلك الذي رسم لهم قصة المقتل ودور كل من دعاة الانتقام فيه ، ونقل به إلى أذهان أهل الكوفة صورة حقيقية لأمر عثمان جعلت « سامعه كمن عاينه » . . . عندئذ هدأت خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذى يجدر بهم أن يلتزموه ، فوقف بينهم شريح بن هانىء يقول :

« لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به في بيوتنا . . .

ثم ألم بدعوة أمير المؤمنين إياهم أن يناصروه ، فأردف يكمل الخطاب :

« ... لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه .. »

وكذلك راح التيار يتجه بالكوفه على خلاف ما أراد أبو موسى له من اتجاه وخرج الرجل من داره ، وقد علم بمحضر سبط رسول الله ، يخب إلى المسجد . ألتلبية نداء إمامه كان ذلك الخروج ؟ . . بل قد بقى عند موقفه ، لا يحيد ولا يتزحزح عنه . وسوف يرينا ألوانا أخرى من عناده وتشبثه بقصده المرسوم ..

ووصل أخيراً منتجع القوم ، مسجد الكوفة ، وقد التأم الناس زمرا حول الحسن بن على وعمار بن ياسر . إن محياه ليفيض بالبشر ، وإن قدميه لتسرعان به صوب حفيد محمد ، وإن ذراعيه لتنبسطان ثم تضمان ابن ذلك الرجل الذى طالما دعا أهل إقليمه للانفضاض عن رسالته ... من عجب أن يجد أبو موسى بقية من عاطفة بقلبه تكفى أن يبدى للحسن كل هذا الترحيب ! .

على أن لحظة المجاملة ولت سريعة ، فأقبل الأشعرى يحدث ابن ياسر فى لهجة لم تخل من تهكم وهو يطوف بأمر عثمان :

« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار ؟ . . . »

فغضب عمار وأجاب :

« لم أفعل . لم تسوءنى ؟ ... »

فآثر الحسن عندئذ أن يقطع حبل الجـــدال بين الرجلين . وأقبل برقته المعلومة ، على الأشعرى ! وبرقيق لفظه يحدثه بنبرة هادئة لطيفة :

« يا أبا موسى ، لم تثبط عنا الناس ؟ . . »

وتمهل به برهة ، ثم استتلى يقول :

« يا أبا موسى . . والله ما أردنا إلا الإصلاح . وليس مثل أمـير المؤمنين يخاف على شىء ...

فضاقت بالرجل مكابرته أو مداورته ، ولم يسعه إلا أن يخفض رأسه مؤمناً على ما سمع ، وإن وسعه فى ذات اللحظة ألا يغفل تذييل جوانبه باستدراك كأنما أبت نفسه عليه أن يسوق ردا خالصاً كله امتثال ! ... قال :

« صدقت ، بأبى أنت وأمى ! .. ولـكن — المستشار مؤتمن ... » .

« نعم » .

« سمعت رسول الله يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ! ... »

فهتف به عمار :

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم . وهذه يدى بما قلت » .

« إنما قال لك رسول الله هذا خاصة ، فقال أنت فيها قاعدا خـير منك قائمـــا ! ... » .

فزلزلت سخريته من عزة الوالى المتمرد . وانبعث رجل بالمسجد من أنصار الأشعرى يسب عمارا ويصيح :

« اسكت أيها العبد ! ... أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا ؟ ... »

وكأنما استشعر أبو موسى شجاعته ترتد ثانية إلى صدره بعد مظاهرة هذا النصير ، فعاود الخطاب :

« . . . لقد جعلنا الله إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا فقال : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وقال جل وعز : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم . . . »

وإنها لدعوة حق أريد بها باطل ما في ذلك مراء . وإلا فما عسى كان يعنيه الأشعرى من وراء هذا الحديث ؟ . ومن ذا قتل أميره السابق الذى ما زال يدين له بالولاء من بين رجال أميره الجديد الذى يدعوه اليوم أن يندب الناس ؟ . . وهلا عل الرجل هذا الكلام المتكرر المعاد عن التخذيل والقعود ؟ . . إن عمارا ليتوثب به الآن غضبه ، وليثور دمه نارآ حامية فى شرايينه وهو يلقى السمع إلى ما يزجيه صاحب الكوفة للناس من تمويه . ولو أفسح له وقته إذن لقام مثل مقامه السالف فى وجه هذا المتمرد ، ولصاح به كصيحته بأمس القريب :

« . . . إن أبا موسى ينهاكم ، أيها الناس ، عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين . ولعمرى ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . . قال عز وجل : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . وقال : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . »

هذا هو حكم الإسلام حين تفرق فتنة بين أبنائه ، وبه تكلم عمار ورد على إرجاف والى الكوفة منذ أيام . ولقد هم عمار أن يعيد تلاوة النص السماوى على أسماع الناس فى اجتماعهم ذاك بالمسجد دحضا لزعم واليهم ، لولا أن أتيح لهم من بينهم من كفاه مؤونة سوق الاحتجاج ، وتناول منه السلاح الذى يحسن تصويبه إلى الأشعرى المفتون بالخداع . .

أجل ، فقد أقبل فى هذه الآونة الحرجة زيد بن صوحان ، الرجل الذى خصته عائشة ابنها الخالص ودعته لنصرتها أو للتثبيط عن الإمام . أقبل وفى يده كتابها ذاك وكتابها الآخر الذى بعثت به إلى أهل الكوفة تخذلهم ، وإنهما

معاً لحجة قائمة على أن التثبيط عن على ليس اعتزالا للفتنة بل انتصاراً وتشيعا لدعوة الخصوم العصاة . . .

وقام زيد بين الناس فتلا خطاب عائشة إلى شعب بلدته ، ثم أتبعه بتلاوة كتابها الخاص إليه ، وقال بعد فراغه من التلاوة .

« رحم الله أم المؤمنين ! . . أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرتنا به ! . . »

فساد الشغب جوانب المسجد ، وتداول اللغط بين موافقة وبين إنكار . من ها هنا صاح رجل بالمتحدث : « يا عمانى ، سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! » . . ومن هناك ثارت فتنة فى وجه الوالى وناصريه حتى أوشك أن يقتتل الناس . وكان أبو موسى بينهم كالضيع ، لا يعرف كيف يثبت بمكانه ، ولا كيف يؤدى الرسالة التى اضطلع بها . . جاهد مراراً ، وكفكفهم مرات ، وما زال صوته يحاول أن يشق له طريقا بين الضوضاء إلى الأسماع :

« أيها الناس ... أطيعونى . أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . . . . »

ومضى يتابع خطابه وإن أوشكت الألفاظ أن تغرق فى غمرة النزاع المشبوب :

« . . . إنا أصحاب محمد أعلم بما سمعنا . . إن الفتنة إذا اقبلت شبهت ، وإذا أدبرت بينت . وهذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجرى بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور . تسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، وتذر الحليم حيران كابن أمس . . . »

ثم اشتد ، وعلا صوته بدعوة التفريق :

« . . أيها الناس ، الزموا بيوتكم ! . . خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج

من دار الهجرة — ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ! . . فإن فعلت فلأنفسها ، وإن أبت فعلى أنفسها ! . . . » .

قريش ؟ . . هذا نوع من الدعوة جديد . كأنى بالعامة حينذاك أمسكوا الأنفاس ، وأرهفوا آذانهم وهم يتدبرون ما يقول . فهى فتنة إذن شبتها قريش ، عليها وحدها أن تصلاها . . الحى المستعلى على العرب وعلى بقية شعوب الأمة الإسلامية بأحسابه وأنسابه آنت اليوم ساعة محنته ، فليقطف العوسج ، وليهو وحده إلى أسحق قرار ! . .

٤

أكانت هذه قضية قريش وحدها أم قضية الإسلام ؟ . .

أبو موسى طالع شعبه برأى يقف حائلا بينه وبين السياسة العامة للدولة ، ويتنكر للأمن الجماعى فيها . خاطب فى الجماهير عاطفتها نحو طبقة الأشراف وقد لاقوا منها ترفعا وصلفا خلال السنوات العشر الأخيرة ملأ قلوب الناس عليها نقمة وموجدة . فلعله استحضر بذهنه هذه العاطفة وهو يسوق لأهل الكوفة رأيه الجديد ، وظن أنه بها كفيل أن يبلغ هدفه . . . كفاه أن يبدى للشعب أنها قضية غرماء ، يتطاحنون فيما بينهم ثم يبوءون فى نهاية الأمر بغنم أو بغرم لهم وحدهم ، وعليهم آثاره . فما للكوفة من وراء هذا النزاع مأرب . وليس يفيدها إن أكلت المتناجزين جميعاً شرة الحرب الأهلية وقضت عليهم معا أو على أحد فريقيهم قضاء لا يبقى منه على شىء ! .

بهذا اللون رسم الرجل صورة التناحر ، فإلى أى مدى كان رسمه يطابق الأصل؟. لو أنه كان خلافا بين طائفتين من جمهور الأمة وعرضها لأنكرت عليه الأصول المرعية فى سياسة الشعوب ومبادئ فن الحكم هذه النظرة الكليلة ، فكيف وهو تمرد صريح أعلنه فريق من العصاة على صاحب الأمر الشرعى فى البلاد ؟ . .

ولكنه خاطب — كما بدا — فى نفوس العامة عاطفتها المتنكرة لقريش ،

الزاوية عليها ، ليستطيع من وراء هذا الخطاب أن يجنى ثمرة غرسه الذى تعهده طويلا — ذلك الغرس الذى كانت سياسة التثبيط نواته . فإذا أدبر الناس عن قريش بحزبيها القاعين فى الخلاف الآن ، فثمة حافزله سحر على نفوسهم وسلطان تدفعانهم لهذا الإدبار . وثمة من بعد نتيجة لازمة هى قعودهم عن نصرةالإمام ؟ . .

إن هذا الأسلوب من التفكير ليكاد أن يرينا فى الأشعرى رجلا انتهازيا مداوراً يتوسل إلى غاياته بأية وسيلة على نقيض ما قر فى أذهان المسلمين من سذاجته ، أم قد كان يا ترى عن غير تدبير كأنه خبط عشواء ؟ . . يعسر أن تكون الغفلة وحدها باعثه أو أن نغمض العين عما سلف من خطوات الوالى فى هذا السبيل ! . . فكلما تقصى الباحث دعوة الرجل اقترب رويداً رويدا من الإيمان بأنها خطة محكمة متصلة الحلقات وكلما تراكمت فى صدره مكونات هذا الإيمان بدا الأشعرى تحت أضواء تقصيه عدواً لعلى وإن حاول جاهداً أن يضمر العداء خلف نقاب من الخشية على دم الشعب أن يهراق ، أو النأى بالعامة عن البذل من أجل سادتهم الأشراف ، أو تفرده دون سواه بالعلم بالحقائق المغيبة التى أطلعه عليها حديث للرسول مزعوم ! . . أيما حجة ساقها لتأييد دعوته كانت تلقى من يحسن الإصغاء إليها بين سامعيه . وأيما رأى نشره كان حقيقاً منهم بالتدبر ثم بالقبول وخاصة إذا داهن به عواطف الجماهير . ولكن الأنفس المستريبة فى نواياه كانت حرية أيضاً أن تتقبل قوله وهى على حذر منه أبلغ الحذر ، حقيقة أن ترده وتأباه وهى ترى له مغبة واحدة — لو سار عليه الناس — هى انتشار حبلهم ، وإشاعة الفوضى فى الدولة الوسيعة البعيدة الأطراف .

على أنه مضى وخطابه ، يكاد أن يحمل القوم حملا على ما يراه بهذه الدعوة الجديدة التى بثها لتضرب الفرقة بين صفوف الأمة . وراح يعاود تناديه أمام الجموع :

« . . . استنصحونى ولا تستغشونى . وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها . . . »

فما بلغ من حديثه مبلغه وأوشك أن يبرح مكانه من المنبر حتى صاح به زيد ابن صوحان :

« يا عبد الله بن قيس ! . . رد الفرات عن دراجه ! . . اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ! . . . »

فبانت البغتة في وجه الأمير . وتلفتت الزمر المحتشدة نحو زيد وهو يتم خطابه، ويده المقطوعة قد ارتفعت تشير إلى أبي موسى في إيماءة وعيد .

« . . . آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنـون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الـكاذبين * » .

وكانت هذه الآيات التي نطق بها لسان التنزيل أبلغ وصف وأصدقه لحالة من اختاروا القعود والتخاذل ، وآثروا النأى بأنفسهم عن دفع الفتنـة ومنعها أن تذيع ، مرتضين من إيمانهم أن يبوئهم مقعد المشاهد دون الانخراط في الجهاد من أجل إنفاذ التعاليم التي سنها الـكتاب القدسي ، ومن غير القيام بالدور الإيجابي الذي حتمته النصوص السماوية وأوجبته على كل قادر ، التجاريب والمحن وحدها محك إيمانه .

وبقي الحسن خلال ذلك بمجلسه . الله جنبه حتى اللحظة منازعة الرجل المتمرد وكفاه مشقة أن يقهر غلواءه وإصراره ويعفر جبهتـه المستعلية وخده المصعر في الرغام ! . ولو قد شرع سبط الرسول منذ البدء فيما جاء فيه وبطش بطشه بالوالي المشاق لما لامه على الشدة أحد ، ولـكنه كان امرأ رقيقا كله وداعة ، يتحرج أن يركب العنف ويتوسل به . وما زال يؤثر الترفق ويقدمه على غيره من الأساليب حتى في ألصق أمر بدولة أبيه وأمسه بحفظ حكمه الذي راحت تنوشه أطماع المنافسين. فلقد خرج من ذي قار وإنه ليعلم أن هذه آخر سفارة يوفدها أمير المؤمنين إلى الـكوفة لاستنفار الناس ، ويعلم أيضا أن إمرة الأشعري لم تعد لها في العمر إلا ساعات ثم ينطوي عليها سجل التاريخ ! . . نعم ، فهذا قرظة بن كعب الأنصاري أوشك أن يصبح صاحب الأمر في البلدة من قبل الإمام بعد أن ضاقت الحيل عن رد أميرها المتمرد إلى الجادة . وقد بعث علي مع الحلف كتاباً يثبته ويعزل به السلف عن ولايته يقول فيه :

« . . . قد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر ، الذي لم يجعل الله عز وجل

لك منه نصيبا ، سيمنعك من رد أمرى . وقد بعثت الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعثت قرظة بن كعب واليا على المصر . فاعتزل عملنا مذموما مدحورا ! . فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك . . . »

فهل من ريب فى أن الحسن كان يعلم من أمر هذا الكتاب ما يعلم قرظة ، ثم رأى أن يقدم الحسنى فى معاملة الأشعرى ثم فى حمله فى النهاية على الاعتزال ؟ . . حقيق بطبع سبط الرسول أن يكون هكذا ترفقه ولو بمثل هذا العامل الممعن فى العصيان وفى الإساءة إلى أمير المؤمنين ، وحقيق أيضا به ألا يشتد فى طلب نصرة أهل الكوفة بحق ما يخوله تمثيله الحاكم الأول للدولة وقيامه بتدبير الأمور باسمه . ولكنه فيما يبدو جنح للهوادة ، ورأى أن يترك للناس تدبر الأمر وهو يؤمن أنهم سوف ينهضون رويداً رويدا لتأييده عن اقتناع وإيمان ليس عن خشية وإذعان .

وكذلك انكشفت خبيئة الأشعرى . فلم يغن عنه شيئا تملقه عواطف الجماهير بل انتكث عليه خيط تدبيره . وإذا صوت ابن صوحان يشق طريقه إلى الآذان ، رافعا ينادى فيهم الواجب والحق وحمية الرجال :

« سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين ! . . . انفروا إليه جميعا تصيبوا الحق ! . . » .

وقام على أثره القعقاع بن عمرو ، هادئ النفس يحدثهم بصوت العقل دون صوت الحماس :

« أيها الناس . إنى لكم ناصح ، ولأقولن قولا هو الحق . . . إنه لابد من إمارة تنتظم الناس ، وتزع الظالم ، وتعز المظلوم . وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء فإنما يدعو إلى الإصلاح . . . »

وتحدث بمثل قوله أيضا سيحان ، ثم أردف يقول :

« . . . هذا أمير المؤمنين يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه . وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين . فمن نهض إليه فإنا سائرون خلفه . . . »

ثم تكلم من بعدهم كثير حتى كاد الرأى أن يجتمع على النصرة والنهوض

فى تأييد الإمام . وأولئك الذين لم يكونوا من أمرهم على بينة ، متأرجحين بين القعود والتلبث حتى تنقشع غيمة هذا التبلبل فى الآراء ، ما عتموا أن استجابوا للدعوة ، وساروا من كل صوب يتهيأون للخروج . . قيل لعدى بن حاتم :

« ماذا ترى ، وماذا تأمر ؟ . . »

فأجاب :

« ننتظر ما يصنع الناس » .

فلما أخبره قومه بنبأ الحسن وما دار بمسجد الكوفة مما تحدث به أولئك الرجال ، لم يتردد فى المسارعة إلى التلبية وقال :

« نحن سائرون ! . . »

على أى حال لم يعد ثمة شك فى تحول التيار إلى غير ما اشتهى الأشعرى . وما موقف عدى إلا صورة من موقف غيره كثيرين . ولكن أبا موسى كان — فيما يبدو — شديد الثقة فى انتصار تثبيطه ، شديد الإصرار على ما هو عليه ، بالغ العناد . خفى عنه أن تخذيله إلى زوال ، وأن توسله إلى هدفه بشتى المعاذير لم يعد يجد له طريقا إلى أذهان الناس ولا إلى قلوبهم على السواء . وإذا كانت كل هذه النذر البادية خلال أحاديث أصحاب الرأى فى الكوفة لم ترده إلى الصواب ، فهو إذن حقا مشاق ، بادى الغل ، كما نعته هاشم بن عتبة يوم أبلغ نبأ سياسته إلى الإمام ! . . .

ونهض الرجل لا يبالى الآن بعاطفة الجمهور ، ولا بهذا الإجماع الذى وحد بينهم جميعاً صفا واحداً خلف على وعلى وفق ما أراده من شعبه . . نهض ثانية يعاود حديث التخذيل كأنما لسانه ليس يحسن من الألفاظ سواه ! . . فأى شيطان يا ترى تلبسه وقاد خطوه ؟ . . . وأى معاملة حقيقة بأن تهديه خيرا من ترفق الحسن وطول صبره عليه ؟ . . غير أن من النفوس البشرية ما تزيده الحسنى شموسا وشكاسة . وكان أبو موسى من هذه الشاكلة التى لا تستجيب للين ولا تسلس قيادها لغير الشدة والقهر . ولو صدقت نظرة فى امرئ لكانت نظرة الإمام لهذا الوالى هى أصدق النظرات . فقد كان يرى الخير فى أن يخلع عنه إمرة الكوفة

فتستقيم له بها الأمور لولا أن رده الأشتر النخعى عن عزمه وهو مخدوع فى ولاء الرجل وإخلاصه . ولو قد عزله الإمام منذ البدء لتجنب كل هذه المناورات ، ولبقى أمامه وقته ممدودا يصالح فيه شأن مناوئيه أو يدفعهم بسيفه قبل أن تستفحل فتنتهم ، وبدلا من ضياعه فى استصلاح نفس الأشعرى الشارد الحرون ! . .

ولكن أوان الترويض فات ، وبقيت لحظة القهر والعنف معلقة كالسيف المرهف فوق رأس المتمرد . فمن عجب أن يكون شفيعه فى البدء هو مخاصمه الآن وجلاده الذى لا يلين . . . إنه الأشتر ، وسيعلن الأشعرى نبأه بعد حين ! . . .

٥

الأشتر تقاسم نفسه الندم والخجل والغضب الهتاج . فالأنباء ما تنى تأتيه من الكوفة فتمد فى رقعة أسفه ، ويرفع بصره مترددآ إلى عينى الإمام فيقرأ فيهما من اللوم ما يزيد شعوره بالخجل حتى ليسارع بالإغضاء ورد نظراته عنه . وهل كفت الأخبار لحظة عن حمل تقاعد الأشعرى وما أخذ به جنانه ومنطقه من خذل على وحض أهل إقليمه على هذا الخذلان ؟ . . . كلما مضت الرسل ثم آبت من البلدة بغير أنصار ولا عتاد كانت أوبتها هكذا تحز فى قلب الأشتر وتكاد أن تفريه وكان دائما يستشعر غب عودتها خاوية الوفاض مما ذهبت فيه ، بمثل طعنة النصل تمزق فؤاده ، ومرارة العلقم على شفتيه . فلقد خانته نظرته فى دخيلة الأشعرى كأنما ضلت فى منعرجاته الملتوية فغاب عنها غشها المستور الكامن فى غورها السحيق . وأخطأه أيضآ توفيقه حين أحسن الظن بصاحب هذه الدخيلة فأمن له ووهبه ثقته . تبدت له حقيقة هذا الرجل على صفحة الغيب لما استشفع له لدى على ، ولما أبقى عليه إمرته ، بل لعله كان يبوئه مصيرا يجعله أمثولة بين الخونة وناكثى العهود والمتنكرين للجميل . ولكن القدر سبق على لسانه كما شاء إلى ما شاء ، فظلت الكوفة ، بشفاعة الأشتر وحدها ، تحت إمرة الأشعرى ، ترد دعوة الإمام وتلوى عليه أمره الكرة بعد الكرة ، وتوفى بالدولة على التمزق . . .

ما أشق على نفسك أن ترى موئل ثقتك يتنمر لك ، ويستجيب لنقيض ما آمنت أنها مستوجبة عليه . لكأنك فى هذه الحال حاضن ثعبان كادت تغوله قرة الزمهرير فلما استشعر الدفء بين ردنيك ذكر طبيعته الخوانة فمد نابه يجزيك عن حسناك بنهشة الهلاك ! . . .

بمثل هذا كان الأشتر يحس ، وبأفدح منه وأبلغ كانت تتعذب نفسه . ليألم وليشقى كل لحظة ليل وكل ساعة نهار . ولئن كان بعض شقوته مرده انتكاث حدسه وخيبة ظنه بذلك الأمير الجاحد المتمرد ، فبقيتها من أجل على ، صاحب الطاعة على المؤمنين ، الذى عز عنه فى الكوفة النصير ، ولقى العصيان والخيانة على يد واليها الغالى فى المشاقة والشنآن حتى أبعد الحدود . . . إن الندم والخجل والغضب العاصف لتعاور كلها نفس الشفيع وتفسد حياته عليه . وإنه ليقضى الثوانى واللحظات متقلباً من شعوره على مثل الجمر ، يوجعه أن تعجز الوسائل عن هداية العاصى إلى محجة الصواب ، فما عاد يصغى لغير صوت هواه وإن زأرت حوله نذر الأحداث . الأشتر يرى نفسه عن هذا الموقف الذى التزمه الأشعرى أول مسئول . وإنه حقا لكذلك . وكم جهد ليتحرر من تبعته تلك بإصلاح الأمور لمولاه فلم تجده محاولاته . حتى إذا رأى الوقت يتسرب من بين يدى سيده وأوليائه كتسرب الماء ، وخشى أن تزيد الأحداث اضطرابا فيعسر استنباط دواء لدائها العياء ، بادر فاستلهم عزمه ، وتدبر أمراً وأبرمه ثم طوى عليه نفسه ، ومضى إلى الأمام يتحدث إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . إنى قد بعثت إلى الكوفة رجلا قبل هذين ، فلم أره أحكم شيئاً ولا قدر عليه . وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدرى ما يكون . . . »

وتمهل يرى كيف يكون جواب مولاه حتى سمعه يقول وإن فى نبراته لرنة عتب وملامة :

« يا أشتر ، أنت صاحبنا فى أبى موسى ! . . . »

« نعم . فإن رأيت ، أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، أن تبعثنى ، فإن أهل

الـكوفة أحسن شيء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفنى منهم أحد ... » .

« الحق بهم » .

فتحقق له ما أراد . الآن سوف يستطيع أن يصلح ما أفسد ، ويجرد الأشعرى من الثقة التى لم يكن لها أهلا ثم يجرعه غصة خذله وعصيانه ! .

وكان الناس ، إذ دخل البلدة ، مجتمعين بالمسجد ، يصغون تارة إلى دعوة واليهم ، وأخرى إلى أقوال الوجوه والسادة ورجال الشعب الذين راحوا يتناوبون الـكلام . وكان الحسن جالساً بينهم ملقياً سمعه ، واسع الحلم كعهده . وعمار قد غالب طبعه الثائر ومزاجه الحاد فاستسلم صابرا لما يدور حوله وقد بدت بشائر التفاف الناس حول على وانفضاضهم عن الأشعرى . .

وازدلف الأشتر فاتخذ مقاماً له بين الناس ، يبين لهم من الأحداث السالفة ما خفى عنهم وغمت عليهم دوافعه ومثيراته . وكان من الطبيعى أن يبدأ بسوأة الجاهلية يهتكها ، ومآثر الإسلام ومحامده يسرد منها وينتظم آلاء فى مثل عقود الزهور ذات الريحان ! . وكان من الطبيعى أيضاً أن يطوف آونة بخصومه مناوئى الإمام ، وأخرى بأخطاء عثمان ، ولـكنه حين بلغ هذا الشوط من حديثه لم يعدم بين الجموع صوتا ينبرى له فيزجره ويصيح :

« قبحك الله ! ... لأنت كلب خلى والنباح ! ... »

فتقبلها وسكت ، لا لأنه خشى على نفسه مغبة ما قد يثير زاجره الغاضب ، بل لأن القوم أعفوه من مشقة الجواب . فقد ثاروا بالصائح ، وهموا أن يعصفوا به .

عندئذ تسلل الأشتر ، وترك الناس وما كانوا فيه . إن أمامه خطة لا يحتمل إنفاذها المـكث والتريث ، وما للتراشق بالألفاظ والمهاترات جاء ! ...

وغادر المسجد وكان له بالبلدة مكانة مرموقة ، وبنفوس كثيرين من أهليها نفوذ . فما التقى بطائفة من الناس فى ناحية إلا راح يحدثهم حديثه فلا يلبثون أن يميلوا إليه . كلما مر بجماعة استهوى منها نفرا ، أو بقبيلة استلحق بضعة

من رجالها بموكبه ، أو بحشد دعاهم أن يتبعوه . إن له سلطاناً قهاراً على أبناء الشعب جعلهم يسلسون القياد . . .

وعندما كان أبو موسى يعاود تثبيطه وهو على المنبر ، وتثور به آونة فئة من سامعيه أو تؤيده فئة ، كان الأشتر يزحف بكتيبته الشعبية على دار الإمارة ، وهو يهتف بمن خلفه :

« اتبعونى أيها الناس . إلى القصر ! . . . »

لن تجد أقرب إلى نفس الدهماء والعامة من دعوة تناديهم للغض من هيبة رجل يعلوهم قدراً فى النظام الاجتماعى الذى يكونون قاعدته . فانهم بحالهم حافز للتمرد على الأوضاع ، دافع إلى استباحة الفوارق . وكفى بهم أن يجدوا فرصة تعلو بهم فوق « العالى » وتجعلهم مالكى مصيره . فهذا نصر قلما يتاح مثله ، ولن يتاح ، إلا بهدم الحواجز بين الطبقات وإنها لعصية إلا على معول ثورة أو شغب أو اضطراب بل هو ثأر من التميز الذى رسب بهم فى قاع الدنيا ، وطفا إلى الحافة بمواطنيهم من الأشراف والسادة . أو هو فى حقيقته تنكر لحكم الأقدار ، انتقام منها إذ أقرت هذا التميز وجعلته سنة بين الناس . . . ولن تجد قط امرأ فى هذه الحياة راضيا بقسمه ما دام يرفع عينه فيرى غيره يتبوأ دونه مكانة علية من العلم أو من الجاه أو من السلطان .

فلعل هذه العاطفة كانت بعض عون الأشتر عند الجماهير يؤيدها ما كان من ولائها للإمام . ذلك أن الشعب الذى بقى هادئا طويلا ، يسمع بدعوة عامله النكراء فلا يحرك أصبعا أمام وجهه ، أقبل مسرعا يلوذ بدعوة الأشتر ويتحدر خلفه صوب القصر كما يتحدر السيل . . . عز من قبل محرك العاطفة النائمة والميول الحبيسة وها قد جاء المحرك المثير !

ولم تستعص عليهم الدار ، ولا استطاع أن يردهم عنها جند أبى موسى وغلمانه وما أسرع أن أضحى القصر لقى مستباحا تحت أقدام المغيرين وتفتحت أمامهم مغاليقه ، وأصبحت الكلمة العليا فيه للأشتر من خلال الجماهير . . .

وأسرع بعض الحرس إلى المسجد يحملون إلى سيدهم نبأ نكبته . .

قد كان إذ ذاك يحسب نفسه سيد الموقف ، له الحول والطول وما يظاهره أن يأمر فيطاع . نداء الإمام ، وحديث الحسن ، وخطب الخطباء وضعها كلها دبر أذنيه وسد عنها سمعه . أما دعوته فهي الدعوة ، وأما قوله فهو الفصل وليس لأحد أن يعترضه من قبل ومن بعد . وحين دخل غلمانه كان متسنما المنبر ، يكرر كلامه المثبط ، ويسرد سياسته عوداً على بدء . بلغ به غيه مداه ، ولج في العناد والمكابرة ، حتى أعيي الحسن الحليم الرقيق أن يستمسك بصبره فمضى يصيح به في ثورة وهدير :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنح عن منبرنا لا أم لك ! . . . »

ولكن الحرس حسم النزاع . فقد أسرع منهم رجل إلى الخطيب ، مال على أذنه وهمس فيها بشيء جعله يبرح مكانه في التوكمن أصابه مس لا يلوى ولا يتريث ، ويغادر المسجد وإن بخطوه لمثل ترنح النشوان . . .

وعجب القوم ، وساد بينهم لغط الحدس والتخمين . فما عسى قد أصاب الأشعري فبلبل خاطره ، وأزعجه كل هذا الإزعاج ؟ . لا أحد يدرى ، ولا يستطيع امرؤ منهم أن يعتد به فكرة فيتنبأ بحقيقة الأمر . ولكن القصر ليس ببعيد . وصوت الهرج فيه قد أخذ يتسلل قليلا قليلا إلى أسماع الناس بمنتجعهم في المسجد . . . وراح الخبر يتكون في قالبه الأخير حرفاً بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، ويحمل فرحة طروباً إلى القلوب الحيمة ، لقى إذن هذا المنابذ جزاءه فقشر عنه سلطانه ! . . وعاد كما بدأ — إلى حين — فرداً مغموراً بدون خطر ، يمر به التاريخ فلا يلقى عليه عينه ، ولا يتلكأ — إن رآه — لحظة عن المسير ! . . .

وهز عمار بن ياسر رأسه ، كأنما يتدبر حكمة الله التي أبرمت نهاية الطاغية ، وقوضت قلعة اعتداده ، ودكت دكا جبروته . . . هز رأسه وقد انزاح عن صدره ذلك الكابوس ، وقال في هدوء وإيمان :

« . . . غلب الله من غالبه ! . . . » .

٦

بقيت له الذلة ! . . الرجل الذى كان جباراً مريداً لا يصغى لصوت خيار مواطنيه وأرجحهم رأياً غدا تعنو جبهته ويستذل للغوغاء . فى دقائق قليلة بات قصره مرتاداً لعرض شعبه ، وراحت هيبته فى أكفهم ملهاة . . . عندما تبع غلمانه إلى البيت ، حسبها فلتة غضب ندت بها نفوس الدهماء، ولن يلبث ظهوره بينهم أن يبتعث فى قلوبهم الخشية منه ورهبة سلطانه . ولكن ظنه خانه لما توسط القصر ، ورأى كيف همت الجموع أن تعصف به ، بعد أن حكمها قانون الثورة ، ولم تعد تخضع لشريعة سواه . وحين نجا من عبث المغيرين ، واستطاع أن ينفذ من بينهم إلى مأمن ، بدا له الأشتر النخعى ، شفيع الأمس وديان اليوم ، يفيض وجهه بعقته ، وتتقد من غضب عيناه . وفى انكسار تقدم الأشعرى ، على سيماه من خزيه ومن هزيمته آثار ، وإن بنفسه للاعجا يوشك أن ينطق بعسكنته لو أوتى اللسان . ولكنه قرأ العزم فى قسمات مالك مصيره ، ورأى العنف الذى يزلزل القلب . . .

وصاح به الأشتر ، فى نبرة كصوت القدر ، تقطر حقدا ومرارة :

« اخرج من قصرنا لا أم لك ! . . . » .

فتردد برهة . يا ترى ألا يستجيب هذا الرجل تارة أخرى لداعى المروءة كما استجاب بالأمس ، فيعفو ويشفع ؟ . .

غير أن الأشتر لم يدعه وأحلامه ، بل عاود ثانية زئيره :

« . . اخرج ، أخرج الله نفسك ! . . فوالله إنك لمن المنافقين ! . . »

فبارحته على الأثر كل سجاياه ، وبقيت له الذلة ! . . وأغضى الطرف وهو يجهد ليجد مخرجا من موقفه الضنك ، ثم نطق بصوت واهن ضعيف :

« فأجلنى هذه العشية . . . »

« هى لك ، ولا تبيتن فى القصر الليلة » .

وكان هذا غاية ما يطمع فيه ، فما يسعه البقاء بين ظهرانى « رعيته » بعد هذا الهوان الذى أصابه منها . وليس يأمن — إن بقى — أن يكون فريسة للسخرية والتهكم . . . بل هو لم يلبث ، ولما تنته بعد مهلة الأشتر القصيرة ، أن أضحى نهبا لما هو شر من السخرية وأفدح . فقد اجتاحت قصره زمر من العامة ، كأمواج البحر هدفها مال واليها المغلوب ومتاعه . جاءت تستبيح ما يملك وتهم أن تحتلبه كأنه غنيمة حرب ! . . .

ولكن الأشتر لم يتنكر لعدوه المهزوم لم ينسه غضبه المروءة ونخوة الرجال ، فوقف فى وجوه الجموع الهائجة يردهم عن القصر ، ويحول بينهم وبين ما ابتغوه :

« إنى قد أخرجته أيها الناس ، فكفوا عنه » .

فارتضوا من نصيبهم فى أسلاب الأشعرى بالنصر عليه ، وبقض سياسته النكراء . وكفاهم الآن غنيمة أن قد هزموه فى نهاية الشوط بعد طول اصطبار ، وحرروا رقابه من سلطانه . . .

وهدأت حـــدة الأمر بعد قليل ، وبدأ العقل يسيطر ثانية على نفوس الجمهور . . . وكان اجتماع المسجد ما زال منعقدا ، والحديث فيه هذه الآونة يؤيد عليا أتم تأييد ، ويدعو الناس بدعوة سفيريه . . .

عندئذ قام الحسن يتحدث إلى الناس ، وقد شهد إجماعهم على نصرة أبيه :

« أيها الناس ، إنى غاد . فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج فى الماء . . . »

فما أصبح الغد حتى التأمت الجموع ، وعجت الكوفة بالنفار آلافا كثيرة ، يستبقون الطريق صوب ذى قار ، على مطيهم فريق وفى السفائن فريق . قد تآمر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولاءهم أثناء تثبيط أبى موسى ، واستمساكهم بعهد أمير المؤمنين . وكان فيهم غير الأشتر ، القعقاع بن عمرو ، وزيد بن صوحان ، والهيثم بن شهاب ، وحجر بن عدى ، وسعد بن مالك ، وعدى بن حاتم وغير أولئك ومن أشباههم كثير . . . وحين غدت جموعهم على ذى قار تلقاهم الإمام فى طائفة من خلصائه منها ابن عباس ، فرحب بهم وأحسن اللقاء . . .

وكان لا بد أن يبين لهم سياسته ، ليكونوا على بينة مما سينهضون فيه . إن قصة الزبير وطلحة وعائشة بالبصرة قد انتهى لا ريب نبأها إليهم وعلموها كما خطها مداد الحقيقة ، من كتبه مرة ، ومن رسله أخرى ، ومن ألسنة الرواة مرات ... ولكنا لا نحسب أحداً رسمها فأجاد الرسم لم يغفل منها هنة يسيرة كمثل ما رسمها الإمام في قول له :

« ... فخرجوا يجرون حرمة رسول الله كما تجر الأمة عند شرائها ! .. متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما ، وأبرزا حبيس رسول الله لهما ولغيرهما ، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره . فقدموا على عاملي بها ، وخزان بيت مال المسلمين ، وغيرهم من أهلها ، فقتلوا طائفة صبراً ، وطائفة غدراً .. . فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جره لحل لي قتل ذلك الجيش كله ... »

ومع ذلك فقد كانت نفسه الصافية تميل إلى الصفح والغفران ، وتود لو استطاعت أن تجنح بعدوه إلى صلح يجنب الإسلام وأهله مصارع السوء ، ويعيد الأمة كتلة موحدة ... وكما تحدث في صحبه قبل خروجه من الربذة إذ سأله ابن رفاعة عن موقفه من العصاة ، فكذلك تحدث لأهل الكوفة عندما تلقاهم بذي قار ، بنفس المعنى ونفس السماحة التي تأبى عليه أن يحتجن غلا بقلبه على متمرد أو عدو مبين . وقف يخطب جموعهم ولما يستقر بها المقام ، فقال :

« يا أهل الكوفة .. أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم .. وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وباينّاهم حتى يبدأونا بظلم . ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه إن شاء الله .... » .

فهذه شيمة رجل حريص على الوحدة حريص على السلام . ولو قد صفت نفوس شانئية لأقبلوا سراعاً يفيئون إلى طاعة أنكروها وبيعة نقضوها ، إبقاء على دينهم ودنياهم . فما كان لينفس عليهم شيئاً قط . ولكنهم شاءوا أن يشغبوا

عليه أمره خفقت عليهم شريعته المثلى : « إن شغب شاغب استعتب فإن أبى قوتل ! » . . . وجرحوا إمامته ما استطاعوا سبيلا إلى التجريح وهم يصطنعون من الحجج والمعاذير مالا يستقيم والواقع المشاهد . زعموا تارة أنهم أقروا بها كرها ودون اختيار فألزمهم الحجة بفيض من بيان البرهان أغضوا عنه عيون الأذهان ! . . . وطورا زعموا أنها بيعة غابت العامة عنها وما عنوا إلا الأمصار بل — أغلب الظن — قد عنوا الشام . ولكن برهانه فى هذا حاضر ، وليس يعتسفه اعتسافا ، إنما يسوقه المنطق السليم الذى لا يلتبس بهوى ولا غاية : « فلئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل . ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد أن يرجع ، ولا للغائب أن يختار . . . » .

إن أولئك الذين قاموا يناجزونه لم يتسلحوا قط فى نزالهم بكلمة حق تؤيد قضيتهم وإن تسلحوا بعدة من حديد ! . . وكانت قضيته من قبل ومن بعد ، بادية الرجحان بينة اليسر ، ليس فيها ظل من شبهة . أماهم فقد تخبطتهم الغايات ، وتنازعتهم الأغراض والمطامع ، فركبوا إلى تحقيقها الصعب والعسير . ولو أريد لهم نعت يطابق حالهم فلا يخطئه ، لكان النعت كلمات الإمام حين أراد أن يبين للناس أى الناس حربهم ودفعهم عنه بالعنف حلال :

« . . . ألا وإنى أقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذى عليه ! . . . »

وقد ادعوا ومنعوا فى آن . وأسرفوا طويلا فى المنع وفى الادعاء . ومع ذلك فلم يبادرهم بأداة حربه قبل الاستعتاب وإفساح المدى أمامهم ليرجعوا عن الغى . وعندما تهيأت له أسباب القمع والردع وتجيشت الجيوش تحت ألويته ، استمسك أيضاً بصبره ، وبعث إلى القعقاع بن عمرو — إذ هو صاحب لرسول الله أولى بأن يلين له العصاة — ليستسفره إليهم قبل أن تعصف بهم كتائبه . . .

قال له يأمره أن يرد البصرة فيجهد وسعه أن يتألف بها العصاة عسى أن ينشب الله به الأمر وتجتمع الأمة وحدة منيعة بعد طول تفرق واختلاف :

« الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة » .

فمضى الرجل يتأهب لهذه السفارة التى ليس أكثر منها بركة على الإسلام لو أتت بما رجاه الإمام . وحين أوشك أن يبرح ، وكاد أن يقطع أولى خطوات المرحلة صوب هدفه ، أقبل على عليه يسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ . . » .

فأجاب :

« نلقاهم بالذى أمرت به . فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى . . . »

فسره جوابه ، وطاب نفسا بحكمته وأثنى عليه :

« أنت لها ! . . »

وانطلق القعقاع . . .

غير أنها لم تكن أولى السفارات التى بعثها لذلك الحزب ولا آخرها . بل زخرت الروايات بأشباه لها كثيرة ، منها رسل ومنها رسائل ، راح أمير المؤمنين يسوقها إلى الصاحبين وأم المؤمنين ، يرجو بها وجه الله وصالح الأمة التى ضربت بين صفوفها معاول الهوى الهدامة . كم من مرة لوح لهم براية الأمان فلم يقبلوا منه ، وأمعنوا فى المشاقة واللجاج غاية الإمعان كأنما أغرتهم سماحته بالعناد . وحين حسب أنه ملاق عند عائشة ما أخطأه فى نفسى صاحبيها من التبصر ، ودعاها أن تعود عما جاءت فيه ، وتلزم حجابها وبيتها ، لم يكن يظنها تكابر كمثلهما حتى أتاه خطابها الذى لم تزد فيه عن قولها العجيب :

« جل الأمر عن العتاب ! . . . »

فلو أن رجلا غيره قام مقامه لما تريث بهم كل هذا التريث ، ولما صبر عليهم صبره ، ولقضى فيهم قضاءه الواجب منه فى غلاة العصاة . ولكنه بقى يتلمس الفرص والسوانح ولا يتبين مظنة للتفاهم إلا نهزها عسى أن يتجنب أداء ذلك الواجب الكريه . وكان يعلم أن فى صفهم طائفة لن تستجيب قط لدعوته السمحة

بل قد تثير بقية الحزب على صم آذانهم والمغالاة فى العناد والغى — تلك من آمنت أن سيخطئها النفع الذاتى لو التزمت الجماعة وأقلعت عما غدت فيه من خلاف . ذلك أن أفرادها قد استيقنوا أن الآراب لا تسير فى ركاب الإمام ، وأن من ألقى إليه بالزمام حقيق أن يتجرد من أطماعه وما لمثل هذا قاموا يشبون نار الانقسام ...

ومع ذلك فهو على بينة منهم ، ليس يحسن بهم الظن على الإطلاق . وإنما ود لو بلغت دعوته آذان الفئة التى تلوذ بالحكمة لعلها تستطيع أن تقهر هؤلاء على تقبل الصلح ، وعندما بدا له ذات يوم أن يستسفر ابن عباس ، تخير له من يبث دعوة الوفاق فيه إذ هى أحرى أن تلقى عنده مالا تلقى لدن سواه . . . قال له إذ ذاك :

« يا ابن عباس . . لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثوار ، عاقصاً قرنه ! يركب الصعب ويقول هو الذلول . . ولكن الق الزبير ، فإنه ألين عريكة ، فقل له : ثم يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ . . » .

تلك كانت نظرته إلى الأمور ، وغيرته على صلاح شأن الإسلام وأهله ، ما توسم فى ناحية خيراً إلا بادر يلتمسه حيث كان . . . وهذه فراسته ، صدقت دائماً فى الرجال ، ولنا على صدقها فى الزبير ، من قبل ومن بعد ، أكثر من برهان . . .

دعوة إلى السلام

١

إنه حديث ليل ، مضت عليه الليالى . . . همست به رؤيا عابرة . حين غفوة ، إلى خاطره فصورت له بعض المستقبل . وعندما فتح عينيه ، واستقبل بهما ضياء النهار ، تواردت الحيرة على ذهنه مع الشروق . فمن ياترى ذلك العليل النائم الذى أطلمه الحلم ؟ . . . ومن هذه المرأة التى اقتعدت عند رأسه مكاناً تستطيع فيه أن تحميه ثم لم تفعل ؟ . . ومن كل أولئك الناس المتدافعين نحو المريض وفى عيونهم علائم الغدر والشر السافر ؟ . . .

ليس يدرى « كليب » . لم يكن ذا علم بتأويل همس الليالى فى ضمائر الغفاة . ولو كانَ لعلم ، ولرأى الأحداث — قبل وقوعها — تجرى من بعد فى واقع الحياة بمصداق ما جرت به فى الحلم الغامض . . .

ومضى من حيرة يقص رؤياه ، ويلتمس لها الفتيا الكاشفة عند أصحاب المعرفة والبصائر . ولكنه لم يئو بغير عجبهم منها ، وبقيت له حيرته . وراح طويلا يستنبئ من يعرف ومن لايعرف من الناس ، حضرهم وباديهم ، فى حله وترحاله ، فى سفره واستقراره ، فما أجدى عليه السؤال ولا الاستنباء . . . حتى إذا هم أن يجعل الحلم دبر تفكيره ، وبدأت تنأى به الشواغل ، بادر القدر فجاء بفتياه ! . . .

عندئذ قال له الناس :

« رؤياك يا كليب ! . . . »

وكان ذلك حينما صرع عثمان ، فهذا هو المريض العليل ، ومن غاله وأورده حتفه فأولئك ذوو الشر السافر الذين أبدتهم الرؤيا يتدافعون بغدرهم إليه ولاتردهم عنه — وإن ملكت — صاحبته . . أما المرأة فظلت بعيدة عن عين كليب وعن رأى خاطره ، بنجوى كالسر . تلوح صورتها دائما فى خياله ولا يدرى من هى ولا ما هو « شخصها » فى النساء .

وسارت به الأيام . وأمعنت مواكبها سيراً فى درب الأحداث . وانقضى عهد وجاء آخر على آثاره . وتبدلت بحال حال والمرأة خفية عنه .

ثم انتشرت عند حد الأفق غيمة تكاد أن تحجب وجه الشمس ، سدت منفذ البصرة . فلما تبينها الناس رأوها كتائب مجيشة ، أقبلت من البلدة الحرام يسوقها الزبير وطلحة وأم المؤمنين . وليس مجيئها إلا الخلاف رفعت لواءه على الإمام ، ومقدمات غارة تهم أن تشنها على سلطانه .

وقع من الأحداث بالبصرة ما وقع . وناشتها نكبة تجر نكبة نظم أمرها العصاة .. ثم تكلموا بمنطقهم فلم يشفوا عجب كثيرين من أهليها بذلك المنطق وما احتوى من تبرير . بل اشتبكت على مسامعهم الأمور ، واختلطت خيوطها أنكاثا تاه بينها خيط الحقيقة وضلت عنه النهى والعقول .

كان الحدس وحده سبيل القوم إلى التعرف على الأسباب الخفية وراء هذا الغزو وهذا الخروج ، وطالما قادهم إلى ظلام . وكانت النفوس القلقة تلعب بها الحيرة آونة والريبة آونات ثم لا تأمن إلى قرار . فما يسعها الاطمئنان إلى ذرائع الغزاة ، وليس تستطيع الركون إلى حججهم وقد أبدوا وجها من الأمور لعل غريمهم أن يبدى سواه فلا يخالف به صورة الصواب . فلكل حجه حجة ، ولكل بيان بيان .

وكذلك قد عزم الناس بالبصرة أن يوفدوا من لدنهم سفيراً إلى مقام الإمام ، يعلم منه رده على منطق الخصوم ثم يسير عليهم من بعد أن يزنوا القول والقول ، ويقرعوا الرأى بالرأى فيظهر لأيهما الرجحان .

وقالوا إذ ذاك لكليب الجرمى :

« إن هذا الأمر اختلط علينا يا كليب،فامض إلى على وأصحابه فسلهم عنه.. »

فانطلق وصاحبين له .

لم تكن الشقة عليهم بعيدة ، وليست قط على ناشد حقيقة وإن طالت بها المراحل والمسافات . فما لأشهى من حق وأقرب منه على النفس الصافية تسير قدم أو يركب ظهر . ولا كمثله يهون الصعاب والمشقات . وقد كلف الرجال الثلاثة بنشدتهم فنسوا من أجلها النصب وركبوا إليها جناح العزم ، وإن بقلوبهم لشغفا يجب عن جسومهم متاعبها ويبعث فيها نشاطاً متجددا ، يفيض ولا يغيض ينبوعه .

وبدا لهم أخيراً عسكر الإمام شاعت الحركة فى كل نواحيه . فقد راح الجند يتأهبون أهبتهم لمرحلة أخرى من سيرهم تقرب ما بينهم وبين البصرة . وأخذت رنة السلاح تزحم السكون والأكف تتلقفها للامتشاق أو لتثبيتها فى المناطق . وصهيل الخيل وهدير الجمال يتردد كأنما هى تدعو الفرسان ! . وكانت الظلمة الخابية تلف الأخبية والخيام ولكنها لا تسترها عن العين ، فما زالت بالغروب خفقة تضىء بعض ضياء . . . وحينما دنا الرسل أقرب الدنو من هذه الساحة ، طالعهم فارس فى وجهه إشراقة ، وعلى ملامحه من الحسن رواء يكسوه جلالا وينحله رجولة . فما وقعت عليه أبصار الغرباء حتى همس كليب لصاحبيه :

« هى والله ! . . . »

فأعدى الرجلين تعجبه ، وهتفا به :

« من يا كليب ؟ . . . »

« أرأيتم إلى المرأة التى كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس العليل فى رؤياى ؟ . . . »

« نعم » .

« إنها بهذا الرجل أشبه الناس ! . . . »

ومضوا وفى أخلادهم تسبح الدهشة . ولكن طرفا من مسارتهم كان قد طرق أذنى الفارس وخال به أنهم عنوه . أو لعله استراب فيهم إذ أنس فى خطاهم ترددهم الغريب ، فما هموا أن يتبعوا الخطوة الخطوة حتى صاح :

« قفوا ! . . »

فثبتوا لا ينثنون . والحق هو أمره بسؤال :

« ما الذى قلتم وقد رأيتمونى ؟ . . . »

« لم نفه بقول » .

« فلن تبرحوا إذن أو تقولوا لى ! »

فدخلتهم منه هيبة هتكت حجب الكتمان التى شاءوا لو ظلت مسدلة على خافية السر . . . وأقبل الجرمى يحدثه برؤياه ، لا يكتم شيئاً ؛ حتى فرغ .

حينئذ انتقلت الدهشة منهم إليه ، وهمس ، كأنما لنفسه ، وهو يدعهم ويمضى لما كان فيه :

« والله إن ما رأيت لعجيب ! . . »

وغاب عنهم فى ظلال الغسق الممدودة .

إذ ذاك انثنى كليب إلى أدنى أهل المسكر منه ، قال يسأله فى خفوت :

« من هذا الفارس ؟ . . »

« محمد بن أبى بكر »

فعقلت الحيرة هنيهة ألسن الصحاب . وجاءت إثرها كراهية غلابة لأمر أولئك القوم الذين خرجوا على طاعة الإمام ، وعصفوا بالبصرة ، وغلبوا عليها بحجة أنهم قاموا فى الثأر لعثمان . أم بقيت ثمة من الرؤيا بقية لم تحققها الأيام ؟...

بل انكشف عن حلمه الغطاء ، وأتت الحوادث دراكا بتأويله . وإن الجرمى ليمضى لغايته صوب على ليعرف من لسانه حقيقة حال أولئك الغزاة العادين وليس به حاجة إلى ماضيه ، ولا إلى استنبائه منطقا يدحض منطقهم ، أو حجة تقرع حجتهم المتسقة . . . فلقد أنبأته الآن رؤياه :

« هى عائشة بنت أبى بكر ! . . . »

ولكنه مع ذلك سار مسيره يتبعه رفيقاه ، ومابق حلمه يعاود خاطره كمن قبل — فى اليقظة هذه المرة ! ... فذلك عثمان ، واهن الحول مهيض الجناح ، قد تكأكأ الغدر عليه فى صور أناس . وهذه عائشة عند رأسه لو شاءت دفعت غائلة الشر وكفتها عنه . فلأمر رأته لم تعد يداً مكفكفة ، ولم ترد كوسعها عن الأمير المنكوب . إنما خلته ومصيره الموجع ، وقضاءه الفاجع . اكتفت من دور الرؤيا بأن تقعد وتشهد حتى مضى القوم إلى الغافى النائم فسلبوه الحياة ، واستلوا عصارتها من هيكله الجاف ! وا كتفت من دورها فى حقيقة الحياة بمثل ما كان فى دنيا الحلم بل هى ها هنا أشد قسوة إذ أعانت على المريض ! . . .

واستأذن رسل البصرة على أمير المؤمنين . وأقبلوا عليه يستخبرونه فما أخفى عنهم هنة مما سلف من أنباء مصرع عثمان والأسباب التى هيأته والحوافز

التي ساعدت عليه . لكأنه بهذا السر كان يفق الجرى عن تأويل رؤياه ! . . .
وحين أشرف على نبأ معارضيه ، طفق يتحدث عن عمرة طلحة والزبير التي غدت غدرة ! . . وعن غيرة عائشة بنت الصديق التي أغرت دعوة تتوارى خلف عدالة القصاص !.. ومازال يصف من خصومه ما كتموا عن الناس حتى أوفى على أمر الفتنة التي شبوها عليه يريدون بها اجتياح كيانه وهدم بنيانه ، ولو دروا لعلموها محنة حازبة تهم أن تجتاح الإسلام . .

« فتبعتهما ، لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقاً ، ولا يشقوا جماعة . . »

ثم سكت عن بيانه .

وقلب كليب بصره هنيهة على صاحبيه ، وأخرى على الفريق الذى شهد مجلسهم هذا من أولياء الإمام ، وثالثة على محيا هذا الأمير المحسود المظلوم . . إن إشراقه الحق لتتبلج على قسماته وتضيء حوله للنفوس الحيرى سبيلها للهداية . . ما من حاجة الآن لكليب أن يزن حجة بحجة ولا لقومه ، وقد جاء على بفصل الخطاب . .

وهتف بهم بعض الأعوان ، في همس خافت ، كأن الألسنة تهاب محضر الامام :

« والله ما يريدون قتالهم إلا أن يقاتلوا . وما خرجنا إلا لإصلاح . . . »

وهمس آخرون :

« فقدموا فبايعوا ، رحمكم الله . . . »

فلم يتلكأ الرجلان لحظة عن التلبية ، بعد ما عرفا الحق أين مأتاه ومع من يسير . . أما الجرى فقد تريث ، وبات حائراً أيتابع صاحبيه على ما عقداه أم أولى به الصبر حتى ينقل لقومه نبأ ما رآه ليروا رأيهم فيه .

وفي غمرة حيرته ، سرى إليه صوت الإمام ثابتا ، هادئ الجرس ، خافض الرنين :

« ألا تبايع ؟ . »

فبغت الرجل وعالج الاضطراب الذى ساد كيانه حتى استطاع لسانه أن يجيب على استحياء :

« أصلحك الله !.. ولكنى رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم .. »

فابتسم له أمير المؤمنين بسمة هونت من اضطرابه وأفاءت على نفسه السكينة ، وقال :

« أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغى لهم مساقط الغيث . فرجعت إليهم ، وأخبرتهم عن الكلأ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب . . . ما كنت صانعاً ؟ . »

« كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلأ والماء » .

« فامدد إذن يدك ! »

ففعل على الأثر ، لم يستطع أن يمتنع بعد وضوح الحق ، أبلج كضحوة النهار ..

وحين آب الثلاثة ، وشارفوا بلدتهم ، وكانوا جميعهم لسان حال للإمام ، ينطقون بمنطقه ، ويسوقون حججه ، واحدة تظاهر أختها ، على أنفس الناس وما كان فيها من تردد وشبهة . فهو امرؤ يحارب الانقسام وينشد السلام ، ظلمه أصحاب الجمل إذ باينوه ، ونكثوا عهد ربهم عندما خالفوه .

وراحت الوفود بعدهم تترى ، وقد بلغتها الدعوة التى نهض بها على ، ونفذت إلى قلوبها سماحته . . . كلما مرت بأرض فيما بين البصرة وبين ذى قار بدوا جموعا تستبطىء المطى ، وتود لو حملتها الريح إلى الرجل الذى نفض عنه غضبته على شانئيه . وقدم العفو والصلح ابتغاء وحدة الوطن الذى كادت أن تغوله عوادى الفتنة ، وتنخر فى بنيانه الشامخ أهواء بنيه ! . . .

٢

كانت خطة على دهاء ... سفارة القعقاع أدنت أصحاب الجمل من حتف معنوى أشد قضاء عليهم من وقدة القتال . فقد بانت الحقائق بها للناس فى ضياء جديد ، واستنارت لهم مناهج التفكير والتدبر . . . ها هو الإمام ليس يسعى لتثبيت حكمه ، ولا للقصاص من خصومه إذ غالبوه وظلموه ، بل سارع يمد نحوهم كفه ، فيها صلح وفيها عفو وفيها سلام ، ويهيب بهم من أجل وطنهم جميعاً أن يتلقوها .

ويقبلوا دعوة الصفاء ... إنه ليؤمن خائفهم ، ويحقن دمهم ، ويغضى عما أسلفوه فى حقه من إساءة . إنه لينسى انتقاضهم عليه ، وعبثهم بعهده ، واستهانتهم بهيبته إذ هو أمير نافذ الأمر فيهم ، وواجب الطاعة عليهم . . . لقد تجرد من نزعاته النفسية كل التجرد ، ومن مشاعره نحوهم التى طالما جرحوها بالفعل أو بسقطات الألسن الزارية العيابة . فما لهدف خاص قد هدر وغضب . ولا لمأرب ذاتى كان إليهم مسيره ، وحين تدبر الناس موقفه فى روية وحكمة ، وجدوه كعهدهم به قبل الإمرة ، ومن يوم عرفوه وله فى الحياة العامة دور يضطلع به ، نفس ذلك الذى قال ذات يوم غابر :

« . . . لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا على خاصة . . . »

فكذلك كان أبدا مبدأه وكان شعاره . وهو الآن يعيد من تجرده إلى الأذهان الغافلة ما غفلت عنه . ولو أنه أراد تأديب العصاة ما أعوزته الوسائل ولا أقعدته عنهم . فليس عن خشية إذن دخلت قلبه منهم كان هذا التريث ، وهذه السماحة التى تعز فى النظائر . لا ولا رهبة القتال ردته . إنما قد آثر هذا حرصا على سلامة المجموعة الإسلامية أن يودى بها التناحر ، وإشفاقا على خصومه أن تأكلهم غائلة الحرب ، وليس يضيره قط أن يمهل لهم ليجتنبوا المهلكة . ولقد قال من موطن كهذا سوف يأتى نبأه بعد حين :

« ... والله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى ، وتعشو إلى ضوئى . فذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها . . . » .

فالصلح إذن كان خطة منه لخير ، وعلى دهاء وحكمة . ولو قد رفضه أصحاب الجمل لبدوا فى أعين الرأى العام ساعين لفتنه ، ملبين دواعى الهوى والأطماع الشخصية ، دون داعى الصالح الجماعى ، دع تنكرهم لنداء المروءة ودعوة التسامح . ولو سارعوا إليه يتلقون كفه المبسوطة بالصفاء ، فهى مسارعة إلى لأم الصدع وتوثيق وحدة الأمة ، وهى فى ذات اللحظة مسارعة إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتراف صريح بخطأ نظرتهم القديمة التى نفضتهم عنه ، وإقرار

أنما إقرارا بأنهم أساءوا أبلغ الإساءة إلى من وجبت له عليهم الطاعة ، وجانبوا الحق حين نقضوا البيعة وتنكروا للولاء . . .

ولكننا مع هذا لسنا نستطيع أن نفهم كيف يبادر أولئك القوم لاعتناق دعوة القعقاع ، وإن بين صفوفهم لكثيرين يهيضهم الصلح ويقضى على كيانهم الذى لا يتنسم أنفاس الحياة إلا فى كهوف التنابذ . وحين نعيد إلى الذهن أسماء مروان وابن عامر وأضرابهما من النهازين يسعنا أن نرى كيف سيقوم الصلح على أنقاض آرائهم ومطامعهم . وحين نستعرض هذه الآراب نوقن أنه عسير غاية العسر أن يقروا — مختارين — دولة لن يكون لهم فى توجيه سياستها مثل أنملة ، بل هى قائمة على طلل سيادتهم القديمة ، مؤذنة بانقضاء آمالهم حتى آخر الزمان . فلعلنا إذ نلم بطرف من برم أولئك بالصلح الذى يسد عليهم منافذ الأهداف الخاصة لا نكون قد تجنينا ولا جانبنا منهج الحقيقة ، ولعلنا أيضاً حين نذكرهم إنما نوردهم كمثال ، فليسوا وحدهم أصحاب ذلك النحو من التفكير .

وعندما نتحرر من ترددنا بعض التحرر ، ونسوق القول ميسوراً ، عارياً عن التقيد بأقدار الزعماء ، لا نلبث أن نلحق بطلحة بعض مظنة وهنة شبهة ، وهل كان قط إلا مفتوناً بالإمرة يركب إليها كل صعب وعسير ؟ . . . إنك لن تغفل أبداً ماضيه فى هذه الناحية ، ولا حتى حاضره الحاضر . ولك أن تستقصى معى كيف غلب عليه ذلك الماضى وساق له الآن فكره فى ذات الطريق القديمة ، فلم يرض له الخضوع للإمام ، بل أبداه أمعن فى مشاقته وخلافه منه من قبل ... كان هذا فى يوم غير بعيد ، من بضعة أيام ، حين بعث على إليه وإلى صاحبه بكتاب يستفيئهما إلى طاعته ، والتزام جماعة المسلمين ، فردا بجواب يقولان فيه :

« .. إنك سرت مسيرا له ما بعده ، ولست راضياً دون دخولنا فى طاعتك . فلسنا بداخلين أبداً ، واقض ما أنت قاض ! . . . »

فهذا رد قاطع ، لا يدع سبيلا إلى التفاهم ولا يحتمل من التأويل إلا الإصرار على ملاقاة الإمام بالقتال بعد العصيان . فإذا أبديا الاستجابة من بعد للصلح والرغبة فى الوئام ولما تنقض على كتابهما إلا أيام ، فإنه إبداء حرى بأن تحوم حوله

الشكوك ، أو قد ند عن تحول أفكار الناس إلى العطف على على وتقدير نظرته ، وخضوع منهما — دون اقتناع تحت ضغط الرأى العام .

على أننا ندع هذا كله إلى حين عندما تحركه الأحداث ، ثم نسير وئيدا فى ركاب القعقاع صوب البصرة وقد بات أهلها فرقاً مختلفة الهوى ؛ بعضهم مع على ، ممن والوه وظلوا على الوفاء له ، وممن وترهم الغزاة فرأوا الثأر لقتلاهم لا يكون فى غير انحيازهم إلى خصوم العادين . . . وبعضهم على على قد استهوتهم دعوة أصحاب الجمل الطلب بدم عثمان ومدهم بالإيمان بها أن نهضت فيها بنت الصديق . . . وبعضهم بين أولئك وهؤلاء أخفت عنهم سبيلهم الشبهات ، وغشى التردد نفوسهم فتركهم حيارى أينحازون إلى هنا أم إلى هناك . هذه الطائفة التى اختلط عليها الأمر أخذ النهج الواضح يبين أمامها قليلا قليلا ، كما ينجاب الضباب فى الضحى ، بعد أن آثرت تلمس الحق فى مواطنه فخرجت ، أفراداً — فى البدء — ثم جماعات ، إلى مقر الإمام تعلم منه ثم تذيع بين قومها ما علمته . وكان فيها من الجرمى أشباه . ومن بعده كثير تحدثوا بمثل منطقه وأغروا غيرهم بالتحدث . . . فليس من عجب لو شهدت الجموع تنحـدر من البصرة لتلحق بعسكر الرجل الذى كشف للناس قلبه ، وأعلن على ملئهم أنه يبتغى السلام .

كانت الأذهان متهيئة بالبلدة للوفق ، والنفوس فى عمومها راغبة فيه . فليس أحب إلى القلوب من عيش وادع رضى فى ظلال الأمن ، ولا أبغض من محنة تحز الرقاب وتخضب الأرض بالدماء . ولم يكن هذا الشعور ليخفى عن القعقاع ، بل لعله استيقنه وأحس أيضاً نظيره . وحين اتخذ سبيله إلى دار عائشة قبل مسيره إلى الصاحبين كان يخط أول حرف من وثيقة الوفاق وإن لم يمتشق قلما أو يهيء صحيفة . . . ذلك أن النساء أدنى إلى اجتناب المذابح التى تنصبها الحرب ، أخشى الناس للقتال ، أولاهم بامتثال الدعة والرفق والسلامة . . .

هو لا ريب كان يوطن نفسه لـكسب نصير فى مقر قيادة الخصوم — أقوى نصير ! . . ولم يخنه تقديره حينذاك . فقد استقبلته السيدة خير استقبال ، وأقبلت فى اهتمام تصغى إليه . . .

وقال لها بعد قليل :

« أى أمه ! . . »

« أى بنى ! »

« ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ »

« إصلاح بين الناس »

فاطمأن إلى جريان الحديث بالمجرى الذى يشتهيه ، وهتف يدعوها أن تجمع لديها صحبها لبحث الأمر :

« فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى منى ومنهما . . . »

ففعلت فى التو . وجاء الصاحبان وما من أحد منهما يدرى فيم دعوة أم المؤمنين .

وخاطبهما القعقاع :

« إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس . فخبرانى ما تقولان ، أمتابعان أنتما أم مخالفان ؟ . . .

« متابعان » .

« فما وجه هذا الإصلاح ؟ . . . والله لئن عرفناه لنصلحن . . . »

« قتلة عثمان »

« قتلة عثمان ؟ . . »

« نعم ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن . . . »

من البدء تلك حجة الخصوم وشعارهم فى عصيانهم أمير المؤمنين . أفكانوا يا ترى أولياء دم القتيل ؟ . . . ألهم إلى هذا الطلب سبيل وله من دونهم أسرة وأبناء ؟ . . ومن كانوا العادين على عثمان بين الناس ؟ . .

ذات يوم كتب إليهما على يقول :

« . . ما أنتما وعثمان ! . . هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا فى طاعتى ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم . . . »

ولكن الواتر — إن عرف ! — والموتور كلاهما ظل خارجاً على الدولة التي تملك أن تدين وتقتص ، فبقيا جميعا — بهذا الخروج — حقيقين بالتأديب والقصاص ! .

وقال القعقاع يرد حجة الصاحبين ، ويضربها بمنطقه :

« قد قتلتما (قتلة عثمان من أهل البصرة !) وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم . . . قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذى أفلت فمنعه ستة آلاف . . . فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم — »

فهتفت به عائشة وقد غمها أن ترى نفسها بين أمرين أهونهما شر :

« فتقول أنت ماذا ؟ . . »

« أقول هذا أمر دواؤه التسكين »

وتريث هنيهة ثم عاد يتم حديثه :

« إنكم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء القوم الذين أغضبتم ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم . فإذا سكن الأمر احتلجوا . . . »

فلم يعقب منهم أحد على حديثه ، بل راحوا يتفكرون ، ويقلبون رأيه فى روية وإعمال ذهن . لكأنما كلماته جديدة لم تطلعها من قبل حكمة ولم يفه بها لسان ! . . إنها لتحسن وصف المأزق الذى وقعوا فيه ، وتصف أيضاً دواء دائه . . . ليت الأيام عادت سيرتها الأولى إلى يوم كانوا بالمدينة لم ينقضوا بعد بيعة على ، إذن لسمعوا الحكمة من لسان ذلك الأمير — الذى آثروا عصيانه — حين قال :

« . . . اصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهنا وذلة . . »

ولكنهم لم يصبروا حينذاك . وضاقوا بحكمة الحكيم — أم ترى ضاقوا بإمرته فانتقضوا عليه ؟ — ثم فعلوا الفعلة التى حذرهم ، فماذا — غير الوهن الذى حدثهم عنه ؟ . .

إن الأحداث الآن بصرتهم بصدق نظرته ونفاذ عينه إلى أغوار المستقبل . ولو صدقوه إذ ذاك وصبروا كما أشار لجنبوا الأمة هذه الفتنة التى لم تنلهم شيئاً مما طلبوه أو . . . ادعوه على مسمع من الناس ! . . . فدم عثمان كان وحده حجتهم فى اختلافهم على على ، وعذرهم الظاهر لذلك الخلاف ، ثم ها هم قد أطلوا ذلك الدم ولم يأخذوا من مريقيه ثأره ! إنما جنوا فحسب انقسام جماعة المسلمين وقيام بعضهم يقاتلون بعضهم الآخر ، بينما غاضت قطرات ذلك الدم فى غبار الصراع ! . . . ها هم بعد أن كان القتلة يحميهم بالمدينة بعض طوائف من العبدان والأعراب ، قد غدا أحدهم تحميه ألوف ، يغضب لهم ألوف ، ثم قبائل شتى تجمعها العصبية لتظاهر أولئك الحماة . . . فلقد أفلت حرقوص بن زهير — وهو أحد أهل البصرة الذين خرجوا فيمن خرج من أهل الأمصار إلى عثمان يطلبون منه الحق وينكرون الجور — ولحق ببنى سعد بعد الوقعة بين أصحاب الجمل وفرسان حكيم فكان وحده الناجى من المذبحة ممن شهد حصار عثمان . وطلبه رجال طلحة فمنعه بنو سعد ، وغضبت له عبد قيس ، وبقى من طالبيه فى أمان . . .

وأردف القعقاع يبين لسامعيه أين يجدون الخير والسلامة :

« . . . إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر الرجل ، وعافية لهذه الأمة . وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر ، وذهاب الثأر . فآثروا العافية يا قوم ترزقوها ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . . . »

وتلبث يرى ما ينطقون به إثر منطقه ، فما عتموا أن بادروه يصوبون نظرته :

« نعم القول ، فقد أحسنت وأصبت . . . ارجع يا قعقاع ، فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . . . »

وكذلك بدت علائم الصلح فى الجو إذ أقر الصاحبان وعائشة عرض الإمام . وأوشكت الأمة أن تسير إلى عهد وئام يضم فرقها المختلفة ، ويوثق عروتها ، ويبدلها طمأنينة وأمنا بالحرب الأهلية التى همت أن تأتى على كيانها الموحد — لو صفت الأنفس وخلصت النيات ! . . .

٣

كانوا ثلاثة . قبلوا الهدنة واستجابوا لدعوة الوفق . ولكنهم ليسوا وحدهم حزب الجمل بطبيعة الحال . كلما رميت ببصرك وراء عسكر طالعتك وجوه غيرهم كثيرين ، لهم فى إنشاب الخلاف إصبع ، وفى الصلح المرجو رأى لا يوافق رأى الزعماء ، تحدثت عنهم الميول القديمة ، ونضحت بما فى النفوس . وحين لبى رءوسهم نداء الإمام لم يشاوروا ولياً منهم ، ولم يصدروا فى التلبية عن جماعة العصاة . . . أفيستقيم لهم نهج الصلح ويسعهم أن يحملوا أولياءهم عليه ؟ . . .

من البدء لاحت الهدنة خدعة كبيرة ، لا لأن الثلاثة إذ قبلوا أضمروا الرفض وأبدوا غير ما يريدون ، بل قد خدعهم عن حقيقة ميول أتباعهم نبأها الساحر وما رجوا وراءها من سلامة وخير فما زالت نفوس الكثرة من رجالهم تميل للقتال ، وتدين بشريعته . وما نشبت دعوة الطلب بدم عثمان تريهم أنها لن تتم إلا بدم . وقد غلب على أذهان أولئك الأعوان ما ظلت أقوال عائشة وصاحبيها تبث فيهم من « تخاذل » على عن الثأر وترفقه بالقتلة حتى لظنوه ضالعاً فى المصرع يشيم مطمعاً فيه ! بل قد سلف منهما ومنها فى حقه زعم يلحق به تهمة القتل بعد الخذل ! . . . أفيسع أصحابهم بعد هذا أن يؤمنوا حقاً ببراءة الإمام ؟ . . .

دون هذا ويلتوى الأمر ! . . . وهاهم أولاء يهرعون إلى الرجلين حين بلغهم ما مشت به الشائعات من نبأ الصلح ، وكلهم موقن أن الحرب هى الدواء . وأقبل منهم رأس الأزد صبرة بن شيمان يقول :

« . . . انتهزا بنا هذا الرجل فإن الرأى فى الحرب خير من الشدة ! . . . »

وقال أبو الجرباء للزبير :

« إن الرأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل أو يصبحوه قبل أن يوافى أعوانه ! . . . »

وصاح كعب بن سور :

« وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم ؟ . . . اقطعوا هـذا العنق من هؤلاء ! . . . »

ويعجب المرء لهذا الصائم كيف امتلأ قلبه هكذا حماساً لنصرة طلحة والزبير حتى ليدعوهما دعوته الملحة لقطع « عنق هؤلاء » وما عنى حين قال إلا علياً يهيج نقمتهما عليه . . . أفأنسى كعب يا ترى موقفه الأول ، وكتابه إليهما يوم أرادا الاستعانة به فى النهوض معهما للثأر لعثمان فأبى عليهما ورد يقول يومذاك :

« إن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ؟ . . وإن يك قتل مظلوما فغيركما أولى به ! ... وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل !.. »

قد نسى هذا فيما يلوح . والأيام دائماً كفيلة بالنفوس ، تميل بأكثرها فلا يثبت منها على منهاجه سوى قليل . ولقد مال ابن سور ميله ، وغدا الآن على قضية الصاحبين أشد منهما غيرة ، وأحرص على إبلاغها أبعد مما يرجوان لها من نجاح ! . . .

وكيفما كانت رغبة الصاحبين فى الصلح وكان الأساس المرتكزة عليـه فإنها رغبة لم يكتماها إذ ذاك ، ولقيت عندهما هوى غير منـكور . ولـكنها كانت دعوة حرية بأن يعوزها فى منطقهما الحرارة التى تبعث فى قلوب رجالها الحماس لها ، وفى أذهانهم الاقتناع بها والمبادرة إلى اعتناقها بغير إمهال . فما بهذه السرعة يمكن حمل الناس على نسيان مزاعمهما السالفة وكل تلك الاتهامات التى جهدا طويلا ليلطخا بها صفحة الإمام . وليس يسيراً على أعوانهما الآن أن يؤمنوا بأن الوفاق هو وحده الخطة المثلى والرأى الذى تهون أمامه بقية الآراء . . .

على أن ثمة عاملا له حسابه فى جنوح طلحة والزبير إلى إيثار السلام على الحرب ، والمخاصمة هو ما أخذت الأيام تبديه من غمر موارد على فى العدة وفى الرجال .

فقد لبته الكوفة ، وبعثت من لدنها كتائب تلتحق بجيشه ، آلافا من الجند يسعهم الحصر ولكنهم بين كل عشية وضحوة يزيد عديدهم وتدعمهم زمر وجموع . وكان أيضاً هناك رجال القبائل المنبثة فى البيد على تخوم البصرة وفيما حولها من أصقاع أولئك هواهم فى الإمام معلوم . وهم أدنى إلى مظاهرته وشد أزره . وحين تتطلع العين إلى الطريق بين البلدة وبين ذى قار لا تعدم أن ترى الوفود تترى لتلحق به ، وتكون مدداً لقواته . ولقد يغلب على الظن آونة أنهم لم يسيروا سيرهم إليه إلا وقد جذبتهم دعوة الصلح ، وعرفوا أن حديث الحرب أوشك أن تصمت عنه الأفواه . ولكنهم عندما تخفق الدعوة ، ويصبح لا معدى عن اشتباك السيوف فإنهم إذن ، ودون ريب ، سيختارون جانبه ، إذ هو المدفوع عن السلم بعنت الخصوم .

وكذلك ليس يسع المرء أن يغفل شأن فريق كبير من أهل البصرة غلبهم على ميولهم الإرهاب الذى سادها فى الأيام القليلة التى شهدت بها غلبة أصحاب عسكر وحكمهم القصير . فهذا فريق يتربص دون ريب بالغزاة وينتظر الدوائر أن تنفتح فى بناء الأحداث فرجة ينفذ منها إلى تقويض دولتهم ، والثأر لكل هذا الدم الذى أراقوه . وهل نسى عدوهم على العبدى وعشيرته ، وركوبهم ابن حنيف بالغدر والمهانة ، والمذبحة التى أشاعوها فى الأمنة ممن ألصقوا بهم تهمة قتل عثمان بعد وقعة حكيم ؟ . . . إن هذا الفريق لحقا شوكة تدمى جنب حزب عائشة ، إذ يؤلف نوعا من جيش سرى لا تؤمن منه الغرة والمفاجأة حين يستعر القتال بين جندهم وجند الإمام . ولقد صدقت فى هذا الشأن قطعاً نظرة أبو الجرباء ، وكان تحذيره الصاحبين تحذيراً أملاه حسن التقدير .

إن هذه العوامل ، لو كانت وحدها ما حمل الرجلين على المهادنة وقبول الصلح ، لكان فى رضوخهما لدعوة الإمام ، وتقبلهما إياها ، خير ما يسعهما أن يقراه مما توجب الحكمة وتفرض السياسة الرشيدة . ولكننا لا نجردهما أيضاً من نزعة إلى الصلح ابتعثتها الرغبة فى لأم صدع الجماعة الإسلامية بعد أن خذلتهما الظروف — أو أوشكت — ووضح لهما صدق رأى الإمام فى القصاص لعثمان

وعلاجه أمر قتلته بما كان يوائم حالة الأمن إذ ذاك وحالة الثوار . فالتريث كان وحده الخطة المثلى حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن النفوس ، ويتفرق عن المدينة أهل الأنصار . وبجدواه الآن اعترف الصاحبان ، واعترفا معه بخطئهما حين أبياه . . فقد قالا لمن جاءهما من دعاة الحرب يحضونهما على المبادرة إلى قتال على رداً على ما أسلفناه من حديث :

« ... قد زعم قوم أنه حدث لا ينبغى تحريكه ، هم على ومن معه ، وقلنا نحن : لاينبغى أن نتركه ولا نؤخره ، فقال على : إن هذا الذى أدعوكم إليه شر، ولـكنه خير من شر منه . . وقد كاد أن يبين لنا أنه الرأى » .

فلعل بعض ما دفعهما أيضا إلى اعتناق دعوة الصلح هو الندم على ما فرط منهما فى حق أمير المؤمنين من اختلافهما عليه فى شأن وضح اليوم أنه كان فيه أبعد نظرة وأصدق فراسة .

ونستطيع بعد هذا أن ندع حديث الجوانح وما ضمت من نوايا خفية فلسنا موكلين بالضمائر ! . . فما لهذا الحديث آخر . وليس الناس إلا نزوة تحركهم إلى هنا ثم أخرى تردهم إلى هناك ! . . وحسبنا لتتم جوانب الصورة التى تنقل لنا تلك الحقبة من تاريخ الإسلام أن نسير قدما إلى عسكر الإمام .

من البدء كان على يبغى الإصلاح ، ويروم تجنيب الأمة شر الفرقة التي كانت لا ريب نتيجة لازمة لدعوة الخصوم المستترة خلف الثأر للقتيل . وحينما سارع بتلك الحفنة القليلة من أعوانه يرود طريق نجد ليقطع السبيل على أصحاب الجمل قبل بلوغهم البصرة ، لم يكن قط يبغى ردهم عن نشدتهم بقوة السلاح، وإنما بالبيان والحجة الدامغة والبرهان الذى لا ينهض له برهان . وعندما أرسل يستمد أهل الكوفة ، كانت كتبه إليهم لا تكاد أن تستمدهم جنداً بقدر ما تريدهم حكاما يقضون برأيهم فيما شجر بينه وبين الخارجين من طاعته . ولقد ظل وظل رسله يتحدثون بأمر الإصلاح ودعوة الوئام والألفة، لم يتنكروا لمبدئهم قط ولا حادت بهم عنه حمية النزاع المشبوب .

ومع ذلك فليس مما يشين دعوته أن نجد فى صفوفه قوما كانوا يؤثرون القتال ويودون بجدع أنوفهم لو استطاعوا إليه السبيل ، فما من جماعة فى الدنيا يمكن أن يسودها رأى واحد ، أو تنمحى من رءوسها العقول التى تميزها عن الأنعام والعجماوات . وما من أمر يعرض لأناس إلا رأيتهم ينظرون إليه من جوانب شتى، فتفترق آراؤهم فيه ، أو تتلاقى بقدر اختلاف هذه الجوانب أو اتفاق النظرات . ومن العبث أن نسمى هذه الفرقة الـكلفة بالحرب بين أعوان على بالرغبة فى مناوأة سلطانه ورد طاعته ، بل أدنى إلى الحق أن نراها ساعية إلى تدعيم قوائمه وتثبيته والتمكين له أقوى تمكين . ذلك أنها لم تـكن تطيق أن تغفر لمناجز مناجزته ، ولا لمخالف خلافه على صاحبها الذى أنزلته من قلوبها منزلة تقارب القداسة ، وكانت ترى فى التسامح ما قد يغرى آخرين كثيرين بمعاودة العصيان ، فالشدة إذن أولى من اللين وأجدى على الدولة من الغفران .

وكان ثمة إلى هؤلاء طائفة يشق عليها الصلح أيما مشقة ، وتـكاد أن تستروح منه نذراً تؤذنها بمصير مرهوب . . . أولئك من شهدوا حصر عثمان من المدينة وأهل الأمصار ؛ فظل يحبس عنهم عدالته حتى أنشب القدر فيه غائلته . بالأمس كانوا أصحاب حق ، جاءوه — كقول عائشة ! — « يطلبون العدل وينكرون الظلم » ، فما للنظرة إليهم الآن قد تبدلت بنظرة كأنها إلى نقيض ، وللعطف عليهم من قلب السيدة يغيض ؛ ثم يخلفه على الأثر اتهام كفيل بأن يمحقهم ويسلم أعمارهم إلى يد الموت ؟ . . ثوار الأمس لم يعودوا بعد الفاجعة طلاب نصف ، بل غدوا قتلة وإن لم يشهر أكثرهم عصا فى وجه الشيخ — وإن لم يشهروا جميعا ، إلا واحداً أو بضعة . . ومع ذلك فقد باءوا من عائشة وحزبها بالسخط الذى اتسع حتى ضم فى جنباته كل مناهض لعثمان ، زار عليه ، متبرم بعهده المثير البرم فى قلوب كافة الناس . بقى الاتهام الذى ساقه حزب الجمل مصلتاً على الأعناق يجتز منها ما شاء حين يسعه أن ينتهز سانحة أو غرة تيسر الثأر من عشرات ومئين . وما المذبحة التى أودت بجم غفير من أهل البصرة إلا ناقلة إلينا رأى عائشة وجوابها الجديد على هذا السؤال الذى ما زال يحير الأذهان : « من هم ، وكم هم قتلة عثمان ؟ . . » .

لا ريب أن الصلح المأمول بين الإمام وبين أصحاب الدم ومن زعموا أنهم أولياؤه لن يكون إلا على حساب الطائفة التى شهدت الحصار . فبهذا شهدت المقدمات ، وعنه توشك أن تنجاب الخواتيم . فإذا خشى هذا الفريق دعوة الصلح أن تنجح فقد حقت له الخشية ، وحق له أن يخاف النذر المؤذنة بالمصير المخوف .

ولقد كان على يتوقى أشد التوقى أن يدع لأصحاب الجمل شبهة من حجة عليه ، فأبى منذ البدء أن يلوذ بجيشه أحد من رجال القبائل والأعراب والعبدان ممن لعلهم شهدوا الحصر أو أعانوا عليه ، ومع ذلك فثمة فئة منهم قد لحقت به حين تداعى وأخصامه إلى الصلح ، مهما كانت نفيراً قليلا ؟ فلها مشاعرها الخاصة ، ولها رأى كتمته فى السلم المنشود .

أما الإمام فقد سره أن لبى الصاحبان دعوته ، لأن التلبية خطوة إلى دخولها جماعة الأمة ولأم للانقسام . وبادر يحض أصحابه على التزام الصبر والتريث وامتلاك ناصية الأنفس عن إثارة الشحناء ، فما زال رأيه الكف عن خصومه ، ومدافعتهم بالحسنى والسكون عليهم وهم على حربه ، فكيف وقد أبدوا الرغبة اليوم فى الوفاق ؟ . . وحين قام منهم رجل يسأله عن خطته بعد حديث الصلح ، أجاب :

« الإصلاح ، وإطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ، ويضع حربهم . وقد أجابونى . . . »

وسأله آخر :

« أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل ؟ »

فقال :

« نعم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل »

« . . . وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ »

« نعم ، فالشىء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه »

وقام فخطب رجاله :

« يا أيها الناس . . . املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن القوم ، فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غدا من خصم اليوم . . . »

٤

تحركت كتائب الإمام هذا الجيش الذى خرج من المدينة فى عديد من العشرات ليس بعد و بضع مئين ، قد مضى الآن ترتج له الأرض ، ويدوى الفضاء حوله بصدى خطوه ، متوالى الجرس مرتب النغمة ، كأنما يهتف : « النصر ! النصر ! . . »

ولن يكون نصراً على عتاد وجند ، الأداة الحربية وسيلته . ولكنه ظفر بأهواء الأنفس المنحرفة يمحقها ، ويرد أصحابها إلى الجادة . . . أوشك الحق أن يظفر بعدوه ، وتكون له العقبى وحده . وما المسير الآن إلا لتقويض بنيان الانقسام ، وهدم حصنه بعد أن كاد يرفع على أبراجه رايات التسليم !

وكان على بادى البشر كدأبه لم يطف بقلبه التطير . الرجاء الذى استشعره من قبل فى جمع الكلمة ما زال ساكناً بنفسه ، يستبق به الخطا إلى أسوار البصرة ، ويهم أن يرسم له دنيا أخرى يسودها الأمن والوحدة والمساواة . والمبادئ التى اعتنقها منذ صباه توشك أن تثمر طلعها المبارك . غاية الغايات من رسالة الإسلام تتبدى لعينه قريبة ، لألاءة السنا كهذا الضوء الذى راحت الشمس تشعه أمامه وهو يؤم جيشه فتحيل به الصحراء وادياً بسيطاً من نور . . فلهذه الساعة الغراء كان يرنو دائماً خياله ويهدف أمله ، ليستقيم من بعد شأن وطنه على السنن الذى خطه محمد بوحى التنزيل .

إن الجنى الآن لدانى القطوف ، قريب من الأنفس النقية لولا أن تعبث به أيدى الشر . أفيحفظه القوم يا ترى نضراً ناضجاً حتى يئين الحصاد أم يسبقهم إليه الشيطان ؟ .

هو من موطن الخطر على حذر ، لا تغفل عينه ولا تنام ، وإنه ليعلم أن للشر دعاة وألسنة أينما كان أناس وكانت حياة . . . حتى فى صفوفه ليس يأمن أن تتسلل بضعة من حزب الشيطان لتقطع طريق السلام . فلو كان له علم بخافية الأنفس لوسمة القمع ، ولما أعياه أخذها بالعنف فتهلك أو تفىء إلى هدى الحق .

وإنه ليعلم أن فى خصومه فريقا مثلهم كهؤلاء يتربصون بالصلح ويتحفزون للردة عليه ! وعندما يقفون هنة فهى ذريعتهم إلى نقض عهد الهدنة الذى لم يبرم ، ووسيلتهم للسعى بالفساد بين الراغبين فى السلام .

ولكنه لا يملك أن يكبح خفى الأهواء . ولا يستطيع أن يعرف بين رجاله أناسا بعينهم يؤودهم الوفاق المنشود ، وإن عرف أن خصومه قد يتملون للخلاف بأوهى الأعذار . . . فالنفس المغلوبة على الأمر من الأمور تبدى الرغبة فيه وهى تبطن الرغبة عنه فهى حرية بأن تعتسف الفرص لنقضه والخروج منه ، ما شاءت إلى تصيد مبررات نسكسها من الشبه والمظنات . . .

مع ذلك فقد فعل ما يسعه للقضاء على تلك الهنات التى قد يتخذها بعض خصومه ذرائع لإفساد الصلح ، ووقف يحـذر أعوانه ، ويتوعد من عساه منهم يكتم فى دخيلته ما يسىء إلى دعوة الوفاق . وكان أولئك الذين خشيهم على السلم أشد خشية ، هم من شركوا فى فتنة عثمان وأعانوا عليه ، فراح يحذرهم نفسه ويقول:

« . . . أيها الناس ، إنى راحل غداً فارتحلوا . ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء . . . وليغن السفهاء عنى أنفسهم ! . . »

وقد راح الأمس وجاء الغد المرقوب . ومضى الإمام مع الصبح على رأس جيشه نحو غايته حتى بدت لهم البصرة على قيد النظرة . ونزل بهم الزاوية يتلبث وقتا يعلم فيه : آلقوم مقيمون على عهدهم وما فارقهم عليه القعقاع ؟ . . وعندما شارف البلدة ، وتسامع الناس فيها بنبئه ، لم يعد عديد أنصاره كما جاء بهم من ذى قار ، بل انفلت من أسوار البصرة أقوام يلحقون به مبادرين يدعمون قواته ويشدون أزره بعد أن وسعهم الآن أن يظهروا بعض ما يحسونه من ولاء غلبهم عليه الإرهاب . . .

وشاعت الحركة فى الناس ، وجرت بأرجلهم الحية . . . وتأهبت بكر ابن وائل ، وتأهبت معها عبد القيس تأهب غيرهم ممن عج بهم مكان التقاء الجيشين . وهم رجالها أن يمضوا إلى غايتهم تحت الألوية المرفوعة ويتخذوا مواقفهم فى الصفوف ، فما هو أن خطت بهم قدم حتى بعث شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى يقول :

« . . . إذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على . . . » .

فكأنما كانت كلماته صدى لما بنفس عمرو ، ماسمعها حتى استجاب لها لم يتمهل ، وقاد الجموع الزاخرة كرأى رفيقه وجهتها ، منحدراً بها صوب عسكر الإمام ينحاز إلى جانبه ، ويمهد بها قواته .

وشهد الناس إذ ذاك مشهداً لعل الأيام لم تطالع عليهم بمثله منذ عهد الرسول . . . فهذا « زيد بن حارثة » جديد يحمل راية القوم ويكون له فيهم مكان الصدارة كما كانت لزيد راية أصحاب محمد وجنده فى مؤتة ... أو « أسامة » آخر كذلك الذى نصبه الرسول قائداً لجيشه إلى الشام وحاملا للوائه المظفر . . . فقد مشى على رأس بكر وعبد القيس امرؤ لصيق مرقوق ليس بذى حسب ، ولا ماض يتصل بشرف لأجداده رفيع . . هو «رشراشة» مولى ثور يحمل راية القبيلتين . . .

حينئذ أحمى الغضب بنفس وعلة بن محدوج الذهلى ، قائد بكر الكوفة ، أن شهد شرف بقية قومه ينتهى إلى عبد مجهول النسب تائه الأصل فى الأصول ، وأن تدفع إليهم رايتهم دون السادة والفتية الأمجاد ، فثار حانقا بابن ثور :

« ضاعت الأحساب ! . ويحك ، أتدفع بعكرمة قومك إلى رشراشة ؟ . »

لقد كان وعلة فيما يبدو يعيش فى الماضى — فى ضباب العصبية الجاهلية ، التى تقيس أقدار الناس بمقياس ثراء الآباء وأمجاد الأجداد — فغم عليه أن يرى شمس الإسلام تسطع خارج فكره القديم ، ذات سنا وهاج ، لا يلقى ظلا من تمايز بين أخوين جمعهما الدين . . . المساواة الآن هى الشرعة ، وهى النهج الذى سنه الله للبشر ينطلقون فيها جميعاً ، سادة ودهماء ، أشرافاً ذوى أصول وأحساب وعبيداً أرقاء . . . رثت اليوم مفاخر الجاهلية وطأطأت رأسها لناموس العدل الاجتماعى فلا فوارق ولا طبقات . ونصب للناس ميزان آخر ، ترجح فيه أقدارهم بغير ما ألفوه من قبل وورثوه . . . فما صدارة إلا لكفاية ، ولا جاه إلا بعمل ، ولا حسب إلا بجهد يقدمه القلب واليد واللسان ! . . .

وتلك بادرة بدرت ذلك اليوم فكانت ناضجة بتهيؤ الأنفس لاعتناق المثل العليا التى سنها التنزيل . جاء أوان تطبيق هذه المبادئ السامية بالفعل بعد بثها

بالدعوة ورسمها بالحروف والقول . . . وإنها لعنوان لكتاب العهد الجديد الذى يفتتحه الإمام ، ويود بكل قطرات دمه وخفقات فؤاده أن يكون تتمة عصر الرسول لو أمهلت له الأيام .

فلعل ابن ثور حين جاءه تأنيب وعلة واعتراضه قد ذكر ما كان من غضب أصحاب محمد حين قدم عليهم زيداً مرة ، وأخرى ابنه أسامة . ولعله ذكر أيضا كيف استقبل محمد غضبتهم التى لم تؤججها إلا عصبية للجاهلية بقيت بغضبة أشد منها وقال :

« . . . لقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة . ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة . وإنه لخليق لها ! . . .

وإن رشراشة لخليق وإن توطأت به منازل الجدود ، وتاه حسبه فى غمار المجاهيل ! . . .

وكذلك لم تحرك حمية العصبية ، التى ود وعلة أن يثيرها فى قلب صاحبه ، شيئاً من نفس ابن ثور ، ولا لقيت كلماته صميما لديه ، بل وجده يبعث إليه بجواب يقطع عليه السبيل :

« أغن شأنك ! . . فإنا نغنى شأننا يا ابن محدوج ! . . . »

ومضى بالرجال ، ومولاه على الراية ، إلى عسكر الإمام . . .

وتهاتف الناس وهم يرون خروج هذا الفريق الذى تنطق فى وجوههم الشجاعة ، ويرتسم العزم ، وتبدو علائم الجلد والصلابة :

« الغالب من كان معه هؤلاء ! . . . » .

على أن علياً لم تكن به حاجة لجند يشد أزره ، ويرجح كفته على كفة خصومه فما رنا لغير الصلح ، وليس يسعى قط لإنشاب قتال . . إنه ليود مخلصاً كل الإخلاص لو انثنت الطائفتان جميعاً عن الحرب ، وأصغوا لصوت الحكمة عسى الله يلائم الصدع ، ويجمع الكلمة ويلم الصفوف . . . ولقد أبى فى هذا الموطن الذى رأى فيه جند عدوه عديداً يفوق جنده أن يستمد الناس ، تماماً كما

كان من قبل . . . وها هو يرد عون الأحنف بن قيس ، ويأبى عليه أن يأتيه بقومه مددا ، فكفاه الآن ما لديه ، فما يروم إلا الإصلاح . . .

أقبل الأحنف حين رأى جحافل الإمام تشارف البصرة ، فقابل أمير المؤمنين، ثم قال :

« يا أبا الحسن . . إن قوما بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً تقتل رجالهم ، وتسبى نساءهم . . . »

فعجب الإمام . . . أهى دعوى يا ترى بثها خصومه لتخذيل الناس عنه ، بل لجمعهم فى صفوف مناوئيه حتى يتجنبوا مصيراً فاجعاً لن يتجنبوه إن هو انتصر على أولئك الخصوم ؟ . . وهل لها وأمثالها فى النفوس إلا إثارة الخصومة والمنازعة وإضرام نار الحرب التى عمل جاهداً على تسكين ثائرتها ، وهدم كل ما بناه فى أساس السلم المنشود ؟ . .

والتفت إلى الأحنف يجيبه فى توكيد تشوبه الزراية بهذه الأباطيل :

« ألم تسمع قول الله عز وجل : لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ؟. يا أحنف . . . إنهم قوم مسلمون ، وما مثلى يخاف هذا منه ! . . . »

فهدأت نفس الرجل ، واطمأن باله . وود فى هذه الآونة أن يمد يداً بالنصرة لهذا الذى لا ينضح قلبه بغير الصفاء وخشية الله ، فقال :

« أصلحك الله ! . . أما لئن شئت أتيتك — »

وراح يعرض عليه عونه .

ولكن الإمام كره منه أن ينقض لأجله عهداً قطعه على نفسه للزبير وطلحة بعد دخولهما البصرة ، باعتزال القتال هو ومن تابعه من قبيلته والانحياز دون الرمى فيه بسهم إذا نشب بين الحزبين . . . كره نقض العهد وإن كانت له من ورائه قوة وشد أزر ، وقال له :

« وكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ . . »

فأجابه الرجل فى حماس :

« إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم ! . . »

فلم يلق على جوابه بالقبول . . . إنه ليأبى عوناً يأتيه من نكث وهو المفتون بالمثل العليا ، المجاهد فى انتصار مكارم الأخلاق . . .

وقال يسأله بعد قليل :

« فهل أنت مغن عنى قومك يا أحنف ؟ . »

« نعم . »

« فكف من قدرت على كفه . . »

وحسبه هذا منه إذ هو وفاء بالعهد . . .

وهكذا ظلت غيرة أمير المؤمنين على الصلح ، وحرصه الدائب على تدعيم أسبابه بغير انتهاز للفرص لدعم قوانه ، ولا عدوان على المبادئ الأخلاقية من أجل إضعاف خصومه ، وإن كان الوطن يوشك أن يكون موطن حرب ترخص فيه المبادئ ، وتصبح الكلمة فيه للسلاح والجنود . . . أما هو فالخلق القويم جنده ، والحق سلاحه — الحق الأمثل الذى لاتشوبه الشبه ، ولا يتغير اتجاه وجهه مع الريح ! . .

٥

قال على :

« الكلام فى وثاقك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت فى وثاقه . . . »

هذه حكمة بالغة ، بقيت علما على وفائه بالوعد ، ونهجا واضحا ألزم الناس هديه ، وحملهم عليه ما وسعه . وليس عهدنا بحديثه مع الأحنف بن قيس ببعيد .

وكانت شعاره منذ راود الصلح خاطره ، ومن البدء راوده — من اليوم الأول الذى أتاه فيه نبأ انقلاب عائشة وصاحبيها عليه . فظل أبداً مستمسكا بكلمته ، لا يمل الصبر ، محاجزا دونها أن تفسدها وقيعة . يبلغها خصومه على أحرف الكتب ، وفى حديث الرواة ممن سمعوه ، وبألسنة من استفسرهم وهو منها فى وثاق شديد . . . ولقد بلغ من حرصه على أداء دعوة الوفاق غير ملتبسة بشبهة إلى الشعب وإلى المنتقضين ، أن كان يتخير رسله ذوى قدمة فى الدين ،

وصحبة برسول الله ، ورأى تتلقاه الأذن بحسن الإصغاء . . . كان من دعاته لها عمار ، والحسن ، وابن أبي بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر أخيه . . وكان سفراؤه لأصحاب الجمل القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وحكيم بن سلامه ، ومالك ابن حبيب . وإنهم جميعا لخيرة . . .

وذات يوم استعان أيضا بصاحب آخر من أصحاب الرسول ، له في الإسلام شأن وماض معلوم ، ولديه من نبيه بينة قد تهدى القوم . ذلك أنس بن مالك . فلو ذكر الصاحبين لذكرا ، ولو عاد بذهنيهما القهقرى إلى عصر النبي فلربما سمعا من بين غواشي الذكرى صوت محمد يجيء من الغابر ، محذرا إياهما هذه الفتنة الواقعة وما تكشفت عنه من حرب هما أن يشناها على ابن عمه وهما ظالمان له . . . إنه حديث مضى أسمعهما الرسول ، وشهدها أنس يسمعانه من فم الإلهام . ولكنه إذ بعثه إليهما الإمام التوى به عنانه دون القصد . . . ذهب وعاد ولم يقم بما ذهب فيه — لم يذكرهما الحديث وعندما سأله على عن نتيجة سفارته قال :

« إني أنسيت ذلك الأمر . . . » .

أنسيه . . أحقا أنسيه ؟ . . أم أغفله ؟ . . . أم ركن إليهما ثم آثر أن يحتج بالنسيان ؟ . .

ورماه الإمام بنظرة فاحصة يسبر دخيلته . . . ورد عليه في هدوء رهيب :

« إن كنت كاذبا فضربك الله بها بيضاء لامعة ، لا تواريها العمامة . . . » .

وندع ابن مالك ومصيره ، ينبئنا التاريخ نبأه بعد حين . . . فقد حقت الدعوة عليه ، وأمضى حياته من بعد ملثم الوجه يخفي البرص الذى شاع فيه ! . . .

وكذلك لم تقعد الإمام الوسائل عن استفاءة الصاحبين إلى السلم ، ولم تعوزه الرسل ولا الرسائل . وظل مقيما على وفائه بوعده . وحين نزل البصرة برجاله كانت لهفته على الصلح أشد . فما تحسب إلا أن بعض النفوس بها لم تخل من توجس ، ولم تنمح منها آثار ريبة وأصحابها يشهدون إقبال جنوده المجيشين في حشود حافلة صوب بلدتهم التي راودها الأمل فترة في السلام . . . وهل شيء أبعد عن أذهانها من الرجاء في وفاق يجيء في ظلال الأسنة المشرعة والسهام

المريشة ؟ . . فلكل كتاب عنوان ... وها هي الجحافل تنطلق إليهما كالسيول وفي خطوها تنطق الحرب . . . وها هي أداة القتال الرهيبة تشارفهم فنشارف معهم أداة مثلها ذات بأس شديد . أفئن ندت هنة عن رجل من فريق في حق خصومه أليست تكفي أن تؤجج لظى الحرب . في هذا الوقت الذي توترت فيه الأعصاب ، قبل أن يسع الحكمة تدارك الأمر وكبح المتحفزين للصراع ؟ وهل تؤمن من كل أولئكم شررة تطير فتسعر النار ولما يستقر بعد في قلوبهم الإخلاص للصلح المنشود ؟ .

فلعل علياً لم يغفل هذه النزعة التي انطوت عليها جوانح كثيرة وهو يقارب أصحاب الجمل ذلك اليوم بقواته . . ولم يغفل معها أيضاً ما يبثه دعاة الوقيعة بين الناس لتوسيع الخرق كي يعز على الرتق ويعيي الراتق . فما أن استقر به مكانه حتى رأى أن يبادر إلى العمل قبل أن تثير النفوس رؤية العدو عدوه يخطر آمنا على قيد ذراعه ومرمى رمحه ، فتلك تجربة شاقة على البشر يعسر أن يطيقها كل الناس ، ومحنة للقلوب التي أفعمتها البغضاء والعداوة ، وإغراء لا يثبت له إلا من كان ذا سلطان غالب على مشاعره وقدرة قهارة تملك نزعاته .

- كان يعلم أن السلم أضحى بعض رأي الصاحبين ، فكذلك نقل إليه القعقاع ، ولكنه من خلجات صحبهم على غير بينة . . وكان يعلم أيضا أن الصلح جرى كلمة على لسانيهما ثم علم القلبين عند الله ، فقديما بذلا له وعدا ونقضاه . . . وإذا كانا اليوم يعنيان حقا السلام فيا ترى كيف إليه السبيل ؟ . . على أي أساس يريدان إقامة صرحه ؟ . . ما هي التفاصيل التي تبرم عهده فتحيله حقيقة واقعة بعد إذ هو مشيئة تختلج في الصدور ؟ . .

ذلك ما لم يتبد له بعد في ضوء يكشف الغياهب عن النيات . . . ثمة حاجة به لاستنبائهما بقية شرح بعد الإجمال فلئن كانا أقرا للقعقاع بجدوى « التسكين » — الذي لا بد جاء في أعقاب السلم — على الأمر الذي قاما فيه لأنه كفيل بتهدئة الأنفس ، عون على قتلة عثمان . . وقبلا أيضاً أن « يبايعا » ، فما أحد يدري على التحقيق إن كانا يعنيان البيعة على صلح مشروط أم على إمرة الإمام ؟ . . .

اللقاء إذن خير ما يحسم الأمر . ويكشف عما تكن الصدور . . . وهو أدعى إلى ترقيق الأنفس وميلها إلى اللين ، لما قد يثير من ذكريات قديمة عزيزة على المتلاقين تنقشع بها غيوم الخصومة . . .

وكان الزبير قد بدا على رأس جيشه ، تخطر فرسه به أمام الصفوف وهو دارع فى الزرد والحديد ، متقلداً سلاحه ، تياها عاش له فى الحرب عريق ، فما أن بصر به الإمام حتى لانت له أساريره ، وقال لمن حوله من رجاله :

« أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ! . . »

ومضى إليه من لحظته حاسرا ، بغير درقة ولا درع ، غير ملق بالا لتحذير أعوانه ، وإهابتهم به أن يعد العدة لهذا الفارس الشاكى السلاح . . . مضى مزوداً بالإيمان وحده نحو خصمه الشجاع ، فإذا طلحة أيضاً هناك ، كامل التأهب كصاحبه ، تام العدة ... ودنا منهما أمس دنو وأقربه حتى اختلفت أعناق مطاياهم ، وظن كثيرون أن قد جاء للنزال لولا أن رأوه أعزل . . . ثم راح يحدثهما فى هدوء وعينه تتأجج نظراتها على جندها المحشود :

« لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، فهل أعددتما عذرا عند الله ؟ . . . »

وأردف وإن بصوته رنة نذير :

« . . . اتقيا الله ! . . ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ! . . » .

فراحا معا يتأملانه النظر برهة من النظر قصيرة تحدثت فى عيونهما خلالها الحيرة . . إنه نفس الرجل ، كأن الأمس لم يذهب عنه ولم يطلع عليه يوم جديد . ذات القلب الراسخ ، والجنان الثبت ، والكيان الوطيد الذى لا تنال منه عواصف الأحداث إنه أعزل . . . حاسر ولكن هيبته غطت هيكله كله بالدروع حتى حوافر المطية ! . . .

والتفت هو إلى الزبير فدعاه إليه ، وانحاز به ناحية بعيدة عن رفيقه يناجيه :

« ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت ؟ . . . »

« أنت ! »

فعجب :

« أنا ؟ . . »

ولـكنه عجب كان يشوبه بعض الإعجاب ، فقد كان يكبر فيه الصراحة التى تضع دائما خفق قلبه على طرف لسانه . . .

وأنصت هادئا لرأى الزبير وهو يتابع الـكلام :

« نعم أنت . ولا أراك لهذا الأمر أهلا ، ولا أولى به منا ! . . »

« لست أهلا له بعد عثمان ؟ . . »

« نعم . »

فلاح الأسف على وجه على وقال :

« قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك — ابن السوء ! — ففرق بيننا وبينك . . . »

عندئذ ساد بينهما الصمت . . لـكأن الزبير شام الحق فى كلمات غريمه فسكن يتدبر . . إن الحديث هاج ادكاره ، ورده إلى عهد غابر كان الصبا فيه غضا ، وكان الشباب ريان كبواكير الزهر ! . . ذاك عهد جمعت فيه بينهما القربى وعطفت القلب على القلب ، ومضت بعده الأيام فوثقت الوشائج وزادتهما ألفة ، إذ وصل الإسلام بين الروحين فى حب الله . . . وطافت به الذكرى فى ماضيه ، وبتلك المحنة التى شهدته ينحاز لابن خاله بعد موت الرسول ويقوم مناضلا عنه ، مدافعا عن حقه فى تراث النبى وإن باء فى سبيله بغضب الصديق ، وإن عصف بهما معا حنق ابن الخطاب بجمع الحطب حول دارها ليجعلهما طعمة للحريق .. كم للذكريات من يد آسية تمسح حزازات الأنفس حتى لتوشك أن تطهرها تطهيرا من أدران الأهواء . وكم لها على القلوب الذاكرة من سلطان يردها سيرتها الأولى كأنها وليدة لا تعرف الضغينة — لم تطعم لبان الحقد ، ولم تلقم ثدى البغضاء . . .

وبدا الصفاء هنيهة على أساريره . . فلولا أن ثمة حجة لا تكف تعرض له ويمكن أن تثبت فى مجال الجدال للانت عريكته وأسلس قياده إلى ابن خاله . . . أما الآن فإنها تقطع عليه خيط ذكرياته ، وتنوء به ثانية إلى اللجاج فيقول :

« . . . وأطلب بدم عثمان ! . . »

فهز الغضب العاصف نفس على لهذا الادعاء ، وقال بجفاء :

« دم عثمان ؟ . . بل أنت وطلحة وليتماه ، وإنما توبتك منه أن تقيد نفسك وتسلمها لورثة الشيخ ! . . . »

أفيسمه يا ترى أن ينكر هذا الاتهام الذى ساقه إليه الإمام فى غير لبس ولا خفاء فينكر معه ما وقع منه — وشهد به الناس — فى حق الخليفة القتيل من التأليب والتحريض وإثارة أعوانه عليه حتى نزل به القضاء ؟ . . دون هذا يغير شك ويصيبه الحسر ويستعصى عليه الكلام !

وأسرع على يتم حديثه ، لين اللفظ ، بادى الرقة هذه المرة :

« يا أبا عبد الله . . . »

فانتبه الرجل من غمرة جزعه ، وألقى السمع .

« . . . نشدتك الله ، أتذكر يوم مررت بى ورسول الله متكىء على يدك وهو جاء من بنى غنم ، فسلم على وضحك ، وضحكت إليه لم أزده ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ؟ فقال لك : صه ! . . إنه ليس بذى زهو ، ولتقاتله وأنت له ظالم ؟ . . »

فأغضى الزبير حتى لأوشك جبينه أن يمس صدره ، وغاض لونه ، ومشى بقلبه الندم كزحف الرقطاء وهو يجيب :

« اللهم نعم . . »

« فماذا تقول ؟ . . . »

« لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه . . . ووالله لأصرفن عنك ! . »

وغادره ، لم يرد إليه طرفه والأسى يغشى عينيه بدمع التوبة ! . . .

٦

. . . أما طلحة فكان منتفخ النحر ، عاقصاً قرنه كما وصفه الإمام ؟ . .

إن ربوة من الطموح سامقة تحت قدميه ، تكاد أن تناطح به صفحة السماء !. الأعوام الماضية كلها لم تذهب عبثا . ولم تغب شموسها قط عن رجائه . . إنما الأمل كان يسير بين يديه ، على وقع خطاه ، ويعبد له الطريق . وكان المجد السياسى شاغل قلبه وعينيه . هو فى الليل رؤيا حالم ، وفى النهار حلم يقظان ! . . .

وكانت عشرين بل أكثر . أربت عدداً حتى أوشكت أن تصير نصف أيام حياته فى هذه الأرض . . . سنوات من الطموح الدائب كانت عمر آماله ، وكانت الربوة التى اعتلاها إلى هدف غدا الآن فى نطاق العيان وقيد البنان . فكيف يسعه أن يدع هذا البناء الشامخ وينزل — دفعة واحدة — من عليائه ؟ . . كيف يهدم بيديه ما غالب عليه الحدثان حتى استطاع أن يقيمه صرحا باذخا ذاهبا فى السحاب ؟ . . أفيهوى هكذا من حالق بلفظة لوم عابرة يأتيه بها ابن أبى طالب أو بكلمة عتاب ؟ . . .

منذ وضع أبو بكر قدمه على حافة قبره حلم الرجل بالمجد ، وتهيأ أن يتسربل بطيلسانه . فقد كان أحد قلائل من صحب محمد المختارين ، وفرداً فذا ممن قامت على أكتافهم رسالته . وكان أيضاً سيداً فى قريش ذا حول ، لا تطول قدره من بينها إلا قلة ، وذا قربى بالخليفة الأول وثيقة العروة . ولكن الموت لم يأته بهدفه إذ أوصى قريبه لغيره بإمرة المسلمين ففاز بها ابن الخطاب . فلو كان أفضى بها إليه لاستقامت ، ولبلغت شأوها وبلغ شأوه . غير أن ثمة شيئاً احتجز عنه هذا المجد فكان امرءاً فى غمار الناس أو يكاد ، لا ميزة له إلا سابقته . . وكلما راح يتدبر كيف أغفله الصديق من حسابه عند الوصية وقدم عليه سواه ، استشعر الهم ومرت نفسه . فتلك أعوام طويلة من الدأب لإعلاء شأن أمته ورفع كلمة الله كانت أمامه ، غير أنها مضت به فارغة إلا من المنى والأحلام . . .

وهو الآن يعيش أيضاً فى الحلم . ولـكنه حلم تحله حماسه بعض حرارة الحياة ثم أتته الأيام ببعضها الآخر . . . كم طالما عابوا عليه شيئا يراه فضلا ويرونه نقيصة وكنظرتهم كانت نظرة الشيخين إليه . . فهو عندهما واسع رحبة الأمانى ، إن أحسن اختيار التعبير وأريد الترفق ، يرى نفسه بغير أعين الناس، وبغير أعينهما هما على الخصوص . وما زال حتى الآن يذكر كيف جبهه أبو بكر بصراحة تؤذيه ، لم تعرف الترفق ولا المداجاة فى الخطاب ، عندما وجده يعترض وينكر اختياره عمر أميراً للإسلام . . . قال له خليفة الرسول حينذاك :

« . . . والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ! . . »

كأنما الاعتداد بالنفس كان شيئا يعاب . . .

وحتى ابن الخطاب كذلك لم يكن أرفق من سلفه ، ولا خيراً له منه . كان يتحدث له بلسان صاحبه ، وبالمعنى الذى تنقله ألفاظه القديمة . ما من رجل فيهما وجد فى اعتزاز طلحه فضيلة تعزز جانبه ، وترفع قدره على أقدار غيره من أصحاب الرسول . كانت العزة فى معجمهما كبرا وعلوا ، وكان الاعتداد صلفا وزهوا . بل قد أوشكا أن يدعوا صفته غرورا يؤخذ به ويلام عليه . . . وما كان به غرور إلا أن يرمى رجل ، يستشعر فى نفسه قدرة على الاضطلاع بالأمور ذات الخطر ، بمثل هذه النقيصة . . .

وها هو اليوم يرى عليا يؤازر الآخرين . . . ولو أنصفو ثلاثتهم لكان حماسه شفيعا له لأنه حافز قوى يدفعه إلى إحكام تدبير شئون الدولة لو أفضت أمورها إليه . فبقدر الرغبة يكون العمل ويكون الدأب فيه . ولو أنصف الثالث لرآه حقيقاً بالمكان الثانى بعده فى الدولة — على الأقل — إذ كان وحده مفوض عهد عثمان ! . . إن هذه الخواطر التى تموج فى ذهنه ، وهو يشهد الإمام يسير نحوه بعد أن فرغ من حديثه والزبير ، كانت تمده ببعض ما يصلح حجة له فى الجدال القريب . ولم يكن يغفل أن ثمة ثغرة فى براهينه قد تقلبها عونا عليه لا عونا له . ولـكنه فيما بينه وبين نفسه كان يؤمن أنه مخلص فى طلبه بدم الخليفة القتيل

فقد رام عزله ، لم يرم قتله لولا أن غلب السفهاء ومضت بهم الثورة فى غير سبيلها المرسوم من قبل ؛ لأن الثورات كالسيل ، إذا تحدر لم تعد بأحد طاقة على اعتراضه . . .

وبقى بعد هذا أنه شهد الأمة منقسمة على نفسها — أمته التى حلم طويلا بأن يقودها فى مطالع المجد قد فرقت بينها دعوته جيشين عدوين يتصاولان بالسلاح بعد المجادلة والنقاش ! . . إنه لا ينكر أن بضعة من تبعة هذا الصراع تقع على كاهليه ، فلو أخذ برأى على من البدء وتلبث معه حتى يتفرق الناس وتفىء إليهم نفوسهم بعد مصرع عثمان لكان خيراً لهم أجمعين ، ولبقى للدولة تماسكها وظلت وحدتها وثيقة ، ثم بلغ من الجناة وطره . . . ولكنه لا يملك إلا أن يرى فى هذه الفرقة ذاتها حجة له إذ كشفت عن جانب كبير من الشعب لا يدين لعلى بالطاعة . هذا الجانب الذى يرى المبادرة إلى القصاص كان لا شك برما بسياسة الإمام ، برما كذلك بإمرته ، فما يعصيه وهو يواليه . . . وهو أيضاً قوة لها خطرها ، لا يجدر أن يغفل شأنها ، ولا يستهان برأيها أو ينكر حقها فى اختيار من تراه حقيقا بتوسد أريكة الحكم من بين أولئك الذين تشمر نحوهم بالرضاء ولا تمنع عنهم الولاء . . .

وعندما أقبل على عليه ، وهم أن يحادثه ، كان الرجل قد أخذ الأهبة حتى لا تشغله الهيبة ، التى يحسها تقع بقلبه حين يرى ابن أبى طالب ، عما يريد مصارعته عليه ومجادلته فيه . . . وقف يتحفز ، ثابتاً فى مكانه يروض نفسه على رباطة الجأش . . .

وسأله الإمام :

« يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟ . . » .

فبادر من فوره يجيب :

« دم عثمان » .

« قتل الله من قتله ! . . »

أتعريض ؟ . . أعنى على أنه يلصق التهمة به كما رماه بها غيره كثيرون ؟ يكاد هذا أن يكون . فذات يوم قال الإمام فيه :

« . . . والله ما استعجل متجردا للطلب بدم عثمان إلا خوفا من أن يطالب بدمه لأنه مظنته . ولم يكن فى القوم أحرص عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلبس الأمر ، ويقع الشك ! . . . »

ومع ذلك فتلك الحرارة التى أحسها طلحة فى دعوة خصمه ، والتى استشعر معها رجفة بفؤاده إذ صافحت لفظاتها القليلات سمعه ، لم تستطع رده عما عزم عليه ، بل مضى يقول :

« إنك ألبت الناس على عثمان . . . »

فكان الجواب الذى تلقاه ، وعلى قد طوفت بثغره بسمة إشفاق ، وغطى الهدوء قسمات وجهه وعيناه ترنوان للسماء :

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . . »

عندئذ صمت الرجل . لقد كان أولى به أن يسير قدماً إلى بغيته دون التوسل بكل هذه المزاعم التى تبعده عن هدفه ولا تدنيه ، وتضيف وقراً آخر على ضميره الذى أثقله الندم على ما فرط منه فى حق عثمان . . . وحين وسعه أن يلوذ ثانية بالهدوء الذى أوشك أن يعصف به هدوء هذا المظلوم البرىء ، راح يقول بغير تلعثم وفى إصرار عجيب :

« فاعتزل هذا الأمر ! . . . »

« أعتزل ؟ . . . »

« نعم . ونجعله شورى بين المسلمين . فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك . . . »

فهذه هى القضية ؟ . . هذه هى النية الخفية وراء قصة القصاص ؟ . . .

وقال على ولما تختلج فيه جارحة :

« أو لم تبايعنى طائعاً غير مكره ؟ . . . »

« بايعتك والسيف على عنقى . . . »

فصابر لم يدع هدوءه ، وقال له :

« ما كنت لأكره أحداً على البيعة لى . . . ولو كنت مكرها أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة ، أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم . . »

ولم يكن طلحة بحاجة لمن يذكره قصة البيعة ، وما تم فيها ، ومبادرته إلى كف على يسبق إليها الناس بالولاء . لم يكن به حاجة إلى من ينقل له صورة صادقة لذلك اليوم القريب إلى الأخلاد وقد كان هو ممن رسموه وسطروا أحداثه فى سفر التاريخ . . . ولكنه الآن غيره بالأمس . تبدلت به الحال غير الحال . ومالت المشاعر فمال . هذا الصرح الباذخ من المنى والأحلام عزيز عليه هدمه . فلقد أخذ من حياته أعواما توشك أن تكون نصف عمره ، وأوفى به على الغاية اليوم . . . الحلم القديم هم أن يشرق وتسطع شمسه ، وما أعسر على النفس أن تنفض الأكف من أحلام المجد ! . .

فى لحظة غدا الرجل كما وصفه ابن عمه خليفة رسول الله . يجعل أنفه فى قفاه ! . . . الزهو والكبر والاستعلاء سدت دونه مسالك التفكير ، فلم ير أحداً أحق منه بالأمر ، ولا هذا الذى عاهده علانية على الولاء . أم لا فكيف إذن نقض البيعة وحنث فى اليمين ؟ إنما له حجة تؤازر النكث وتقوم ذريعة تبرره ، ونبش الماضى حتى عثر بها فى أطلاله ، ثم نهض يرمى بها وجه غريمه فى اعتداد وخيلاء :

« يا على . . . كنا فى الشورى ستة ، فمات اثنان . . . وقد كرهناك نحن الثلاثة ؟ . . . »

شورى عمر عادت ثانية إلى الحياة ؟ . . . لوح بها طلحة كما يلوح بسيف ، وقد حسبها البرهان الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! . . . لقد يعجب المرء كيف يراها الرجل حجة له تؤيد دعواه اليوم بعد أن دالت فى الغابر ، ولكن عجبه يخف هونا بغير شك إذا تدبر الحال النفسية التى كان عليها طلحة فى هذه الآونة التى حاج فيها الإمام . . . إنه ليتحدث بمنطق من يتصيد الأدلة ولا دليل ، فكانت حجته تلك قشة الغريق ! . . .

ومع ذلك فلنر إلام سوف تسوقنا ذريعته ، وإلى أى مدى تستطيع أن تظاهره وتسند ادعاءه . . . فقد جاء عمر غب الطعنة بشوراه وهو يتحرج أن يوصى بالأمر لامرىء بعينه ، أو يدع الناس يختارون لأنفسهم فتقع بينهم فتنة تؤدى إلى

الانقسام . وكان يخشى كلا السبيلين ، فاختار نهجا وسطا لأمته . وحدد نفرا من خيرة صحب الرسول حبس فيهم خلافته ،ومنحهم وحدهم الحق فى اختيار الخليفة . فكان نهجه هذا ترشيحا وانتخابا فى آن . . .

فمن كان أولئك الناخبون المرشحون ؟.. ومن بقى منهم فى الحياة اليوم ؟ . . وأيهم أقرب أن يعهد إليه زملاؤه بالأمر ؟ . .

هم الآن ثلاثة سوى الإمام : طلحة ، والزبير ، وابن أبى وقاص . بايع اثنان ونكثا ، واعتزل الثالث . ومن كلا النكث والاعتزال استخلص طلحة حجته المزعومة ! . .

وأول ما ينقض هذا الزعم المتعسف أن شورى عمر كانت وصية نفد الغرض منها بعد أن تمت البيعة لعثمان . فما يسع عاقلا أن يراها خالدة على الزمن تلزم الناس بعد انقطاع عهدهم بصاحبها ، وبعد انتقال العهد منه إلى غيره ، لأن الحق فى الإيصاء غدا لخلفه دون سواه ، ولم يوص الخلف الأمة بشئ . فهى وصية واجبة النفاذ ما بقيت بغير نفاذ ثم تذهب ريحها بذهاب الظرف الذى أوصيت فيه والسبب الذى شرعت له . . فمن عجب أن يبيح طلحة لنفسه تحميلها غير ما تطيق ! . . .

وثانى ما يدحض تلك الحجة ، لو ترفقنا بها وسرنا وزعم طلحة ، أن اثنين بايعا واعتزل ثالث ، فصحت إذن بيعة الإمام بثلاثة أصوات . ولا عذر عليه فى نكث الناكثين ، بل الإثم يلزم من نقض العهد وحنث باليمين ! . . .

ولكنها — كما أسلفنا — حجة من يعتسف الحجة ويتصيد الأدلة ولا دليل، والقشة التى يحسب الغريق أنها عاصمته من الغرق ! . . . فما زال طلحة يحلم بالمجد ويجهد لبلوغه من أى سبيل ، وإنه ليمد بصره فيراه دانياً منه لولا هذا الذى يسد عليه المنافذ ويفسد الوسائل . أفما يحق له أن يعمل على تنحيته من طريقه لعل نفحة من الحظ تواتيه فيختاره الناس أو يحتلب هو النفوذ حين سانحة تعن له أو تسوقها إليه الأقدار ؟ . .

وهز على رأسه آسفاً لهذا اللجاج الذى آثره الرجل على المحاجة بالدليل والاحتكام إلى البرهان دون التضليل . وهم يغادر المكان عائداً إلى صفوفه وإن نفسه لحزينة على رفيق ماضيه . فما كان شىء أحب إليه من هدايته وتألف حماسه . . . وما سار مسيره هذا إلا ليستفيئه إلى موطن الحق والوفاء . . . على أنه مع ذلك رأى أن يرد عليه زعمه قبل أن يبرح ، فلعل الله أن يهيء له رشاده . . .

قال له مصابراً ، فى رفق وهوادة :

« يا أبا محمد . . إنما كان ألا ترضى قبل الرضا وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لك غير ما رضيت به ، إلا أن تخرج عما بويعت عليه بحدث . فإن كنت أحدثت حدثا فسمه لى . . . »

فلم يجب بشىء . وهل كان بمقدوره أن يجيب ؟ .

وعاد الإمام — وقد شهد حسره — يعاتبه ، عسى أن يعينه العتاب على نقاشه فالاقتناع من بعد . . وكان عتابا كله مرارة واستنكار :

« . . أليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم ؟ . . أ كان رضا لرسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا ستراً ضربه عليها وتخرجوها منه ؟ . . »

« إنما جاءت للاصلاح . . »

فابتسم الإمام بسمة فيها عجب وفيها زراية :

« يا أبا محمد . . . هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ! . . . »

وبعد عنه . . .

وحين بلغ صفوفه ، وسأله صحبه عما انتهى إليه الحديث قال :

« أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحه فسألته عن الحق وأجابنى بالباطل . ولقيته باليقين ولقينى بالشك فوالله ما نفعه حق ولا ضرنى باطله ! . . »

ثم رمى بعينه إلى بعيد . . إلى المجهول الغائب عن رأى العيون والضمائر ، وانثنى بعين تجول فيها دمعة ، وهو يهمس — كأنما لنفسه — بصوت خفيض :

« أما إنه لمقتول . . غدا . فى الرعيل الأول ! . . »

٧

أعن رهبة وضعف وانهيار عزم ؟

كثيرون حسبوا هكذا الأمر — ظنوا حرصه على السلم كان وليدخشية تملكه كلما جال ذهنه فيما حشدوا له من رجال وعدة قتال . . فلعلهم إذن نسوا ماضيه ، وذلك التاريخ الحافل الذى انقضى به وفى كل صحيفة منه سطور خطتها شجاعته، ورسمت بها صورة له فريدة بين الأبطال ، غاب عنهم ذلك الفارس القديم المقدام ، الذى شهده الزمن فى مطالع الإسلام معلما مجلى لم يبلغ شأوه من قبل ضريب ولا من بعد قرين . أخدعتهم الأعـــوام عن حقيقته فاختفت عنهم وراء ستر النسيان ؟ . . أم قرنوا الظن بتقدم عمره وقد خاض السن التى يلين فيها العزم وتتهافت الصلابة ؟ . أم لا فآثر الدعة والسلامة تأتيانه فى نعومة الحياة ؟ . بلى قد رأوه بأعين حدسهم عدا عليه هرمه ، وركن للتخاذل ، ودبت الشيخوخة إلى عزيمته دبيبها فى ملامحه حتى أصبح وليس له من فروسيته الأولى غير ذكرى تراود الذاكرات . .

وكانوا فى حسابهم مخدوعين ! . . لو استطاعوا نصفاً لأنصفوه . ولـكن ظنهم دفعهم عن الحق ، ومشى بهم عن الغاية. فلم يكن لحسب خطرة من الخواطر العابرة تجول فى الخلد ثم تفر كأن لم يكن لها من قبل كيان ولم يعد بقاء ، بل مضت حديثاً تلوكه الأفواه ولغطاً تبعثه الألسن زراية وسخرية ، فى السر والعلانية . فـكم أرجفوا بوهنه ، وبجبنه ! . . وكم عيروه وعابوه حتى لقد طال ما كان يدفع ويقول :

« . . ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان ، وأن أصبر للجلاد . . هبلتهم الهبول ؟ لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . وإنى لعلى يقين من أمر ربى ، وغير شبهة من دينى . . »

ولـكنهم رأوه قولا لا ينضح بغير المباهاة بماضيه ، والاعتزاز بهمة له غربت فى الغابر . . أما أمسه فذهب إلا قبساً خافتاً كأنه لمح النجم خلف

الغيوم ! . . وأما الحاضر فشمسه مشرقة على آفاق عالم من آمالهم فسيح . إنهم على ثقة منه ، فيما يتصل بهم من دلالاته وأحداثه وما يتصل به . . . وأما الغد فهذه أمامهم بشائره ، كطلع الزهر وبوا كيره ، كلما رنوا بالعيون إليها ازدادوا إيماناً بنصر قريب .

لقد كانت الأنباء تأتيهم بخبر رجال يظاهرونه ، شدوا إليه المطى وانتظمتهم صفوفه ، ولكنها جاءتهم أيضاً بنبأ كثيرين تخلفوا عن ركابه وكثيرين خيبوا أمله فيهم فنقضوا عهدهم له باعتزال القتال مؤثرين الانحياز إلى جانب أعدائه عونا لهم وحربا عليه . . . فما كان شيء أبعد عن وهم أصحاب الجمل من أن تواليهم طائفة من رجال الأحنف بن قيس . أما اليوم فقد غدا ما عز على الوهم والتصور حقيقة واقعة . وبعد أن كانوا يرهبون عشيرة الأحنف حتى تألفوه وسعهم ليعتزل بها عن النزاع بوادى السباع ، أصبح الرجل عاجزا عن امتلاك عنان أعوانه ، وانشق عليه منهم فريق كبير التحق بخصوم الإمام . . . هذا أمر لم تخف عنهم أخباره ، بل قد بلغتهم بشراه . فما أن نادى الأحنف قومه إلى الاعتزال حتى نهض المنجاب ابن راشد يهيب بفريقه منهم :

« . . يا آل الرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر ! . . »

وهتف بعده أبو الجرباء :

« يا آل عمرو لا تعتزلوا ! . . » .

وصاح هلال بن وكيع :

« يا آل حنظلة لا تعتزلوا ! . . » .

وكذلك اختلط على الأحنف رأيه ، وجرت الأمور بغير ما شاء ، وبنقيض ما وعد به الإمام .

وقال الرجل يعاتب هلالا :

« أفلا ترى الاعتزال ؟ . . »

« بل مكاتفة أم المؤمنين ! . . . »

فصمت لم يعقب . وأهاب جزينا بمن أطاعه أن يتبعه إلى منزله فلعل خاطرا

راود ذهن هلال إذ ذاك دفعه أن يغرى شيخه بالعدول عن عزمه ، فقال فى مصانعة وكبرياء :

« أفتدعنا وأنت شيخنا وسيدنا ؟ . . . »

فرماه الأحنف بنظرة ، وأجاب وصوته يقطر المر مع الكلام :

« إنما أكون سيدكم غدا ، إذا قتلت وبقيت ، فأنا الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع . . . ! »

ومضى عنه بمن أطاعه من بنى سعد إلى وادى السباع . . .

كان هذا نصرا بغير شك ، حازه أصحاب الجمل قبيل القتال . فتلك فرقة لها حسابها فى المعركة المقبلة ، كانوا يخشونها على أنفسهم ، ثم زادوا بها الآن نصيرا ومنعه . . . أما البصرة فغدت اليوم دار أمان ، يسعهم أن يسندوا ظهورهم إليها وهم مطمئنون بعد أن غادرها أولئك الذين كانوا ذوى هوى مع الإمام . وإذا كان للوفرة أثرها فى ترجيح الميزان فلسوف إذن ترجح كفتهم ، وتشيل كفة العدو لقلة معينه . ولن تشهد الوقعة القادمة غريمهم إلا واهنا بنفره ، يرقون عنه كما يرق الثوب الشفاف ! . . . أما هم فجندهم كثير ، وأما عديدهم فوفور ! . . .

ثم قد بدت الغلبة الآن إلى أين تميل ، وفيمن منهما تكون . ولو صدقت الأنباء لكان ابن أبي طالب فى عشرة آلاف من الأولياء ينضحون عنه أمام ثلاثين ألفاً أعز وأوفر . فقد خرج من المدينة فى سبعمائة ، ثم تلبث بذى قار حتى صاروا سبعة آلاف ، ثم انطلق بهم صوب ميدان الصراع فزادوا ألفاً أخرى أو ألفين ممن لحق بهم من القبائل الضاربة حول المكان . وأسخى الأنباء قد زعم له جنداً لا يبلغ غير نصف جندهم ، أو أكثر من النصف بقليل . فهلا كان هذا بشيراً لشمسهم بالإشراق ، نذيراً لشمسه بالأفول ؟ . . .

غاب عنهم الصواب فأخطأوا الحساب . أم كان ابن أبي طالب بتقديرهم بأنه للنصر وحده ويسعى إليه ؟ . . لو مشوا معه بدرب عمره خطوة بعد خطوة للقنتهم حياته درسا حقيقا على الدوام بالتذكر ، كفيلا بأن يبديه لهم كما جبله طبعه .

فما هو بالمفتون بالغلبة هياب الهزيمة إن جرعته كأسها دنياه . ولـكنه رجل حب الحق بضعة من طبيعته ، وكلفه بنشدانه يأخذ عليه كل مسالك تفـكيره . كذلك انقضى به صباه ، وتصرم شبابه ، ومضت عهود الـكهولة والشيب . وأولى بهم إذ صاحبوه أزمانا أن يذكروا له هذه السجية التى لم يتنـكر لها قط حين فعل أتاه . أم كان يقدم فى باله النصر ، ويتهيأ ليستقبل الفخر يوم الخندق لما وقف يصاول عمرو بن عبد ود وكانوا فى الجاهلية يقومونه بنحو ألف من الفرسان ! . أم شام الغيب فرآه ينطوى على ظفر ينتظره عندما انقص على حصن ناعم من خيبر وقد ترس عن نفسه بباب حتى أصاب الفتح الذى استعصى قبله على أبى بكر وابن الخطاب ؟ .. أم حسب الموت لا بد سيعدوه وقد رقد مرقد رسول الله ليلة الهجرة وكل قريش تظنه محمداً وما منها إلا رجل قد شحذ سيفه وتهيأ أن يرويه بدم هذا النائم فى لفائف الفراش ؟ . .

فيما سلف من سنيه كان يومه صورة ماضية ... صورة لاتنى تتـكرر كل مطلع صباح فلا تختلف فى الدقائق التوافه عنها فى سابقاتها قبلها فضلا عن الخطوط البارزة والشكل العام ... ذات المادة ، وذات الألوان ، وذات الأضواء والظلال . كان آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ، يسعى مشوقاً إلى غواشيه لا يرهب مأتاه . ويسير تحت ظله أو هجيره ، فى رحابه أو دروبه ما رأى الحق غاية للسير . فلم تـكن الشجاعة ثوبا اكتساه إنما بضعة من أعصابه ! . .

ولـكنها قريش القديمة عادت تفترى عليه الأكاذيب ، وتجهد لتنتقص منه وتنـكر عليه سجاياه . كشأنها بالأمس مع رسول الله ودت أن تخدع عنه الناس . وهى اليوم تريد أن تخدعهم عن الإمام فما خدعت إلا أنفسها حتى ليستبد بها الغرور فتراه على نقيض ما سوف تراه . وليس موعد اللقاء بينها وبينه ببعيد . . .

أما هو فـكان راضى البال إذ سلك نهجه المستنير وإن خالفوه ، فقد أوفى ما عليه لله إذ دعاهم إلى الـكلمة السواء . إنه لا يطلب النصر بل ينشد الحق ، ولينقبن عنه خاصرة باطلهم حتى يخلص إليه بسن الحسام بعد أن وهن صبره دون حملهم بالحسنى على التزام الجادة :

« . . . والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين . وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ! . . » .

كم فيهم ممن نفذت إلى قلوبهم دعوته السمحاء ؟ . . بضعة لا تغنى عن البقية ، غير ذات خطر لا تملك شيئاً ولا تقوى على إبرام شيء . حتى طلحة نأى بجانبه وآثر أن يسير وهواه ، ولعله يتشرع للحرب تشرع أولئك المفتونين الذين ضمهم ركابه ، ومضى يتهيأ للوقعة الكبرى يحسبها ورجاله سوف تحسم الأمر وفق ما يشتهون . . .

فلعل الله أن يهدى الرجل كما هدى رفيقه منذ قليل . إن الأمل فى الوفاق لم يغب قط عن قلب على ، ولم يبارح تصوره . حتى فى هذه اللحظة التى أشرعت فيها الأسنة الحديدية وسلت السيوف الظمأى كان ما زال يطمع أن يكون الله قد ادخر للشيخ مخرجا قريبا من الخلاف الذى نفخ فى سعيره . فما أضيق المدى بين الهدى والضلال ، وما أرقه من فاصل ، كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار . . وإن هى إلى خطوة إلى يمين أو إلى يسار تكتب المصير ! . . .

وكان الإمام يأمل أن تجنح نفس طلحة إلى اليمين ! . . . كلما كر بذهنه إلى ماضى الرجل : وتلك الأيام الأولى من عمر الإسلام التى شهدته يبلو فى الله أحسن البلاء ، رآه أكرم على الله من أن يفرق به شمل الأمة التي كان له بعض الفضل فى تشييد بنيانها الركين ، وزاد إيمانا بأنها محنة موقوتة لن تلبث شدتها أن تزول . . . كان الرجاء فى على يكاد يسبق الحقائق البغيضة ويود لو يحجبها عنه . وكان اهتداء الزبير إلى الجادة يوشك أن يملأ قلبه إيمانا بقرب اهتداء صاحبه وميله عن هواه . أم الزبير كان أهدى بصيرة وآثر من رفيقه عند الله ؟ . . .

تأبى الرغبة إلا أن ترسم للمرء صورة المستقبل الذى يشتهيه ، وكذلك فعلت رغبة الإمام . حبه السلام أفعمه ثقة فى نجاح دعوته إليه ، ويقيناً بتلبية خصومه نداءه الذى سيوثق عرى الوحدة بين فريق الإسلام . ولم يكن شعوره هذا وهما كله ينبعث من الأصداء التى ترددها نفسه النقية ، بل الواقع أيضا أمده ببعض الثقة وبعض الاطمئنان فلقد شهد كيف أسلس الزبير ، فى اللحظة الأخيرة ،

مقاده ونزع عما كان فيه . غدا رجلا غير ما كان ، وفعلت كلمة واحدة بنفسه ما لم تفعل عشرات من الكتب والرسائل طالما حملت له العظة والعتب والملام ، وبضعة من الرسل والسفراء عجزوا عن تألفه ، فى شهور وأيام . . .

وكانت كلمة كأنها السحر . . ليست تلك التى أنبأته بما أنسيه من حديث رسول الله ، بل أخرى فتحت قلبه ونقته حتى أحسن استقبال ذلك الحديث . . وكان هذا قبيل التقاء الجمعين ، ذلك اليوم المشهود من جمادى الآخرة بساحة القتال إذ ذاك كانت طلائع الزبير لا تنى ترود له الطريق ثم تعود إليه بأنباء تحرك جيوش الإمام . وكم من رائد أتاه ، وكم من نبأ بلغه حتى بدت أجناد على قيد النظرة من البصرة فجاءه النبأ الذى حول تيار أفكاره إلى غير مجراه . . .

أقبل عليه أحد طلائعه يقص ما استقصاه ، ثم قال :

« . . . ثم لقيت عمار بن ياسر ، فقلت له . . . »

فما تركه يتم بقية الحديث ، بل صاح به كالمفزوع :

« ابن ياسر ؟ . . . إنه ليس فيهم ! . . . »

« بلى والله أيها الأمير » .

« والله ما جعله الله فيهم ! . . . »

واعجب أنت مع الشاهد الذى يكذبه غائب عن موطن مشاهداته ! . . . وزد عجبا من الزبير وهو يمعن فى التكذيب والإنكار كلما أكد الرجل صدق نبئه . . . أما الرسول فقد امتلأ حيرة ودهشة من موقف أميره منه وهذا القلق الذى رآه يغشى وجهه لخبر كهذا من عرض الأخبار . وأما الزبير فلم يجد معه التوكيد ، ولم تزحزحه الأيمان ، بل مضى وإنكاره وإن كيانه ليهتز من فرط خوف خفى ملكه فصيره مثل ريشة فى مهب إعصار . . .

وكأنما شاء أخيرا أن يخرج مما أوقعه فيه ذلك الخبر المزعج المخوف فهم يقطع الشك باليقين . . وهتف ببعض أهله ، وصوته تعتريه رجفة تكاد أن تتناثر بها حروف الكلمات :

« اركب وانظر أحقاً ما يقول . . . »

ووقف فى غمرة من فزعة غامرة ينتظر فصل الخطاب . . .

ولـكن الذى خشيه هو الذى كان . فما رأى مبعوثه يعود حتى سأله كالملهوف

« ما عندك ؟ . . »

« صدق الرجل »

فبغته الجواب . ونال منه أشد منال حتى صاح ، ثم هاض ، ثم تماسك جهده ومضى يفر فى زحمة الناس . . .

وكان جون بن قتادة واقفا ينظر ، لم يخف عنه شىء من القصة منذ بدأها الرائد ، فقال هامسا لنفسه وهو مشدوه :

« هذا الذى كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه ؟ . . ثـكلتنى أمى ! والذى نفسى بيده ما أخذ هـذا ما أرى إلا لشىء قد سمعه أو رآه من رسول الله . . . » .

ولقد سمع الزبير حقاً من رسول الله ما خلع فؤاده ، إذ ذكر ، ورده إلى الصواب . سمع بنبأ الفئة الباغية التى ستقتل ابن ياسر فأشفق أن يكون الأجل سوف يوافى فى هذه الملحمة نفس عمار . . وسمع أيضاً كلمات محمد عن قتاله عليا هو ظالم وهذا مظلوم ، فرضى من أمره بالفرار . . .

وكذلك تفتحت نفسه للحق ، وفعلت كلمة عابرة فعلها فيه . . . كلمة واحدة كان لها ما لومضة البرق الخاطف إذ تنير لمدلج بليل فيتبين على سناها معالم طريقة بعد طول تخبط فى الظلام . . . أفما آن أن يصغى طلحة لمثيلة لها ترده عن غيه وتنوء به إلى جماعة المسلمين فيتحقق الوفاق ؟ . . .

ليس هذا على الله ببعيد . فما أقرب المدى بين الهدى والضلالة ، وما أرقه فاصلا كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار ، تحدد المصير فيه خطوة إلى يمين أو أخرى إلى يسار ! . . .

الجمـــل

١

جو ساج ، وليل داج ، قرت الريح فيه بعد ثورة ، وصمت ما كان من عزيفها الذى شابه عواء الذئاب وزئير الليوث الغضاب . . . الطبيعة الثكلى رقأت دمعها ولاذت بالسكون الحزين ، تكاد تكتم الشهقة والزفرة . وأسدلت على وجهها نقاباً كثيفاً من الظلام يخفى عن العيون الوجيب المكنون . . . والضوء الباهت الذى تخاف عن القمر الغارب كان كالطيف يلون جوانب السماء بخيوط شاحبة من نور كلا نور ، تنشر الظلال كأنها أعلام سبقت موكب الظلام . .

ولكنه هدوء مرسوم موهوم . بدت سماته فى الأراضى الوسنى ، ولاحت آياته على رقعة الأفق النعسان . إنه طلاء . أو هو الجلد الناعم المرقش اكتسته رقطاء . . أما الخبىء فنار حامية فى جوف بركان ، تتحين لحظة اندفاع للاندلاع . لا خباء فى العسكرين كان باطنه كظاهره يشيع فيه الهدوء ، بل كانت قشرة من السلام تغشيه وفيه حمم وضرام . . بل العيون المسلمة جفونها لهدأة النوم قد غمضت أيضاً على توجس . بل النفوس الحالمة بالدعة تجيئها فى أعقاب الفجر قد تنازعت فى أحنائها ملائكة السلم ومردة القتال ...

وكان الرجل من القوم إن خلا بنفسه ينفصل اثنين لهما كيانان : فى أحدهما قسوة المحارب ، وفى الآخر رقة المواطن الوديع . . وكانت الحيرة هى التى تشطره ، تارة مع الرجاء ، وتارة مع الطيرة . فإذا تقاسمه الهم الذى يحالف الحيران ، أسلم عينه للنوم لو أنه استطاع ، أو هام خياله فى وادى حدس تملؤه أشباح من الرؤى والأوهام ، أو مال إلى رفيق يبادله فكرة بفكرة ، ونظرة بنظرة ، ثم تسلمهما معاً يد الوسن إلى الغامض المجهول الذى ستبزغ عليه شمس الصباح ..

لا أحد فيهم حاد به الليل عن التخمين إلى اليقين . كلهم كان من حيرته فى بحر لجى عجاج الأمواج لا يدرى على أى شاطئيه سيكون مرساه . . .

حتى الإمام المفتون بالسلام كان موزعا بين القلق وبين الرجاء ، يود لو ترفقت به وبقومه رحمة الله فأنزلت السكينة عليهم أجمعين : أولياء وأعداء ... وحتى طلحة اللائذ بحد الحسام ، السافر اللدد والخصام ، قد اشتبهت عليه النتائج ، أيصبح وفى يده سيف انسلخ من إهابه أو قر فى قرابه ؟ . . . آية الوفاق التى استجابت لها نفس رفيقه قد زعزعت إيمانه بشبوب نار القتال ، واحتدام الضرام ، تلبيه لدعوة الانتقام . . . بل الزبير أيضاً لم يكن من موقفه على بصيرة . استبان له الهدى فى المهادنة والتزام الجماعة والفىء إلى الطاعة ، ولكنه كان كالسائر على شوك من آراء أعوانه يعوق وصوله إلى مبتغاه الرشيد . . . وعندما حسب أنه سيجد نصيراً له فى أم المؤمنين كان مجاوزاً حدود الواقع الذى تنتهى عنده الثقة فى التفاؤل . فما أقرته السيدة على نظرته الجديدة التى هى توبة بعد حوبة ، بل ردته رداً زلزل فيه الفرحة بنشدان الحق ووجدانه وكادت أن تدفعه إلى جانب الباطل الذى أوشك أن يتحرر من إساره وما كاد . . .

أقبل الرجل عليها فى حياء ، يتخير من الكلام ما يحسن التعبير عن الراحة التى يحسها بعد إذ قابل وحادث الإمام ، فقال صافى النفس خفيف الضمير من وقر ما اجترح وأصاب :

« يا أم المؤمنين . . . إنى والله ما وقفت موقفا قط إلا عرفت أين أضع قدمى فيه إلا هذا الموقف ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! . »

فإن هى إلا نظرة أرسلتها إليه حتى عرفت خبيئته ... لأمر ما توسل الرجل بهذا الحديث الناعم الذى يتبطن بالتوبة ! . . . ولغاية يكتمها كان يسوق كلماته لينة ، عسى أن يلقى منها ما يعينه على الكشف عما يخفيه ...

ولكنها لم تترفق به ، ولم تمل له فى الإفاضة بالاعتراف ، بل هتفت وئيدة اللفظ تقطع سبيل الكلام :

« يا أبا عبد الله ... أظنك فرقت سيوف ابن أبى طالب ! ... »

فصمت كالمبهوت . آده هذا الهجوم المفاجئ الذى شنته عليه ، وهذه السخرية المرة البادية من خلال كلماتها الرقيقة وبسمتها التى تفيض بالتهكم .

ولم ينبس بشىء ، بل وقف صامتاً وقد عاجلته سراعا بعـا جمد اعتذاره فوق شفتيه :

« . . . إنها والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فتية أمجاد . . . ولئن فرقتها فقد فرقها رجال قبلك يا أبا عبد الله ! . . » .

غير أنه كان أمراً بعيداً عن الجبن والخشية ذلك الذى دفع الزبير إلى اختيار الموقف الجديد وإن لاقى من ابنة أبى بكر الزراية . فكم تنكر للحق الناس ، وكم استقبلوه بالعيون العشواء لا ترى فيه النور لأنها انطوت على ظلام وقتام !...

وندع الرجل وما أصبح فيه ، قلقاً قد لعبت بقلبه التوبة المطهرة وعبثت بنفسه الريب المحيرة ، يطوى ليله ساهر الجفن تذود الكرى عنه أفكاره ثم لايفقد الرجاء قط فى أن يأتيه الصبح القريب بما قد يضفى على ضميره الهدوء والطمأنينة . أولم يعلم أن المتمسك بالحق أثناء فتنة كمثل القابض على جمرات النار ؟ . . .

بلى قد علم فبقى على رأيه ما وسعه البقاء ، وكنه كانت طائفة رأت الحق حيث كان فى جانب الإمام ولكنها لا تملك أن ترد بوازى الشر أن تعبث به وتقوض أركانه فأسلمت الأمر إلى يد القدر تنسج مصيره كما تشاء : سلما مجزية أو حرباً عادية باغية . . . وكان ثمة طائفة أخرى دانت بالباطل وانساقت له وهى موقنة أنها إنما تظاهر الصواب وتنضح جاهدة عنه ، تلك ساء ما تراه . . . أما الثالثة فأصحاب البهتان تلبسوا بالوزر والضلالة ، وضح أمامها النور اللألاء فآثرت اللياذ بالظلمة العمياء . وإنك لتسمع طرفا من أنبائها بعد حين ، عندما ينجاب الغبار عن حلبة القتال مخلفا على أديمها جرحى وشهداء . ولكنك قبل الوقعة المقبلة لن تسمع لها نأمة ولن يسرى إلى أذنيك منها صوت لأنها رجال ليل ، يعملون فى الخفاء مستترين بسجف الظلام وغفلة النيام ، رواق المساء مسبحهم كأنهم خفافيش ! . .

أولئك كانوا أعداء على وأعداء أعدائه على السواء . بل هم عدو الأمة والدين . الحفنة التى ليس لها من حياة إلا فى الفرقة ، بين مسيل الدم ومهوى الأشلاء .

غايتهم الذات يروون غلتها من أى سبيل . وهدفهم أشخاصهم التى استهوتها الدنيا يسعون إلى إشباع نهمها من الحظوظ والمـآرب ، وما كانوا قليلين حينذاك . . .

ما كانوا قليلين لو حسبنا كل ذى هوى فى إنشاب القتال كى ينال طعمة عاجلة ، أو يحقق مطمحاً قديماً عز عليه من قبل تحقيقه ، أو يسترد جاهاً فقده إذ دالت دولة عثمان فعلم أن لا مكان له فى دولة الإمام التى لا تعرف التحيز ولا تستهدف خير أفرادها إلا وهم كيان وثيق العرى ولا تراهم فرادى مفرقين . كل أولئك كانوا دعاة القتال والتفرق ، ود الواحد منهم لو استطاع أن يشب نار الحرب كما يشبها فى هشيم . وغيرهم أيضاً فرقة موتورة وأخرى واترة ، هذه شركت فى الثورة التى أودت بحياة الخليفة القتيل فخشيت إن كان صلح أن تقوم دعائمه على رقابهم التى سيحتزها القصاص ، وتلك وترها الإسلام إذ غزا قلوبها وأراضيها فأسلمت على ضغن ، وراحت تصانعه وتصانع سلطانه عسى أن تجيئها لحظة الثأر المرقوبة ، ذات يوم قريب ، فى ركاب فتنة كهذه يختلط فيها الهدى بالضلالة ، وتشتبه على الناس الدروب والطرائق ، ويغم عليهم اكتناه عقبى الأمور . . .

هنا يهمس التاريخ كرة أخرى باسم ابن السوداء ، يهودى اليمن الذى أبدى الإسلام واندس بين أهله ليفسد عليهم عقائدهم السمحاء ، ويفرق جمعهم شيعاً تسود فيها شريعة الخصام . وكما هى الحال المألوفة فى أمثاله من بنى جنسه وملته تحمل إلينا الصحف التى رددت ذكره أنباء ما طوى عليه صدره من عداوة للدين الناشئ وللأمة الفتية هى صورة مما طواه اليهود كلهم من قديم من الغل والضغينة لكل شعب عاشروه منذ وصم وجودهم على الدنيا جبين البشرية . . . فلم تكن الأمة الإسلامية وحدها مستقر بغضائهم بل جرى الحسد والحقد فى شرايينهم مع الدماء ينوشون بهما جميعاً الشعوب والأفراد . وعداوتهم الآن حلقة من سلسلة طويلة طول الدهر ، ممتدة مع الزمن حتى تطهر منهم الأرض . . .

فى تلك الليلة تحرك ركاب الشيطان ، وامتدت يده الشائكة تقلب مهد الفتنة وتكشف جمراته . وكيفما كان الدور الذى لعبه اليهودى الآثم فقد اندلعت النار وعلا لهيبها يصيب وجه السماء . انطلقت من قربها السيوف وتطايرت الأسهم

المريشة تروى الأرض الظامئة من سيل الدم . . . أما التاريخ فقد وقف وقفته يعرض موكب الحوادث ولا يعنى بأن يحدث الأجيال من أين كان مبدأ مسيره . إنه لا يشير إلى ابن سبأ إلا بإيماءة كأنه خالق الخطر الناشب ، أو كأنه بعض خالقيه ، أو كأنه خط من خطوط تكتمل به الصورة . فهاهنا لاتتفق الروايات المنقولة بل تختلف هونا حينا وتتباين أحيانا أشد التباين . تارة ترى الصحائف غفلا من اسم اليهودى الحاقد قد تطهرت من حروفه حتى لتحسب ذكره مضى فى قبر الغابر ، وأخرى تجده باديا من وراء السطور والـكلمات . فإذا ركنت إلى التوفيق جهدك بين هذه الروايات المختلفة لم يستعص عليك أن تقر للرجل بنصيب من الفتنة القريبة لا ينكره عليه ما ألفناه من ماضيه الموسوم . . .

ثم قد أدلى ذلك الهدام بدلوه مع غيره من الدلاء حتى نشبت الحرب التى شاءت لو تجنبتها أحلام العاملين للسلام ، وكان ذلك وراء ستر كثيف من ظلمة المساء ، تلك الليلة الشاتية فى جمادى الآخرة قرب مسجد الحدان . عندئذ جرت خواطر اليهودى حتى ظن أن الوفاق سيلاءم الفريقين من أصحاب على وأصحاب عائشة لأنما يجمع الشمل ويرتق الفتق فلا ييسر عليه أن يكيد كيده للإسلام الذى قرح قلبه . فإن هو أن ظن ظنه وخشى خشيته حتى قام يؤلب ويحرض وينفث فى أسماع من أصغوا إليه سم الرقطاء .

تخير له فرقة ممن غلبت عليهم الوساوس ورأوا فيما سلف منهم خلال محنة عثمان شبهات قد تبدى أكفهم أمام الناس ملطخة بدم الشيخ المقتول . . أولئك الذين شركوا فى الثورة الدامية وآذن الصلح المرجو أن يجعلهم أكبش القصاص. أفيعسر عليه أن يجسم مخاوفهم حتى يثيروها حرباً طاحنة تقضى على الوفاق قبل أن يقضى عليهم الوفاق ؟ ...

وكذلك أسروا الغدر والناس نيام . وما علم امرؤ قط سواهم بما بيتوه ، ولا وضحت نياتهم الخفية حتى تحت صحوة الشمس والمعركة محتدمة الأوار ، ولـكن التاريخ حدثنا عنهم وأبلغنا نبأهم بعد حين بعيد ، عندما سكن النقع وتوالت الأجيال تباعاً جيلا فى إثر جيل ، فلم يخل حديثه من قصد فى دقة الرواية وإسراف فى شطحة الخيال ! . .

٢

أغرق الرواة فى الخيال أيما إغراق عندما أضفوا على ابن سبأ روعة الأساطير .. الرجل كان حقاً ذا كيد ، غرق النفس فى بغضائه ، يضمر للإسلام عداوة ليست تخفى تحت أثواب ورعه . ولكنا لا نستطيع أن نرى أصابعه وراء كل فتنة ، تنسجها خيوطا ثم تحيكها ملاءة من نار تلف الأرض والسماء ! . .

لنكاد أن نحمله فوق ما تقوى عليه طاقته لو أصغينا لكل ما سطر الرواة عنه . ولنوشك أن نلمحه مارداً جباراً يملأ الفضاء الرحيب بهيكله الضخم إن ألقينا العين على الصورة العجيبة التى تبدت لنا من بعض صحف التاريخ . أما الهدم فكان ديدنه ، يحاول أن يتولى به الكيان الإسلامى بغية نقض بنيانه . وأما الحقد فكان مركبه إلى غايته الملبسة بإثم الآثام . غير أنه لم يكن بقادر على خلق الحوادث أو ابتكار المناسبات التى تؤلف لجة يسبح عليها شراعه . إنما كان يتربص بها ، وينتظر تدبير القدر أن يعينه ، فإذا وقع حادث نفخ فى رماده الملتهب حتى تستشرى النار . . .

كذلك كان دوره أيام عثمان ، وكذلك هو الآن ، ينتهز الثغرة التى ينفذ منها بتدبيره اللئيم . وهو إذ رأى بوادر الانقسام بين الأمة ، ودخان الحرب الأهلية يكاد ينبئ عن كارثة عامة ، لاحت على شفتيه بسمة شيطان ! . . فلما أن حسب الصلح سيؤلف بين جمعيها سارع يصوغ أحابيله . . .

ومن العبث أن نظنه وحده عدو الوفاق . بل كان فرداً بين طوائف وجماعات قادتها الأهواء العمياء إلى اختيار طريق التفرق . فلو قد خلصت النيات حينذاك وأجمع الشعب رأيه على الألفة ولأم الصدع لما كان وسعه أن يضار الوحدة المنشودة . ولذهب كيده حصاة فى محيط . . ولكن التاريخ ألبس الرجل غير طيلسانه حتى بدا من خلال السطور كأنه السبب الأول ، بل الأوحد ، لإنشاب القتال بين أحلاف الجمل وبين على وما كان غير عامل واحد بين كثير غيره من العوامل والمسببات . . .

وحين يعرض المرء سيرة اليهودى على ضوء الحوادث المتعاقبة منذ جأر بفتنته الدينية حتى وقعت الواقعة ، يكاد يجزم أنه لم يتبد فى الميدان سافراً صريحاً إنما شرك فى دواعى الفتنة الجديدة من خلف ستار ، متخفيا بالظلمات فى مسارح الخفافيش ! . . وهل كانت قصة الرجعة التى تأولها على التنزيل السماوى لا تعوق تقدمه ولا تحد شيئاً من اجترائه على الدنو من صفوف الإمام ؟ . .

بل قد كانت حرية بأن تقتضيه ذماء روحه وخفقة أنفاسه فى هذه الحياة لو أنه أقدم غير هياب للانضواء تحت لواء ابن عم الرسول . وعندما نخاله غريراً واهى التبصر وقد سعى إلى اللحاق بمعسكر على والسير فى ركابه فإنما نحرمه مكره ونراه قد مشى مختارا إلى حتفه ووضع رأسه بين فكى الليث ! . . وليس الرجل بالساذج الغرير . وليس على بالذى يغفرله قط تأويله الأثيم ويشترى منه نصرته بما سلف من افترائه على الله . بل قد كان أولى بمن هو مثل الإمام الذى لا يساوى فى حق الناس ، ويعالج بالسيف تحيف بعضهم على بعض ، أن يعالج هذا اليهودى الصابئ على تنزيل السماء بنفس تلك الأداة . وما نحسب إلا أن صفحة من التاريخ كانت حرية بأن تبدو لنا اليوم ، دامية مروعة ، تنقل لنا نبأ ما أصاب ابن سبأ من عقاب رادع على يد الإمام جزاء وفاقا لافترائه على الله . . .

نعم كان هذا أدنى إلى الحدوث لو أن الرجل وقع بين أصابع على فى ذلك الحين ، ليكون أمثولة لسواه من أصحاب الرجس ، الداعين إلى الفتنة ، البائين الخرافات فى ثنايا العقيدة ، ولكن بعده عن الإمام فى هذه الفترة أولا ، ثم فيما تبعها من الأيام بعد ذلك حتى نهاية عهد على قد جنبه — فيما نعتقد — جزاءه الرهيب . فإذا تركنا جانبا غلواء التاريخ إذ أرانا الرجل عاملا فى صفوف على ، منتصراً له عند البصرة قبيل الوقعة . فقد ييسر أن نراه خلف الصفوف ، متربصاً بالفريقين الدوائر حتى تحين فرصة يضرب فيها ضربته وهو قابع فى الظلال . . فما سوى الخفاء ميدانه ، وما الظلمات إلا مسارب خطاه .

غير أن هذا الافتراض نفسه حقيق بالتدبر لو أننا أخذنا بما بقى من رواية الرواة . فقد حدثنا التاريخ فى شطحته أن ابن سبأ استمال إليه رجالا ممن شرك

فى دم عثمان راح يحضهم على إنشاب القتال خلسة والناس نيام حتى يأمنوا أن ينال منهم القصاص الذى لا بد واقع بهم عندما يبرم الصلح ويتم الوفاق . ولسنا ننكر على اليهودى ترتيب مثل هـذا التدبير ، ولا البث ببضعة من العقول الواهنة التى تستجيب لنزغه ووسوسته ، فما هو إلا شيطان ، ولـكن قصة المؤامرة المبيتة فى الظلام تجاوز الحقيقة فى بعض سطورها وتبدى لنا أسطورة نسجها الخيال ولفقتها الأغراض عندما نلقى العين على أسماء أبطالها المتآمرين فيطالعنا من بينها اسم الأشتر : مالك بن الحارث النخعى أخلص رجال الإمام . وهل يسع المرء إلا أن يجزم بأن هذا الاسم النبيل قد أقحم إقحاما فى هذه الرواية فى عصر لاحق بغية النيل من براءة صاحبه ، وإلقاء ظل من الشبهة عليه يوهن موقف على إذ يبديه ضالعا مع قتلة عثمان ؟ . .

إن التاريخ نفسه يجأر بأن اشتراك الأشـتر فى مؤامرة ابن سبأ كان أكذوبة ، ودليلنا على هذا سيرة النخعى وخلق على . فمـا شرك الأشتر قط فى اغتيال عثمان ولا علق به من دمه رشاش . وإنما كان رجلا ممن أساء الخليفة القتيل إلى مواطنهم ، فاستشعر إنـكاراً كان به يعبر عن الشعور العام الذى شمل بقية الأقطار ، وهب هبته كغيره من دعاة الإصلاح يبغى إفاءة العدل والطمأنينة على البلاد . ولم يكن أيضاً رجل خفاء ، يحسن تدبير المؤامرات ، بل كان شجاع القلب يجاهر برأيه ولا يكتمه وإن أضرت به الصراحة وتركته هدفا سهلا لنقمة الخليفة ورجال عهده الذى لاحق أصحاب الشكايات بالتشريد والعسف والنـكال . . . انظره كيف نقد تصرف عثمان وعاب سياسته فى كتاب إليه خاص حين كان غيره لا يجاوز بشـكواه دائرة الهمس والإسرار . . . كتب إلى عثمان إذ ذاك يقول :

« من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ ، الحائد عن سنة نبيه النابذ لحـكم القرآن وراء ظهره ! . . .

أما بعد : فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا . . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذى

أرداك فأراك الجور عدلا والباطل حقا . . . وما محبتنا فأن تنزع وتتوب ، وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا . وتسييرك صلحاءنا ، وإخراجك إيانا من ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعرى وحذيفة ، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله ، والسلام . . .

ولسنا نعرف أن امرأ يبطن غدراً ويبيت التآمر للخلاص من خصمه يسدى لهذا الخصم النصح الذى يرفع من قدره ، ويصلح أمره ، ويرده مرضيا عنه من كل الناس لو أنه احتذاه ، إنما الغريم الذى يتهيأ لتسديد الضربة القاضية هو من يكتم خطواته ويعلى لغريمه فى الغى والفساد . وما كان الأشتر من هذه الشاكلة ، بل قد شاء لو صلح إمامه فصلحت الرعية بصلاحه ، وقام من لدنه يهديه إلى محجة الصواب

فإذا استقصينا بعد هذا الأسباب التى أحنقت الأشتر على عثمان وأثارت فيه كوامن الخصومة ، رأيناها فى جماعها تكاد أن تكون مطلبا « إقليمياً » لا يعدو إبدال حاكم بحاكم وأمير بأمير يسوس أمور بلدته الكوفة خيراً مما ساسها سلفه المكروه . وعثمان فى نهاية الأمر قد استجاب لهذا المطلب ونصب أبا موسى بعد سعيد ، عاملا برأى ناصحه ، فلم تعد إذن ثمة حاجة بالاشتراك إلى الإقامة على خصومته دع عنك تبييت الغدر وتدبير المؤامرات . ولعل أبرز ما يظهرنا على صفاء ما بين الرجلين أن عثمان ، حين اشتبكت عليه الأمور وضاقت حلقة الحصار ، بعث إلى الأشتر يستنصحه ويطلب منه المشورة التى تكشف عنه البلاء وتفض جموع الثوار . . . قال له :

« يا أشتر ، ما يريد الناس منى ؟ . . . » .

فأجاب دون إخفاء :

« ثلاثا ليس من إحداهن بد » .

« ما هن ؟ . . » .

« يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك » .

« أما من إحداهن بد ؟ . . »

« ما من إحداهن بد » .

فلو كان استغشه لما استشاره ، ولو كان المشير يضمر الغدر ويرجو الإيقاع بالمستشير لخدعه عن شأن عدوه ، ولأخفى عنه حقيقة موقفهم منه . غير أن الأشتر كان نقيا أمينا يبتغى رضوان الله وصلاح الشعب والخليفة عندما قام يناهض عثمان . وكان كذلك جديراً بسيرته التى لم تتلبس بالشبه والمظنات ، وبالثقة التى أودعه على إياها فيما أقبل من الأيام لأن طبائع النفوس لم تكن لتستغلق على فراسة الإمام . . . وهل كان صفى محمد وأطيب الناس بعده خلالا وخلائق بالذى يستصفى غادرا وهو الذى قد وصف مالكا بعد انقضاء أجله فقال ؟ مجملا الوصف فى خير مقال :

« كان الأشتر لى كما كنت لرسول الله . . »

وكذلك يظهر أن ظلال الاتهام التى شاءت أن تلصقها بالرجل رواية الرواة لم تكن غير نسيج وهم متذائب ، أو عقل كلف بالافتراء وصياغة الأباطيل أراد أن ينتقص من قدر على خلال النخعى . . . وليس هذا على طبيعة الأمويين ببعيد .

وندع جانبا هذه الأسطورة الباغية التى ود ملفقوها أن تنال من قدر الأشتر ومن نقاوة صحيفته ثم نردد ما بقى لنا من سطور التاريخ التى لم تدمغها شطحة الخيال ولم تشبها الأهواء والأباطيل فكيف نرى الرجل إذ ذاك ؟ نراه رزينا لا ينطلق كغيره مع المغالاة وإن منهم لكثرة بالغة من أعداء الإمام كانوا بالأمس حربا مشبوبة اللظى على عثمان غدوا بعد مصرعه يدعون لأنفسهم ولاية دمه والقصاص له ! . . . وما نغالى إذ نقرر أن الأشتر قد أنكر اندفاع الثوار وركوبهم بالعنف خليفتهم حتى قتلوه . . . بل قد اعتزلهم ولم يدل فى فتنتهم بمنطق لسان دع اشتراكه بسيف وسنان . بل قد كره عدوانهم على الشيخ وإهراقهم

دماءه الحرام حتى ظن الناس أنه لن يفتر عن اللحاق عن دعوا بدعوة الثأر ... قال علقمة ، وقد عجب إذ رآه لا يؤازر طلحة وأعوانه ، على خلاف ما كان يتوقع منه :

« قد كنت كارها لقتل عثمان ، فما أخرجك بالبصرة ؟ . . »

فأجاب معبرا عن طبعه الذى يأبى الغدر ويكره نقض العهود والمواثيق وهو يعنى ما كان من خلع طلحة والزبير طاعة الإمام من بعد ولاء :

« إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا ! . . . »

فلغير هذا العف الطاهر يساغ سوق الاتهام . وما كان مثله بالغرير الذى تستهويه بدعة أو تفتنه ضلالة وإن أزجيت إليه بلفظ معسول على ألف لسان ولسان تندلع بكلمات يهودى اليمن من شدق الشيطان ! . . .

٣

من أخرج الجمر من رماده ؟ . . من نافخ البوق للقتال ؟ . . من أشعل النار فى الهشيم ؟ . . .

سليل إسرائيل ؟ . أم رجل فى القوم سواه ؟ .. أم أفراد انطووا على مثل غدره وتبييته ؟ . ليس هذا بذى أثر ، ولا كان محولا تيار الصراع عن مجراه . ولو قد سكن الرجل لوقعت الواقعة ، وإن تأخر الزمن بها قليلا إلى ساعة من نهار ، بعد بضع ساعات . . .

أما الآن فداهمة الأمر دهمت الناس حين غفوة وهم رقود ما زالت تنادم الأكثرين منهم فى السكرى أحلام السلم . . . كان كل من فى العسكرين آمنا ، ظن هدأة الليل جنة وقته شرة القدر الغادر فأسلم مصيره إلى طلعة الصبح . غير أن الغسق أتى بالملمة ، . فلما بزغت الشمس بعد قليل على أرض البصرة ، كان شعاعها الدامى كأنه خيال الثرى المصبوغ !

وهب اليهودى سكنت نفسه تلك الليلة ونام عنه شيطانه ، أليس ثمة أنفس أخرى كانت تأكلها اللهفة على إثارة القتال ؟ . . بلى وكثر ! . . وعندما ننشرها للإحصاء قد يعيينا الحصر . وإذا وسعنا أن نستقصيها فلن نراها جميعها كذات ابن سبأ سوداء ضليلة . بل فى أصحابها أناسى على إيمان . أم ابن الزبير علكنا الشك فى حسن إسلامه ؟ . .

إنه لا ريب واحد ممن شغفهم القتال حتى ودوا لو أنهم تعجلوه . ولم يكن يخفى شغفه ، ولا احتجزه لنفسه دون أن يعدى به سواه . إنما قد راح حينذاك يبسطه كبسط البنود ، وعندما آثر أبوه أن يقعد عن الحرب ، ويفىء إلى الحق والطاعة ، ثار به حتى آذاه ...

قال له الزبير ، وكان حديث الامام قد ألان شكاسته وعطفه إلى التزام السلام :

« ... ما لى فى هذه الحرب بصيرة .. »

فصاح به عبد الله :

« إنك قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب ، وعرفت أن تحتها الموت فجبنت ! . »

« ويحك ! .. »

ولم يشفع له عند ابنه أن يعتذر بقسم أقسمه ألا يقاتل الإمام ، بل قال له الفتى العنيد المشغوف بالقتال :

« كفر عن يمينك بعتق غلامك . . . »

تلك صورة من صور تظهر لنا مشاعر طائفة من القوم ، كثيرة العديد ، لم يأبهوا للسلم ولا ارتضوه وإن لم يسيطر على قلوبهم ما يملك فؤاد ابن سبأ من الزيغ والإلحاد ، وإن لم يبطنوا مضرة للإسلام . فلو غاب اليهودى عن الميدان ولم يقدم خديعته فى أطواء الظلمة ، لقاموا عنه بإشعال الحرب فى واضحة النهار ..

ومع ذلك فالقطرة الأولى من الدماء المسفوحة لم تكن بنت الليل ، كم من راو أنبأتنا أخباره أن طلائع الصراع بدت مبكرة ، قبل أن يوغل الليل فى مسيره ،

وقبل تهيؤ مواكب الظلام لاستقبال باكورة الفجر . . . ثمة ضحايا لقوا مصارعهم تحت سرادق النور ولما يولد المساء — رجل ، ثم بضعة ، من صحب على ، أصابتهم الأسنة الغدارة وما التقى الجمعان فى ساحة وغاهم .

ولكن الإمام تحاجز دونهم بصبره . سكت عن العادين وفى نفسه بقية من أمل أن تسترقهم سماحته فتتفتح قلوبهم للوفاق . قد كان يطمع أن يصغوا أخيرا لمنطق العقول الرشيدة والحكمة المنجية الهادية وإن لجوا بدءاً فى غيهم وسايروا هواهم إلى مداه . فعندما نزل البصرة أول نزوله قنت لربه مخاصا أن يهدى غاويهم ويؤلف عاصيهم عسى دماؤهم ألا تهراق . ولما اصطفوا أمامه ، جموعا فى سلاحهم شاكين ، قد باتت سورة الوغى فى مآقيهم ، دعا جنده أن يصابروهم ولا يبدأوهم بعدوان وطعان :

« . . . لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة . وكفكم عنهم حتى يبدأوكم حجة أخرى » .

غير أن الذى تبطره الكثرة وتملكه السورة وتقوده الغدرة ليس يهديه رفق ولا تسامح . وكذلك كان أحلاف الجمل ذلك النهار أو كان سوادهم الكبير كثرة غادرة مهتاجة . فما هو أن بدت لعيونهم أجناد على ، عند الحافة الأخرى من خندقهم ، حتى بدأوا العدوان .

وسقط امرؤ علوى أول ساقط فى الساحة ، وقد أصماه سهم خرق إلى صدره خباء الهواء . . . لم يكن آخر ضحية طل دمها وذهب مهدرا دون ثأر ذلك اليوم قبل إعلان بدء الوقعة ، فما هز الاعتداء من على هدوءه ولا أخرجه عن الترفق بالعدو المغتال . . . ولم يكن أيضا الضحية الوحيدة بل أتبعتها السهام العادية ضحايا تترى ، كأنما حسب أصحاب عائشة أنهم إذ يرمون أخصامهم يتلهون بصيد سانحات من الطير ! . . .

وغضبت لهذا التحدى طائفة من رجال على ، أقبلوا يحملون صاحبا لهم ممن دهتهم إحدى تلك الرميات وحملت إليهم المنون . فلما أصغى إليهم الإمام هتفوا به يقولون :

« يا أمير المؤمنين هذا أخونا قد قتل . . . »

ولبثوا ينتظرون أمره . أفطالعهم بغير ما ردده عليهم من قبل كلما حملوا ضحية منهم اقتنصتها سهام الخصوم ؟ بل قال كما اعتاد أن يقول :

« أعذروا إلى القوم » .

فلم يتسع حلمهم هذه المرة اتساع حلمه . وقال ابن أبى بكر له وقد أخرجه عن طوره ما قابل على به بغى القوم وتحديهم من هوادة لغير أهل ورفق نظير قتل :

« إلى متى ؟ . قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار . والله لتأذن لنا فى لقاء القوم أو لننصرفن ! . . . »

وكأنما أحس الفتى أنه جاوز حده فأردف وفى صوته رنة من الندم يشوبها أسى عميق :

« . . . يا أمير المؤمنين ، إلى متى نستهدف نحورنا للسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ . . . » .

فلعل هذا الحادث وأشباهه كان آية الأمل الذى ظل يراود بضعة من النفوس فى أن ينتصر السلم . العدوان المتواتر من جانب عسكر الجمل فت فى عضد على ، وأثقل قلبه ، وطمس آية الوفاق التى تبدت فى أفاق أفكاره كنجم غائر فى جوف الظلمات . ولم يبق من رجاله أحد إلا أقام على خشية ، لا يستريب قط فى أن عدوه سيدهمه حين لحظة تحين . . .

ومع ذلك فجمعهم قر تلك الليلة ، ولانت له المراقد فأسلم العيون للنوم إسلامه مصيره إلى الصباح القريب . ما حسبوا قط أن ليلهم خادعهم وحامل إليهم فى أطوائه الوغى المقتالة . . . وكيفما كان الدور الذى لعبه ابن سبأ فهو دور كان حقيقا أيضا به سواه من خصوم الإمام الذين تلبست نفوسهم بالنهم إلى الدم . فما يدرى امرؤ من أين أتت أول طعنة ، وأى صدر من الفريقين استقبلها والغلس ينشر ظلامه كثيفا على المضارب والأخبية التى ملأها الجنود . وعند ما نصغى قليلا إلى رواة التاريخ نسمع كيف وصفوا لنا اضطراب المعسكرين فى عماية الظلمة

والسلاح يشق صدورهم ونواصيهم وفى حسبان كل فريق منهما أن عدوه قد بدأه بالعدوان . وبين ظن الظنون ورجم التخمين يتيه أول عاد ركب الناس بغدره فى مراقدهم ، وتضل الحقيقة حتى يعسر أن يهتدى المرء منها إلى رأى قاطع وحكم حاسم صريح . . .

فليكن إذن ابن سبأ مشعل النار ونافخ البوق للقتال . ليكن هو قبل سواه — لا دون سواه فكثير غيره إلى الفرقة ساع وإلى الدماء منهوم ! .

أما الواقعة فوقعت منذ انطلق أول سهم فى جوف الليل ، ضريراً يندفع عن غير بصيرة ولا إحكام تصويب حتى استقر بصدر أو نحر . . . وقعت ، ودهمت داهمتها الناس وهم رقود ، فاءوا إلى المضاجع فى أحضان حلمهم بالسلام ! . . .

واندلعت ألسنة الحرب . واختلط القوم من الفريقين شر اختلاط وأبغضه ، يضرب بعضهم وجوه بعض وما يدرى الرجل أيقتل رفقاءه أم يقتل أعداءه . فمن عجب أن تختار سهام الرماة ورماح الكماة أقرب أناس إلى قلوب أصحابها وأحبهم إليها . . . كانت تختار لها أهدافاً من الأهل والعشيرة . ذلك أن رجال على عندما نزلوا البصرة رأوا أن يعسكروا تجاه أبناء قبائلهم من جند عائشة ، فنزلت يمن الكوفة إلى يمن البصرة ومضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة وكلهم يظنون أن صلحهم قريب . . .

وانطلق على إلى الغمار وقد فجأته الضجة التى علت على غير توقع يهيب بالجموع التى ملكتها حمى القتال .

« أيها الناس ، كفوا . . . كفوا فلا شىء . . »

فكان صوته يغرق فى الضوضاء كما غاب هيكله عن العيون فى الظلمة الكثيفة ، لا يكاد امرؤ أن يراه أو يسمع دعواه . . .

ومال إلى رجل دان يسأله عما دهى الناس ، فأجاب :

« ما فجأنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل . . . »

عندئذ قال ونفسه تسيل أسى وموجدة على ما انتهت إليه حال رعاياه من تفرق وانتشار :

« لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا . . . »

فكأنما صبها بأحرفها فى فمى غريميه تنطلق كلاما عبر عمـا ظناه ، سألا أصحابهما عن الداهمة ، فلما قالوا :

« طرقنا أهل الكوفة . . . »

أجابا وهما يسترجعان ، بنفس ما قاله فيهما الإمام :

« قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ! . . »

وكذلك أخذت الريبة على كل فريق مسلكه إلى التفاهم والمصافاة مع الفريق الآخر ، وسدت دونه الطريق . . . فإذا الحكمة تتوارى ، وإذا العقل يغيض ، وإذا المنطق الرشيد يخلى المنبر ليخلفه السيف البتار ! . . .

٤

أتم على طوافه ثالثة بين رجاله ، ثم رفع المصحف أمام عيونهم فى عناء ونادى وما زالت بقلبه أمل أن تتدارك الناس رحمة الله :

« أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه . . . وهو مقتول ! »

فنهض له الفتى الكوفى الصغير — نفس ذلك الحدث الذى أجابه إلى دعوته مرتين من قبل وإن نفسه لتفيض حماساً ولهفة ، وإن لمح عينيه ليتلهب من عزيمة وتصميم :

« أنا يا أمير المؤمنين » .

فأشاح برهة عنه . ود لو الغلام تأخر عن هذه المهمة لمن هو أقوى منه وأشد ذياداً عن المنون بشبابه . . .

وقال الإمام وعينه ترقب الشاب :

« . . . فإن قطعت يمينه أخذه بيساره ، وإن قطعت يساره ، أخذه بأسنانه . . . »

فلم تختلج فى انغلام جارحة من خوف . بل زاده التلويح بالخطر الذى ينتظره تمسكا بعزمه .

ودفع على إليه أخيراً بالمصحف .

« اعرض هذا عليهم ، وقل هو بيننا وبينكم . . . والله فى دمائنا ودمائكم » .

فانطلق الفتى به فى الغمار مزهواً ، ينطق تطلق أساريره ، وتلك البسمة التى شاع نورها فى محياه بمقدار فرحه ، كأنه يسير إلى عروس مجلوة ساعة زفاف وإن قباءه الأبيض ليعلمه ويزيده رواء على روائه . . .

ووقف جند الكوفة فى صفوفهم يرقبونه تكاد قلوبهم أن تسير حوله وهو يشق لنفسه طريقا بين أسنة الأعداء . لو نجح إذن لاحتقن الدم ، ولو استجاب رجال الجمل لدعوته القدسية التى يتحدث بطهرها كتاب السماء لعاد الناس كلهم إخوة على صفاء : فما بال هؤلاء يتنكرون له ، ويبطرون بالنعمة التى تقدم يزجيها فى دعوته السمحة الرضية ؟ . . . قد أكلتهم شرة العداوة فانقلبت إنسانيتهم ضراوة ، واختفت فيهم طبيعة البشر خلف تنمر الوحوش وسكان الغاب . وإن أسنتهم لتلعب إذ ذاك دور المخلب والناب فتتعاور الغلام وتضرب فيه ، لا تكبحها حرمة المصحف المرفوع فى يمناه . ولا تردها عنه ما يرد العداة عن خصومهم إذ يسيرون نحوهم حاسرين ، بغير سلاح ، يعلنون وهم عزل غير شاكين ، أنهم فى أكناف الأمان . . .

تعاور أصحاب الجمل هذا الفتى الأعزل إلا من كتاب الله غير متلومين ، تقد منه أسنتهم الباغية وتفريه . ولكنه صبر أمام العدوان ، ومضى وما عزم عليه يناديهم إلى الكلمة السواء وإن خانته يمينه وتخلفت عنه فى مضيه شلوا مبتوراً رقد على الثرى وقد أغرقه الدم ! . . . فما زالت ثمة يسراه تستطيع حمل الرسالة المقدسة ، وما زالت قدماه تحملانه إلى حيث لعله يستطيع الأداء . . . وما زالت أيضا له أسنان تمسك بكتاب الله عند ما تأتيه ضربة أخرى عادية فترسل يده الثانية لتلقى على الأرض . . . أفلا يسعه أن يحتضن المصحف بين صدره ونحره ويجاهد طاقته ليسمع القوم دعوة السلام :

« كتاب الله بيننا وبينكم . . . الله الله فى دمائنا ودمائكم . . . » ؟ .

ولكنها صيحة لم يتح لها التردد إلى كثير . صمت عنها فى البدء الآذان ثم خرس عنها صاحبها الآن !.. المخلب والناب ووحشية الغاب قضت منها الوطر ، ورمت بالفتى الصغير ، أو ببقاياه ، ساكنا على الأديم قد راح قباؤه الناصع البياض مزقا حمراء ! . .

أثمة للصبر بقاء ؟ . . أفيه ذماء ؟ أم تفرى إهابه وتقطعت به عن الوجود أسبابه ؟ . . ود على لو قدم على مذبح السلم ضحايا أخر وقرابين تصل بينه وبين خصومه ، فتلين له عاصيهم ، وتؤلف عليه شاردهم ، وتمسك وحدة أمته أن تنهار . ولكن بوادر الصراع أيقظت الفتنة ، ورائحة الدم المسفوح انسابت من الخياشيم إلى الأوردة والشرايين تحرض الدم الحبيس على الفوران والتحرر . فى كلا العسكرين حميت نخوة القتال وبان فى العيون التنمر . وعندما رد الإمام طرفه عن الفتى الصريع ، الذى مزقته الأسنة ، إلى صحبه وأجناده طالعته منهم غضبة ليث جريح مزير ، قتل صغاره ، وديس غاره .

ما لعلى بعد هذا سبيل إلى الإعذار ، إنه قد أعذر حتى ظن أنه خوار وصبر حتى حسبوا الصبر منه مجبنه . بل لعل عدوانهم على جنده ، وملاحقتهم رجاله — وإن كانوا كانين — يبغى السيف ونار الحتف لم يكن لولا حلمه الذى أطمعهم فيه وأملى لهم فى الطغيان . أما وقد كف وصابر حتى كاد أن يصبح عونا لعدوه على أوليائه ، فلم يعد له معدى عن ترك الحلم إلى الحزم والكف إلى السيف ؟ . . .

وهتف وما زال يلوح لعين خياله الفتى الحدث فى قبائه الناصع البياض كما تلوح بقية رؤيا رق عنها الوسن :

« حل قتالهم . الآن طاب الضراب ! . . . »

ودعا قواده فأقامهم على أماكنهم فى الميمنة والقلب والميسرة من جيشه . وكان كعب بن سور فى صفوف الجمل واقفا ينظر ، فما رأى تأهب الإمام حتى أخذته خشية أن تستعر الحرب بين الجمعين . . . إن هاتفا فى أعماقه يحذره ، ويكاد أن ينذره بشر قاصم سوف يلقاه فريقه غب الالتحام .

وانتفض الرجل فبرح المكان مسرعا صوب عائشة ليخبرها الخبر ، ويهيب بها أن تجهد وسعها لتكف عن أصحابها المصير المخوف الذى سيجنونه كفاء الطغيان :

« يا أم المؤمنين .. أدركى فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك ... »

فبرزت من حيث سترتها الدار ، مضطربة واجفة ، فقد أعداها ما أحسه ابن سور وعاناه . . وجاءوا إليها بعسكر على الأثر ، ألبسوه الجلود وشدوا عليه هودجا درعوه بالحديد حتى بدا كأنه القلعة الحصينة . الله يعلم أى أمر طوته وهى تحت مطيتها الدارعة إلى الميدان ! . . ولكنها حين شارفت الساحة ، ورأت الجموع فى التقائها تمتد ثم تنحسر كالأمواج ، وسمعت السلاح يصطفق والسيوف تعتنق أخذتها رهبة غلبت ما كان من قبل فى نفسها من صرامة ، حتى همست أسيانة إذ التقطت سمعها تلك الجلبة المدوية من جانب جيشها الذى ملكه الهرج وشاع فيه الضجيج :

« أى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون ! . . »

ونأت بعينها رائية . . . ولوت جيدها نحو كعب بن سور تهيب به بلهجة فيها حدة الأمر وفيها رقة الضراعة :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه . . . » . ودفعت إلى كفه بمصحف كما فعل على قبلها مع الفتى الكوفى صاحب القباء ولكن رسولها لقى مصرعا كمصرع سلفه . استنزف منه دم الحياة وما استجاب امرؤ إلى ندائه ...

عندئذ صاحت وقد أشفقت أن تأكل شرة الحرب الناس . . . عادت بها رهبة الموقف الضنك وشبح الموت الذى حلق على الرءوس إلى ما هو مألوف فى هذه الموطن من طباع النساء ، فراحت تصيح :

« . . . يا بنى البقية المبقية ! . . . الله الله ! . . اذكروا الله عز وجل والحساب . . . » .

فلم يلق أحد منهم بالا إلى دعوتها ، ولا بدوا كأن قد سمعوا صوتها الرفيع الجهير . بل مضت الوغى سبيلها فى سورة مجتاحة ، تأكل من عرض لظاها أو تأخذ منه . والساحة بعد هذا تغطيها رويداً رويداً الدماء ، ثم الأشلاء ، ثم

الهام بعد الأقدام..! فما ارتضى امرؤ توقفا عن الطعان ولا آثر التريث ، يستوى في هذا أولئك وهؤلاء .

ومع ذلك فثم قلة ودت لو أصغى الناس إلى دعوة السلم المرتفعة من بين القعقعة والصليل ، عسى الله أن يهدى إلى سبيله ويحقن دماء المحاربين . وإذا كان الغلام الكوفى قد لقى من أهل الجمل شر جزاء على خير دعاء ، فليس مصيره بعقمد سواه عن القيام مقامه والتنادى تناديه . . . وما هو رجل من صحب على من عبد القيس ، يزدلف خفيفاً نحو عائشة إلى أعوانها المضريين ، فيحدثهم هادئاً غير هياب :

« أيها الناس ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله . . . »

فصاحوا به محنقين :

« وكيف يدعونا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله ، ومن قتل كعب ابن سور داعى الله ! . . . »

ذكروا صاحبهم ونسوا صاحبه كأنما ليس لغير صريعهم حساب . . .

ثم وشت بهم نواظرهم بعد قليل ، فإذا لمح النقمة يتأجج فى مآقيها تأجج النار ، وإذا جمعهم يلتف بالداعى المتفرد يسد عليه منافذ النجاة ، ثم يرمونه بنبلهم كأنما عن قوس واحدة حتى غدا جسده ، من ما فرط رشق به من سهامهم كأنه جسد قنفذ غطته الأشواك . . .

وضاعت الحكمة فى حلبة النزال المجنون. وانقلب الناس كالوحوش لا يدينون بغير شريعة الغاب ، ولا يصغون لغير حديث السيوف والحراب .. وعندما أسفر النهار ، وألقت الشمس وشاحا من ضيائها البراق على جوانب الكون ، كان النور يملأ الأرض ولكن الظلمة كانت تملأ العقول ! ... ولم يعد أحد يشهد إلى أكثر من مرمى عينيه ، فالبصر سليم والبصيرة كليلة ! . . وأخذ السلاح يلتمع ، إذ يتهاوى فى سرادق الضوء ، كالمرايا المصقولة . . .

٥

هذه صيحة الحرب راحت تزأر : « يا لثارات عثمان ! » فيها مثل قصف الرعود ، وعزيف الإعصار ، ودوى الانفجار المجلجل جاشت به فورة بركان...

من ناحية « عسكر » أقبلت مدوية ، رجفت لها الأرض والسماء . . فى طيها غضبة وفى إثرها رهبة قد أطلقتها ألوف من الحناجر الصاخبة وألوف . بضع عشرات جمة ، فى جرس واحد ثابت كأنما أرسلها لسان وشفتان ! . .

إنها نداء الدم .. شعار نقمة هوجاء رفعته النفوس الموتورة كرفع الكتيبة العلم .. دعوة للقصاص فطرية ، ترددت عن قلوب ملأتها إلى حوافيها شهوة الانتقام وآمنت أعمق إيمان وأقواه بشريعة الثأر كإيمان إنسان الكهوف والمغاور ! . .

وكان فيها رنة غير رنة النقمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس اندفاع الينبوع الفوار . . . فيها أيضاً تنغم النشوة ينبئ بزهو غامر بعثه الشعور بالتفوق فتلك آية النصر بادية ، لاحت لهم بواكيرها ولما تأكل الحرب منهم سوى قليل .

حيثما مد امرؤ من رجال « عسكر » عينه إلى أطراف الساحة التى عجت بالأسنة المشتبكة كر إليه بصره وفيه إشراقة التمعت بها بسمة الرضا والطمأنينة . الراحة فى القلب والفرحة فى العين ، والأمل المعسول كخفق الضياء يداعب النهى والخواطر . حتى عائشة بهودجها ازدهاها الظفر الظاهر ، وغدا أمامها حقيقة مجسمة ما كان من قبل حلماً طوف بها فى هدأة التصور . فرغت الآن مما عراها من اضطراب ففاءت إليها نفسها بعد خشية ووقع قلبها الجزوع موقعه . وطلحة ابن عبيد الله . . أين منه اللحظة هدفه — ذلك الوهم القديم الجميل ؟ . . كاد هاهنا يلتقى حلمه المنشود بالواقع المشهود على أديم الميدان وفى غيمة النقع الثائر من حوافر الخيل وحركة المشاة ، لا يفتأ يبدو لعين خياله المقعد الأثير ، وسيف الحكم ، وطيلسان الخلافة تهم أن تتقدم بها نحوه النتيجة القريبة المرقوبة نصيباً حلالا له وحده بعد ما كان من نكول الزبير ! . .

النصر إذن لم يعد بارقة رجاء ولا نسج خيال ، وإنما أوشك أن تنقبض عليه كفاه . إنه ليراه مقتربا منه ، دائبا على الاقتراب ، يدنو إليه خطوة كلما دفع رجاله بجند على خطوة إلى الوراء . ولقد دنا حثيثا ، وقطع أشواطا جمة بدل الخطوات. وما دام نصره قرين هزيمة الإمام فإنه منـــه مستيقن لأن هزيمة خصمه غدت تدق عليه الأبواب ! .

ليس يخامره شك الآن فى عقبى الواقعة بعد أن شهد من مكانه بقلب جيشه كيف راح جنود الـكوفة يركنون إلى الارتداد . ما كاد ينزو عليهم جناحاه حتى نـكلوا عن الثبات . الضربة الأولى ألزمتهم التقهقر ، فعسى الضربة التالية أن تلزمهم الفرار ! . .

كذلك كان عامر القلب بثقته ، يغمر نفسه البشر والتفاؤل . فما كذبه حدسه فى قائديه ، ولا خابت فيهما فراسته . وساعة أن نصب أولهما . عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام على ميمنته ، وبعث الآخر: عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليقود ميسرته ، كان موقنا أنه أصاب أوفق اختيار ، فأنعم بما قام به السميان ونعم ما أبلياه ! . . هما أن تصبح لهما الـكلمة العليا فى الصراع الدائر فيبلغاه وطره من عدوه . ولولا أن ثبت قلب جيش الإمام كل هذا الثبات لانقض السامر ! . .

ومع ذلك فليس يكتم عن نفسه أن النصر الذى حازاه جاء خاطفا سريعا أكثر مما تخيله وهمه . كل من شهد الوقعة عجب كيف زالت هكذا ميمنة على وزالت ميسرته عن مواقعهما تحت هجمة الخصوم . وحق لمن شاء أن يعجب كما يشاء . فما كان جناحا الإمام من الوهن والتهافت بهذا القدر الذى يردهما القهقرى بعد أولى الضربات. لا وليست تعوز رجالهما الحنـكة الحربية ، ولا البأس والصبر فى مواطن الجلاد . أفثمة يا ترى أسباب خفية فرضت عليهم التقهقر أو قهرتهم عليه ؟ . . أعن تدبير ؟ . . أم هى ضربة مفاجئة بدأهم بها جيش « عسكر » قبل أن يأخذوا أهبتهم لملاقاته بالقتال ؟ . . لعلهم أخذوا على غرة وإن اشتبهت حقيقة الأمر على الرواة . . أو لعل علياً هو الذى مكن لعدوه من هذا النصر الخاطف السريع ، فقد كان مسرفا غاية السرف فى الصبر والموادة

كما عهدناه ، متحرزا أشد التحرز وأبلغه من لقاء خصومه فى حرب إلا أن تعجزه أناته عن الضن باللقاء ، ولطالما صبر من قبل وأعذر فلا عليه لو أملى لهم هذه المرة كذلك لتكون له على طلحة وحزبه الحجة البالغة بأنهم أصحاب العدوان .

على أى حال قد كان هادئا تلك اللحظة بقلب جيشه الذى ثبت أمامهم ثبات الرواسخ ، تشهد عينه ولا يضطرب جنانه ، وإن وجدهم ينالون من رجاله ويضغطون مجنبتيه ضغطا شديدا حسبوا معه أنهم هازموه . الشك لم يراوده قط فى نتيجة المعركة ، وإن بدت للعيون مقدماتها لا تبشر بخير كأنه قد علم عاقبتها قبل أن تحين . . .

إنه هادئ الخاطر رخى البال ، لا تسكاد المحنة الحازبة التى أصابت جناحيه على يدى قائدى غريه أن تنال منه . بل قد بدا محسور الطرف عن أطراف الميدان وعما يدور فيه . . . ثمة هدوء سابغ ، كأنه السكلال أو سنة كرى ، جلل محياه المطمئن القسمات ، حتى ظن أدنى قومه منه أنه راح فى خفقة نعاس ! .

ولـكنه رفع رأسه بعد قليل ، فى حركة بطيئة وئيدة ، ومال بأذنه يرهف سمعه إلى صيحة شقت نحوه غلالة الهواء من ناحية الهودج الدارع . إنها تختلط بصليل السلاح وصخب الأجناد ، حتى لا يصله منها سوى ضجيج مبهم تضطرب حروفه ويوشك أن يغيض فى غمار الضوضاء . . .

ويلتفت ، وقد أعياه تبين الصيحة ، إلى امرىء قريب منه يسأله فى هدوء :

« ما هذه الضجة ؟ . . »

« عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان »

فترسم على الأثر بشفتيه بسمة حزينة ، فيها رثاء وعطف ، وتلتمع بعينه نظرة تسيل رقة كأنها دمعة يسكبها وهو يذكر الشيخ ، ويقول بصوت عميق حروفه لأحاسيس قلبه أصداء :

« لعن الله قتلة عثمان ، فى السهل والجبل . . »

ثم يفىء ثانية إلى الهدوء ورضا البال ، كأنه ليس بموطن حرب تتهاوى فيه الرءوس والجوارح ، وتتحدث الألسنة بمنطق الدم . .

عندئذ يقبل عليه ابن جهين ، والعجب يستبد به ، يحدثه وقد كادت ألفاظه أن يقطر منها اللوم ويفيض الإنكار :

« تالله ما رأيت كاليوم قط . . . إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمنتك وهزمت ميسرتك ، وأنت تخفق نعاسا ! . . »

فرمقه على مليا فى سكون حتى ظن الرجل أنه لم يسمعه ، وهم أن يعيد عليه ثانية ما قال . . . فإن هى إلا لحظة ثم رآه لاءعه يرفع وجهه ويديه نحو السماء ، رانياً بنظرة ابتهال وضراعة وهو ينطلق فى المناجاة :

« اللهم إنك تعلم أنى ما كتبت فى عثمان سواداً فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ألبا وأجلبا على الناس . . . اللهم أنت أولانا بدم عثمان فخذه اليوم . . . »

وبأسرع من كرة الطرف نفض عنه هجمته أو ما بدا كأنه هدأة النعاس ! . جرت فى أوصاله حمية الشباب القديم دافقة فكأن بها ثورة إعصار . فلم يكن ثمة بقية لإمهال ولا تريث ، ولا معدى بعد عن مقابلة هجومهم بهجوم يرد عنه العوادى بعد أن شد ابن الحارث على ميمنة الكوفة شدة ألصقتها بالقلب حتى زوحم الإمام . . .

وهتف بين رجاله نفر يقول :

« الموت ليس منه فوت ، يدرك الهارب ولا يترك المقيم ! »

فكانت هذه مجاز جنده إلى الثبات . تدافعوا نحوه من كل صوب تدافع الفراش للضوء ، فإذا هم حلقة حوله كأنها السوار .

وأخذت الشمس فى مستقرها تسير ، وئيدة الحركة ، رويداً رويداً لتتوسط السماء ، ضاحية السنا كمين يقظى راحت ترقب الجموع المزدحمة بميدان الوقعة . كان الوقت يقترب بهم من الظهيرة ، والجو الملىء بالدفء يزيد الجسوم توتراً وحرارة ، حتى ليندفع المرء منهم إلى حتفه دون إرادة إلا بإملاء عصبه ، ويندفق بين ردائه وأعضائه ماء دافق سيال ، فلا يدرى أهو عرق الجهد أم دماء الجروح . ما كان فيهم امرؤ يستطيع أن يتحكم فى وعيه أو يدرك الشعور الذى يقوده إلى هنا أو هناك . فإن هو إلا مس يحرك المشاعر ما لهم عليه سلطان . . .

فلعله نشوة الصراع لعبت بعاطفتهم الفطرية لعب الحيا برأس المخمور ، وهل الناس إلا غريزة قديمة ، عريقة القدم إلى عصور الفطرة التي لم تعرف سطوة العقل ، ولم تدن له بطاعة ؟ .. جميعهم تحرر من ربقة إدراكه هذه اللحظة التي حجبت فيها الأسنة ما هذبته منهم العصور ورققته من طباعهم البدائية . فعاد الإنسان الأول ، الكامن فى أعماقهم ، إلى الظهور ...

بوحشية الغاب والكهف استمر القتال ، ذلك اليوم من جمادى الآخرة على أرض البصرة ، حتى لتشهد الميدان اكتسى بأناس اشتبكوا ، فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء . التصق الكتف بالكتف ، والصدر بالصدر ، والذراع بالذراع .. وكان بدء صراعهم بينهم بالنبل تتطاير عن أقواسها كرشاش الماء ذات يوم مطير ، ثم خلوا حديثهم بعدها للرماح والحراب . فلو كنت هناك لأعجزك أن تصل من صف أولئك إلى صف هؤلاء إلا أن تعبر جسراً من القنا الناشبة ! ...

فى هذه اللحظة الحازبة ، التى رخصت فيها الأرواح أيما رخص ، وهانت الأنفس على أصحابها كل هوان ، رأى على أن يشن على أعدائه هجومه المضاد .. ولم يكن هذا مما يسهل من فريق أوشك أن ينهزم جناحاه ، وضاقت عليه حلقة أخصامه ، حتى كادت أن تشل حركته . ومع ذلك فليس معدى للإمام عن القيام بكرة يسترد بها من الأرض موطئا لقدميه ، ولا سبيل أمامه إلا أن يقتحم ذلك الجند المعادى الذى أحرز بالسبق إلى الهجوم مزايا جعلته كالبنيان المرصوص ...

وأخذ الراية فدفع بها إلى محمد ابنه ، وقال يأمره :

« تقدم » .

فأجال الفتى بصراً حائراً فى القوم حياله — فى هذا السد من الجند الذى يسد دونه الطريق . أثمة على الأديم فسحة لقدمه يمضى عليها بخطوه ؟

ثم أحس يد أبيه تدفعه من الوراء ، وسمع صوته المهيب الآمر كرة أخرى يصيح به :

« تقدم ، لا أم لك ! .. »

فأجاب وهو مضيع حيران :

« لا أجد متقدما إلا على سنان رمح . . . »

« أدركك عرق من أمك ! . . »

وخطف راية القتال منه . فإن هى إلا رجعة الطرف حتى رأى الناس عليا يحمل العلم بيسراه ، ويشهر ذا الفقار — سيف رسول الله — فى يمينه ويقتحم وحده جند الأعداء . . .

لقد كانت هذه لحظة فذة فى تاريخ الشجاعة ليس لها قط مثيل : أن يخوض امرؤ فرد جيشا برمته فيشقه ، كما يشق أديم التربة سكين المحراث ! . . ولكنه ابن أبى طالب، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول فى تفهمه وأعياها إدراكه ، وإن عز شبيهه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال . . . إن إقدامه هو الذى كان يفتح له فى صفوف عدوه المكتلة — المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة قبل شفرة السيف ! . . فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلة بنصرها منذ قليل لم يكن إلى اجتنابها سبيل . وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها ، لم تترك جلداً ثبت لسيلها المجتاح ، أو رعديدا نكل وآثر السلامة من خلال الفرار ! . . .

شق جيش العدو وحده ، وفتح ثغرة عميقة فى بنيانه المرصوص ، والرقاب تتهاوى على حد حسامه ، والناس يسقطون صرعى بين يديه كأنهم أوراق الشجر وهو هبة قارسة من رياح الخريف ! ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فانثنى فى يمينه لما كف ولا عاد . . .

والتف به بنوه وأجلة صحبه ، وفيهم الأشتر وعمار ، يهتفون :

« نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . . . » .

فلم يجب ، وما رد إليهم بصره ، بل مسح بكمه قطرات العرق التى بللت محياه ، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفئ غلة عطشه بمض ما فيه . . .

وقال بعد أن حسا حسوة :

« . . إن عسلك هذا لطائفى . . . » .

« نعم . وعجبا منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ! . . » .

فابتسم وقال بهدوء :

« يا ابن أخي، إنه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط ، ولا همه شيء . . . » .

وأمسك سيفه الحق فأقامه بركبته ، وهب فجأة كالإعصار على عسكر أعدائه يغوص في صفوفهم كما يشق سجف الظلمة السوداء شهاب ! . . .

٦

الآن حانت الظهيرة . رقت الشمس الضاحية محاور الرءوس ثم مضت قدما تتم رحلة النهار . . . قليلا قليلا راحت تزايل مستقرها العالي وتنحرف عنه إلى طريقها المذهب صوب المغرب البعيد فكأنها حينذاك كانت ميزان الوقعة المستعرة ، مالت فيه كفة فريق وشالت كفة الآخر بعد طول رجحان . . .

وخط القدر في تلك اللحظة أو سطر من نتيجة الصراع المشبوب . بدأت عند ذاك نقطة التحول فشهد الجمل أولياءه فارين وقد كانوا سادة الموقف ومالكي مصيره منذ قليل . وأخذت البصرة تستقبل منهم فلولا مولية في إثر فلول ! . . .

أما علي فقد أينعت جرأته ، وأعرت هجمته الفذة ثم أتته على أعقابها بنصر مؤزر . . . وحين ألقى عينه على الميدان طالعته الفوضى تقود أخصامه ، فقد أعوزهم الآن التماس القواد ! . . غاب عنهم الزبير مؤثرا أن ينكل عن المعركة بجسمه كما نأى عنها قبل نشوبها بقلبه . . وغاب أيضا طلحة بن عبيد الله . مضى يلتمس لنفسه منتجعا نائيا عن مهاوى السهام والحراب عسى أن يجد هناك آسيا لجرحه فما كان أسرع نضوب أمانيه ! . . وما أشبه أمله الآن بجسمه الجريح ، راح ينزف حتى وشك أن يجف عوده ! . .

فلعل أعجب ما في قصة هذا الحالم بالسيادة أن يتنكر له في محنته ولي ويأسى له غريم . بل قد كانت نكبته هذه من نسج حليف له . . . عدا القدر عليه في ثوب صديق طالما أبدى له الولاء والطاعة ثم لم يمهله في وقدة النزال إلا ريثما يجعله

أمثولة أمام الناس لمن آوى الحية الرقطاء بين ردنيه وهو يحسب أنها سوف تجزيه وفاء صرفا على حسناه ! . . . ولكنها الحرب تنضو عن النفوس الزيف وتهتك المظاهر ، ثم تبديها عارية بلا طلاء : معادن خبيثة أو جواهر نقية الصفاء ، تريك النبل لا تشينه الخصومة ولا تنال منه . . .

لقد كان الأمر انكفأ على طلحة بأسرع مما تخيله وهمه حتى عجب لجنده المظفر كيف حاقت بهم هزيمة مباغتة ولما يكد ينعم بنصره إلا لحظات . بدت له آية ظفره المنهار كأنها سراب خدعته فى البدء عنه ثقته فلما انكشفت عنه نشوة اعتداده رآها بلقعا بلا ظلال . فما بقيت لجنده عزمة تحملهم على الثبات ، إنما غدوا شراذم نهكتها الحرب فمضت تستبق سبيلها إلى الفرار . . . كلهم فتنته نفسه عن الواجب ، وشغله حب الحياة . أما طلحة فظل بثوب الجندى وطبعه ، لم تخنه شجاعته ، ولم يفقد جلده . فراح يتذرع بالصبر عسى أن يسعفه الوقت بما يعينه فى هذه النازلة فيستطيع المقاومة ثم يستطيع بعدها الثبات . وهل الحرب إلا تأرجح دائم بين نعمة النصر ونقمة الهزيمة ؟ . . وهل حركات الجنود المصطرعة فى ساحات القتال إلا كمثل الأمواج ، يلعب بها المد آونة فتفيض ؟ . . ويكبحها الجزر أخرى فتغيض . فكذلك محنته الآن ، لعلها تنحسر عن شاطئه . وما دامت الحلبة لم تخل من رجاله فإنه سيعتصم بالرجاء . . .

وأهاب الرجل بمن بقى من جنده أن يؤازروه ، وثبت جهده للحشود الدافقة من رجال الإمام . فلو التف به نفر يبايعونه على النصر أو الموت لكان هذا أجدى عليهم وعليه ، إن ظفروا فلهم العزة أو قضوا فموت الكرام . . .

على أن ثمة امرءاً فى صفوفه كان قد أيس النصر ، وقر فى عزمه أن الثبات الذى يبتغيه طلحة ليس إلا خفقة السراج قبل انطفائه ، فقد جفت الفتيلة وفرغ الزيت ! . . بدت الآن الدولة المنشودة حلماً بدده الصبح . وصاحبها الحالم سوف يحتويه الغبار . وأنصارها البناة قد انقض بناؤهم ولما يرتفع عن أساسه فهم الآن صريع وقتيل ، وهم غداً أسير وشريد . فما غاية الناس من قتال مآلهم من ورائه قتل أو ذل ؟ . .

بهذه النظرة استقبل مروان بن الحكم عناد طلحة ورغبته فى المقاومة والكفاح ماوسعه الرمى بسهم أو الطعن بسنان . وعلى ضوئها رنا أيضاً إلى أطماعه تلك التى منته بسطوة جديدة فى الدولة الجديدة تعيد له بعض جبروته فى دولة عثمان . الحلم الجميل انقلب كابوساً ، ثم أضحى حقيقة مفظعة أهون على نفسه منها صرعة الكوابيس ! . . . غربت منه آماله إلى غير مآب وأوشك أن يشهد لها بهذا الميدان قبراً يضمها رفاتاً محطمة ! . . لم ينل من السلطة وطره ، ولا من الواتر ثأره . . أفيدع يا ترى الحلبة هكذا فى غمرة الهاربين دون أن يفوز بهدف واحد مما جاء هاهنا يبتغيه ؟ . . .

الآن بطلت المواربة وفرغ الرياء . لم تعد به حاجة إلى التوارى خلف أعذار مصنوعة هو يعلم أنها مصنوعة من زيف خالص . . . فدونه إذن الثأر إن عداه الوطر فى رجائه المعسول وحلمه الجميل . ولن يعود إلا بعد فراغه من الانتقام . .

وسل الرجل من كنانته سهماً ركزه بقوسه ، ورمى بعين يلتهب لحمها صوب حليفه الكبير الكسير ، ثم أتبع النظرة الرمية فأصاب ! . .

عندئذ اشتفت نفسه وأحس الراحة تملأ قلبه . فلأول مرة فى حياته أرضى مروان ضميره إذ استجاب لصرخة طالما ترددت فى أعماقه فلم يلبها إلا الآن . . . وحين رأى السهم قد نشب بطلحة أحس أنه نال شقا من هدفه ، هو الثأر لعثمان . .

فيا ترى قد فاء إلى الحق إذ رمى فأعلن للدنيا أى امرئ كان قد قاتل الشيخ أو فى القليل من كان أول عون فى القضاء عليه ؟ . . أم علم الثعلب أنه لن يشم بعد يومه فائدة ترجى من وراء الضيغم المهيض ، فاستأسد وأصماه ؟ . . . إن وقت النفاق قد فات ، والحلف الذى كتبه الطمع بينه وبين طلحة لم يعد له الآن بقاء بعد هذه الهزيمة القاضية على المنى والأحلام ، وكذلك نزع الرياء عن ولائه الموقوت . .

وغامت عين القائد الجريح . فلعل بعض قطرات من عرق الجهد رانت على ناظريه ، أو لعلها دمعة سفحها وقد شهد كيف يكون تنكر الحليف للحليف . . . ولكنه مع ذلك لم يبرح أرضه ، ولم يحن ظهره أمام الأحداث التى راحت تنوشه

كأنها كلاب . . بل قوم الرجل من قامته ، وشد رأسه جليلا مهيباً كما يجدر بقائد يعرف لنفسه أنه العلم لجنوده ، ما يزالون يلتفون به ما بقى خفاق الديباجة . . . ثم كظم آلامه المبرحة وصاح :

« إلى ! . . إلى عباد الله ! . . الصبر . . الصبر ! . . »

ولكنها كانت صرخة فى فلاة . أو كأنها دعوة إلى النجاة ! . . إنه ليشهد قومه تأخذهم فزعة فلا يزيدون إلا انفضاضاً عنه ، وفراراً صوب البصرة إلى منتجع حسبوه يدخر لهم الأمن والسلامة . . . ولولا أن كبح من زمام مطيته الفزعة لخبت شوطها هى الأخرى مع الفلول المهزومة .

فما كان أمر عيشه تلك الآونة وما أقساه ! . . ود لو نزف الدماء الباقى من عمره مع دماء جرحه ولا يرى عاراً هو من الفشل عليه أشد . فكم غرته الأمانى كما غره الآن أولياؤه . وكم غلبه اليوم على شجاعته وهنه . ولو أسعفته كفه لصال سيفه ، وللقى مصرعا حريا بجلد الأبطال . . .

وإنه لنهب ضاع بين وجع جرحه وألم نفسه إذ مر القعقاع به فشهده يكاد أن ينوء ويتهاوى إلى الأديم لا يتماسك من ضعف ولا من هزيمة ، فرق له قلبه ، وأذاب النيل فيه حقد الغريم ، فأسنده فى عطف وقال :

« يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات . . »

فأرسلها إليه نظرة تفيض بشكره ، وهتف بخادمه بصوت واهن خفيض :

« يا غلام . . . أدخلنى ، وابغنى مكانا . . . »

وكذلك غاب الرجل عن الميدان ، مخلفا على أديمه مع الأشلاء المتناثرة لجنده ، أشلاء الآمال المريضة ، والأحلام الحلوة التى طالما راودته من قبل فى اليقظة وفى المنام ! . . .

٧

أمسكت عائشة فى يديها الزمام . .

إنها لحظة حازبة ، تذهل المرء عن كيانه . ندرت فيها الرؤوس ، وهاصت النفوس ، وغدا المصير وقفا على الأقدام السباقة ! . . ولكنه كان سبقا إلى فرار ومنتجع هزيمة . كلما رمت السيدة بعين متلهفة من خلال ستر الهودج طالعتها النتيجة المريرة ، مقبلة عليها سريعة كسرعة خطا جيشها الهارب ! .

ولم يكن ثمة شىء يمسك على قومها عزمهم المنهار ، فلا قوة لهم معنوية تثبتهم وإن توفر لديهم العتاد . . وهل النزال إلا رباطة جأش وثبات جنان قبل ضربة سيف أو طعنة سنان ؟ . . إنما أصحابها غدوا قطيعا من الشياه الفزعة أعارها الخوف أجنحة تنأى بها عن الذئاب المنقضة . . . وفيما بدا قد فرغت قلوبهم من الشجاعة لأنها فرغت من إيمانها بالقضية التى قاموا يناضلون عنها . فلو كانوا ذوى مثل سامية لعز على قوى البشر أجمعين أن تزحزحهم شبرا واحدا عن مواطىء أقدامهم فى الميدان . . .

أما الآن فليس مصدى من علاج حاسم سريع حسبما تقتضى الآزفة وقد ذهب الراعى فانتشر أمر القطيع الجزع أيما انتشار ، وتفرقت هاهنا وهناك فلوله فرادى وجماعات . . . ذهب الزبير ، وذهب طلحة على أثره ، وتركا وراءهما شراذم فى حاجة إلى من يرأب صدعها ويربط بين قواها المحلولة ، أفتتقدم السيدة فتمسك الزمام الذى أوشك أن يفلت أم توجه «عسكرا» وجهة البصرة وتفر هى الأخرى مع المندحرين ؟ . . .

لم تعرف الجبن وإن كانت امرأة طبعها أميل إلى حب العافية والسلامة . فبقلبها بقية من إيمان بأنها أتبلت لهدف محمود هو إقامة حد من الحدود — الاقتصاص بالدم لدم حرام مسفوح يكاد أن يضيع . وكانت أيضاً تستشعر الرغبة فى الانتقام لطلحة بن عبيد الله ، فما تدرى وقد ترك الوقعة أقضى أم سيمهله جرحه حتى مطلع النهار . . . أما صاحبها الآخر ، الزبير ، زوج أختها أسماء ، فمصيره

بكفة القدر ، لا تعلم أى أرض الآن وطأتها قدماه أو أضحت مثواه . فلو قضى تحت عينها إذن لبرأت شيئاً من هذا القلق البالغ عليه لأن الدنيا كلها — فيما تشعر — مفروشة أمامه بالمصارع ! . . .

وكان حقا ما حدثها به قلبها عن أبي عبد الله ، فما ألقت عليه مرة عينها بعد لحظتها تلك ، حين رأته يوشك أن يكون فريسة سهلة لرمح عمار . . . إذ ذاك شهدته وبقلبها وجيب ، وبحلقها غصة يمثها الهلع ، وبعينها دمعة حيرى يرسلها الخوف الطاغى ثم يهم أن يمسكها الرجاء الذى يراود النفوس ساعة النكبات المجتاحة . فقد مشى عمار يشق الصفوف ، وإنه لشيخ أوفى به عمره على آخر مرحلة من مراحل الحياة ، فما أقعده الكبر ولا أبطأت به شيخوخته عن خوض غمرة الموت . . . ثمة شيء — فيما يلوح لعينها الرقيبة — يسير خطا هذا المعمر الواهن الحمش الساق . شيء غير القوة ، وغير حمية الشباب ، وغير الدم الحار فى العروق والأوصال كان يركب به من المواطن ما ينكل عن ركوبه الشباب الأجلاد من العزائم المواضى والصلابة التى لا تلين وكان مندفعا خلال جندها كأنهم أغصان تقصف لضغطه وهو إعصار ، فإن هى إلا لحظة حتى رأته قد نفذ إلى الزبير فى مستقره فخازه برمحه المسدد ، وسد عنه كل منفذ فلا عاصم ولا نجاة . .

عندئذ أحست الوجيب ، وعانت الغصة ، وعالجت برهة ، دمعتها الحيرى بين محجر العين وسياج الأهداب .. . لاح الزبير شارد النظرة ، مضيعا ، على قسماته مشى اضطرابه كمشى البغتة فى ملامح فريسة احتوتها الشراك ... ولاح ابن ياسر فى غبرة لونه ، وبما اكتساه من فراء ، كثعلب ، ثوبه الإهاب ورمحه المخلب ! ..

فلأمر ما أعاد الوحش الظافر ظفره إلى إهابه وعف عن الفريسة المخذولة بنابه ... فى اللحظة التى حسبت العيون الرقيبة أن ستشهد الدم يخضب من حربته خلفته الضراوة ، ولم يكن ثمة ما يحمله على رد رمحه عن غرمه فى هذه الآونة التى يملك الحماس فيها النفوس وتأخذ المحارب صرعة الوغى حتى تشغله عن كل حواسه .. ومع ذلك فقد نكس الشيخ أداته الظامئة للدم . عاطفة غامرة شملت كيانه فامتلأ لها قلبه رقة على عدوه المغلوب نقضت للمألوف من الوحشية فى شريعة الحروب ... هتف به الزبير فى هوادة كأنها ضراعة :

« أتقتلني يا أبا اليقظان ؟ . . »

فسرعان ما انتفض عمار للنبرات المبتهلة الحزينة ، فذاب عنفه ، وفاضت بقلبه الرحمة ... إن يكن ظفره بهذا الغريم نصرا فإن المروءة عنده فوق النصر ..

وقال مجيباً وهو يدلي رمحه إلى جانبه ، في لفظ هزته عبرة غلبت عينه المغضية من استحياء :

« لا ... يا أبا عبد الله ... » .

وكان هذا آخر عهد الزبير بالقتال . ركب فرسه ثم خلا منه الميدان كما خلا بعده من رفيقه ، وراح مصير كليهما في غمار المجهول

وتلفتت عائشة حولها من جزع وحيرة ... أهكذا تهن عزائم الرجال ؟ وهل من مهرب يا ترى من قضاء ؟ وأين ذهبت المروءات ؟ ... ما رأت جندها إلا رجلا مال عنها إلى يمين أو انحاز مسرعا إلى يسار ثم لا يجمع بينهما غير درب البصرة : مسلك الفرار . فكأنهم جميعا قد عميت أبصارهم عن الهودج القائم بينهم كالقلعة . شغلتهم عن المحنة المحيقة التي خلت البدن وأكلت الروع . ولكن المحن أحيانا تلهم ، وهذه زودت السيدة بما أجل هونا نكبة الهزيمة وأرجأ داهمتها حتى حين ... !

صرخت فيمن كانوا يعدون من حولها متلمسين النجاة . فإذا الخزي يوقف الأقدام الفارة ، ويشلها أن تمعن في الهرب تاركة خلفها حبيبة الرسول للمصير المخوف ... آبت القلوب ، وقرت النفوس المذهوبة ، وعاودت الناس حمية بعثتها فيهم المروءة فإذا صرخة الحرب تنطلق ثانية من أفواههم ، مدوية الجرس في نبراتها ابتهال مع الدعوة إلى القتال ...

وهتفت عائشة — وقد رأت الزمر المذعورة فاءت كرة أخرى إلى الثبات ، ملتفة بالهودج كأنها سياج — تدعو قائدي جناحي الجيش ، ابن عتاب وابن هشام ، أن قفا أمام السيل ...

وكان — أول من لباها مضر ، راحت تنضح عن الجمل ما وسعها الدفاع ، فقد مضت النبل ترشقه من كل مكان حتى غدا الهودج عليه كالقنفذ ، ثم تبعتهم

بقية المناصرين. ورويدا رويدا تكون القلب ، فما تكتلت فيه الجموع حتى انفصل بعضها يؤلف الميمنة والميسرة للجيش الوليد الذى تمخضت عنه المحنة ، وعاد القتال كبدئه مسعر الأوار ...

وكذلك أمهل فى عمر الوقعة . وإنك لتشهد الحماس يشيع فى الناس فتعجب كيف أوتيت صرخة امرأة قوة تستطيع أن تحيي موات الأنفس وتملأ القلوب رجاء وثورة . وما أسرع ما عادت صيحة الحرب على شفاههم إلى الحياة ، يزأرون بها ثانية كمثل صراخ القساورة فى بطن الغاب . . دوت من جديد « يالثارات عثمان » . فيها ضغينة الموتور وثورة الغاضب ، تتنقل بين الأفواه ثم تتجمع مع الأنفاس اللاهثة فى جو الساحة كأنها ملاءة كثيفة تحجب عن الآذان كل ما عداها من الهرج والضجيج ..

واندفعت عائشة فى حميتها المهتاجة فأخذت بكفها قبضة من حصى الأرض استقبلت بها رجال الأمام المتدفقين على حماتها تدفق السيل، فحصبتهم بها وهى تصيح: « شاهت الوجوه ! ... »

ولكنها لم تجد شيئا من قوة الهجوم وإن لهجت بدعوتها تلك مرات . بل بلغ التدفق على هودجها أشده . وتلاحمت حوله الرماح ، ثم تلاصقت الأبدان حتى غدت الحراب فى أكف أهلها مشلولة ، عز عليها الحراك . فلعل وقعة قبل هذا اليوم لم تكن قط كالجمل من فرط اشتباك الأسنة حتى لتستطيع أن تسير فوقها مواكب حاشدة من المطى والخيول ! ...

وندت من رجال الأمام صيحة لحربهم جديدة . مضى الآن عهدهم بالترفق وإثارة الذكريات فى النفوس المدخولة عسى أن تفىء بها الذكرى إلى طهرها القديم ... كانوا فى بدء المعركة يهتفون : « يا محمد » كأنهم يشهدون الرسول على أمر إخوة لهم فى الدين آثروا الانقسام بعد الوئام ، ولكن الاسم الطاهر لم ينق الأنفس ولم يغير القلوب . ومضى أصحاب الفرقة وشأنهم ، بعيداً فى مشاقتهم ، وإن ساروا شوطهم على أرض رشوها بالدم . ولم يعد من دواء لهم فى الوطاب إلا العنف يشفى ما ملأ عروقهم من العنت والضغينة ...

هتفوا الآن صائحين :

« يا منصور أمت ! ... »

وانطلقوا على أثرها يتحون الموت فرائس جديدة ! ...

وهتف بهم على وقد شهد التحامهم بالخصوم :

« السيوف يا أبناء المهاجرين ! . . »

فخلوا النبل والحربة وهزوا الحسام وهل غيره سلاح يستطيع الآن صيالا وقد التصق الغريم بالغريم ؟ . . إن السيف كان وحده أداة القتال فى هذه الآونة ، يصول ولا يكاد . ويهتز ثم لا ينال غير الأطراف ، من قدم أو ساق ، حتى لم ير قط معركة أكثر يداً مقطوعة أو رجلا بتراء . . .

ومع ذلك فقد نزع النصر وطال الصبر والناس على ما كانوا فيه من شدة التحام . كلما رميت بالعين فيهم أعياك أن ترى بينهم ثغرة تمر منها النظرة ! . . بل غدوا سوراً ضخماً ، وطيد القوام حول « عسكر » كأنه بناء وثيق الجدر ، لبناته وأحجاره من أجسام ! . .

وظلت الرحى دائرة ، قطبها الجمل ، لا تكف لحظة عن الدوران ، ولا تنى تطحن العظم وتعصر الدم ، ما وقع بين شقيها فريق من أولئك أو غيره من هؤلاء فكلا الفريقين وليمة شهية ، تستطيبها الوغى المنهومة ! .

٨

لم يفتر القتال حتى أوشك النهار يزول . وكان الجمل العلم بين أصحابه ، التفت به الكتائب المدافعة . بل غدا لهم مثل الحجر الأسود داخل البيت العتيق ، له قداسة جمعت القلوب والخواطر ، وهفت نفوس كثيرة مفتونة ، أطافوا به إطافة الحجيج بالحرم ، واستشعروا نحوه بما يحسه الوثنى لصنمه . . وهذه الأزد لا تنضح عنه فحسب بالروح إنما قنتت له ، وراح منها رجال يفتون بعره ويرفعونه إلى آنافهم يشمونه فى نشوة من التقديس الضال وهم يلهجون :

« بعر جمل أمنا ، ريحه ريح المسك ! . . »

وكانت عائشة قد راودتها الآمال . كلما ألقت البصر أحست الأمن يقاربها شيئاً شيئاً ، والنصر يلوح لها ببارقاته . فما دام جيشها عرف الثبات من بعد فراره ، فثمة فى رحاب المنى بقية . . لقد غدا الدفاع عنها شرفاً تسابقت عليه القبائل ، واستهانت بالردى فى سبيله . بل كانت تستقبله بالرضا والابتسام ، مشرقة الوجوه كما استقبل المياه ظمآن .

لم ينكل رجل قط إذ ذاك عن موقفه ، ولا أخذته على حياته خشية . فما غدت الحياة عندهم غاية كما كانت ساعة الفرار . دماؤهم الآن فدية رخيصة للجمل الدارع ، وللهودج الحصين ، وللسيدة التى رفعت لهم عصا القيادة . وإنها لترى ما غمر قومها من حمية فتزيدهم بحديثها حماساً على حماس ، وتنطلق الكلمات من ثغرها الذى شده العزم وحله صلابة ، تهيب بهم ، وتدمرهم إلى المقاومة كأنها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة فيندفعون فى طرائق الموت سراعاً يبتغون الخلود . . .

التفتت يسرة ، وسألت حماتها هناك :

« من القوم ؟ . . . ؟ »

قال صبرة بن شيمان :

« بنوك الأزد يا أم المؤمنين » .

فردت تبث فيهم النخوة وتثير من أمجاد الماضى بأنفسهم مايشترون بمثله الموت سلعة ثمينة :

« يال غسان حافظوا اليوم على جلادكم الذى كنا نسمع به . . .

وجالد من غسان أهل حفاظها وهنب وأوس جالدت وشبيب »

ونظرت يمنة وسألت :

« من القوم ؟ »

« بكر بن وائل »

فهتفت فيهم .

« لكم يقول الشاعر :

وجاءوا إلينا فى الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل » .

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلا استبسل وثبت ثباتا لا يتزحزح عنه أو يهلك ، ثم يتلوه آخر من قومه مكانه ، كأنهم جميعاً شلال ماء ليس يبطل اندفاقه . . . وما سمعها امرؤ من قوم أخر إلا سقط على أجله يتصيده لعلها مزجية حديثا إليه يرفع فى السير شأنه شأوا عالياً وشأن أهله . كان سباقا إلى الموت لم تخل حلبته ، تدافع فيه الناس غيرا كأفراس سبق كريمة . .

عسكر كان محور الحومة . على خطامه تساقط الأبطال من أعوانه كأنهم فراشات جذبتها وضاءة اللهيب . ولكنهم ظلوا جهدهم يجالدون الهجوم الذى لم يفتر ولم تنحسر عنهم أمواجه . وما كانوا قط فريسة سهلة لجند الكوفة المهاجمين بل جاوزوهم دراكا الهام بالهام والحسام بالحسام ، كلما استقبلوا منهم فئة خروا وإياها عند قوائم الجمل صرعى كأنما كانوا جميعاً على موعد والحتوف قرب أخفافه !.

فلعل الأرواح لم تعرض قط سلعة رخيصة كعرضها بهذه السوق !. . وكان اليوم قد صار أصيلا يصبغ الثرى بسيله ، حتى احمرت الأرض فلا يدرى أمن لون الشفق سكبته الشمس المائلة عند جانب السماء أم الأفق غدا صقال مرآة انعكست عليها حمرة الجروح . أما الأنفس فحالات غيرها منذ قليل ، إذا اقتحمت بخيالك الجسوم المكدودة إلى القلوب فيها سمعت خفقها الدائب يردد أكرم الأحاسيس . الآن شغلها النبل عن الذات . خلفتها الأثرة البغيضة وملأها الإيثار . أصحاب عائشة أبدلتهم المروءة غيرهم رجالا تثور فى عروقهم دماء النخوة أن رأوا أمامهم أنثى توشك أن تكون مرشقا للسهام ، وأعوان على زادتهم المقاومة صلابة فعادوا عزائم مشدودة كوتر القوس عند التصويب ، لا هدف لهم إلا أن يتبعوا التضحية بأخرى تشغل وعيهم عن نداء الحياة . .

وكانوا آية فى إنكار الذات والفناء فى شخص قائدهم العظيم . كانوا سفرا حافلا من الإيمان بحقه تقلب صفحة فتطالع بعدها صفحات أجل من سابقاتها وأزهر ، فاقت الإحصاء وجاوزت الحصر حتى هان بها المجد ورخص الفخر ! . .

من البدء كانوا أحرف الوفاء ! . . الهول الذى خاضوا غمراته لم يباعد قط ما بينهم وبين إخلاصهم للإمام ولا بمثل خط اليراع . . ! ولا شابت الوغى

المحتدمة حبهم إياه بشائبة من ريبة وإن عم الكرب أو فدح الخطب . ولكم همت الحرب أن تدع بيوتاً لهم خواء إلا من أنة أرمل ثكلى ودمعة صغير يتيم ومع ذلك فلم تستطع الانتقاص من رجولة الرجال ، إنما مضوا أشواطهم جميعاً — من شباب وشيب — على أرض الساحة يستبقون متنافسين إلى موت أعز عندهم من الحياة . .

استبق الجند يعصفون بمن حيالهم من حماة عسكر ، لا يردهم غير الهلاك وإن تشابكت حوله الأسنة ، وإن نافح عنه أقوام أشداء أجلاد بالعدد أو بالعتاد . ولقد وقفت مضر كالطود عزيزة النفر تنثر الموت لمن حدثته نفسه بالتقدم فلم تغن عنها عزتها ، بل انبرت لها طائفة قليلة فيها بنو صوحان يسدد خطاهم ولاؤهم للإمام ، ليس منهم رجل تمسكه خشية أو يرده وعيد . وحين سمع زيد من بين الناس صوتا محذراً يقول له :

« تنح إلى قومك يا ابن صوحان . مالك ولهذا الموقف ؟ . . ألست تعلم أن مضر بحيالك ، وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ . . » .

ابتسم على الأثر وقال :

« الموت خير من الحياة . الموت أريد ! . . » .

فكانت له على الفور طلبته . وسار سبيله إلى حتفه يتبعه أخوه سيحان ، ثم يوشك أخوهما صعصعة أن يرد نفس المورد لولا بقية من أجل حرمته أمنيته ...

وكذلك مضى المقاتلة من جند الكوفة يعصفون بأهليهم ورجال قبائلهم البصريين ، ويقصفون قصفا شديدا كل من وقف أمامهم بعقام صيال . وبقدر ما بلغت حمية أزد عائشة الذين قدسوا الجمل بلغ حماس الوغى بأزد على ذراه ؛ فتساقطوا على عسكر عسى أن ينالوه ، لا يعنيهم أن يقعوا تباعا صرعى بل يهمهم ويعلك بالهم أن تميل رايتهم . . . انبرى بها في البدء مخنف بن سليم يشق قلب الجموع فصاده حينه ، فتناولها منه الصقعب فقتل ، فالتقطها أخو مخنف عبد الله . وظلت هكذا رافعة خفاقة ، كلما أوشكت أن تفلتها كف قائد صريع بادر آخر من بيته يرفعها ليخلف سلفه على مزالق الحمام ! ...

بمثل هذا تتابعت فرائس الموت ذلك النهار . وبأبلغ منه نالت الحتوف نيلها من بكر وعلها إذ ذاك فى أيدى الذهليين . . فلعل قادتهم أمعنوا إلى أبعد الأشواط فى التضحية والفداء ، واسترخاص الحياة ، لأننا نسمع أبا العرفاء الرقاشى يقول للحارث بن حسان الذهلى ، حامل الراية ، وهو مشفق عليه :

« أبق على نفسك وقومك يا ابن حسان . . . » .

فلا يأبه لتحذيره ونصحه ، ولا يلق نظرة نحوه أولى بهـا موقع القتال ، بل يهز علمه ويصيح بقومه بصوته الجهير :

« يا معشر بكر بن وائل . إنه لم يكن أحد له من رسول الله مثل منزلة صاحبكم فانصروه . . . » .

ويندفع راضيا نحو حتفه ، ويسير على أثره ابن له ، ثم خمسة إخوة يسلـكون نفس المصير . . .

وتشيع المقتلة توا فى الذهليين فيسقط منهم خمسة وثلاثون تباعا فى فترة من الزمن قصيرة كلمحة الطرف . إنهم تهاووا كما تهاوت السنابل على منجل الحصاد . ولـكنهم لا ينثنون قط ولا ينكلون . وتمضى بقيتهم شوطها فى الحومة يتسامرون كأن فى ندوة . . يقول رجل منهم لأخيه وسيفه يقد الأعناق :

« يا أخى ، ما أحسن قتالنا إن كنا على حق »

فيعاجله الآخر وقد خشى أن يكون إيمان صاحبه مسته ريبة :

« فإنا والله على الحق . إن الناس أخذوا يمينا وشمالا وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا . . . » .

سفر حافل بآيات الإيمان بالهدف الذى قاموا يناضلون عنه ، ملأته صور من الوفاء والبطولة تجل عن الحصر ايهون معها المجد ويرخص الفخر ا .

٩

شاعت المقتلة فى أصحاب على شيوعاً عز مثله فى الوقائع والمعركة تسير سيرها إلى النهاية . وكان الموت إذ ذاك نقاداً يتخير الخاصة من القواد قبل الأجناد ، فهم على كتائبهم ، يشقون بها أمواج العدو كما يشق النيزك كسفة الظلمة . وما منهم إلا رجل قد وعى وصية إمامه التى أدلى بها إلى ابنه محمد حين دفع إليه براية الجيش وقال يبصره ويحضه على الثبات عند اقتحام الغمرات :

« تزول الجبال ولا تزل ! . . عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تدفى الأرض قدمك . ارم ببصرك أقصى القوم ، وغض بصرك . واعلم أن النصر من عند الله سبحانه . . . »

ما من رجل فيهم إلا اعتنق هذه الوصاة شرعة أعز على التبديل والتأول فكلهم للإمام ولد يأسره البر وتملكه الطاعة . وليس منهم إلا راغب فى مصير يشارك به رافع اللواء وإن فدحتهم المصاير ، فحظهم جميعاً سواء . وعندما أمر على ابنه أن « أقدم بهذه الراية حتى تركزها فى عين الجمل » لم يكن يدفع به لغير فكى الموت ، ولم يكن أيضا قد تجرد من شفقة عليه بل كانت نفسه تسيل رقة وخشية على فتاه أن يتخطفه أجله . ولكنه كان يرنو لغاية أعز من عاطفته يرخص فى سبيلها الفداء بالمال والولد والروح .

على أنه كان يحتجز ولديه الآخرين عن اقتحام المهالك ، فذانكم سبطا رسول الله لو ذهبا لانقطع نسله العاطر وعطلت دوحته الزهراء من ثمارها الطيبة . . فكأنه استهدى سنة محمد فى أخريات أيامه عندما احتجز علياً عن القتال بعد مصرع أخيه جعفر حرصاً عليه أن تنقطع ذريته الطاهرة بموته . وهل بقى الآن لرسول الله غير سبطيه أحد ينقل نسله إلى الأجيال ؟ . .

قيل ذات يوم لمحمد بن على :

« لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟ . . »

فقال الفتى الذى عرف لأخويه قدراً عند ربه وعند الناس يغبطهما ولا يحسدهما عليه :

« إنهما عيناه وأنا يمينه ، فهو يدفع بيمينه عن عينيه . . . »

وكذلك كان يركب المهالك ويخوض غمرات الموت راضى القلب رخى البال يقوده الولاء والإيثار ، وتدفعه شجاعة تدفقت فى أوصاله من صلب أبيه . وعندما انبرى للجمل ليركز فى عينه الراية لم يقعده الهول عن التقدم ، ولم تؤخره الوقدة الحامية التى شبها رجال عائشة حول حصنهم الحى حتى غدت الأرض دونه قطعة من الجحيم . . . فكأنه إذ ذاك أعدى جنده بهذه البسالة التى تغلغلت فى كيانه فاندفعوا إلى الغمار مثل اندفاعه لا ينكصون كأنما قد مات الموت ! . . وأخذت الرحى الدائرة تطحن منهم القادة ، كابراً بعد كابر حتى قتل على علم على من اليمن وحدها عشرة ، وعلى راية ميسرته طائفة موفورة ممن تألفت منهم كتائبها المختلفة الأصول والبطون . ولو نزع المرء إلى الحصر لأعياه أن يلم بالمصارع . ولكنها كانت منجلا حصاده الرءوس من كلا طائفتى المقتتلين ، يسبق قادتهم إلى الحتوف تتبعهم من الجند ألوف تلى الأوف ! . . .

ونظر على وما زالت المعركة أمامه مصطفقة ، بين مد وجزر كأمواج اللجة فى مهب العواصف . . هذا سراج البصرة يضطرب ويتذاءب ، يلعب بذبالته تداول الصراع ، وها هى خفقاته تلتمع آنا وهاجة وآنا آخر خابية الضوء كأنها أشرفت على الخمود . ولكنها لا تكف عن بعث سناها ينير لأصحابها طريق الجلاد المرور . وما دامت البهيمة الدارعة باقية بينهم على قوائمها فلانجاء إذن لهم ولا لخصمهم سواء بسواء ، ولا حياة لامرئ أو بقاء .

الإمام علم هذا قبل أن تشيع المقتلة فى الناس كل هذا الشيوع . وحال من البدء أن يكف غائلة الهلكة فهتف بأصحابه :

« من رجل يحمل على الجمل ؟ . . . » .

فانتدب له هند بن عمرو المرادى ، ولكنه لقى مصرعه بسيف فارس كان يحمى البهيمة ، ويمسك بخطامها معتزاً كما أمسك فى يديه بوثن معبود ! . . ولقى أيضا مصارعهم حفنة آخرون من خيرة العلويين ، منهم زيد وأخوه شيحان ، وعلباء بن الهيثم ، كلهم اخترمه سيف الفارس ، ونفذ إلى صميمه برجفة الموت . . .

عندئذ دعا الإمام إليه الأشتر ، وعمار بن ياسر ، فوجههما نفس الوجهة وهو يقول :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخمد ضرامها ما دام حيا . . . إنهم قد اتخذوه قبلة . . . »

فانطلق الرجلان فى فتية من مراد . واستبق عمار سبيله فى ثوبه الفرو وقد شد خصره بحبل من ليف . . إنه ليسرع الخطا ما أمكنته التسعون التى قضاها بهذه الدنيا عازفا عن وجهها مستدبرا أطايبها وأمانيها المغرورة . حتى إذا شق له سيفه طريقا بين عدوه قطعه على الأشلاء والجماجم ، انبرى له نفس الفارس الرهيب الجناب ، يهم أن يستقبله ، كما استقبل الذين قبله ، بالحمام النهم على شفرة حسامه . . .

ذلك كان ابن يثربى ، سلف كعب بن سور على قضاء البصرة ، قد نشط وتينه ونفر عرنينه ! . . الشجاعة كانت لحنا يترنم به خفق قلبه ، والخيلاء جاءت صدى لنصره على تلك البضعة من أخصامه الذين راموا الجمل فدهتهم الردى من دونه . . . فلعله حين رأى الشيخ يدب نحوه حسبها خطوة لعمار نحو القبر فابتسم رثاء أو استهانة . وهل لفان كابن ياسر طاقة بعجندل المغاوير ؟ . . .

ولكن عمارا كان أبصر منه بالمغامز ، أعرف بالنفوس من أين ينفذ إليها العطب نفوذ الديدان فى الحمأة الرخوة . كان الشيخ واسع الحيلة كثعلب ، عرف من غريمه افتتانا بالفخر فنفذ إليه من خلال خيلائه . فما أن سمعه يرد مزهوا شعرا غنا يشيد بانتصاره على ضحاياه حتى هتف به عمار :

« إن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة ، فلقد لعمرى لذت بحريز وما إليك سبيل . . . »

فكبر على ابن يثربى تحدى الشيخ المعروق ، وخشى إن هو لم يسرع فيلحقه بمن أصاب أن يتسكث عليه فخره . . فليردينه إذن ثم يعود إلى خطام الجمل يمسك به ، وإلى الهودج ومن فيه يحميه . . .

واندفع غاضبا نحو عمار ، وهز سيفه سريعا ثم انقض به انقضاض صاعقة . ولكن الشيخ الواهن الضعيف كان أسرع منه حركة وأكثر يقظة . قبل أن تنتبه العيون الرقيبة سبقت درقته اللحظ كما سبقت السيف الهاوى فتلقت الضربة .. وفرت من ابن يثربى فرصة للمباهاة ! . .

فما أسرع ما انتقلت البسمة من فم الفارس الساخر إلى شفتى ابن ياسر ! . . وما أضل عين الكبرياء الجريحة ! . . فى سورة من غضبه اندفع ابن يثربى يعالج السيف المنتشب بدرقة غريمه فكان كمن شاء اقتلاع دوحة بعيدة الجذور فى أغوار الأرض . عصاه السيف وتخبطه الاضطراب الذى أوقعه فيه حرج موقفه أيما تخبط . فقد غدا الآن أعزل لا يملك شيئا لنفسه ، حياته ملهاة فى يد العدو الهزيل . . .

وشهد الناس إذ ذاك مجندل المغاوير مسلوب الحول ، ذلك الذى شق خندقا من الموت حول عسكر هم أن يحتويه خندقه ، وأضحى الرثاء كله الذى أحسته الجموع نحو الشيخ الواهن منذ قليل يحوط البطل الصنديد . ولم يمهله حينه ، ولا ترفقت به النازلة التى أعدتها خيلاؤه لخصمه المجترىء عليه ، بل جاءته سراعا فى برقة من حسام عمار لمعت ثم هوت فأطاحت عنه ساقيه . وتركته لقى على الثرى قد انهار دفعة واحدة كما انقض بنيان . . .

فكم من صريع إذ ذاك رقد عند قوائم البهيمة ؟ وكم علما انتكس ونجما هوى من الأعلام والنجوم ! . . طائفة جمة من الوجوه والأكابر . وزمرة بالغة لقيت الحتوف وافرة وما فيهم إلا أماجد وفحول ، حتى لقد ثكلت قريش من أعيانها على خطامه سبعين . . إن عائشة لتنظر فلا تبصر ، فالدفع حجب عنها مضاجع الفواجع والأسى السابح فى جو آمالها سحابة من قتام اليأس وسواده ، ردتها توا من نعمة الحلم إلى نقمة الواقع . . .

وأخذ الزيت فى السراج ينضب . وبدأت الذبالة تجف وتخفق خفقتها الباقية المؤذنة بالانطفاء . . أين من الحومة الآن بنو ناجية ، أولئك الذين كانت تذمرهم السيدة فتقول : « سيوف أبطحية وسيوف قرشية ! » ؟ . وأين الأزد التى فتت البعر

تشمه فى نشوة غامرة من الولاء والتقديس الضال ؟.. وأين بكر الدارعة فى الزرد والحديد ذات العزة القعساء ؟ . . تخطفتهم جميعاً المصارع ، وخلت منهم ساحة القتال إلا أشلاء منثورة على أديمها تؤلف أدسم وليمة للنسور والعقبان ! . .

ومع ذلك فلم يبرح الرجاء قلب عائشة بعد نزول كل هذا البلاء . وما زال النصر يخطف بخيالها خطف البرق فى ليلة قر كثيفة الغيوم . فثمة بحيالها بنو ضبة ، الذين دعتهم « جمرة الجمرات » تحملهم أقدامهم وترتفع هامهم ، وإنهم ليدفعون عنها كدفع الليوث ، وينطلقون فى جلادهم خفافا كأنما راموا هزيمة الموت ! . .

ولكن السور الذى بناه أولئك الأبطال من جسومهم حول الهودج راح يرق مع اللحظات ، كلما حميت الحرب وزاد الكرب . . أخذت تنثغر فى كيانه المتين ثغرة هنا وثغرة هناك ، الموت أعتى عليهم عدواً من أن يستطيعوا جلاده ! . وبدأت أيضا ترق معه غلالة الأمل التى كانت تغشى خيال عائشة وتمسك قلبها الشجاع أن يذوق وخزة الهزيمة .

عندئذ همست ، وصوتها الخفيض الراعش تحبسه أن يجاوز سمعها ، وقد سرح همها على خديها فى دمعة :

« ما زلت أرجو النصر حتى خفتت أصوات بنى ضبة ... »

وردت نفسها عن اليأس الطاغى ، جاهدة ، إلى حفنة منهم بقيت فى الحياة . نعم ما كان من بلاء قومهم من أجلها ، ومن وفائهم لها وفاء لم يأكله الموت وإن أكل كثرتهم ! . . إن قلبها المثقل بالأسى لا يستطيع أن يكن حزنا عليهم يكافىء ما أبدوه من شجاعة . وإن عينها لتطيف بمواقع أقدامهم فتراها خواء لولا شرذمة أخرى من الجند ملأتها وخالطت بقيتهم ، تهم جهدها أن تتلوم فى مسارى الخلود ...

وقالت عائشة تسأل عن الحماة الجدد :

« من أنتم ؟ »

« بنو عدى ، خالطنا إخواننا من ضبة ... »

فزفرت من حسرة تقول :

« مازال رأس الجمل معتدلا حتى قتلت بنوضبة حولى . . . »

فكأنما لسعتهم من كلامها بنار ، سرت دماؤهم فى عروقهم شواظا فوقعوا تباعا على الموت يحاولون رد موكبه وسد السبيل دونه عن الهودج ومن فيه ، حتى أقاموا كرة أخرى رأس الجمل رافعة شماء . . .

ولكنها كانت الخفقة الباقية للسراج يلفظها ثم لا ينير . . .

وكما يسطع ضوء الذبالة أزهر وهاجا فى خفقته الأخيرة ، فكذلك أبدى رجال عائشة من ضروب الشجاعة والجرأة فى الدفاع عنها مالم يبده أحد منهم قط من قبل ، وما يعز مثله على طاقة البسالة .

١٠

هاض جيش عائشة .

لم يعد جيشاً بعد . لا ساقة ولا جناح . غدا كله قلبا ، بل شرذمة من القوم عند الجمل ، تنضح وسعها عنه فى اضطراب وزحام . يتنافس أفرادها فى مسك خطامه ، وفى رفع رأسه عاليا كما يرفع القائد اللواء . كلما سقط حام مجندلا تحت قوائمه زحف آخر ليمسك بعده الراية العجيبة ، ليتبعه إلى نفس مصيره . . .

ولم يعد لهم أيضاً قائد يوجه قواهم ويسدد خطاهم . كلهم غدا ذلك القائد ، يعمل عفو خاطره وحسبما تملى عليه حركة الصراع العنيف المشبوب . . . حتى ابن عتاب رضى مختاراً أن يترك عصا القيادة وآثر عليها الخطام ، بل آثر وهو مكره فلا مجال أمامه للاختيار وإنه ليظل حامل هذا اللواء حتى تأتيه ضربة سيف تفصل عنه يمينه ، ثم ترسله على أثرها حطاما بين الأشلاء . . .

وأضحت السيدة الآن لا تذمر الكتائب ، ولا تثير فى الناس حماس الحرب بالتحدث عن أمجاد قبيلهم وأهليهم ، فقد تفككت وحدتهم ، وباتوا فرادى بعد تكتل واجتماع . وراحت عينها تستهدف الزمام وحده ، كلما أمسكته يد سألت عن صاحبها ثم أثابته عن بلائه بلفظ مثير . . .

وسألت عن ممسك الخطام فقيل :

« محمد بن طلحة » .

فدعت له . واستلهمها الفتى ما تريد :

« مريني بأمرك يا أماه . . . » .

فقالت وقد أخذها الريب فى بقائه حيا إلى كثير :

« يا بنى . آمرك — إن تركت — أن تكون كخير بنى آدم . . . »

وكان هذا آخر ما سمعه فى الوقعة كلاما واضحا بغير إبهام . وكان آخر قوله أن صاح وهو يحمل على السيول الدافقة من جند عدوه :

« حم . . . لا ينصرون »

ثم إحتواه الرغام . . .

ثم أقبل امرؤ طوال نحيل ، أجرد الوجه لا يحف وجنتيه شعر ، أطلس اللون مثل ذئب الصحراء . فعندما أمسك زمام البهيمة لم يعلن نفسه كما كان يعلن سواه ، بل ختم على شفتيه بالصمت . . . قد كان يؤثر أن يجنب السيدة مغبة الإعلان . . .

ولكنها سألته . ثمة رجفة من القلق زحفت إلى صدرها ، لها مثل ملمس الرقطاء ، جعلتها تسأله فى اضطراب :

« من أنت ؟ . . »

« ابن أختك . . أنا عبد الله » .

فصاحت جزعة من خشية عليه :

« واثكل أسماء ! . . »

غير أنه لم يزايل مكانه ، ولم يتخذ لنفسه ملاذا بعيداً عن الموقف الذى كان شدقا للموت يزدرد كل من دنا إليه وإن جزعت خالته وودت مخلصة لو جاوزه وتركها وحدها لمصيرها كيفما يكون . . . بل وقف يذود ويصول . . .

فإن هى إلا لحظة حتى جاء الأشتر وقارب الوجار ؟ . . . إنه ليمشى إلى مربض الذئب الأطلس ، يروم صيداً يقصف به الجمل ، ويخضع صاحبته ، ويثكل أسماء !.

ولحه من أعوان السيدة عبد الله بن حكيم بن حزام ، فأسرع يحول بينه وبين مبتغاه . لم يغب عنه قدر الأشتر ، ولا شك لحظة فى أنه جاءهم برسالة الهلاك . . . ولـكن ضربة واحدة قضت على المعترض وفتحت الطريق . . .

ووقف الغريمان وجها لوجه تلتمع فى حدقهم نظرة الضراوة . فما تقابلت عيونهما حتى تقابل سيفاهما ، وما اختلفا ضربات إلا كان لجسم عبد الله بن الزبير منها أوفى نصيب ، كلما رمى غريمه بطعنة أصابته مقابلها بضع طعنات . . .

أما السيدة فى هودجها فلعلها ذاقت الممات مرة بكل ضربة أسالت من ابن الزبير ولو قطرة واحدة من الدماء ... فخصمه شديد عنيد ، بدا كأن قد آلى على نفسه ألا يدع ربيبها إلا جدثا هامداً فارقته الحياة . . .

وصاحت كرة أخرى من قلبها الـكسير :

« واثكل أسماء ! . . . »

وكان الأشتر حينذاك قد فل من حد مصاوله ، وأحاله كتلة صامتة من اللحم لا تنطق فيها إلا ألسن الجروح . . ومع ذلك فقد ترفق به وسمه ، ورد سيفه أن يجهز عليه . كم لقى المنتصر من هذا الـكبح الذى حرمه لذة الظفر كاملا غير منقوص ! . . . إن بقلبه هاتفا رحيما يمسك عليه عنفه — ذكرى من الماضى الغابر يوم كانت النفوس كلها تدين بالألفة وقد صفت من شوائب الضغائن . . .

ولم يجد الرجل متنفساً لضيقه الذى أحسه غب الـكتمان إلا أن يأخذ برجل خصمه المهيض فيقذف به فى الخندق كقذفك الصخرة وهو يقول :

« والله ، لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر ! . . »

وتركه حيث رماه نهبا تقاسمه الموت والحياة . . .

كان على حينذاك قد أبطأ عليه الحسم . فالبعير ما زال قائما ، رافع الرأس كالعلم بين الـكتيبة ، وحماته نسوا الموت وإن لم تنسهم نوازله ... كلما مضت إليهم فئة من أخصامهم حكموا بينهم وبينها السيف حتى شاع القصف وذاع الحتف . وظل كلا الفريقين على عناده لايتزحزح ، ولا يطأطىء رأسه للشدائد ...

أبطأ على الإمام الفصل حتى غدا بينا لديه أن الناس لن ينفضوا أو تسقط عائشة صريعة فى الغبار . وخشى عليها هذه المغبة الحزينة التى ستجلل حتما بالعار جهاده وتسم جلاده . . . ومتى كان يستبيح من الأقران المغاوير إلا الأكفاء دع النساء ! ... وأين له النصرة عند الأجيال لو صرع رجاله امرأة وإن أجلبت عليهم بالخيل والرجل وعدة القتال الرهيبة بعد إجلابها بالحقد والضغينة ؟ . . وكيف يستطيع إذن أن يحتفظ بوفائه لذكرى صفيه رسول الله لو حم الآن فى امرأته القضاء ؟ . .

عندئذ صرخ فى أعوانه ممن هم أدنى إلى البعير منه :

« اعقروا الجمل . فإنه إن عقر تفرقوا . . »

ثم انثنى إلى رجل من ضبة فأمره :

« دونك الجمل يا ابن دلجة ! . »

نخف الرجل لما انتدب له يشق زحمة الخلائق المشتبكة على مواطئ البهيمة وإن شعوره ليدفعه دفعا إلى القيام بهذه المهمة الحبيبة إلى نفسه عسى أن يبقى على ما فضل من بنى ضبة أهله الذين راحوا صرعى إلا قلة . .

غير أن الاشتباك أوشك أن يفسد عليه أمره ، فما يرى فرجة فى الناس ينفذ من خلالها إلى البعير ، ولو نفذ لما أمن أن تهتبله طعنة يضيع على ظبة سيفها أمله كما يضيع دمه ... فلعل القعقاع رأى من حيرته حينذاك علائم علت ملامحه ، فقال له يبسط رأيا يحقق أربه :

« يا بجير ابن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين ... »

فلمعت على الأثر عيناه الآن تدرك الحيلة مالا يدرك البأس

وصاح من مكانه بقومه الضبيين حماة البعير :

« يال ضبة ! ... يا عمر بن دلجة! »

فإذا صوت ابن عمه يأتيه :

« ما تريد يا بجير ؟ . . »

« ادع بى إليك . . »

فدعا به . حتى إذا بلغ مقربة منهم قال يستأمن :

« أنا آمن حتى أرجع ؟ . . »

« نعم . . . »

فما رنت بسمعه الكلمة حتى وثب وثبة شيطان جعلته من الدابة عند قوائمها. وقبل أن ينتبه أحد إلى ما يروم ، كان سيفه قد انسل ، ثم هوى فاجتث ساقها وأهوى بها تهدر من ألمها على الأديم .

حدث هذا ولما يطرف لحظ ، ولما ينقشع عن الجو صدى لفظة الأمان التى ألقاها ابن عمه إليه . ووجم الناس فقد أذهلتهم المفاجأة ، ولكنها وجمة مباركة، شلت حركة الحماة أن يعاودوا القتال . . . لقد ذهب العلم فهاض أمر الكتيبة ، تحطم الصنم الذى قدموا له كل هذه الضحايا والقرابين ! . .

وهتف على فى ذات اللحظة التى سقط فيها البعير :

« أيها الناس ، إنكم آمنون . . . »

فارتدوا إلى وعيهم حيارى ، ولكنهم منحوا الحياة . . . انطوت الآن محنة الحرب ، وبقيت محنة السلام ! . . .

بعد المعركة

١

هدأ النقع وهمدت النار . الجمرة التي تأورت فشبت جحيما عادت سيرتها الأولى سوداء باردة ، قد غلفها رماد الهزيمة ورماد الانتصار . . . وفاءت النفوس بعض فيئها إلى الطمأنينة . والقلوب التي تملكتها من قبل سورة الوغى حتى التمست أمنها في المنايا ، غلبها الآن على مبتغاها الحياة فوجدت أمنها في السلام . . .

وكانت كلمة الأمان قرب السيوف المسنونة . ما إن دوت حروفها في أرجاء الميدان حتى أسلم القتال علمه ، فترجل الفارس ، ووقف الراجل ، ورقدت فورة الحماس في ظلال السكينة ، ثم ألقوا جميعاً زمامهم إلى وجهة مذهلة ، لا يعرفون أيان تفضى بهم إلى مصيرهم الخفى المجهول . . .

ولكنه كان مصيرا لا يغشى الظلام دربه ، بل سطعت في مسراه بارقات الرجاء . إن قلوبهم لخبرتهم بخير وإن امتلأت إلى حوافيها بمرارة الهزيمة ، فذلك عهدهم بابن أبي طالب وما يعرفونه من خلقه الرفيع . إنه الخصم الشديد العنيف حين البأس ولكنه المترفق الشريف حين القدرة إذا ما ضاقت عن عفو غيره من الغالبين جعبة الغفران . وما كانوا في استمساكهم بالرجاء واهمين ، ولا أخطأوا تصور سماحته ، فها هو مناديه يجوب الصفوف رافعا صوته على ملأ من الناس :

« . . . ألا لا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر : ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . . . »

فأعجب بالنصر كيف غير النفوس الظامئة إلى دمائه ودماء ناصريه أخرى تزاحمت على ابتغاء رضوانه ! . . ولكنهم الناس دائما في كل أرض وحين ، بطانة الغالب وخصم المغلوب ، والويل منهم لمن توطأت له المزالق . فإنك لتشهد ولما ينقشع عثير المعركة ، جموعا من أجناد البصرة أتوه صاغرين ، أحنت هامهم الطاعة ، يبسطون بالبيعة الأكف بعد بسطها بالسيف ! . . بل قد كان منهم فوج سارعوا إلى استرضائه والقتال مرفوعة بنوده ، بل لعلهم زمر إذ ذاك وأفواج ،

كتلك الطائفة من الأزد التى راحت تبث فى طريقه الحتوف ، فلما طحنتها المنايا سارعت تلوذ بالولاء له ... هتف أحدها حينذاك يهيجها وقد أخذته حمية الصراع :

« كروا . . كروا . . »

فاتبعوه ، ينزلون على عدوهم نزول الصواعق . فلولا أن لقيتهم من أصحاب على فئة عرست بالشدائد . لقصفوها . ولكنهم قابلوا أطواداً رواسخ ليست تميد ، يقودها حيالهم محمد بن على فيزلزل فى قلوبهم ثقتهم كما زلزل تحتهم الأرض .

عندئذ صاح من بينهم من كان يؤثر الحياة :

« يا معشر الأزد . . فروا ! . . »

فما أغنى عنهم الفر بعد الكر ، ولا جنبهم المصارع . إنما آبت بهم الضربات القاصمة التي اعتورتهم إلى اللياذ بالمعتصم الأوحد الذى يرد عنهم الغوائل ، فإذا بهم يصرخون ضارعين :

« نحن على دين على بن أبى طالب ! . . »

وكذلك آب مثل أوبتهم ، غب الموقعة ، سواد جند البهيمة ، وفاءوا يبتغون رضوان الغالب . وإنهم ليزدحمون على التحير إلى عسكر الإمام وإلقاء السلاح ازدحاما أشاع فيهم جلبة دونها جلبة المعركة المحتدمة ، فحب البقاء عادهم ثانية . ثم استبقوا يريدون الإدلاء بالبيعة إلى الرجل الذى حاربوه أشهراً بالسيف والضغينة ، إلى قلة منهم تفرقت فى مشارف البصرة تعتصم بالفرار . . .

ولم يكن على ليأبه إذ ذاك بالأكف الممدودة . ثمة ما هو أولى الآن باهتمامه وأحرى بأن يلقى باله إليه قبل غيره من الأمور . ثمة عسكر والهودج وساكنه أم المؤمنين ، لئن أغضى عنها جميعها حتى حين فقد يمن حدث يخلط عليه العواقب . إنه لا يأمن أن تهتبل بضعة من الغوغاء فى جنوده فرصة الاضطراب السائد فتنال السيدة بشر يعيذها منه ، فما زالت النفوس فى أغلبها تجيش بالرغبة فى الثأر منها إذ هى عند أعوانه أصل الكرب ونافخة الحرب . . وهو أيضاً لا يأمن أن تفتتن بضعة كبيرة من جند البصرة بتلك البهيمة المضلة ، كتلك الأزد التي قدستها ، لو خلى بينها وبين الحياة ولو خفقة نفس أو تردد زفير ، فما زالت فى أولئك نفوس

ضعيفة ، تغلبها سذاجتها كما تغلبها جهالتها على تلويث عقيدة الفطرة التى لا تستجيب لزخارف الأباطيل . . لذلك ما كادت الموقعة تؤذنه بالنهاية بعد عقر الجمال ، حتى دعا على إليه محمد بن أبى بكر ، فوجهه إلى عائشة وهو يقول له :

« انظر هل وصل إليها شىء . . . »

وألحق به عمار بن ياسر ، فانطلقا سويا صوب الهودج فاحتملاه بعيداً وصاحبته فيه لم يصبها أذى ، بعد إذ قطعا بطان البعير ، ثم انتظرا ما يأمر به الإمام .

وكانت نجاة عائشة أول ما أفاء الهدوء على على وأعاد إلى قلبه الطمأنينة . فما يحمل بها قط ضغنا ، وإن نفسه لأصفى معدنا من أن تعتلج بها الأحقاد .

وألقى على الأثر قضاءه فى الدابة المضللة ولها إذ ذاك هدير يصم الآذان ، أمر بها أن تقتل ، ثم تحرق ، ثم يذرى رماد جثتها مع الريح فلا تبقى منها بقية تفتن البله وضعاف الإيمان ، وحين فرغ أصحابه من الجمل ، وغدا ترابا يذروه الهواء ، قال :

« لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى اسرائيل ! »

ثم تلا وعينه تنتقل من جند البصرة إلى ذرات الرماد المتطاير فى الجو فوق الرءوس :

« . . . وانظر إلى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ! . . »

وكان المساء قد أخذ يضرب خباءه على الجموع ، ظافرهم ومخذولهم ، وقد جرت فى هوائه قرة الشتاء — ولكن علياً لم يلذ بأسوار البلدة التى مدت إليه أكفها بالترحيب . آثر أن يظل حيث هو بساحة الموقعة حتى يفرغ من الأسرى والسلاح والغنائم ، وحتى يفرغ الناس من دفن موتاهم واستنقاذ جرحاهم . وقد ظن بعض صحبه أنه لن يدع من عدوه أحداً حياً بعد أن أظفره بهم الله فجاء إليه من قال :

« ياأمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى . . . »

فأبى وأجاب :

« لا أقتل أسيرا من أهل القبلة إذا رجع ونزع . . . »

وجىء إليه على الأثر بموسى بن طلحة والناس يتسارون بينهم : « هذا أول قتيل » . . . فما حسبوا قط أن يلين ابن زعيم الناهضين إمرة الإمام وإن وقع عنقه تحت شفرة السيف . ولكن الفتى أقبل فبايع ولقى من على رفقا أسكن بقلبه الطمأنينة . . .

ومع ذلك فلم يقتل الإمام امرأ من أخصامه أتت به إليه ذلته ، يستوى عنده من تاب وبايع ومن علم ألا خير من ورائه وإن أبدى طاعة هى فى حقيقتها بنت القهر ثم أخفى خصومة ناقمة كإخفاء الناب اللامع سم الثعبان ! . . بل هو اتسعت رحبة عفوه لأعتى خصومه عليه عداء وضغينة . وسنرى من آيات رفقه وحسناه جلائل رائعة فى القريب .

وقضى وقته من بعد ميدان الوقعة ، يتفقد فيها أمور جنده وأسراه ، ويعنى بجرحاهم وجرحاه . . . وهو لا ينى فى كل لحظة تسنح له عن كبح غلواء أعوانه ، وما استجاش بقلوبهم على أعدائهم من زهو النصر . كان يروض وسعه كراهتهم لأولئك الخصوم لعلها تعود ثانية إخاء ومودة ، فخير شعبه الآن فى الألفة ، ولا غناء فى رأيه لأحد من الفريقين عن تصفية النفس من أدران الحقد وشوائب الحزازة . . .

إنه ليضرب المثل لهم بلغة يتحدث بها فعله قبل قوله . فما مر بقتيل من عدوه إلا ذكره بخير أو بكاه فأبكى حوله الناس . ولا صادفته جثة منهم تبين صاحبها إلا نشر من فضائل خصمه الصريع صفحة مطوية . . . توقف هنيهة عند أشلاء كعب بن سور فترحم عليه ثم قال لمن حضره من رجاله :

« . . زعم أنه لم يخرج إلينا إلا السفهاء ، وهذا الحبر قد ترون . . . »

ولما شهد جثة محمد بن طلحة بان الأسى على محياه ، وقال وهو يرد دمعة تغالبه :

« رحمك الله يا محمد ، لقد كنت فى العبادة مجتهدا ، قواما آناء الليل ، صواماً فى الحرور . . . » .

ثم التفت إلى أصحابه وقال وعينه لم ترتفع عن الصريع :

« هذا رجل قتله بر أبيه ! . »

وكذلك ظل يرثى قتلاهم ، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته القصير . بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء . وأمر بقبر كبير أن يحفر ليحتوى الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدى والأقدام . . .

وحين مر فى البصرة بتلك الخربة التى شهدت آخر لحظات طلحة بن عبيد الله على أديم الحياة ، ذكر من مشاهد الصداقة القديمة والصديق القديم ما أعادته الجثة الطريحة إلى ذاكرته ، فإذا عينه تبتدر ، وإذا دمعه يلتمع تحت ظلمة الليل . . . ووقف برهة خاشعا ، قد ختم حزنه على شفتيه بالسكون وإن تحدث بقلبه أساه فى خفق دائب متذائب .

وقال بعد قليل ينفس عن بعض ما يعانيه :

« أعزز على أبا محمد أن أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفى بطن هذا الوادى ! . . أبعد جهادك فى الله ، ودفعك عن رسول الله ؟ . . أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب . . . »

وملكته العبرة حتى لم يسمع سوى صوت أنفاسه ، لولا أن هتك امرؤ عليه هدأة الحزن يقول :

« يا أمير المؤمنين ، أشهد لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بى : « من أنت » ؟ . . فقلت : « من أصحاب أمير المؤمنين » . . فقال لى : « امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين » فمددت إليه يدى فبايعنى لك ... »

فرفع على رأسه فى هدوء كأنما قد انجاب عنه إذ ذاك وقر ثقيل ، ثم قال :

« أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتى فى عنقه .. »

ثم مضى طريقه وإن قلبه من صفائه ليرجو المغفرة للعدو قبل الصديق . وإنه ليرد طرفه الذى غشاه الدمع عن جثث القتلى المتناثرة فى جنبات الميدان ، ثم يهمس فى ابتهال وعينه على السماء :

« إنى لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة .. »

٢

كان محقاً إذا خشى أن تنوش عائشة سفاهة السفهاء، فماله على النفوس المغلولة سلطان ، ولا تستطيع عينه أن تكون رقيبا على هذه الألوف المحتشدة من جنده الذين تغريهم نشوة النصر ، فتدفعهم إلى ركوب المحظور .

ولقد صدق إذ ذاك حدسه ووقع بعض المكروه وإن لم يتسع الوقت لتكرار وقوعه ، ولكنه على أى حال صورة كانت حقيقة بالتكرار إذ ذاك ، لها دلالة واضحة على ما علق ببعض النفوس من زراية بعائشة ، والتهاون بقدرها الجدير بالسمو عن الزراية والامتهان فقد أقبل غب الموقعة أعين بن ضبيعة المجاشعى فمد عينه تقتحم الهودج حتى اطلع على ما فيه فروعت السيدة جرأته المبغوضة، وصاحت به مستنكرة :

« إليك لعنك الله ! . »

فضحك اللئيم باستهانة وقال وهو يهز كتفيه :

« والله ما أرى إلا حميراء !

وتركها تستنزل عليه أقسى الدعاء ..

جنبها على هذه المشاهد المرذولة التي تضيف على قلبها بعد ذلة الهزيمة مرارة الهوان ، فأمر أخاها أن يضرب عليها قبــة بعيدة عن مهاوى الأشلاء وشماتة المظفرين . وكان الفتى وابن ياسر قد استنقذاها من بين القتلى واحتملا هودجها فوضعاه حريزا فى خباء بعيد ، فلما خفت حولهم حركة الجنود أقبل فمد يده من خلل الستر معلنة عنه .

حينذاك أجفلت مروعة ، وهتفت به .

« من أنت ، ويلك ! »

فلم يزد محمد على أن قال :

« أبغض أهلك إليك ! »

فعرفته فى التو :

« ابن الخثعمية ... »

« نعم . أخوك البر »

« عقوق ! . »

ولوت وجهها عنه مغضبة .

على أن نفسه السيالة عليها بالرقة ، المليئة بالعطف والرثاء ، لم تطاوعه أن يلقاها بمثل غلظتها التى أثارتها فى قلبها مرارة الخذلان ، فقال لها فى ترفق :

« يا أخية . . هل أصابك شر ؟ »

فسايرت غضبها إلى مداه :

« ما أنت من ذاك . . »

« فمن إذن الضلال ؟ »

« بل الهداة ! . . »

وساد الصمت بينهما لحظة غالب فيها كلاهما خفق قلبه ، فلما أن خلفتها سورتها ، وآبت نفسها إلى عواطف الأخوة التى جهد غضبها أن يكتمها عنه ، ارتدت كرة أخرى أنثى ضعيفة ، تنازعتها عواطف الحنان والتراحم ، فهمست له فى صوت جاش بفرحتها أن شهدته أمامها يزدخر فيه ماء الحياة :

« بأبى أنت وأمى ! . . الحمد لله الذى عافاك . . . »

ونسيت فى هذه اللحظة ما كان بينها وبينه من خلاف . نسيت الغضب والحرب والحزازة ، وأقبلت عليه تملأ ناظريها بمنظره . .

ووسعهما من بعد الحديث بفنونه ، وعا تشعب منه من عتاب وملام . أما هو فقد كفاه نصره الإمعان فى إثارة المواجد بنفسها المغلوبة ، وأما هى فقد جهدت طاقتها لتنأى بالكلام عن مغامز الألم التى ينكأها بقلبها الخوض فى محنة اليوم الناشئة عن أخطاء أمسها القريب ، حتى لقد ودت بعمرها لو لم يثر فيها الفتى الشجن حين قال :

« . . . أما سمعت رسول الله يقول : على مع الحق والحق مع على ؟ . . . »

بل قد علمت إن لم تكن سمعت لولا أن للزمن سطوة وللنفس كبوة . ولو قد خلى الآن بينها وبين عمرها فلعلها ترتد به إلى الوراء أعواما جمة ثم تغير من فعلها ما يجنبها اليوم مرارة الندم ووخزة الضمير . . .

إن المرء لا يكون خالصاً لعاطفة بعينها تسيطر عليه ، وتوجه خطوه فى كل طريق ، بل هو دائماً نهب لقدر من العواطف ، فيها توافق وفيها تباين ، لا تنى تتجاذب نفسه وتلعب بخطاه . وما على غير هذا النحو كانت عائشة عندما عادت الإمام ، فهى صورة من النفس البشرية فى ميولها وفى استجاباتها للنزعات . طالعتنا بحقدها على على حقداً ألب عليه البنود والجنود ، ثم كشف لنا عن قلب جرى الندم فى عروقه جرى الدم ... ولم يكن ندمها إذ ذاك مستحدثا أبدعته الهزيمة ، إنما استشعرته ولما يبدأ بينها وبين خصمها الصراع ... ألست تراها عند بدء الوقعة تصيح وقد سمعت من جيشها اللجب ضجة وضوضاء :

« المنازعة فى الحرب خور ، والصياح فيها فشل ... وما برأيى خرجت مع هؤلاء ... »

فلعل إذن نزعة هاجتها وأخرى ردتها ! ... كبقية الأنفس البشرية لايسيطر عليها ميل فرد ، بل تكون دائماً نهبا تتقاسمه شتى الميول والنزعات ! .

وكذلك — فيما نحسب — بقيت السيدة حيرى ، لا تعرف على أى شاطىء ترسو سفينتها المضطربة بين نوء المشاعر . فلما أتتها الهزيمة بالاستقرار ، وفاء قلبها فيئا فلا تهزه الحمية ولا يفسده الحماس للصراع ، وجدت نفسها التائهة بين اصطخاب العواطف المختلفة التى كانت تتجاذبها فتضلها عن الصواب ...

نعم ذاقت الندم الآن حق ذوقه وطعمت صابه . وهل أبعث له من قدرها المهيض هذه الساعة فى أعين الناس وكانوا قبلها لا يكاد أحدهم يتناول اسمها على لسانه لفرط شعورهم نحوها بما يفوق الإكبار ويوشك أن يبلغ مرتبة التقديس؟.. الآن غدت ملهاة الألسن العيابة وأضحى شأنها مخاض زراية الحثالة وعرض الجمهور . ولقد هز هذا من اعتدادها حتى أوشكت نفسها أن تنهار إلا بقية من الندم أورثتها إياها المحنة ... زارها ، بعيد انتشالها وهودجها من بين القتلى بعد نهاية المعركة ، القعقاع بن عمرو مسلماً فقالت له :

« إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدى وارتجزا ، فهل تعرف كوفيك منهما ؟ . . »

فأغضى الرجل يخفي تأثره ، وقال في خفوت :

« نعم ، ذاك الذي قال : أعق أم نعلم . . »

ثم أردف يهون عليها الأمر :

. . كذب والله . إنك لأبر أم نعلم ، ولكن . . لم تطاعى » .

ولكن تهوينه ومواساته لم يردا عن نفسها شعورها بالألم ولا وخزة الندم ، فقالت وهي تعالج دمعها أن يفيض :

« والله . لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

ثم راحت تتخيل من كرامة الموت ما كان أولى بأن يكفيها الآن ذلة الحياة . .

ولم يطل بها المقام بالقبة المضروبة لها على أرض الساحة . رأى الإمام أن ينزلها منزلا أكرم وأسهل ، فأمر بها أن تؤخذ إلي البصرة قبل أن يوغل المساء .

وغشى وجوه الناس تلك الليلة فسطاط عائشة ، مسلمين أو شامتين . وكان ابن ياسر ممن سعوا إليها ، مع الأشتر والنخعي ، فلما وقفا ببابها قال عمار :

« كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه ؟ . »

فهاجها حديثه الذي قطرت منه سخريته ، وقالت له :

« من أنت ؟ . . »

« أنا ابنك البار عمار »

« لست لك بأم »

« بلى وإن كرهت ! » .

فصاحت به في غضب مهتاج :

« فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل ما نقمتم . . هيهات والله ! . . لن يظفر من كان هذا دأبه . . »

وسكتت ملياً تذود عن نفسها الحنق الذي تملكها . وسكت أيضا عمار ولكنها استشعرت حركة بباب الخباء آذنتها بامرئ غيره هناك معه ، فقالت تسأله بعد قليل :

« يا عمار ، من معك ؟ . . »

« الأشتر » .

فقالت وهي تعني النخعي بالحديث :

« يا مالك ، أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت ؟ »

فأجاب :

« نعم . ولولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر ! »

عندئذ لعقت الجرح الذي أصابها من كلامه الصريح المرير، وهتفت به تؤنبه:

« يا مالك ، أما علمت أن رسول الله قال : لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق ؟ »

فلم تلجمه حجتها ، بل أجابها على الفور :

« على بعض هذه الثلاث قاتلناه يا أم المؤمنين ! »

ما كان أكرم الصمت لها ولهـذين الزاريين لو استطاعته وحملتهما عليه ! أما وقد عيراها فقد غلباها . إنها تشعر أن الوهدة التي انزلقت قدمها فيها كانت بتدبيرها هي ، ولو كانت أصغت من البـدء لأم سلمة ، ولقولة الحق في منطقها حينما نصحتها أن تنأى عن الخروج وتقر في بيتها مكنونة ، إذن لـكفت نفسها الشماتة وكفتها التعيير .

وسمعت من خارج الخباء صوتا يقول :

« يا أم المؤمنين . » :

فأصغت إليه . ثمة في نبرانه شيء غير مرارة الشماتة، هو أدنى إلى العتاب الرقيق:

« يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك . . »

حقاً ما أبعده مما كان أجمل بها وأجدر . . الآن تبلج لبصيرتها الحق الذي غم عليها من قبل . .

وقالت بصوت خفيض :

« أبو اليقظان ؟ »

« نعم » .

« والله إنك ما علمت قوال بالحق . . »

فنزلت الراحة على قلب عمار أن فاءت السيدة الطاهرة إلى الصواب وقال :

« الحمد لله الذى قضى لى على لسانك . . »

وكانت الظلمة إذ ذاك قد شملت جنبات المكان ، والهدوء قر فى أنحائه فإذا الإمام يلم بموضع القبة عندما فرغ من بعض شواغله الجمة ، ويقف بالمضرب يستأذن ساكنته . . .

ولم يزد حين لقيها على أن قال :

« كيف أنت يا أمه ؟ . . »

فاختلجت لنبرة صوته الهادئة ، التى لم يبطنها شىء من صاب الغضب ولا زهو الانتصار ، وقالت تجيب :

« بخير » .

« يغفر الله لك . . . »

« ولك . . . »

٣

الآن قرت البصرة . وجد الأمن فى قلوبها مساكنه ، فأغلقت دورها على سلام . وآب الناس فيها إلى نفوسهم بعد طول اضطراب . ثم مسحوا أدمع المآسى التى أراقها القتال .

فى مشارفها رقد لهم أحباء ، تحت أعين النجوم الساهرة ، قد سبتهم المنايا النوازل ولم تخلف من حياتهم إلا أسطورة . وفى دروبها سارت جموع أحيائهم على أسى عميق كأودية ، شقه الحزن ومهدته الفجيعة . ولكن صرعاهم أحتوتهم المثاوى فسكنوا لهدأة غامرة ، الهدوء السابغ حيالها ضوضاء وضجيج . فللموت بيان بلا لسان تحت أطباق التربة ، وللصمت الحى ألسنة جمة تحت القبة . أليس للألم هواتف بأحناء القلوب الحزينة تملأ على أصحابها الدنيا نواحا وإن يتردد فى جنباتها صداه ؟ . .

ولكنه حزن أورث الراحة وقرت به أنفس قطان البلدة بعد طول قلق وحيرة . الآن بانت لهم طرائق الحياة مبسوطة ، لا يعوق راكبها خوف طالما سد

سبيله في الليالي السوالف . مضى الغابر بما كان يبثه فيهم من خشية الترقب ورهبة انتظار الغد المجهول ، وامتد أمامهم حاضرهم صافياً شفافاً يرون من خلاله مستقبلا لا تحفه المخاوف . إنهم في أبهج أحلامهم لم تطف بهم قط رؤيا أطلعتهم على مصيرهم رخيا بعد الهزيمة كما أطلعتهم عليه حقائق الحاضر . هم اليوم المغلوب فحسب على سلاحه ، ولكن حياتهم وحياة الغالب تسير معا في نفس المجرى لنفس المصير . الأخوة عادت ثانية تربط بين الفريقين ، وترتق مامزقته المعارك . وما من رجل ضمته البصرة أصبح آسياً على هزيمته أو أحس لها في فؤاده مرارة . . .

فنعم ما أولاهم الإمام ! . . . إن أحدهم لم يحسب مطلقاً أن غريمهم بمثل هذه السماحة . خلال الأيام الطويلة التى سبقت الوقعة ، كان طالما يثنيهم على لجاجهم أناته ويعدهم حسنى ، ظنوها من بوارق الوعود ، حقيقة أن تنقلب عليهم نقمة مستطيرة إذا سالموه أو أظفره الله . . أما الآن فقد كشفته لهم المحنة التى أصابتهم صديقاً رفيقاً ، سرعان ما نسى إساءتهم واتسع لتمردهم عفوه وغفرانه . . .

الناس لا تكف ألسنتهم تتحدث عن ضروب رفقه بهم ودفعه عنهم . إنه ليغالب من أجلهم جنده الذين كتبوا له النصر سطوراً من الدماء وأقاموا له صرحاً باذخا على أشلاء الألوف من الضحايا والشهداء . فلقد أطمع الفوز الجند حتى غدوا يرون العدو سلعة حق أن تكون في المغانم ، وحدثوا إمامهم أن يبيحهم رقابهم وأموالهم وذراريهم وكل مالهم من متاع . . .

قالوا له :

« اقسم بيننا أهل البصرة نتخذهم رقيقا ! . . . »

فعجب للجشع كيف ينسيهم رفق الإسلام . لو لم يبين لهم قبل الوقعة سيرته في العدو ، في كلا النصر والهزيمة ، لكان لهم بعض العذر . ولكنه كان أوضح لهم ناموسه ولما يشتبك سنان ، ولما يلتحم صف من رجاله بصف من أعوان عائشة الذين تجيشوا لحربه . . .

قال لهم حينذاك ، وهو بعد على حدود البصرة ، في خطاب له طويل :

« . . وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا

بقتيل . وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا أستره ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف العقول والأنفس ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . . . »

بهذا الدستور القويم طالع رجاله والمعركة لم تزل غيباً فى الغيب . وإنه لقضاء الدين ، وشرعة الفروسية ، وسنة مكارم الأخلاق . ومع ذلك فإنهم الآن أغضوا عن بيانه عين الأذهان . . . فيما يبدو قد أبطرهم النصر ، أو بهظهم عنه فغالوا اليوم فى تقويمه وتثمينه أيما مغالاة حتى لا يرضون دون امتلاك عدوهم المغلوب امتلاك السلعة أو رقاب الإماء والعبيد . . .

وأبى عليهم الإمام ما أرادوه :

« لا . فالقوم أمثالكم ! »

فأنكروا منه رأيه وصاحوا به :

« فكيف تحل لنا دماؤهم وتحرم علينا سبيهم ؟ . . »

« كيف تحل لكم ذرية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ؟ . . »

ثم راح ثانية يبصرهم ، ويرسم لهم الحدود والمحارم :

« أما ما أجلب به القوم عليكم فى معسكرهم فهو لكم مغنم . وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله . . . وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله ، لا نصيب لكم فى شىء منه . . »

عندئذ أغضب حكمه طائفة من الغلاة غدوا من أبعد نواة الخوارج الذين تربصوا له الدوائر بالسيف واللسان . ومضوا يهجون من امتثل ويكثرون عليه باللجاج والعنت حتى ضاق بتنكيرهم وشتمهم نفسه . فلما رآهم لا يردعهم شىء عن مجادلته ، أبدى الرضا لهم وهو يضمر درساً سوف يردهم عن جشعهم الفاحش البغيض . .

قال لهم فى هدوء :

« اقترعوا . . هاتوا سهامكم . . . »

فمضوا فرحين وهم يمنون النفس بالمغنم الجزيل . وإذا به يسألهم بغتة :

« فأيكم يأخذ أمه فى سهمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . . »

فبهت القوم وصاح سوادهم يعلنون التوبة :

« نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! »

وقضى بهذه الحكمة التى ابتدعتها بديهته على الفتنة ، وإن كانت بقيت فى نفوس بعضهم بقية موجدة عليه سوف تظهرها الأيام بعد حين . . .

وكذلك أبقى على عدوه كرامتهم ، وضرب للناس أمثولة عن الخصومة الشريفة التى تتنزه عن الدنايا كيف تكون . وما كان قضاؤها إلا شرعة لآداب الحرب وآداب النصر يجدر أن تحتذيها البشرية فى كل آن وجيل .

وأقبلت عليه الوفود تترى مبايعة ، دفعت بهم البصرة إليه لم تنتظر دخوله ، فقد سرى الحديث بهذه السماحة مع الهواء فاستشعر الناس لنبئه راحة تغمرهم ، إذ أمنهم — قبل أمنهم على المال والولد والرقاب — على كرامة الحياة . .

ثم دخل البلدة المغلوبة ، بعد مكثه بميدان الوقعة ثلاثة أيام فرغ فيها من شواغله . . . الآن لا تستشعر البصرة نحوه شيئاً من ضغن ، فقد استعبدها له أن جنب رقابها الاستعباد ! . . إنما الحياة عنده إباء وكرامة ، ود لو رآها تسودان أنفس الناس ، فحفظ لعدوه حياتهم حرة ونفوسهم شماء كريمة . بل هو مد لهم فى مروءته ، يتفيأون من ظلالها ما لا يعده الولى الحميم . . . كانت حربهم إياه — فى اعتقاده — عن ضلالة ، الرفق أولى بكشفها عن قلوبهم الغاوية . كانت صفحة من الجهالة سودتها أيديهم ، فإذا به يمزقها ، ويلقى بها فى متاهة الغابر السحيق ليستقبل بصفحه الكريم من سفر حياتهم أخرى بيضاء ! . .

بهذا جرت سيرته فيهم ، لم يعدل عنه لحظة من نهار . إنه العدل والعطف والمروءة ، بل غدت كلها وأمثالها من المكارم ظلا له ! . . فمن عجب أن نرى هذه الخلال الشريفة التى استأسرت خصومه ، تثير عليه غضب بعض أوليائه . فما عدم حظه العاثر أن زوده بطائفة من أنصاره رانت على أبصارهم غشاوة التعصب حق

أرتهم الضياء ظلمة كثيفة أخفت عنهم حقائق الأمور . أولئك بلغ من حبهم إياه وإخلاصهم له أن أبوا عليه الرفق بأيما رجل كان قاتله أو خان عهده ، فقد كان أعداء الإمام فى رأيهم أئمة كافرين لا يستأهلون رحمة أو يكون راحمهم قد خالف فيهم شريعة الله ! . . وحينما بدا للإمام أن يعفو ويرفق كان إذن يسمح بمغفرة ليست من حقه لم يقره عليها أولئك الأنصار . . .

هكذا غلت تلك الطائفة من شيعته وأخشت فى الغلو حتى تنادت فيما بينها ذات يوم بكفر على إذ أباح أعداءه صفحه ونزل لهم عن بعض حقه عسى أن يعطفهم ويؤلف حوله كتلة الأمة الإسلامية ، ملمومة الشمل وثيقة الجماعة . وعندما تنطلق مواكب الزمن موغلة هونا فى درب المستقبل فإننا سنراهم حربا على الإمام أعق عليه من خصومه ، ينالون بأسيافهم وألسنتهم من سلطانه ومن إيمانه . أما الآن فهم وليد تمخضت عنه اليوم خلاله الشريفة ، لن يلبث سوى قليل ثم يشب من الطوق ويصلب عوده . . .

عاده أمسية دخوله البصرة ، موسى بن طلحة ، فاستبقاه برهة لديه يحدثه حديث الصديق ، وقد صفت نفسه من مواجدها ورق قلبه للفتى الزائر . فلما أن عرضت لهما خلال الكلام سيرة طلحة بن عبيد الله ، قال الإمام ، وقد بان فى وجهه الرثاء :

« يا ابن أخى . . . إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :

« ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين : . . »

فما كان أبلغه من عزاء ، وما كان أجلها من إشادة بسيرة الراحل الكريم . .

وفارقه الفتى المرزوء فى أبيه وقد انعطف قلبه ، وخفف رفقه السابغ شيئاً من حزنه ومن فجيعته . . .

على أن هذه السماحة كان لها صدى خبيث الدوى بنفس امرئ من غلاة أنصاره هو ابن الكواء الذى غدا فيما بعد رأس الخوارج . فما إن دخل ، عقيب خروج موسى على الإمام وسمعه يلهج بعطفه على زائره ، حتى سأله عنه .

قال على :

« كان عندى ابن أخى . . . »

« من هو ؟.. »

« موسى بن طلحة » .

فصاح الرجل صيحة نكراء :

« شقينا إن كان ابن أخيك ! . »

عندئذ عصف الغضب بالإمام أن رأى عونا له قد نزع التزمت من قلبه عاطفة الرحمة حتى غدا كالصخر الصلد وران التعصب على بصيرته حتى خفى عنها الهدى . وهتف به يلومه ويرد غلوه البغيض :

« ويحك ! . . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . . . »

فخزى ابن الكواء . ولكنه خزى ساعة ستتحرر نفسه منه في القريب لتعود كرة أخرى أصلب عوداً فى العناد ، وأشد شكيمة فى المغالاة .

٤

أين الحفنة الغالية فى عدائه ، الحالمة أمسها القريب بالمجد، السابحة — فى بحار من النكث — للصولجان ؟.. أى أرض توطأت لهم مراطىء ، وأى منزل أثابهم مرقداً ناعماً وضجعة رفيقة ؟ .. ومن ذا ترى فى الناس أمدهم بالسلام الذى منعوه أمتهم وأبدلوها به الدماء ؟

إنهم لضالون . بالأمس ضلوا نفوساً وقلوبا عن محجة الحق الواضح واليوم ضلوا جسوما حيرى وعقولا فزعة.فما لهم الآن من مثابة الأمن وإن عرفوا الأمن قد مد على غيرهم رواقه . يكاد القلق أن يسوقهم للمصارع . هم من خشية الموت فى موت داهم ، ومن خوف الأسر فى أسر دائم ، خيفتهم خفيتهم الهلكة ثم جثمت على صدورهم تنازعهم الحياة ، وحجبهم عن العيون الهروب ولا طمأنينة !.. وهل من فرار من الفرار ؟ ..

تستروا بالظلام . نسجوا من سواده ردنا تسربلوا بطيلسانه ... أصاحب الليل آمن وفى قتامة رهبة تهد القلب ووحشة تزعزع الجنان ؟ كلما خفقت النسمة

الندية تلفت جزعا بلفتة المستريب ، فهى تحمل إليه وقع أقدام طالبيه . أو كثف السكون حوله حسبه هدأة متربص يتحين منه سانحة غرة . إنه الطريدة الحيرى ، والظلمة مسرب لكلا الفريسة والمطارد .. لا راحة له قط فى شعابه ، والصمت عليه ثقيل ، والليل طويل طويل !

ود الفرار لو صبروا ساعة بأرض الموقعة يعرفون بعدها مصيرهم إلى أى قرار: أعيش العبيد أم ممات الأحرار ؟ . أم العفو يمسح عن جباههم غبرة الذلة كما يحقن عليهم دم الحياة ؟ . ولو كانوا قدروا عدوهم حق قدره إذن لرأوه فياضاً قلبه بالرحمة على سربهم الخائف ، رحبا حلمه وغفرانه . فما حركوا شيئاً من نمسه حين قاتلوه حتى يحركوه الآن إذ هم فى أيدى الفلاة أو حبيسو جدران . وكفاهم هوانا عليه أن خشوا لقاءه . وسيفه مغمد !

غير أن فيهم من عزت على الإمام عقباه . . ذلك الزبير . طواه حينه وهو ءنأى عن ساحة القتال فهلك هلكة هارب لامية محارب ، وكان المجلى بين الأبطال . فما للقدر تعقبه حتى أصماه ؟ . لتوشك المنايا أن تبدو كلفة به حتى تأثرته بعد نأيه عن الصراع ثم طعنته غيلة ، كأن قتله كان نذراً حق عليها وفاؤه ! . . إن عليا ليأسى وقد جاءه نبأ الفاجعة التى ختمت أجل الرجل وطوت سجل حياته الحافلة من بعد نشور ، أبعد ما كان من رجوعه للصواب . . وركوبه إلى الهداية ؟ . . وتوبته الخالصة لله ؟ .

ود على لو أبقى الزمن فى عمر غريمه النادم بقية ينعم فيها براحة التوبة . ولو استدبر الآن من أيامه القلائل مافات فلعله كان احتجز الزبير عن مصيره . ولكنها أمانى ، تخفف عنه هوناً وطأة الفجيعة ، وفيها ملاذ لنفسه الحزينة المرزوءة ، وإنه يستجلب جهده الصبر بالتصبر . فعسى التأسى أن يمسح أساه ، والزمن أن يمحو الشجن ، وقد رد صاحبه وديعة إلى الله

ونفض الإمام عنه بعض دمعه . من عجب أن تحسب طائفة دم الزبير قربى إلى على تدنيهم منه وتفىء عليهم رضوانه وها هو ذا الأحنف بن قيس قد دخل عليه يخبره الخبر ، وجاء معه فى ركابه ابن جرموز ، الرجل الذى تلطخت

بدم الضحية البريئة كفاه ... فلو علم الأحنف أى حزن سوف تثيره الفاجعة فى قلب على ، وأى غضب عليه وإنكار لكان جنب نفسه اللقاء .

ورأى الريبة فى عينى الإمام ، وسمع صوته بطنته المرارة وهو يهتف به فى هدوء رهيب :

« تربصت يابن قيس ! .. »

فأجفل . قد كان حقا ذا يد فى الخاتمة الأليمة التى انتهت بها حياة القتيل . لعله وحده هو الذى رسم خطوطها دون غيره من الناس وإن لم تعلق بكفه قطرة دم . فليته ظل قابعا بوادى السباع فى معتزله لم يشترك فى هذه الخاتمة بشىء كما لم يشترك قبلها فى القتال ، ولكنها كانت محنة سارعت إليها نفسه وهو يحسبها منة يسديها إلى الإمام فتقربه منه ، وترفع درجة مكانته التى هبط بها الاعتزال . ظن فى البدء أنه حقيق برضوان على إذا كفاه عدوه الزبير ، فلما أتبع ظنه المؤامرات التى قضت على حياة الغريم ، غدا نهبا للحيرة ، لا يدرك أهو أحسن أم أساء حتى إذا وقف الساعة بين يدى الإمام تبددت عنه حيرته وهو يرى لمح الغضب يكاد أن يلسعه بشواظ من نار ..

وأغضى مليا . ما لكلامه يعصيه ؟ .. شفيعه الآن نيـة رامت الخير فضلت عنه ...

ثم ألهم الجواب من بعد ، حديثا رقيقا فيه وعد وابتهال ومعذرة :

« ما أرانى إلا قد أحسنت ، فارفق يا أمير المؤمنين .. إن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس . فاعرف إحسانى ، واستصف مودتى ... ولا تقولن مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحا .. »

وتلبث ليسمع كلمة ترد قلقه . ولكن الإمام آثر الصمت ، وأشاح عنه . ما جدوى لومه الآن بعد نزول القضاء .. وهل من سبيل إلى إجازة اعتذارة بنية مكنونة فى طى ضميره ؟ .. إنما أمر هذا المحرض وأمر الضحية كليهما إلى الله هو أعلم بما تكنه السرائر ...

ثم دعا إليه بالقاتل الخاتل ، فإذا ابن جرموز أقبل وهو يمشى على نخر ، الرجاء يملأ قلبه ، والأمانى تحرك خطواته . . أم لا وطمع نفسه ماونى يحدثه طوال الطريق بجزالة المثوبة المأمولة جزاء وفاقا بما قدمت يداه ؟..

وسأله الإمام بصوت خافض عميق :

« أنت قتلته ؟ . . »

فأجاب بخيلاء :

« نعم يا أمير المؤمنين . »

غير أنها رنة للمباهاة لم تلبث سوى قليل . بددها على الأثر أن سمع عليا يقول فى مرارة وحزن :

« والله ما كان ابن صفية جبانا ولا لئيما ولكن الحين ومصارع السوء . . »

وحلقت غيمة من الصمت كثيفة فى جو المكان ، سترت الحاضر هنيهة عن على ، وأرسلت بخياله بعيـــدا يرود وادى الذكريات . . هذه ملاعب الصبوة ومراتع الشباب جمعته وغريمه أخوين على صفاء ، قد فرغ قلباهما إلا من حب وسلام . . من بطحاء مكة ومشارف بيتها العتيق إلى حدائق المدينة وبساتينها النضيرة وثقت بينهما دعوة السماء وألفتهما جنديين فى كتائب الله ، يدفعان عن رسوله ، كتفا لكتف ، بخفق القلب ، ومنطق الشفة ، وبطش الكف . وبين ماء بدر وسفح أحد ووادى تهامة سارا معاً يخضدان عوسج الضلالة ، ويغرسان فى الأرض الطيبة زهر الهداية . كلما ركز المضلون فى سبيل الدعوة قنا ورماحا تثير الحرب وتشعل نيرانها مسعرة عصفت بها الكتائب الهادية فخبا الضرام وانتشر الإسلام ، حتى رفرفت بنوده على العالمين خفاقة .

ذاك أمسه البعيد ، فليت الزمن لم يطلع بأمس القريب الذى شاب الحب وفرق القلب من القلب ، ولكنها مشيئة سبقت فى الغيب ، وسنن جرت عليه المقادير ، ولا دافع اليوم لواقع ، ولا راد لحاضر . . .

وآب موكب الذكريات بالخيال السارى فآن لغيمة الصمت أن تنقشع وحان أن ينثلم بناؤه الركين عندما هتف الإمام بابن جرموز .

« ناولني سيفه . . . »

ففعل الرجل ، ومد إليه يده المغتالة . . .

وهز على السلاح في كفه ثم قال في نبرة آسية :

« سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله »

ترى أن خاطر راود الآن ذهن القاتل الأثيم حتى عدا به بعيدا عما يجيزه له المقام ؟.. أى خطل ركبه الرجل الطامع في المثوبة على إثم ، النهم إلى إحسان على مضلة ووزر ؟.. ابن جرموز أركبه جشعه مركبا ليس يحمده ، ليته لم يركبه ولم تود به سقطة من لسانه . فقد اجترأ في هذه الآونة أخبث جرأة وأسوأها وقال للإمام :

« الجائزة يا أمير المؤمنين . . »

فاخترمته نظرة قاسية على الأثر ، أخف من وقعها ضربة رمح تغوص في فؤاده وسمع بعدها جواب على . رهيباً كأنه كلمة القدر الداهم والقضاء القاصم :

« النار ! . . ورحم الله أبا عبد الله . . »

ثم سرح باله هنيهة إلى بعيد ، وراء الأعوام السوالف ، وعاد يهمس محدثا نفسه :

« أما إني سمعت رسول الله يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . . . »

٥

أورد الغدر صاحبه الهلكة . . .

وإنها لهلاك الروح لا هلاك الجسد . . اللعنة التي تتبع المرء وهو مزيج من اللحم والعظم والدم على ظهر دنياه ثم لا يستطيع الفكاك ، وإن غدا ذكرى تعيش في الخواطر في حياته الآخرة تتعقبه تعقب الظل ، وتظل تنهش بقاياه نهش السباع فريستها الدسمة ! . .

فلعله كان قد غاب عن وعى ابن جرموز حين باغت الزبير ثم أرداه أن اللعنة ستكون له كفاء غدره . ولكنه كان أمراً مسطورا وقدراً عليه مقدوراً ، همس

به الوحى ذات يوم فى صدر رسول الله . ولم يكن هـذا الجزاء سراً خافياً عام الخفاء ، فقد تحدث به بضعة ، ورواته طائفة ، وبشر به على القاتل فلم يعد ببشراه ما نطق به محمد منذ أعوام ! . .

وكان المصرع قصة الجشع والغدر والخديعة . . .

وهل من مناقص أسفل دركا من كل أولئك وأحرى منها باصطلاء الجحيم ؟ . . .

من اللحظة الأولى التى شهد ابن جرموز خلالها فريسته ، لعبت بنفسه الأثيمة أوزارها ودفعته دفعا إلى الـكيد للهارب التائب ، عسى أن يتحين منه سانحة تمكن له من حياته ، وتفىء عليه سلبه ، ثم تجعل الزبير فى نهاية الأمر سلعة يساوم عليها ويبيعها بغنم من عروض الحياة . .

جاش ذلك بذهنه ساعة أن شهده ، وقد ترك الموقعة ، وهام يجتاز وادى السباع . . .

كان الزبير قد رأى الفىء للمدينة ، لعل عودة إلى حاضرة على تؤذن الناس فيها بندمه على ما سلف منه فى حق الإمام . أو عساه آثر المـكث فى جوار قبر الرسول ، يقضى بالبقعة الطاهرة ما بقى من حياته فى هدوء ودعة ، بعيدا عن الأحداث التى أخذت تعصف بأرض الإسلام . .

وشهد الناس ذلك اليوم فارسا يتستر جهده ، ومطيته تخب به ، وخادم له يتبعه ، وقد شق سبيله من البصرة وراح يجتاز وادى السباع . ومرت القافلة الصغيرة فى سيرها بمضارب الأحنف بن قيس ، وهو منحاز إذ ذاك بقومه عن وقعة الجمل ، يعتزل القتال . . عندئذ لعبت الشكوك بقلب الأحنف والفارس ينساب مستخفياً عنـه وعن سواه ، وعجب أى عجب لأمر الزبير وتخلفه عن المعركة وهى إلى سيفه وشجاعته أحوج الآن إذ اشتد ضرامها والتحمت النصال .

وهمس الرجل لنفسه بنبرة المستريب :

« والله ما هذا انحيازا ! . . . »

وحق له أن تنوشه الريبة . . لأمر ما يخرج الزبير هـذا الخروج ويدع أطماعه وأمانيه لقى بالميدان . لأمر سوى أن يكون قد فاء إلى الحق بعد لجه فى العناد وما اشتهر من إبائه الصلح والمهادنة ، فلعله رأى اليوم من غربته قوة تستعصى على جيوشه ، فخرج يؤاب أقواما ممن لم يلحقوا بعد بأحد من الفريقين ، أو يستمد لعسكره أمداداً من هنا وأخرى من هناك تدعم أداة حربه . . .

وتلفت الأحنف حوله يستحث بعض رجاله ممن شهد معه فرار الزبير :

« من يأتينا بخبره ؟ » .

فنهض على الفور عمرو بن جرموز وقال :

« أنا آتيك . . »

فـكأنما الشقاوة أنطقت لسانه ، أو الشيطان نفسه تحدث فى فيه ! . . منذ تلك اللحظة تحدد مصير الرجل ، وكانت اللعنة نصيبه ، فقد قام يتبع الزبير وإنه ليضمر له الغدر فى دخيلته ، ويعدو بإضماره الحد الذى رسمه له الأحنف بن قيس . لم يرض أن يقوم بمهمة الجاسوس يتقصى خطوات الطريدة ويستكنه سر الأمر الذى تهم أن تسير له ، بل غلب الجشع عليه فسل الخديعة وأخفى الغدر وبيت المـكيدة ، كلها أدوات تنيله مأربا غثاً من مآرب الحياة . . .

وحانت له الطريق لحظة أدنته من فريسته فسارا معا كعابرى سبيل جمع بينهما السفر والمصادفة ، حتى إذا امتد هنيهة بينهما الحديث فاجأ الزبير بقوله :

« يا أبا عبد الله ، أحييت حربا ظالما أو مظلوما ثم تنصرف ؟ . . . أتائب أنت أم عاجز ؟ .

فتوجس سامعه الشر ، ولـكنه جنح إلى الصمت يلوذ به عسى أن يكون فى الصمت ما يدفع عنه فضول الغريب . غير أن ابن جرموز بقى على دربه ، يسير فى آثاره كما يزحف ظله ولا يحيد قط عن سبيله . . .

وكذلك أوجس غلام الزبير ، ومال على أذن مولاه يحذره هذا المتأثر خطاه :

« إنه معد يا أبا عبد الله . . . »

فهز الفارس كتفيه مستخفا وقال :

« وما يهولك من رجل ؟ . . .

ثم التفت صوب مقتفيه :

« ما وراءك ؟ . . . »

« إنما أردت أن أسألك . . . »

فتفكر أبو عبد الله هنيهة . ماذا لو مد للرجل شيئاً فى حبل الحديث فأشبع فضوله ثم فرغ منه بانقضاء الكلام ؟ . . .

« فقل . . . »

« حدثنى عن خصال خمس . . »

« هات ما عندك . . . »

« خذلك عثمان ؟ . . »

فأغضى الزبير برهة ثم قال بصرامة :

« أمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة » .

« وبيعتك علياً ؟ . . . »

« ما وجدت من ذلك بدآ وقد بايعه المهاجرون والأنصار . . . وخشيت القتل . . . »

« وإخراجك أم المؤمنين ؟ . . »

« أما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره » .

« وصلاتك خلف ابنك ؟ . . »

« إنما قدمته عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لى — سوى صاحبى — أمر » .

« ورجوعك عن الحرب ؟ . . »

فتفرسه مليا قبل أن يجيب :

« ظن بى ما شئت غير الجبن ! . . »

هنا فرغت جعبة الفضول والتساؤل ، فبدا ابن جرموز كمن اقتنع بما سمع ، وسار صامتا مع القافلة الصغيرة . ولكن نفسه الخبيثة هتفت به وقد حركها ماركب فيها من طبيعة الغدر :

« أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ . . قتلني الله إن لم أقتله ! » .

ثم وارى بغضاءه الآثمة خلف ابتسامة . الآن يفعل الختل مالا تفعل الشجاعة ، والمكر ها هنا أمثل . . إنه ليبدى العطف ويظهر الرقة لرفيق الطريق ، ويمضى وإياه فى الحديث ناصحاله ، ويمحضه وده فى لفظ حلو . مالزبير علم بالعيب ليستشف ما وراءه . . . حتى إذا رآه قد وهت فرسه ، أو لاح كأنها قد عسر عليها نوعا قطع رمل الصحراء ، وأمامها منها حتى غايتها البعيدة أشواط طويلة شاقة ، رسم الغادر على شفتيه بسمة حانية ، وفى نظراته لمحة رحيمة وقال :

« يا أبا عبد الله هل أدلك على أمر هو خير لك ؟ . . . »

« نعم . . »

« إن دون أهلك فيافى ، فخذ نجيبى هـذا ، وخل فرسك ودرعك فإنهما شاهدان عليك بما تـكره . . . »

فتريث الزبير برهة ثم أجاب :

« حتى أنظر فى ذلك . . . »

وأقبل عليهما المساء . ومضى طرف منـه ولما يخرج الركب بعد من مشارف البصرة . إن دون مدينة الرسول مشقة تعيى أجود الأفراس وأكرم الجياد ، والرمال تحت حوافر فرسه لينة رخوة ، تـكاد تغوص فيها قوائمها فتحرن به ، وتوشك ألا تسير . فلو كان قد أعد للرحلة عدتها الحقة ، إذن لاختار ناقة تسبح على أديم هذه الصحراء الشاسعة كالسفينة . أما الآن فما أهون الظفر به على من أراد إدراكه . . .

ويبدو أن إلحاح ابن جرموز ظل يلاحق الزبير حتى نزل عند غرضه ، أو قصور مركبه عن بلوغه الغاية هو الذى دله على الأخذ بالنصيحة ، لأنه ما لبث أن بادل رفيقه نجيبه نظير درعه وفرسه ، وقد أنس إليه ولم يعد يخشاه .

غير أنها طمأنينة موقوتة ، ما لبثت أن تبددت من فؤاده وعاوده القلق والتوجس . . . فما هو إن نزل منزلا يستريح فيه ويقضى به بعض ليله ، حتى جاءه النذير فى رجل من بنى كلب تحين غرة من ابن جرموز وهمس للزبير :

« يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة لله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف . . . وقد ندم الأحنف على خذله عليا ولعله يتقرب بك إليه . »

فوجم الزبير وشم رائحة الكيد حوله فى هذا الجو الذى علقت به أنفاس رفيق الطريق . . .

وراح الكلبى يتمم حديثه :

« . . لقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك » .

« فما ترى يا أخا كلب ؟ . . »

« بت عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومه فإنك إن فتهم لم يطلبوك . . »

إلا أن المستريب الذى تتداوله أيدى الشك تضيق عليه دائما رقعة الأمان . . وهل كان ليأمن الآن على نفسه من هذا العابر — الذى ود لو استضافه بين جدر — أكثر من أمنه عليها من ذلك الآخر ؟ . . أما إن كليهما الآن عنده متهم ، وغيرهما أيضاً ، وبقية الناس حتى يبلغ مأمنه بعيداً ببلدة الرسول .

وأمضى طرفا من وقته ، ذلك المساء ، يستكنه سر الرجلين : أيهما غادر خائن وأيهما ناصح أمين ، محاولا أن يقطع فيهما الشك باليقين . . ولكن ظنه لم يسعفه ، ولم يفتح له إلى تعرف الصواب . .

وكرة أخرى همس له الكلبى فى صوت نذير :

« يا أبا عبدالله إنى أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذها ، فإن أحداً من الناس لا يقدم عليك أبداً وأنت فارس » .

غير أن الضياء جاءه بالسكينة . مشت فى نفسه الطمأنينة مشى إشراقة الصبح فى السكون المستيقظ فنسى معها رنة النذير . أم أنعش البكور فيه شجاعته الوسنى فأودع الخوف دبر ظهره ؟ . . لقد كان الزبير دائما ثبت القلب راسخا جنانه لا يكاد يهزه وعيد ، فما يهوله الآن من رجل فرد يسير فى ركابه ويتمسح فيه تمسح هر أليف ؟ . ولقد غاب الليل وامحت بامحائه مسارب الدسيسة . . أما عينه فيقظى ، وأما حسه فرهف ، وأما جوارحه كلها فعلى بصيرة من رفيقه ان شاء إبداء غدره وكشف ما فى طواياه . .

وراحت البكرة ، وجاءت الضحوة والركب يسير . وخطت الشمس خطوها من الشرق تمد ظلة من اشعتها على القافلة حتى أوشكت أن تتسنم الرءوس . ثم مضت أيضا صعدا ومضوا قدما تحت وهجها المذهب ، والهدوء فى البيداء الممتدة والأمن فى القلوب .

عندئذ هتف هاتف منهم :

« الصلاة ! . . الصلاة ! . . »

فهذه هى الظهيرة حانت ، وحل موعد فريضتها اللحظة . .

وتوقفت القافلة . وراح ابن جرموز يردد نداء السماء حتى تهيأت لها الرفقة الصغيرة . ثم انثنوا معا يتخذون مسجدا لهم من رمل الصحراء يقرب ما بينهم وبين الله . . .

فى تلك الآونة التى يبتعد فيها المرء بروحه عن دنياه ، ويتجرد من مادية جسده الثقيلة ، ويتحرر قلبه من شواغل الحياة حتى يغدو عنصراً من الصفاء والنقاوة ، ويدنو إلى خالقه بغير حجاب ، مستودعا إياه جل شأنه شعوره وديعة .. فى تلك اللحظة التى تخمد فيها مطامع الجسد وتنشط آمال الروح ، وعلى هذه البقعة التى غدت باسم الله حرماً أقدس ، وطهر أديمها الركوع والسجود . . . فى تلك البرهة الحافلة بالسلام ، وعلى هذه الأرض النقية المطهرة ، جرت نوازع الشر ، وسرح شيطانه ، بغير حائل من قداسة يرده فقد ركب مطية ذلولا إلى خبائثه : نفس ابن جرموز ! . . .

وحين سجدة عنت فيها جبهة الزبير لله ، وقرت روحه ، وخشعت جوارحه ، قطع الغادر الأثيم الصلاة ، واستدبر خلسة إمامه الآمن ، ثم ضربه برمحه ضربة مغتالة ، نفذ بها السن من الظهر إلى القلب حتى غاص فيه . . .

وحقت عليه عندئذ نبوءة الرسول . كتبت على روحه اللعنة والشقاء الأبدى يتبعانه منذ الآن إلى أن يغدو رمة بالية تتأذى من خبثها حجارة قبره ، ثم روحا معذبا تتداوله الزبانية فى الأوابد . . .

أما نفسه فقد غاب عنها سوء ما اقترفته فى حق الله . استبد بها شرها إلى غايته ، وحسبت نصراً ما أتته يجمل أن يتلوه نصر يشفى ما تحسه من الغدر ، فعدا صاحبها على الجدث الهامد فاحتز رأسه ، وأخذ ثوبه وسلبه ثم خلفه جيفة ببطن الفلاة يتولى الغلام مواراتها التراب .

وعاد ابن جرموز فخوراً مزهواً من رحلة غدره ، قد نال السلب والدرع والسيف ، تخب تحته فرس ضحيته . . . عاد إلى منتجع قومه ونفسه لا تنى تحدثه بالفوز الأعظم : ذلك المغنم الذى لا بد سوف يهبه الإمام إياه حين يستقضيه عن وزره . . .

وأقبل عليه الناس عندما قارب المضارب . فلما عرفوا من لسانه القصة ، آذتهم فعلته ، وأنكروا ضراوته ، وصاح أحدهم به فى تقزز ونفور :

« ويحك يا بن جرموز ! . . فضحت والله اليمن . أتقتل الزبير رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله ، وحواريه ، وابن عمته ؟ . . والله لو قتلته فى حرب لعز علينا ذلك ، ولمسنا عارك . . . »

فأشاح بوجهه استكباراً وقال :

« . . والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً . وإن مثله على لهين ! . . . »

وانطلق يسير ، نحو البصرة ، ليقبض الجائزة من الإمام . . .

٦

حليف الهموم لو ذاق طعم الوسن لنامت همومه ! . . لكن عينه الساهرة ردت الغمض . ففيها قذى يهيجها ويقرحها ، ودمع سخين ينثال ، وأهدابها غدت كشوك ! . . ليت عائشة تستطيع الرقود ساعة من ليل لعل ادكارها ينام . الفراش تحتها يؤرقها . ويؤذى جنبها المستسلم لغفوة عصية كأن حشوه قتاد . .

ليس يثيرها الهوان الذى سبحت فيه ، ولا هذه الهزيمة النكراء قد أكلت هدفها واهتضمته . بل وقر التبعة الثقيلة التى ألقتها على كتفيها الأقدار . بكل قطرة مهدرة من جرح ، وبكل شلو مقطوع ، وبكل حياة استباحها الموت

الداهم فى مجال الصراع طالعتها الرؤى المثيرة ، مرة بعد مرة ، فى ساعات صحوها الطويل البادى بغير انتهاء ، بمشاعر أسى محض مرير . لكأن حياتها غدت بحيرة من الدمع ! . .

حتى البيت الذى استضافها اليوم كان بؤرة ألم . فما نى صفية بنت الحارث تعؤه عليها بالعويل والنواح إن أسفر صبح ، وتهيم فى جنباته أنات بكائها المكتوم إن جن ليل تفجعا على زوجها عبد الله بن خلف . بل البصرة كلها صارت مأتما قائما ، تتجدد فيه مظاهر الشجن يوما فى إثر يوم ، كأن أهلها أنسوا للحزن واستطابوه ! . . وفيم هذا كله ؟ فيم الحرب التى نثرت المصارع وبثت الفواجع ؟ ولأية غاية من الغايات ؟ .

إنه سبب ودت بقلبها أن تنساه لو أجدى عليها النسيان . وأنى لها اليوم إغفاله ؟. نتاجه المشئوم لا يكف يطالعها مع اللحظات وإن أشاحت بناظريها عنه ، فإن لضميرها لعينا تراه . . وكانت النواة نزوة — جمحة عاطفة عدت بها طور الحكمة فلم تزل تمدو حتى رمت بها وبأمتها بهذه الوهدة السحيقة . من لها اليوم بمن يبصرها بغبة السكره الذى آثرت به الإمام لعلها تثوب ؟ . .

الأحداث الآن بصرتها . . الكوارث التى أحاقت بالناس لأنها ذات لحظة مشئومة أطلقت للسانها العنان تؤلب على صهرها ، ابن عم زوجها ، أحقاد خصومه . . ومع ذلك فأين الجنى الذى اجتنته بيد الكراهية . والحصاد الذى حصدته بمنجل البغضاء ؟ . . إنها لترى ثمار فعلتها قانية الحمرة حضبها الدم ، ذابلة جافة نصرها الموت . . فى المدائن تراها وفى البيد ، فى الغريب والقريب ، فى الدور والمضارب . . فى فمها أيضا تحس لها طعم العلقم ، وفى قلبها تستشعر لها برودة تجمد الحياة . .

لها الله ! . . ألا ينام عنها همها هنيهة ؟ . .

ما زال بالها يهيجه الادكار كلما رنت بذهنها إلى الجنوب ، نحو أرض الحجاز ثمة أخية حبيبة تستروح الأبناء ، ثمة أسماء . وحين تقطع الأخبار هذه الشقة الواسعة من الرمال فسيكون من نصيبها الترمل ، ومن يدرى ؟ ألا يكون أيضا

من نصيبها الثكل ! .. فهذه المفازة انشقت قبرا يضم زوجا باسلا قضى قضاء آبق فرار ولم يمت ميتة بطل . وفيها عدت قدما ابن طموح شاب تتلمس له مسالك النجاة ولا نجاة ، هرب من الأسر إلى أسر ، وفر هائما على وجهه فرار أطماعه !..
أفتغفر أسماء ؟ . . .

عائشة لا يهولها أن تنقم أختها منها أنها كانت سبب النكبة القاصمة . لم يعد بقلبها موضع لغير القلق الذى ملأه بعد فرار عبد الله بن الزبير ، ربيبها الأثير .. عندما بشروها بنجاته ، إبان الوقعة ، من سيف الأشتر ، دفعت عشرة آلاف درهم لناقل الخبر نظير بشراه . أما اليوم فكم تود لو دفعت نصف عمرها لمن يخبرها عنه . بل لتؤثر أن تغمض أجفانها غمض الموت إن أمنت عليه الذل والخوف والهلاك . فما من امرىء غيره يملأ عليها دنياها التى أفعمتها الأحزان . . .

فكأن القدر عاد فهادنها بعد حربه المسعرة ورسم بسمة على شفاهه أضاءت لها قتام القنوط . ها هنا رجل يسعى ، ويمشى بخطو المريب ، قد أقبل وفى وفاضه الخبر المرقوب . .

وقال ذلك الأزدى ناشراً رسالته :
« إنى أعلم مكان عبد الله ! . . »
فابتدرت من فرحة عيناها حتى غامتا بالدموع . . . وقالت عندما استطاعت الجـواب :

« على بمحمد . . . »
« يا أم المؤمنين ، إنه قد نهانى أن يعلم به محمد بن أبى بكر . . »
فلم تبال شيئاً من الأمر . ودعت إليها أخاها وأمرته :
« انطلق مع هذا الرجل حتى تجيئنى بابن أختك . . »
وحين جاءها الفتى الجريح ، وملأت عينها بمشهده ، ثابت نفسها وعرفت الهدوء . الآن قد أمن سربه ، واحتقن دمه ، ففى كنفها سيطعم الطمأنينة ، وتعتد به الحياة ، ولن يستطيع أحد أو شىء أن يناله بمكروه . إنها لعلى يقين . عاودتها ثقتها فى ذات اللحظة التى دخل فيها مثابها الآمن . . وحتى ابن أبى طالب لن يخرق

عليها اعتدادها الوطيد ، فهو أسمى شأنا من أن يفسد عليها فرحتها بربيبها الحبيب ، أطهر نفساً من أن يثأر من عدو مغلوب . . .

وصدق حدس السيدة فى الإمام . فقد نسى كل مساءة سلفت من الفتى الطموح فى حقه ، ونسى عداءه السافر البغيض ، وقذفه فيه وسبه إياه على رءوس الأشهاد يوم الجمل حين أفحش السب فقال للناس :

« . . قد أتاكم الوغد اللئيم على بن أبى طالب ! . »

عن ابن الزبير أغضى على كل الإغضاء ، وأوسع فى صدره للصفح عنه . فلما أن استشفعته عائشه لم يزد على أن رمى ربيبها بنظرة ثاقبة نكراء وقال له فى غير مبالاة :

« اذهب فلا أرينك ! . . »

بمثل هذه السماحة كان الإمام يلقى خصومه ، فتلك سجية فيه عزيزة فى طباع البشر . بل قد كان أيضاً يمنحهم الود فوق رفقه ومغفرته ، ويأبى على رجاله أن ينالوا منهم بمنطق اللسان النابى ، دع القصاص والعقوبة وإن حقت عليهم قسوة الجزاء . . دخل البصرة فرأى لزاما عليه ، عن بر وليس عن مجاملة ، أن يزور عائشة حيث نزلت ليعرف بنفسه أطابت لها الإقامة ، فإذا به ييمم شطر مقامها على الأثر بعد خروجه من بيت الله ، لم تشغله شاغلة ، حتى إذا انتهى إلى دار عبد الله ابن خلف ، وشهدته صفية ابنة الحارث ، قطعت نواحها على زوجها القتيل وراحت تصيح :

« يا على ! . . يا قاتل الأحبة ! . . يا مفرق الجمع ! . . أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه . . »

فلم يرد شيئاً على المرأة المحزونة . وما زاد على أن قال لعائشة عندما استقبلته ، بصوت هادئ رحيم :

« جبهتنا صفية . . أما أنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . . »

نفسه طوعه ، راضها على الفضائل . بل الفضائل هى التى نبعت منه . . عرف كيف يستقبل العقوق بالبر ، والشر بالخير ، والإساءة بالحسنى والمغفرة . وما من عدو له آذاه ذات يوم وأمعن فى الإيذاء إلا تلقاه ساعة ظفره وانتصاره بصفح كريم .

وعندما فرغ من زيارته ، وهم أن يخلف مثاب عائشة ، لم يملك أن يرد بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغره . . أحسب القوم أن قد خدعوه ؟ . . إنما غرهم الوهم إذ ظنوه طعمة هينة وظنوا سكوته عليهم غفلة ! . فمن اللحظة الأولى التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكنون . ثمة في جو المكان شيء قد علق مع الأنفاس ، له رائحة الغدر ، أو الخديعة ، أو المؤامرة حيك نسيجها على حياته . الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرها له ، وأبدت ما ضمته الحجرات . . ومع ذلك فإنه استمسك بأناته ، وأغضى عينه ، وكتم عن مضيفته أنه فهم ما أخفته الدار .

ولما ودع السيدة ، وغدا على مبعدة من مثابها قليلة ، ألقى نظرة عابرة على الأبواب المغلقة وراءه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر ، وقال :

« أما لهممت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه . . ثم هذا فأقتل من فيه . . »

فلقد كانت الحجر تضم طائفة من أعدائه ، جرحى أصحابه ، ضاق بهم فرارهم فآوتهم عائشة سراً لديها دون أن تعلمه . فمنذا كان يدريها أن أحدهم لاتهيجه مواجده ولا يطلق سهما على حين غرة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها فيرديه ؟ . . لعلها ظنت الخوف كفيلا بشل جوارح أولئك المختبئين ، أو جبانتهم مقعدتهم عن ركوب هذا المركب العسير . . أو لعلها حينذاك عاهدتهم على ألا يغدروا وفيهم بضعة ، حرية بألا يقيدها عهد ، غدرة فجار ! . . كيفما كان شأن السيدة مع صحبها أولئك فقدكان لزاما عليها ألا تستغل في علي طبيعته السمحاء وكان أولى بها وأكرم أن تجنبه الوقوف على حافة الهاوية . .

أما هو فلم يكن يهاب موقفه . فمنذا يملك أن يحرمه ساعة من حياة سجلها الله له في صفحة عمره ؟ . . إنما الموت قدر ، موقوت بأجل ، ليس تقدمه غفلة ولا يؤخره حذر . . .

وكانت ابنة الحارث ما زالت بمكانها ذاك عند الباب تنوح على زوجها وتبكيه فلما أن شهدت الإمام يغادر دارها عاودت شتمه بأقذع ما يستطيعه لسان عياب فانظر كيف لقيها ثانية بحلمه وأناته وعندما سمع رجلا استاء منها يصيح :

« والله لا تفلتنا هذه المرأة ! . . »

أصماه غضبه حينذاك على الغاضب له ، وهتف به يذكره رأيه السالف بوجوب الرفق بالنسوة العاديات ، ثم قال يحذره وصحبه الحاضرين .

« لا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس ! . . »

وانظره أيضاً كيف قابل تدبير عائشة ، أو سوء تدبيرها ، إذ آوت من عدوه من كان حريا أن يفتك به غيلة لو لم تكن له فسحة من الأجل باقية ...

لحق به امرؤ ممن سمع حديثه عن ابنة الحارث ، فلقيه ببعض طريق العودة وقال له :

« يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفية . . »

فجزع وصاح :

« ويحك ! . . لعلها عائشة . . »

« نعم . . قام رجلان منهم على الدار ، فقال أحدهما :

جزيت عنا أمنا عقوقا . . .

وقال الآخر :

يا أمنا توبي لقد خطئت . . »

فما أسرع ما بعث إليهما بالقعقاع بن عمرو فأحضرهما إليه . ولم يمهلهما برهة يفران فيها من غضبه . فلولا أن استشفع لهما الناس عند ذاك لأرداهما قتيلين جزاء على عيبهما السيدة التي لم تكف عنه عيبها وأغرت به الضغائن . . ومع ذلك فلم تنقذهما من بطشه الشفاعة ، بل قال وهو محنق :

« لأنهكنهما عقوبة ! . . »

وفعل . فقد أمر بهما فجلدا مائة مائة أمام الأشهاد . .

وكذلك تراه يغضى عن عدوه ويوسع لهم في صفحه ، ثم يشتد على أصحابه أيما شدة وأبلغها . ذلك لأنه أراد أعوانه على أن يكونوا قدوة تتأثر مكارم الأخلاق ويسير في هديهم الناس . أما أولئك الذين كانوا ينالون منه فإنهم في عافية ،

بصبره أو بغفرانه ولعل خير ما يصور لنا سيرته فى أخصامه ذلك القول الذى غدا شعاراً له ، وكان يردده دائماً بأمثال تلك المواطن :

« متى أشفى غيظى إذا غضبت ؟ . . أحين أعجز عن الانتقام فيقال لى : لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت ؟ . . »

وهكذا كان أبدا دأبه : يؤثر الرفق والصفح والصبر عمن ألحق به المساءة والشر . إن قدر غفر ، أو عجز صبر . .

٧

ما وراء هذا التجمع ؟ . . دار صفية ابنة الحارث غدت خلية تطن فيها همسات خصومه ، أولئك الذين أبت عليهم المواجد أن يسيروا إليه يستأمنونه على أنفسهم ، ويرجون مغفرته ، وكلهم لقومه حينذاك رأس مدبر .

ولكنهم كانوا آمنة لا يخشون عادية نقمته ، فبينهم وبينه عائشة سياج ولو جال يوما بباله أن يقتص منهم أو يثأر لما وسعه الأمر وهم فى نجوة عنه بتلك السيدة التى ما زال يراها صاحبة حق عليه . ولن يجول قط بخاطره الثأر فذلك يخالف سجاياه . إنه ليملك مصيرهم فى يديه ، لو شاء ترك أو شاء أهلك .. ولكنه كان دائما إلى العفو أميل ، فليس يستطيع قهر نفسه على ركوب ما تنفر منه .

عقب نصره قالت له عائشة فى ضراعة :

« يا بن أبى طالب ، ملكت فأسجح . . »

فكان قولها صدى لإحساس قلبه ، ورسما صادقا لما ألهمته من تصرفاته حيال أعدائه . فلم يعنف قط بامرىء منهم ظفر به ، بل وسمت مغفرته عدوانهم ، وأباحهم صفاء نفسه كفاء ما تجرعوه من غصة الهزيمة . أمن الخائف ، وحرر الأسير ، وأملى للهارب فى حبل فراره إلى أن أتيحت له أرض ثابتة لا تميد تحت قدميه . . حتى هذه الطائفة الغالية فى عدائه أغضى عن ماضيها المليء بالضغينة والحقد عليه ، هى التى أججت سعر الحرب وأصلت أمتها الهموم والكوارث .

كان يعلم أن عقابهم عداله مطلوبة ، ولكنه كان يعلم أيضا أن العفو شيمة كريمة ، حريه بأن تسبق العدالة ، فالعادل الظافر أقوى منه الظافر الغافر . ولن يزيد شيئا فى بأسك أن تنال من عدو مهيض

ومع ذلك فقد بدوا كأنما استباحوا منه هذه الأريحية النفسية إلى غير حدود ، وبلا احتراز ولا تعفف . ولو أنهم أنصفوا لجاءوا إليه سراعا ، فى قلوبهم الندم ، وعلى شفاههم التوبة ، وفى أكفهم الطاعة ، ولكنهم عدوا ما هو جميل بأمثالهم من المغلوبين ، واتخذوا دار صفية بنت الحارث ندوة تسرح فيها همساتهم الناطقة بالدس والضغينة . وها هى عائشة تؤويهم إليها بدون إذنه ، كأنما تملك دونه العفو وتملك المثوبة . . .

لم يكن شأنهم ليكرثه حين نصره بعد أن دانت البلدة له وسجدت تطلب الصفح وتقدم الخضوع . غير أنها بلدة حديثة العهد بالولاء له حرية — إن سنحت فرصة — أن تفتتن عن الطاعة . فما زالت بها بقيه مريبة ، ملكها القهر لم يملكها الولاء ، لا تنى تتطلع إلى ساعة ثأر ترد عليها ما ضيعته الهزيمة . وإنها لترنو بعين اللهفة فتديم الرنو إلى دار ابنة الحارث ملاذ الزعماء المستظلين ظل عائشة ، عسى أن يخفق من هناك ، ذات يوم قريب ، لواء تمرد جديد . . .

ولقد يحسن المرء بالسيدة الظن فيراها آوت أولئكم الحفنة الباغية عن رحمة ولكنه لا يستطيع أن يأمن عليها من وسوسة البغاة وهمسهم فى ضميرها بمعاودة العصيان ، فكلهم حاقد أو موتور . . وكلهم قادر أن يهيج بصدرها مواجدها على على وضغنها القديم ، فتلك عواطف غائرة فى النفس حتى الأعماق ، سارية مع الدماء فى الجوارح ، لم تجتثها الهزيمة ، ولن يكفها شىء إن خلى بينها وبين الانطلاق ..

إن فى طبيعة البشر من أمثال هذه المشاعر كثرة موفورة ، تقود خطوهم دائما إلى الخطيئة . . . وعائشة ضرب فى النسوة جامح الأحاسيس . أو هى هكذا على الأقل كلما نصبت من شعورها حكما فيصلا بينها وبين الإمام . ولقد طال حكم هذا الشعور بينهما ، فى الماضى الغابر والحاضر الماثل ، فكان الغلو الذى لا تكبحه حكمة ينطلق بها مسرفاً فى انطلاقه بغير روية أو قصد ، كأنه السيل الدافق ، لا يحكمه حابس ولا يمسكه سد . . . أفئن غدت اليوم طعمة لوسوسة بضعة من

دعاة الشر فى أصحابها الموتورين تهيج ما نام من حفظيتها ، أليست حرية إذن بالإصغاء لهم ، حقيقة بتلبية نداء حقدها القديم ! .

بلى ! . . . هذا أنسب عشاعرها ، أدنى إلى سخطها على على وإن رأيناه عد لها فى رقاع كرمه ، ويجازيها على موقفها السالف منه برآ بنكران، ومروءة بعصيان . فما الناس إلا عبيد العواطف ، إلا من عصم الله وحصن نفسه بسياج من الإرادة عصى على غلواء الأهواء . . ولقد كانت فيما نحسب ولا ننكر ، تود لو كبحت نفسها عن الجموح فى عداء على بعض أشواطها البعيدة ، فلم تفدها هذه الرغبة فى القصد ولم ترد عاطفتها عن الجموح .

وكان الإمام لا تغيب عنه هـذه الحال ، ويترفق هوناً بالسيدة العادية عليه فيعزو عدوانها إلى قلة تبصر ليست غريبة فى طباع النساء . ومع ذلك فلم يكن لينسى لها ما هى به جديرة من احترامه وتوقيره كفاء قدرها بين الناس ومنزلتها عند رسول الله . . وإنك لتصغى إلى حديثه عنها فتسمعه رأياً يجيدرسم مشاعرها ثم لا يغمطها شيئا من حقها . . . قال فأجمل المقال :

« . . . أدركها رأى النساء ، وضغن غلا فى صدرها كمرجل القين ! . ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلى ، لم تفعل ! . . ولهـا بعد حرمتها الأولى . والحساب على الله تعالى . . »

فإذا بلغ منها بعد هذا أن تستفئ إليها طائفةمن غلاة عدوه وأعتاهم له خصومة يستظلون جناحيها ، ويختفون حتى لتدنو خفيتهم درجة من التربص والمؤامرة ... وإذا استباحت لنفسها من كرمه ما يحتلبه هيبته فى عين الناس ،ويديها كمن يملك العفو دونه عن كل عاد عليه : كاشح أو سافر . . إذا كان هـذا وذاك فإنها إذن صاحبة مشيئته ، تجرى على سلطانه كالقضاء فتنتقصه ، بل تشله وتقضى عليه ثم لا يكون من ورائها إلا إغراء العصاة وسفهاء الحلوم به ، فى بلدة مغلوبة ، وبين ظهرانى قوم قد قهرهم على الولاء .

لذلك كان حقا عليه حيال إمرته وحيال أمته على السـواء ، أن يخلى تلك الخلية التى راحت تطن بها همسات أعدائه ، فإن هى إلا مثابة للدسيسة . . ولقد

كان بوسعه أن يعصف بلاجئيها ولكنه كره ، لو فعل ، أن ينال من قدر السيدة التى منحتهم الامان ، وأبى أن تهون كلتها وإن بذلتهامن وراء ظهره . ولم ير خيراً من تسييرها عزيزة الى دار لها بالحجاز ، وفى جوار قبر الرسول ، فيتفرق عنها دعاة العدوان .

على أن بقية من كبرياء العناد انحرفت بعائشة عن مسلك الحكمة . فلقد بدا كأنها أبت الامتثال للأمر بالرحيل لعلها ظلت لا تعرف لعلى عليها حقا بأمرة هى قد أغراها بعصيانه اليوم وسواس الطائفة الذين آوت ، عسى أن ينالوا منه بالتمرد الجديد وكيفما كان الحافز الذى جعلهاترفض العودة إلى المدينة فلم يقرها الإمام وأبى إلا أن تطيع أمره . .

ودخل عليها ابن عباس ، رســـولا من لدنه . فما رأته حتى لقيته بما يشبه الازدراء أو قلة المبالاة . ثم لوت عنه جيدها نافرة ، ولم تقدم له وسادة ليجلس ، ولم تأذن له ...

عندئذ مد هو يداً إلى متاعها فأخرج منه ما جلس عليه . فآذتها جرأته ونالت من كبريائها ، فصاحت به مغضبة :

« يا بن عباس ، أخطأت السنة ، فقعدت على وسادتنا ، فى بيتنا ، بغير إذننا . . . »

فليتها لم تهج لسانه بالكلام ! . . ذلك اللسان الذى عرفته قبل غيرها بصيرا بجوانب الجدال ، فياض المنطق ، حار الألفاظ كالشواظ ! . .

أجابها على الأثر ، فى هدوء أشد إيلاما لسمعها من فورة البراكين :

« وليس هذا بيتك الذى أمرك الله أن تقرى فيه ! . . »

فلم ترد على حديثه بشىء . . .

وعاد يبلغها ما جاء فيه :

« إن أمير المؤمنين أرسلنى إليك يأمرك بالرحيل . . . »

فقطعت عليه جملته فى تهكم واستنكار :

« أين أمير المؤمنين ؟ . . ذاك عمر ! . . »

« عمر وعلى . . . »

« أبيت ! . . . »

وتنبئنا رواية الخبر بتتمة لهذا الكلام إن تكن وقعت فليست تجمل بمن كان مثل ابن عباس ، وإن أثارته السيدة ، وأمعنت فى إهاجة ثائرته . . فلقد طوف بسيرة أبى بكر فتحيف على الشيخ غير مقصد ، ونال من قدره بغير ما ضرورة أجازها الجدال أو دعت إليها طبيعة الحديث . ولا نظنه إلا شطحة رواية ، أراد أن يضفى على خبره بعض المتعة ، فركب خياله المسرف إلى حد أساء به إلى عبد الله . .

وندع جانبا ما تنزه عنه لسان ابن عباس ولا نقره عليه . ثم نتناول بقية جدله فإذا فى بعض أطرافها عنف مقبول ، أعانته السيدة على أن يلقاها به . وهل حسبناه يصبر لها على التزامها العناد و إباء الصـــدوع بأمر مولاه وإن أغرتها كبرياؤها بالعصيان ؟

قال لهـا وهو يذكر ما أتته من خروجها على الإمام ، وتأليبها عليه نزع الأنفس وعدة القتال :

« . . والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين »

ووضعها بألفاظه حيث كانت ، ، وحيث يكون كل مغلوب . .

عندئذ آلمتها الحقيقة التى أسفر عنها كلامه الصريح ، وأحست بكبريائها تنالها جروح سال عنها دمعها يبتدر . . وحين وسعها أن تمتلك روعها ، أبت مع هذا أن تقر بالهزيمة ، وراحت تخفى قهرها خلف جواب تغمز به غريمها العاتى وإن شابت نبرات غضبها الجامح رجفة البـكاء ...

قالت له :

« إنى معجلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله . . . والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أنتم فيه ! ... »

فلم يمهلها أن تستشعر لذة غمزتها ، وأسرع يجيب :

« ولم ذاك ؟ »

وتريث برهة عسى أن يأتيه رد استنـكاره . فلما رآها اعتصمت بالصمت عاود حديثه بهدوء بطنته سخريته :

« . . . والله لقد جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك صديقا ! . . »

فثارت به :

« يا بن عباس ، أتمن على برسول الله ؟ . . »

« ما لى لا أمن عليك بمن لو كان لمنت به على ! . . »

وحينذاك آثرت أن تلوذ بالسكوت لتكف عنها جدل صاحب اللسان الإزعيل ! ..

٨

تهيأت عائشة للرحيل .

ما لها اليوم معدى عنه . طلع عليها فجر السبت غرة رجب فأرسلت على خيوط ضوئه عيناً دامعة ، لعلها لم تذق بليلتها ، تطوف نظراتها الساهمة بما يبدو لها من البصرة تحت نور البكور . . . أى شىء ها هنا أودعته الثرى الصامت ؟ . . وأى مقام كان على أدعه ؟ . وبأية حال تهم أن تخرج الآن ؟ .

المنى المريضة انطوت فى الرمال . كأنها كتبتها على صفحتها الرخوة ثم جاءت هبة ريح فمحت السطور ! . . والمقام لم تلن لها جوانبه . نزلته مقهورة فنبا بها المنزل حتى خلفته مقهورة . . . غدت أداة تحركها الأيدى ليست لها على نفسها مشيئة . فتلك الأيام القلائل التى قضتها بالبلدة أطلمها هم وأنهاها هم ، كلما انقضى منها يوم أسلمها بعده إلى غد شر منه .

إنها لتشعر أن حياتها لم تعد لها خالصة . أصبحت كلها منة أسداها الصفح والترفق : عيشها ، وتفكيرها ، وحريتها .. فما تملك أن تميش أو تفكر أو تنطلق إلا بقدر قدروه . ليست الآن من أطاعتها الطاعة وأطاعها معها العصيان ! . . ليست صاحبة الكلمة لاتكاد حروفها تلتئم على شفتيها فتجيئها الجيوش والوفود والنفوس مؤتمرة . . . ليست حتى ذات الدار المهيبة والذمار المصون فى القلوب والعيون . بقى لها فحسب من حياتها أن تعيش عيشاً تفضلوا عليها به فى حرية إن جنبتها مذلة الأسر فهى كأسر ، وبذهن يتبع الفكر ولا يبدع الفكر ! .

ثم ها هم اليوم أولاء ، يحبسون روحها فى سياج من منهم منيع ، وما أبغض منة القاهر إلى قلب المغلوب ! . . حتى الأشتر أيضا لم يعفها من تجرع غصة الذلة . أزجى إليها جميلا لو تقبلته لهان قدرها لديها ، ولكنها أبته كل الإباء . . . إنها لتنعم بأن تجتر حقدها على الرجل ثم تعود فتستره ، وتعيذ نفسها الآن من قبول هبته خشية أن يخف نفورها منه ويقل سخطها عليه ! . .

وكذلك استقبلت رسوله ، غضى نافدة الصبر مهتاجة . . .

قال لها :

« يا أم المؤمنين ، مالك يقرئك السلام ويقول إن هذا البعير مكان بعيرك . . »

فصاحت حانقة :

« لا سلم الله عليه ! . . . »

وردت عليه الهدية .

ومع ذلك فلم تكن لتستطيع رفض كل ما قدموه أو تؤذيها الحاجة . . . رأت لزاما عليها أن تنزل بكبريائها درجة ، وإلا فمنذا هنا يجهزها لكل هذه الشقة البعيدة حتى تبلغ الحجاز ؟

جهزها الإمام وأعد لها قافلة طويلة لا ينقصها فيها شىء . ثم منحها اثنى عشر ألفا من المال تستعين بها على الزمان . .

وكانت هبة سخية حقا . منة أخرى من مننه الكثيرة التى طوق بها جيدها على كره منها . . . غير أن ابن أخيه : عبد الله بن جعفر أبى إلا أن يثقل فى وقر السيدة من المنن والهبات ، فقد استقل المنحة ، وأخرج من لدنه مالا وفيرا يعيى الإحصاء ، أفاءه عليها وهو يقول :

« إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو على . . . »

ووقفت عائشة مليا خافضة الرأس قبل أن يسير بها الركب ، أثقلتها أريحية غريمها كما أثقلتها مروءته ونقاوة نفسه . فلم يحتجز عنها شيئا علم أنها تحتاج إليه من مركب أو زاد أو متاع ، ولا تهاون قط فى توفير ما يحفظ عليها كرامتها من مظهر ومجد . بل قد بالغ فى كرمه ما شاء حتى أباح كثرة من صحبها الذين حاربوه أن يرافقوها فى الرحلة . . .

وحين أوشك الركب أن يتحرك قال لابنه :

« تجهز يا محمد فبلغها . . . »

وأمر الحسنين أن يسيرا معها نهارا وليلة .

عندئذ وقفت وهى تشرف من هودجها على الجموع التى أقبلت مودعة ، وقالت بصوت اختلج من فرط التأثر :

« يا بنى . . . تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشىء بلغه من ذلك . . . »

ثم مدت بصرها حيث وقف الإمام ، ومضت تقول :

« . . . إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . . وإنه عندى على معتبى من الأخيار . . . »

فما سمع على هذا منها حتى خاطب الجمع :

« يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت . ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة . . . »

على أنها ، مع ما أكرمها به ، لم تنس أن تناله بمقذع اللفظ وهى ببعض الطريق . فلقد أرسل معها حرسا ضخما من عبد القيس أربعين فردا ، وقام على شأنها قيام العبيد والإماء ، فهالتها كثرته . وظلت كلما وقعت عينها على فرد منه ، تهتف برمة وتقول مظهرة سخطها على الإمام :

« هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى ! . . . »

ذلك أنها حسبت الحرس رجالا وكن فتيات تنكرن فى ثياب الفتيان ! . .

فلما بلغت غاية رحلتها ، ودخلت دارها ، أقبلن فكشفن عن رءوسهن العمائم ، وهتفن ضاحكات :

« إنما نحن نسوة ! »

وكان هذا آخر عهدها بالرجل الذى حاربته بالبغضاء فحاربها بالحلم والمروءة ، وغالبته بالعنف والتآمر فغلبها بأريحية نفسه وصفاء قلبه من الحقد والضغينة .

وكان أيضا آخر عهدها بالشئون العامة ، فقد أغلقت بابها عليها ، وقرت بيتها بعيدا عن معترك الحرب والسياسة ...

أما هو ففرغ لشأنه وقد خلت خلية الدسيسة ، وتفرق عنها ساكنوها البغاة . . . فقد أباح بقيتهم صفحه ، ونسى كل ماسلف منهم من الغدر والعدوان. اتسعت رحبة عفوه لأعتام عداوة له ولم يستشعر ندما على معروفه ، حتى مروان ابن الحكم ظفر بغفرانه وإن كان أعدى عدوه وأجدرهم أن ينال منه عذاب الهون . . . جى به إليه مستضعفا ذليلا ، قد ضاقت عنه مسالك النجاة فلم يمسه بشىء ، وأغضى عابساً وهو يصغى لشفاعة الحسن والحسين فيه . . .

وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه ، واستنزال عفوه على الباغى المقهور ، ثم أردفا يقولان :

« يبايعك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يزد على أن رشق عدوه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه .

ومد مروان نحوه كفاً مرتجفة ، فيها خضوعه وذلته . ولكن عليا عف عن تناولها ، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطى رسول الله ، وإلى من حضره من رجاله حينذاك ، وقال يوجه إليهم الخطاب :

« أولم يبايعنى بعد مقتل عثمان ؟ . . لا حاجة لى فى بيعته ، إنهـــا كف يهودية ! . . . »

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك الغادر الذى كانت حياته لا تساوى غير لفظة لسان أو إشارة بنان . وراح يتبعه فى مسرب انطلاقه بنظراته حتى اختفى عنه خلف المجهول . .

غير أن اختفاءه عن العيون لم يحجبه برهـة عن بصيرة الإمام . إنه ليراه الآن بعين الإلهام ،ويخترق إليه أسجاف الزمن ، وأستار السنين ، وظلمة الغيوب. ثم يظل يتبع خطوه السارى فى المستقبل، الموفى به إلى نهايته، الممتد بعده لذراريه . .

ويسمع الحضور صوت الإمام ، عميقا خافتا كأنما يأتيهم لفظه من قرار سحيق بعيد الأغوار :

« . . . أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفـه ! . . . وهو أبو الأكبش الأربعة . . . وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر ! . . . »

ويصمت لسانه الناطق بنفثة البصيرة ، ويدع الحديث للزمان . . .

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الرابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

كان سلما إلى حين ، حتى تنجاب عنهم غاشية الذلة ويهدأ الروع . . آفة الشر فى نفوسهم مقيمة ، لها دبيب ووجيب . والقلوب التى استشعرت الأمن من بعد خوف تحركت بها مواجدها . فلا الحرب صهرتها فطهرتها ولا المغفرة أسرتها فغيرتها . إذا عاد لها شنآنها القديم سيرته الأولى ، يغلى ويفور ويثور . كان خفقها الضغينة ، وهل لقلب بغير نبض حياة ؟

ذات مرة أحكم وصف عواطف الناس نحوه فقال :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفى هذا على أن يبغضنى ما أبغضنى ، ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبنى ما أحبنى . ذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبى الأمى أنه قال : يا على لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق . . . »

فصدقت قولته بصدق ما سبقها من نبوءة الرسول .

وها هو اليوم : يطعم من أحقادهم صابها وعلقمها وما انفك عن رقابهم كرمه . . . لعلهم فى ذات اللحظة التى أباحهم فيها الأمن والحياة والحرية كانوا فى دخيلة نفوسهم يدبرون ما يفسد عليه أمره ، ويزلزل سلطانه ، ويهد كيانه . . لعلهم يصطنعون مكراً جديداً يثيبه على إحسانه إليهم إساءة . . . لعلهم يختلونه ويختلون عنه قوما لم تستنر بصائرهم ليهضموه ثمرة حقه بعد أن وجثت دونها بالأمس رقاب وفريت أسباب . أفيعجب ؟ . . أم هى هكذا طبيعة الأهواء ؟ . .

كم منهم عطفهم إليه عطفه ؟ . . كم منهم استأسرهم عفوه — هذه الطعمة الباقية من وليمة الموت ؟ . . عندما كان قدرهم على طرف لسانه ورهين بنانه . اشتروا منه آجالهم بذلتهم . فيهم فئة خشيت الحتف فلاذت بفرار وبقية أعمار ! . .

وفيهم أخرى قهرها الخوف قبل السيف فأحنت الهام وخفضت الجباه ليحلى لها فى الحياة ! . . أولئك شهدوا بيعته على أرض الوقعة حين انجلى عن أديمها غبار الصراع وراحوا يرددون مع الناس : « علينا عهد الله وميثاقه بالوفاء ، لنكونن لسلمك سلما ، ولحربك حرباً ، ولنكفن عنك ألسنتنا وأيدينا . . . » — بل

قد قملوا ، ومدوا إليه الأكف بالتسليم وإن عف هو عن تقبل هذه الأيدى التى انبسطت نحوه تظهر الخضوع وتكتم الخداع . ومع ذلك فقد كبح عنهم بطشه، ورد نقمته ، وكان صفحه صدى طبيعة كريمة ليس وسيلة إلى استخلاص طاعة أو كسب ولاء .

لكنهم لم يعرفوا له جميله الذى طوق أجيادهم وقلدهم . لم تنعطف قلوبهم إليه من بعد شرود . لا ، ولم يجنحوا — فى القليل — إلى مهادنته أو الصبر عليه ، كأنما العار فى الطاعة أو القرار ليس فى خلافهم هذا كل العار ! . . فاعجب إذن منهم ، كيف اشتبهت عليهم القيم ، والتوت بهم مسالك النظر حتى أصبح جزاء العمل عندهم كفاء عكسه لا كفاء جنسه ! . .

أبمثل هذا الجحود يلقون مثيله ؟ . . وبالإحن الشاقة يستقبلون منه هذه الطبيعة السمحاء ؟ . . غيره جدير منهم بسوآت الأنفس الناضحة ببغضائه المنكرة لآلائه ، التى لا تزال يقبضها شر ليبسطها شر ثم لا يكفها غلوها فى كراهته دون أن تجرع من كؤوس حسدها حتى تخامس إلى ثمالة الشرور ! . . لكنه كان يسمو بنفسه عن مقابلة الصغار بالصغار ، ويعلو بالطبيعة البشرية التى خالطت روحه ترفعاً عن الغرائز الدنية ، ويقهر الهوى لينصر الله . أو ليست الأهواء الجامحة محاريب إبليس ؟ . . .

الإمام كان أعرف بالسنة الهادية . كان صاحب رسالة راح ينشرها لتحصين الأخلاق . وكانت وسيلته الأولى لنشرها أن يكون هو أسوة ، وأن يضرب بفعله وقوله الأمثال للناس . وفى الصراع الذى انتشب بينه وبين عدوه وسالت خلاله الدماء كالجداول ، حرص دائماً على أن يكون مرآة مصقولة ، من شهد فيها استبان رشده وطالعته أقوم الخلال — فى الخلاف السلمى وفى الخلاف الحربى سواء بسواء . . . ولم يكن كرمه بهم وسيلة لعطفهم إليه ، بل كان عفوا للعفو وصفحا للصفح ودرسا ترشد به الأنفس التى تميل إلى الاستيعاب ولا تتغافل عن طريق الصواب . . . أجل ، كان أبعد امرىء عن تسقط النصير من سبيل استذلاله بخوف أو استثساره بمكرمة . كذلك شهدناه وكذلك هو على الأيام ، وإنه ليبرح المدينة فى أعقاب أم المؤمنين وصاحبيها فلا يستبطن إلا من توثقت به النية

على غير خذلاته ، فمن عرفه مدخولا قلبه استغنى عنه . ومن كان نقى له سريرته ثم ثبطه عن مظاهرته حين الصراع شىء لم ينله بالقهر ليحتلبه المونة . . . وإنه ليترك قبلها ، يوم استخلافه بالمدينة ، أناساً وشأنهم رأوا أن يحبسوا عنه بيعتهم ما كان أيسر أن يركنوا — لو عنف بهم قليلا — إلى الخضوع . . . وإنه ليخلى إبان مسيره صوب البصرة بين قيس وطائفة أخرى من القبائل وبين اعتزاله فى الفتنة التى شبتها عائشة ، وأذكاها طلحة ، وأقحم فى سيرها ابن العوام وأمدها بالوقود مروان وطغمة أمية الموتورون . ولو قد شاء لأخـــذ بالشدة أولئك وهؤلاء . ولـكنه كان داعية حق يهدى إلى السبيل السوى ؛ فليس السيف إذن بأقطع وسائله ، إنما الحجة كانت وحدها سلاحه . ولئن وثب ، يوم الجمل، بخيله ورجله على جحافل مناوئيه ، فلقد فعل بعد أن أعيته الحسنى، ومضى يحارب فيهم الردة عن الحق ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، وصدع الأمة الإسلامية التى لم شتاتها — قبل غدرهم — جهاد الرسول . .

أما الآن — إذ خمدت الفتنة — فالحجة هى الحجة ، والإعذار هو الإعذار ما من سبيل له إلى قلوب من قعدوا عنه وأفهامهم إلا أن يبصرهم على أن يروا طريقه واضحاً سوياً لا تضل عنه البصائر ولا تزيغ الأبصار . ليس الختل سبيله . ولا الملق ، ولا شراء النفوس سلعة رخيصة مبخوسة بذهب الإغراء . . . هو نفسه لم تقو الدنيا بنشبها وزخرفها وسلطانها العريض الباذخ على ابتياعه ، فكيف إذن يتخذها أداة فتنة فى كفه يلوح بها أمام أعين الآخرين ؟..

بغير هذا يقوم الإمام فى الناس . وإنه ليدخل الكوفة غب ظفره بأعدائه من جند الجمل فلا يفتنه عن مثله المستقيمة زهو الانتصار . إنما يغدو أشد تأبيا على سطوة النفس ، أدنى تواضعا إلى الله كحاله منذ عرفته دنياه . . . يقبل عليه أنصاره ، وقد هيأوا له دار الإمرة بحاضرة ملكه الجديد ، يسألون :

« يا أمير المؤمنين ، أين تنزل — أتنزل القصر ؟ » .

فيتواضع تواضعا هو قمة الترفع وأعلاه عندما يجيب :

« قصر الخبال لا تنزلونيه ! . . » .

ويأمر فينزل الرحبة لأنه أراد تجنيب نفسه منازل الأبهة والاختيال وإن كانت

عصية بطبعها على الغرور منيعة عن بناته . فحسبه أن يقيم بنجوة عن دار كانت قبله مقام فرقة من الطغاة أصحاب الجور . . .

لقد كانت الدنيا بعزها تافهة ، بغيضة لديه ، يدفعها دفعك الحية الرقطاء و إن استهوتك من جلدها الرقش زخارفه . ولم يكن مجهولا عنه أنه طالما قضى الليالى مسهداً يناجيها وفى نبراته تنطلق سخريته كنطق نسكه وتأبيه : « هيهات! غرى غيرى . . لا حاجة لى فيك ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير !..» — كان أبدا يلقى بسماتها بغير احتفال ، وإقبالها عليه بالإدبار والزراية . ولم يكن فحسب يحصن نفسه دون اشتهائها والنزوع إلى مفاتنها ، بل ظل دائما يحصن — كما بدا — جمهرة الناس ، ويلقنهم ما وسعه بفعله وقوله كيف يكون كفاح النفس وجهاد شهواتها وإن جاء جهادهم هذا — فيما يحسب الغافلون — على حساب هيبته ، وهو صاحب الأمر فيهم، ومن حق له عليهم أن يستقبلوه بمظاهر التجلة والهيبة ، وعلائم الإعظام والتوقير . ولكنه وفى لمثله ، حريص على غرس أصولها عميقة فى القلوب ، ونشر فروعها عليه فى الضمائر حتى لنشهده يغضب أشد غضب وأبلغه لأن فريقا من دهاقين الأنبار قد ترجلوا له عن خيولهم ومشوا يشتدون بين يديه من إجلال . . . يقول لهم حينذاك وقد ساءه ما رآه :

« ما هذا الذى صنعتموه ؟ . . . »

فيجيبه القوم وهم فى عجب من أمره إذ يثيبهم الإنكار على ما حسبوه مجلبة رضائه وما هو دائما مبتغى سواه :

« خلق منا نعظم به أمراءنا ، يا أمير المؤمنين . . »

عندئذ يأسى لهم من بعد زراية ، فجهلهم بحزنه حقيق ، ويقول باسطا لهم آفاق الهداية :

« والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم فى دنياكم ، وتشقون به فى آخرتكم . وما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأربح الدعة معها الأمان من النار ! . . . »

ما هو إذن بصاحب دنيا فيشترى من الناس نفوسهم بعرض الحياة كما يفعل غريمه نزيل دمشق المنحدر من أصلاب التجار ! . . ولا طالب جاه من منصب

أو سلطان فيرائيهم لينصروه ، إنما جاهه خلقه ، وسلطانه حقه . وهو رجل دعوة مثلى ، بالحق تنادى وعلى الحق تقوم ، فليس يكرثه إلا أن تنحرف أساليبه إلى غير ما يؤمن به ويناضل عنه وحاشاه أن يحيد . . . أما الدنيا فليس لها عنده حساب . وليس يجب أن تكون ذات شأن فى تفكير رجاله وأخلادهم فيبادرهم بما يهون أمرها ويقمأ خطرها — يخاطبهم ، ويعظ الناس ، ومن فوق منبر الكوفة يوم دخلوها وفى ركابهم النصر . بعد أن ذهبت ريح جند البهيمة :

« . . . إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، والآخرة ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة . . اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ! . . . »

غير أنه ، وإن كان قليل الاحتفال بهذه الدنيا ، سادرا عن مفاتنها، لا يزدهيه فيها نصر ولا يبطره جاه ، إلا أنه لم يكن الذى ينام على الهضم فيدع حقه نهبا مضيعاً بين نوازع الهوى الضالة . لقد كان أدنى إلى صفحه وصبره على ضيمهم لو قد جاروا على حقوقه خاصة ، ولكنه فى حق الله ليس بالصافح الصابر . وما نكث الناكثون بيعته فحسب ، حين نكثوا ، وإنما اجترأوا على حق الأمة ، وفرقوا الكلمة بعد اجتماع ، وثلموا فى دين الله ثلمة غدت عزيزة على الالتئام . وإذا كان قد ألقمهم بظلمهم السيف ، ومشى على هامهم بالمنايا الحاصدة ، فأولئك الذين آمنوا بالقضية التى قام ينصرها ثم تقاعدوا عن تعزيزه لهم جزاء التخلف الذى أوشك الونى أن يسلكه مسلك التحيف . . .

لذلك لا يبرح له المنبر حتى يهتف بأهل حاضرته الجديدة :

« . . إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال،فأنا عليهم عاتب زار ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة . . »

إنما أراد أن ينصف فلا يأخذهم بتقاعسهم عنه قبل أن يعذر إليهم، حتى يتبين أعن غير عداوة كان ذلك القعود أم رضوا أن يكونوا مع الخوالف حقت عليهم قولة الله فى المنافقين بالمدينة إبان عهد الرسول : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

لـكن الحية تملك نفس مالك بن حبيب اليربوعى ، فلا يكاد يسمع من الإمام هديه حتى يغضبه هذا الرفق بالخوالف ، فيقول :

« والله إنى لأرى الهجر وإسماع المـكروه لهم قليلا . والله لئن أمرتنا لنقتلنهم ! . . . »

فلا يرضى الإمام منه بأن يخرجه غضبه عن طوره ، وعن السبيل المأمون ، فيرده عن غلوائه :

« سبحان الله يا مال ! . . جزت المدى ، وعدوت الحد ، وأغرقت فى النزع ! . . »

« يا أمير المؤمنين . لبعض الغشم أبلغ فى أمور تنوبك من مهادنة الأعادى . . »

« ليس هكذا قضى الله يا مال . قتل النفس بالنفس ، فما بال الغشم ! » .

ثم لا تـكاد الجموع أن تقبل عليه خافضة جناحها لسلطانه ، خاضعة له ، حتى يلتفت منهم إلى السادة الذين اعتزلوه يجبههم بعذله فى صراحة مكشوفة :

« ما بطأ بكم عنى وأنتم أشرف قومـكم ؟ . والله لئن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنـكم لبور ! . . والله لئن كان من شك فى فضلى ومظاهرة على إنـكم لعدو ؟ . . »

ويردف العتاب بقول الله :

« . . وإن منـكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتـكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تـكن بينـكم وبينه مودة : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

بهذا الأسلوب الواضح المستقيم كان يلقاهم، غير باغ ولا عاد، وهو مستمسك بحقه عليهم، ملتزم حدود الشريعة العادلة السمحاء أدق التزام . وكانت صراحته، على عنفها ، أفعل فى النفوس من ختل معاوية غريمه ، أقدر على استعبادها من الدهان والمراءاة . ولعل فى نبأ سليمان بن صرد ، وزياد بن أبيه ، وسيرتهما المأثورة فى الوفاء له طوال النوازل التى ألمت بعهده ، ما قد يؤيد لدينا منهاجه الواضح السليم . . .

يدخل عليه سليمان ، عب رجعته من البصرة ، مسلما ، فيلومه الإمام :

« ارتبت وتربصت وراوغت ! . . وقد كنت من أوثق الناس فى نفسى ، وأسرعهم ، فيما أظن ، إلى نصرتى ، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ؟ ومازهدك فى نصرهم ! »

فيعتذر له الصحابى الجليل ، ويجيبه فى استحياء يخالطه رجاء :

« يا أمير المؤمنين . لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتي . . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك . . . » .

ثم يؤوده ما بدا من على من الإغضاء ، فيسرع إلى الحسن سبط الرسول يستجير به على غضبة أبيه :

« ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ ؟ .. »

فيلقاه الحسن بالمأثور من رفقه وسماحة طباعه :

« إنما يعاتب من ترجي مودته ونصيحته » .

« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيه إلى أشباهى ، فلا تستغشوا عتبى ، ولا تتهموا نصيحتي . . »

عندئذ يربت الحسن كتف الرجل النادم الأسيف ، مهدئا روعه :

« رحمك الله ، ما أنت عندنا بالظنين » .

وكان سليمان حقا أبعد عن متناول الشبهات ، فبقى أبدا مخلصا للإمام طوال أيام عهده ، وفيا لذكراه من بعده إذ احتوته روضته ، حتي لقى مصرعه فى الطلب بدم الحسين الشهيد .

وكذلك وفى لعلى زياد. أو هو فى القليل ظل له الولى المؤتمر بأمره، المزدجر بنواهيه إبان سنى خلافته وصدرا من ملك معاوية — ولئن التزم فى البدء الحيدة، واحتجب فى البصرة أثناء الصراع الذى لون ثراها ، وحق عليه بهذا الاعتزال لحى الإمام ، فلقد لاذ عقيب الجمل بأبى السبطين حليل الزهراء ، وأخذ ينضح عنه وعن غايته فى ولاء وغيرة حتى أراد الله لعهده القصير أن يزول ، بل هو قد

ظفر من ثقة على فى ذات اليوم الذى استحق فيه تأنيبه عما أوشك أن ينيله إمرة البصرة ، لولا أن اعتذر وقال :

« . . بل رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطمئنوا ، وسأكفيكه ، وأشير عليه . . . »

وقد فعل . فكان المشير المخلص الناصح لواليها دونه عبد الله ابن عباس . وكانت له فى سياسة الأمر فيها حكمة أدلى بها للأمير حقيقة بأن يصلح بها شأنها فى مثل ذلك الوقت الذى أطلع الفتنة :

« اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . . . »

ثم كان من بعد يدا لعلى قوية القبضة ، أمسكت نواحى من دولته أن تنهار. لم يغره عن الوفاء له نسب يلحقه بأبى سفيان ويلصقه أخا بصاحب الشام غريم الإمام ، ولعل أبلغ ماقد يشير إلى المحاولات التى ظل معاوية يبذلها لفتل ابن أبيه، والميل به عن الولاء الذى اسننه لنفسه وارتضاه ، ذلك الكتاب الذى بعث به أمير المؤمنين ، بعد حين ، إلى زياد ، يبصره بخديعة أخيه :

« . . وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ، ويستفل غربك ، فاحذره ، فإنما هو شيطان يأتى المؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته . . . وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر فلتة من حديث النفس . ونزغة من نزغات الشيطان . لا يثبت بها نسب . ولا يستحق بها إرث . والمتعلق بها كالواغل المدفع . والنوط المذبذب » .

لكن معاوية لم تقعد به وسائله عن الكيد للرجل الواضح المحجة . السوى السبيل . فإن له إلى النفوس مسارب ملتوية كأنها مسارب الأراقم والثعالب الرواغة ! . . ولئن أعجزه أن يلقى غريمه بالحجة فليس يعجزه أن يلقاه بالخداع . ولئن بات كالخفاش يعشيه النور فمجاله إذن ظلمة الدسيسة . ولئن عز عليه أن يستلحق زيادا وإن لوح له بالنسب الأصيل بعد الصلب المجهول . فهين أن

يستلحق غيره ويلفهم حول عروض دنياه كالتفاف الضباع بالجيفة ! . . يسير هذا عليه ما بقيت النفوس كلفة بالآراب والمطامع ، وما أكثر من استجابوا سراعا لنزغة واستعبدتهم شهوة الحقد ، أو سطوة المنصب ، أو فتنة الثراء .

حتى أولئك الذين اصطلوا بمحنة الجمل وودوا لو جنبوا نفوسهم محنة غيرها تالية ، لم يعدموه محركا لنفوسهم على الإمام . . . نجا ابن عامر من البصرة بثوبه وما يكاد فطوى فى حشاه همه وقبع ببقعة بعيدة عن النضال يجتر فيها طموحه الذى التمع آونة من عمر الغابر فى أفقه التماع السراب ، فلما قنع من كفاحه الفاشل بالأوبة ، وغنم البقيا ، وحسب الهدوء والأمن فى حيثما أقام ، جاءه من معاوية كتاب يثيره ، ويوقظ فى فؤاده أطماعه الجريحة ، ويحرك فى نفسه جذوة الحقد التى أوشك أن يدفنها رماد الاندحار .

إذ ذاك كتب الرجل — الذى ما زالت فى دخيلته بقية تحضه على أن يلوذ بالسلامة — يرد على كتاب الشيطان :

« . . إنى أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة وأنا أقول : إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الزبير ، وإن غدر الناس لم يغدر مروان . فغلبت عائشة ، ورجع الزبير ، وقال مروان طلحة ، وذهب مالى بما فيه . . . وإن اليوم كأمس ، والناس أشباه ! . . »

فلم يوئس الجواب ذلك المفتون بالسلطان . الساعى إليه من كل سبيل وإن كان تمزيق الأمة وتفريق وحدتها ، بل عاود نزغه هذه المرة أبلغ وأشد فكتب يقول :

« . . أما بعد ، فإنك قلدت أمر دينك قتلة عثمان ، وأنفقت مالك لابن الزبير ، وآثرت العراق على الشام فأخرجك الله صفر اليدين ، ليس لك حظ الحق ولا ثأر القتيل . . »

ويمضى يدور بابن عامر ، يعالج جماحه ، ويهيج فيه ما خمد من نخوة الثأر ويوقع فى فؤاده الحسرة على ما أنفق فى فتنة الجمل من أموال ، حتى يلين لوسوسته . . . فإذا رآه ترك نجوته ، وشد نحوه الرحال ، وابتسم لنفسه راضيا عن أحابيله . . . أليس به قد استزاد أصبعاً جديدة فى مجموعة الأكف التى أعدها كى تجتذب له الشواء الشهى من بين النار ؟ . .

٢

غدت المدينة بلدة الذكرى ! . . لم تعد موطن الحكم ، ولا مستقر الحياة السياسية التي أخذت تصبغ الدولة من طرفيها بأصباغ فيها اختلطت حمرة الدماء ! . . إنما باتت وأصبحت فإذا خطرها قد ذهب ، وضمه الماضى ، وبقيت لها منه الصورة الباهتة التي تتحدث سماتها البوادى بدورها القديم فى تاريخ الإسلام .

سبعة أشهر من التنافر والاضطراب قضت تماما على مكانة البلدة الطيبة ، وخرجت بها عن معترك الأحداث التي مضت تنحرف بمصير الأمة إلى خلاف ما رسمت لها رسالة الرسول . وإلى غير ما أملت نفوس قوم رفعوا فى السنين الخوالي ألوية الكفاح والجهاد . وكان الدين الناشئ القويم يأسى ، والقلوب الخالصة لله تقطر بالحزن خشية من مستقبل غامض يهم أن يقودهم إلى التناحر . غير أنه قدر جرى على بلاد السلام لم يكن له من مغير ، ومصير مقضى به قبل أن تتجمع فى الأفق مقدماته وأسبابه ، الله بالغ به أمره . ومنذ اللحظة التي أمسك فيها عبد الله بن سلام بعنان دابة الإمام يود أن يرده عن الخروج من حاضرة محمد ، كان ذلك المصير قد استوى قائما على قدميه ، وراح يدب على صفحات التاريخ دبيب الدابة على صفحة الرمال . فما انثنى على ، بعد مسيره فى أعقاب جند عائشة ، إلى مدينة الرسول . ولا عادت البلدة ثانية إلى ما كان لها من المجد ومن القوامة السياسية على أمصار الإسلام . ولكنها تخلفت عن مكان الصدارة ، ونزلت مقهورة عن دورها السالف إلى سواها ثم قبعت كسيرة فى قتامة الظلام ! . .

وكانت الكوفة هى الوارثة . برزت إلى ضياء الحوادث ذات يوم من الشتاء ندى الريح . وتسلمت صوالج الحكم من الحاضرة الأولى ، التي احتضنت النبوة ، وآوت شرودها ، وأمنتها من خوف ، ثم شهدت من بعد انبعاث المستضعفين من كتائب الله ، وانتشارهم فى الآفاق على الحواضر والبيد ، ذوى أيد شديد وفى أكفهم مشاعل النور . . . الكوفة أخذت عن أمها الهادية الراية . وقامت على الأثر

بجهد لتترسم خطاها فى سبيل نصرة الدين . ولقد أبى عليها الطالع أن ينفسح أمامها الزمان ويمتد به سلطانها جيلا تستطيع خلاله أن تمكن فى القلوب لبذرة الهداية . . . لكنها ، على أى حال ، قد وسمها فى فترة سيادتها القصيرة ، كليلة الصيف ، أن تفرق الهدى من الضلال . وما أجله من سفر سطرته فى الحق أصابع الإمام حينما أقام فيها سلطانه . وما كان أنضر عهده من أيام لو أدخلنا فى حساب حكمنا المبادئ القويمة التى اختطها بتلك المدينة لتكون شريعة ، بها تستطب القلوب وتستنير الأفهام .

غير أن الهوى خوان ، فشقيت بدائها الضمائر ! . . أم تستقيم الحياة على محجة سوية وإن للبشر لأنفساً تحيد وتميل ، وأعيناً تعشو عن السبيل ؟ ... بل الناس استدنوا طريق الدنيا فأقبلوا عليها ، واستطالوا طريق الآخرة فأدبروا عنها ، وبئس لهم ما فضلوا من مقام ! ... كانت للشيطان فى قلوبهم حصون وقلاع ، وبينهم موال وأتباع .. وكانت تلك الزمر من حشوده وجنوده لا تربض فحسب بالشمال ، إنما فى حيثما اختلبت اللب غاية ذاتية فطغت بصاحبها على قانون الأخلاق . لكن الشام — فيما أحسب — كانت حينذاك أرضاً وبيئة يموت فيها الإيثار ! ... أما الأثرة فلها هناك طلع منضود وظل ممدود . فلقد دعا معاوية فيها بدعوته التي حركت فى النفوس شرها بإثارة شراهتها ، وفتحت أمام العيون آفاقا وسيمة من الدنيا كلها متاع .

فى هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية وقفت الكوفة تنضح جهد الطاقة عن تراث النبى ، الذى انتهى إلى ابن عمه ، فلا تدانع — إذ تنضح — عن سلطة الإمام قدر دفاعها عن مبادئ الاسلام . كفاحها فى حقيقته لم يكن يستهدف بسط سطوة زمنية بذاتها ، ولا فرض حاكم بعينه على البلاد والعباد ، بل قد كان كفاحا خالصا لتقويم الطباع وكبح جماح الأطماع . وفى خلال الأعوام القليلة التى تسنمت فيها منصة الحكم سارت دائما على سننها لا تحيد ...

كانت نصيرة الفطرة السليمة والخلائق المستقيمة ، فمضت قدما تحمل البشر على حق الله . وكان الصراع العنيف الناشب بين دمشق وبينها ، حقيق بأن جلى تبيء للعارفين الصدول ، صراعا بين عماية الظلمة وصفاء النور ... كانت

قصبة الشام ، ومن ورائها أميرها العاتى ، تحالف المادة وكانت الكوفة تناصر الروح . ولمن شاء أن يستقصى ما شاء فيستوثق كيف كانت سياسة الإمام البادية العيون ، تلتزم الصراط ، وتستهدى فى الكفاح المرير بالمثالية ، بينما غريمه كان يغوى ويدس ويبيت ، حتى أقام له سطوة على أكتاف مردة الظلام ! ...

بنفس الأسلوب الذى بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة مضى ابن عمه يبنى فى الكوفة . فلا مخاتلة ولا إغراء . ولا هوادة فى حق أو مساومة فى باطل ... لا انحراف قط عن الخطة المثلى التى اختطها الله فى كتابه سبيلا للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء . فمن اليوم الذى انتهى فيه إليه أمر أمته كان الإمام فى قرارته يشعر بأن عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذى أرادها عليه الرسول . ولو قد خلى له ليختار لآثر النأى عن تقلد الخلافة زهادة ، لكنه رأى قومه بباب فتنة ، وقد ثابوا إليه ، وأجمعوا إجماعهم ذاك على تنصيبه فكان أليق به أن يبادر بغوثه عسى أن يردهم عن اقتحام المزالق . ولو تركت له الخيرة بعد استخلافه لظل جارا لمثوى محمد وليه وهاديه . غير أنها أحداث جرت بغير ما يهوى قلبه فأخرجته عن مقامه الحبيب ، ومضت به ، تخط وإياه تاريخاً جديداً لقصبة جديدة هو فى حياة البلاد أقباس نور ...

أما وقد تبعنا الإمام عبر الصحراء ، من الحاضرة الإسلامية الأولى صعدا إلى مستقره بالرحبة ، بعد انقضاء فتنة الجمل وتوقف النزاع للسلاح إلى حين ، فجدير بنا تبين الدوافع التى جعلت الكوفة أثيرة لديه حتى اجتباها مركزاً لدولته دون غيرها من المدائن ... ألأنها موئل عزيز لأوليائه ؟ ... أم لتوسط موقعها فى رقعة بقاع الإسلام ؟ أم هى أدنى بلدة فى الأمصار من دمشق فلا تخفى ليه فيها خافية مما يبيت له معاوية بالشام ؟ ...

حين نكر بالزمن خطوة إلى الوراء ، بضعة أعوام ، نرى ثمة عاملا يتبدى فى ضياء الحوادث المضطربة حينذاك ثم يصبح مناضلا حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمعة كالهشيم فيشعل فيها النار ! ... إن عزة الكوفة بأنصار على ، وتوسط منزلها ، ودنوها من موطن دسيسة الأموى الأول ، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر ، ذات أثر فى اجتبائها حاضرة ، ولكنها لا تحيط بكل

الأسباب . إنما نجد ذلك العامل الذى أجج الفتنة على عثمان فى ذيل عهده كان هو صاحب اليد الطولى فى الخيرة ، وبريشته وحدها تلون مصير المدينة ، وتلون مصير البلدة التى قامت اليوم تتزعم بلاد الإسلام ، وتلون من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة .

فى الكوفة حينذاك بزغ فجر القوميات . . . بأرضها انغرست بذرتها ، ثم نمت ، ثم اشتد عودها واستطال حتى استقضت الخليفة الشيخ أجله . ولم تكن فى حقيقتها فتنة أريد من ورائها تبديل حاكم بحاكم ، إنما قد كانت ثورة على وضع من الأوضاع أمعن فى تأييده أمير المؤمنين عثمان وغدا جماع سياسته فى الأمصار فأبت البلدة أن تخفض له الجناح . . . ومن الإنصاف الذى تجأر حوادث تلك الفترة بمقوماته ، أن نقرر خطل تلك السياسة إذ هى لا تنهض على عمد وطيدة من الدين . كلا ! بل كانت كذلك لا تتفق ولب الرسالة المحمدية التى نادت نداءها لتسلك البشرية كلها فى وحدة عامة ، المنطوون فيها سواء .

هذه المساواة التى انبنى عليها صرح الإسلام واجتذبت إليه الشعوب على اختلاف العناصر واللغات والألوان ، لم تجد فى عثمان من يعلى لها ، ويمكن لسطوتها على النفوس . إنما شهدته ينحرف إلى مثل العصبية الجاهلية الأولى فيؤثر من الأمة فريقاً دون البقية ، هاديه فى إيثاره : قوميته الخاصة ، ثم قبلها أو بعدها قرابة الأقربين . ولقد نتلمس له العذر حين نحسبه أرادها دولة عربية خالصه أقدر على نشر الإسلام ، فى دور تأسيسه ، أشد غيرة عليه من بقية الشعوب . ولكننا إذ نتتبع سياسته لا نلبث أن نراها سياسة قبلية تجتبي قريشاً ثم تختص منها الفرع الأموى الذى ينتهى إليه نسبه فتؤثر رجاله ، دون غيرهم من العرب ، بالنفوذ والسيادة . ولو قد أحسن الشيخ انتقاء عماله من بين ذويه ، لكان هذا أدنى إلى تجنيبه مصيره . لكنهم كانوا فتية غير ذوى مرس وخبرة فأساءوا السيرة فى الأطراف التى تولوها وهم يرون فى إمارتهم ميراثاً خاصا يديرونه كيف يشاءون . ولسنا هنا بسبيل حصر ما أتوه من أخطاء فنعدد لهم ما ارتكبوه ، لا ولا يعنينا أن نعرض لهم عرضاً يظهر شخصياتهم المتهافتة المريضة ، ولكننا نجتزىء من أمراضهم النفسية بذلك الصلف الذى حركته فيهم

دماؤهم العريقة وأحسابهم الرفيعة فمضوا به يستعلون على رعاياهم ، ويرمقونهم بعين السيد رمق عبده الرقيق .

غير أن الذين أشربت قلوبهم مبادىء الإسلام وعرفوا أن نواتها المساواة بين أبناء بلاده كافة ، أبوا أن يطأطئوا الجباه لصلف الولاة . فلئن كانت قريش فى القديم أعرق العرب وأعلاها شرفا فلقد غدت وإياهم بمنزلة سواء أمام الشريعة . ولئن حسبت العرب لأنفسها قدمة على غيرها فى الدين فهى بانتشاره باتت شعبا من بين شعوبه ، نأت أو دنت منازل هذه الشعوب من تخوم الجزيرة . أولئك وهؤلاء أضحوا طائفة من الشعب الإسلامى الكبير الذى لم تعد تفصل بين عناصره العديدة فوارق جنسية أو حدود إقليمية — عضواً فى كيانه ، ولبنة فى بنيانه ، لا يتفردون ولا تتفرد زعيمة حسبهم قريش بفريضة فى الدين أو مزية مما كتب ربهم على المجموع . . . .

الإسلام بث إذن روح المساواة فى نفوس أبنائه مؤلفاً بها بين العرب والأعاجم وإن اختلف اللون من اللون وتباين العنصر عن العنصر . غير أن السياسة العثمانية — فيما يبدو — لم ترقها المساواة فسايرت هواها ، ومضت شوطها وهى تحمل فريقا من أبناء الأمة على فريق وتختصهم جهاراً وخفية بأكرم الأنصبة والمقادير . وكانت قريش عامة ذات الحظوة الأولى عند التقديم ، وآثرها به وأسبقها إليه أهل بيت الخليفة حين توزع المناصب أو تقطع الإقطاعيات وتوهب الهبات ، يجتزئون بالنفوذ والمال . . . فلم يكن عجباً — وهذه هى الحال — أن تنشأ فى البلاد طبقة جديدة تحصن أفرادها بالثروة والحسب والسطوة فغدوا ذوى قوة عاتية فى تسيير أقدار الدولة وصبغ مصيرها بالصبغة التى يشتهون .

فلعل امرأ يذكر هاهنا طبقة نظيرة لهذه سبقتها إلى الحياة ، وبرزت بالمجتمع الإسلامى فى عنفوان دولة ابن الخطاب . تلك كانت لا ريب تصلها بلاحقتها سمة واحدة من التشابه ثم تفصلها عنها سمات من الخلاف . ففى عهد عمر سار الرجل على سنة فى الأفياء خالف بها المأثور عن رسول الله وعن خليفته إذ أجراها على غير سوية وقسمها بين الناس أنصبة مختلفة المقادير . وكان من أثر هذه التفرقة أن ظهرت على الزمن — طبقة باذخة الثراء فى المسلمين تكتنز المال ،

أدى وجودها إلى تذمر البقية الفقيرة . لكن الحزم العمرى عرف كيف يكبح أولئك السراة — وكلهم من الصفوة والسابقين إلى الإسلام — عن استرقاق الأنفس بجاه المال ، فحبسهم بالمدينة إلى جواره ، لا ينتشرون فى الأمصار ، ولا يحركون شيئاً فى سياسة الدولة التى امتلك أعنتها فى قبضة كفه القوية . . .
أما عثمان فلم يكن له حزم سلفه ، ولم يرع فى منح المال ما كان ذلك يرعاه . ثم راح أيضا يوزع إمارة الولايات على ذويه ، ومقياس بذله المال واستعماله العمال هو القربى ، دون الحاجة ودون القدرة على الاضطلاع بالأمور . . .

هكذا نشأت فى الدولة طبقة ثرية حسيبة فى أيديها السلطان . فلم يكن مما يخالف الطبيعة البشرية أن ينظر أفرادها إلى عامة الأمة من علياء برجهم الاجتماعى نظرة الصلف والتكبر ، فهم أصحاب الثروات ، ذوو الأحساب ، مالكو الرقاب ! . . ولم يكن أيضا مما يخالف الطبيعة البشرية أن يتبرم الناس باستعلائهم ، سواء فى التبرم من غضب لله إذ أهدروا المساواة ، ومن غضب لنفسه عن حسد لهم وغيرة مما انفردوا به من ألوان الجاه . وكانت الشعوب المغلوبة أسبق غيرها إلى استشعار الضيق بصلف هذه الطبقة ، المتمثلة حيالها فى أمراء عثمان ، لأنها أبت لماضيها التالد ذى الأمجاد ، أن يطأه كبر عصبة من الحكام تنتهى — فى حساب الحضارة — لشعب كان حتى أمسه القريب بغير تاريخ ! . .

« الأرستقراطية القرشية » هى التى كانت وحدها المقصودة بالتدمير حين الثورة على عثمان . فى الأمصار اضطرم عليها السخط والتذمر بنفوس الموالى والأعراب سواء بسواء . ومن الكوفة طارت شرارة اللهيب . وبالمدينة تهاوى الحطام . . . ولعلنا هنا فى غير حاجة إلى معاردة تبيان غضبة الأشتر وصعصعة ابن صوحان وأصحابهما على سعيد بن العاص ، ليلة ملكه غروره ، وأخذته العزة بحسبه ، فادعى سواد العراق قنية خالصة لقريش من دون سكانه الأصليين ، وفاتحيه ، والنازحين إليه من قبائل العرب غب دخوله فى الإسلام . كذلك لا نرانا بحاجة إلى تكرار عرض الحوادث التى أدت لاستشراء الثورة فى بقية أرجاء الدولة وانتهت بهدم سلطان عثمان . إنما يكفى الإقرار لهذه الحركة بالنجاح وبلوغها ما رنت إليه . فلقد وسعها اقتلاع الطبقة الحسيبة الحاكمة ، وقشرها

من نفوذها ، وابتزازها ما كان أضفى عليها جورا من الهبات والإقطاعيات ثم رده إلى بيت المال حقاً لعامة المسلمين . . .

بالانتصار لحق العامة بدأ عهد الإمام . . . كان على وليهم ، تتجاوب فى فؤاده أصداء مشاعرهم . وكان هو الرجل الذى اختاروه — حتف رغبته — ليصلح فى الأمة ما أفسد سلفه ، ويعيد الأمور فيها على النسق الذى رسم الله ووضع أساسه الرسول . فليس إذن بمستغرب أن ترى الطبقة المستعلية صوالحها فى غير سبيله ، فتتحد على حربه عساها تستعيد نفوذها الذى غلبتها عليه عامة الأمة . أو تتجيش حشوداً وجنوداً تظاهر أيما رجل وقف منه بموقف مناجزة . وليس أيضاً بعجب أن تصطف خلفها قريش تنضح معها عن عزتها القبلية ومزاياها الاجتماعية التى أهدرتها سياسة الإمام الهادفة إلى تحقيق المساواة التامة بين المدلين بالأحساب وبين سواهم من بقية العناصر فى شعوب الإسلام .

وكانت المدينة — وهى حينذاك موطن السادة — حرية بأن تخلص ثانية لأهلها حرة ، حين تنحسر عنها أمواج الوفود القادمة عليها من الأمصار إبان فتنة عثمان ، وأفواج العبيد والأعراب الذين ظاهروهم على تدمير سلطانه . فلم تكن إذن ، وهذه حالها ، بالتى تصلح عنوانا معبرا عن المادة التى يحتويها سفر العهد الجديد بين غلافيه ! . . . ولئن كنا شهدنا أشرافها يبادرون إلى الإدلاء بالبيعة إلى الإمام ، فلقد شهدنا منهم ، حين قرت الأمور وارتحل عنها الثوار ، فريقا سارع إلى نقض البيعة ونكث الأيمان ثم لم يكفه إلا أن يجلب على أمير المؤمنين بالخيل والرجال : . . وشهدنا كذلك فرقة تداولت فترة بين الإباء وبين الإقرار عسى أن تسفر لها غيوم الأحداث عن الجانب الذى تستطيع أن تنحاز إليه وهى فى أمان من الوبال ! . . . أولئك وهؤلاء قد شهدنا ، ثم من بعدهم غيرهم : بقايا الأرستقراطية القرشية ، يتسربون تباعا من مكامنهم ، تسترا وخفية ، فيرحون دورهم بالمدينة وسواها من بلدان الجزيرة ، ليلحقوا بمعاوية غريم على وحليفهم الطبيعى . لعلهم بمظاهرته يستعيدون مكانتهم التى لا رجعة لها إلا فى التفاوت بين الطبقات . . .

الكوفة إذن هى العنوان ! . . فى اتخاذها حاضرة جديدة للعهد القائم

الجديد بشير لأهلها خاصة ، ثم بعدهم للساخطين من أعاجم وأعراب ، الذين انبسطت لهم رقاع البلاد المتقطعة من ملك فارس والروم . . . أم لا والإمام لم تقم له دولة إلا على كواهلهم ، ولم يعز عندهم مكانه إلا لأنه أقدر الناس على الرجوع بسياسة الحكم إلى ذات الأسس السليمة التى وضعها الدين وبنى عليها الرسول ؟ . . الآن ، وهو قائم على أمته ، كفيل بإنفاذ شريعة العدالة التى أمامها يستوى الكافة ، فلا تميز بين فرد وفرد ، أو عنصر وعنصر . لا حياة فى المجتمع الإسلامى لهذا التفاوت بين الطبقات الذى ابتدعته الأحساب والثروات والمنازل وأضرابها من مزايا مادية . إنما ينبغى أن يقاس التفاوت بينها بمقياس روحى : هو حرصها على التشبث بالدين ، وسبقها إلى التزام تعاليمه . . أجل . فى سيادة الكوفة بشير . وفيه أيضاً نذير رافع الصوت ، حرى به أن يقرع أسماع الأشراف والسادة ويدوى فى آذانهم دويه ، معلنا لهم فى كل لحظة وحين أن الله قدير أن يذهب ريحهم ، ويورث غيرهم عزتهم مابقوا هكذا سادرين فى انحرافهم مع الأهواء عن سبيل هديه القويم . . .

هذه بعض مشاعر الكثرة من المسلمين حين تسنم على الحكم فى دولتهم ، وحين طفت الكوفة على صفحتها ورسبت بلدة الرسول فى القاع ! . . وهى تحت التأمل حرية بأن تصبح قوة معنوية لدولة الإمام ، إلى جوار القوة المادية ، التى آزرته وسندت سلطانه الشعبى ، المتمثلة فى أهل الكوفة الغير على حقوقهم ، وفى أبناء الشعوب الأخرى المستلحقة بالدولة حينذاك من أعاجم وأعراب . فلقد كان على يكون وحده الرجل الذى فهم هذه المشاعر وهى بعد تصطخب فى نفوس أصحابها قبل الانفجار ، فكان يرى دائما أن تتخذ سبيلها إلى الحياة لأنها جديرة ، فى نطاق ما رسم الله ، بأن تتنفس وتعيش . لكن غيره أغمضوا العيون . . . وها هو السخط انبعث كطوفان ! . . وها هو الدوى أقض مضاجع السادة النيام ! . . وها هى سنة الله تحق عليهم كما حقت قبلهم على من سلف من بنى العصور الغوابر الذين جانبوا العدل وآثروا الجور . . أفقد حسبت قريش أن ربها مستحدث لها وحدها سنة تغاير ناموسه الأزلى الذى لا يقبل التحول ؟ . .

إنما غرها الكبر وخدعتها الخيلاء فتعلقت من دنياها بمثل السراب ! .

أما أمير المؤمنين فأعرف بما تبطن وبما تظهر الحياة، لايستهويه منها طلاء ولا يفتنه زخرف . . . إن عبرة الماضى تعيش دائما فى ذهنه ، وحكمة الأعصر تتدفق عن لسانه تدفقها فى منطق الحوادث المتواترة على البشرية طوال الأزمان . . . يجيئه بالكوفة أهالى السواد فيخلو منهم إلى «نرسا» يستفسره بعض أنباء قومه :

« أخبرنى عن ملوك فارس ، كم كانوا ؟ . . »

فيجيبه الفارسى :

« كانت ملوكهم فى هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكا » .

« فكيف كانت سيرتهم ؟ . . »

« ما زالت سيرتهم فى عظم أمرهم واحدة ، حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال ، وخالف أولينا ، وأخرب الذى للناس ، وعمر الذى له ، واستخف بالناس ، فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا عليه فقتلوه . . »

وعند ذاك يقول الإمام :

« يا نرسا . إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق . وفى سلطان الله تذكرة مما خول الله . . »

وكذلك هذه تذكرة لمن يعى ، تتحدث بها الشواهد التاريخية ، وينطق التنزيل . ثم لا يزال العالم يسير على السنن الواضح ما لزم حكامه الخطة المثلى التى رسم الله بعداد العدل لسياسة الرعية .

لكن النفوس قلب ، والقلوب غير . ما يدعها الهوى فى مستقرها إلا كطرفة العين ثم يميل بها مرة إلى يمين وأخرى إلى شمال . ولا تكاد الضمائر تثبت أمام إغرائه حتى تأخذها أمواجه وتتقاذفها أواذيه . وهانحن أولاء قد شهدنا الإمام ، من أول يوم سلطانه ، تضطرب حوله الأهواء كأنواء ، فتدفع بسفينه بعيداً عن البلدة التى رحبت بهجرة الرسول ، فى البدء ليقهر شراذم الجمل الخارجة عليه ، الناكثة لعهد الله ويردها إلى الطاعة ، ومن بعد ليقمع شهوات صاحب الشام ويلزمه الفىء إلى كلمة الجماعة . . . ها نحن نتبعه على أودية الرمل ، وفى مغاور البادية الفسيحة كالتيه ، وهو يسل سيفه آونة بالنقمة ، ويحرك لسانه مراراً بالحكمة ، ليأخذ النفوس الشاردة بتلك السنة الإلهية التى تنظم العلاقة بين الحاكم

وبين المحكوم ، وتضمن البشرية — شعوباً وأفراداً — عدالة مثلى لا ينتهب فيها الحق ولا تستباح الكرامة . . إنه ليمضى . . قدما يسير غير آبه — فى الله مسيرة ، وإليه مصيره — يدوس الصعاب ويطأ الأوصاب . . إنه ليدع وراءه أسوار بلدة طيبة ، عزيزة الذكريات ، خلع فيها إهاب الشباب ، وروى تراب التخوم حولها من جراحه ، واستودع ثراها الرطيب أحب صفوة إلى قلبه : الرسول والزهراء . . إنه لينطلق عنها فى هجرة ، كما أتاها فى هجرة ، ليبدأ نضاله عن حق الله ، وتحرير الناس من ربقة الناس — ينطلق شوطه المسير القصير ، فى فؤاده يقين ، وبروحه هدوء الإيمان ، فلا يزال بقية عمره بين مد الحوادث وجزرها حتى يعانق السلام بدنه وهو نازح ، نائى الموطن ، غريب الديار ! . .

٣

أبى له أن ينسى عهده . عهده الذى قطعه أمام الله وإنه يومها لطفل أبى جبينه أن يعنو للباطل المتمثل فى أوثان تخلقت من حجارة منحوتة ؟ . . . الحق أبدا ، والحق وحده غايته ، وإن مشى إليه فوق الأشواك ، ومد نحوه حبلا من روحه ، وسبح على نهير من عرقه الناضح ودمه المسفوك . . .

ولقد وخزه الشوك ، وأذاب من روحه ليهدى العصاة . وبلل بالدماء والعرق الجبل والقاع . . . غيره كان حريا بأن يتلق الأمور بالدعة والسكينة ، وبالرضا والطمأنينة ، فقد انبسطت تحته الدنيا ، كما عرفها عالم تلك الأيام ، إلا بقاعا قليلة كانت وشيكة أن تطويها أعلامه . . . إن ملكه قد ضرب بين قرنى الشمس . استغرق فارس ، ولامس الهند والصين . . . هز تاج الروم ، مطوحا بأهله عبر الصحارى الإفريقية الوسيعة ، يقتلعهم من شواطىء الأبيض فيها إلى مياه الأزرق فى غربها البعيد . . تاخم شمالا بلاد الجليد وتاخم جنوبا مواطن السود . . ذهبت الأكاسرة ، وذلت القياصرة ، وغدت الدنيا على اتساعها تضيق عن همة قومه الفاتحين . . . لكنه هو لايقنع ، ولا يرضى بهذا التراث الذى انتهى إليه عن أسلافه يفتقد عرشه وهو مستقر قرير . ليست العزة فى حساب رأيه بالرقعة

الممدودة ، المحدودة بالجهات ، الممدودة بالأقاليم . . . ليست بكثرة الشعوب والأجناس التى تخضع لهيبة الحاكم ، المنعكسة على أشفار السيوف وأسنة الصوارم . ليست بتلك الخيرات الدافقة على حاضرة الدولة . المبتزة أو المجلوبة من البلاد المغلوبة . . . هذه كلها مظاهر يراها غثة ، تبدى القوة لعين المخدوع ، وما هى بقوة ، وتبدى العزة وقد يكون حشوها هباء ! . . إنما المنعة أن تمتنع النفوس على الهوى ، وتعز عن مناله . العزة أن تتحصن دون نزغه وزيغه . أن تتحرر الأفكار من إسار الوساوس . أن تتطهر الأرواح من أدران المادة . أن تلفظ القلوب مضغة الشهوة . وحينما يجد الحق طريقه للأفهام والأحلام ، وتسبح له نواة فى عروق البشر من رعيته تلون دماءهم ، وتنمو وتثمر — عندئذ يكون الإسلام قد حقق مبادئه ، وامتلك أعنة القوة ، فغدا حريا بأن تنتشر ألويته على الآفاق ، ويسير شوطه إلى الأمام .

هو عليم بأن دينه لا يقوم على غزو البقاع وامتلاك الرقاب ، وإنما على غزو الأنفس وامتلاك الألباب . والرقعة التى تخضع له لا تقاس بالأرض التى تطؤها جيوشه ، بل بمقدار من أشربت أرواحهم تعاليمه . وما كانت قط غاية هدف إليها الإسلام أن ينشر على العالم بأقطاره نفوذاً سياسيا من لون خاص . ولا أن يلتئم طائفة من الدويلات فى دولة ذات حدود تستمد هيبتها مما تذخر من عتاد وتحشد من كتائب وأجناد . . . « الإيمان الأول » هو وحده السلاح القاطع الذى يستطيع المسلمون به بسط سلطانهم على الدنيا الضالة ، لأنه سلاح من عند الله يفل ماعداه . الإيمان الذى غرس محمد — عهد تبشيره بالرسالة السماوية — نواته فى قلوب حفنة من المستضعفين والعبدان فأعادها نشأة جديدة ، ذات بأس شديد على ذوى الأيد والجبروت من أصحاب العروش والصوالج . تمشى على ملكهم مشى الإعصار المدمر والطوفان الجائح . . . كانت هذه قوة روح تنحسر أمام مدها قوى المادة الصماء ، وتذل ، وتتلاشى حتى كأن لم يكن لها قبل التلاقى كيان . لكنها اليوم ليست كالأمس . فترت خبا ضرامها : بردت جذوتها أو تكاد فلم تتقد فى الجوانح اتقادها القديم . ولئن ظل علم الاسلام يرتفع على ساريته ، وبقى حكمه يمتد فيشمل بقاعا من بعد بقاع ، فتلك بقية من القوة الدافعة التى

ابتعثها ذلك الإيمان ما زالت تحرك دولابه ، وتسدد ركابه حتى يثين لها أن تفق — بعد جيل ، أو حقبة ، أو قرون — لولا أن تبادر النفوس الغافلة فتثوب !...

على مثل هذا النحو كان على يفهم واجبه الذى لزم عنقه منذ ولى الأمور . وفى ضوئه كان يلمح المصير الذى ينتظر أمته ويقتظر معها البشرية . ومن عظات الغابر السحيق والماضى الدانى راح يقبس الأمثال فتلهمه ليكافح حتى لا تغدو عقبي الإسلام عبرة منذرة لمن أراد تفسم العبرة وإلقاء سمعه للنذير . . . فلم يكن للعبث ما سلف من جهاد الرسول . ولغير هذه الغاية المخوفة كان تبشيره . وإن الفرد ليذهب ، وإن العروش لتتهاوى ، وإن الدول لتضمر أو تتقلص عنها ظلال الوجود ثم لا يبقى بعد هذا كله وغيره من العروض والأباطيل إلى شىء ينفرد وحده بالبقاء فى الحياة كالدهر هو الحق الذى لا يفنى له جوهر ولا يزول . . .

فلتمتد إذن إلى سلطانه يد الأهواء تهم أن تنوشه من كل ناحية ... ليتربص به المتربصون . . . ليقعدوا له كل مرصد ومدخل . لكنه لن يستسلم . لن تهن روحه قوى . لن يشترى منهم أمنه وراحته بعطية يلقيها إلى شهواتهم كالعظمة إلى الكلاب الجياع ! . . لقد كان أدنى إلى هدوء باله واستقرار السلام فى أطراف دولته لو رضى لهم بإمرة هذا المصر أو ذلك القطر يسودونه وتبقى لهم به بعض مظاهر الكبرياء والعزة وبعض علائم النفوذ التى تسيل لها نفوسهم تحرقا ولهفة . غير أنه يأبى الهدوء الذى يأتيه على أنقاض مبادئه وأشلاء المثل العظيمة التى يؤمن بها حق الإيمان . ليس فى خلقه أن تثبت تحت قدميه رقعة أرض يظلها حكمه بينما تتحطم قواعد الحق وتتهاوى فى روحه . وإذا كان معاوية يكاد يشنها عليه حربا شعواء وهو يظهر للناس بداره إلى الثأر لدم عثمان ، فإنه ليسر الحرص على استبقاء ما فى يديه من نفوذ ، وليوشك أن ينسى ولاية الدم لو لوح الإمام له بولاية الشام ! . . .

لكنه تلويح محال . ومنطق للناس من ناقدى السياسة العلوية يعوزه الاستناد إلى القواعد الخلقية وإن وجدت له من قواعد الرياء بضعة أسناد ! . . فما يحق أن يلام من يدرأ عن اللب والجوهر قبل العرض والمظهر . وكان الحق هو الأصل . المبادئ المثلى التى سنها الإسلام للبشر شرعة لعالم مثالى هى الجذر

والبلاد التي تنضوي تحت حكمه هي الفروع . ولن يضير الدوحة أن يتقصف منها غصن أو يتكسر فنن ، وإنما يضير ويأتي عليها من القواعد أن يدب الفساد إلى جذورها الغائرة في الأعماق ! . . .

وكان الإمام على بينة من الأمر الذي أخذ نفسه بإقراره ، فصلب فيه واشتد حتى العناد . وقد كان كفيلا بمعاوية ، قديراً على أن يخضعه وأضرابه ، ويسوقهم إلى الانصياع لهديه المنبثق من روح الإسلام ، وإلى الامتثال للقيم الإنسانية العليا التي دعت إليها تعاليمه . ولكنه كان كذلك أبعد الناس عن الغرور والاعتزاز بما في يديه من قوة ، فللزمن أحياناً جموح ، وللظروف الدنيوية بدوات قد تخفض العزيز كما قد ترفع الذليل . وهو أمام عواملها المجهولة ، المتسربلة بالغيب . التي لا يكاد يدربها حسبان الحاسب ، يرى « ربما » حرية أن تتخايل أمام عينيه ! . . فمن يدري ؟ . . لربما فشت في القوم فاشية من حب الدنيا فقدموا الدعة وأخروا الجهاد ؟ . . لعل أن يحوزهم باطل ! . . قد يستأسرهم من معاوية سرفه وترفه فتمتنع الشام على جنود الإمام ! . عندئذ لا يعدم علي عاذلا يعذله لأنه لم يهيء لنفسه أسباب السلامة ولم يرض بمهادنة تبقى الدولة بها سليمة ، وتظل دمشق ، وعاملها المشاق ، تحت ظله . . . أما هو فقد وطن على العذل نفسه ، ووطنها على أسوأ ما قد تنجاب عنه الأحداث من فروض وأحداس . وإذا كتب لابن أبي سفيان وأشباهه أن تكون لهم في دولة الإمام إمرة فلتكن إذن حين ينبو سيف علي وتتقطع أسبابه ، ولا يقولن بعدها امرؤ عنه إنه خشي على سلطانه فداهن وهادن ، وأقام ركناً لدنياه على أنقاض مبادئه ، وساوم في حق الله وحقوق الناس ! . . .

نظائر هذه الخواطر وأمثالها كانت دائماً تعتلج بخلد علي ، لا تريم لحظة عن باله ، ولا يكف ذهنه عن لوكها كلما تبدى لناصح أن « ينصح » أو لعاقل أن « يشير » . فإنما غدا النصح والمشورة مضغة في أفواه الذين تخدعهم الظواهر ولا تهديهم البصيرة . وطالما انبرى للإمام منهم من أهاب به أن يبقي ولاة عثمان على ما في أيديهم فيبقى بهذا على كيان سلطانه ، ويمنع عنه الانتقاض في الأقاليم النائية بعض النأي عن كفه وسيفه . بهذا نصحته طائفة غب البيعة وهو بالمدينة ،

وبمثله أشار عليه المغيرة بن شعبة : أن يثبتهم على أعمالهم ، أو يثبت — فى القليل — منهم معاوية ، حتى تأتيه بيعتهم فيعزله بعد هذا من شاء ... حتى ابن عباس أيضا كان ذات يوم من هذه الطائفة الناصحة ، التى ترى الدهاء فى المداجاة إلى أن ينفسح الوقت للحسم ولقاء الأمور بغير الهوادة كأنما الوقت ما آن . وكم من قبله رأوا رأيه ، وكم بعده من خلصاء الإمام . . . لكنه رد هذا « النصح » وارتفع بذهنه عن استيعابه ! . . فما هو إلا سياسة المتردد المستريب فى أساليبه ، الأخذ بها رياء ، والنكول عنها — بعد إقرارها — غدر ، وكلا الأمرين ليس فى شيمة الذى يقول قولته فى أهل الغدر ومن يرونه دهاء وكياسة :

« . . . لقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم ، قاتلهم الله ! . . قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له فى الدين . . »

فليس هو إذن بالذى يتحرر من نطاق المعايير الخلقية ، أو يخضعها لأهواء الأنفس أو دواعى الظروف . ليس أيضا بالذى يلف بها ويدور ثم لا يزال يشذب من أطرافها وينتقص من نواحيها لتطابق فكرة مصنوعة وبدعة موضوعة . إنما طريقه سوى ، ونظرته إلى الأمور مستقيمة تخترق منها القشور واللباب . وإن شأنه ومعاوية كشأنه بالأمس ، وكشأنه فى الغد القريب والغد البعيد . لا مداهنة ولا مهادنة . لكنه يظل يعذر إليه ، المرة بعد المرة ، حتى ينفد الصبر . .

وكان يعلم أن إعذاره إلى الرجل الذى ادعى لنفسه ولاية الدم كالصرخة فى الربع الخالى ، لا تردد سوى صداها . فما نفسه عنه بخافية ، ولا نداؤه بمسمع صممه ما دامت على قلوب أكنة وعلى عيون غشاوة ! . . ومع ذلك فإنه على كتابا ، يود لو وسعه به أن يستفىء غربه ويهديه عن غيه حرصا على السلام والإسلام . وهو هذه المرة لا يوفد إلا رسولا يكاد معاوية يرضاه ، فإنه عنده ناصح ثقة . وما فعل إلا وقد رجا أن تبعث هذه الوفادة فى نفس العاصى طمأنينة تسوقه لخير . . .

وكان رسوله جرير بن عبد الله ، صاحب همدان فى عهد سلفه . جاءه السكوفة فبايعه ، بعد أن نزعه من إمارته ، وعرض نفسه للوفادة . . فقال إذ ذاك :

« . . . ابعثنى إلى معاوية ، فإنه لم يزل بى مستنصحاً ودودا ، آتيه فأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر .. على أن يكون أميراً من أمرائك ، فأعمل بطاعة الله .. وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك — وجلهم قومى وأهل بلادى — وقد رجوت ألا يعصونى . . »

والناظر فى شأن هذا الرسول قد يوشك أن يتبين ميله لابن أبى سفيان بعض ميل وإن هو حرص من بعد على أداء ما بعث فيه على نسق قد لا تناله المعابة . فهو يشير بأن يظل معاوية على إمارته ، عاملا من عمال على ، يخضع ولا ينزع ، كأنما فاته ما سلف على أمثال هذه المشورة من إباء الإمام . .

وعيل الأشتر إلى أمير المؤمنين عند سماعه قول جرير :

« لا تبعثه . ودعه ، ولا تصدقه . فوالله إنى أظن هواه هواهم ، ونيته نيتهم » .

لكن علياً لا يحكم بالظن فيدع اليقين . وقد نزع جريراً من ولايته التى ولاه عثمان فلم يجنح الرجل للخلاف ، بل سارع فنزل عند أمره ، وقال فيما قاله لأهل همدان وفى يمينه كتاب خلعه ، حينذاك :

« ... هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا . . . وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . . . ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ... ألا إن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم . . »

فإن يكن قد خطر له اليوم أن يشير بإبقاء معاوية على عمله بالشام فلعله ترديد رأى قديم كانت بضعة قبله تراه . .

أما الإمام فلم يأخذه بالظنة ، ولم يستمع فيه للوم اللوام . من العدل أن على له ويسبر دخيلته حتى ينضح إناؤه بما فيه ! . ولذلك تراه يقول للأشتر :

« دعه حتى ننظر ما يرجع به . . »

ثم يختم رسالته ويدفع بها إلى جرير :

« ... ائت معاوية بكتابى . فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه . وأعلمه أنى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة . . . »

يجب بقوله هذا مشورة الرسول وأشباهها من أنصاف الحلول ! . .

وكانت رسالة داعية واعية . دعت إلى الحق من أقصر سبله . وبأوضح أساليبه . . ووعت قصة الاستخلاف ، التي أثارت كل هذا الخلاف . بما سبقها وما لحقها من المقدمات والخواتيم . . . وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ، وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره وفجر في فؤاده ينبوع النور . فلم يغفل الإمام فيها أمراً جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ منها خصمه إلا سدها دونه . . . ما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ، أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه إلا مد له الإمام معولا من سطورها — حديداً شديداً — يدمر باطله ، ويقوض معاقله . . .

وشهدت دمشق ذات يوم عاهلها . مبهور النفس ، عليه فترة من اضطرابه ، وهو يلقى ساكناً بسمعه إلى حديث الرسول القادم صوبه من الجنوب :

« ... يا معاوية . إنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين . وأهل المصرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل العروض وعمان ، وأهل البحرين واليمامة . فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ! . . . »

وكان القول ما قال جرير . فتلك الرقعة المبسوطة من بلاد الإسلام بين قرني الشمس كانت تظلها راية ابن أبي طالب إلا ثغورا في أقصى الشمال تتاخم الروم قد غدت في يد الأمويين منذ وليها — خلال عهد أبي بكر الصديق — يزيد بن أبي سفيان . وهي اليوم بعده في حوزة أخيه . فلعل بقاءها في يد الأسرة هذه الحقبة من الزمن التي تزيد عن ربع قرن من السنين قد أطمع فيها معاوية ، فمضى يراها كالتراث الموروث . ولعل نفسه أبت إلا انتهابها طعمة له ولذويه ، يصطنع لامتلاكها الحيل ويحشد الذرائع ، ثم يحسب في خلعه عنها إهداراً لحقه وابتزازاً لسلطانه .

لكن جريرا لم يدع خيالات العاهل تسبح به إلى بعيد :

« . . . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن . ألا وإن العرب لا تحتمل السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يتشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس . .

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين وكان لكل امرىء ما فى يديه . ولكن الله لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أموراً موطأة ، وحقوقا ينسخ بعضها بعضا . . . »

فسرح الوالي بعينيه برهة ، يذرع بهما ملامح الرسول . وتفكر مليا . حتى إذا أعياه الجواب الصواب ، همس يقول :

« انظر وننظر . وأستطلع رأى أهل الشام . . . »

فإلى غد . فإن غدا فرجة الحيران ! . . .

٤

تلك الليلة لم يغمض جفنه . . جاشت بنفسه همومه تحركت وساوسه . تداعبت رؤى الأمل نصب عينيه — أمله القديم الذى ابتنى له هيكلا فارع الذرا والعماد فيه عرش وصولجان ! . . يا ترى يرخى قبضته ؟ . . أيدع القنية الثمينة يفلتها كفه بعد حرصه على إمساكها كل هذه الأعوام ؟ . . هل يخضع للنزع فينتزع ، وللخلع فيخلع ، ويرتد ، كغيره من الولاة القدامى مسلوبى الحول ، امرأ فى الغمار من عرض الناس ؟ . .

لم يكن بالغر . . الأحلام التى تضطرب فى جوانحه لا يحركها الوهم وحده . وأطماع نفسه التى تجنح به إلى تسنم غارب السيادة لا تستند فحسب على قاعدة هشة من خيالات مخدوع ... هو لا يلوى طرفه بعيدا عن السحائب التى تجمعت فى أفقه . لا يغفل عن الحقائق الجلية البادية وإن فدحته وأثارت باله . وهذه الرقعة المبسوطة تحته ، الخاضعة لسلطانه ، هى لا ريب أهون شىء على غريمه حين يستعر القتال ويغدو السيف وحده هو الفيصل . وهى كذلك محط شراهة الروم ، لا تنى سرايا جندهم تنوشها وتغير على ثغورها الدانية منهم لتردها كرة أخرى إلى أحضان أمها القسطنطينية . ولكنها جنة له على أى حال . وملاذ أمين يحميه من على إلى حين حتى تتكشف وجوه الأحداث . فلن يعدم وسيلة تكف

عنه غائلة القيصر الرومانى المستأسد ، إن بالصلح والمهادنة ، وإن بالمال والهدية ليفرغ من بعد للصراع الكبير . ولن يكل عند ذاك للغد وما يجن من عوامل خفية أن يحسم ما بينه وبين الخليفة الإسلامى الذى بات لا يرضيه غير استئصاله وقشره عن الشام . . إنما سيعمل ! . . لسوف يجيش كل فى طاقة البشر من جهود وحيلة . . . ليمدن إلى أطراف دولة خصمه ألسنة النار ! . . لتكون كل بلدة من بلدانها مشغولة بنفسها ، لا تعرف الدعة ، ولا تستطيع فى محنها التى تترى أن تمد الخليفة بمال ورجال ! . . ليجعلنها مراداً لحفنة من العصابات المنهومة إلى العبث وانتهاب الأسلاب ، فتنام على غارة لتصبح على غارة ! . .

حتى الظروف نفسها بدت كأنما تؤازره . . . هذه سجستان وطئت أرضها جموع من هراب البصرة غب الجمل فغلبت عليها وقتلت عامل على هناك . وهذه خراسان انسلخ أهلها من الطاعة ، وانسلخوا كذلك من الدين صابئين ، ثم أمدهم رجال كسرى من كابل بما أجج ثورتهم حتى أوشكت أن تذهب فيها ريح الإسلام . . . إنها لنذر . الأنسام الوانية التى تسبق المواصف ! . . وإذا كان ابن عباس قد بادر فاسترد سجستان وأعاد فيها راية ابن عمه خفاقة ، وإذا كان خليد قد مشى على خراسان فأوقع بالمرتدة فى نيسابور وغنم وسبى وساق بنات كسرى إلى الكوفة أسيرات ، فذلك نصر قد لا يخف له قلب غريم يقيس النتائج البعيدة بقياس المقدمات الماثلة للعيون . أو ليست هذه الفترة فاتحة تكاد تنبىء عن سلسلة أخرى من الثورات قد تسير غدا أو بعده فى ركاب الإمام ؟ . .

ليوشك معاوية أن تتبدى له الدولة كلها تزلزلت نواحيها ، لا يهدأ فيها بركان إلا ويثور بركان . . . وقد كانت المنى أحياناً هى التى توجه نظرته ، وتنفذ بها فى المستقبل إلى خواتيم مأمولة . وكانت الحقائق دليله فى بضعة من الأحايين . حتى مصر التى أثقلت فؤاده وعادته من أحوالها الهموم ، لم يعدم بها فرجة تنفس عنه بعض برحائه فما زالت ثمة فئة على ضفة النيل يتوقع عندها الخير . إنها هناك رابضة — وقد فتنها مقتل عثمان عن التزام جماعة المسلمين — تتربص بقريتها ، وتنتظر سانحة من الزمن تسنح لتعلن التمرد باسم الثأر للقتيل . هى تجتجر بخربتا احتجار الثعالب . تلتمس الأمن فى الاعتزال . تقر هادئة عن تخاذل

وخشية . ولكنها لن تلبث أن تضحى بمصر بؤرة تشل سلطة على ، وتفسد عليه أموره أيما إفساد لو عرف الغاوى كيف يحرك منها على الخليفة النفوس ويوغر الصدور ...

غير أن هذا كله لم يعد معاوية بالطمأنينة ، فالزمن الذى يحالفه اليوم قد يحالف فى غـد غريمه . والريح الرخاء التى يسبح فى مهبها شراعه قد تزجر كإعصار . بل هو لحظته هذه راحت تضطرب فى أعماقه عوامل خوفه وتدور أعتي من اضطرابها أمسه . فإنما مصر بلواه ! . . بها المال والرجال . وبها من الزاد وفرة تـكفى أمة ضخمة من الجيوش تشرق وتغرب فى فجاج هذه الدنيا الفسيحة ثم لا تـكفها عن الزحف حاجة ! . . وبها اكتملت لابن أبى طالب مادة الحرب كلها — بعد إذ غدا العراق ملك يمينه — من ذخيرة الجند والمؤن والعتاد حتى أوشك ألا تكون قط مادة لأحد سواه . ومنذ غلب عليها ابن أبى حذيفة وطرد منها عامل عثمان وهى شجا فى حلق صاحب الشام . قذى فى عينيه . حربة مسمومة تشق جنبه وتدميه . وليس يأمن الآن أن يأتيه جند منها وجند من الـكوفة فيصبح بالجندين بين شقى الرحى ويشخب جنباه ! . . .

وأحس كأنما قدمه على مزاق تحتها هاوية سحيقة الغور إلى أبعاد تضل فيها النظر ضلالها فى السواد الـكثيف الذى نشرته حوله هذه الليلة الباردة من ليالى الشتاء . وكانت العيون فى القصر وسنى . والصمت يشمل كل جزء من أبهائه ونواحيه . وكانت الريح ذات دوى وزئير وهى تجوس معولة بين غابات أشجار الحور التى أشرعت جذوعها كالمآذن وشبكت غصونها كالقباب ! . . ولم يكن ثمة فى الليل أنيس إلا الوحشة ، ولا سمير إلا العزيف والعواء ! . . لا هيئة إنسان ولا همسة لسان . الهدوء فى الدار والثورة فى الغاب ! ولو قد أتيح له أن يتكلم بمنطق الشجر والريح ، لبادلها وجيفا بوجيف وعزيفاً بعزيف ! فما أثقل الصمت على نفس الحائر ! وما أشقها من وحدة حينما تتـكاثف حوله ظلال الهموم ! . . إنه ليتلفت فيما اكتنفه بحجرته ، وفيما امتد إلى ما خلفها خارج أسجاف الشرفة المنفغرة بكاء كفم المعتوه ، فلا تقع عينه إلا على صحراء من الخرس والظلمة . . . إنه ليطرب أمام خلجات خاطره . . إنه ليحس بدنه يهتز على ضربات قلبه

الواجف . . . أفيدعو إليه عتبة أخاه يبثه بعض شجوه ؟ . . أيصفق فيأتيه من فتيانه غلام يعلأ عليه بعض هذا الفراغ ؟ . . أيتربص بالحارس الذى أخذ وقع خطواته الوانية يتردد خافتاً فى الردهة ، ثم يبرز إليه يحادثه أيما حديث تجريه اللحظة على لسانه ؟ . . لقد تاق سمعه لـكلمة ، وتاق ثغره لـكلمة ، فمن له بسمع وسامع ؟ . .

ولم يشعر أن قدميه قد انسابتا ، كما فى حلم ، تحملانه إلى الباب حتى هم أن يجوزه . لـكن نسمة باردة ردته لوعيه قبل انفلاته إلى البهو ، وعادت به ثانية إلى الغرفة الـكئيبة . . . تأبى عليه نفسه أن يكشفها لمن يرونه صاحب قدره وسيد مصيره . تأنف عزته . دون هذا وتحرن خيلاؤه ! . . كلا ، لن يدع الناس يقولون إن شيئا حزبه وأمرا أهمه وهم يرجونه كلما اشتبهت الأمور والأشياء على الدهاة والأذكياء ! . . . إنما سيحفظ فى قرارته همه حتى ينبلج الصبح وتنقشع غمة هذا الليل الطويل الثقيل . وعندما يتبدى الفجر ستبدأ له شواغل تنأى به عن تيه أفـكاره . وحتى يسفر النهار فإنه سيزجى الفراغ والوحشة بالحديث والسماع . سيتكلم لسانه وتنصت آذانه ! . . .

وكرة أخرى عد أصابعه إلى الـكتاب الذى أقبل به عليه وافد الإمام . الآن لا يقرؤه قراءة عين . لا يتجول ناظراه فى سطوره وهو صامت يفـكر . إنما يلوك فى حلقه حروفه فتتذبذب لهاته بألفاظه ، ويفر الصمت على جرس صوته الخافت الوئيد :

« . . . أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد . وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا . . .

إن طلحة والزبير بايعانى ، ثم نقضا بيعتى ، وكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما

دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء . فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت الله عليك . . .

وقد أكثرت الكلام فى قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ثم حاكم القوم إلى وإياهم على كتاب الله . فأما تلك التى تريد فخدعة الصبى عن اللبن فى أول الفصال ! . :

لعمرى يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان ، ولتعلمن أنى كنت فى عزلة عنه إلا أن تتجنى فتجن ما بدالك ! . . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الشورى . وقد بعثت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة ، فبايع . ولا قوة إلا بالله . . »

ثم صمت الحديث ! . . عاد السكون يملأ أطباق الحجرة ، والوحشة ترود فراغها الثقيل . ورجع البكم مرة أخرى يحاور أذنيه ! . . ولكنه مع هذا لم يدع ذلك الكتاب من يمينه . ظل برهة من زمن ، طويلة على وهمه ، يقلبه فى كفه ، لغير مرمى أو غاية . لبث يتبعه نظره يدعينا لكلمة منه هنا وعينا لكلمة هناك . ففيم سبحه الآن على خضم أفكاره ؟ . . أقد استخذى إذ يعير بماضيه وتخلفه الغابر عن اللحوق بأهل القدمة والسابقة فى الإسلام ؟ . . أود لو يستشف حقيقة الوعيد الذى أزجاه على إليه فى ثوب رقيق من الرفق والسماحة ؟ . . أمست قلبه واعتصرته العبرة التى نضحت بها فى البصرة عقبى أصحاب طلحة الناكثين ؟ . .

هو لا يدرى ، وأنى له ، أى هذا كله جرى فى باله — تلك الساعة المتأخرة فى السحر ، الدانية من الفجر — وإن ذهنه لتختلط فيه ولائذه من خواطر وأوهام ، وخطط وأحلام . غير أنه استطاع أن يرى من خلال تلك السطور صورة لذلك القصير ، الذى دبج الكتاب ببيانه وأملاه بلسانه ، أطلعته فى غير الهيئة التى يرسمها الحنق . . . كلا ليس بالغر ! ليس ابن أبى طالب بالذى تقتله خدعة مخادع أو حيلة محتال . . . وحتى قصة الثأر التى أهاجت عليه فرقة من أهل الشام ، وكانت حقيقة بأن تحد من غلواء أى خليفة سواه وتنال من صلابته ،

لم تكن ذات أثر مذكور فيما وطد عليه عزمه منذ بدء اضطلاعه بأمر الدولة ، بل لعلها زادته استمساكا برأيه ، وإصراراً على خلع مدعى ولاية القتيل . فما دم الشيخ بهيبة للناس من شاء منهم تولى ثأره . وإنما الأمير الشرعى وحده وليه ، يأخذ مهريقه ، وينفذ فيه كلمة العدالة . أما عشيرة القتيل وذووه فأفراد فى الدولة يلتشمهم كغيرهم قانونها العام ، لهم حق الاحتكام فى ثأرهم إلى الحاكم دون حق الحكم فى المذنب ، فإذا سولت لهم نخوتهم ابتزاز سلطة القصاص ، فهم خارجون على النظام . . .

كل هذا قد انبسط فى الكتاب وتبينت حجته بلقاء لا يقدر أن يخفيها ادعاء مغرض ذى هوى وإن لف ودار وسم الأفكار وسحر الأنظار ! . . لكن معاوية اليوم فى حرب فناء ، يتوسل إلى كسبها بما يستطيع . فما يفيده أن يعين إذا اللين نصره ، ولا أن يغش إذا الغش عزره ، وعندما يصبح سلطانه الدنيوى فى كفة ، والقيم الخلقية العليا فى كفة ، فلن يتردد لحظة فى أى الكفتين يختار . ولقد أغر حقا غرسه فتعلقت به نفوس أهل حاضرته ، وراحوا يعاقدونه على الثأر الذى أبداه فى عيونهم بطلا يستجيب لدواعى المروءة والنجدة كما تتحدث بها أساطير الأبطال ! . . ولم يكن تعاقدهم ذاك وعدا موقوتا بأجل النخوة التى ابتعثها فى قلوبهم غضبهم الطارئ للدم المسفوك ، ولكنه كان عهداً صادقا قطعوه عن سلامة طوية ونذرا خالصاً نذروه عن عزيمة وإصرار . فما زالوا إلى يومهم لا يمس جلودهم غسل ، ويعيشون فى بيوتهم كرهبان الدير لا يقربون النساء ! . . . وإنهم فى غـد حريون أن يظلوا على موثقهم حتى ينالوا ثأر الخليفة المقتول أو ينحرف بهم كبيرهم عن التماس القصاص .

وابتسم معاوية . عرف البشر الآن طريقه لوجه المكروب . ومض الأمل فى أعماقه التى ملأتها قتامة الهموم . خف قلبه الثقيل . . . وعندما كان يلقى بنظره الساهر إلى الظلام الذى أخذت ظلاله ترق خارج الشرفة فى لمائف الغاب ، كان خاطره يسبح به عائداً إلى ذات أمسية حارة من الصيف الذاهب ، وانية الهواء ومسانة النسيم . . لقد أصاب الحجاج بن خزيمة إذ ذاك ، وصدقت نظرته فى طبائع النفوس حين جاءه تلك الليلة يضرب عليه بابه ليلبثه خبر ما جرت به الأقدار فى مدينة الرسول . . . يقول له معاوية :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

فيجيبه الرجل وهو ساهم حزين :

« إنى لك النذير العريان ، فقد قتل أمير المؤمنين . . . »

وتظلل سحابة من الفكر وجه السامع وأخرى من الأسى وجه صاحب الحديث ويسيطر الوجوم برهة على المكان . ويتفرد كل منهما قليلا بهمه حتى يعودا إلى ما كانا فيه من الإنصات والرواية . فإذا بلغ الحجاج من خبره غايته مضى يقول :

« . . . وإنى يا معاوية مخبرك أنك تقوى على على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومن مع على يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر . فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه ! . . »

وابتسم الماهل مرة أخرى وهو يثوب لنفسه من خواطره . وطاب فؤاده وصفا محياه . . . كانت الذكرى بشرى له بالأمان ! . .

ثم أقبل الفجر عليه من المشرق . أطلعت الظلمة له غرة لاحة بلون آماله تطل من خلال الظلال التى مدتها حول قصره مردة الشجر فى الغاب . وكانت عقود الضياء تنبثق من بعيد كقطر الماء من فم الينبوع . وكانت حباتها الدقاق البيضاء تنتظم وتتضام ، رويدا رويدا ، فى رحاب الفضاء الفسيح حتى غدت فيضا راح يغمر الدنيا بلألائه . . . وتبدت السحائب المنبثة فى جوانب الأفق ذات ألوان فى مسيل الشعاع ، بها من دكنة الليل ، ورقة اللازورد ، ووهج الفضة ، وحمرة الياقوت . وأخذت مسحة من الضوء فى نصاعة الثلج تجلل رءوس الروابى وقمم الأشجار التى أتلعت أجيادها ترنو مشوقة إلى جبين النهار الوليد . . . وعندما زحف إلى شرفته أول شعاع ، وطرفت أهدابه على وميض نوره ، وانطوى الليل الساهر فى غلالة الصباح ، كان الماهل المكدود الذى استخفه بشره يجتر الذكرى ، وتتراءى أمام عينه الوسنانة صورة صاحبه ، فيهتف لها — وهو باسم — بين خفق النعاس :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

٥

كأنه قوقعة طوتها صدفة ! . . كان واجما ، غامض النظرة ، قد غلب على محياه الوجوم وأخذت قسماته مسحة فيها عبوس وفيها جفوة . .. وكانت عينه جوفاء ، جللت لحها سحابة من الشرود كالضباب الذى يغشى أحيانا بركة من الماء الآسن ! . . ففى قرارها تنام حيرته ثم يخفيها وقاره المصنوع كما تخفى غيمة الضباب الحمأ والطين فى قاع البركة . وتحت أهدابها انتشرت دكنة خلفها سهرة كتلك الظلال التى تعدها على حوافى المياه الكدرة أعواد الشوك . ولم تكن نفسه هادئة وإن أوحى مظهره الساكن بالهدوء والطمأنينة . ولم يستقر له خاطر خلال النهر والليالى التى ملأها بتفكيره . فما يزال يتنسم القلق منذ جاءه جرير . وما تنى ألوان شتى من التوجس والخشية تتواثب على ذهنه كالأشباح . ولقد كان فى البدء يوشك ألا يحفل بوافد الكوفة إذ حسبه رسولا كالرسل ، يبلغ رسالة ثم يعود ، فإذا هو عنده ماكث مقيم ، وإذا هو كالصدى فى القصر الخالى يتردد دويه فى هذه وتلك من حجراته وأبهائه حسبما يفسح له فراغها فى الرجع والتردد . . . فكذلك غدا جرير . وكذلك لبث عنده لا يبرح إلا أن يرده عنه بجواب ما جاء فيه . .

بضعة أيام قضاها معاوية هدفا سهلا لإلحاف جرير لايعرف لنفسه مهربا منه إلا التسويف . فلقد حصرته دعوة الإمام للطاعة فى أضيق الأركان ، وسدت دونه كل مسلك إلا المجاهرة بالسلم أو المبادرة بالعداء وكلا الأمرين عليه شديد . ولكنه اختار أن يتربص بزمنه ، ويستأنى به لعله يجيئه بالخلاص . ففى الزمن لكل حائر ملاذ . . . وحسبه الآن أن يراوغ ، ويحتجر من الرسول كالضب أو الثعلب ، ويمسك قلبه خشية ثم يمسك لسانه تحرزا فلا يعلن البيعة ولا يشهر العصيان ! . .

ويلتفت ذات ليلة وقد أطبق عليه إلحاح الرجل :

« . . . ياجرير ! . . إنها ليست بخلسة . وإنه أمر له ما بعده ، فأبلعنى ريقى ! . . . »

غير أنه لم يكن يرمى بعطله الجديد إلى الإفساح لنفسه فى التدبر ووزن الأمور . فالنهج أمامه واضح والطريق مستقيم . إنما لغاية يبطنها شاء أن يستمهل ، وأن يرجىء وسمه البت فى دعوة غريعه برد صريح . ومن يدرى ؟ . فلعل البريد أن يأتيه الآن بالجواب الذى بات طويلا يترقب أن تنشق عنه صحارى فلسطين . .

وفرغ والظلمة إلى خلوته . . . وكانت نفسه حزينة كالليل . وكان قلبه ثقيلا كالرمل . وكانت عينه ندية كالطل . بينا عوامل القلق تتناوب ذهنه الكليل كأنها ذئاب جياع تناوبت فريسة ! . . لكن هذا كله لم يمنع سمعه أن يمتد إلى الخلاء والرياض حول قصره العالي ينصت فيها لوقع الحوافر على الحصا والحشائش . غير أنه لم يتلقف فى الوحدة الهامدة إلا همسات الوحشة فما ثمة جياد . ولا ثمة بريد يجيئه بما يريد . وإن الليل ليمضى به والهدوء شامل . وإن الصمت يتراكم حوله كما تكاثفت فى السماء غيوم أمسيته المطيرة . وأن الأنجم لتبرز مطلة عليه من بين السحب كالعيون السواهر ، ثم تزهر ، ثم تبهت فتغيب ومازال سمعه المترقب معلقاً بالمجهول . . . أيا ترى طاشت هذه المرة مشورة عتبة أخيه ؟ . . . أم النهار سيسفر عن أمله ؟ . . أم ذلك القابع بناحية البيع من فلسطين قد آثر أن يشخص بنفسه إليه فلا مدعاة إذن لتحرير رقعة لوفادة رسول ؟ . .

أينما جرت به أحلامه أو همومه فمشورة أخيه لاتنى تتردد فى فراغ ذهنه الأجوف ، حتى فى هذه اللحظة التى اختلى فيها بحيرته كان صوت عتبة يعاوده ، ويملأ خلوته ، ويدوى فى أذنيه دوى الطبول . . ولم يكن قد أغفل تلك المشورة التى لقنه سليل آخر من سلالة أبى سفيان ، ولا أمهلها حينا حتى يتبين ما لعلها تحتوى من رشد أو تسفر عنه من عار ، وإنما تلقفها ملهوفا من فم المشير وقد لاحت له كأنها القشة التى تنقذ الغريق ؟ . . ومع ذلك فما كفت — منذ احتضنها وأنفذها — تلح بلفظها عليه ، وتضطرب فى خاطره ، ويعلو جرسها رويدا رويدا من طوايا ماضيه الدانى حتى غدا يسمعها — ليلته هذه — كأنها تند لتوها من شفتى عتبة ، صاخبة هادرة كزبد الشلال : « اجتمعن بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو

ابن العاص ، وأعن له بدينه ! » . . . فما لعمرو ينام عنه كل هذه الليالى الطويلة فلا يقبل ولا يبادر بجواب ؟ . . .

كانت دعوته — وليدة المشورة — التى وجهها إلى نزيل فلسطين ، بسيطة ، ساذجة المظهر لا تنطوى على التواء : « . . : قدم علينا جرير فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى : أقدم أذاكرك أمرا » . . . كانت تتحدث فى يسر ، بلسان راغب فى النصح باحث عن الصواب . كانت رخية اللفظ ، ناعمته ، تنم عن خطاب ند لند أثير لديه حتى ليدع ثقاته وخلصاءه أجمعين ممن فى متناول عينه بالشام ثم يستمد هذا القاصى رأيه ويستهديه عبر الصحراء . كانت غفلا من التلويح بالغنم واستثارة شره الأنفس المفتونة بالمناصب وأسباب الجاه . فلولا أن ابن العاص عليم بخافية داعيه لأخذه الزهو حينذاك ، ولناء عزة وكبرا وهو يرى داهية الشام يحبس نفسه على مشورته لكنه خبير به ، يعرفه أخا حذر . ويعرفه أيضا طويل المعطس يمد أنفه إلى مهاب نفعه كما يمتد خرطوم الفيل ! . . فإذا دعاه معاوية ، فلغير الحق أو صلة الصحبة دعاه . وإذا هو لبى ، فلغير ذاك أو هذه تكون شوراه . . . كلا الرجلين يجيد قواعد الحساب ! . .

وإذن فهذه رحلة إلى دمشق تنتظره ، وعناء ووعثاء ، ويد سخية عند نهاية الشقة تمسح عنه عرق المشقة ! . . إن ابن العاص كذلك أريب ، داهية كداعيه لا يتنكر طائعا للطبيعة الجائعة فى نفسه التى يمتزج فيها القليل من النور بالكثير من الطين ! . . إنه لا ينسى الجبلة البشرية ، النابتة من الأرض ، الرانية إلى الأرض ، المشغوفة من الدنيا بما لا يوشك أن يجاوز مجال الحواس . أما الروح فأمرها عليه هين ، والضياء الذى ينبثق من صفائها فقد غشاه درن المادة ، والقيم الإنسانية المثلى فقد غمرتها عبادة اللذات ! . . كان الرجل واقعى النظرة ، يؤثر أن يغوص بقدميه فى الطين على أن يسمو فوقه بجناحى ملك ترفعانه بعيداً عن نطاق عيشه . . كان وفياً لذاته غاية الوفاء ، مشغوفا بها غاية الشغف ، حتى لتوشك أن تكون كل همه وكل شاغله . . وعندما اكتوت الأمة بالفتنة التى كان عثمان قربانها ، مضى يراقب الأفق فى صبر ، ويتبين طلعه ، ثم همس لنفسه وهو متذائب بين اليأس وبين الرجاء :

« . . . إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا ، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق . وهو أكره من يليه إلى ! . . »

وها هو اليوم ، بعد طول تلبث وأناة ، يعلم بفاجعة البصرة . ويرى الناس يلتفون بعلى ، ويتبعون هديه الذى يقدم المبدأ على النشب . . . وها هو يشيم بشائر دولة توشك أن تقوض الأثرة وترسى عمدها على الفداء والإيثار . . وها هو مبشر جديد يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق دون كرائم الهبات والأرزاق ، يحذرهم البهرج والزخرف ، ويحملهم على الشظف والزهادة فى مفاتن الدنيا ليرتدوا كرة أخرى إلى دعوة الله . فهل فى ساحة مثله لابن النابغة مكان ؟ . . .

ويومئ عمرو إلى ولديه وفى يده كتاب ابن أبى سفيان :

« ما تريان ؟ . . »

يقول له عبد الله :

« . . إن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان . . فقر فى منزلك ، فلست مجمولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا أوشك أن تهلك فتشقى فيها . . . »

ويقول محمد :

« . . إنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أياديها ، واطلب بدم عثمان » .

الثأر لعثمان ؟ . .

هذه هى القضية ! . . وإنها لدعوة رنانة الجرس كقرع النحاس ! . . وإنها لراية حمراء فى لون الدم تنساق وراءها حمية الجماهير الكافة بتأثر مواقع البطولة ! . . وهى التكأة التى يمكن أن يرتكز عليها تمرد معاوية . وهى النبع الذى ترتوى منه أطماعه . وهى مجازه الوحيد للمجد حين أعوزه طويلا الفوز بغيرها من وسائل الأمجاد ! . . ليوشك عمرو أن يلبث ساعة يقلب فيها الأمور فى باله ، وهو يتدبر أساليب صاحب الشام لتستشف الخبيء خلف ندائه المدوى للدم . . أفهو صادق لحق القصاص إذن على ابن العاص حين يذكر الوالغون

فى دماء عثمان ؟ . . أم هو كاذب فدعوته لأطماعه ستار تلتقى وراءه يد الباغى الواتر بيد الدعى الموتور ؟ . .

إن معاوية ليبدو كأن قد آثر طائعا أن يستمد ابن النابغة دهاءه من أجل مطامع وآراب ، ترق لها الدماء كالماء ، وينسى الثأر فلا يصبح له حساب ، ويتحالف الحسام الغاضب بالحسام المخضوب ! . . . لأمر ما يسالم الرجل واتره ، ويؤازر مهريق الدم الحرام المسفوك على الثأر من برىء . فما دور عمرو فى الفتنة بمجهول ، وما تأليبه على القتيل بغائب عن مدعى ولاية دمائه ، وما شماتته يوم أتته أخبار المصرع إلا لها بقية لا تزال تلفظها حتى اللحظة شفاه الرواة . . . ومع ذلك فابن العاص لا يستغش داعيه ، ولا يتهم التماسه المشورة لديه . إن شعورا غامض الكنه يفىء الثقة على نفسه وهو يقلب بين أصابعه كتاب عاهل الشام . إنه لا يقرأ الغدر بين الكلمات . لا يشك قط فى حاجة معاوية إليه ، ولا يظنه يريد استلحاقة وهو يخفى له غيلة — كلا ، فهذا بعيد . ولقد يوشك الحلف ألا يقوم بين مؤمنين بهدف ، مخلص كل منهما لصاحبه ، يتبادلان ثقة بثقة وولاء بولاء ، ولكنه يقوم أيضا بين مريبين ، يلتقى نفعهما ، كالحال فى البيع والشراء . .

ويحدث عمرو ولديه وقد تعبد له مسرى تفكيره :

« . . أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى . . »

ثم لا يكون له فى أى الرأيين حسم إلا أن يجنه الليل . فالليل مسرح الفكر كما هو مسرب الهوى والتآمر ! . . لكن الجشع لا يدع له مهلة ليقدر أمره حق قدره ، ويبتغى فيه وجه الله . إن الطين فى طبيعته طغى على النور ! . قوة مطامعه غلبت إيمانه . استذله زخرف الجاه . هو نفسه لم يستطع من بعد أن ينكر ما كان من جنوحه — هذه اللحظة — إلى متاع الحياة . كان عصيا عليه أن ينكر ، عسيرا أن يهدأ ندمه ولما تبق بينه وبين عدالة الله إلا نفس واهن يلفظه صدره ولا يستعيده ، وخيط واه من أجله تعلق به وجوده ، وحفرة فى الأرض هى دار قراره ، وحفنة من ترابها هى كل دثاره ! . . فعندما لم يعد له أمل

إلا فى الرحمة ، وذبل بدنه كعود الهشيم ، وفغر القبر فمه بعد بضع سنين قليلة ليلقاه ، بكى واستعبر ، وناجى الله :

« اللهم إنك أمرتنى فلم آتمر ، وزجرتنى فلم أزدجر . . »

فكم كان أولى له لو استشعر وخزات ضميره وكيانه ركين ، وبناؤه متين ، والعمر أمامه مديد فسيح للتوبة ! . . لكن المنى خدعته حينذاك عن آخرته ، ولمعت فى أفق حياته التماع السراب ، فانطلق مع الهوى إلى حيث لا جف ولا ماء ! . وإنه عندئذ ليتشبث بدنياه بمثل حرص البخيل وشره المنهوم فلا يدع من كفه كتاب صاحب دمشق ، ولا يدع من باله عروضه التى اختفت وراء ألفاظه . . فإذا هو يمضى يتهيأ لرحلته وإذا هو قد ألقى بنظرة الوداع على ممتزله ، وإذا القافلة به تسير ، خلفها البيع وأمامها الشام . .

وتخب المطايا . ويترنم الحداة . وينساب الخف على الرمل الناعم انسياب الشراع . ويتأرجح الركب على الظهر فيتأرجح الفكر . . دون الهدف الذى سعى الرجل إليه مراحل تضطرب فيها الخطا كما تتضارب الشواغل . فالعاجلة شاغله ، والآجلة شاغله . المغنم والمنصب والنفوذ تصارع الحق والهدى والسلامة . وفى غمرة هذا المعترك كانت نفسه مضيعة ، لا تعرف مكانها اللازم بين القوى المصطرعة ، أإلى هذه أم هاتيك . . وإن الركب ليمضى فيهتف به أن يفىء للقرار . وإنه ليقر فينادى بالسير وإنه ليبطىء فيعجله أو يسرع فيمهله ، والرفاق حوله فى حيرة مما يبديه . .

ويهمس له غلامه وردان :

« خلطت أبا عبد الله ! . . »

فيلمحاه :

« ويحك ! . . »

ولا يأبه العبد شيئا باللحى ، بل يعاود الحديث :

« أما إنك إن شئت أنبأتك بما فى نفسك . . »

« هات . . »

« اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : على معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض عن الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما . . . »

عندئذ يطوف بشفتى عمرو خيال بسمة وهو يقول :

« فإنك والله ما أخطأت . فما ترى يا وردان ؟ »

« أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . . . »

فيمضى الداهية مليا يفكر . ثمة فى نصح عبده دهاء . هو أناة قد تثمر له راحة البال أو رفاهة الحال . فيه أمن من مغريات الحياة للضلة ، إلى حين ، حتى يتبين لمن الغلبة فى نهاية الصراع . . لكن عمه وحده لقف النصح ولفظته بعده كل جارحة فيه ، فإنما الدنيا أدنى ثمرة ، وأشهى لمن تعجل الحظوظ ! . . . وهو الآن قد جاعت نفسه بعد كل هذا الانتظار ، وشفها الظمأ إلى المجد ! . . . وهو قد هيأ لمصيره المرموق ركابه وجند أسبابه ! . . . وهو إنما يخرج مخرجه هذا ، كما يحسب أهالى فلسطين وكلهم لمعاوية رعية وظهير ، عن مروءة ونجدة ، تلبية منه لصيحة الدم ودعوة الثأر للخليفة القتيل . . . فهل إلى إحجامه سبيل ؟

ويهز رأسه فى تمهل ونفسه تحدثه :

« الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟ »

وتهتف كل جارحة فيه :

« كلا ! »

ثم يلتمع العزم فى ناظريه وهو يلقى بأمره ، صريحا صارما ، إلى غلامه :

« ارحل يا وردان . . . »

٦

عندما التقى الثعلبان تراوغا فترة . . . كان لقاء على دخل ، لم يأمن فيه أحدهما لصاحبه ، ولم يركن له . فما يستطيع حلف تقيمه الأنانية وحدها أن يربط بالثقة بين شخصين . . .

لكن مر الأيام قرب ما باعدته الريبة وراح يردم الهوة المحفورة بين وصولى بنى سهم ووصولى الأمويين . وهل للمراوغة دون غيرها كانت رحلة ابن العاص ؟ وهل للتعالى والكبر كانت دعوة معاوية ؟ . أن ضغط الحوادث لينادى صاحب الشام أن يبادر الأمور بالحسم والمعاجلة . فالزمن يتسرب من بين يديه ويفر كالغمائم الرقاق فى إبان عاصفة . . . والنهز والسوانح قد تقبل ثم تدبر ثم لا تعود كرة أخرى إلى الظهور . . . وها هو عمرو عنده ، قد جاءه دون ريب لنفع ، وبذل من دينه وآخرته ، وأراق من ضميره بقدر الخطا التى قطعتها قافلته طوال طريقها من فلسطين إلى الشام ! . . كلا ، لم يكن ابن العاص بالمخدوع فتغشه كلمات صاحبه التى غلفها له بطلب المشورة وبطنها بالنخوة للدم المراق ، كلا لم تغب عنه جبلته فيظاهره نصرة لحق أو يشايعه حقيقة على واتر ، بل النفع هو الذى يرسم الصلة بينهما ، ويختم بخاتمه صك الاتفاق ! . . .

ويخرج ابن العاص من التلميح بطلبته إلى التصريح السافر عندما تؤوده مداورة حليفة وتميه :

« . . . والله يامعاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير ! . . »

فلا تغضب العاهل هذه المجابهة ، ولا ترده عن الإنصات . ويعاود عمرو الحديث :

« . . . مالك هجرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته وجهاده ، ولا فقهه وعلمه . ووالله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا . فما تجعل لى إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟ . . »

قال معاوية :

« حكمك . »

« مصر طعمة . »

فتلكأ حينذاك صاحب الشام . أهالته فداحة المطلب وسرفه أم غلبته الخشية على نفسه وعلى أهدافه من خبث حليفه ؟ . . لكنه أغضى هنيهة عن شكوكه ، وراح يرد طمع مساومه باللين والدهاء :

« إنى أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا . . »

فتجهم عمرو . وأجابه فى اقتضاب :

« دعنى عنك ! »

ثم أولاه ظهره ، ومشى ليغادر المكان .

لكن معاوية لم يتركه . إن الأطماع دربها طويل . فيه حزون ومفاوز . فيه أودية كثيرة من التيه توحش السارى وتزرع الخوف فى خياله . وفيه أيضا عوسج وشوك . . . وعندما قر فى عزم ابن أبى سفيان أن يرود هذا الطريق ويقطع مراحله لم يغب عنه أن يهيئ لنفسه المطية ، فليس من الحكمة الآن أن يدفعها إلى الشرود ! . .

وآنئذ ابتسم لصاحبه بسمة خابية ، رقيقة الشعاع كأنها من شفق أب رحيم عليم لطفله الأحمق الحرون ! . . ثم قال فى هدوء :

« . . إنى لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت . »

فثار ابن العاص :

« لا لعمر الله ! . . ما مثلى يخدع . لأنا أكيس من ذلك . . »

قال الأخير بغير مبالاة ، بعد أن ضرب الصمت بينهما برهة :

« ادن منى أسارك . . . »

وفى اهتمام ولهفة دنا عمرو . . . أقبل على صاحبه ، وألصقت أذنه بشفتيه ليسمع السر وهو يمنى نفسه بتحقيق آماله . . فإن هى إلا لحظة لما تمض حتى ندت من فمه صرخة مكتومة كأنها الفحيح تنبئ عن حنقه قبل أن تنبئ عن ألمه حين غافله صاحب الشام وعض إحدى أذنيه !

ولم يزد معاوية بعد هذا على أن قال :

« هذه خدعة ! »

وابتسم راضيا عن نجاح مكره .

لـكن العابثة لم تمنعه أن يعاود وقره ثانية فيقول لحليفه المخدوع :

« أبا عبد الله . ألم تعلم أن مصر مثل العراق ؟ . . »

« بلى . ولـكنها إنما تـكون لى إذا كانت لك . وإنما تـكون لك إذا غلبت عليا فى العراق . »

إن ثمة حقيقة ظاهرة ، عمادها المنطق ، يقوم عليها رأى ابن العاص . وثمة أيضا لهفة على طلبته ، ورغبة تتوثب فى حروف كلماته أن يظفر بما يريد . . . أفيـكفى حنينه إلى اقتعاد أريكة النيل أن ينم عن عزمه على الانتصار لمعاوية ، ثم الإخلاص لدولته المرتجاة إذا قدر لعرشها أن يقوم ؟ . .

معاوية ما زالت بنفسه بقية من خشية ، وبقية من شك فى الثقة بهذا الحليف الذى يقاس ولاؤه بانتفاعه ، ويتنسم الهواء دائما فيدور بوجهه يشم ريح الشواء ؟ . ومع ذلك فهو أريب . أجل ، إن ابن العاص لـكذلك ! . . له رأى فى الأمور ثاقب ، وله دهاء يحاور به ويطاول الأحداث إذا واجهته وضيقت عليه الحصار . ولقد أسفرت الأيام القلائل التى مكنتها يحاوره عن بعض مكر يجنه حرى أن تصلح به الأمور المضطربة ويستقيم شأنها حين يخفق العنف فى مقام الحيلة . . وهو قبل هذا أخو حرب تمرس زمنا بشدتها ولفحته وقدة القتال . وعندما يذكر ماضيه لا تنسى مصر ثم لا يغيب عن بال الذاكر أنه عالج فيها سياسة النيل سلحة من عمره الطويل عرفت خـلالها البلاد من حزمه ولينه واقتداره ما لا يبعد معه أن تـكون له فى نواحيها شيعة باقية حتى اليوم .

على أن هذا جميعه لم يبدد غيمة الشك التى أوشكت أن تستر مزايا ابن النابغة عن ثقة داعيه . فما زالت ظلال من الريبة قائمة بنفس معاوية ، تشعره الرهبة ، ويسير منها فى ظلام من الحدس والوساوس لا يدرى إلى أين مداه . . . وكرة أخرى تؤرق العاهل هواجسه ، وتمضى به ساعات ليله بطيئة ثقيلة فى مثل ونى تأملاته الثقال . . وإنه ليرضى ساعة ، ثم يأبى ساعة ! . . وإنه ليوشك أن يبتسم ، ثم يعبس ، ويزور وما كاد يأنس ! . . فإذا أشفى به الضيق على حدوده ، والتف به الهم ، وسامته الحيرة أطلع السحر عليه عتبة أخاه . . .

ويقول له عتبة فى رفق مشير وعتب نذير :

أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر إن هى صفت لك ؟ »

« إنما مصر كالشام . » .

« فليتك لا تغلب على الشام ! . . » .

وكذلك أذابت النصيحة تردده وهتك نذيرها الستر الذى حال قليلا بين التقاء كفه وكف عمرو على عداء الإمام .. فلم ينشب الصبح أن شهد اجتماع الرجلين يبرمان صك الاتفاق ، ويوثق كل منهما به المواثيق حتى لا يخونه خدينه .

كانت مصر هى الدارة التى هفت إليها نفس عمرو الظمآنة . وها هى اليوم فى حوزته — فى حوزته على القرطاس ! . . إنها لتلمع الآن له من بعيد ، وتنعكس على صقال مياهها صور نفوذه وسلطانه ، وتتبدى فى ذهنه ألوان الخير التى تطلعها حدائقها الزهر وحقولها الخضر حتى لتوشك أن تكون ذهبا فى لون الرمل الذى يمتد وطاء لأقدام النيل ! . . كانت معقد آماله ، ونبع أحلامه التى ما ونت منذ برحها تتهادى بخياله . . . أموى رده عنها وأموى يردها عليه . فما أعجب أن تكون ثمنا يتناوله فى نظير طلبه بدم ذلك الغريم ! .. ومع ذلك فليس يفيده اليوم أن ينتصر لعثمان وقد كان فى أمسه يسخطه ويود لو أنه اقتص منه . . لا يضيره أن يفعل ما دامت مصر سترجع إليه . كانت شاغل خاطره ، ومهوى ناظره . هى أوطاره وآرابه . . . هى واحته ، أم هى يا ترى سرابه ؟ ولكنه يسعد بالعهد على أى حال ، وتطيب نفسه وترضى ، ويمضى يشحذ من همته ما لعله كفيل بأن يردها عليه . . .

ولقيه بعد الموثق ولداه :

« ما صنعت ؟ » .

« أعطانا مصر . »

قالا له :

« وما مصر من ملك العرب ؟.. »

ولقيه ابن أخ له ، ذو أناة وبصيرة :

«ألا تخبرنى بأى رأى تعيش فى قريش ؟.. أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك !..»

وغضب مروان بن الحكم حين علم بما انتهت إليه المساومة فحادث نفسه وهو واجد مغيظ :

« وما بالى لا أشترى كما اشترى عمرو ! . . »

إن القوم ليلحون الرجل على ما نال . تصغر فى عيونهم الطعمة — مرة من طمع فى مزيد ومرة إذ هى ثمن بخس لدينه وآخرته . أو يصغر شأنه أخرى من حسد له فتكبر وتهول . . . أما محمد المعنى بدنياه فقد ود لو شارك أبو صاحبه فى ملكه القابل ما داما قد تحالفا على المشاركة فى الصراع . . وأما الثانى التقى عبد الله وابن الأخ الذى يرقب الله ويخاف سطواته فإنهما أنكرا عليه جشما أنساه الحق وإنه لأحق بالاتباع . . . وأما ابن الحكم فقد أثاره أن يراه أثيرا لدى معاوية يفرض له دولته ولما تقم لها دعامة . . . ولكن ابن العاص لا يكاد يحركه شعرة عتب عاتب أو غضبة غاضب . فهذا وغيره لا يرده عن القصد وما وطن النفس عليه . وإنما يسير شوطه . السطوة منه قيد خطوة . الدنيا تلق بمفتاحها إليه ! . . الزمن أيضا حليفه على نيران المدل وشملة الضغينة . وها هو مروان ما يكاد تثور ثائرته حتى ينبرى له معاوية بما يترضاه :

« يا ابن العم ، إنما نشترى لك الرجال ! . . »

ومن تلك الليلة بات عمرو فى عين صاحب الشام . أصبح حارسه . أضحى درعه فى الصراع القريب . غدا ظله الذى يقتفى خطاه ... إنه لا يكتمه المشورة ، ولا يبخسه النصح حين تتأزم عليه الأحداث . إنه ينطلق أمامه حين البأس يعبد له الطريق الذى يقوده إلى المجد والسيادة . وها هو الآن ، والمداد لين على الميثاق يبادر بعونه وينثر أمام حليفه ذخره من الدهاء . . . كانت الأنباء حينذاك تقض على الأمير الطامح مضاجعه ، وتفسد رقاده وصحوه بالأخطار المتوثبة من بينها كأبالسة النار . فلا يكاد معاوية يأمن ابن النابغة ويأنس إليه حتى يستهديه :

« يا أبا عبد الله ، طرقتنا فى ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس منها ورد ولا صدر ؟ . »

« وما هى ؟ . . »

« . . أن محمد بن أبى حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه . وهو من آفات هذا الدين . . . »

فيجيبه فى هدوء وقلة اكتراث :

« ما يتعاظمك من رجل خرج فى أشباهه أن تبعث إليه خيلا تقتله أو تأتيك به . . . »

فيبعث بخيل إلى مصر ، عليها مالك بن هبيرة الكندى يحاول أن يقتحم بها الحدود إلى الغريم المخوف . لكنها استعصت دونه واستغلقت كالسر . فلما أن أعياه أن ينفذ ظافر إلى العرين ظل يكايد ويطاول حتى خرج إليه محمد فى قلة من رجاله ووفرة من غروره وإدلاله . فإذا الإعداد يغلب الاعتداد . وإذا الكثرة تطغى على الجسارة . وإذا الخيل تكر وتغير حتى تحصر محمدا بالعريش وتقضى عليه وهو على قدميه قائم ، فى بركة من دمائه ، يذود العداة . . .

« . . . وأن قيصر زحف بجماعة الروم إلى ليغلب على الشام . . »

فينصحه عمرو :

« فأهد له من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسله الموادعة فإنه إليها سريع . . . »

فيفعل ابن أبى سفيان . ويهدى إلى عاهل الدولة العجوز المتاخمة كنوزا من الذهب والنفائس ، ودرا من الجوارى والغلمان تلهيه عن حربه ، وتميل به إلى المهادنة ووضع السلاح فى أغماده إيثارا للسلم والسلامة . . .

« . . وأن عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير إلينا . . . »

على ! . . .

هذه عقدة العقد يعى حلها الدهاة ممن تجرى لهم سيرة فى المكر كالأساطير ! . .

أم ترى تجدى الغارة ، أو تثمر وسائل الملق والموادعة مع الإمام ؟ . .

بل هى بيعة أو قتال ، بلا تذبذب بين طرفى القرار ... ولقد يوشك ابن العاص أن يكفى حليفه — بتدبيره — أمر ابن أبى حذيفة بمصر ويرد عنه عاديته . ولكنه لو فعل فقد أمن الخطر فيها إلى حين ثم لم يضمن من بعد أن تلين تحت قدميه جنة النيل . . . ويوشك أيضا أن يكبح عنه شرة القيصر وبنى الأصفر من ذئاب البيزنطية . ولكنه لو وسعه فقد أمن منهم حدوده الشمالية — وهم حينذاك عدو مريض مهيض ، منتفخ الإهاب مثلوم الناب ! — ثم ترك بقية الحدود والتخوم نهبا سهلا لغريم غيرهم ذى قوة وأيد . . . فما هى إذن جدوى تدبيره والحال هى الحال :

أمير أمر وعامل عصاه ، والدولة هى الدولة : وحدة سياسية — إلا ولاية — فى كف على ، وشعب مخلص — إلا فرقة — على الولاء لسلطانه الشرعى بين أهل الإسلام ؟ . .

ويتفكر الداهية . ويعبس . ويتعقد جبينه الذى غضنته أعوام عمره الطويل . . . للحظة بدا كأن قد غامت عينه وفارقها النور حتى حسب معاوية أن غفوة أطبقت على جفونه . . . للحظة تراقصت على صفحة وجهه الأسمر ظلال وأطياف حتى ظنها من دكنة لونها هوة عميقة من الظلام غرقت فيها لمة الرجاء . . . للحظة تقلصت منه شفتاه على ولائد وأجنة من الألفاظ يمسكها الحذر ثم توشك أن تفلتها الحيرة . . . ولكنها لم تكن غفوة ، ولا ظلة ، ولا حيرة تلك التى اعتورت قسمات ذلك العريق فى الخديعة . إنما انساح فكره بين صفحات التاريخ القريب والبعيد يهم أن يستلهم الرأى والمشورة . وعندما آب ذهنه من الرحلة ، أضاءت التماعة عينه الخابية ، وانبسطت الراحة على غضون محياه ، وتوثبت بسمة عريضة تتراقص على شفتيه نشوانة قبل أن تند الحروف من بينهما ترسم الخدعة الجديدة .

٧

فى وهمه تراءت دولة عريضة ، ممتدة مع الأشعة التى ترسلها الشمس كل ضحوة ، ومع الظل الذى ينتشر عندما تجنح عائدة إلى عوالم المساء . . . واسعة المدى مبسوطة الأطراف حتى لتلتئم كل أهل الإسلام ، وتنتظم فى عقدها الطويل أقطاره .

وفى صحوة تراءت دويلة ، قال الناس إنها ولاية ، وقال الواقع إنها دولة فى الدولة ، نسيج وحدها بين غيرها من الولايات ، قد بكرت فى النمو وبكرت فى الانقطاع عن الوحدة السياسية التى ضمت كافة الأقاليم الإسلامية كأنما رشدت وجاوزت حد اليفاع ! . . .

ولكنه يدع عن نفسه وهمه ، فصاحبه أمامه جاثم ينتظر منه رأيا يصلح له من شدة الحقيقة ، ويهيء السبيل إلى السيطرة على الأحداث التى مضت تتزاحم حواليه . . معاوية ما زال فى لهفة من أمره ، يكاد يتلقف ذات الأنفاس التى تند عن شفتى

عمرو لعل كلمة تبدر منها فترسم الخلاص . وإن نفسه لحيرى ، وإن عينه لقلقة غاية القلق وأعناه وهو يعد يبصره إلى مشيره الذى بدا صمته قطعة من الجمود . . .

غير أن ابن العاص ، وقد آب لتوه من رحلة ذهنه فى فيافى التاريخ ووديانه ، كان مشغولا عن صاحبه ، وعن دولة الوهم التى أقعده عرشها الباذخ ، بتأمل دولة الحقيقة التى ما فتئت تفسد عليه خيالاته . . فما معاوية فيها ؟ . . ما سلطانه المستفاد من هذه الولاية التى تتاخم الروم ؟ . . ما غاية شأوه وقصاراه لو نجح كفاحه فبقيت له إذا حالفته دنياه ؟ . . إنه لا ريب غير ذى خطر . ليس شيئاً فى عين الدولة القائمة اليوم : بيدها وحضرها ، أبيضها وأسودها مما وسمت رقعتها الممدودة بين الشروق والغروب ، وممن ضمت شعوبها الشق من الروم إلى النوبة ومن البربر إلى الصين . . . ليس شيئاً إلا أن يقاس قدره بنظرات أهل إقليمه فإنه حينئذ شىء على أى حال . إنه فى عين شامه رب سطوة لا تستطيع النظرة الزارية تخطيه أو اقتحام مقداره هو حقا فى اعتبار السلطة الزمنية ، وفى اعتبار الرأى العام الإسلامى فى مجموعه ، وال من الولاة ، ولكنه فى اعتبار الحقائق الناطقة ليس كالولاة . فما ينكر أحد أن الرجل قد وسعه مع الزمن أن ينفذ إلى نفوس أهل إقليمه باللين والبذل وحسن الحيلة وغير هذه وتلك من وسائل تربط برباطها الوثيق بين الحاكم وبين المحكوم . . . وولايته — على هذا الاساس — يمكن أن تغدو له ردءا يحميه وجنة يتحصن بها إذا ما تأزمت عليه الأحداث ... وأنصاره فيها — أو قل رعاياه — قد يشفى بهم حماسهم له على أن يشرعوا الأسنة حينا من الزمن ، ذودا عن سلطانه عليهم أو — فى الحق — عن إحسانه إليهم عرفانا منهم بجميله وأياديه . . .

ومع ذلك فإلى أى مدى تستطيع أن تثبت الشام ؟ أقد أخلصت له صفوف أهليها بغير فرقة بينهم ولا خلاف فيطمئن عمرو عندما يحكم تدبيره إلى أنه لا يبنى على أرض رخوة ؟ . . أكلها أموية ؟ . أتستجيب حين الجد لدعوة الصراع فتكون صدى صادقا لصيحة معاوية ، تردد عنه وتؤازره ، وتعمل وسعها حتى تقيم له الإمرة المنشودة على أنقاض إمرة الإمام ؟ . . .

لا يدع عمرو هنة فى الغابر ولا فى الحاضر إلا أحصاها ثم طاردها بالتمحيص والاستقصاء . وها هو لا يأبه شيئاً بلهفة حليفه الذى جلس أمامه ساعة كالدهر

ينتظر رأيه فى ثالث الأنباء التى هزت خاسره وزلزلت هدوءه . إنما يمضى شوطه فى الاستقراء وهو يعرض أمام باصرته مشاهد من تاريخ هذه الدويلة القريب والبعيد . إنه منه على بينة : أولئك الذين يميلون فيها إلى ابن هند هم الكثرة الغالبة إذا استمسك بحذره فى التقدير ولم يرهم الكافه ... فيها جاوروه السنين الطوال بعد أن جاوروا قبله أخاه يزيد بن أبى سفيان أميراً لهم فى عهد الصديق . . وبها انتأوا معه — عن مقر الخلافة الإسلامية — فى رياضها وغياضها المنقطعة عن مدينة الرسول بعثات من الأميال والفراسخ وعديد من الفلوات وأودية التيه . فعسى هذا النأى قد وهب معاوية نوعا من التفرد فى ربوع الشام بالحكم والسيادة دون عين ترى فتنقد فعاله أو رقيب ينقض ويحد استقلاله . . . عسى طول عهده بحكمها قد زوده بنوع من الاستقرار على سلطانها أدناه هونا من أصحاب الملك الراسخ ذوى العروش والصوالج ... عسى الجوار أيضا أورث أهلها الألفة به ، والخنوع له ، والتسليم بأن يكون عليها ماشاء وشاءت له سعوده أو ظروف أحواله .

هذه مزايا حرية بأن ترفع معاوية فى الشام إلى ذروة التفوق حين ينحصر الخلاف بينه وبين غريمه ابن أبى طالب على الشام . ولكنه تفوق لا يغمض عين عمرو عن سواه من الاعتبارات الأخرى . فما الشام إلا ولاية كالولايات . وما أهلها إلا ناس كالناس . . وفى خلال الأعوام الطويلة السالفة ، منذ أصبح فيها للعرب سلطان ، لم يكن لفرد من رجالها رأى فى اختيار الخليفة إلا بقدر ما يأتى الخبر فى اختياره فيبايعه الوالى وتبايعه على البيعة أتباعه . ما من امرئ منهم نقض أو ثار ، بل كانوا جميعا لعاملهم الصدى والظل كحال غيرهم من الأهلين فى غيرها من الأقاليم الدانية والنائية ، التى لم يكن لها فى الشورى كلمة حتى اليوم . فلم نشهد قط ، بعد حركات الردة وعصيان مانعى الزكاة خلال عهد أبى بكر ، عاملا أو مواطنا حاول أن يتمرد على البيعة التى تعقدها المدينة . إنما رجل فى القوم لم يعص ، ولم يخالف ، ولم يجل له بخاطر أن ينحرف مرة عن الطريق التى كان يرسمها دائما ذلك «المجلس النيابى» بالعاصمة ، المتمثل فى جماعة المهاجرين والأنصار . إنما كان حقا خالصا لتلك البقية من صحابة الرسول أن تختار خلفه على أمته ، وأن تقتضى المسلمين كافة فى أنحاء الدولة الوفاء لعهدها الذى أبرمته والطاعة لمختارها الذى ارتضته . . .

كان هذا حقا للمدينة غير مردود دون غيرها من المدائن . ثبت فى الضمير الجماعى للذين ألفهم دينها وأظلهم علمها الموحد وإن فرقتهم الأمصار مشرقين ومغربين وتقسمتهم الأرض بين الجبل والوادى والقاع . ولقد ألف الناس الأمر حتى غدا مع الزمن عرفاً ثابتا مقررا له فى نفوسهم رسوخ التقاليد المسيطرة وقوة القانون النافذ ، وأوفوا به وامتثلوه أصدق امتثال حتى أصبحت له عندهم قداسة .

البيعة إذن أمر والرضا بها التزام . هذه حقيقة نطقت بها دائما وقائع الحال منذ كانت هناك بيعة عقدتها « ندوة المدينة » أو « مجلس الأمة » أو أيما اسم يمكن أن ندعى به تلك النخبة من حواريى محمد وصحبه الذين التأمهم مجتمع حاضرته وغدوا على تراثه خلائف وأمناء ... ابن العاص قد علم هذا وأقره ، ونزل دائما على ماتعارف عليه المهاجرون والأنصار وقضوا به لأبى بكر ، ثم لعمر ، ثم لعثمان . لكنه اليوم غيره فى أمسه ، وهو فى غده أميل إلى الزيغ والانحراف !.. كلما تبدت رويدا رويدا خيوط نفعه فى آفاق الزيغ والانحراف ! . . وإنه ليتنكر للبيعة الرابعة كما لم يتنكر لما سبقها من بيعات . ويجهر بخلافه وانتقاصه على الإمام خلافا لاتغذيه إلا عاطفته وانتقاصا توجهه صوالحه الخاصة . ولئن قيل غضب الرجل لدم عثمان بعد ندمه لما سلف منه فى حقه فمن حق أى امرىء أن يغضب كما يشاء دون أن يساير انفعاله إلى المدى الذى يتجاوز به حدود العرف والقانون والمقدسات . وإن اعتذر له بأنه يفسق إمرة على فيراها موضوعة فبأى عذر يساغ سعيه لتأمير معاوية خليفة للإسلام ! . . فلقد سعى لهذا سعيه وإن توارى خلف الثأر ولبس هدفه الشخصى بغلاف زائف من المروءة . أو لا فكيف يساوم حليفه على مصر إلا أن يكون قد وضعه فى خياله ، وفى تقديره ، موضعا تكون له به السيطرة عليها وعلى غيرها من الأمصار ؟ . .

من اليوم الذى أتته فيه كلمة ابن هند وهو بمنتجعه ذاك فى فلسطين حزم عمرو على الخلاف أمره ، ورسمها فى باله إمرة للمؤمنين يقوم عليها أهل الشام وينسلخ منها الإمام . وما أحسبه إلا سبق بهذا التفكير معاوية نفسه الذى كان قصاراه لو أقره على إقليمه وأبقى له به السيادة القديمة . . . وإنه فى سبيل ما أضمر ليتخذ لكفاحه عدة من الدس والمكر والتآمر ويحرك فى القلوب الساذجة شغفها

بالمروءة والنخوة وولعها بالقصاص وفق شريعة الغاب ! . . إنه ليفتح أمامها باب الثارات وسيما على مصراعيه بعد أن كان الدين قد أوصده وحرم على أهله اقتحامه منذ حين . . إنه فوق هذا يبتكر فرقة جديدة يضرب بها حق بين أهل نفس إقليم صاحبه ، فالنار — فى رأيه — تأكل النار والانقسام يقضى على الانقسام!..

نظر عمرو فرأى لزاما عليه ليبلغ أربه أن يحيي من العصبية القبلية ، ومن التحزب الأعمى للأصل ، ما كاد يموت ... كان عليما بأن الشام غنية ، فيهاطا ئفة كبيرة من بقايا غسان منذ استظهر الروم بهذه الفئة العربية قبل الإسلام ووطدوا لها على حدودهم ملكا يدرأ عنهم شرة الأكاسرة وغارات بدو الصحراء . وكان عليما بأن الهجرة الإسلامية بعد الفتح قد مكنت لليمنية أيضا فى التفوق العددى بالإقليم وأفاءت عليهم نوعا من الشعور بأنهم غدوا أولى القوة فيه أو أنهم أوشكوا أن يعيدوا دولتهم الغابرة للحياة . . . فمنذ بعيد ، عندما كانت العرب مزقا محاولة وكان أبناء شمال الجزيرة ووسطها يعيشون معيشة قبلية خالصة ، تقدمهم إلى التكتل ، ثم الوحدة السياسية ، طوائف من قبائل الجنوب فبنت لنفسها سلطانا فى دويلة هنا ودويلة هناك كما نعلم عن ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة اليمنيين . تقدمت اليمن إذن إلى التملك ، وسبقت غيرها من العرب فى مضمار الحضارة ، فلما أن أتى الدين الجديد فى قريش ، وعلت به مصر . وربطت يد الحجاز بين قبائل العرب أجمعين فى الجزيرة : من ولد عدنان وولد قحطان ، هفت العزة بنفس الغالب ولعبت الغيرة بنفس المغلوب . ولولا أن دعا الإسلام بين أهله بدعوة السوية لما انطمرت فى قلوب أولئك وهؤلاء — حق حين — عوامل المنافسة والتفاخر وما قد تجر إليه من تناحر وشنآن . . .

لكن عمرو بن العاص لم يرد لتلك الحزازات الانطمار ! . . إن التلويح بقاعدة إسلامية فى الشام تساس منها الدولة الناشئة قد يكون لمعة السراب . ولكنه على أية حال محاولة تستحق منه أن يجربها إذ هى حرية بأن تبتعث الرجاء فى نفوس اليمنية وتدفعهم إلى الطموح عسى أن يستردوا فخرهم المسلوب ويعودوا إلى تسنم ذروة مقامهم السالف على هام العرب أجمعين . . ولئن كان معاوية من قريش فإن الإمرة المرقوبة له لن تقيمها إلا سيوف « جنوبية » يعرف فضلها عليه حين

يأتى حين المفاضلة بين قبيل وقبيل . وما أحراه عندئذ بأن يقدم اليمن على غيرها فتطفو بهم « غسان » القديمة من القاع ! . . وما أولاها إذن بمكان الصدارة فى ملكه دون مضر التى لن تؤدب إلا بالتخلف إلى الذيل ! . . .

كان منطق الأشياء ، وأصداء التاريخ ، ودقة الاستقراء كلها تمهد الطريق لتدبير عمرو وتقديره فلا يكاد يلمح عقبة واحدة تسد السبيل دون « المغامرة الكبرى » التى حزم عليها أمره تلك الليلة وهو يتلكأ بشوراه عن صاحبه المهموم . . . غير أنه آثر التريث قبل أن يدلى برأيه ، فما تؤمن اليمن بالمين يتنازعان ! . . وما يستطيع هو أن يحملها على الثقة به وعندها من هو بهذه الثقة أولى منه . أترى انكشفت خبايا تفكيره للإمام فتحرز له وأعد العدة التى تفسده عليه ؟ . إنه حين يجده قد بعث جريرا رسولا من لدنه إلى معاوية يكاد يؤمن بأنه فتق حجاب الغيب ولما تنفسح الأيام لتفكير مفكر ولا لتدبير متآمر . فجرير من بجيلة وبجيلة من اليمن واليمن هى التى يهم عمرو أن يتخذها عدة فى الصراع المرقوب ، الذى راح ماكرا يرسم خطوطه ، لكثرة من انتشروا من بطونها وأفخاذها فى إقليم الشام . . فهل يستقيم له دسه على على بين أولئكم اليمنية وهم حريون بأن يكونوا أسمع لجرير وأدنى إلى الوقوف بجواره منهم إلى الانحياز لصف عمرو بن العاص ؟ . .

فليضرب إذن الرسول القادم من الكوفة ببعض أهله ! لتكن من اليمن نفسها أداته القاضية على نفوذ ابنها جرير ! . . فليطلق النار تأكل النار ! . .

وابتسم راضيا عن نفسه وقد شارف به تفكيره نهاية المطاف ، ولمعت عينه الخابية كأنها شهاب . وامتلأ بالزهو والاعتداد عطفاه وهو يلق بسمعه فى تراخ إلى تساؤل خدينه الملهوف :

« وما ترى فى على ؟ . . »

« أرى فيه خيرا . . »

فلو أن امرءا سوى معاوية كان سامعه لهبطت هذه الكلمات القلائل بقلبه إلى مواطئه ! فما أرقها ملقا يمسح على ظهر غريعه وينشر حوله هالة مضيئة من الإجلال . . لكن سليل أمية كان أقدر على كبح شموره أن يشى باضطرابها حتى مضى صاحبه يكمل حديثه :

« يا أبا يزيد . أتاك فى هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس فى أنفس الناس .. ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة فيه خطر شديد ! .. »

قال معاوية وهو يعالج قلقه باصطناع الهدوء :

« فما ترى يا أبا عبد الله ؟ . . »

« أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى ، وهو عدو لجرير . فأرسل إليه ، ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشىء أبدا . . »

عندئذ استضاءت عين الداهل ، وهدأ زفيره ، وتباج وجهه الـكمود وهو يهتف كالحالم :

« شرحبيل ! . . »

« عدو جرير ! . . »

ومضت الليلة وئيدة الخطا ، على جناحها كتاب وعى أقل لفظ وأدله ، اندفع به البريد من دمشق إلى الشمال حتى بلغ حمص فأودعه يد شرحبيل .

« . . . إن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند على بن أبى طالب بامر فظيع . فأقدم . . . . »

وأصبح الصبح وقد اتسعت رقعة التدبير فضمت من بنى عمومة المراد بالدعوة طائفة من أسد ، وزبيد ، وطىء ، هم قادة قومهم من اليمن وقحطان ، دسوا على صاحبهم يزورون له القول ويموهونه على ما اشتهى معاوية ، ووفق خطة ابن النابغة وتدبيره . . .

واختلف الناس فى بدء المحنة على شرحبيل ، اختلفوا عليه خلاف رأى ومشـــورة لا خلاف عداوة وعدوان ، فهو منهم الرأس وهم منه الفروع والأطراف . . . يقول له ابن غنم الأزدى :

« . . إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتله . . فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحـكام على الناس . وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه ؟ . . »

ويقول له عياض الثمالى :

« . . . دع قول المضلل ! . . فإن ابن حرب ناصب لك خدعة . . »

لكنه فى تردده ، واستجابة منه لغل توارى بقلبه ، يأبى السمع ، ويصر على المسير إلى دمشق ليلقى معاوية فيها ، ويتلقى عنه فصل الخطاب . . . فإذا رأى ابن غنم منه تصميمه ، هتف به ناصحا يحذره مرة :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . لا تهلك نفسك وقومك . . . »

ومغريا يحضه أخرى :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . إن كرهت أن يذهب بحظها جرير فسر إلى على فبايعه على شامك وقومك » .

ولقد كره وإن حسب أنه تلمس وجه الحقيقة دون وحى من عدائه القديم ... وإنه ليمضى شأنه ، لا النذير يردعه ولا الإغراء يلويه . يمضى قدما إلى معاوية ... إلى دمشق حاضرته التى موهتها الفتنة ... إلى طغمة بها رتبت فى طريقه كنسق بيادق الشطرنج وفرسانه وعماريه ، هيئت لها خطواتها سلفا إلى غاية مرسومة ، ووضعت فى أفواهها الألفاظ لتمجها عند اللحظة الحاسمة ترديد ببغاء ! . . ومن وراء هذا كله ، من خلف ستار ، يد معروقة تحرك الخيوط فى الظلام ، وتدفع الدمى ، إلى مصير محتوم ! . . .

١

كان الغروب منسكىء الظلمة ، شاعت فى جنبات أفقه الدامى خطوط المساء سوداء عريضة كأنها تؤلف الإطار الحزين الذى هم أن يطوق المدينة . وكان الهدوء يعلق فى الجو كالضباب ، وينساب خلاله انسياب الظلال التى راح ينشرها الليل ، لا يكاد يشى لكثافته بما ينبىء عن العاصفة الوشيكة الوقوع التى أخذت تعتمل فى الأنفس وما بدت مقدماتها فى الطبيعة . . النسمة وانية . الشجر تفتر وتهدلت غصونه . الماء ركد فى جداوله كقطع المرايا المصقولة يستقبل الشعاع ثم يوشك لخدره وتراخيه ألا يعكس الشعاع ! .

الطمأنينة التى اكتست بها السماء ، وأغفى الجدول ، ونعس الغاب لم تلق ظلا من ظلالها على الناس . لم تعد فى دناهم رواقها الآمن . لم تلف نزغ نفوسهم بأبراد الهدوء والسكينة — على الأرض سكون ، وعلى الأوجه خداع . . .

ها هى دمشق فى أمسيتها صامتة ، وسنانة المظهر وإن كان قلبها يضج كخلية النحل ! . فشت فيها دعوة الإفك التى لفقها عمرو وملأها الطنين كغاية ما تهفو إليه مطامع حليفه معاوية . . . تواتر فيها الهمس . توالت الفرية تتبع الفرية . تزاحمت ألسن أهلها على البهتان . . .

أينما خطوت فى القصبة المفتونة التى تهيأت بحديثها الملفف لاستقبال شرحبيل ، صك سمعك اللغب بسيرة الإمام ، وقصة محنة شارك فيها — كاختلاقهم — بسيف مخضوب . . ومنظر دم حرام موهوا فيه بالزيف ولعبت ريشة أخيلتهم فى جنباته بالنقصان والزيادة . . .

لكن الطنين ، والرسم ، واصطخاب القلوب بالنقمة لم تعد كلها نفس معاوية بالطمأنينة ، لم يحس فى قرارته الراحة التى حسبها الصدى اللازم لهمسات قومه ، ولغطهم بالفتنة ، وتناديهم فيما بينهم بالقصاص . فما زال قلقه يأكل يقينه ويفرى أمانه . وما ونى أمله يضطرب به على مثل اللجة الحائرة ينشرها المد آونة ويجذبها الجزر آونة . . . هدوءه مفقود ، وقلبه مفئود . وحين تلوح له فرجة للرجاء بين تدبير مشيره لا يلبث اضطرابه أن يسدها ويبنى عليها بالطين ! . . فلعله الآن قد خشى أن يفسد دس ابن العاص فلا ينطوى له شرحبيل . . من له

بائتلاف اليمنية معه على غريمه وإنهم لشيع بعدد البطون والقبائل وبقدر المشارب والأهواء ؟ . . أيستطيع أن يأمن منهم بدواتهم وهم لجرير ذيول ؟ .

كلما أوغل المساء حمل من قتامه إلى دخيلة نفس ابن أبى سفيان ، وعفى على أحلامه المونقة بظلاله . . الآن حقاً فى حوزته الشام ، ملك يمينه وإحسانه ، ولكن أمرها فى غد فى يد الغيب . . . هى أموية ، والله عشرين حجة طويلة ، وحرية بأن تواليه بعدها عشرين لو بقيت حالها كأمس وأمهل له الأجل فى الحياة . غير أنها — بعد أيام ، عندما تتفاعل الدسيسة التى دبرها ابن العاص — سيغدو مصيرها معلقاً بخيط ، بكلمة قد تفلت من هذا الفم أو من تلك الشفاه ، فإذا أمرها ينتهى إلى غير رجعة ، وأمله يذهب مع الريح ! .

وحد هونا من اضطرابه ، ورد من ثائرة خيالاته . إن القلق ليلعب بنفسه ، وما يحسن بالسياسى الأريب أن يعطل العقل ، ويعمل بأعصابه . . لم يعد يؤمن اليوم بالنتائج التى حدسها عمرو وإن كان ليؤمن بالمقدمات بعض إيمان . وهل ذلك التدبير إلا مغامرة ؟ . . وهل النجاح إلا صنو الفشل فى أمثالها من المغامرات ؟ . . . إن كاد ليقنع بجلوسه ينتظر ما تنجلى عنه التجربة لو علم أن شامه باقية له خاب تقدير مشيره للخواتيم أو أصاب . ولكنه هو وحده محور التجربة : المادة التى تنصهر على نار الانتظار . فما مآله لو لم تخلف التجربة فى البوتقة إلا رماداً أو ما هو أتفه من الرماد ؟ . .

أليق إذن بطبعه ألا يدع مصيره ومصير إقليمه فى يد نتيجة مجهولة تسفر عنها أحابيل عمرو . ليس هو بالذى يكل شأنه للمصادفات ، أو لرجل كشرحبيل تلعب بنفسه جمحات عاطفته فلا يؤمن جنوحه أإلى يمين أم إلى يسار ، أو لحفنة من رءوس اليمن قد تضطرب ميولهم بينهم فلا تتفق كلمتهم على قرار . ليس هو بالذى يبيع ما فى يديه ليشترى سلعة خبيئة لما يطلعها الغيب . . . إنما من حق أهدافه عليه أن يستبق الجسر الذى يربطه بماضيه لا يهدمه لعله يكون مجازه — حين محنة — إلى ضفة الأمان ! . .

وهدأ جأشه لهذه الحيطة الواجبة منه ، فانطلق من لحظته ، الليل وطاؤه والخفة رداؤه . . . فلما أن جنته دار رسول الإمام ، ألقى العبء الذى أثقله خلال انفراده بأفكاره :

« يا جرير ، إنى قد رأيت رأيا . . »

فانبسطت أسارير الرجل الذى برح الكوفة ، وقطع من الفلاة شوطاً ومن الزمن سلخة فى سبيل الوفاق :

« هاته يا أبا يزيد »

« اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ، ومصر جباية — »

« وتبايع ؟ »

« فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة فى عنق . وأسلم له هذا الأمر . وأكتب إليه بالخلافة . . . »

فتفكر جرير . . . ما عليه لو فعل ، عسى الله أن يرأب الصدع ويحقق الجماعة ؟ . .

قال :

« اكتب بما أردت ، وأكتب معك . . »

فلو أن هذا الرسول احتذى حقاً نهج سيده الذى إليه أرشده لما خط كلمة واحدة فى كتاب ابن أبى سفيان ، ولما ارتضى منه هذه المساومة . إنما بعثه على لبيعة غير مشروطة يقتضي معاوية إياها ويقتضيه معها إمرة الشام : التسليم وحده كان مجاز الأمير المشاق إلى رضاء الإمام عنه ، والوسيلة إلى الإبقاء على وحدة الأمة بلا انفصام . . . لكن جريرا جاوز حدوده . وتحيف على أمانة الأداء المفروضة فى كل رسول ، ففضح بما فى نفسه بفعله ، وتبدى لنا كرة أخرى — كيدثه قبل تركه الكوفة إلى دمشق — فردا من أولئك الذين يلوون الحق ليلائم الهوى وفرقته كأنما حسبوهما يجتمعان . . .

أفنصدق عليه إذن كلمة الأشتر : « إنى لأظن هواه هواهم » فهو خائن بهذا التقدير ؟ . . إن المرء ليوشك أن يساير الشك فيؤثم الرجل ، ثم يوشك أن يحسن الظن به فإذا به هو مخدوع . ولكننا على الحالين نرى علياً صاحب المبدأ الأمثل الذى لا ينحرف قيد شعرة مع الباطل وإن جاءه الانحراف بالدنيا جميعها مسومة تناديه أن تكون متنة ! . . ونراه كذلك رجل السياسة الذى يجد المساومة آفة تأكل من هيبته كما تضعف مثله وتقوض خططه التى جعلها أعمدة

دولته . فما من امرئ يعلمه هاود بعد طول تمسك وإصرار إلا أيقن أنه أضعف الفريقين غلبه الحق على عناده . وإنه إذن لحرى بأن يكون ألعوبة فى أيدى عماله يجبلون طينته على الشاكلة التى توائم هوائم ، متهافت القدر فى عيون شعبه فلا يؤمن فرد واحد بأهدافه . . .

خدع جرير أو خان فالإمام ثابت فى مكانه ، رسخت قدمه على عزمه ، وصحت نيته على انتهاج المحجة المستقيمة بغير زيغ ولا انحراف فليس هو بالذى يساوم الباطل أو يهادنه . وليس هو عن يقتله زخرف أخدوعة ! . . العقدة لا يحلها أن يدعها بل أن يقطعها ! . والحية إن بتر منها ذيلها ثم أطلقها فلن يكف عن اللدغ نابها السام ! . . .

ولذلك كان جوابه إلى جرير يكشف عن حيلة معاوية ويهتك سترها المموه بزيف الرغبة فى الخضوع والطاعة :

« . . . إنما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام . . . »

لقد صدق حقا حدسه فى البدء والنهاية ، فإنما رحلة الكتاب وأوب الجواب مهلة مخطوطة بقرت لمعاوية عن دخيلة عنية إقليمية ورأسهم شرحبيل فهذه دمشق تحتوى الرجل بعد أن تخمرت بالدسيسة ! . وها هو يبيت فيها كمن فى خلية ، ملأت أذنيه بالأزيز والطنين . . وها هى استقبلته كاستقبالها الغزاة المظفرين ، يلسب حديث صنائع أميرها بإعانه ويمسح ثناؤهم على غروره ! . وعندما تفتح له أبواب القصر يمشى فيه كأنه متبوع ، يوشك معاوية أن يسير بين يديه من خضوعه ! . .

ويفرغ الرجلان من بعد الخلوة ، يقبل معاوية على زائره خلالها فى استحياء العذراء :

« يا شرحبيل . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على . وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . »

فيتفكر سيد اليمن هنيهة وهو مشغول . هذه نفس الصورة التى شهدها طوال طريقه بالحاضرة الأموية حتى بلغ دار الأمير . ذات الطنين . ذات الخلية المضطربة

بالوسوسة والأزيز . . يا ترى هذا كله كلمة مصنوعة وزعت على الألسن ووضعت في الأفواه ؟ . . أتلفيق ؟ . . أتواطؤ على مكيدة ؟ . . هو يخشى أن يكون رأيه ملهاة لقوم يزيغون به مع هواهم ويخطون به مجراه . لكنه يكبح نفسه أن تنساق وإن آمن في ضميره باستحالة إجماع كل من قابلهم على ضلالة . وإنه إذن ليتحرز فلا يتعجل بحكمه ، فإنما الخير في الحيطة .

ويبدى الريث في تساؤله :

« رأيك ؟ »

فإذا معاوية لا يجيبه إلا بما يتملق اعتداده بمقداره بين الناس :

« . . إني قد حبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا . . »

عندئذ يطمئن خاطر شرحبيل وتهدأ وساوسه . فما هذا حديث مولع بفتنة كما حدث ابن غنم ، ولا بخدعة مضلل كما ظن ابن عياض . بل هو قول من يحب أن يتلمس الحق حيثما كان ، فيصدر في رأيه عن شعور أهل إقليمه ، وفي فعله عما يحملونه عليه . . .

ونهض شرحبيل راضيا وهو يقول :

« أخرج فأنظر . . »

وحسب بهذا أنه بلغ ذروة التحرز وطلب الحق الخالص في مآويه !

٢

كرة أخرى احتوته الخلية ! . . الآن أرفع أزيزا حتى بلغت الهمهمة مثل عواء العاصفة في الغاب . الرياح نفسها راحت تحمل الثورة على الإمام . . قطر المطر على دروب عاصمة الشام كان له مثل قرع الطبول الداعية للحرب . . ليالى الشتاء الحالكة كانت مرآة تعكس العواطف الحزينة التي فاضت بها القلوب أسى لعثمان . .

أينما مضى الرجل يستطلع نبتت ألسنة في مسارب قدميه تناديه للقصاص . ضاقت السبل عليه عن وطأهم له معاوية ومشيره . ملأ النحل عليه هدأة الفضاء ! .

إن جرسهم جميعا واحد ، بغير تفاوت فى الرنين كأنما صدر من ذات الناقوس !.. سحنتهم كلها واحدة قلبها الغضب وبدت فيها تكشيرة الذئاب ! .. تلويحهم أيضا واحد ، تقبضت به الأصابع تتوعد كأنها تشد على حسام مسنون ! ..

وفرت الحيطة موليه أمام هذه المظاهر الناقمة ، فهاج شرحبيل :

« يا معاوية ! .. أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو — لنقتلنك ! .. »

فكتم الحاكم المجدود غبطته بغفلة حليفه الجديد ، وقال وهو يبدى التسليم :

« ما كنت لأخالف عليكم وما أنا إلا رجل من أهل الشام .. »

« فرد هذا الرجل على صاحبه إذن .. »

إن بارقة واحدة للحق تبلجت هنيهة فى ذهن شرحبيل وكاد يستضىء بها ضميره ذات ليلة أراد أن يدل فيها على جرير بسلطانه بين قومه من رجال الجنوب. فما نراه بعد لقائه معاوية ذاك إلا أن ملكت نفسه الشماتة ، واستبدت به رغبته فى التشفى علاجا لغله ، فمضى يقرع رسول الإمام وهو يحرص على أن يملأ حديثه له بغمزات سخريته وازدرائه :

« ... أتيتنا بأمر ملفق لتلقينا فى لهوات الأسد ؟ .. وأطرأت عليا وهو قاتل عثمان .... »

فجبهه جرير :

« .. والله ما فى يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ! .. »

واحتدم بين الرجلين حوار أحسب كلا منهما كان يدافع عن قدره قبل دفاعه عن أهداف صاحبه . ولكنه حدل بذر الشك فى نفس شرحبيل ، وذكره ما أضمر بين الحقد على منافسه وما أحق من كلفه بجاه النفوذ .. وإنه لتتلعب به الريبة فلا يدرى أين يضع تأييده حتى يسمع من ابن أخت له شعرا لو ترك معه وشأنه لكان حربا على معاوية ولكن داهية الشام كان أنفذ بصيرة ، وأسرع إلى معالجته عن التزام جانب النصفة فإذا الصنائع تفتله ثانية ، وتتهم عنده عليا بدم عثمان ، وتقيم البينات والحجج على ما ادعته : كتبا مختلقة وشهادة زور ! .. وعندئذ يحمق ويعود عناده حتى لود لو اقتضى ابن أخته ما يجعله أمثولة :

« هذا بعيث الشيطان ! .. والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنى .. »
ورين على بارقة الحق فى ذهنه بظلمة الضلال . وباع نفسه للباطل . . وكتب على الأمة الفرقة . .

وإذ أوشك أن يبرح دمشق حج ثانية إلى كعبته : قصر الأمير المغاص ، يعاقده على ما انتهى إليه تفكيره :

« . . . أنت عامل أمير المؤمنين عثمان ، وابن عمه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنت رجلا تجاهد عليا وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تفنى أرواحنا استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك . . . »

فهلّ لغير هذا سعى معاوية حتى يتردد لحظة فى اعتناق ما عرضه شرحبيل ؟.
إنه قد غامر وأفلحت مغامرته بعض فلاح ، ودبر وكاد يجدى عليه تدبيره ، وعندما يمضى شرحبيل عنه إلى منازله ، وإلى مآوى قومه ، وإلى بطون من قبائلهم وأفخاذ تؤلف الكثرة الغالبة من أهل الشام ، فحينئذ سيسرى هناك رأيه كالعدوى ، فتطيب به عزتهم ، وتصبح طرية دانية تنتظر آن القطاف ! . .

ومع ذلك فلم يقطع صاحب الشام برأى فى وفادة جرير حين كر عليه يستحثه البيعة ، ويستفيئه الدخول فى الجماعة . فلقد أبطأ حتى لم يعد بعد هـذا مجال لإبطاء ، ومضت به الأيام والأشهر وهو يستمهل رسول الإمام عسى أن تتفاعل دسيسة عمرو فيتعرف خبيئة أهل إقليمه ، ويذوق طعم دخيلتهم المغشوشة ! . .
وإذا كان شرحبيل قد سره هونا ، وزوده من تأييده بأدسم زاد ، إلا أنه ما زال يؤثر التريث حتى يجيئه الغد باليمنية كلهم ظهيرا وتكأة . . . وإنه ليجلس الآن ، فى قلبه ثقة ، وعلى وجهه مثل صمت الجلمود ، يستمع إلى جرير وهو يتلو عليه آخر ما وصله من الإمام :

« . . . أما بعد . فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخذه بالأمر الجزم . ثم خيره بين حرب مجلية ، أو سلم مخظية ، فإن اختار الحرب فانبذ له ، وإن اختار السلم فخذ بيعته . . . »

فلو أن بينه وبين محدثه حجابا ساترا لحركت حروف الكتاب من قسماته ما ينبئ عن انفعاله وهو آمن أن تراه اللحاظ الناقدة والعيون الرقيبة . ولكنه راض عاطفته على البقاء فى قرارة جليدية ، تنطفئ فيها جذوة قلقه واضطرابه . بل قد حبس لسانه فى حلقه لا يحركه ، حتى ليحسب مشاهده أن كل جوارحه همدت فيها حركة الحياة إلا سمعه للرهف لبقية الحديث ! . .

وراح فى سكونه يعد أذنه الصاغية لوعيد جرير ، ولكنه كان إنصات المشغول بأمر بعيد . دونه فسح من الزمن وأشواط من المسافة . . فإلى الشمال قد مضى خاطره — إلى منازل شرحبيل — إلى حمص التى لا بد قد وصلها رأس اليمنية الآن ومضى فيها يعدى الناس بنفسه المريضة ! . . وإن قلبه ليتبع داعيته الجديد هناك . وإن عينه لتتأثر خطاه أينما مضت به القدم فتتعلق منه بكتابه الذى لا ريب قد تلقاه . . لقد كان لا بد لإتمام الخطة ألا يقبع شرحبيل بمستقره ، قانعا بسخط الإمام وغضبه عليه . بل أن يسير بنقمته تلك يذرع الإقليم ، ويغرس نواتها فى أيما رجل كانت نفسه ربة صالحة لاستنبات الفتنة . . . وما كان أيسر هذا على معاوية وقد ضمن ميل شرحبيل إليه . ثم رسم له النهج الذى أراد بكتاب منه لحق به غب مبارحته دمشق ، يقول فيه :

« . إن هذا الأمر الذى قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة . فسر فى مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه » .

ورد معاوية عن متابعة رحلة الخاطر أن صك سمعه ختام الحديث الذى كان قد ساقه جرير :

« . . . أراك قد وقفت بين الحق والباطل كأنك تنتظر شيئا فى يدى غيرك ! . . »

فرفع برهة عينا تائهة إلى محيا الرسول ، ثم حمل لسانه على الجواب :

« ألقاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله » .

غير أن ذلك المجلس لم يتح له أن يكون إلا بعد أن مضى داعية الباطل وخطة عامله ، يغير النفوس ، ويثير الثائرة ، ويؤلب الناس . ولقد يكون من حق الواقع الإقرار هنا بتلك المعارضة التى صادفها شرحبيل ، ولكنها مع ذلك معارضة

سلبية ، لم تجد لها صدى فى نفوس العامة الذين تتألف منهم كثرة أهل الشام . كانت حيدة التزمتها طائفة من نساك حمص ، ممن صفت قلوبهم لله وأبت الزيغ فلم يصغوا للدعوة . ومع ذلك فلم يؤثر تقاعدهم شيئا فى همة الداعية المفتون ، بل راح ينفث سمومه حتى لم تبق فى الشام مدينة إلا استجابت له وقد سمعته يقول :

« . . . إن عليا قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجميع ، وغلب على الأرض . . . وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم . . . ولا تجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية . فجدوا ، وانهضوا . . . »

فلعل هذا النجاح قد أغراه باهتبال غيره أبلغ ، تكون له المنة به على صاحبه والحظوة لديه عندما يستتقيم أمره على غاية ما يشتهيه . فما إن فرغ من رحلاته فى بلدان الإقليم ، ورأى تبشيره قد أتى بثمره ، حتى راح يقلب كتاب معاوية فى كفه وهو آخذ عليه ما بدا فيه من قناعة ومطلب يسير ؟ . . أفيكتفى الآن بالإمرة ؟ . . ألا تتطلع عينه لما هو أعلى من مكانته ! . . أضاقت دنياه إلا عن الشام ؟ . .

وهتف الداعية لنفسه :

« هذه سقطة ! . . »

ثم قام من فوره يكتب إلى أميره

« . . . إنك أخطأت خطأ عظيما حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة . . قد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة ! . . »

وقد فعل .

وسافر البريد إلى دمشق بالكتاب والأخبار .

عندئذ آن لمجلس معاوية أن يكون ، فقد ذاق أهل الشام ، وطعم من حلوهم ما لم تطلمه قط أحلامه ! وإذا به يمد يده إلى رسول الإمام بالرد الذى طال عليه الانتظار ، ثم يقول فى خيلاء :

« ياجرير ، الحق بصاحبك ! . . »

٣

أين هدأة الطمأنينة؟ .. أين سكينة الوفاق والوحدة ؟.. أين منهم ، جميعاً ، السلام ؟ . . خياله كان وهم أنشدة خشيت الفرقة أن تمزق الأمة وتميدها ثانية قبائل محاولة كبدتها الواهن فى صحارى الجزيرة . حديثه كان أمنية وحلم حالم . . أما الآن فما للسيوف تؤثر العرى ؟ . . إنها تهيأت تنضو القرب وتخلع الأغماد . الحراب شحذت والسهام ريشت . الرماح أتلعت الجيد فى الفضاء وشدت القوام ، يكاد صقالها يخطف البصر وسنانها يقطف الهام ! .

اليوم لا سلام ! . . حتى السكوفة للصابرة لا كت الحرب . الصمت آدها وأعياها . الركود الذى ارتضته فى الله لم يعد له فى أعضائها مسرى بعد إذ لقيت دعوتها إلى الاتحاد العنت والجحود والترفع . . ليس فيها اليوم من يستطيع رد نفسه عن لقاء عدوها العاصى بما يغرى ادعاءه ، ويقمع طمعه ، ويقمأ خيلاءه . كل أهلها الآن غاضب ثائر ، تمردت كبرياؤه على صبره . .

وكان الإمام لا ريب أولى امرئ فيها بأن يثور كصحبه ويصبح لهم فى غضبهم طليعة . ذاق من الشام مرها وعلقمها . طعم من تمرد أميرها الصاب . لكن طبعه جنبه الدفعة ، وأبت عليه حكمته أن يلى لحنقه أو يفسح السبيل لعواطف قومه فتطغى على أناته . وإنه ليكبح منها الجماح ويمسك عنانهم أن يتفلت من كفه فيلقاهم بالملاينة كلما تلاسبت نواظرهم لتلبث جرير وشدوا على سيوفهم وقربوا الخيل وصكوا الأنياب :

« . . وقت لرسولى وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا » .

وما كان ريثهم رهبة ، إنما رغبة فى استنفاد كل معذرة قد يسوقها غريمه ، وفى إنفاذ كل حجة إليه ، ثم ينتضى بعد هذا حسامه ! . . . أما الآن فقد مضى وقت الإعذار إلى غير رجعة . فشلت المصابرة ، ونبذت الحجة المؤزرة . . عاد أخيرا جرير ، وها هى الأرض توشك أن تميد به ، أمن قلق أم من خيبة ؟ . . وهذا حديثه يترنح به . . . وتلك ملامحه عليها غبرة ، أو سمة عاص أو سمة مخدوع ؟ . . .

ويقبل الإمام بسمعه ، ثم يغضى بعقله عن كلمات رسوله التى جابها معه من الشمال كأنما لقنها من لسان عاملها وقومه العصاة . . يغضى عن أسلوب الوعيد ، وقصة مئات المئات من ذوى الخيـــل والأسنة المتمرسة بالحروب ، ونبأ الخطر المنبثق من اجتماعهم على التنادى بالثأر انبثاق سيل الطوفان ! . . فأما مكابرة معاوية فلا يغض عنها جنانه — مكابرته التى حملها جرير من دمشق فى كتاب ، أديمه زيف ، ومداده افتراء . . .

يقرأ سطور الإفك المنقوشة أمامه وهو آسف حزين لما انحدر إليه ضمير ابن هند ووجدانه :

« . . . لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان . . . ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . . . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . »

فما كان أعجبها فرية لا تكاد تلزم عليا تحمل دم القتيل ، وإن ألب وخذل وشرك فيه ، تنهافت وتتهاوى ، على بها قاتل برىء ! . .

ونتهم العقل ، لاريب ، إن أقدمنا على خصبها تحت مجهر المنطق ، أو رددنا أسنادها إلى وقائع التاريخ . . لكننا نؤثر التخلى عن الجدل فيما لا يجدى فيه . ونحاول أن نلم بهذه الآونة التى أشرعت فيها الأسنة تستعد للتشابك فلا نراها إلا فترة من حرب لفظية سبقت حرب الحديد والنار . كل فريق أخذ اليوم فى الإعداد ، وجذب الأنصار ، وجمع الكتائب المكتبة تقيم له أهدافه فوق دعامة من الجماجم ! . وما نريد بهذا أن نرمى الإمام بالظمأ للدم ، إنما نراه — وقد غلب على صبره — لم يجد معدى عن لقاء خصمه ببعض الأسلحة التى اختارها للصراع ؛ وكان من بينها سلاح المحاجة والمكايدة والتبشير . .

غير أننا لا نستطيع هنا أن نغمط معاويه حقه من التفوق فى هذا الميدان . لقد كان أملك لأدواته من على ، أقدر على العمل بها قاطعة حديدة لأنه رجل لم يرده وازع عن التماس أى أسلوب فى حربه الباردة ، مشروعا كان أو غير مشروع . لم ير حرجا فى الدس ، ولا فى الغدر ، ولا فى الادعاء بالباطل ماوصلت به طرائقه

الملتويه إلى مطمن قاتل فى غريمه . كان همه أن يفوز وإن وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الأخلاق . كل حرمة مباحة ، وكل ضلالة حلال . الحق باطل ما عارضه ، والزيف حق ما أيده ، فهو بما اجتمع له وزودته به خصاله وشيمه صاحب اليد العليا فى حرب القلم وحرب اللسان . .

وكانت الخطة التى اتبعها على ها هنا دفاعية ، تماما كأختها التى التزمها من قبل ومن بعد فى القتال . فما عرف عنه قط أنه هاجم ليكون بادئا بعدوان ، بل « الرد » كان أسلوبه . الرد ليبصر ، أو يدفع تهمة ، أو يقمع فتنة عدت على حقه الذى هو حق الأمة التى نصبته حارسا عليها يذود عنها الدواهى الداهمة والعوادى المغيرة . . . فلا عجب أن يكون خصمه فى ميدان المكايدة « أخف حركة » منه ، يبدأ حين يشاء ، ويختار من جنبات الحلبة ما شاء . وأن يكون « حر الكف » يتناول السلاح الذى يوائم طباعه وليس عليه من ضميره رقيب يزغه عن فعال تسيل لأشباهها بالندم ضمائر الأحرار ! . .

لم يكن الرجلان إذن فى مجال هذا الصراع اللفظى على مكانة سواء . رجحت كفة المادى وشالت كفة المفترى عليه . تباينت الأسلحة ، فهى فى يد على محدودة وفى يدى خصمه وفيرة عديدة جمعت كافة الصنوف والأنواع . تمددت ميادين المحاجة والتبشير أمام معاوية وضاقت حلقتها على الإمام — إلا ما أقره منها الدين وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة . بل الغرائز البشرية فى صورها الشائهة لمعاوية ظهير إذ هو امرؤ أجاز لنفسه تسويد المادة على كرائم الأخلاق .

تحت هذه الأضواء التى تشعها أدوات الصراع يمكن فى يسر فهم التفوق الظاهرى الذى حازه ابن هند حتى علت به يده فوق كف غريمه . وإنه لتفوق ترفعت عنه شيم الإمام وسجاياه وهو غير عاجز عن حيازة مثيله . إنما قد أباه وهو عالم أنه بإبانه هذا مغبون . فلقد آثر ألا يعد دينه ومثله السامية سماطا تطعم منه أهواء اللئام فتشبع البطون وتجوع الأرواح . ولقد رضى بالاحى يمذله به الجاهل العائب ، والشانىء الثالب وإنه لعارف أن تفوق خصمه تفوق غدرة لا تفوق قدرة ... وها هو يكشف لنا عن حقيقة الحال فى النزال الذى لم تتكافأ فيه القوى المتنافرة فى الجانبين ، عندما يقول :

« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . . »

فالقياس هنا بين قدرتين : إرجاف بالباطل ، وتحيف على أصول المقارنة ، ومجانبة الإنصاف . وهو كمثل صرك الماء فى ثوب ، وحصرك الشعاع فى قبضة ! .
فأما العائب الزارى الذى أضله هواه فرفع معاوية درجة فى مراتب الدهاء ، وقرر ذكاءه . ووفر له من مقومات الحنكة السياسية ما شاء ، فهلم فليقدم ليكشف لنا متى جرد الداهية من باطله ما عجز حق الإمام عن الثبات له ثم فشل من بعد دون دحره واستذلاله ! . . .

جيش عاهل الشام من مكره وأخاديعه الكتائب التى تعمل له ، وفرق منها فى الميادين الإسلامية . . . فى مكة والمدينة بث دعاته . وفى أرض النيل . وفى إقليمه هو الذى كان حريا به أن يطمئن لولائه ، بل فى الكوفة أيضا نشطت له فرقة من العيون والجواسيس ... وكان يعلم أن أفعل أسلحته هو ما هاجم به عليا فى إمامته ، ونال من شرعية البيعة التى غدت له فى عنق الناس فلم يأله تنقصا وتجريحاً ، ولا ونى عن معاجلته باللمزة تتبع اللمزة ، والهمزة تردف الهمزة ، تكاد تتفق فى معانيها وإن تباينت فيها الحروف والألفاظ . كان يفترى ، ثم يعاود الفرية ، ثم يكرر المعاودة ما وسعه أن يكرر عسى أن يقر افتراؤه فى نفوس صحبه يقينا ، أو يثبت الريبة فى نفوس أعدائه فينحدر بهم تيار الشكوك إلى دركه ومهواه . وإنه بهذا الرايح على أى حال ما دام مستطيعا أن يخفى عن الناس الجوانب التى لا تظاهره ويبدى كل ما عداها : ما يتنقص من سمعة الإمام . . .

ولم يكن كتابه الذى احتمله جرير أول ما نطق بكذب ، ولا آخر ما أتى ببهتان . . . إنك لتكاد تعد من أمثاله ما يعيى الحصر ثم توشك لو شئت أن تختزلها جميعها فى واحد يغنيك لبابه عن الكثرة الوفيرة . ولكنك لن تجده قط انبرى بإفكه إلا انبرى له على بحقه ، فيه دحض وحجة وإفحام . فهذه الحرب اللفظية التى شنها لقيت أمامها الكفء القادر على أن يحيلها سجالا لا ترجح فيها كفة العادى إلا بقدر ما يتهيأ خصمه لرد العدوان ، ولو أن عليا صمت فلم يجب على تلك الكتب المبطلة لما نال صمته من قدره فى نفس أى امرىء يتحرى

النصفة ، ولـكنه كان عارفا بطبائع الناس ، عالما أن السكوت قد يساء فهمه عند العامة الذين تستهويهم مظاهر الأشياء فيرون الحسر فى الصمت ، والـكف عن الجواب توأم الحرج والاعتراف بالهزيمة . لذلك لم يغض الإمام قط عن فرية ساقها معاوية ، ولا عن كتاب هاء الرجل أن يزخرفه بزيفه وأباطيله ، ولعل اجتزاءنا ببعض رده على ما احتمله جرير فيه غناء عن الإطناب وسوق الأمثال .

كتب عند ذاك إلى العاهل المتمرد يقول :

« . . . أتانى كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . . .

زعمت أنه أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى . وما أمرت فيلزمنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فيجب على القصاص . . .

وأما قولك : ادفع إلينا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بذلك منك ! . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . .

. . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف الخيار . . . »

وإذ كانت العرب فى جملتها أمة « سامعة » قبل أن تـكون قارئة ، فقد استغل الفريقان منها هذه الصفة فحرص كل فريق على أن تصل دعوته إلى السمع تصكه وتغزوه . . . لذلك تراميا — فيما تراميا به من أدوات هذه الحرب السلمية — بالنظم يزجونه ، كل إلى غريمه ليهز تحته مواطئه . فللشعر مدخل إلى النفوس قد يستغلق دون غيره من فنون البلاغة ، وله ذيوع يشق على ما سواه من صنوف الكلام . إنه صحف العرب السيارة التى تخلق الرأى العام أو تصوغه وتجيله . له مسرى على أجنحة الريح ، مع الظاعن الراجل والفارس الراحل . . . الرواة يتناقلونه ، والحداة يترنمون به ، حتى يبلغ الحضر كبلوغه الوبر ، وحتى يقتحم الـكوخ كاقتحامه القصر ، والندى كالخدر . . .

ترامى الفريقان بالشعر خطير المرمى بعيد الغاية ، يستعدى الناصر ويجذب

المعين ، فإذا هذه الحقبة كالتربة الخصيبة ، أطلعت نفرا وفرا من شعراء السياسة ، يدعون بدعوة الكوفة أو الشام ، ويتأنقون فى إبراز القضية التى يظاهرونها بمنطق القصيد الذى يستهوى السمع والعاطفة ، حشوه الحجة والبرهان . . . يحدثنا بعض شعر من تخيرهم معاووية لنصرة أهدافه . فى مجال التعريض بعقيدة رجال الإمام :

وقالوا : على إمام لنــــا فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا
وما فى على لمســـتعتب مقال سوى ضمه المحـــدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ، ورفع القصاص عن القاتلينا

فما يكاد شعره يصل الكوفة حتى يكون له صدى : شعر آخر يجاوبه ، ويتردد فى غياض دمشق ورياضها :

« . . أتاكم على بأهل الحجاز وأهل العراق ، فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج وضرب الفوارس فى النقع دينا
جعلتم عليـــا وأشياعه نظير ابن هند ، ألا تستحونا ؟ »

ثم لا تقتصر هذه الحرب الشعرية على أن تتناقلها الكتب أو الرواة عبر الفلوات ، بل نرى جموعها زحفت تقتحم على معاوية معقله ... فإن هى إلا أيام حتى كان على قد بعث إلى الشام خفاف بن عبد الله ، أحد بنى طىء فى زيارة لبعض أهله هناك لعله أن يبلغ بهم أميرها ابن هند فيلق فى روعه من حديثه وشعره ما يكسره ويكسر معه رجال إقليمه . .

ويستقبل معاوية الرجل وقد قدمه له حابس ، سيد طىء ، فيسأله حين يعلم أنه حضر فتنة المدينة :

« . . .حدثنا عن عثمان »

فيجيبه خفاف :

« حصره المكشوح ، وحكم فيه حكيم ، ووليه محمد وعمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم ، والأشتر النخعى ، وعمرو بن الحق ، وجد فى أمره رجلان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه على »

« ثم مه ؟ . . »

« ثم تهافت الناس على على بالبيعة تهافت الفراش ، حتى ضلت النعل ، وسقط الرداء ، ووطئ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يذكر له . . . ثم تهيأ للسير ، وخف معه المهاجرون والأنصار . وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة . فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل . . . حتى إذا كان فى بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجالا إلى الكوفة فأجابوا دعوته ، فصار إلى البصرة فهى فى كفه ثم قدم إلى الكوفة فحمل إليه الصبي، ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس فرحا به وشوقا إليه . فتركته وليس همه إلا الشام . . . »

وما يعنينا أن نتناول هنا القصة التى رواها خفاف بالتمحيص والنقاش ، فقد فرغنا قبل من حديث الفتنة وأفضنا فيه . ولكنها على أية حال ، أبرأت عليا من الدم أمام من لفق اتهامه ، وبلسان امرئ كان لا يسخط عثمان . وإن معاوية ليتدبر ما فى رواية الزائر فلا يقع منها إلا على ما يرد كيده ، ويهدم دعواه ، ويكاد يكسر عنه أعوانه لو خلى بينهم وبين السماع . . . وإنه ليخشى الخشية كلها على كفاحه ، حتى ليوشك أن يطوى مجلسه عن سيد طيئ وصاحبه مذعورا مضعضع النفس من خشيته ، لولا أن يصطنع قلة المبالاة وهو ينصت لبقية الحديث . . .

ويقول حابس :

« . . ولقد أسمعنى ، أيها الأمير ، شعرا غير به حالى فى عثمان ، وعظم به عليا عندى . . . »

فهبط قلب عاهل الشام . ولكنه يتجلد جهده ، وينظر إلى خفاف :

« أسمعنيه . . . »

فإذا الرجل قد بهته بقريضه ، وأتاه من ألفاظه المبينة بمثل صوت التحام الأسنة ، وقعقعة السيوف والصوارم ، ما أوشك أن يصم سمعه ! ..

ويمضى خفاف فى قصيده :

« . . ارهب اليوم إن أتاك على   صيحة مثل صيحة الأحقاف !

إنه الليث عاديا ، وشجاع   مطرق نافث بسم زعاف

فارس الخيـــل كل يوم نزال ونزال الفتى من الأنصاف
واضع السيف فوق عاتقه الأيـ ـن يذرى به شؤون القحاف
سوم الخيال ، ثم قال لقوم تابعوه إلى الطعان خفاف :
استعدوا لحرب طاغية الشا م ! .. فلبوه .. .. »

فما عاد المتمرد يستطيع أن يستمسك ! لقد عصف به قلقه ، وذعره ، وانزعاجه . . . إن الجدران حوله لثملة ، تترنح وتميل . والأرض تحته ميادة . وقلبه يضطرب بين جنبيه كانتفاضة الطائر الذبيح . . . لكأنما القتال استحر . لكأنما الخيل حصرته . لكأنما السلاح اعتوره وهو ملقى على الثرى ، موطئا للحوافر ، تنفث جراحه بقية حياته قطرات حمراء ! . . .

ونفض معاوية الرؤيا المفظعة عن ذهنه المحموم . ورفع وجها باهتا إلى سيد طيء ، ثم مال عليه يسر بقدر ما وسع نفسه اللاهث :

« يا حابس . إنى لا أظن هذا إلا عينا لعلى . . . أخرجه — أخرجه عنك لا يفسد أهل الشام ! . . . »

٤

أحديث خفاف ، أم بعض الخطط المرسومة هو ما أوحى إلى معاوية بتوجيه دسه إلى الحجاز ؟ . . ابن العاص — على أية حال — لم يشر عليه ، ولم يكن من تدبيره أن يبعث صاحبه كتبه ورسله إلى الجنوب . وإنها لسقطة منه ما كان يحسن أن تغيب عن دهائه . فبث القتاد فى طريق الإمام أولى بمثله ، واقمن حين الصراع أن يعلو بصاحبه على غريمه .

لكنه ، لأمر لعله أسره ، ود لو رد معاوية عما عقد رأيه عليه ، وعندما سمعه يقول :

« إنى قد رأيت أن نلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا . . . »
أبى ، وحاجه :

« إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : راض بعلى فلا يزيده ذلك إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان فلن تزيده على ما هو عليه ، أو معتزل فلست بأوثق فى نفسه من على . . . »

غير أن معاوية لم يعل به هذا الاعتراض شعرة عن عزمه ، بل عساه ارتأى فى بعض أهل الحجاز تربة قد تثمر فيها بذوره ، لعل هوى فى نفوسهم أن يجنح بهم إليه فيكونوا له النصير . . .

وتخير الرجل من فوره ألمع أسماء هناك يجاور أصحابها مقام محمد وبيت الله ، فما وجد خيرا من أولئك النفر الذين اعتزلوا الأمر ، ونأوا بجانبهم عن مظاهرة على وعن ثلبه على السواء ، ففى نفوسهم بقية من شك قد يزعزعها نفثه .

كتب إلى سعد بن أبى وقاص :

« . . إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير — وهما شريكاك فى الأمر، ونظيراك فى الإسلام — وخفت لذلك أم المؤمنين . فلا تكرهن ما رضوا . ولا تردن ما قبلوا ؛ فإنا نردها شورى بين المسلمين . .. »

وكتب إلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .

فأما أولهما فليمنيه الإمرة ، وليسلس له من إغرائه ما عساه أن يستهوى به لبه ويحرك خياله الذى رانت عليه تقواه :

« . . . لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك . . . إنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك » .

وأما الثانى فليعذله إذ خذل قومه الأنصار عثمان ، وبات هو مثلهم خاذلا له بعد موته ، يدع واتريه ولا يرفع فى وجوههم سيفه ولا ملامته ، وإنما آثر السلامة فى الاعتزال .

وتلقت جيرة الحرمين تلك الحقبة الحازبة من عمر الإسلام على هوى تنطق به السطور قد حملته إليهم كتب عاهل الشام . لكن زيف الداهية لم يلهم ، ولم تفتلهم عن الحجة أباطيله . كلهم أبى أن يكون متنه إلى أطماعه التى لم تعد تخفى عن البصائر وإن سربلها دونهم بألف ادعاء . . . حتى العامة فى البلدتين الحرام أجمعوا الرأى على رد دعواه ، فنضح كتابهم إليه بفشل حيلته .

بعث إليه ابن عمر :

« . . . ما أنا كعلى فى الإيمان ، والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، ونكايته فى المشركين . . . فأغن عنا نفسك ! . . . »

ورد ابن مسلمة :

« . . . لعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ! . . »

وأجاب سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش ، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه . . غير أن عليا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه . . . فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ! . . »

وكان رد المسور بن مخرمة بلسان أهل المدينة :

« . . أخطأت مواقع النصرة وتناولتها من مكان بعيد . . . ما أنت والخلافة يامعاوية ؟ . . أنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير . . . »

وعندما حمل إليه البريد رجع الدسيسة التى ود لو أفرخت له فى الحجاز ، شمت عمرو وقال :

« كيف رأيت يامعاوية رأيى ورأيك ؟ . »

فأجابه وهو مكمود :

« رجوت ماخفت !.. »

لكنه ، مع هذا ، لم ينم للقنوط ، فما زال الميدان وسيعا لدسه وادعائه . وإذا كان تأليبه على على لم يجد صدى فى نفوس فئة كهؤلاء يتحرجون أن تلعب بهم أساليبه ، فإن كثرة غيرهم حرية أن تنحرف إليه لأنها طرية فى يدى زيغة يستطيع أن يصبها فى قالبه : أولئك هم طوائف الأعراب من القبائل المنبثة فى صحارى الجزيرة وفى نجادها ، الذين زودتهم حياة البداوة والفطرة بسذاجة لا يفطنون معها إلى

ما يسوقه من أخاديع . وهل دعوته بينهم إلا صورة من صور النخوة التي تهز فيهم المشاعر ؟ . .

بات البدو إذن في الجزيرة مرتع تجاريبه ، يبثهم باطله في ثوب من النجدة براق ، ويحضهم أن يؤازروه على الانتصار للخليفة القتيل من واتريه فلا يحرك في قلوبهم إلا إيمانها بالمروءة وولعها القديم بالثأر لمظلوم ، ولم يكن ثمة حقل أخصب لدعوته من الموسم ، عند المسجد الحرام ، حينما يتوافد الحجيج . فهناك البدو الذين يقبلون محرمين من النجاد والفلوات . وهناك التجار تجمعهم الأسواق . وهناك أيضا وفود الأقاليم والأمصار ينتشر بينهم نفثه ويحملون منه بقية معهم حين العودة . هؤلاء رسله ، وإن جهلوا ، إلى أقوامهم ، ودعاته في بلادهم الدانية والبعيدة الذين يتطاير من أحاديثهم شرر النار !

ولم تغب عن علي هذه الدعوة السرية التي شنها غريمه بين الحجيج ، يوقع بها في نفوسهم ما يريده ، ويخذل جموعهم عن صاحب الحق في ولاية الناس ، ويثير فيهم التمرد عليه ، فأرسل إلى ابن عمه : قثم بن عباس ، عامله على مكة ، يبصره :

« ... إن عيني بالمغرب كتب إلى يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتبسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق .. »

لقد كان الصراع السلمي عنيفا بين الرجلين إلى غاية عنفه ، لم تخمد ناره طوال هذه الحقبة التي انطلقا فيها يتصاولان بالقلم واللسان . وإنه ليكشف لنا عن نواحي لم يكن فيها معاوية منفردا وحده في مجال الصيال ، بل لعله كان مسبوقا حين نستشف من خلال كلمة الإمام لابن عمه كيف تأهب علي لملاقاة خصمه في ميدانه ، وشحذ له من أساليبه ما يفل من سلاحه ؟ حتى لقد بث العيون في قلب إقليمه تأتيه بنواياه من قبل أن تذيع في الناس .

ونباعد الحق لو حسبنا معاوية لم تكن له بالكوفة رصدة تنقل له ، وتعمل لغاياته : فأدنى الدهاء ، أن يفعل ويستشف ما وسعه خطوات خصمه . وإن عليا ليوشك أن يكتب الناس ويمضي بهم جموعا ليجتاح الشام فتنجاب له السجف عن حقيقة بعض من ظنهم الناس أعوانه . . . ينادي القوم داعيا إلى الفصل :

« . . . سيروا إلى أعداء الله ! . . سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ! . .

سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار ! . . »

فعندئذ ، حين لم يعد من الحرب مناص ، نرى امرأ مدسوسا عليه قد نهض يجادله جهرة لعله أن يرمى بالوقيعة بينه وبين أنصاره :

« أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . ها الله إذن لا نفعل ! . . »

فلعلها كادت تستشرى فتنة لولا أن عاجل الأشتر الأمر فصاح :

« من هذا أيها الناس ؟ . . »

فإذا الصيحة تثير الجموع ، فتلاحق الرجل فى فراره أمام غضبتها، ثم تتعاوره بالأكف ، ونصال السيوف ، والأرجل ، حتى يقضى وعوت دسه فى لهاته !...

ويقبل الأشتر محاولا أن يطيح بما عساه قد علق من أثر بنفس على نتيجة لدعوة الجاسوس :

« . . . يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقى الخائن — »

ولكن أمير المؤمنين لا ينسيه التفاف رجاله عليـــه دم الخائن القتيل ، فيستقصى مصرعه :

« . . من قتله ؟ »

« قتلته همدان ، وفيهم شوبة من الناس »

فيأمر فى الحال بتوديته :

« قتيل عمية لا يدرى من قتله ديته من بيت مال المسلمين »

هذه الصورة من التجسس والدس لها أشباه ، فى الكوفة ، وفى طريق جيش الإمام طوال سيره إلى مرابضه فى صفين لملاقاة معاوية بعد فشل دعوة الوفاق فى كل خطوة قدم كانت الأرض تطلع عليه عينا يرصد حركته ويكاد يعد أنفاسه ، أو منافقا يبدى له النصرة وهو يكتم الخداع والعداوة . . . دخل عليه ، ساعة تهيئه للرحيل بجنوده رجال من غطفان وتميم ما كادوا يلمحون عزمه ، حتى انبرى له منهم حنظلة بن الربيع :

« يا أمير المؤمنين . إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا . . . أنم ، وكاتب

هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة . وعلى من تكون الدبرة . . . »

وكأنما كانت الفرقة كلها على اتفاق ، ولقنت ما تقول ، وجاءت شوطها لتبثه وتدعو إليه ! . فما لبث أن نهض منهم ابن المعتم يردد مثل ما قال صاحبه . ثم قام بعده غيره ، ثم غيره وغيره كثيرون ما مأرب لهم إلا تأخير السير ، كأن قد أرادوا بهذا الإرجاء إيقاع الوهن فى صفوف جيش على ، أو أفساح فسحة من الزمن لذلك القابع هناك فى الشمال . . .

وأصغى الإمام لحديث التردد الذى أتوه به فى أحرف نصيحة ، ثم قام فيهم وفى الناس ، يحدثهم بمنطق إيمانه :

« . . . إن الله وارث العباد والبلاد . . . يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . . . أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ، ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ماأراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرا . »

فهتف به أحد رجاله : معقل بن قيس :

« إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش . فاحذرهم فإنهم أدنى العدو » .

وصاح صاحب شرطته ، مالك بن حبيب :

« ياأمير المؤمنين إنه بلغنى أن حنظلة هذا يكاتب معاوية »

وقال عياش بن ربيعة :

« . . . إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبسه أو أمكنا منه نحبسه حتى تنقضى غزاتك . . »

ولئن كان الإمام قد رأى الترفق بدعاة التردد المدسوسين فما كان هذا عن إحسان ظن بهم أوشك منه فى ترددهم عنه . ولكنه رفق القادر الكريم . وهل يغيره مثل هـذا التقاعد من فرقة لم تكن يوما له ، وهو يعلم أن قومهم لابد ينكرون تقاعدهم ؟ . بل لعله أراد أن يريهم عسى أن يأسرهم حلمه ، فلا يكونوا عليه إن لم يصبحوا له . . على أية حال ، لقد غدوا يقومهم سبة قبلهم عنده ، ومعرة يتنصل من وصمتها الكبير والصغير من ذويهم حتى ضاقت عليهم الكوفة

خبيتوا أمرهم بليل ، وخرجوا منها هاربين من المذل والمساءة ينتجعون أرض الدميسة فى جوار جند الشيطان ! . . .

ولئن كانت هذه الفئة المنحرفة قد وجدت أمنها فى الخروج ، فإنها لم تجد لها فى زيغ معاوية غاية مرضية يمكن أن تحمل فى سبيلها السلاح . إنما قعدت بمستقرها الجديد عن مؤازرة الأمير المتمرد ، وركنت إلى اعتزاله . ولم يسمع عنها إلا كلمة لحنظلة ، ما تراها ندت من بين شفتيه إلا حين مقامه بالكوفة فأخذت عليه فيما أخذت من وسائل اتصاله مع الشام وإن قيل نطقها من بعد فراره — لم نسمع إلا أبياتا يحرض بها ابن هند على خلاصة الناس هى أالفاظ لم تجاوز القول ، ولم يخرج منها إلى حيز التأييد العملى ولا بتحريك سيفه المغمود ! . . . يقول ذلك المحرض الفار :

« أبلغ معاوية بن حرب خطة ولكل سائلة تسيل قـرار
لا تقبلن دنية تعطونها فى الأمر حتى تقتل الأنصار ! . . »

فر إذن حنظلة ، وفر ابن المعتم وقلة من رجالهما معهما إلى الشام . فلم يخسر الإمام شيئا بهذا الفرار . ولم يكسب معاوية شيئا بالانضمام ، فلو كانوا خونة فقد حسبت عليا طهر من الخيانة صفوفه ، ولو كانوا مرتابين فهم كذلك منذ بدئهم . قد اعتزلوه من قبل ، ولم يلحقوا به حين دعاهم إليه إبان محنه عائشة وصاحبيها فى البصرة ، بل آثروا القعود . وإنهم لأشبه عندى بمنافق المدينة ، أو بضعاف الإيمان فى فجر الإسلام الذين آبرم رسول الله عهد الحديبية فلم يحملهم بنصوصه على المكث بين أنصاره إذ لم يحمل قريشا على ردهم إليه بعد أن ارتدوا وخلفوه . أولئك كهؤلاء — سوسة فساد تنخر فى كيان جمع وفى سليم فما تنجح قضية نصيرها مرتاب . وما أجدى فرار فريق حنظلة وابن المعتم على معاوية مثل خردلة — إلا أن تكون الجدوى أن لحقوا به ثم اعتزلوه فكان أولى أن تشيع الريبة فى أهدافه بالاعتزال ! . .

غير أن ابن هند كان يكفيه أن يأتيه أمثالهم : مخلصين أو مرتابين ! . . فلن يطلع قومه من صور اللحاق به إلا على ما يرضيهم ويرضيه : إنما أشباه حنظلة أصحاب هجرة أنكروا منكرا من الإمام ! . . إنما قد عرفوا موطن الحق فجاءوا

إليه ليلتزموه ! . . إنما هم ، وغيرهم : نفر آخر من أصحاب الأسماء الضخمة الرنانة ، سيكونون كتابه الذى يتقدم به فى عينه لأهل إقليمه — كتابه الذى سيضم منهم مادة جوفاء فارغة يسرها لنفسه ! فلن يكشف قط عن صفحاته للعيون . . سيكتم عن الناس باطنه ، سيطوى أسطره ويبدى ظاهره . أفما يأمن إذن غدرة زمانه وهؤلاء أنصاره ومريدوه رجال عدموا الرؤية ، وجلاء البصيرة ، وعمق التفكير ، كل همهم غلاف أنيق ؟ . .

٥

هذا كتابه يتقدم به . . . له هيئة ، وفيه فتنة ظاهرة تدعو إليه العيون المسحورة . ذو منظر ولون ، قد لمع غلافه وتزخرف شغافه ! . إنما يعنيه أن يجذب الناس إلى راية ذات زبرق وإن رخص فيها النسيج . فالقوم عنده كمثل الثور الذى تجذبه الحمرة ! . .

الرجل حقا قد سبر طبيعة الجماهير ، وخبر مغاور العاطفة التى تنطلق بهم إلى الأقاصى البعيدة دون حاجز يقف بها من التعقل أو التدبر . ومتى كان العقل يحكم الثورة ؟ . . ومتى كان الثور يلقى بعينه إلى السيف الخبىء وراء القماشة الحمراء ؟ . . لو قد عرف أن قومه مناقشوه حين يتبدى لهم كتابه لفكر عشرا ولم يتقدم . لو قد عرفهم مستنبئة ما تضمه الصحائف لبات لياليه وهو مكروب وقطع حياته وهو مغلوب . ولكنه عرفهم « لا يقولون إذا قال ولا يسألون إذا أمر » . إنهم رجال تسليم . عطلوا الفكر إلا فكره ومضوا خلفه إلى حيث شاء كأنما يقودهم بلجم ! . . وهو قد ألهب فيهم الحمية فحق أن يزودها بين اليوم واليوم بالوقود . وكان الوقود إفكه وأكاذيبه وزخارف الخداع والتمويه . .

والآن إذ فاته أن يجلب إليه بقية أهل الشورى ، وجيرة الحرم ، ومنتجعى الأمان الروحى عند قبر الرسول ، لفق الصور فتانة ، تسحر الأنفس التى تستدلها المظاهر . . الآن لكتابه أغلفه ، أكثر من غلاف ، براقة أنيقة . . . الآن له أكثر من عنوان ، كل منها يملأ الفم بحروفه الضخمة الرنانة ! . . سيستطيع

أن يطلع على قومه بين اللحظة وتاليتها بسفر كأنه جديد ماهو بجديد ، أصله واحد وأغلفته عديدة ، يلبسه منها ما يروقه ، اليوم هذا والغد ذاك ، كأنه غنية فى أسواق المتعة يتشكل حسنها فى عيون عشاقها بتغير الشفوف !..

وقال ذات يوم لعمرو بن العاص :

« إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيمه خطيبا فيشهد على على بقتل عثمان وينال منه ... »

فهذا إذن عنوانه الجديد !.. أعياه عبد الله فالتمس عبيد الله ! . وهل من فارق فى نظر صحابه بين الأخوين وكلاهما من صلب الفاروق العادل الذى جرت الألسن بطيب ذكراه ؟..

وجىء بالفتى إليه يصغى لتحريضه :

« إن لك اسم أبيك . فانظر بملء عينيك ، وتكلم بكل فيك فأنت المأمون المصدق ... فاصعد المنبر واشتم عليا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان » .

قال عبيد الله وهو بين تردد واقتناع :

« ... أما شتمه فإنه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه .. ؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق ... وأما أيامه فما قد عرفت ... ولكنى ملزمه دم عثمان » .

فهتف عمرو :

« إذن والله قد نكأت القرحة ! »

وعندما برح الفتى . وخلا المكان بعده للداهل المخادع يجتر ذكرياته وآماله ، لم يطق معاوية كتمان رأيه الصريح فى ابن عمر — فى تفاهة عنوانه الجديد الذى سيخلب الناس !..

قال لابن العاص :

« أما والله لولا قتله الهرمزان . ومخافته عليا على نفسه ما أتانا أبدا ... ألم تر إلى تقريظه عليا ؟ .. »

فطمأنه عمرو :

« يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب ! .. »

وكان هذا فى الواقع شعاره . فما يهمه إلا الوجه الذى سيتبدى للقوم فأما اللب فسيخفيه . إنه ليستنصر بابن عمر ، ويستعديه ، ويتلمس عنده الشهادة على على وإنها لمكذوبة أو تبطنت بالهوى والغرض ، ولكنه يرتضيها إذ هى الرقعة الحمراء التى تجتذب نظرات ثيرانه ! . . . وإنه ليتلهف عليها ، ويظل حالما باليوم القابل القريب الذى يتسنم فيه شاهده ذروة المنبر ليزور كلامه وينشر اتهامه ... حسبه أن « له اسم أبيه » . حسبه أن الآذان ستلقف حديثه والأذهان ستؤمن بما فيه . وهل يجرى بخاطر المفتونين أن يعين عبيد الله وإنه لابن عمر صاحب السيرة التى تؤرخ للحق والعدالة ؟ ...

لقد كان معاوية على بينة من دخيلة الفتى يوشك أن يدفعه إلى الطريق التى يرسمها له فلا يراه يحرن أو ينكص عن التزامها أو يحيد . عرفه كارها للإمام ، يجزع حين تلوح صورته له فى خياله فيلمح منها قسمات صلبة لاتلين ، ونظرة عين تخترم المجرم ، وحد سيف يتهيأ لإنفاذ شرعة القصاص . . . وكان عبيد الله هو المجرم الذى قهرت العدالة ذات يوم على إفلاته إبان عهد عثمان إذ هو امرؤ — فى عهد ذلك الخليفة القتيل — ليس كالناس ، يجل دونهم عن العقوبة !.. وكان على حينذاك يراه قد تلوثت كفه بإثمه فلا عفو له على معصية أو تصبح الشريعة سلاحاً فى يد الحاكم له حدان ينال بحديدها المستضعفين والعامة ويربت هازلا بعثلومهما على ظهور الخاصة من ذوى الأحساب ! . .

إن قصة ابن عمر هى صورة محنة من تلكم التى تذل العدالة فى كل عصر تعرض فيه الضمائر وتتهاوى قوائم الشعور بالمسئولية . قصة الهوى يحرك القانون . قصة طبقة تخصها الدولة بمغانمها وإن أساءت وطبقة غيرها ليس لها فى وفاضها سوى المغارم . . . قصة خيانة الناس الله ! . . .

أجل قد خانوا ربهم ، أحسبهم ، يوم أطلقوا الفتى حرا ولما يجف من كفه دم الهرمزان ! . . فبأى حجة أطلقوه ؟ . . وما هى المعاذير التى تلمسوها له لإبرائه وقد عجز هو عن تلمس المعاذير ؟.. وكيف يستطيع القانون ، بعد حكمهم ذاك ، أن يسير فى الناس إلا شائها مهيضا منضيا من معرة واستحياء ؟ . .

كان ذلك يوم أن طعن ابن الخطاب بيد أبى لؤلؤة فيروز غلام المغيرة وأخذت

روحه تنزف رويدا رويدا من جراحاته . . . وعلم عبيد الله بمصاب أبيه فانتضى سيفه ، ومضى فقتل الهرمزان وإنه لمسلم تشهد عند ذاك ودماؤه تسيل ، وقتل ابنة أبي لؤلؤة : فتاة صغيرة بلا جريرة ولا حول ، وقتل جفينة : رجلا من نصارى الحيرة كان يعلم الصبيان في المدينة — فلولا أن تكاثر عليه الصحابة ، وسارع بن أبي وقاص فأخذ بناصيته ، وخطف منه سيفه ، ومضى به لحبسه في داره لكان انطلق إبان غضبه المجنون فقتل كثيرا من السبي وفئة من الأنصار والمهاجرين صور وهمه له أنهم شركوا في دم أبيه . . .

وعلم عمر في وجعه بعدوة فتاه على الهرمزان فسأل الناس :

« ولم قتله ؟ . . »

قيل له :

« قال : قتل أبي »

فهز الخليفة الطعين رأسه مفكراً وهو حائر مرتاب ثم قال :

« ما أدرى ما هذا . . . انظروا إذا أنا مت فاسألوا عبيد الله البينة على الهرمزان هو قتلني ، فإن أقام البينة فدمه بدمي ، وإن لم يقم فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان . . . »

ولم تكن إقامة البينة هينة لأنه لم تكن ثمة بينة على الإطلاق ! . . . فما أشهر الهرمزان خنجرا في وجه ابن الخطاب ، ولا رآه أحد عند الطعنة يؤازر المجوسي القاتل ، وما عرف عنه أنه أكن للطعين موجدة . كل الذى حرك غضبة الفتى عليه رواية راو ترسم الهرمزان ذات يوم قبل الطعنة وقد أقبل يناجي أبا لؤلؤة فلما افترقا سقط بينهما نفس الخنجر الذى أصاب عمر بعد أيام . . .

وقال عثمان — وما كان بعد قد ولى الأمر — يعنف بعبيد الله :

« قاتلك الله ! . . قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة رسول الله . ما في الحق تركك »

وسأله في استنكار :

« وما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلتها ؟ . . »

واشتد سعد على الجاني ، واشتد معه من صحابة محمد كثيرون رأوا أن ينفذوا

فيه عقوبة جرمه وفق ما تحتم الشريعة وإجازة لوصية أبيه . فلما قضى عمر ، وخلفه على الأمة عثمان تبدلت الحال بحال ! . .

أقبل ابن العاص على الخليفة الجديد — حين رأى أن ينظر فى الاقتصاص من عبيد الله — يزلزل فيه رأيه الحازم الذى جهر به منذ أيام :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك ! . . »

فهل وقوع الحدث فى غير عهده يبت العقوبة ؟ . .

لقد بدا كأنما الرقة أخذت عثمان حتى استحيى أن يتناول بالقصاص عبيد الله بعد مصرع أبيه : وبدا أن العامة وقد فقدت خليفتها الحبيب المرهوب جمحت بها العاطفة إلى العطف على ولده فألهاها عطفها عن وجوب التزام شرعة الله فيه كالتزامها فى سواه . . تهامست حينذاك طائفة :

« أبعد الله الهرمزان وجفينه ! . . يريدون يتبعون عبيد الله أباه ! . . »

وقال بضعة من المهاجرين :

« قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! »

ومال عثمان إلى الرقة الأصيلة فيه فأغفل تناول القضية بالحزم الواجب ، والعدالة المفروضة التى يستوى أمامها الكبير والصغير . . .

وكثر اللغط ، وزاد تحدث الناس عن هذا التهاون فى إنفاذ القانون فى مجرم وقف بمالأته على غير ما تنص أية شريعة : سماوية أو موضوعة ، حتى لامه الكثير :

« ألا تمضى وصية عمر فى عبيد الله ؟ . . »

فلم ير مناصا من حسم الأمر بالقطع ، فجلس بجانب المسجد فى الناس ، ودعا المهاجرين والأنصار ، وأمر بالفتى فأحضر بين يديه . . . ثم استشار :

« أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الدين ما فتق »

فأجمعت كلمة الأكابر من أصحاب رسول الله وذوى الرأى على أخذه بظلمه . .

وقال على بن أبى طالب :

« أرى أن تقتله . . . »

وعاود ابن النابغة ما أسلف من حديث الإعفاء . . .

وتحدث العامة والأوشاب ـــ كثرة وفيرة ـــ بما لا يحسنون غيره من منطق العاطفة . . .

وعندئذ اعتلى الخليفة المنبر يخطب الحاضرين :

« أيها الناس ... فقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم ، وقد عفوت أفتعفون . . . ؟ »

فتهاتف من حوله جمهور العامة :

« نعم ... نعم .. »

وثار علي وقد رأى حق الله يستلبه من ليس له حق فيه ، ومن إذا وكلت إلى عواطفهم الحدود لانقطع النظام وجبت الحدود التي تحفظ على المجتمع حياته سليمة وأوضاعه مستقيمة :

« أقد الفاسق فإنه أتى عظيما ، قتل مسلما بلا ذنب ... » .

قال عثمان في عناد :

« ألا إني ولي دم الهرمزان ، وقد وهبته لله ولعمر ، وتركته لدم عمر »

فغضب المقداد بن عمر ، الصابي الجليل ، ورمى بصيحته في وجه عثمان :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله ! .. »

وحينما استشعر علي من الخليفة التخاذل ، والجنوح مع الرقة إلى تقويض قوائم العدالة ، ولي الشريعة للأهواء ، وتعطيل الحدود ، قال يتوعد عبد الله :

« يا فاسق ، لئن ظفرت بك يوما لأقتلنك بالهرمزان ! »

وأمام هذه الثورة للحق الواضح من أعرف الناس به ، وأشدهم حرصا عليه لم ير عثمان غير أن يظهر النزول عن عناده ، فقال لهم في ترفق ولين :

« فننظر وتنظرون . . . »

لكنه لم ينظر ولم يدع لأصحاب الرأي معاودة النظر في القضية حسبما خط ناموس الله . فقد كان ـــ كما بدا من بعد ـــ أبرم قراره وبيت إصراره . فإذا هو يخرج عبيد الله من المدينة نائيا به عن المستمسكين باتهامه وتفسيقه ، وينزله داراً بالكوفة لا يطوله فيها حديث القصاص .

وتلك قصة عنوان ! . . .

٦

بنى وعلّى فى بناء أحلامه التى عقدها واثقا على عبيد الله !.. جلا المنبر للأعين جلو العروس ! . . حشد له الزمر والجموع حوله كأنه وثق فى ليلة عيده ! . .

وسبق بذهنه الزمن . طفر خفيفا إلى لحظة نصره المرقوب الذى لن يلبث ذكره أن يشيع فى الجامع ، ويزحم المحافل ، ويعـــلأ الأفواه . . . هى ساعة ويظفر — كلمات يسوقها الفتى الخطيب . . .

وفى إبان ابتهاجه ، والأعناق تتطاول إلى المنبر ، والعيون على عبيد الله ، والآذان تعلقت بشفتيه ، ونأى معاوية عن قبلة السمع والبصر ومال يهمس لشيطانه :

« ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله ؟ . . »

فابتسم عمرو له وقال :

« شبهت غير شبيه ! . . »

أقذ سخر ؟ أم تخابث ؟ أم كان رده عفو الخاطر ؟ . . معاوية على أية حال لم يلق باله إلى الجواب ، ولم يأبه له ، النشوة شغلته عنه . . . وخطيبه بدأ ، والقوم أصغوا إليه . والمسجد الجامع الذى ملأته الزمر المحشودة لاح من سكون الحركة فى جنباته كمقبرة ! . . كأنهم أموات ! كأنهم صفوف لحود ! . . أليسوا جميعهم صرعى فتنة ؟ . .

ما تركت هيئة ابن عمر لهم سوى أنفاس ، ولم يجذب شىء انتباههم عنه . الأعين إليه شاخصة ، الأسماع محدودة والقلوب مصغية . . . فى الصدور رهبة ، وعلى الأوجه خشوع .

طوال مديد القامة ، فارع كالنخلة .. عريض مبسوط البنية بين منكبيه ، كأنه مارد يسد عليهم المكان . . . لولا هنة فى ثوبه ، وهنة فى جوارحه ، وهنة فى ملامحه لكان ذات العملاق الذى كانه ذات يوم أبوه . . . عليه مسحة من هيبة ، وفى صوته جلجلة ، ونظراته لها شعاع نافذ جسور يقتحم الأنفس على أصحابها بلا تخاذل . . . أدرة تلك فى يساره أم هو الوهم خدعهم عن حواسهم اتكل لهم صورة ابن الخطاب ؟ . .

وارتاح معاوية لهذا التوفيق ، فقد سحر بصاحبه القوم . هم بين عارف بعمر يتوسمه الآن من خلال ذكرياته ، وسامع بصفته يتوهمه بأعين خيالاته ، كلهم أحسوا الرهبة من خطيبهم وأعنوه عنها الإجلال . . . الجو حولهم تغير ، ليس هو الذى اعتادوه ، فما هذه دمشق المألوفة . . والزمن أيضا تغير ، ليس حاضرهم المعروف ، فاهو بامتداد يومهم حين عموا الجامع الكبير . . . إن أنفاسا رقيقة من الماضى تهب عليهم ندية ، وقوة آسرة من ذكرياته المجيدة تلف خواطرهم ، ثم تثب بهم إلى الوراء ، عبر السنين والمسافات .

ها هى المدينة تلوح ، نقطة نضرة ، كقارب أخضر فى محيط الرمال . . . تلك آطام يهود على تخومها تحف بها خربة خواء . . هنا روضة البقيع : عالم الموت فالخلود ، ومجاز الإيمان إلى الآخرة دنيا السلام . . . هذه بقايا خندق سلمان ، والسور ، ومدخل البلدة الآمنة . والبساتين والزروع ومغارس النخيل ، والدروب التى طالما وطئتها قدما محمد أو أخفاف القصواء . . .

ثم الرحبة ، وقبر الرسول ، وحجرات الأزواج ، والصفة التى كانت منزل صفوة باعوا الدنيا ليقربوا من الله .. ثم المسجد كله فرشه حصباء وعمده جذوع .. ثم القبلة ، والمنبر الساذج الذى شهد ولادة الدولة ، فيفاعها ، فعزها الذى رفرفت فيه راية الإسلام على أركان العالم . . لكأن عمر الآن فوق أدنى درجاته يبايعه الناس فيسفق على أكفهم بكفه العريضة . . . لكأنه آب لتوه من تجواله بين الرعية فجلس يقضى أو يسمع أو يشاور الصحاب . . لكأنه فى مرقعته قام يحصى الأسلاب من كنوز كسرى أو نفائس الروم ، ثم يخر ساجدا شكرا لله على النصر الذى حازه جند الله . . .

إنها لصور تترى . صحائف من المجد جديرة بأن تداعب خواطر الجماهير المحشودة حول منبر دمشق تلق سمعها مرهفا إلى فتاه . . أفليس هذا من ذاك ؟ أما هو شبله ؟ . . ألا تهيج فيها وقفته ، وهيئته ، ونبرات صوته سيرة الذى فات من عدالة أبيه فتراه مثله لسان حق يوشك ألا ينطق بهواه ؟ . .

وأصغى معاوية وعبيد الله ينطلق حديثه رقيقا هادئا كماء الجدول . . . وتلهف على اللحظة الحاسمة ، والكلمة المبطلة المنشودة . . . وسبق بسمعه لهاة الفتى ينصت

إلى ألفاظ الفرية المقررة وسبة الاتهام التى وضعها بنفسه فى فيه . . الآن سيذهب المدوء . . سيخلى مكانه على ملامح الخطيب للثورة . . . . الآن سيعنف خطابه ويبدو نابه ! . . الآن سيهدر هدر الشلال ، سيزأر كإعصار ، ستنطلق كلماته حامية مدمرة كمثل الحمم والصواعق !

فما هى إلا منى مخدوع ! . . كل هذا الذى انتظره معاوية من خطيبه ظل خافيا فى ضميره كأنما ابتلعه الفتى وواراه ! . . لقنه فأبطنه ! . . رعاه جنانه ولم يلفظه لسانه ! . . إنما تحدث بحاجته ساعة حديث الآمل ثم خلف المنبر وغادر المسكان . .

وأسرع معاوية صوبه يمسكه بطرف ردائه وينفح له من بين أسنانه وهو مبهوت :

« ابن أخى ، إنك بين عى أو خيانة ! . . . »

فتفرسه برهة عبيد الله كانت ثقيلة مديدة كالدهر أجابه بعدها بغير إخفاء :

« كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس محتملوها عنى ، فتركتها . . . »

فلم يعقب الداهل . وهل يجديه التعقيب ؟ . . . ألا ليت عمرو بن العاص لا يتشبث برأيه فالفتى فى الحق ، لأخيه شبيه ، يفرقهما حرف وتجمعهما فكرة ! ومع ذلك فمعاوية لا يفلته ، ولا ينبو بأمثاله ممن ألقت بهم أقدارهم فى مسالك طريقه . وإنه ليغضب فى البدء ، ويخيب أمله فيه ، ويوشك أن ينبذ عبيد الله أو يعاديه ، ولكنه لا يلبث يوما ثم ينفسح له صدره ، ويبعث فيرضيه ويدنيه إليه . . . حسبه أن يبقى بجانبه ، فإنه على أى حال عنوان ! . . .

ولم يقف بالرجل مكره ، ولا وسائله التى تفتن وتخدع وتجذب نحوه أنظار الناس ، فلئن فاته لف الكثرة من صحاب الرسول فقد لف فئة من أبنائهم حواليه وإنهم شباب لا تتحقق لهم مطامحهم إلا فى محيط أطماعه العريضة . ومن يدريه ؟ لعلهم يكونون يوما عونا له على الآباء المباعدين يفتلونهم كذلك إليه ! . . إنا لنراه قد استقام له حدسه . زاره ذات يوم بعد صفين فأوشك أن يكون ما ارتجاه لولا ما كان من عناد ابن أبى وقاص ، وشدة مراسه ، ورأيه الثابت الذى لا يلين ...

فى ذلك اليوم دفع سعدا فضوله فمضى يتنسم أخبار الحكمين : أبى موسى وابن العاص وهما بدومة يتبادلان ويسران مداولتهما عن الناس ؛ ونزل سعد بأرض البادية على ماء النبى سليم فى مكان قريب ، فلما أن علم عمر ابنه بأمره ، أطمعه فيه مجيئه ، فأقبل عليه يحاول أن يميل به عن اعتزاله إلى مناصرة قضية معاوية . . .

حدث الفتى أباه :

« يا أبى ، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . . . »

فلقيه الرجل بنظرة مستريبة لكنه لم يقطع عليه الحديث .

ومضى الشاب :

« . . . وقد حضر ناس من قريش عندها ، وأنت من أصحاب رسول الله ، ومن أهل الشورى ، ومن قال فيه رسول الله : « اتقوا دعواته » . . ولم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة . . »

قال صاحب الرسول :

« ثم مه ؟ »

« فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . . »

عندئذ هتف الوالد بولده :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : (يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره . . »

وطال بينهما جدل طمع الفتى إبانه فى استمالة الشيخ عسى أن ترجح به كفة ولى أطماعه فتنفتح أمامه وفى رجائه وسيعة حسبما تأمل خيالات شبابه ، ولكن سعدا كان أعصى على إغرائه ، وأشد شكيمة فإذا هو جبهه بالرأى الفصل الذى لا سبيل بعده إلى مراجعة . قال له :

« يا بنى : لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على ! . . »

رضى معاوية بعبيد الله يقيم عنده على ما يشتهيه : إن شاء اتهم الإمام أو شاء كتم الاتهام ، فحسبه أن له اسم ابن الخطاب ! . . وتصيد عمر بن سعد بن أبى وقاص

ليكون شركا — إن استطاع — لأبيه . . . واجتذب عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد بحمله على رايته يوم صفين لعله أن يعيد إلى الأذهان ذكرى القائد العبقرى : سيف الله الذى نشر ألوية الدين عالية ، وقهر الشرك ، وقاد جند الإسلام إلى النصر أينما حمل السيف وهز الحسام ... كلهم فتية لهم مطامع وآراب يهيجها الشباب ، كلهم ذوو أسماء ، كلهم عناوين ! ..هم أغلفة أنيقة براقة تستهوى الأعين المفتونة باللمعان والأسماع التى تستعذب الرنين ! . . .

بل القدر أيضا أمده بغيرهم : طائفة أثيرة على عواطف الناس ، ذات غابر ساطع له إشراقه . فعندما تعبس الدنيا ، وتمتد سياطها إلى الظهور لاذعة . وتبدى المخلب والناب ، تهزم البشر إلا صابراً ذا حصانة . . .

وقد عبست ، ودارت رحاها عنيفة تطحن النفوس . . . لو لقيها ضحاياها بمثل صبر الإمام ما كرثتهم شيئا ، ولا نالت من عزتهم وعزمهم إلا بقدر ما تناله بعوضة من قرن الثور ! . . هى أهون على القلوب الركينة والدخائل الحصينة . محنها موقوتة ونعمها مبتوتة . المتعلق بها آمل فى غير أمل . وصاحبها راحل إلى معاد بلا زاد . . . ولقد خبرها على فكشف ما تبطن ، وحذر منها من يغرهم بها الغرور :

« . . . أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم . . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

وهى أيضا كقوله :

« دار شخوص ، ومحلة تنغيص ، ساكنها ظاعن ، وقاطنها بائن ، تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف فى لجج البحار ... فما غرق منها فليس بمستدرك . وما نجا منها فإلى مهلك . . . »

ففيم إذن — وهذا صدق حالها ، ومآل آلها — يرجوها الناس فيتداركون عليها تدارك الإبل الهيم على المورد العذب بعد طول إصحار ، ويتهافتون عليها فى اضطراب ولهفة تهافت الفراش على شعلة النور ؟ .

إن فيهم لطائفة لم تحصنهم القناعة . وهنت منهم العزائم فأسلسوا لها القياد

وهى الجلد وخار الصبر . حابتهم بعرضها الزائل وسخرها الحائل ، وكانوا مع ذلك ذوى غابر ساطع له إشراق ! . .

ولم يكن الإمام بالذى يمذل العاف المحروم ولا يستقبل هناته بالعذر والرحمة . فالفقر وقر وقهر ، والعيلة مذلة . . . وعند ما تلمس الفاقة المرء توشك ألا تدعه إلا وقد جرحت عزته وأدمت قلبه وكبرياءه . كم حزن لفقير ، وعطف على ذى حاجة أسيف مرور ، فحاول وسعه أن يرأب فيهم الصدوع ويلأم الكلوم والثلوم ، فى شبابه وهو حينذاك فرد من الرعية ، وفى كهولته وهو من بعد راع مسئول كان يسخو لهم بما تملك يمينه — وإن كان طعام يومه وآله — ويبيت راضيا على جوع . . وكان يسر عطاياه ، ويأسى الأسى كله إن بذلها علانية . فى العلن من ، والمن مفسدة لبذل الباذل ، ومذهبة لحياء السائل . لذلك طالما كان يقول :

« من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . . . »

غير أن دخله المحدود كان يقف به كثيرا على حد العجز حين تهول الطلبة فتعي قصاراه . فما عطاؤه ؟ . . وما أفياؤه وإنه ليعين الشظف فلا يكاد يحس مثل حرمانه أفقر رجل بين رعاياه ؟ . . كان المال ينساب فى كفيه انسياب المياه ، والفضة والذهب فى خزائنه كثرة وفيرة كأنها الحصى والحجارة . فما لحظها يوما برغبة ، ولا انحدر إليها هواه وإن رمقها غيره رنوة شهوة ، وتطاولوا نحوها بأعناق الاشتياق ! . .

وقد رنت الأعين ، وهفت الأنفس ، وصغت القلوب لفتنة الحياة . . . طمع فى مسكة من المال نفر من أصحابه ألحت الدنيا عليهم بإغرائها ، فاشتهوا السعة وعافوا القناعة . . . حين جاءوه حسبهم يشكون إليه حاجة قاصمة فهم يردها عنهم بما فى وفاضه — بملك يمينه وإنه لراض قرير . لكنهم — لعجبه — أبهظوه الطلب ، وأعضلوا به فى السؤال . وهل من حيلة ويده قصيرة ؟ . . والمال قليل ؟ . . والمورد ضحضاح ؟ . .

وثار ضيقا وقد تبين أن صاحبه : عبد الله بن زمعة جاء يراوده عن منحة تصلح شأنه من بيت المال ، وضج يقول :

« . . . هذا المال ليس لى ، ولا لك ! . . إنما هو فىء المسلمين وجلب

أسيافهم . . . فإن شركتهم فى حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم . . . »

* * *

إن الذى جبه على به ابن زمعة كان ناموسه الذى التزم دائما سننه على الأيام . فلم يظلم الرجل ، ولم يتنكر له . بل هو رعى حق الأمة كافة ووثق أمانة الراعى المسئول . . . كانت تستوى عنده الحظوظ . فالمال وأصله ، والمال وأهله ، والمال ووجوه إنفاقه ... لا رضيخة ولا منحة ولا قطيعة ، بل امرؤ وما فرض الله ...

السوية شعاره . فالقوم سواء ، وأعطيتهم سواء . لايتميز فلا يميز. إنه ليأخذ نفسه بما يشق على غيره من خشونة المأكل وخشونة الملبس ، ولا يرضى أن يرزأ المسلمين شيئا من مال الدولة ، وفاق قدره عندهم وتقدمه عليهم ، وإن دعوه أن يفعل راضين مختارين . بل نراه وقد رفقوا به يرد رفقهم ويأباه . . يقول أحدهم له وقد وجده ، ذات يوم قارس البرودة ، يرعد فى خلق قطيفة عليه :

« يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا ، ثم أنت تفعل هذا بنفسك ؟ . . »

فيكون جوابه :

« ما أرزأكم شيئا . وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة . . . »

ويلوم آخر تأثر به فى عزوفه عن الدنيا فانحرفت به سبيله — غير جانح لإثم ولا مبطن لمعصية — إلى التخلى عن ماله ، وهجرة عياله . . . ينهاه عن التزام أسوته :

« ويحك ياعاصم ! . . لست كأنت . إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره . . . »

وإنه ليؤدب عماله بأدبه ، فيحملهم على انتهاج نفس نهجه فى أموال الناس ، لا يكرهونهم على أداء صدقة ، ولا يستأدونهم به غير ما فرض الله ، ويؤثرونهم بخراج أرضهم يصلحونها ويصلحون شأنهم به ، ثم يرسلون إليه ما فضل منه . . ويحذرهم أن يعبثوا بأماناتهم فيأكلوا ما تحت أيديهم . . . يكتب لأحد عماله على الصدقات :

« .. لاتروعن مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله .. فإن قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فسلم عليهم .. ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ .. فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعم منعم فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها ... واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإن اختار فلا تعرض لما اختاره . ثم اصدع الباقى صدعين ثم خيره ... فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله .. »

ويكتب إلى الأشتر حين بعثه على مصر :

« .. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد .. فإن شكوا ثقلا ، أو علة ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شىء به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك .. وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .. »

ويكتب إلى الأشعث بن قيس ، بعد بعثه إياه واليا على أذربيجان ، يبصره بحقيقة عمله :

« .. إن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، ولا تخاطر إلا بوثيقة . وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت خزانه حتى تسلمه إلى .. »

وإنه ليراقب ولاته ، ويحاسبهم على ما تحت أيديهم ، ويرسل إليهم رقباء يفحصون أعمالهم ثم يرفعون إليه سيرتهم بين الناس فى الأنفس وفى المال ليرى إن

كانوا يلتزمون سنته ويحتذون منهاجه . . أرسل مرة لكعب بن مالك يقول له :

« أما بعد ، فاستخلف على عملك ، واخرج فى طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السوداء فتسأل عن عمالى ، وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب . . . »

ويعث بكتاب إلى عامل — جعل مال المسلمين وسيلة لصيته بين أهل إقليمه — قال فيه :

« بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك : إنك تقسم فىء المسلمين الذى حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من أعراب قومك . . . فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقا لتجدن بك على هوانا ، ولتخفن ميزانا ! . . فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالا .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمة هذا الفىء سواء ، يردون عندى عليه ويصدرون عنه . . »

وعلم يوما أن شريح بن الحارث قاضيه اشترى لنفسه دارا ، فدعاه إليه يعظه ويحذره ، ثم يبكته أشد تبكيت وآلمه وإن لم يشك فيه . . . بدأ يسأله :

« بلغنى أنك ابتعت دارا بثمانين دينارا ، وكتبت كتابا وأشهدت فيه شهودا . . . »

أجاب شريح :

« لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين »

فرمقه الإمام رمق عاتب زار ، وقال وهو كالأسيف :

« يا شريح : أما إنه سيأتيك من لا ينظر فى كتابك ، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا ، ويسلمك إلى قبرك خالصا !.. فانظر يا شريح لاتكون ابتعت هذه الديار من غير مالك ، أو نقدت الثمن من غير حلالك ، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة . . . »

ثم استأنى برهة أتم بعدها حديثا خلط فيه الجد الأجهم بالدعابة الساخرة :

« . . . أما إنك لو أتيتنى عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتابا على هذه النسخة ، فلم ترغب فى شراء هذه الدار بدرهم فما فوق . . »

وكان كتاب الشراء الذى اقترحه الإمام :

« هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل : اشترى منه دارا من دار الغرور ، ومن جانب الفانين وخطة الهالكين ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهى إلى دواعى الآفات . . . والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيبات . . . والحد الثالث ينتهى إلى الهوى المردى . . . والحد الرابع ينتهى إلى الشيطان المغوى وفيه يشرع باب هذه الدار . . . اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هـــذه الدار بالخروج من عز القناعة ، والدخول فى ذل الطلب والضراعة . . . »

أفمن كان هذا حاله ، وتلك أمثاله ، يدع مال المسلمين لقى تستبيحه طائفة تقدمت بقربها منه وإخلاصها له ؟ . . أما هو فلا يفعل وإن نفسه لحصنة ، وإن قلبه لفى جنة مانعته عن الجور والتحيز . . . حتى حينما تنوس المغويات أهله لا يفعل ، بل يستمسك معهم بعدته ، ويشتد أعنف الشدة عليهم وإن أ كلتهم الحاجة . . .

يقبل عليه بالكوفة أخوه عقيل ، علت السن فثقل ، وغلت السلعة فأملق ؛ لعله أن يجد لديه ما يعينه على الشدة . . .

ويتلقاه الإمام بالاحتفال والتجلة وإن عينه لتكاد تدمع على ما نال منه زمنه ، وقلبه يئن لصبيانه هؤلاء وهم أمامه شعث غبر ، ملكهم الفقر ومسهم الضر .

ولكنه يكتم فى نفسه رثاءه ، ويسأل أخاه فى ترفق ورحمة :

« مرحبا بك وأهلا . . ما أقدمك يا أخى ؟ »

يجيب عقيل :

« ركبنى وهن عظيم ، جئت لتصلنى . »

فيربت له الإمام ظهره مواسيا ، ويقول :

« إذا خرج عطائى فهو لك . . . »

غير أن الرجل الذى خلف بلده وراءه ، وخرج فى ضباب ناظريه يقوده صبيته فقطعوا به المراحل الطويلة ، لم يكن كل همه أن يطوى الفيار والقفار ليتبلغ بمسكة من المال كهذه لا تكافىء مشاقه ولا ترد إملاقه !! . . إنما كان ظنه أن

صاحب كل هذه الدولة العريضة لايؤوده أن يفتح له بيت المال ثم يدعه وما شاء فيه يغترف ويحمل حتى يكل وينوء ! . .

ويلح عقيل . ويعاود بعد معاودة ، وهو يعنف فى الطلب ويشتد فى السؤال :

« وما يبلغ منى عطاؤك ! »

ويحلم الإمام ويصابره :

« وهل تعلم لى مالا غيره ؟ . . »

ثم يتهاوى صبره ذات ليلة بلغ فيها أخوه من إلحافه ومن تعنيفه أقصى جهده وغاية قصاراه . . . فى البدء يقبل بسمعه عليه ، ويبدى له من الرقة ما يطمعه فيه . حتى إذا حسب الشيخ أنه بالغ أربه ونائل طلبه ، مد له الإمام حديدة حمراء محماة فأدناها منه فانبعث من حرها يصيح ! . .

عندئذ يعصف على به يزجره :

« ثكلتك الثواكل ياعقيل ! . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ . . »

ليس الإمام إذن بالذى يخون أمانة الله فى يده فيهتبل نفوذه ليرضخ الرضائخ ويقطع القطائع ويجعل مال المسلمين دولة فى طائفة منهم وإن تزلفت إليه بصحبة أو صلة رحم . لا يفعل ، وغيره يفعل — معاوية ! . . فما يعي عاهل الشام أن يمنح من شاء أو يمنع من شاء ، فإنما المال — فى اعتباره — قنية له خالصة ، شهواته وحدها ترسم حدود إنفاقه ثم لا رقيب ولا تثريب ! . . .

* * *

برق الذهب ثم قال : « هيت ! » . . فأما ابن زمعة فقد عمه . وأما عقيل فقد خرج إليه . وأما معاوية فقد استغرقت البسمة ما بين أذنيه ! . .

ويتفكر العاهل الوصولى والفرحة تفيض به وتريق لونها على محياه ، كما يسيل لعاب معتوه ! . . فهذان جلب الخير ، أول القطر ، والغيث بعد مدرار ! . . وعبيد الدينار والدرهم كثر ، وما أقل القنع الأحرار فى هذه الدار ! . . حالفه قدره ، والطمع والفاقة . وها هو ذا وقد أقبل زمانه يقوم فينثر ادعاء جديدا له على الملأ من رجاله المفتونين . . يعتلى منبره ثم يخطب وهو يلوح باسم عقيل :

« يا أهل الشام . . . هذا سيد قريش وابن سيدها عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فأناب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! . . . »

ويسمع عقيل فيشتعل غضبه لهذه الفرية الكافرة ، ويأبى لنفسه أن يبتلع ما احتوته من تنقص وجور ، فإذا هو يثور :

« . . . قد عرفت من فى عسكر أخى لم أفقد والله رجلا من المهاجرين والأنصار . ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من صحاب رسول الله ... »

ثم يغرق احتجاجه فى تهاتف الجماهير .

وعندما يجلس العاهل مجلسه ، ويرى ما ناله ادعاؤه من كرامة ضيفه ، ينثنى فيلين له الحديث عسى أن يهدأ غضبه ، ثم يدفع إليه بثلثمائة ألف دينار ، عطية سخية يشترى بها رضاءه . . . ويهمس له بخبث تبطن بنفاقه :

« أنا خير لك من أخيك . »

فلا تلوى الشيخ الضرير المنحة الثمينة عن الحق وطريقه ، بل يسرع بجوابه ساخرا كأنه لسعة السوط :

« صدقت . . إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت قد آثرت دنياك على دينك ! . . »

ثم يمد عينه التى غلفها الضباب كأنما يحاول أن يستشف أثر رده فى ملامح مضيفه ، ويرهف سمعه . ويشحذ لسانه يهيئه للسمة جديدة ! . .

لكن معاوية لا يجيب . وما جواب يجد الجدال والملاحاة ؟ ... إنه لمشغول . . . خواطره تهيم فى آفاق آماله . تطوف به أرض الإسلام ورقاعها الفسيحة بين قرنى الزمن . تطوى دياره وتقطع أقطاره .. فى الحجاز دارت ، عند الحرمين . وفى مفاوز الفلاة التى تنبسط كالتبه عبر الجزيرة . وفى العراق بمصريه البصرة والكوفة ، وخلال سواده الذى جرى ماؤه فلانت حصباؤه وملأه الحين والظلال . . . أينما انطلقت عينه فى هذه الأقاليم التى جاورته انثنت نفسه راضية . قد تصيد من رجالها حفنة طيبة ، هم بين أهلهم أعلام . وما دامت الدنيا حسبه ، والزيف وسيلته ، والذهب حيلته ، فإنه لآمن لا يضع قدمه على مزلق ... فليمل إذن ميله ، وليخط خطوة جديدة لأرض جديدة ، عسى أن يجد فيها أناسا من

نفس ذلك الطراز الذى وقع شراكه . . . ليبسط جده ولعبه ، ولينثر مكره وذهبه ، وليقر على طمأنينة ، فلسوف يؤتينه التهم ، والأنفس التى أعياها الصبر ، والضمائر الجريحة طائفة أخرى تتعلق بأسبابه ، وتسير فى ركابه ، ذات غابر فى الغوابر ، ساطع الطلعة ، له إشراق ! . .

٧

الذى أهمه فى البلاد إقليم : جنة يانعة ، بطلع منضود وظل ممدود . تأتيها نعمها وفرة ، على فترة ، كلما طما النهر فسال به واديه الأصفر ، وفاضت قنيه كالعيون ومس بكفه الساحرة صفافه الجرد فجرت بهجة ونضرة . . . وكانت بعيدة عنه بالقلب ، دانية بالقرب ، كأنها من إقليمه الساكن دثار الشمار ! . .

والذى أعياه فى الرجال مارد : جنى من الإنس أو إنسى من الجنة ! . . يهوله طوله ، ويعجزه دهاؤه ، وتكمده خيلاؤه . . فما كانت قامته بالتى يجزيها أن يقال عنها مديدة ، بل كأنها من نسيج أسطورة ! . . إذا وقف فبرج . وإذا مشى فى الناس تذاءبت رءوسهم بين صدره وخاصرته . وإذا امتطى الفرس الأشرف كان راكباً راجلا تخطط فى الأرض رجلاه ! . . أما دهاؤه فمكر شيطان . وأما خيلاؤه فإدلال بقدرة . وليس مع ذلك بمغرور .

والذى أسأمه فأسقمه ، وأجرى غيظه كالحمى الكاوية فى دمائه : اجتماع الجنة اليانعة إلى المارد الماكر ، وانضواؤها تحته ، يوليها الدهاء فتوليه الولاء . . . منذ دخلها سكنت له ، وخفضت جناحها مختارة غير مقهورة . فما اغتصبها عنوة . ولا نالها بسيف أو ركبها بخوف ، وإنما جاءها — حين جاء — فى سبعة من رفاقه ، قطعوا إليها الفلاة فى ركابه كأنهم ندماء صحبهم لتهون عليه وحشة الطريق . ودخلوها معه بغير اقتحام دخول الأضياف فاستقبلتهم بالقرى والتجلة . .

ولم يكن فى الحق نائيا عن مصر ، وعاملها المارد ، وخراجها الضخم الذى لو أحيل عدة لفتح العالم بشرقه وغربه . . أينما سرح فكره بدت له هذه الجنة سعيرا تحترق فيه أحلامه ! . . وقد حسب فى الماضى أنه أمن شررها وشرها حين

بعث بجند اختلب ابن أبي حذيفة من ربوعها إلى حتفه . لكنها ظلت حصينة دون هواه بعد وقعة المريش التي انتصر فيها جنوده ، وباتت على عهدها إلى اليوم للإمام لا ترد كلمته ، ولا تخلع طاعته ، وإن عاشت فيها فرقة عثمانية انطوت على نفسها بقرية صغيرة كانطواء ثعلب جبان بجحره ! .

وأسف معاوية . فلولا أن عمل عليها قيس بن سعد بن عبادة من لدن على على الأثر لكان قد وسعه أن يجيش لها كرة أخرى من غاراته ومكر عمرو مايردها فوضى بلا صاحب حتى تنضج بها فتنته فتسقط فى حجره وهو رخى سقوط الرطبة الطرية !.. لكن الإمام لم يعل له فى رسم خططه ، وتنظيم تدبيره ، ونسج أحابيله ، بل رماه فيها بمن تصغر فى عينيه خدعه فلا يراها سوى عبث غلمة !..

لقد كانت العرب تعد دهاتها فتقدم منهم خمسة لا يسبقهم إلى الدهاء سباق . فيهم عمرو ، وفيهم معاوية ، وعلى رأسهم قيس وإن أنف دهاؤه أن يقوده إلى مأثم . . كان يقظا كذبابة ، ماكرا كشيطان ، ناعما كحية ! . . وكان حبه الإمام يتوثب به إلى الفداء والتضحية ، وإخلاصه له تفانيا فيه ، وإجلاله إياه أدنى درجة إلى التسبيح ! . . وعندما اختاره على عاملا من قبله على الجنة التى اشتاقها معاوية وتاقت روحه إلى امتلاك برها وبحرها ، لم يكن مسيره إليها مسير آمل فى منصب ، أو متوفز إلى جاه ، بل رجاها قناة حادة تخز بسنها عدو إمامه حتى تستلبه حياته . . .

قال له الإمام فيما أوصاه يوم ولاه :

« سر إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتى مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرهب لعدوك ، وأعز لوليك . . . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن على المحسن ، واشدد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن . . . »

فأبى عليه إيثارة وليه على نفسه أن يستبطن جندا قد يكونون عدة تميق الإمام فى ذلك الوقت الذى تنادت البصرة فيه للثأر ، وتشرعت للحرب ، وطاف رجالها بهودج عائشة طواف المجوس بالنار ! . . قال يجيب مولاه :

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت . . . فأما الجند فإنى

أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبا منك ، وإن أردت بعثتهم إلي وجه من وجوهك كان لك عدة . . ولكنى أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى . . . »

فإن هى إلا أيام حتى كان قد دخلها ، وما فى ركابه إلا سبعة ، وما فى عينه سوى دعوة بيعة . ثم شهدته الفسطاط يقف على منبر جامعها يخطب الناس فى طمأنينة وثقة :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين ... أيها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله . فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . . »

ومع ذلك فلم يقنط معاوية ، إن مصر بايعت لكن دعاته بواديها الأخضر فى جنة ومعقل — تلك الفرقة العثمانية المعادية التى ترنو إلى دمشق بنظرة الولاء لم يمسسها من الأمير الجديد عنت ، ولم يلحقها عسر أو ضر . . . لان لها قيس وإن أبت الطاعة ، وأفسح لها فى رحابة صدره ما بدت به عزيزة الجانب فى أعين من يرونها تأبى وتخالف فلا يصيبها جزاء المخالف ! . . إنها ، على تمردها ، لموفورة السلامة ، آمنة السرب كحمام الحرم ! .. لكأنها من وجارها ذاك لصيقة بصاحب الشام دونها حصونه ! . . لكأن « خربتا » دمشق صغيرة فى أرض النيل ! . . لكأن أهلها — كالأولى تحدثنا بسيرتهم الأساطير — قد أحصنوا جلودهم بالرقى المعيذة تنمهم الحتوف فترهبهم السيوف ! . .

وكتب إليهم قيس :

« إنى لا أكرهكم على البيعة ، فأنا أدعكم وأكف عنكم . . . »

فكان حقا لمعاوية أن يستمسك بأمله فلا ييأس اليأس كله . بل يتربص مع الأيام عسى الأحداث تعينه على الإفادة يوما من حزبه الرابض بالقرية الصغيرة .

فلعلها السياسة . أو لعله الدهاء قد زين للعامل المارد هذه الخطة الناعمة يتناول بها فرقة المعارضين العصاة أو لعلها ظروفه التى لم تدع له إلا طاقة محدودة قد قهرته على الصبر والموادعة . فما دخل إقليمه بقوة حربية كالتى حضه على اتخاذها الإمام تشد من أزره فترهب أعداءه ، وتعز أولياءه ، وهل كان حوله سوى نفير من أصحابه لا تكاد دماؤهم حين البأس تروى حديدة حسام ! . .

رفق بهم إذن وقد كانوا جديرين منه بغير الرفق والهوادة . وداورهم جهده وإنه — فيما نحسب — لمقهور على أداء دوره ، مغلوب أمامهم على أمره ، وهل كانت ظروف أحواله : فقره فى السلاح ، وقلة النصير ، وترقبه البيعة تأتيه من أطراف إقليمه إلا مملية عليه أن يبدى من الحية جلدها الناعم ويخفى نابها السام ؟ .

أما هم فلعلهم كانوا أشد قوة بتوحد كلمهم ، واجتماعهم فى رقعة صغيرة من الأرض هى بهم كالحصن وإن كانوا ذوى عديد قليل . فما طاقته ؟ وما قصارى جهوده إن هو بادأهم بالعنف وإنه لـكالأعزل ؟ . . أولى به إذن أن يستشف عقبى إقدامه قبل أن يقدم ليتخير خاتمة آمن وأسلم ، وأن يعمل بحذر فيعالج الداء العصى بالدواء الأيسر وإن لم يكن الأنجع الأحسم ! . .

فيا ترى قد تجنب الخطر أم تجنب الحزم حين استباح لنفسه أن يتحرر من وصية الإمام فلم يشدد منهم على مريب ؟ . مع تركته الفرقة المتأبية لحظة من زمان — منذ دخل الفسطاط — فى أدنى شبهة مما يبيتون . . . إن بلدتهم لدار فتنة : وإن نهجهم لعصيان . وإن عزمهم لتشرع لاعتداء مسلح عليه وعلى وليه وعلى السواء حين تلوح فى أفقهم بارقة ظفر . . . لم يكن قيس فى شك من هذا كله أو يكون دهاؤه اختلاق راوية ! . . ولـكنه مع هذا يلزم الروية والريث ، ويبدى لهم من اللين ما يوشك أن ينتقص من هيبته — حتى حينما تنادوا فيما بينهم بالتمرد ، وتهاتفوا جهرة بالانتقاض ، ودعوا إلى خلع الطاعة بألفاظ الثأر لعثمان، لا تراه يهز فى وجوههم قناة أو يلوح بوعيد ، إنما يتلقاهم بما هو دون اللوم وأدنى إلى العتاب الرقيق فيبعث إلى داعيتهم : مسلمة بن مخلد الأنصارى ، يقول :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . فوالله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر وأنى قتلتك . . . »

ويبعث كذلك إلى القوم كلهم يؤمنهم :

« إنى لا أكرهكم على بيعة . . . »

فإن هى إلا هدنة عقدها ، وعهد قطعه على نفسه حتى كان الخبر قد جاءه من البصرة بمصارع الخارجين على إمامة الإمام . . . الرحى الحاصدة التى خافها

معاوية على شامه وأحلامه قد عملت . دارت شقها هناك بالعراق . مشى على على عدوه بالمنايا المغيرة . عصف بجندهم عصف الأهوية الثائرة بالهشيم . أكلت ناره « الجمل » ثم ذرت عظامه رماداً مع الريح ! . .

ويصبح صباح ، ويمسى مساء ، وصاحب الشام بين يد قلقه مضيع ، يوشك من خوفه أن يرى الجحافل الغازية تفيض عليه كطوفان ، من مجرى دجلة ، من مفازة الجزيرة الجرداء ، من شاطىء الفرات الأدكن ، من ضفة النيل عبر رمل سيناء . . . أمس وحده كان عمر راحته ، وهدوء خاطره ، وطمأنينة بالله ثم دفء الليل فى سواده ! . . وعندما فاز حزبه المصرى بتلك الهدنة العارضة ود بقلبه لو طال عهدها فترة من زمان يمد فيها إعداده . أما اليوم فهى فى الغابر — حبل أمنه قصير ! . .

ويتلفت الداهل القلق وهو ريشة فى لجة اضطرابه فلا يسعفه ذهنه بغير الحدس والظنون والرجم بالمغيب المجهول من كل مرتجى ومأمول ! . . فلو قر على . . . فلو أقره على أرضه كما ولاه قبله عمر وعثمان . . . فلو نسأه الحرب إلى حين . . . إنها منى الآن كذبته من بعد لقد ظلت زمنا مفتاح السياسة التى انتهجها طويلا قبيل وقعة الجمل وفى أعقابها وكان بها يداور ويحاور عسى أن يفوز ببعض أربه . ولكن عينه كانت دائما على قيس ، فى إبان شدته ورخاء حاله على السواء . وهو اليوم لا يميل بوجهه عنه ، ولا يغفل لحظة عن أية حركة تند منه بالوادى الأخضر ! فكل همه أن يدرأ عن نفسه دهاء المارد وطاقة بمصر مكتنزة لو خلى بينها وبين الانتشار لهزت الدنيا ، وفتحت العالم بشرقه وغربه ! . .

لكن شق الرحى الثانى لم يدر دورته ! . . همد حركة . جنح صاحبه به إلى الركود . . . فما تحركت بمصر قدم أخذت طريقها إلى الشرق نحو فلسطين ، فدمشق ، فأعمالها الكثيرة المتاخمة للروم . ولا انعقد بها لواء . ولا تكتبت كتيبة لحرب متمرد الشام . . . فلولا أن يقال مخدوع اقال معاوية إن صاحب النيل قد آثر القعدة بضفتيه يتفيأ نعيمه ويستروح نسيمه ! : لكنه عرفه أخا بمصر وبصيرة ، فلأمر ما قد تثاقل إذن عن اهتبال فرصة النصر ، الذى حازه الإمام بالبصرة ، وسار ذكره فى الأمصار فكبت أعداءه وأعز خلصاءه وأولياءه . . .

لأمر ما يدع قيس الآن عليا فى عرقه ، وفى النقع الغامر الذى انجاب عنه القتال. وفى هم حازب غالب من الإعداد لملاقاة خصمه العنيد فى دمشق ثم قبع ينظر ساكناً من مغانى جنانه !..

ففيم كان سكونه وكان انتظاره وقد عز جانبه وعلت كفه وكف الإمام بعد نصره ذلك المؤزر ؟ . . إنه ليس عن فتور همة ، ولا عن غفلة ، ولا عن قلة حيلة أو قصور فى عتاد وأجناد . فلقد دانت له البلاد فى واديه إلا بلدة ، وخضع الناس من رعاياه إلا فرقة ، وجاءه خراج أرضه وفرا خالصا بغير عنت ولامنازعة فى الأيام القلائل التى تلت دخوله الفسطاط أعزل ، استطاع العامل الداهية المملاق أن يسوس فيحسن حتى غدت أمور إقليمه خيوطا معقودة بإبهامه ، ففاض المال ، وانحنى الرجال ... فلو قد أراد أن يعد لأعد ، وأن يحشد لحشد . ولو قد مد إصبعاً بحركة وعيد إلى خربتا لأقبلت إليه تهطع وهى تخفض له رأسها ذليلة . . ولو قد تأبى عليه أهلها ساعة لما شهدتهم بعدها ساعة إلا صرعى على غبارها ، لفظهم الحاضر وحضنهم الغابر !..

غير أنه رائها ، كأنما شاء أن ينسئها أجلها إلى حين ! . . وبقى على عهده لها ، محاجزا بينها وبين نابه ، حاويا بأسها فى إهابه ، كحية وعصفور ! . . فيما أحسب كان قيس مؤمنا يقدر نفسه أقوم إيمان ، واثقا بجدوى تدبيره أعظم ثقة ، فلم يرده شىء عن احتذاء خطة له رسمها فى حيطة وراح ينفذها فى تحرز وكتمان . . . إنه ليسر نواياه ، ويلفها من الغموض بأبراد ثقيلة كثيفة حتى لتختلط حقيقة أمره على نصيره اختلاطها على غريمه . . من البدء كان هكذا ، ومن بعد امتثل نفس المنوال . . أو ما أقدم حين كان يجب الإحجام فدخل على أمة ديارها وهو أعزل بغير عدة ولا أعوان ؟ . . أو ما أحجم حين كان يجب الإقدام فأغمض عينه عن خربتا وأهلها المخالفين وقد هاض حزب عائشة واستطار من أنباء ظفر الإمام ما دفع أعتى عدوه إليه يتكفف الأمان ؟ . .

إنها خطة ، لا مراء ، عصية على الفهم ، ليس لها من المنطق عماد . . . حتى معاوية ضل فيها دهاؤه . يوم استقبلت مصر قيساً بالصمت ترقب العاهل الأمور فى صبر ، فلما رآها يهادن فيها ثعالبه تطلع نحوه بحذر . . . كان الموقف حينذاك

لا يكاد ينضح بعقباه . كانت فوقه غمامة ناشرة حجبت من الأفق صفاءه وشابت رواءه حتى لقد حار الداهل التائه فى مجاهل ظنونه أتلكم الخطوط الداكنة فى سمائه عبسة الغروب يتبعها ليل أم ظلة سحر يعقبها فجر ! . .

وفى ثنايا توجسه الحائر جاءه الزمن بالجواب .. صاحب الشام لم يطل قلقه ، ولم يضرب به خياله أشواطاً وسيمة فى غمرات الحدس والوساوس . فلقد أقامت نشوة النصر إقلاع سحابة صائفة ، وسكنت الأنفس التى كان يزلزلها الخوف ، وقرت القلوب الفزعة من بعد وجيب . . . ومع ذلك فقيس هناك بمكانه على النيل ، مازال على حربنا فى الأمان واللين ، لا يشحذ سيفا ، ولا يهز إصبعاً بوعيد ، كأنما كل همه قعدة ناعمة على الضفاف الخضر فى مغانى جناته ! . .

٨

الزمن له ! . . هذه فسحة منه طال بها عمر أحلامه . كانت بلسما لحيرته . شعاعا هاديا فى ظلام حاضره يبدو كسفة من ضباب غده المجهول . دعامة جديدة فى مجازه إلى مجده . . .

وطاب نفسا معاوية . وحق له . فحين يستتبئ الآن رجاءه يرى دنياه فى عينه ، كأنما أقبلت عليه مجلوة ، على وجهها سلام وعلى ثغرها ابتسام . . . وحين يحاول أن ينشر الحيلة لا تتعثر به الوسيلة ، فالجبهة وسيعة ، والخدع حاضرة ، والباع طويل ، والخطر قليل . . .

ذات يوم ضل حدسه فى سياسة المارد الداهية الذى يحكم النيل . كانت عميقة كهاوية ، مشوبة كصفحة البحر الثائر فى يدى عاصفة ، خافية الكنه كالقضاء المغيب . . . أمس ظنها هدأة الطبيعة الخادعة تتهيأ لإعصار ، فأورثته القلق والتوجس . كان غموضها يملأ الجو عليه بالوساوس ، وكان خرس صاحبها عنه ينضح بالريبة . . . لكأن غفوته تلك بالوادى الأخضر تربص ذئب ينام بعين ويرقب بعين ! . . وقعدته إقعاءة الوحش يتهيأ للانقضاض . وهل كان قيس إلا حية عاتلة ؟ . . .

ثم مضى الأمس هادئا كسابقه، وانقضى اليوم ناعما كأمسه . وغاب الغد على أثرهما فى رمسه . . ليالى ونهر ما كان أطول سويعاتها الحائرة وما أشقها وأثقلها على نفس عاهل الشام، إنها صهرت عزمه ، وأوهت صبره . . . شدت قبضتها العاتية على نحره ، وجثم شيطانها على صدره . . . ألصقت أهداب عينيه أمنيات طويلة بالنجوم الماحة ! . . ولـكنه تحصن أثناءها بأمن اليائس الذى لا يملك سوى انتظاره إشماعة الفجر وبوارق إصباحه. وراح يتلمس جهده ثغرة ان كانت كسم الإبرة فى سور همه فمساه أن يتنفس من خلالها نسيم الخلاص ! . .

وها قد أملت الهدنة له ، وجاءته بليالى من هدوء جأشه استطاع فيها أن ينقب بظفره الجدار ! . . ولم تـكن فى الحق هدنة قد عقدت له ، بل هى عهد بالمسالمة بين قيس وخربتا الناوئة . ولم تـكن سلاما ساد بين مصر والشام ، بل هى غفوة عارضة شاءها النيل الزاحف فى مهاده الرملى كالأفعوان ! . . ومع ذلك فما كان معاوية ليأمن مغبة ذلك الهدوء الثقيل الذى التزمه حارسه العملاق القابع له خلف الأسوار ، أيما رجل غيره كان حريا به كشفه أن يحار ذهنه فى الخطة المسربلة بالغموض . المستترة من الإسرار بألف ستار وستار . إنه ليؤوده أنها مختلطة الخطوط ، مطموسة المعالم كعبث الأهوية الهوج فى نقا الرمل أو بصفحة الماء . لا ترتكز على منطق معلوم فلا يتبدى من نتائجها ما قد توحى به المقدمات ولا تسير فى اطراد وموكب الحوادث السيار . . ليست سلماً يعلن فيؤمن جنابه ، وليست حربا يشهر فيتسع رحابه وتشرع أسبابه . إنما كقارب ضال ، كسير الشراع ، فى يدى نوء مجنون ، يجذبه ثم يرخى له ، ثم يرخى له ويجذبه فلا يلوح لذهن ثاقب أين مرساه .

على أية حال استطاع عاهل الشام أن يتنفس الرجاء فى أعقاب الهدنة التى امتد بها الأجل بعد انقضاء آجال « عسكر » وأجناده ، الذين شهدتهم البصرة صرعى على ثراها المبلل . وسعه من تلك اللحظة أن يتبين فى الأفق ظلة فرصة مولية شابت سماء مصر بالدكنة ، ولمة فرصة مواتية أشرقت فى سماء شامه وأحلامه . لـكنه فى ذروة بشره لم يكن يحلم بأن يهد على العامل الداهية عرينه أو يشوش سكونه . حسبه أن يرقب سنته ، وأن يقابل وناه بوناه ، وأن يقبض

كفه أن تقطع عليه رقدته فتوقظ فى صميمه غضبة جبار تعقب الويل وتورث الدمار ! . .

لكن كر الليالى ، وتوالى الساعات عليه وهو فى مرقبه ، وذلك الشلل الذى ضربه على أصابعه المتحفزة للنضال ، لم تكن كافية أن تتقدم به إلى الأمام خطوة نحو أربه . ذلك الجهد السلبى الذى بذله تجاه خطة غريمه الخافية عن تقصيه كان مضيعة لعمره ، مثقلا لقلبه ، موهنا لأعصابه . وإن غده لمجهول . وإن أجنة الزمن التى لن يلبث أن يدفعها ولائد إلى الحياة لمغلفة من الغيوب بما يحجبها عن وعيه ، وعن استقرائه ، وعن استيقان ملامحها أهى سليمة أم هى شوهاء ؟ . . فما يدرى على أية هيئة ستكون ظروفه ، ولا فى أى قالب يسويها قدره . وما يسعه لحظة من هنيهة أن يثق باليوم القابل وإن اطمأن إلى اليوم الراحل بعض اطمئنان . وهل فى مقدوره أن يقيس غده بحاضره وقد حذرته خطة قيس المغشاة ألا يركن آمنا إلى القياس ؟ . .

كلا بل يعمل . ويعمل فى عجلة لا تنسيه حذره . ويعمل ليومه فى يومه دون ترقب لما يحتمل أن يطلع به غد غائم لما تتضح له تباشيره . . الآن إذا غفت مصر ليس بعينه من خطة أميرها شىء إلا أنه فى غفوة ، مخلبه قد انكمش فى إهابه ، وخطره نام إلى حين . والإمام أيضا مشغول عنه ، ينفض عن نفسه غبرة الحرب ويلعق كالليث جراحه ! . . وتلك الوفادة التى ما ونت تحثه على الطاعة دواؤها لديه حاضر . وهل أنجع لها من مطل يردها عنه خدرة كليلة ؟ .

فى هذه السويعات الحاسمة من تاريخه بدا معاوية كمن قد أوتى حاسة هادية توجه خطاه ، وتسدد نظرته ، وتوفى به رويدا رويدا على غايته المرتجاة بغير عسر ولا مشقة . لكننا ، فى الواقع ، نسلبه نصيبه من الحزم إن وكلنا تصرفه كله إلى جده السعيد ، ونجنى على الحقيقة السافرة بما يحجب وجهها عن العيون . فما كان صدفة ما هداه . ولا صوتا هاتفا من السماء تنزل بالخطة المثلى إلى هذه الأرض فانحرف سراه إلى سمع شيطان ! .

لم يكن غيبا انهتك ستره وتكشف سره فوضحت لأهل الشام من خلاله المعالم ، إنما نفسه دليله . هى هاديته . كانت مشعلا له أنار السبيل الذى اعترضته

الحيرة ، وسدته ظلمة الغد المجهول ، مضت به إلى مراميه وهى تحترق من جزع ، وتتوهج ، ويسيل ذماؤها فى كل خطوة كقطر الشموع ! . . إنه لم يكن غرا ، ولا مخدوعا عن هدفه ، ولا جبانا يرده النكوص وإن أبدى ريثا كان يلبسه أحايين كثيرة ثياب متوا كل قليل المبالاة أو متردد مفلول الحيلة . . وحين رأى مصر تعنو لخصمه ، راحت الحيرة تعبث به عبثة الكأس بنشوان لكنه لم وعيه المبعثر ، ونفض عن رأسه النشوة المغيرة . وما زال ذهنه يسير به حتى التقى همه برمل سيناء فجل بإزاء أرضها ثلاثة رهط من أعوانه أشدة ، أقامهم على فلسطين ليدرأوا عنه ثعبان النيل لو شاء زحفا على تخومه . . ولم ينم لياليه أيضا حتى كاتب الثعالب المحتجرة بالقرية الصغيرة ، فرقته تجربتا ، عسى أن تكون له فى الوادى عدة حين يأزف الصراع . . .

تستر الرجل بالخفية فى ضلته بمعزلة مصر ، مناهم عونه ، فرشهم عروضه ودنياه . سارهم وناجوه سرهم ونجواه . . . ولم يكن يخشى عليهم غائلة من أميرهم الجائع إلى سنته ، فقد علمه ذا وفاء ، لا يتنكر لعهد ، ولا يمتثل لغدرة . . ومع ذلك فما أعجب أن تكون الخطة التى رسمها معاوية فى كفاحه قيسا ، تدور رحاها كلها على اختبار العهود المقطوعة : أهى عارض أملته الحاجة ، أم سليقة أنجبتها الخلائق النقية المطبوعة على كل خلة كريمة وسجية أبية مستقيمة . . . وكانت نفسه هاديته ، كما أبنا ، فى هذا الميدان . ففى مرآتها يرى غيره ، فيحسب له الوفاء عجزا ، أو حيلة ، أو وسيلة ! . وقد انتهى به تفكيره فى حال غريمه ، القابع هناك فى مغانيه ، إلى العلم بما فى يديه من قدرة وحول اجتمعت بهما له أفياض المال وسواعد الرجال . . . وأيقن أيضا أن الحيلة فى جعبة قيس إن كانت معدة حاضرة فهى عدة الظلام لا يطولها حدسه وقد تطيش فى استنباء كنهها ظنونه . . . كلا الفرضين لم يكن مسعفه على التقدم إلى هدفه ، فلم يبق سوى « الوسيلة » علة يفترضها لصمت داهية النيل ! . .

ولم يضيع وقته ، فالعمل وحده قد يكشف له عن مسالك يشقها كيده ! . . وكانت الفكرة التى لا ريب سيطرت على ذهنه تتفق ونهجه فى الحياة ، وتسير وطبعه فى سبيلها . إنها سليقة التاجر النهوم للربح يلتمسه من أدنى طرقه

وإن خاض إليه على أنقاض الذمة ! . . إنها شيمة المساوم النهاز ، يمد الصاع ليغنم الأصوع ! . . وهل يجول له بخاطر أن صمت قيس عنه وعن أضرابه المخاتلين من معتزلة النيل كان ابتغاء مثل سامية ، ونبت نفس كريمة تنفض الأثرة وتدنى الإيثار ! . .

وفى عجلة وأمل غمس قلمه فى مداد المنى الخداعة ، وزيف الأباطيل ، وبرق العروض السخية التى تغوى ، وتفتن ، وتميل بالقلوب النهمة الوصولية إلى كل مميل . . وكتب بيد المساوم المضلل رقعة سوداء ، كلها رياء ، وافتراء ، ومراودة ملحة عن الخيانة :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك . أما بعد . . .

إنكم إن كنتم نقمتم على عثمان فى أثرة رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو فى شتمه رجلا ، أو تسييره أحداً ، أو فى استعماله الفتى من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحل لكم بذلك . . وقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم شيئا إدا . »

فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجلبين على عثمان . . فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك .

فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ما بقيت . . ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا ما تحب ، فإنك لا تسألنى عن شىء إلا أوتيته . . .

والسلام » .

وختم كتابه وإن بنفسه لجزعة من مغبته أن يوقظ غضبه الثعبان النائم . وإن بها كذلك للهفة أن تصادف عنده ضميرا يكون خيالا لضميره ! . .

ولتنبئنه الأحداث . . .

٩

أما الافتراء فهو ديدنه . ما انثغرت أمامه قط ثغرة إليه إلا اقتحمها بلا ونى أو تلبث . . كان عماد سياسته المناهضة للإمام والمحور الذى يدور حوله تدبيره . وحتى عندما قضى الخليفة الشريف أيامه الدنيوية ، ووسعته رحمة السماء ، ولم يدع على هذا الكوكب الدنس إلا تراثا روحيا له نقاوة الندى فى البكرة ، وطهارة قلب المولود ، وعطر الزهرة الريانة حين تتفتق عنها الأكمام — حتى بعد أن غدا الإمام ذكرى للذاكر ، ونورا من الغابر يهدى فى الحاضر ، وزادا طيبا للعقول والخواطر ، لم ينم معاوية يوما واحداً عن رميه بأباطيله المفتراة . . وإنك لتراه وقد غدت الدنيا بكفه ، وجثا الإسلام عند قدميه ، لا ينى يأمر الناس أن يسبوا عليا ، ويهيضوا من قدره ، ويركبوه بكل مذمة ومنقصة . فإذا قيل له ليكف اندلاع لسانه الكذوب العياب : « إنك يا أمير المؤمنين ، قد بلغت ما أملت ، فلو كففت عن الرجل » — أبى وقال : « لا والله ! . . حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكر فضلا ! . . . »

وأما الجزعة على مصيره أن يرسمه قيس فنبأها مع الليالى الطويلة التى حالفته فيها اليقظة ! . ما كان ليقر جنبه أو يلين فراشه وذلك العملاق يتراءى له فى خيالاته كأنما يوشك أن يعبر سيناء ، ويقتحم فلسطين ، ويدق عليه أبواب قصره فى دمشق الفيحاء . . فلو فعل لجاءت النهاية ، وجاءته من جانبين ، شطرها من العراق والآخر من النيل . وهو بهما حينذاك كمن شدت أوصاله جرما إلى فرسين ثم ضربا ليجمحا : هذا إلى يمين وذلك إلى يسار ! . .

وأما الرجاء الذى احتوته لهفته فقد طلع عليه ذات ليلة صافية الأنجم فى حساب أوهامه وإن كانت حقا غائرة الأعين كثيفة الظلال . . . إنما ضل فيها حسبانه . بدت له كظنه من خلال الطبيعة الهادئة التى أخذت حينذاك تنفض عن نفسها رهق الصيف ، وتخلع ثياب الهجير ، وتتعرى من أبرادها الخضر تبترد فى نسمة الخريف البليلة ! . . ولاحت كذلك من خلال أمله الشهى الحلو ، الذى حمله

كتاب وولده كتاب ! . لكأنها جاءته بحلم عمره ، وغاية المرجو من قدره المترفق وحظه المواتى السعيد .

فليكن له إذن وهمه . وليكن له بشره ساعة أو سويعات من ليلته تلك « الصافية — الدكناء » وهو يرتل جواب قيس له كأغنية ! . . ففيه متعة . وأطياف رجاء . ومزلق يؤدى عاجلا إلى الخيانة كظنه السارح الضليل ؟ . . قرأ معاوداً وهو نشوان :

« . . بلغنى كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به .

وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى . .

وأما ما سألتنى عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضت على من الجزاء به ، فقد فهمته . وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس مما يعجل إلى مثله . . . وأنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شىء تكرهه ، حتى ترى ونرى . . .

والسلام » .

وبطيه الكتاب الذى أقبل عليه من مصر إقبالة النسمة المعطرة ، طوى معاوية إحدى صفحات قلقه . إن سفر متاعبه ضخم، والسطور التى خطها الزمن فيه تكل فى تبينها وفى استيعاب ألفاظها المتذائبة عيناه . ولكنه مع هذا قانع قرير ، قانع أيما قناعة ، وقرير إلى غير قرار . أم قد خدعه حينذاك تقديره فعاش صدر ليلته تلك وهذا الكتاب عيش طفلة ودمية ؟ . على أية حال غمرته الفرحة المفاجئة — لاريب — من هامة لساق . ظفر خياله السارح فطوف به كالنحلة فى مغانى أحلامه ، انتشر أمله الجامح انتشارة الضوء بين وضحة الفجر وحمرة الغروب . . . فهلا أمن ؟ . . بل يوقن . بل يطمح . بل يبنى البواذخ الشم على دعائم التصور ، وطيدة رفيعة كأنها الصروح ذات الأبراج ، فالمارد الجبار خلع جبروته : استأنس الوحش الذى تهيأ طويلا للانقضاض ، غدا وادعا كحمامة، أليفا كهرة ، حييا كعذراء !

ما كان أبهاه بدء ليله ؟ . . فما يريبه الآن ، وما يشغله فى مصر ، من جيرة النيل ومفازة سيناء ؟ . . . هذا عهد من الداهية فى كتاب ، مصانعة ، كتابعة كبايعة ! أم لا فأين الساعة ولاء قيس لعلى وإنه للمليم حق العلم أنه شهيد قرية ؟ .. فيم صمته إذن عن هذه التهمة التى ألصقوها بسيده ، الموغلة فى الحيف ، الغالية فى الباطل ، المنسوجة من خيوط الحقد بإبرة المطامع ؟ . . كيف لم يدفع بحد قلمه ، لا حسامه ، عن إمامه فجاءت سطوره لينة على استحياء كأن قد أنفت الإنـكار ورضيت الإقرار ؟ . .

فى خاطر العاهل ، الذى استخفه فرحه ، كانت « الوسيلة » وحدها هى التي سطرت حروف الجواب ... ذاك حسبانه صدر ليلته . وإنه ليفكر ساعة بشره هذه فى أمر قيس ، وموقفه اليوم وموقفه أمس ، فلا يرى علة تفسر له نعومة غربه المارد إلا إضماره فى دخيلته العميقة كالبئر هدفا خالصا محببا لنفسه ، راح يعد له ، ويصابر فى حذر ، ويستأنى بزمنه عسى أن يبلغه إياه ذات يوم قابل وهو رابض هناك بجانب النيل . وما هو بردود أبدا عن وطره الخفى المأمول . وما هو بمثمنه إلا هذا السكوت عن غريم صاحبه مرة ، وعن ثمالب خربتا مرة ، حتى تأزف آزفة يستطيع خلالها أن يساوم من شاء على ما شاء . ولعله ، إذ ينادى النفير للحرب ، وتدوى الطبول فتنفلق الهام وتتناثر على الثرى فتات الأجسام ، عامد إلى الفرصة السانحة المرقوبة ، فناهض فيها لأمره ، يساوم أو على وهو حينذاك القوى الأغلب الذى لم تصبه بعد قارعة ، ولم ترهق سيفه الحادثات الجسام ! . .

ويقلق معاوية . دون هذا ويسود ليله ! . . تلك الأمسية التى تبدت لعينه صافية الأنجم أخذ ينقب وجهها ضباب . كلما انطلق به الفكر ، والزمن ، فى ساعاتها الوئيدة : من جبينها ، إلى النحر ، إلى الصدر ، إلى الخصر ، إلى الأطراف التى همت توفى به على النهار ، وجدها ذات وحشة وظلمة ، غارت نجما — فى باله — كليلة فى الشتاء عابسة وإن عرفها من بواكير فصل الخريف . . ! كتسى هيكلها كله بمثل القار ! ..

وكان اضطراب ذهنه ، لا غيوم السماء ، هو ما حجب صفاءها الرائق عنه ، وعبث بأمنه ، وطرد طلائع الطمأنينة التى غزت خياله الفسيح ساعة الغروب ! . .

فما وراء هذه المصانعة ؟ . . ما غاية قيس من الليونة التى خطها جوابا على الإغواء والنعومة التى استقبل بها الافتراء ؟ . . أحقا التوى ومال ؟ . . أعن حب نفع ، وصدق نية على تبادل المغانم واقتسام الأسلاب المتخلفة بعد من أنقاض دولة الإمام أم هو لين الرمال الرخوة ما تلمسها قدم حتى تميد تحتها وتنهال ؟ . . أم نعومة الحية الخاتلة ؟ . . أو تلألؤ السراب ؟ .

ذات غد غير بعيد ، حين فشل إغواؤه ، وضلت وسائله عن ضم قيس إلى صفوفه ، وتسعرت بينهما المناجزة والجفوة ، كتب إليه معاوية يذمه ويعرض به :

« إنك يهودى ابن يهودى . . . . . »

فجاء نعتا إن يكن لا يطابق فى حقيقته صفة المنعوت فقد صور لنا رأى ناعته فيه ، ولم يكن معاوية — إذ نعت — ملهاة غضبة جارفة ، ولا أسير خيال أحمق مريض ، وإنما استملى ظروف ماضى المارد ، وعيشه الشباب بالمدينة ، وعشرته فيها قبائل اليهود جيران قومه الخزرج وأحلافهم قبيل الدعوة . . . فإن كان هكذا رآه ، فقد وفر له من طبيعتهم النهازة ، وأثرة تأسره ، وتلوى خطواته وتدفعه أمامها ريشة خفيفة فى رياح أطماعه .

لتوشك إذن هذه الصفة أن تجمع الغريمين فى سبيل ، يلتقيان على نفع . . . ومع ذلك فمن يدريه أنه لم يقبس من اليهود غير هذه من خبائث ؟ . . بل يؤوده أن يطمئن له ، غداً كأمس ، وإن غدا بعد رقيق فضله وبذله مما تسمه تلك الأمانى والعروض . فهو يومه — إن مال — خائن وليه الأول : الإمام ، وهو فى غد — إن وفى لطبعه — للجديد أخون ، وتلك شيمة كل غادر خؤون ! .

ويصابر معاوية هذه الفروض المثيرة التي أمطرتها سماء أمسيته ! . . لود لو انطوى فى فراشه وهو نشوان بنصره صدر الليل ، والرجاء حينذاك يهدهد خياله ، لكنه الآن لقى فى أيدى قلقه ، وخضم أفكاره ، والوساوس التى تترى عليه أمواجا وراء أمواج . . . فذاك « اليهودى » قد حيره ، وما يحسبه ، هذه اللحظة ، إلا انطوى مثله فى أمسيته ، يفكر ويعاود التفكير وقد أمسك كتابه بكف يهودية ، وراح يطالع سطوره المغوية المرة الثانية ، الثالثة ، للعشرين بعد المائة على عادة إسرائيل الحذرة ! . . أفتقتله يا ترى الوعود ؟ . . بل كلا . إنما رجل غيره ولو كان غرا لا تجوز عليه هذه الحيلة ، التى لبست

بالعروض السخية وبطنت بالأمانى المعسولة ! . . وما كان قيس بالغر الذى يفتنه الزخرف البادى على اللب الزائف المموه . . ليس غرا فيرتمى فى لهفة على قبس الضوء الذى شبه مساومه ارتماء فراشة فى لسان اللهيب . ليس غافلا فيهطع إلى خيال الرضيخة السمينة المشتهاة ، المنعكس من خلال كتاب الإغواء ، كأنه محروم منهوم . . ليس أحمق — قبل هذا وذاك — فيؤمن بصدق النية التى لوحت له بنصف ذلك الملك المؤمل الفسيح . .

وعندئذ حق لمعاوية أن يلوم نفسه أعنف اللوم ، ويغرق فى عذلها كل الإغراق ، فلو اقتصد فى عروضه لكان خيرا له ، وأجدى عليه ، وأحرى بها أن تبدو للعيون صادقة فتميل إليه نفس قيس لو شاء أن يميل . ولكنه أباحها بقلمه مالا يبيحه بقلبه ، ومط أمامها رقعة السخاء مطا شديدا حتى رقت وكشفت من خلال شفافتيها خدعته ! . . أم لا ، فما الذى بقى خالصا له ، هو الخليفة المرجى ، من الدولة التى وسمتها أطماعه وسلبها خداعه ؟ . ما الذى تحتويه كفه وقد أهدى مصر لابن العاص ، وأقطع العراقين قيسا وله غيرهما ما أحب لو شاء وفرض لأهله أيضا الحجاز ؟ .

كان فلك أمسيته إذ ذاك قد أقلع لغايته ، عند شاطىء السحر . والنجوم فى الأفق وسنانة . ونسمة الخريف الندية تطل وجهه المحموم . كل شىء حوله احتوته الظلمة التى أراقها سواد أفكاره ، حتى البواذخ الشم من خيالاته التى تبدت له صدر الليل كأنها الصروح ذات الأبراج ! . . ومع ذلك فما زال يصابر جزعه ، ويتشبث بأوهامه . وإنه ليجد عينه من خلال ستر الظلام فيتبدى له شعاع كالخيط ، يسرى خافتا من ناحية النيل — من عامل مصر — من نفسه اليهودية النهازة ! . . ألا لو يصدق حدسه فإن المارد إذن لمطواع ، حريص على ما سخا به حرصا ينميه خوفه أن تفلته الفرصة ، وجشعه الذى ماله مثيل إلا فى إسرائيل !. ولسوف يلوح له ثانية بوعوده ، وبوعيده ، فتستجيب فيه طبيعة اليهود ، وينقاد ! . .

وكتب إليه :

« . . قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك حربا . . وليس مثلى يصانع بالخداع . . فإن قبلت الذى عرضت عليك فلك ما اعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملأتها عليك خيلا ورجلا . . والسلام »

١٠

كان كالبادي المصحر ، أليف ظعن وترحال . أكل قدمه الرمل ، وهقق القيظ إهابه ، وتحلب العطش ريقه . . . لكنه سائر شوطه ، لقدر مقدور . فى النهار والليل ، تحت وقدة الشمس ، وفى قرة الظلمة — حتى فى كوابيس حلمه التى تطالعه كل لحظة إعياء تقسر رأسه على التهويم وجوارحه على الارتخاء . . . إنه لا يأمن التوقف . بحسبانه — لو فعل — أن حرارة الحياة فى أعضائه ستخمد ، وأن قبره سينشق عند منتهى أثر قدميه . الموت يرصده فى كل مكان فلا أمان بمكان . إعاسير ، ومعاودة سير، وسرى يسلم إلى سرى . فعناء وحياة خير من قرار وموت ! . .

ومن خيالات وهمه كانت النجاة تنبثق له ، كشعاع النور فى ليلة ضريرة ، كالنبع فى الصخر ، كالظل فى الفلاة الجرداء . . . فإن يكن سرابا فإنه أمل ، ومهرب من يومه وما احتوى من كروب ، ونظرة إلى غد باسم ذى ضياء ، ومسرب ذى زروع . . .

وكان لا يثق بالسراب ، ولا يؤمن ؛ ولكنه انطلق نحوه ، بلا فتور ، ففيه راحة إلى حين . راحة لنفسه الحائرة، وقلبه الخافق المقلقل. فمن ذا يدريه مايضمه أفقه عند التقاءة الأرض بالسماء : خيال ماء أم هو ماء ! . . وشبح دارة أم دارة ؟ . . والأمل دائما يسبق الرؤية . والرجاء شطاح ، بجناح وبغير جناح ! فلعله — إذا انخدع ساعة لوهمه — أن ينخدع بعدها وهمه ، فتبدو النجاة من قريب ! .

لكن الليالى حدثته غير شجوه ! . فالماء خيال ، والدارة طيف ، والرجاء هباء وقبض الريح . . . المغانى الخضر منعته جناها : ظلها تقلص ، ونبعها غاض، لا ثمرة ولا قطرة وإن ثقلت الغصون ، والتف الشجر ، وجرى الكوثر بفيضه على الأيام بجرى الشمس والقمر ! . . كلا فما انحرف النيل ، وأنى له أن يميل وصاحب أمره ومالك عنانه قائم دونه صلبا كقناة ؟ .

هو كالرمح — ذاك الرابض هناك فى مصر — قد يشدخ ولكنه لا يلوى ،

أو يكسر ولايعصر . ولقد ظن معاوية . إبان خياله وتعنيه أنه لابد يوما لاويه . فها هو اليوم ، وهاهو قيس ، كما لم يعهده ، ثابت ، شديد . عنيد . . . لكأنما الإغواء قوى عزمه ، والوعد وثق مراسه ، والوعيد زاده صلابة كالماء للحديدة المحماة .

« . . . العجب من اغترارك بى ، والطمع فى ! . .

أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك — طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله ورسوله وسيلة : طاغوت من طواغيت إبليس ؟ ! . . »

إنها إذن سراب خادع تلك اللمعة التى تبدت امينة ذات مساء من أماسى الخريف وقد بعث النظر إلى أفقه البعيد عند التقاءة سماء حلمه بجنة النيل . وضح عبث التمنى ، بغير جدوى انتظاره ، وتربصه ، ورفقه المموه المزعوم . . وكان يعلم من البدء أنه مخدوع عن الحقيقة ، كالبادى المصحر الذى ضل سبيله فلم يكفه المجير عن المسير . لكن هذا كان بالأمس ، اليوم أيضا ، اللحظة التى سلفت ورود هذا الكتاب العنيف . فإن يبق له الآن شىء من راحة البال فهو يأسه من غريمه ، واليأس على أية حال إحدى الراحات ! . .

والقلق أيضا قد عاده ، أشد وأمض . . فما نسى قط من بعد ، خلال حياته الطويلة — وحتى فى ثنايا انتصاره ، ذلك الوعيد الذى لطمه به قيس ، ورماه فى وجهه كقبضة تراب . كان خطرا يرصده ، سيفا مصلتا فوق رأسه قد عاق بمثل نسيج عنكبوت ! . فإن خشيه فقد خشى قبله اللحظة المجهولة التى ينقطع فيها خيطه الواهى فيقد رقبته أو يفلق هامته .

ويعاود مطالعة ذلك التهديد وهو مشغول :

« . تعلأ على مصر خيلا ورجلا ؟ .

والله ، إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد ! . . »

وإنه لذو جد ! طالعه سعيد ، وقدره الآن فى عينه وإن ركبه غريمه بالتهديد . فالآن قد انكشف الستر ، وبرح الخفاء ، ولم يعد ثمة مجال لطمع فيه ، وهل فى سراب جنى وظل ؟ فما وعد حتى أخلف ، كطبع اليهود !

وكتب لقيس :

« . . . إنك يهودى ابن يهودى ! . . إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك . . . »

غير أن غصته لم يطفئها التعريض . وغضبته لم يخمدها ذمه وتهديده . . وكان ثائراً كأعصار وخائفاً كعصفور فى براثن حدأة جارحة ، حائراً كوحش أطبقت عليه الشراك ، لكنه استقبل نفسه بوجه واستقبل قومه بآخر . فإن هو إلا الصباح حتى طوى همومه ، ولبس قناعاً كثيفاً على كربه الثقيل ، واغتصب بسمة الرضا والارتياح وهو يخطب الناس :

« . . . يا أهل الشام . . .

إن قيساً قد تابعكم ، فادعوا الله ولا تسبوه . . . لا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سراً . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا ، يجرى عليهم عطاياهم وأرزاقهم ، ويحسن إليهم ؟ . . »

وما يضيره إن كذب ، فتلك شيمة فيه ! . . فالكذب مركب هين يبلغه هدفه ، على نفسه أهون من صدق يقعده ، ويكبح طمعه ، ويتخلف به فى سباق الحياة للمجد . . . وما يكرثه الساعة من الناس حوله ولن يتبين أحدهم أنه مخاتل كذوب ، فأيما امرىء منهم جاءه النبأ من مصر بتخلف قيس عن معالجة الشام بالهجوم ومبادرة خربتا بالشدة ، حرى بأن يظن به أبعد الظنون . . .

بل أولئك الذين لم يدوروا فى فلك معاوية ، كانوا عدوا له عنيدين ، يتربصون به ، ويرصدونه كل مرصد ، ظنوا به كظن أولياء الماهل المخاتل ، وتبدت أمامهم — لجزعهم — قدما قيس على هاوية . . . ليس فحسب عامة الناس بالحاضرة الجديدة ظنوا به ظن السوء ، بل الخاصة فيها ، الخيرة ، الصفوة الخالصة من رجال الإمام الأمناء الذين يؤلفون من أعوانه طليعة الصفوف . . .

وجاءت منهم الإمام طائفة ، تدفعها الريبة ، فحدثته فى الأمر وإنه ليوشك حينذاك على الخروج للنخيلة بأجناده ليتشرع منها لحرب الشام ، فلا يكاد يلقف من شكوكهم همسة خافتة حتى ينبرى يذود عن خدينه .

« والله ما أصدق بهذا على قيس ! »

فيبادره منهم ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ، لا يداجى ولا يمهل ، ملقيا بظنه وشوراه .

« يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . . »

أجل فثمة شبهة غير منكورة وإن غشاها على إيمانه الوطيد فى وفاء قيس . وليست بالأولى . لا ولا الثانية ، توالت النذر عليه جديدة بأن تزلزل يقينه كلما حملت له عيونه المبثوثه هنالك بالشمال ، مع كل إشراقة ، وفى كل إمساء ، خلال هذه الفترة الأخيرة من الكفاح ، أنباء وفاق سرى تهامس الناس بانعقاده بين رجله وبين صاحب الشام ، فلو صدقته فصحبه الذين يحاورونه الآن قد صدقوه أيضا النصيحة . .

ويفكر وإنه لنهب بين يقينه وبين الظنون . ويتدبر الخطوة اللازمة فى أناة وروية . . . لقد يسعه أن يجنح إلى قولة السوء ، ثم يخذل نصيره ، ثم يقطع الثقة الممدودة نحوه إلى غير رجعة وما هو إن فعل بالجائر . قد يسعه اللحظة أن يعده حربا وكان من قبل يعده أضالقة . قد يجيزه الحذر بعد الأمان أو يسمه كوسمه الغدرة ! . . ولكنه ليس بظنين — ذلك العامل الطوال الأجرد ليس عنده بمتهم ، بل ولى وفى شكور مشكور سما بنفسه عن الخيانة . وما هى إلا فرية صبها صنائع ابن هند فى أسماع العيون ، قد عقها لسان كذوب ، ونسج وشيها الخبيث قلب دءوب على الدسيسة ، فمضت بدونها وراء الحدود . . .

ويثنى عبد الله :

« اعزله يا أمير المؤمنين . فوالله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته — اعزله ! » .

ويعلو جرس نصحه إلى صيحة ، فضجة ، فثورة تهز قلبه وفرعه . فإذا رجعه فى الآذان دوى ، وفى الأذهان نذير ، يضطرب ويفور فيدفع هتافا تلمظته الشفاه كالزئير :

« اعزله يا أمير المؤمنين ! . . »

غير أن الإمام ينطلق عنهم بعينه إلى بعيد . . . إلى غبرة فى الأفق تعلو أمامه كالسحابة ، وتطير صوبه كالدخان . وإلى ضجة تخرج من الغيمة الزاحفة ، فى بدئها خافتة كخطوة النسمة ، ثم تدنو فتعلو . ثم تبدو نواتها وتتسق خطواتها حتى تميل نحوها العيون الرقيبة . . .

وعندما ينجلي الغبار ، ويترجل الفارس ، وتأخذه الأبصار . يصمت القوم من توجس ، وتحتبس صيحاتهم المتمردة وراء الأفواه . فعلى الرجل وعثاء راحل أبلى السرى وأعيي الرواحل . في عينيه سهوم حائر ، وفي وجهه وجمة محاذر ...

وفي سكون ثقيل مريب ، يميل على أذن على يسر إسراره ، كأنما لسانه قلم يرسم في صماخها حديثه . . . فإذا فرغ ، دفع إليه بكتاب في رقعة ، وتمهل على أهبة ينتظر . . .

فلولا أن أودع الإمام وجهه الكتاب ، يكتب على سطوره ببصره وخاطره ، لبدت لهم خلجات نفسه بلا حجاب عميقة الأثر في جبينه . لكنه لا يبيحهم مشاعره . ويمضي معاودا يتلو من الصحيفة كلاما ، يناظريه دون ثغره ، له في فؤاده مثل وخز الرماح :

« للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد :

سلام عليك . . .

أما بعد . . . إني لما نظرت لنفسي وديني ، لم أر يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما . برا تقيا . فنستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .

ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى مظلوما . . . فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال .

والسلام . . . »

ويعاود أيضا . يتلو بعينه ولا يعقب . . . إنهم حوله كبنيان عليه مراقب من عيونهم تربصت بأفكاره . كأسوار قلعة . . . كطوق النجاة . . . لكنه لا يبدي لهم إلا عينا جوفاء تحيد سريعا عن نظراتهم اللاحة المخالسة لتبدو بنجوة كالحصاة الصلدة إذ يطلها ندى الصباح ! . . إنما شغلته صورة تشعبت خطوطها من سطور الكتاب ، ثم تقاربت ، ثم تجمعت في أضواء وظلال رسمت الحياة الدنيا فتنة تستذل الرجال ، بما هوى ختال ، وعابد ضال ! . . أفكذلك يريق الحاضر من سوآته ظلمة تكفن في سوادها الغابر المجيد ، وسيرة كانت أمس كالشمس وضاءة ، ونفسا منيعة على الغواية منعة أحد على عواصف الريح ؟ .

أما الجمع فقد نقلتهم الرقعة التي مدها إليهم الإمام ، من حدسهم وحيرتهم ،

إلى مثل نوء عنيف من العواطف ، يضطرب بهم ، ويدوم ، ويدور . فى وجوههم دكنة الحزن ، وشحوب الأسف ، وحمرة الثورة . فما هذا بقيس الذى عرفوه . ليس هكذا تستطيع أن تجمع الأخيلة فتخلط الخبيث بالطيب ، وتجمع النقيض للنقيض . أسيد الخزرج ، علم الإسلام ، ابن النقيب سعد بن عبادة الذى احتضن الدعوة وإنها لطفل هزيل مهيض ، والدعاة وإنهم لحفنة يتخطفهم الخوف ، هو الذى يخط مثل هذا الوفاق ؟ . . لقد يوشكون أن يحسبوه تمهل ، أو قعد ، أو أهمل ، ولكن ظنهم ، قبل يومهم هذا ، ما كان قط مستطيعا أن يقرنه وخيانة . . .

كلهم غاضب ، وكلهم أسيف . على ملامحهم مثل غبرة . وفى حلوقهم شجى ، وفى عيونهم وميض نار ... حتى الحسن الذى تشرق من جبينه سجاحة الطباع ، وترف الطيبة والسماحة فى محياه . . . وحتى الحسين الذى كان ذكرى حية لجده رسول الله تعيش فيها قسماته . . . وعمار أيضا الآدم الرقيق الذى لم يترك تقدم العمر فيه بقية لوجدة . . .

كان لحنهم : « اعزله ! » . . وصوتهم « اعزله ! » . . وأنفاسهم المتذائبة بين الصدور والمناشق : « اعزله ! » . ثورة وحنق . صخب وغضب . عواء وزئير . لتهتز الأرض من هتافهم ميادة كمن زفير بجوفها انشق عنه قلب بركان !

اعزله ؟ . . بل لو كان حضرهم معاوية لهتف مثلهم : « اعزله ! . . » فإنها هدفه . سعيه وقصاراه . . . إنه ليبدو الآن للإمام ، تحت شعاع البصيرة الكاشفة ، بقصره هناك ، كشيطان راح ينفث فى روعهم من بعيد أحرف اللفظة المؤلبة . . . أم يدع قيساً وجنته ؟ . . أم يتركه شوكة تخزه ؟ . . أم يسلمه أطماعه العريضة ملهاة فى كفه يعبث بها ثم يحطمها حينما يشاء ؟ .

ورفع على يده إلى صحبه يكفهم عن اللغط ، فالأمر إن خفى عن إدراكهم إبان السخط ، إنه لشاخص تحت عين الروية ، عار بلا دثار ، ظاهر بلا ستار . . . وما هو قط فى قيس بمستريب . ولا بمنكر وفاء . ولا بعازله اليوم وإن تجيشت عليه مواجد رفاقه . ولقد ينثر الآن جعبة الفعال التى أنجزها بمصر عامله فيرى فيها تمهلا يبدو كتقاعد ، وأناة كتردد ، وسكوناً كغفلة . ولكنه مع ذلك لا ينبو بذلك العذر الذى ساقه إليه قيس عن التمهل والسكون والأناة :

« ... إن قبلى رجالا معتزلين قد سألونى أن أكف عنهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويروا رأيهم .. وقد رأيت أن أكف عنهم . ولا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل قلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم »

ولقد فعل ما كتب ، وأمن الخائف ، وأمهل المريب ، وكان بذلك هدفا سهلا لخصومه وأصدقائه على السواء . فلعله الآن أن يقطع صمته ، ويجمع حزمه ، وينفذ ما أبلغه إياه إمامه ساعة خروجه إلى قاعدته فيبدأ ضربته قبل أن يستطير شر أولئك المعتزلة بمصر ، ويقوى بهم حزب الشيطان .

وعندئذ بعث إليه الإمام :

« ... سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ! . »

ومع ذلك فقد أبى قيس ... أية خطة تلك سوغت له أن يدع عدوه وشأنهم ، وإن اليوم ، بل الساعة ، بل اللحظة تزيدهم جميعها منعة وعدة بعد إذ كانوا قلة ضعيفة تهاب اللقاء ؟ ... بذهنه فحسب ما أضمر ، فلم يطلع أبداً على تدبيره صباح ؟ .

١

حم القتال ! ... لا فرجة اليوم لطاعة ، أو موادعة ، أو وفاق ... العيون تلتهب . تزلزلت بفيحها الصدور . باتت العقول فى مشافر السيوف وفى رءوس الأسنة . وأينما تحرك البصر أو تربص السمع كان ضجيج ووسوسة ، وألوية وبنود ، وصليل وقعقعة فى كلا دمشق والكوفة — فى القصر والرحبة . ها هنا جموع تلتها جموع ، وزمر محشودة ، وصيحة للدم . وهنا نداء ودعوة ، ولفظة جهاد ، وحركة إعداد . والقلوب التى حلمت بالوحدة المرتجاة قشع حلمها تردد الضجيج ! ...

لكن قلبه كان قد أشرب الرحمة ، ونفسه صفاء ، وروحه تملأها اللوعة . فما كان أشقه من سفر على فؤاده تحفه من كلا جانبيه الجماجم ! . وما أبغضها محنة ، هذه الحرب ، تختبر فيها النيات ، يقتل الرجل فيها أخاه ، والوالد ولده ، والابن أباه ! ... أرض محراتها سيف ، وبذرها مهج ، وريها دم ، وطلعها المجتنى بعد هذا كله قبور وأحزان

ولم يكن — مع ذلك — ليقعده أسفه ، ولا الحسرة الحبيسة بقلبه توشك أن تسبق الزمن فتفيض كالدمع قبل أن تتبدى أمام أعين الحياة تلك الكوارث المرقوبة ... وهل كان بيده أن يغير الأنفس ؟ .. إنه كافح فى هذه الناحية كفاحه ، بمنطقه ، وسن قلمه ، حتى تهاوى لسانه وكل بنانه . ولكنه ، والوفود تترى عليه ، وصيحة الحرب تلوكها الحناجر ، أتبع محاولاته بأخرى جديدة لعلها أن تبقى على السلام

وكانت قدمه لم تسر بعد شوطها فى طريقه إلى النخيلة عندما جاءه الجواب . هذه المرة لم يحدث معاوية ، ولم يلتمس من لدنه الفصل أو الفىء للصواب . فبحسبه ما كتب له ، وما لو كان قد أتيح إسماعه الجلاميد لخرت صعقة تستجيب للهداية ! ... إنما كتب دونه لصاحبه ، مستقر سره ونجواه ، عمرو بن العاص :

« ... إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، وصاحبها مقهور فيها ، لم يصب منها شيئاً قط ، إلا فتحت له حرصا ، وأدخلت عليه مؤونة تزيده رغبة فيها . ولن

يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ! ... فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ... »

وأحبط عمرو أجره ! ... سخا بآخرته وبخل بدنياه . فثمرة فى عينه اليوم خير عنده من جنات وظلال ، وخمر وعيون ، وحور عين !

لم يجد جهده ، هذا الآخر ، على السلم مثل خردلة ، ولم يدع ثغرة للرجاء إلا فى ويل ، وحرب عجلية تسوق لدمار ، وفتنة حصادها خلاف وفرقة ، طويلة الأجل إلى أجيال ، فقد أبت نفس ابن العاص إلا أن تعيدها جزعة :

« الذى فيه صلاحنا ، وألفه ذات بيننا ، أن تنيب إلى الحق ، وأن تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى ... »

فكان بجوابه العجيب أشد غلوا من رفيقه ، وأبعد فى العنت والعناد . فتح باباً فى القضية لم يفتحه قبله سواه ...

وزم الإمام شفتيه فى عزم ، على غضبة ثائرة ، وهو يطوى الكتاب الذى نقل إليه صورة أخرى من صور الأثرة . ابن النابغة ووليه سيان ، مرئى ومرآة ! ... ولولا أنه على ، بخلقه على المناقص ، عف اللسان والفكر ، لجال تلك اللحظة بذهنه ما جال حينذاك بخواطر الناس ، فرد كلتاهم بنوة الشبيهين جميعا إلى أبى سفيان ! . .

بل قد عصمته أيضا سجاياه أن يبيح أصحابه الخوض فى أنساب أعدائه ، وإطلاق الألسن تتناولهم من أساليب الذم والمعابة بما قد يباح وإنه ليعلم أن حجر بن عدى ، وعمرو بن الحمق ، جهرا مرة بالبراءة واللعن من أهل الشام ، فلا يمهلهما أن يسايرا المواجد ، ويقول :

« كفا ! . . »

فيحاوره الرجلان :

« يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟ »

« بلى . »

« أو ليسوا مبطلين ؟ »

« بلى . »

« فلم منعتنا من شتمهم ؟ »

قال :

« كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . ولكن . . . لو قلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم . . . كان هذا أحب إلى وخيرا لكم . . . »

وتوالت عليه الوفود والزمر . كلهم قادم كأن لهجرة فى الله ، قد خلف أهله وراءه ابتغاء الجهاد . فما كان عمرو فى اعتقادهم بعاص ، ولا معاوية بمتمرد ، ولا من تابعهما على الغى بظنين . . . إنما قوم عدوا حق الله ، وأدبروا عن سبيله أن صدعوا الأمة بظلمهم فصدعوا الدين . وإنهم لينسون ربهم فى غمرة انكبابهم على الحياة فيدعهم فى العماية أدلة لإبليس ! . . يصف غاياتهم المضلة الضالة ، وحوافزهم الخاسرة ، عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، فيقول للإمام :

« لو كانوا الله يريدون ، أو لله يعملون ما خالفونا . لكن القوم إنما يقاتلون فرارا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم . . . »

ويقول عنهم المرقال : هاشم بن عتبة بن أبى وقاص :

« . . . نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل . . . »

وكان قدر آجالهم فى نظرة عمار :

« إن سفك دمائهم ، والجد فى جهادهم لقربة عند الله ! . . »

كذلك كان أصحاب على ، وكذلك صحت منهم العزائم عندما تشرعت فى أكفهم البواتر المصقولة ، وتهيأت لهم ضوامر المطى تهم جميعها أن تجوز بهم البادية من سواد العراق إلى غوطة الشام . وما كان سفرهم إلا كحجة غدت عليهم فريضة ، وشعيرة من شعائر دينهم مستحقة الأداء ! . . وليس بينهم سوى قارىء وناسك ، وعابد ، الليل والنهار فى التهجد لديهم سواء . الأرض لهم مسجد ، والزمن صلاة ، والعمر عارية ، والآخرة وحدها الحياة . . .

ونادى بينهم مناديه :

« أيها الناس . اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة . . .

قضوا إليها على الظهر والقدم . إن يكن لخطوهم حسيس على الثرى الندى ، وفى برودهم حفيف ، وفى سلاحهم رنين ، ففى حلوقهم دعاء وذكر وتسبيح لها فى الفضاء الفسيح جلجلة . . . نهر من الرجال دافق ، منبعه الكوفة ، ومجراه ذلك الطريق المنساب بحذاء الفرات نحو البلدة الصغيرة انسياب ثعبان ، ومن دون ذلك له روافد وجداول من مجيشة البصرة وأصبهان والمدائن وغيرها من بلاد أقبلت تغذى ذلك النهر المتلاطم الطويل ! . .

وأصبحت النخيلة وهى محشر لكل صاحب جبهة سوداء ، يبس جبينه من كثرة السجود ، وأصبح معاوية وإنه لعلى جزع يأتيه نبأ هذه الحركات منجما ، ساعة ساعة ، كأنه حلق سلسلة . فلا يكاد يتبين فيه الجد الأجهم ، والنهاية المخوفة المقدرة ، حتى يفزع إلى رجال إقليمه :

« يا أهل الشام ! . . قد كنتم تكذبونى فى على ، وقد استبان لكم أمره . والله ما قتل خليفتكم غيره ! . . أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . . . »

أما الحق ، فالإمام لم يرحل إلا وقد تعاقبت زمر الناس على معسكره ، من حواضر ملكه وبواديه، على وفودهم أعلام من رجالهم لهم بلاء ، فى سيوفهم ردى وفى قلوبهم أمن ، وفى حلوقهم شهادة ! . . فالحرب قد دوى بها النفير ، والجهاد نشر راياته ، والجنة قريب . . . وما فى البلاد رجل مست روحه نفحة إيمان إلا تشرع لها بإيمانه ، وتهيأ بصبره ، وتعجل من خلال لفحها ونقعها ودمها سبيله إلى موعود ربه الذى وعده التقاة الأبرار . . .

وفى مسيرهم من الكوفة إلى النخيلة ، كانت خواطرهم ما تزال نشوانة بحديث الرجل الذى تألفتهم كرائم سجاياه ، وازدراؤه بدنياه ، وفناؤه — من يفاعه ، إلى شبابه ، إلى كهولته حتى يومه ذاك — فى الله :

« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته . . فانصبوا أنفسكم فى أداء حقه ، وتنجزوا موعوده . . . »

وعلى رنين السلاح ، ومطيهم تخب ، وأقدامهم تدرج بهم على الرمال ، راح يتردد كالصدى فى آذانهم مع الصليل ، قول الحسن الذى تزودوه قبل مخرجهم إلى النخيلة :

« . . . لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم . فاحتشدوا فى قتال عدوكم : معاوية وجنوده . ولا تخاذلوا ! . إن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة . . . »

وبين إيمانهم الذى تحلهم الثقة ، وعزيمتهم التى وهبتهم الإقدام ، ظلت صيحة الحسين تقرع سمعهم كالنذير ، لتجنبهم مهاوى الغرور والهلكة .

« . . ألا وإن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهى جرع متحساة فمن أخذ لها أهبتها ، واستعد لها عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ، فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . . . »

وقد أعدوا ، ولم يشدوا إليها رحالهم بغير زاد ! . . عديد وعتاد ، وعزيمة واعتداد ، بين يدى حنكة ويقظة ، ولئن قاربوا حلبة الصراع وإن عدوهم حينذاك ضعفان ، فكذلك دائماً أصحاب الدنيا أوفر نفراً ممن نذروا حياتهم للشهادة ، وآثروا ما عند الله . . .

وتواثبت بهم خواطرهم ، وظفر الخيال قبل الخيل ، وسبقت العقول العقائل إلى ساعة فى الزمن تطلع النصر فى تاريخهم شمساً قانية ذات دفء ، بعد زمهرير هذا الشتاء ، حرها كفاح ، وأشعتها دم . . أما الآن فهم على أهبة ، ينتظرون منه أمره لينطلقوا . فى أثناء الفرات ، أو محاذاة دجلة ، أو مع البادية الجرداء التى يضمها الرافدان وهى كبعير السقاية يحمل الماء وهو ظمآن . . إنهم لن يعنوا كأطيار ضالة وإن ودت جموعهم لو كانت من ذوات الجناح ، ولن يقطعوا الشقة كوحش الفلاة تتخبطه الوهاد والروابى وإن ماثلوا الوحش فى الظفر والناب . . . إنهم من هدفهم على بينة ، ومن خطوهم الوشيك كهذا النهر الذى ينطلق فلا يجاوز مجراه ... وها قد مضت قبلهم طلائع ، ترود الطريق ، إلى حيث وجار الثعلب الختال فى الشمال ، غدت لهم كشعل لسوف يسيرون فى ضيائه . . .

ثم حانت لهم لحظتهم المرقوبة ، عندما وقف منهم الإمام يأمر جحافلهم المكتلة بالتقدم وهو يرنو بعينه صوب ماء الفرات :

« . . . إنى بعثت مقدماتى ، وأمرتهم بلزوم هـــذا اللطاط حتى يأتيهم أمرى . . . . »

ورد طرفه إلى بعيد ، نحو دجلة الذى لا تلمحه من مقامه فى معسكرهم الأبصار وإن يسر أن تراه عين التصور ، وأتم يقول :

« . . . وقد أردت أن أقطع هذه النقطة إلى شرذمة منـكم موطنين بأكناف دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله . وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصارى ، ولم آلـكم ولا نفسى . . فإياكم والتخلف والتربص ، فإنى قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعى ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا إن شاء الله » .

فتهاتفت كتائبهم بتهليل ، وخفقت الرايات ، وغمر النفوس غامر الشوق للجهاد ، والرضا بالمسير ، والفرحة بالمصير الذى دنا وإن كان رحلة بلا معاد ، وهجرة آمدة تنحهم القبر وتسلبهم العمر . كلهم قرير أما مالك بن حبيب فمحزون . وإنه ليأخذ بعنان دابة الإمام فيلويه بين أصابعه فى اضطراب ولهفة . ويغضى بعينه فيأبى دمعه أن ينطبق جفناه . قلبه يضطرم ، وثغره يختلج ، وكيانه يهتز عثل رجعة محموم . ولـكنه يغلب أساه ، ويقول هامسا بصوت كله ضراعة :

« يا أمير المؤمنين . . . أتخرج بالمسلمين ، فيصيبوا أجر الجهاد والقتال وتخلفنى فى حشر الرجال ! »

فيرق له القلب الـكبير ، وتربت كتفه اليد الحانية ، وتداوى حزنه النبرات الرحيمة :

« يا مالك . . . إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئا إلا كنت شريكهم فيه .
وأنت هاهنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم . . . »

وتحركت دابته فتحرك الناس .

ورجز حينذاك راجز :

« يا فرسى سيرى ، وأمى الشاما   وقطعى الحزون والأعــــلاما
ونابذى مــن خالف الإماما
إنى لأرجو إن لقينا العاما   جمع بنى أميـــة الطغاما
أن نقتل العاصى والهماما »

وعندما توالت الكتائب ، وأدبرت عن الديار ، شاعت البسمة فى ملامح نفير ثلاثة ، علاً منهم العيون والثغور . فلقد خرجوا الآن مخرجهم هذا عن بلادهم وهم أعزة ، طوعا لا كرها ، لبلاء لا بإجلاء . . .

وأولئك فريق ممن كان قد نفاهم عثمان ، وأخرجهم من ديارهم بالكوفة إذ عاتبوه فى عامله عليهم سعيد بن العاص ، نبوا بصلفه ، فدفع بهم إلى ابن هند يسومهم من تجبره ، ويسقيهم الهوان . . .

وتلا منهم جندب بن زهير والرواحل تسير :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »

وهز فى يمينه قناته وإن عينه لتومض بعزمه وغضبته وهى تتجه كالشهاب إلى ناحية الشام . . .

وهتف صاحباه :

« صدق الله العظيم » .

ثم تبعاه . . .

٢

مضت إلى وجهها مقدماته : اثنا عشر ألفاً مكتبة ، كأنها السيل وهى تلزم الفرات فى زحفها السريع الثابت ، مغربة بثقلها إلى الشمال ، نحو غاية لها مرومة لن ينالها اليوم إلا السلاح . . . كل راكب فيها وراجل يعرف قصده ، ويعى واجبه ، ويسير على جادة من أوامر مولاه كالصراط . جمعهم خرج فى الله ، ينصر حقه ، ولا يلتوى قيد شعرة عن الشرعة القويمة . الكفاح الذى يطلبونه ليس وسيلة لدولة ، بل جهادا فى دين . والأطراف والجماجم المتحفزة للتناثر إن هى إلا دعائم فى بناء « الإمامة » نذروها اختيارا ، لا لبنات تقيم معقل « الإمام » . . . فإنما الله يريدون .

السلطان الزمنى لم يكن لهم فتنة ، ولا هدفا يرمقونه أثناء زحفهم بالقلوب

المشوقة والعيون النفاذة إلى مستقره البعيد كالشعاع . ولا جنة يفيئون إلى جناها الشهى وظلها المديد بعد كد الصراع . . لا مرمى ، ولا قصد من متاع هذه الحياة وعناصر الناس والجاه — بل الإسلام الغاية . . .

وكانت كل حركة محددة ، وكل خطوة مسددة الطريق مرسوم . والخطة مرسومة بما احتوت من دفاع ومن هجوم . بل شؤون الأجناد ساعة السير ، وإبان الرقبة والانتظار ، قد أعدت أوفى إعداد وأحكمت بأدق مقدار . . . بل مسيرة الجيش ، فرادى ومجموعة ، فيما يجتاز من بلاد ويلقى من ناس ، مقدورة كأنها صورة يحدها إطار ! . . لم يدع على أمرا إلا دبره ، ولا شيئا إلا أحاط به وأحصاه . لا هنة . لا شاردة ولا واردة وعندما انطلق قائداه : زياد وشريح ، على مقدماته بجانب الفرات ، سبقته إليهما نشرة منه ترسم الخطة المثلى لسياسة الزحف والرصد والاستطلاع .

« . . . إن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم . فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع فى كل جانب ، كى لا يغتركما عدو أو يكون لكم كمين . . .

لا تسيرن الكتائب إلا على تعبية . .

فليكن معسكركم فى قبل الأشراف ، أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار كى ما يكون ذلك لكم ردءا ، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين . . .

اجعلوا رقباءكم فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن . . .

حفوا عسكركم بالرماح والأترسة . ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم ، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم فى حصون . . .

احرسا عسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نوما حتى تصبحا إلا غرارا أو مضمضة . . .

وليكن عندى كل يوم خبركما ورسول من قبلكما . . . »

وكان نهجه فى سياسة جنده التسوية ، وبر الكبير بصغيره ، عليهم له واجب الطاعة . ولهم منه حق الوفاء :

« . . . إن الله جعلكم فى الحق جميعا سواء ، أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، وبمنزلة الولد من الوالد الذى لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة ؛ ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم . وإن حقكم أيضا لكم ، والتعديل بينكم ، والكف عن فيئكم . فإذا فعل ذلك معكم ، وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق . . . ونصرته على سيرته ، والدفع عن سلطان الله . فإنكم وزعة الله فى الأرض . . »

وحذر أمراء جيشه أن تبيحهم ضرورة الحرب ما لا تبيحه قوامة الخلق وشرعة السجايا الكريمة إبان السلم والطمأنينة ، من السلب أو العدوان :

« . . أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش ، إلا من جوعة إلى شبعة ومن فقر إلى غنى ، أو عمى إلى هدى فإن ذلك عليهم . . فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى بها الله . . .

لا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم . . .

مضت هكذ أوامره ترسم السيرة ، وتنظم الصلة بين كل قائد وفرقته ، وكل جندى وزميله . وكل جيشه وغيره من رعاياه ممن سيخرق الجند عليهم بلادهم وأراضيهم . فأما أمره للمقدمة فالسير والفرات صوب الشمال ، عيونا وطليعة ، لا تعجل بقتال إلا أن تحمل عليه ، ولا تنتهج خطة إلا أن يزودها ببيان ، وهى فيما بين هذه وذاك تكون ملتزمة جانب الحذر واليقظة والاتئاد . . .

أما القوة الرئيسية فقد استأخر بها بعض زمان لا يبرح مقامها ولا تبرح حتى تكاملت له القبائل واجتمعت المقاتلة ممن حشد عماله وولاته من الأقاليم . ولم يطل بعد هذا إعداد . فتكتب الناس ، وانتظمت الأخماس . ثم عقد الألوية ونادى مناديه بالرحيل . . .

حينذاك كان العام فى ربعه الأخير . وكان الشتاء يلفظ من أنفاسه بقية كالندماء إن تكن توحى بمقدم الربيع ، فقد خلفت السكون بعدها مثلوج النسمة ، والورق النابت مبكرا على غصونه يرتجف بمثل اختلاجة مقرور . . .

وكان النهار فى إبان مولده باسم الطلعة أبلج الجبين . والشمس المطلة من سماء صفا أديمها صفاء مرآة ؛ قد أسفرت عن وجهها المتألق الصبوح ، وانسدل شعاعها على جوانب الأفق كشعر غانية : خيوطا دقيقة من نحاس كلون اللهيب ، رقاقة رقيقة ، ليس فيها وقدة من حرارة النار وفيها رحمة من رخاوة النور ! . .

الأربعاء اليوم . وشوال الشهر . والزمان مستهل الربيع . . . النخيلة تعج عجيجها بمن حملت ، ومنافذ الكوفة ، والدروب الطويلة المؤدية إلى الفضاء الفسيح الذى انساب فى أديمه الناعم القرات انسياب ثعبان . . . للنجائب رغاء ، وللخيل صهيل ، وللأسنة صليل . والصدور التى تتوق للقاء شهيقها دعاء وزفيرها تكبير ! . . .

الإمام قائم على رأس قواته ، يشق أمامها الطريق فى وقار وتؤدة . لا يعضل بالناس فى سير ، ولا يؤودهم حين اعتلاء شرف أو اجتياز غور .. بقلبه طمأنينة ، بعينه دعة ، على ملامح وجهه سلام . يحسبه الرائى — وهذه حاله — أخا سفرة إلى مراح آمن وادع وليس بنازح إلى غمرة تعفها المصارع . . .

ما ادرع ، ولا اكتسى الزرد والحديد . كل ما عليه ثوب مرقوع ، قصير إلى ركبتيه ، إن يكن ستره فليس بكاف أن يقيه عادية البرد فى ساعات البكرة أو ليالى البوادى المثلوجة . . . لا ملحفة إلا هذا القميص من الصوف والجلد والليف ، ولا درع إلا شعر صدره الكثيف ، يطل من ثقوب ثوبه كأنه الشوك !.

وكانت عينه طوال الطريق وانية ، أدنى إلى الوسن منها إلى الانتباه ، كأنما يؤثر النظر بالبصيرة ، فلروحه اليقظان طرف لماح يرى المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب .

وكانت رحلة تنشد الدم . ولكن الحرب لم تستغرق كل همه ، وفكرة الموت الجائمة من ورائها لم تشغله عن مقومات الحياة . . . فى الطريق دائما عظة لمن ألقى السمع وأدار البصر أينما مضت قدم . وفى العظة تقويم خلق ، وإصلاح معاش . وما هو بالذى تجمد خواطره وإن أحاطت به عدة الحرب كالسياج . . .

لم تلهه الحومة المقبلة عن دوره الذى احتذاه عمره من تثقيف الأنفس ، وتهذيب الطباع ، وتأديب الناس بأدب الشريعة الهادية ليعملوا بعده مشاعل النور . . .

وإنه ليضع رجله فى الركاب قبل المسير فلا يكاد يستوى على ظهر دابته حتى يذكر ربه : « باسم الله » ... ثم يرفع وجهه يناجيه : « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . . . » ويمضى ، فيتبعه الجيش كله على يقين . . .

... وينزل منزلا بجمعه الحاشد فيتقدم يصلى ركعتين . فالأرض كلها مسجد ، والصلاة قربان . حتى إذا فرغ قام فقال ، ليعلم الجاهل ، ويبصر الغافل :

« أيها الناس . . . من كان مشيما أو مقيما فليتم الصلاة فإنا قوم على سفر . ومن صحبنا فلا يصم المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان . . . »

ويمر فى سيره بآثار كسرى ، فيسمع صاحبا له يتمثل :

« جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد »

فينهـــاه :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

ثم يستقبل بعد هذه التلاوة الجمع بالتحذير :

« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية ... » .

... ويلقاه بعض الدهاقين قد أتوه بدواب وطعام هدية له ولرجاله ، فيأبى ويقول :

« أما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بثمن ... »

عندئذ يحاولون أن يحملوه بكياسة على القبول :

« يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ... »

فيضحك وقد فهم حيلتهم :

« إذن لا تقومونه قيمته ! . نحن نكتفى بما دونه »

فإذا ألحوا عليه عبس وقال :

« ويحكم ! . . نحن أغنى منكم . . »

ويتركهم وهديتهم الفخمة على الطريق . .

* * *

ويمضي .

المطايا تخب والركب يسير . . .

دورة اليوم تنطلق بساعاته إلى حافة الأصيل . . .

الرايات تعتنق ثم تفترق فى النسمة البليلة . . .

كل امرئ فى الحشد الزاخر ذلك النهار بأمره مشغول : برحله ، بدابته ، بسلاحه ، بالشقة الطويلة التى ما يفى الأفق يطلع عليه من مراحلها طولا من وراء طول . . .

وهو أمامهم يقظان كغافل إلا حينما تند منه خاطرة فى شأن دنيا أو شأن دين . متوثب كخامل إلا على الظهر تحتـــه الذى لا يحس ثقله وإن حسبه القوم كلا على الراحلة . .

وعند ثنية فى الطريق يعتلئ جسمه البدين بالحياة فتنطلق الأعين إليه ترمقه، من كل جانب بعيد وقريب ، وقد شهدته يثب إلى بقعة من الأرض يرنو إليها بنظرة واجمة . . .

وتلقف الآذان صوته الهامس الحزين :

« ها هنا ، ها هنا ! . .

ها هنا موضع رحالهم ، ومناخ ركابهم . . .

ها هنا مهراق دمائهم . . . »

فتأخذ الناس من حديثه رجفة ، ويسألون فى توجس وإشفاق :

« وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ . . »

ويتمهل بهم ، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين ، توقف نظرها على محياه فى رنوة حانية ، ندية غائمة ، وهتف يجيب :

« ثقل لآل محمد ينزل ها هنا . فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم . . . ويل لهم : منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار . . . »

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته . .

إن لروحه لطرفا لماحا ، يرى المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب . . .

فتلك البقعة « كربلاء » الشقية ! . .

٣

منها إلى المغانى الخضر بين النهرين ، سوداء التربة ، زهراء الماضى ، التى سمت قبل بأمجادها إلى مدار الشموس ... من كربلاء الحزينة مشى على الماء ، مخلفا وراء ظهره بقية من قلبه الأسيف الأسيان ، رفت يومه كاليمامة على الثرى المغبر ، ثم مضت دمعة تندبه ، ثم غدت مع الليالى السود التى تكشفت عنها بعد عهده الأحداث جدولا من الدم جرى سلساله من فؤاد الحسين الشهيد ! . .

فلتمل به عينه الآن عن مصارع بنيه ، ومحنة حازبة يدخرها القدر ، وغدر فاجع يعده العتاة لعترة الرسول . فإنما الغد القابل رهين بساعاته ، والغل القاتل خبىء فى غلالاته لا تدركه اللحظة فراسة العيون . . وإن عينه الندية ليخفيها جفناه ، وإن قلبه العانى لتمسكه يمينه أن يترنح بين جنبيه أو يميد ، وإن الرعدة من محبة وإشفاق لتمشى فى أوصاله فإذا هو فى هنيهة قد نفضها فثبت كيانه كالبنيان فى الله ما يلاقيه . وفى الله أيضا محنة بنيه ، ونكبات قاصمة تحيق بذراريه ، فالدعاة أبدا هدف الطغيان . . .

وخطت به الدابة تخوض يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل ، فرقة وراء فرقة ، وقبيلا فى إثر قبيل . قرابة خمسين ألف تأثروا خطاه فى مسيره ، يسلمهم الفرات إلى دجلة ، ويدوى وقع أقدامهم على الأرض السوداء النضرة دوى الطبل . ولم تكن بابل برقعة مجهولة المسالك على الكثيرين ممن يطأون ظهرها الآن ، ففيهم ثلة من الألى فتحوها ونشروا فى ربوعها دعوة الإسلام ، ولكنه لم ينخ فيها الدواب ، ولم يتمهل بالركب . لقد كان حسبه أن يمر عليها كالطيف ، ويدعها ورقعة منها كانت يوما ملاذ الشيطان . . .

وقال حينذاك لمن استنبأه هذه العجلة :

« إن ببابل أرضا خسف بها ، فحرك دابتـــك لعلنا أن نصلى العصر خارجا منها . . . »

كانت الشمس خمرية الشعاع ، ذرت ضوءها على الأفق كأنه حبات التبر تلتمع فى الأصيل وهاجة . وكانت أنفاس الشتاء رطيبة رتيبة ، تتردد على مهل فلا خفقة للنسيم هوجاء ، ولا نفحة صقيع ، ولا سحابة تنشر الظلال قاتمة اللون فوق المروج . . . الطبيعة رائقة ، والسكون هادئ تلفه السكينة كأنما ألقى السمع بعد الخطا التى تواتر جرسها المنتظم على الثرى الناعم . والشمس كذلك بدت وانية ، كأنما ثقلت حركة فى مجراها وهى تنساب للغروب . وقطر الذهب فى وشاحها الوضىء راحت تصبغه الحمرة رويدا رويدا ، بيد خافية ، خطا قانيا وراء خط ، وطيفا داميا بعد طيف . ثم احتضنها الشفق . ثم حفها الغسق . ثم آن حين وسنها فالتحفت المساء . . .

وأصبح اليوم وهم بساباط تتبدى لهم فى مجال النظرة بشاطئ دجلة البعيد قصبة كسرى ، التى تمثل فيها عمر دولة عتت زمانا على الناس ، واستذل عواهلها زهو دنياهم فحسبوا لأنفسهم الخلود . . . بدت للدانى من وراء ، بين الزروع على التربة العنبرية تأتلق فى الضياء الذى يسكبه المشرق . وكان قصرها الأبيض الكبير ، وإن عدت عليه العوادى ، لا يزال يلتمع كالغرة فى جبين الصبح الأدهم ساعة البكور . . . إنه البقية من عزة قديمة . وهى معه كذكرى حلم نسخته اليقظة . وشطرها الدانى من كتائب الإمام إذ تغادر إليه ساباط حلقة من سلسلة النصر التى طرقتها سواعد قوم ضعفة ، على الفطرة ، كادوا لولا نفحة سماوية أن يسيروا فى ركاب البشرية هملا ضائعا بغير تاريخ ! . .

غير أن الإسلام بدلهم بحالهم حالا ، فأورثهم الأرض ، ومنحهم العزة ، وملكهم بعد ضعف مصاير الشعوب . وهذه الطائفة التى انطلقت تزحف الآن إلى الأمام ، صفوة منهم على بصيرة ، النور ينبثق من حيث تسير . إنها لتملأ الأعين بما ورثت فتخشع وتمتلئ منها بالثناء القلوب ، لتوشك أن تخر ساجدة ، هذه اللحظة التى طالعتها خلالها أمجاد فارس القديمة ، تهجدا وحمدا لملهم الصبر ،

واهب النصر ، قاهر الطغاة . فلقد صدقها وعده ، فلا كسرى اليوم ، ولا عبدة نار ، ولا إدلال بقدرة لا يغلبها غالب طالما ثرثر بها فى هذه البلاد حزب الشيطان . . . ذهب الكل وبقى الله . وها هى الآن بهرسير ، الشطر الدانى من قصبة الأكاسرة على الشاطئ القريب للنهر ، قد غاب غابرها الصلف فى حاضرها الخاضع ، وغابت معه دولة عاتية ، وملك مرد كما تبدد مع العواصف دخان . .

ويتلفت هاشم بن عتبة بن أبى وقاص إلى البلدة الخافضة الجناح بعد إدلال ، فينتبه خاطره ، ويلتمع ناظره ، وتهز نفسه المطمئنة الذكريات . . . على خده الآن دمعة ، ظهرها بكاء ، ولبها ثناء . وفى قلبه فرحة وإيمان ، وعلى أهدابه رنوة تتوثب ، فيها ثقة يحفها خشوع ، وفخر يخالطه شكر، ورضاء يزينه دعاء ... وعندما دنت معالم بهرسير والجيش يسير ، خفقت شفتاه تهمسان نفس الهمس الذى ردده بنفس الوطن منذ أعوام :

« . . . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . »

بلى أقسموا أمسهم ليخلدن — أولئك الأكاسرة وكتائبهم المغرورة بوران — ثم صبحهم العذاب . وكأن ملكهم حلم ليلة نسخته اليقظة . وكأن عزهم ظل أمسية ذاب فى النور . وكأن عرشهم بيت عنكبوت ! . . هم الآن ذكرى للخواطر المستعيدة ، وعبرة للعقول الرشيدة ، والعيون الشواخص الشهيدة ، وكم يجند الإمام اليوم من راشد وشاهد ومستعيد . وكم من بينهم له على هذه الربوع دم ، وتحت ثراها الصامت شهيد . . كلما تحركت به راحلة ، أو مشت قدم ، ثار من وقعها مشهد من ذلك النصر الزاهر الذى احتازه سعد منذ سنين ولم تغير الليالى نضاره . كرة الزمن لا تبليه ، وتواتر الفتوح فى أعقابه بين جناحى الشمس لم يطو عنهم لواءه الرفيع ، فقد جثت له القادسية ، وتمزق رستم ، وفنيت بوران ، وظفرت الكتائب الإسلامية وهى نشاوى بريح الدماء تجتاح السهل والحزن ، الجامد والماء ، نحو القصر الأبيض وفى أقدامها اجتياح إعصار ! . .

والتوت أجياد . فهنا الآن مظلم ساباط . وهذه خلفه المدائن مطلة على النهر كالشرف العالى تزاحمت عليها أطياف الشفق . وبهرسير بينهما على الضفة الدانية لدجلة كأنها درع تمنطقت به حاضرة فارس — ذاك منذ أعوام ! . . أما الآن فالماضى يثور من وقع الخطا الرتيبة . الغبار لوحة الغابر ، الوقائع البائدة تترى خلاله للعقول الذواكر،الأعين الراصدة يلتقى لمحها ولمح التصور على الأمس واليوم فى مكان. ها هنا اللقاء. فى ذات البقعة. بأرض المظلم اجتمعت الذكرى إلى العيان .

وعندما التقت العيون بمحيا هاشم تحييه كانت الأذهان قد استعيت ساعة من سويعات ماضيه . هو إن وسعه لأغلق على الذكرى التى يكبرونها واعيته من استحياء ، فلا من لديه ، ولا زهو ، ولا إدلال . لكن الذين حضروه حين الفتح — من جنود الإمام — يرونه اليوم بنفس مقامه حينذاك . النقع الذى يثور من أخفاف مطيته على ذات البقعة قد أعاد أمامهم صورته ، وسيرته ، على رأس حفنة صغيرة من الرجال ، بعثها سعد بن أبى وقاص طليعة له إلى بهرسير .. وكانت غبرة القتال ما تزال عالقة بالأردان ، والأبدان فترتها المشقة . والإعياء الزاحف على الأطراف والجوارح يتحول لوسن . وكانت أشعة الشمس واهنة ، يذيبها الغسق ، وينشر منها على المكان ظلالا عريضة . والفرقة الكليلة تتلمس المأمن لتنام .

لكن آهة محاذرة أبلغتهم جميعا شف التوجس . . ثم صيحة مخافة . . . ثم صرخة فزعة أطاحت من العيون خفق النعاس .

ودوى على الأثر زئير تجاوبته أركان الليل كأنه قصف صاعقة زمجرت فى الفضاء . فى رنينه ثورة ، وفى إرعاده هلاك .

كانت هدأة الطمأنينة هى وحدها ما يسيطر على قلب هاشم إبان الجزع الذى ملك رجاله ودفع بأفئدتهم إلى الحلوق ! . . ومن خلال العتمة التى نقطتها أضواء الأنجم ، مد عينه الثابتة إلى موئل الهدير ، تقتحم الوحش الذى أبطره عنفه وعنفوانه . . .

وتقدم الرجل على سكينة ، وأقبل الليث على اهتياج ، قد شحذ نابه ، ونفخ إهابه ، ونشر لبدته الكثة على جيده كأنه الشوك .

فإن هى إلا وثبة حتى بدا هاشم لأصحابه على باب قبره . . . احتوته أحضان الوحش كأنما غاص فى جلده . والتمعت الأنياب فى الليل . وانفغر الفم الهادر بزئيره . . . اعتنقا برهة كالدهر سكنت خلالها أنفاس الناس . فلما افترقا برق فى الظلمة الثقيلة وميض غدا الوحش بعده لقى على الأديم ، صبغه دمه ، هامد الحركة كالدمية إلا خوارا أطلقته الجراح ! . .

ومسح هاشم شفرة سلاحه ثم أودعه غمده . بغير زهو فعل . على استحياء كهذا الحياء الذى يجلل اليوم محياه ولمح العيون الشهيدة والخواطر المستعيدة يحييه ! . .

وكما همس من قبل ، يهمس اللحظة وهو يجوز مظلم ساباط صوب بهرسير ، فى هدوء وإيمان ، وعينه تدور بالمكان :

« . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . . »
ثم ينطلق خلف الإمام .

٤

كان مسيره والرافدين . مرة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك حتى بلغ مخنق الأرض بينهما فمال يسرة إلى الفرات ، تاركا دجلة ، مغربا نحو الأنبار ، فمصعدا من بعد فى الجزيرة إلى أقاصيها كأنما رام أن يتخذها مرقبا يطل من عليائه على سهل الشام.

العراق كله مراده . سواده الخصيب الذى حفه الماء عن يمين وعن شمال ، وباديته التى هى مهاد نهريه ، وأشرافه التى تحدرت منها الحياة فى روافده سيالة تحدر الدماء فى الشرايين . . لم يدع على فيه ركنا إلا نفضه ، ولا شعبا إلا اعتلاه ولا قاعا إلا انطلقت عيونه وطلائعه فى ثناياه . داس جنده السهول والوديان ، المحل واليانع ، والربا واليفاع . بجانب الفرات مشت مقدماته والضفة اليمنى ، على حافة البادية ، تذرع الرمل المنبسط نحو الغرب كالتيه ، وتشق سبيلها محاذرة إلى الشمال على هدى الماء . وفى جوار دجلة خرجت فرقة له من المدائن ، تعلو مع الأرض إلى مكان الموصل ، ثم تنثنى إلى نصيبين ، ثم تنكفئ فى حذاء نهير

الخابور مخترقة جبال سنجار وقد أوشكت أن تبلغ السور الضخم الذى تؤلفه الهضبة الأرمينية الذاهبة فى السماء . أما مجازه بجيشه الكبير فوسط الجزيرة ، مع انحرافه عن الشرق ، حتى الرقة الواقعة على مصب رافد للفرات ، والمطلة على حوض حلب حيث ينفتح منها الطريق لينا إلى وجار أعدائه .

وكانت الخطة أن تلتقى بهذه البلدة الجيوش الثلاثة : الأصل والمقدمات والطليعة ، وقد هبطت الشام من أعاليه فأمنت أن تجد عنتا أو تصادف مقاومة إلا متى وأينما اختار . فالمشرق الآن له : فارس وما وراءها إلى غاية ما بلغته أقدام جند الإسلام . والجنوب له : ما امتدت الصحارى الفسيحة إلى بحر الهند مجاوزة النفود ونجدا والحجاز . والشمال أيضا له ، حتى حدود أرض الصقالبة ، ولاياته موالية ، وحافته البعيدة هى الحائط الأرمينى العالى الذى تضرب قنته فى الفضاء إلى خطوط الجليد .

أينما خطا كانت قدمه ثابتة ، لها موقعها الأمين المعلوم فمجارى المياه ردء له ، والجبال فوقه ردء ، والصحارى إلى يساره ردء ، وقد جنب نفسه أن يخترقها من الكوفة ليبلغ بين قيظها ومحلها حاضرة الشام ، أما وكر خصمه فركن منبوذ ، من تحته رمال ، ومن فوقه تلال ، وعن يمينه عدة وأعداء ، وعن يساره اصطخاب الأنواء . فليس البحر إذن بواقيه إلا أن يتخذه مسربا للفرار . وليس الرمل إذن بعاصمه إلا أن يتسلل من خلال دروبه إلى فلسطين فتتلقفه على تخومها تماسيح النيل . ولئن كانت دولة الروم اليوم فى عهده ، مهادنة له ، قد مكنها عنه ذهبه وهداياه ، فإنها حين الوقعة حرية أن ترقب حركة الصراع شامتة ، لعل القدر أن يقذف بصاعقة تدك خصميها القريب والبعيد ! . .

لكن معاوية إن يكن آده انطلاق الكتائب الزاهدة إليه ، التى باعت الدنيا بكفن ، تروم أن تدق عليه أبوابه ، وتشق عن قلبه إهابه ، فقد راحت نفسه تتسرب فى الظلام ، تتلمس الهنة هنا والثغرة هناك فى صفوف الإمام عسى أن ينفذ من ثناياها بالدسيسة ! . . فما يعييه الكيد ، ولا إثارة الحسد وإشعال حريق البغضاء ما وسعه وما أمكنه مكره أن يفوز بفرقة مدمرة تقوض دعائم الوحدة التى يرتكز فوقها سلطان غريمه . وإن هى إلا ساعة جاءه فيها نبأ إقامة أمير المؤمنين

حسان بن مخدوج على رياسة ربيعة وكندة دون الأشعث بن قيس حتى نفخ حليف الظلام والمكيدة في شرر عصبية القبيلة الذى كان الإسلام قد وأده في رماد التسامح، ونفث في روع صاحب له من كندة كنفث الشيطان :

« اقذفوا إلى الأشعث شيئاً تهيجونه على علىّ . . »

ففعل شاعره .

فلولا أن الفتنة لم تكن نضجت على غصنها حينذاك ، وأن الزمن قد تلكأ قليلا في سيره لأغر الشعر ثمره المر ! . . فلم يكن الأشعث للإمام بالولى الأمين وإن تبعه كظله إلى قبره ... وإن خاض معه الدم ... وإن اكتسى فترة في العيون كسوة الفيصل يسير قدما بلا حيدة عن الحق أو تحرف ! . إنما كان امرأ أعجبته نفسه فرفعها للأبصار ، واقتحم بها الصفوف حتى غدا في المقدمة يدفعها إليها أصل ونخوة وكبرياء . ولولا أن فاضل بين الخصمين فرجح على ابن عم الرسول لكان آثر ابن هند ودنياه فلحق بركابه وتعلق بأسبابه . ولكنه تدبر فأيقن أنه هنا ذيل ، وأنه هناك ذيل ، فاختار أن يكون خير الذيول ! . .

لم يكن الرجل ، فيما رأيت ، وفيا بقلبه وجارحته ، بسره ونجواه على السواء وهو يتبع الإمام شبرا من الأرض بعد شبر إلى غاية سراه ، وحتى انقضاء حياته وانتهاء دنياه . . . على كان من بدء الأمر لا يكاد يأمنه ، ثم يغلبه فيه أمله على شكوكه ، ثم يرى من حاضره صحائف تحيي أمامه أخرى مشوبة من ماضيه فتوشك الريبة أن تملك على قلبه الكبير مسالك الرجاء فيه عندما انتهت إليه بيعة الناس بعد مصرع عثمان ، كتب له وهو إذ ذاك عامل على أذربيجان يدعوه للولاء والطاعة فكان من كتابه :

« . . . لولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس . ولعل أمرك يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله ... ... »

فما صح فيه من بعد أمله وإن صح حينذاك حدسه إذ أتاه منه الولاء . فلقد بايع وإن قدمه لعلى حافة المعصية والتمرد ثم لم يكن له قدر ذرة من الفضل حينما أطاع . . . إنما حثه على الطاعة خلصاؤه ، ودفعته كبرياؤه أن يلحق بعلى ليكبر في الأعين بشرف هذا اللحاق . . . يقول لأصحابه قبل أن يبايع وهو لا يكتم عن أحدهم نواياه :

« إن كتاب على قد أوحشنى . . وهو آخذى بمال أذربيجان — أنا لاحق بمعاوية ! . . »

وقد حق له أن يميل بفكره إلى هذا النهج فصاحب الشام ليس آخذه — إن اتبعه — بتبعة أو بمال . . !

لكن صحبه يعيرونه :

« الموت خير لك ! . . أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ »

فاستحيا . خجل أن يخون ثقة أناس أودعوها عنده أمانة وهو سيد لهم فيعيد ثانية إلى الحياة قصة خيانة سلفت أوشك الزمن أن يدفنها فى طواياه . . هو الآن شاخ . انفلت به الأجل إلى شفا المهوى . غفلت العيون والعقول عن كبيرة قارفها إبان شبابه فوضعته زمانا فى مهب الهوان . لكن الذاكرات جعبة تختزن كل هنة وموبقة ، فإن هزها فاضت بحديث ارتداده عن الإسلام غب موت الرسول ، رغبة منه عن الله ، وصدا عن دينه الحنيف إلى الملك والعرش والتاج ! . .

حينذاك والشباب مورق ، والمنى تسحر ، وأحلام النفوذ والجاه تتراقص فى خياله كتلك الظلال التى تنثرها شمعة تداعب نورها مع الريح ، كانت الجزيرة العربيه مهد فتنة ضالة مضلة ، أثارها الشيطان فعصفت بها عصف الإعصار وجدث محمد ما زال فى فراشه ، مسجى ، تندبه من الأفئدة جراح وصدوع ، ومن الأعين شئون ودموع . كانت دعوة إلى الغواية . استذلت القلوب المريضة والضمائر المدخولة المهيضة . فمنعت طائفة الزكاة . وتنبأ فريق كأنما الوحى همل مباح . وارتدت فئة كبيرة عن ضياء الإسلام إلى ظلمة الجهالة العمياء . . . وكان أبو بكر هو الربان الذى أمسك بدفة السفينة التى اعتورتها كل هذه الخروق فأوشكت بها أن تبلغ القاع . . .

فإن هى إلا أشهر قليلة حتى رتق الخليفة الشيخ ما انفتق ، وعبر سفينه العاصفة رافع الشراع ! . . لقد بعث فى فجاج البادية بموته ، كتائب مجندة عتادها الإيمان ، أقوى من الموت فلا تخشاه ، وأعتى من الطوفان فاجتاحت الصحارى تبل محلها بفيض العقيدة . فإذا الأرض سلام ، وإذا الكفر هباء ، وإذا الأنفس

صفاء . دان مانعو الزكاة . وتردى الأنبياء الكذبة . وبهتت الردة وانكمش ظل دعاتها وأوليائها إلا فلا هنا أو فلا هناك ضاقت به الفلاة الفسيحة فراح يستخفى ويحتجر كالهوام !.. وكان من هذه الفلول شرذمة من بنى وليعة فرت ببقية عمر من أسياف زياد بن لبيد ، قائد الصديق ، الذى ألقمهم الخوف والحتف ، وأشفى بهم على الفناء . أولئك استأخرت آجالهم ، وأمهلتهم المنايا فسحة من زمان شدوا خلالها مطاياهم إلى ديار كندة ، يستنصرون سيدها الأشعث ، ويحتمون فى رحابه ، ويستعدونه على حماة الإسلام .

ولم يردهم الأشعث ، ولم يمجب لهم عندما استعانوه فقلبه فى عشاء ! . . .

كان إيمانه كبعض أبراده ، إن شاء خلعه أو شاء وضعه ! . . فنسى العهد الذى اعتنقه ، والعهد لله أن يصونه أو يقضى دونه . إنه ليغضى العين عن لؤم وليعة فينسى شماتتها حين جاءها نبأ موت الرسول . وينسى كذلك كيف غنت بغاياها وخضبن البنان ، وقرعن القداح مترعة بالراح ، فرحا بوفاة الذى أعزهن دينه عن الفحش والفسوق . وينسى أيضاً سوى هذه وتلك آصرة صهر ربطته بمحمد إذ تزوج أخته قتيلة وإن اتقى ربه ولما تجمعه بها دار . . .

إنما ذكر الرجل الفتون ظمأ نفسه إلى المجد والسيادة فقال لمن استنصروه :

« لا أنصركم حتى تملكونى ! »

فملكوه . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ، ولو عدوا لرضوا مؤثرين أسياف زياد تتخطف نواصيهم فى حومة الجلاد . . . ولكنهم وضعوا حياتهم أمانة رخيصة فى كف من خان أمانة الله فكان لهم أخون ، وكانوا عليه أهون من حفنة من تراب ! . . .

ويستعز الرجل حينا بتاجه . ويتخبطه صلفه فيحشد الحشود تناوئ جند الإسلام . ويحلم زمنا بملك ممرد يأكل اليمن وحضرموت وعمان . ثم تصبحه بعد ذلك الهزيمة فيلجأ إلى النجير : حصن ضخم ، عساه يعصمه . لكن الموت ينصب عليه من خلفه ومن قدامه ، تصبه جنود المهاجر وزياد ، فليس له ولا لأعوانه كاشفة اليوم من قدر الله ، فإن بدت له بعد فرجة إلى نجاة فإنها الخيانة ! . .

ولا تلومه نفسه ، فبعده الطوفان ! . . وإن الليل ليشهده قد تدثر بظلمائه ، يخرج مخالسا كالخفاش إلى « عكرمة » أحد قادة الجيوش التى أتت تقاتل الردة لحصرت أهل الكفر من حصنهم فى وجار . فإذا لقيه ولقى المهاجر وزيادا باعهم نواصى رجاله ، وحرية النساء والأطفال ، ببقية عمره ! . .

قال لهم :

« أستأمنكم »

فسألوه :

« علام ؟ »

« أهلى ، ومالى ، وعشرة ممن أحب ، ثم أفتح لكم الباب . . »

وفتح الباب .

ووقع ملكه المزعوم كله طعمة فى يد جند الإيمان .

وجىء له بكتابه الذى ضمنوه الأمان للعشرة الذين اختار ، فما تبينه حتى أخذ قلبه يتسرب قطرات بين حبات الرمل ! . .

إنه فى ساعة حرصه على الحياة نسى أن يكتب لنفسه الحياة وكتبها بعهد أمانة لعشرة سواه . .

وهتف المهاجر ساخرا ، وقد فرغ جنده من حصد أهل النجير وهم ثمانمائة فارس وراجل صريع وقتيل :

« الحمد لله الذى خطأك نوءك ، ياعدو الله ! . »

فسجد يستجير ، والسيف يبرق على عنقه .

وعندئذ حدث عكرمة رفيقه المهاجر :

« ألا تؤخره ؟ . . أبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجل نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذاك يبطل ذاك . . . »

فأخذوه إلى المدينة ، مع بنى قومه وأسراهم من نساء وأطفال ، مصفدا بالحديد ، لا تكاد تلمحه عين امرأة منهم حتى تنحرف عن شؤمه أن دك بيتها وأخربه إذ أثابها الثكل والترمل ، ولا عين غلام غر دق عنقه عن حديدة الحسام ، فلم يصده الحمام ، إلا تأورت عليه من حقد إذ أثابه اليتم والذلة . فبسدره

هاض ملكه ، وعرف السيف طريقه إلى قومه ، وأذاق فلهم غصة الهوان ، وهان ! . . .

ويتردد فى أذنيه ، والأصداد ترن فى مماصمه ، والدرب أمامه للمدينة طويل ، ولولة الأيامى والثكالى والأيتام ، مختلطة بذلك النعت الذى ألصقوه به ناطقا بغدر :

« يا عرف النار ! . »

إنما الذاكرات جعبة ، تختزن الحسنات والسيئات فإن هزها اليوم فاضت بحديثه بعد أن كادت العقول تنساه ! .. فهل يجسر ؟ . . لكأنه ، هذه اللحظة وتحريض الشاعر يحرك منه مكامن الخيانة قد سد أذنه ، وكن قلبه المفتون بغطاء من الخجل والتحرز أن ينفلت ثانية إلى ماضيه . . وما هو بغرير ، وما هو إن أصغى إلى نظيم الوقيعة بآمن أن تتبعه كندة كما تبعته قبلها وليمة . فالخير إذن فى الخضوع لأمر على ، والسلامة فى الاستسلام . . .

ويقبل عليه حسان بن مخدوج ، وقد حزر حقده وغيرته يريد أن يخفف عنه :

« لك راية كندة ، ولى راية ربيعة . . . »

فتأخذه النخوة أن يتفضل عليه منافسه :

« معاذ الله ! .. ما كان لك فهو لى ، وما كان لى فهو لك ... »

لكن ابن مخدوج كان أعلم به فلم يرد فرقة تدب فى صفوف أعوان على . لإمرة على طائفة يتولاها هو أو يتولاها غيره . فإذا افترقا ، أخذ راية القيادة فلحق به فركزها له فى مقامه .. وعندئذ يسارع الأشعث إلى الإمام لينفى الشبهة عن نفسه :

« يا أمير المؤمنين . إن يكن أولها شرفا فإنه ليس آخرها بعار ... »

فيرمقه على هيبة ، ثم يرضيه :

« أنا أشركك فيه . »

وتخمد شعلة الوقيعة ، وتتوارى الخيانة إلى حين ...

٥

الأيام التى أعقبت المحنة النفسية التى عاناها الأشعث بعد رسالة الدسيسة ، شهدته وفيا غاليا فى وفائه . . . بدا كأنما الماضى الأسود الذى كتبه فى سجله غدره القديم لا ينى يطل عليه من خلال ساعات يومه ، وآناء ليله ، كمثل السوأة المكشوفة تؤذى الأبصار ولا تحتجب عنها بدثار ! . . فوفى نكير وفى ، وأخلص كأدنى ولى ، ومضى الزمان كله — حتى اللحظة التى غلبته نفسه فيها على احتراسه — يضرب بظفره ونابه ، ويثير من رهج البذل والشجاعة لغاية الإمام ما يشغل العيون عن زلته ، ويمسك الألسن أن تردد حين تلقاه : « يا عرف النار ! . . »

وقنع بدوره الذى أملى عليه : لبنة فى البناء الكبير المؤلفة منه أداة الدولة الإسلامية فى تلك الحقبة الصاخبة بالحوادث الجسام . إن يكن فاته أن يكون من عمدها فالعماد حينذاك الخليفة والكل عصبة وأوتاد . أو يكن فاته أن يجبل من مصيرها ما قد شاء فإنه الزمن الذى لم يسعفه ، والوعى العام كان فى انتباهه ، كإقعاءة الأسد عند الخطر ، قد تهيأ وتحفز فليس يؤتى من غرة ولا يغمز ! . . فما عدا الجمع الضارب الآن بالقدم والظهر إلى جار الروم أن يكون فرقا من كتائب الإيمان ، خرجت فى الله ، لتعز دينه ، وتنصر عهده ، وتنشر لواءه عاليا على صروح النفاق . وكأين من رجل اليوم هجر داره ، وسار مسيره ، قد التوت به الذكرى إلى الأمس ، عندما هاجر الرسول للمدينة من البلدة الحرام ، فرأى نفسه صديقا آخر يوشك كلما امتدت الخطا به فى الشعاب أن يتبدى له على مدى النظرة الكليلة « حراء » ! . .

على أنه مع ذلك لم يكن من العروص — هذا الأشعث الذى تلبدت رأسه بشعرها فأعلمته من بين الناس ! . . وكانت الأفكار فى ذهنه أيضا ملبدة ، والنبات فى فؤاده ، والآراء بين شفتيه . . . بل الأرض تحته غدت مشتبكة الدروب ، مختلفة المسالك كشرك الصياد ، فليس يدرى أيها مجازه . إنه لفى حيرة ، فالشدة أقسى ما تمتحن فيه الضمائر . وإن يكن مضى شوطه ، بعد وقيعة الشاعر ، إلى أرض الشام وهو يدخر لها من سلاحه وجلده ، فقد ادخر عاملها له من

دسائسه وهو على بينة بما يهدهد رياءه ، ويمسح على غروره ، ويلوى بعنانه إلى الغاية التى يروم . . .

ولكنه انطلق فى ركاب الإمام للأمام ، علما بين أعلامه إذ ولاه ميمنة أهل العراق . الآن هو شىء فى أعين قومه ، وفى جسد الجيش ، وحيال النظرة الزارية حين تود اقتحامه يمز دونها على الاقتحام . . . حتى أن تهدأ نفسه ، وأن يسكن جأشه ، وأن يطيب خاطره ، وعندما تأزف الآزفة سيرين ربيعة ، وكندة واليمن جميعا أنه فى حسابهم ذو خطر ، لا يلقن دوره كما يلقن سواه ، ويسعه وحده أن يخط مصيره بيمناه !

* * *

والجيش بعد هذا يسير . والزمن أيضا يسير فتلبس الأنجم الصفا ، ويرف النسيم بالدفء وتزهر الأرض كالرياض . فقد أقلع الشتاء بصقيعه ، وخفقت فى الجو أنفاس الربيع تبعث اليقظة فى الأوصال المقرورة . مضى شوال . وأقبل القعدة ثم خطا إلى حدوده . ووافى الحجة فى النفوس حنين بعقدمه إلى الكعبة الحرام ، وبالقلوب إلى مثوى الرسول وله وغرام . لكنهم إلى اللقاء أشوق — أولئك الكتائب الزاحفة من جند على تروم بزحفها جيرة الروم !.. كلهم يتعجل الزمن إلى ساعة الجلاد ، وإن أتت بحينه ، ليسل سيفه ويجلو سنه على الرقاب . فما الموت بزلزل يقينه ، ولا هو راده عن الغاية وإنه لغاية تهون أمامها كل الغايات ! . .

فى خلال هذه الفترة ، مضت الأمور على ما اشتهى على ، ووفقا لما جرى بتقديره . . . ذرعت الطليعة الصغيرة الأرض صعدا إلى نصيبين . وقطع جيشه الكبير الجزيرة بغير معوق ولا مقاومة . وأخذت مقدماته على عتى صنقى الفرات حسبما رسم لها خطة المسير . غير أنها فى الطريق قليت الرأى فرأت أن تعبر النهر عند « هيت » حين جاءها النبأ أن معاوية قـد زحف بجموعه ليهاجم القوة الرئيسية التى يقودها الإمام . على عجلة عبرت بعد أن قطعت نصف الشقة إلى « الرقة » لتربط مصيرها بمصير سيدها ، وكل جندها وقادتها يرددون :

« ما هذا لنا برأى : أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر . . . »

ثم أمعنت فى السير والضفة اليسرى للنهر ، فإذا هى من بعد لاحقة لا سابقة ، قد بلغت فى «قرقيسيا» مؤخرة الجيش وهو يوشك أن يجتاز عند ثنية الخابور .
فلما تقدم زياد وشريح للإمام خفقت بسمة على ثغره وخاطبهما فى دعابة :
« مقدمتى تأتى من ورائى ؟ . . »

والتأم الجمعان . ومضى الجند حشدا واحدا حتى نزلوا على جانب الفرات « ببليخ » . هنا تبينت لهم مواقفهم ، وراحت سمات العداء تتجمع سمة سمة وهى تنبئ باقتراب ساعة الحومة ، فقد لوت الرقة بأعناق أهلها عن الإمام ، فغلقت الأبواب لا تعينه بشىء ، ورفعت سفنها من الماء لا يعبر ، وردت طلبه أن تجسر جسرا بينها وبين مستقر أعدائه يصبحهم منه أو يمسيهم ! . . كانت البلدة عثمانية الهوى ، لاذت بها من الكوفة فئة فرت من كفه ، وغلت فى شقاقه ، ونزعت نزعها إلى ابن هند ، تكاتبه ، وتعنو له ، وتلتزم نفس نهجه فى اللدد والخصومة .

ومع ذلك فلم يعضل عنتها بالإمام . ولم يدفعه إلى حافة غضبه فينكل بها وإنها لفئة واهنة : مئات قليلة ، لا تكاد دماؤها تشبع حسامه ! . . فالدم عنده حرمة إلا فى مأثم عز دونه كل دواء . والعنف أبغض وسيلة من وسائل المجالدة والكفاح . ولئن جيش ، وزحف ، وامتشق ، فإن نفسه ظلت كافة بالسلام تحتال لالتماسه ولو من سم إبرة ! . . وما كان يعييه حينذاك أن يقمأ فرقة مثل هذه ضالة ويحملها على ما تكره . ولكنه طفق يرجو — إن يفسح لها فى رفقه وصبره — أن تجنح إلى الحكمة وأضرابها من الغلاة فى شقاقه ، فيملك الأمة أن ينفرط عقدها ، وتتقسمها الشيع فتذهب مع الريح . . .

على ظلمهم تركهم ، تلك الليلة من ليالى ذى القعدة، ويحسبون حصونهم مانعتهم بطشة المنية . وما هى قط بمانعة إن يهز فى وجوههم حسامه ، ولا بدافعة عنهم البلاء إن يعدد نحوهم إصبعا تنطلق معها جنوده يسحقون الديار والأعمار ! . .
غير أنه آثر الرفق ، وقدم المهلة ، ونثر رقعة الأرض التى تليهم فاختار العبور من جسر « منبج » ليقحم جيوشه إلى « حلب » من الشمال .
ومن الرقة بعث بكتاب :

« ... إلى معاوية ، ومن قبله من قريش :

إن لله عبادا آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا فى الدين ، وبين الله فضلهم فى القرآن . . . وأنتم فى ذلك الزمان أعداء لرسول الله ، تكذبون بالكتاب ..

فلا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ، أن ينازعهم الأمر الذى هم أهله وأولى به ...

ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ولا أن يعدو طوره ، ولا أن يشق نفسه بالتماس ما ليس له ...

فاتقوا الله الذى إليه ترجعون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ... »

وكم من كتاب ! . . ولكنه اليوم نذير .

لئن ترفق وأملى لهم ، فقد ترفق قبله محمد بسلف لهم ، وبهم ، وبأمثالهم كثير . وما على بالذى يعدو طوره فينحرف عن تأثر الخطا المرسومة التى طبعها الرسول العظيم فى الدعوة . « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ... « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير ... »

٦

هم كانوا أهله ، أولئك العصبة الجامحة فى خلافه . من العشيرة الأدنين . عاهم وإياه فى الزمان أصل ، ثم ربطهم به من بعد صهر وجوار . إن يسيروا على دربهم فلن يضيروه ما عاد أمرهم إلى الله فهو أعلم بهم ، إليه الرجعة وعنده الحساب ... أو يتيهوا بقضهم فما يغنى الجمع حين تلتقى الأسنة وتبدو الآخرة من غير حجاب ! ... إنه على بينة ، يمده الحق وجنوده . وهم على شبهة ، تبعوا الطاغوت فضاقت المسالك ، ودنت المهالك وغدوا بغيهم فى تباب ! ...

وكان عزيزا عليه هذا البغى الذى إليه أنسوا يقطفون من ثماره الخبيثة . فالهوى شقوة . والمصير شقوة ، قصر عمرهم أو طال ، وعندما تشرع سيوفه فسوف تتربص بهم على أشفارها مناياهم ثم تحمل فلهم على امتثال نهجه الذى تنكبوه عنوة وكرها ، ولات حين توبة إن غر الأمل لخم الأجل وأقبل المآب ! . . .

الكرة بعد الكرة حذرهم الفرقة . بالرفق فعل ، وبالموعظة الحسنة ، وبالحكمة وبالبيان لايتشكى السأم لسانه أو بنانه . كانت الرحمة دائما تغمد حسامه والرحم ، وحق الجوار فى الوطن والله . كلما دعاه عنهم وجد قلبه إليه أقرب ، فداوى بالحرف مايداوى بالسيف ، وله فى نبيه الهادى مثال . . . فى بطحاء مكة كانت أعين خياله تراه ، وبين الشعاب ، وعلى دروبها التى فرشتها الشمس بوقدة من الهجير كالنار . لم يغب محمد عنه ، ولم تغب أماثيله . دورة الزمن لم تستطع أن تطمس الذكريات . والواعية فتية ندية وإن صلب بدنه وشاخ . وحين تراوده القنا والحراب عن مصارع الفلاة فى الكيد له ، تشرق أمامه البسمة الحانية ، والفم الذى ترف الشفقة على شفتيه ، والعينان اللتان تفيض منهما المغفرة كالدموع وإن مشت على الملامح الرحيمة مسحة من الحزن قد رسمها مايلاقيه من عناء وقسوة وتعذيب . فإن يكن يحزن لما يصيبه لحزنه لهم أشد أن خالفوه فارتضوا عمى الليل دون نور النهار . أو يكن لم يعجزه منهم النكال ولم يصده عن السير فى سبيله ، فالرجاء فى جذبهم إلى حظيرة الهدى كان حلم أيامه ولياليه . . .

كم من ساعة أطلعتهما معا — الرائد وفتاه — فى كنف الكعبة ، وحيال الستر ، وعند الحجر . هذا يدعو بقرآن الله ، وذاك يرقب . وهو غلام ، خوالج الأنفس المفتونة بغيها كيف تطفح استكبارا وعنتا وسخرية على الوجوه .. وكم من لحظة وارتهما معا وراء الظلال نأيا عن الأكف الأثيمة التى تربصت للنبى بالعدوان . . . كان محمد حينذاك هو النور ، وكان على الظل الذى يتبعه ويدور معه حيثما يدور ، وذاك عهد انطوى سجله . مضت شروره حتى ظن أنه لا شر ، ودفن الماضى شياطينه فى « القليب » ! . . . فلو أنهم أسمدتهم نجومهم لفقهوا الإسلام قبل الحمام لحققوا رغبة طالما ألحت زمانا على الرسول أن يجنبهم الضلالة إذ كانت لهم به وشيجة ، وفى قلبه مكانة ، وبين قومهم أقدار . ولكنهم غووا ،

على خلاف مشتهاه ، حتى نفض منهم يديه ، ووقف على أشلائهم وهى لقى على الرمال تهم أن تتخذ من القليب منقلبها ومثواها ، يلحى جحودهم وطغيانهم :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ! ... كذبتمونى وصدقنى الناس . وأخرجتمونى وآوانى الناس . وقتلتمونى ونصرنى الناس ... هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ . . فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ! . . »

واليوم على على صراط رائده . إن يكن قد ذهب النور فتقلص الظل على أثره فما يفى الصوت يتواتر جرسه وتتردد فى أعقابه رنة صداه ! . . الشهاب تعلىء برجمه ، والنجاد ، والربع الخالى ، والبوادى السارحة حول المياه والخضرة . إلى الغاب والشجر ينطلق ، وإلى العيون التى تفجرت من الصخر ، وإلى منزل أشم بمكان أفيح تأرجت بأنفاس زهره نسمة الشمال ...

لـكن الغى كتاب ، والرشد كتاب . والقدر من فوقهم يحرك عينه فيدعهم بظلمهم إلى بوار . فباءت يدان بالخسران كتبتا على صاحبهما الغواية حين خط ما أملته عليه الأهواء .

« من معاوية بن أبى سفيان ..

أما بعد :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الـكلى وضرب الرقاب »

نشر القدر صحفه ، وصرف بقلمه ، ثم طوى سجله على المصير المقدور ، وقد اختار للخلف محنة السلف الذين شاقوا الرسول ...

فليـكن هو الهوى المضل ، أو هو الطمع المذل ، أو زخارف الحياة التى صيغ نسجها من أباطيل قد فتلها الشيطان الغاوى خطاما يقود به أولياءه إلى مهواه ... فلتـكن هذه كلها ما أغوى معاوية وانحرف بخطاه عندما سطرت يمينه كتابه وختمه بخاتم محنة لسوف تمزق أمته وتدفع بها شيعا ضعيفة محاولة يتخبطها التفرق والانقسام . غير أن سوسة الغل كانت تنخر كذلك فى سويدائه ، وعفن الحقد ، وقبيح المواجد القديمة التى لم تبلها فيه سماحة الإسلام وإن وارتها زمانا كالجذوة المتقدة طمرها الرماد !

وتتردد لحظة فى سمع الإمام كلمات كان قد ألقاها على الناس عبد الله بن بديل ابن ورقاء الخزاعى قبيل مسيرهم إلى أرض الفتنة لمناجزة العامل المشاق :

« كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة فى موقف واحد ؟ . . والله ما أظن أن يفعلوا . ولن يستقيموا لكم دون أن تقصدفيهم المران ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتنثر حواجبهم بعمد الحديد ! . . »

وصدق عبد الله . فقد ود على السلامة للعشيرة الأدنين ، وأبى ابن هند إلا أن يشعلها نارا تأكل منها بحطبها من تأكل ، وتقذف بقايا جيفهم ، كسلفهم ، فى قليب جديد ! . .

ويأسى على أسى محمد إذ خذله أهله أمس ونبوا به حين دعاهم بدعوة السماء ، ويتريث وقتا كمن يتوق أن يتدبر لهم — وإن كرهوا — ثغرة إلى الهداية ، فلما أن يؤوده الفكر ، وتعييه الحيلة ، وتعز عنه الوسيلة ، يهمس لنفسه فى حسرة وإشفاق :

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . . . »

ولا يرد عينه الدامعة بدمع الرحمة عن رسالة الخلاف التى أقبلت عليه مزهوة من المنزل الأشم بالمكان الأفيح الذى تتأرج بأنفاس زهره نسمة الشمال . . . لا يردها وإن ضربت حولها عيون الأشتر والحسن وعمار ، وبقية صحبه وأوليائه ، سياجا من العواطف اختلفت أعواده وتباينت آحاده ، فيه التحدى ، وفيه الحزن ، وفيه الرغبة تسبق الزمن إلى سويعة جهاد . إنما يظل يرمق الأحرف وهى تتوثب أمام ناظريه كألسنة النار ، كاسفا أسيفا . وشفتاه تنطلقان فى التلاوة بصوت رحيم عميق رقيق :

« . . . وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ — ولكن أكثرهم لا يعلمون . . وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . . . »

وعندئذ تضطرم قلوب بشغفها ، وتتطلع أعين ، وتتهيأ سواعد وأقدام . . . ذهبت الحاسنة . دنا البأس . ملأت الجو ريح الحرب والدم والنار ! . . . لبس كل لأمته ، ورحل دابته ، وغدوا جميعا على أهبة كأنهم ، لفرط تحفزهم ، يقفون على أعلة قدم ! . . الآن لم تعد بهم حاجة إلى التمهل . ولا إلى الإملاء فى الصبر للعدو العنيد . وإذا كان الإمام لم ينل بعنفه أهل الرقة حين حبسوا عن رجاله سفنهم ، وأبوا أن ييسروا له عبوره إلى أرض الشام ، فالآن لم تعد ثمة مدعاة إلى الرفق والهوادة وهذا دليلهم الذى يأتمرون له قد أسفر اليوم عن وجهه ، وخطت يمينه دعوة الصراع . .

فإن هى إلا سلخة من الزمن ، كيوم أو بعضه ، حتى ثارت بالأشتر حميته ، فاندفع إليهم بحصنهم وهم محتجزون ، يدق عليهم بسيفه الباب ، ويزأر لهم الوعيد :

« يا أهل هذا الحصن ! . . إنى أقسم بالله لئن مضي أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأقتلن مقاتلتكم ، ولأخربن أرضكم ! . . »

فأخذهم الخوف فجسروا . . . وبعث هو إلى على يبعض الطريق « نحو منبج » فعاد . . . ثم عبر الجيش إلى أرض الفتنة ، كتيبة كتيبة ، فرسانا ومشاة ، يزدحمون جميعا ويستبقون كأن لأقدامهم أجنحة طير ! . . .

كانوا على شوق . فهذه الأحرف التى أتتهم من قصر دمشق طريقهم إلى الكعبة ! — إلى منى القلوب ! — إلى غاية ينشدونها من زمان على قطر الدم ، ومزق الجوارح ، وبقية الروح ! . . . لم يعد يمسكهم الأمل فى صلح ، ولاطيف سلم . إنما رفع معاوية ذلك الرتاج الذى كانت تنحبس خلفه عواطفهم فتدفقت كالسيل يحمل الدمار فى تياره إلى العصبة الجاحدة التى أضلها الهوى عن الحق إلى شفا المصارع ! . . .

واحتشد الجمع العابر على الضفة الثانية للفرات يمد عيونه وشوقه عبر الصحراء إلى ملاذ أعدائه . . . كله رغبة فى اللقاء . لا رهبة ولا خوف . فى القلوب

شغف . على الشفاه بسمه ... الملامح الصلبة كأنها صخر نحته العزم فأبدع تشكيله . والصدور أفسحت ، والأذرع فتحت لتحتوى هناك فى أحضانها — إبان الحومة — فرائد الحور ! ...

وتعهل هنيهة على الشاطىء فارسان ، عقلا دابتيهما ، ثم مضيا معا إلى النهر يخوضان ماءه ... كانا قد ازدحما على الجسر حين العبور يرجو كل منهما أن يكون له على زميله فضل السبق عسى أن ينفذ بسيفه قبله إلى صدر مفتون ، فإذا الخطا تشتبك ، فيضطربان ، وتسقط إلى النهر قلنسوة هذا وقلنسوة ذاك . . .

ويقول أحدهما لصاحبه وهو ينشل قلنسوته :

« يا بن الحجاج .

إن يك ظن الزاجرى الطير صادقا كما زعموا أقتل وشيكا ، وتقتل ! »

قال الثانى ، والفرحة حينذاك تغمر محياه :

« ما شىء أوتاه ، يا عبد الله ، هو أحب إلى مما ذكرت » .

وأسرعا يمتطيان ، ليسبقا الجمع . . .

فالوجهة الجنة ! ...

١

لولا أن حاجز بينهم وبين القتال ، فربما غرسوا على شاطئ الفرات ، بعد العبر ، جنة من الجماجم ! . . ما كان يصدهم أن تكون الرمال الأكفان ، والدم الغسل ، والنصال التي تقصدت في قلوبهم صحائف تدل عليهم ، وتعلم لحودهم أمام الأعين وهم رقود عاشوا بالموت بعد أن فارقوا الحياة ! ... فالمنية لديهم بداية ، والشهادة فريضة ، والدم قربان . وحين تحركت بهم دوابهم تدع الماء وتوغل في البلقع ، كانت المنى لا تزال تخطف في أخيلتهم ساعة الغدوة كهذا الشعاع السابح يتوثب به موج النهر ، إن مد برق أو جزر غرق ... فالجهاد حلمهم الذى غذا خواطرهم . واللقاء في ظلال الأسنة غاية الأنفس تتوق إليه في حنين . والإمام — إن كان نهاهم ، يومهم هذا ، عن المبادأة بسل الحسام — فالنذر في الجو تهم أن تتجمع فيوشك معها أن يدعوهم لرى الفيافى الظمآ نة ! . .

هم قد خرجوا يرتادون ، وما من حيلة لمرتاد ... إن الأرض أطلعت عليهم الأمن سكنوا ، أو العنف شدوا على عدوهم فجالدوه وياما آثر الكثيرون منهم لو استقبلهم عدوهم بالصوارم ! ... اليوم أعيام الحلم . أسأمهم السلم . تقطعت نفوسهم حسرة على تلك الفترة من أعمارهم التى أمضوها يطاولون خصمهم بغير طائل ... لكن علياً كان يدخر الحرب إلى لحظة في خاطره ، خفية عن كل خاطر ، بعيدة عن أناة الحالم وصبر المصابر . فما هو لهو ، ولا هى حشد ، ولا هى غيلة . بل صراع شريف بين جمعين : تعاقد يختمانه بالقبول أن يحتكما إلى الأسنة لتحسم ما لم يحسمه كلام ولم تقطعه أقلام ! ...

لم يكن قط ليخلب النصر من غرة ، أو يعمل القنا في ظهر ... فليست الحرب غارة تسير وفقاً لشرعة العابثين بالمحارم من قطعة الطريق ومحترفة القتال . وليس يبيحها أن يخالف فريق ويشاق إلا أن يعلنه الآخر بها ليصبح على أهبة وحذر ، إن شاء خضع فبايع ، أو شاء أبى فدافع وهو حينذاك متبين سبيله الذى اختار ... تلك شريعة ارتضاها القدامى ، وتعارفت عليها جيوش الأسبقين من الدول والشعوب ، كان القتال وفقاً لها صراعا سافراً نبيلا بين الأجناد ، لايقر

البغتة قبل الإعذار ، ولا تتهيأ له مقوماته دون إعلان ، فلا فجأة ولا غدر ، يلتق فيه الفريقان وهما على بينة : كفتان عالمان ، وجها إلى وجه ، وصدراً إلى صدر .

في هذا الضوء الذى يبدد ظل الشبهات ، خرجت كرة أخرى مقدمات الإمام من الجانب الغربي للفرات تجاه الرقة ، ترتاد الأرض في طريقها إلى الشمال . وكان عليها هذه المرة أيضاً زياد وشريح . وكان هدفها أن تنفض السبل أمام القوة الرئيسية التي كانت حينذاك تتجمع وتنتظم بعد عبورها من الرقة لتحث الخطا إلى منزل لها تختاره في ديار الفتنة . فما يأمنون جميعاً الغدر من معاوية وإن جاءت على غير ما تبيحه شريعة الحروب ، لأنه يبيح ما لا يباح ، ويقاتل بأي سلاح ! . .

ومضت بهم مطيهم محاذرة ، تخب هونا على طريق حلب . فليسوا يخشون جانب دمشق وقد علوها البؤرة التي تركزت فيها جحافل الشام ، وإنما الحذر من هذه الدائن الضاربة إلى تخوم دولة الروم ، والتي قد تكون جبهة لفرق إضافية أعدها ابن هند لتفاجئ الإمام من مأمن ، فتكر عليه من الشمال بينا تزحف الجحافل الشامية عليه من جنوب وغرب تسد دونه المسالك فيغدو بها في حلقة وثيقة ليس فيها ثغرة للخلاص إلا مياه الفرات ...

ولم يغب طويلا عن أمير المؤمنين نبأ مقدماته التي انطلقت غرب النهر ترود له الأرض ، وتعد الأنف والآذان والعيون إلى تجمعات أعدائه . بل هو يوم أو بعضه ثم بعث فأحضر الأشتر :

« يا مالك ... إن زيادا وشريحاً أرسلا إلى يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم ، فنبأني الرسول أنه تركهم متوافقين . فالنجاء إلى أصحابك النجاء ... »

وأمره عليهما يعملان تحته على ميمنته وميسرته ، على أن يعذر إلى عدوه ، المرة بعد المرة ، ولا يدانيه جانحا لاعتداء ، متشرعا لحرب :

« ... إني أمرت عليكما مالكا . فاسمعا له . فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل . . . . »

وتواقف الجمعان : مقدمة على ومقدمة معاوية بسور الروم بقية النهار . يوشك الرائى ألا يلمح فى وجوههم عداوة ، بل سكينة وطمأنينة . يتبادلون الحديث فى وئام عن الوحدة ولأم الصدع ، منهم معذر ومنهم مخالف . فاجتماعهم لبيان ، وافتراقهم بإحسان .

غير أن الليل كان يبطن الغدر فى سواده ... فلم تكد تعبث الأعين فى معسكر الأشتر هجمة حتى دهمتهم الخيل يقودها أبو الأعور وهو يحسب أن الغرة مجزيته الظفر . إنه ، فيما يبدو ، على دين سيده ، لا يأثم ولا يتحرج ، فكل ما يثيبه الغلبة حلال ! . . لكن القوم الذين ظنهم لقية هينة بلا سياج من الحذر والتأهب ، قد غالبوه هجمته ، فاضطربوا ساعة ، وثبتوا ساعة ، ثم كروا فما أسفر الصبح حتى كانت أرض الوقعة من أبى الأعور وأجناده الغدرة خواء . .

كما استتر بالظلمة قدامهم ، توارى بالسحر خلف المكان مصعدا برجاله عن سيوف خصمه ، نازحا بهم إلى الشمال ... ترك خلسة سور الروم ، وأسحر منها إلى ملاذ ... إن كان لغاية أضمرها الرجل فى دخيلته ، فلعله خشى أن تنال من جمعه الأسنة إن هو ثبت ، فاستمهل إلى حين هنيهة الجد حتى يزيد أهبة ، وتثين له فرصة جديدة . أو لعله قاس فسحة الزمن فعلمها فى حسبانه سويعات إن تبق له على رجله وخيله فإن غدا مطلع عليه بعدها وليه فى حشود تملأ الأرض وتشد أزره وتعلو به على عدوه أو لعلها مكيدة الحرب ، والحرب تراجع وفر كما هى صبر وكر على أية حال ارتد أبو الأعور يبتمد ، وتحرك الأشتر مع البكور ، فى طائفة من المقدمة ، ينشده على الدروب والمسالك المتفرعة من البلدة حتى ثقفه قد لاذ من « قنسرين » — فى منتصف الطريق نحو حلب — بربوة تحميه ، وتهيئ له من شرفها حصنا يدرأ عنه غرة الهجوم ... وكان النهار قد تبين . والصبح يلقى ظله ونوره ، والقفر حولهم ينبت الوحشة من كل ذرة فى رماله ، ويومئ إلى الفراغ ...

حتى أولئك الذين قد عرسوا بالقتال من أعوانه ، وراحوا يدلون بفروسيتهم ، ما ثبتوا برهة حتى حصدت بعضهم سيوف غلبة من أجناد الأشتر فانطووا فى الثرى مغيبين كانطواء ذكر لهم كان — إلى ساعة حينهم — كأسطورة ! . . ونكص

البقية على الأعقاب إلى تلك الجنة التى ادرع بها أبو الأعور، يلتفون حوله يعصمونه إن أغارت عليه هذه الطائفة من مقدمات الإمام . لكنها لم تكن حربا توفرت لها شرائطها ، واكتملت مقوماتها — وإن عاجل فيها صاحب معاوية أعداءه بالعدوان . فلم ير الأشتر أن يندفع بوحي غضبته ، بل استحضر نصب عينيه وصية على ، فآثر الكف جهده عن الباغى ، وقدم الأناة .

لكنه لم يكن ليأمن منهم عدوة مباغتة ومبادرة كأمس إلى الغدر والخديعة ، فأحب أن يكف عن نفسه وعن جنده بلوى القائد الغادر وينا له بجزاء بغيه وطغيانه . إنه مراوغ كثعلب — ذلك الرجل الذى باغته ثم انسرب من بين يديه يحتجر تحت ستر الظلمة ... وهو فارس القوم . وهو ظفرهم ونابهم . فلو حرك فيه إدلاله بقدره ، واختياله بشجاعته فى مجالى الطعان ، فلربما وسعه أن يختلب هذه المقدمات الشامية نابها ، ويقلم ظفرها ، ويدعها مكفوفة الأذى حتى يلتقى الجيشان فى ميدان الحرب ، يتناجزان أو يتوادعان ...

رام القائد ولم يرم الفرقة ، فاحتجارها عن رجاله استئمان ... كف إلى حين ... مهادنة موقوتة بساعة أو بساعات . فلم يكد يصف جنده على أهبة ، ويؤمن منزلهم ، ويحفهم بما يجنبهم بغتة الغريم ، حتى دعا الأشتر إليه فتى من قومه النخع ، فأمره بأمره :

« يا سنان ... انطلق إلى أبى الأعور فادعه إلى المبارزة » .

فهتف الغلام :

« مبارزتى أو مبارزتك ؟ »

« أو لو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ »

« نعم ، والذى لا إله إلا هو ، لو أمرتنى أن أعترض صفهم بسيفى فعلت حتى أضربه بالسيف ! . . » .

عندئذ ابتسم القائد لفتاه ، وقال وهو يربت كتفه :

« ... إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتى ، لأنه لا يبارز — إن كان ذلك من شأنه ! — إلا ذوى الأسنان ... ولكنك حديث السن يا سنان » .

لكن السلمى — فيما بدا — كان جديرا بسخرية مالك فلم يكن من شأنه

لقاء الأقران ! . . فما هو أن سمع الدعوة إلى المبارزة حتى راغ وهو يعتل بعلة لعلها أن تدارى اضطرابه ... سكت طويلا عن الرسول ، وأغضى يتفكر ويتدبر ، فلما آن أن يرفع عينيه وجبينه ، كانت عبسة تظل ملامحه ، وتغشى على وجهه بالوجوم .

وقال لسنان :

« إن خفة الأشتر وســـوء رأيه هو الذى دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من العراق ، وافترائه عليه : يقبح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته ... إنه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، فأصبح مبتغى بدمه ... » .

فلم يلو اعتسافه الأباطيل ذلك الحدث عن مجابهته بمعارضته ... قال الشاب وهو يحاول أن يرد إفكه عليه :

« قد تكلمت فاسمع منى حتى أخبرك » .

لكنه أبى أن يصغى ، وصاح :

« اذهب عنى ! . . لا حاجة لى فى مبارزته ... » .

وضحك الأشتر بعد هذا ، وقال :

« لنفسه نظر ! . . » .

ثم نثر على حد الأفق نظرات عينيه ، ترود الأرض ، وتود لو آنست من وراء هذا الفضاء حشدا يحرث الرمل بأقدامه ، وينشر الظلال فى منبسط النور ...

٢

الوقت يدنو من الضحوة . نسمة الصبح مسترخية ، فاترة الحركة ، قد مسها من الليل وسن لم تنفضه يقظة النهار . الأرض ندية بالطل ، قفر بلقع ملؤها نور ! — لا جنى فلا ظل . . إلى صخرة حتها الريح فوسمها بميسم الزمان ، أو كثيبا جمع حباته ثم نثر منها وفرق وأهال . أو رقائق من صلصال هى بقايا آنية عابر ، عاشت فى الحاضر ورحل دونها إلى الغابر ! . .

هذه وحدها هى الظلال الهامدة ، قد تناثرت على الأديم النقى فبدا بها

كإهاب حية ... أما غيرها من خطوط الظل ففيها حياة ، تسكن وتميل ، وتقصر وتطول إن تحركت أصولها ، أو أخذت الشمس سمتها إلى الزوال ... فيها أعين شفها الأرق ، فيها قلوب نهشها القلق ، فيها آذان تسمع الرعد في همسة النسمة ، ودوى الصاعقة في زحف الهواء ! ... فلئن باتوا ليلهم في أمان فإنه أمن النائم على جرف السيل . ولئن أمهلتهم الآجال فما دراوا منايام بهذه الأسياف التي حملتها أكفهم طول الليل ... طالت الرقبة وما طلع معاوية . لم تظهر لهم أفراسه المسومة . ولا فرسانه المعلمة ، ولا عتاده وأجناده وقد حسبوها رحلة ساعة ثم يبدون قبل مطلع النهار . وها هنا أمامهم . على قيد النظرة حيال الربوة ، فرقة تربصت على حرد ، تحصي عليهم الأنفاس . فهل إلى لقاء ؟ ...

لا هو الخوف ، ولا هو الحتف ، ولا هو التردد يقعد بهم عن الصراع . فما بهم خور . ليس في قلوبهم وهن . سيوفهم صليبة مسنونة لم يصبها ثلم ، وأجسادهم دارعة لبست الزرد والحديد ... لكنهم حيارى . هذا سيدهم لم يوافهم بجمعه . هذا معسكر عدوهم على أهبة . مشت فيه الحركة من بعد سكون ، وبرقت الأسنة منه في ضوء الشمس تخايل عيونهم وتدفع بهم إلى الحذر واليقظة ... آن الخطر . نهضت المطى وركب الفرسان ...

كانت الربوة ملاذا حصينا يحمى ظهورهم أن تنالها نبال الأشتر ، تعد لهم في الدفاع ما أرادوا الدفاع . وكان جمعهم كثرة ، وعدتهم وفرة . غير أنهم ما انسابت العاصفة من المعسكر المقابل إلى جنتهم حتى اضطربوا ساعة من زمان ركنوا بعدها إلى الارتداد ...

كرة أخرى ارتد صاحب معاوية وترك الميدان . جلا عن قنسرين ساعة الضحوة وتركها لغريمه . وما كان عليه لوثبت من جناح أن تتقطع وسائله ، أو تجندل فلوله وتلقى مصارعها أمام عزمة الأشتر على احتلاب النصر بأفدح ثمن وبأغلى قيمة . فمن عجب أن نظن أبا الأعور توقع الهزيعة فآثر السلامة ، والنصر حينذاك أدنى إلى عينه منه إلى كف خصمه ... فهل كان ارتداده — ولما يبذل الجهد كله فيما لاح — لحكمة ؟ . أخطة مدبرة وقصد مقدر ... أم الخشية وحدها أن يسحق العدو قواته قد جعلته يجنح إلى التراجع ؟

ليوشك المرء حين يتتبع الرجل ، منذ خطر على أرض الحلبة إلى الآن ، أن يراه يخطو على نهج مرسوم ، لهدف علمه وكتمه . في سور الروم يتراءى نهارا لزياد وشريح ولا يبادرهما بعدوان ، حتى إذا أمدهما الإمام بالأشتر . تسربل بالليل ، فضرب ثم هرب . وفي قنسرين يلوذ بشرف من التلال يحميه ويجعل فرقه في مثل الحصن ، فلو شاء ثبت فدافع وكبد غريمه من الخسائر ما تنوء به العصبة أولو العزم . ولكنه ، كدأبه ، اضطرب ثم هرب ... فرار يتبعه فرار ، ولحاق يتبعه لحاق ، كأنه رام أن يشد إليه مقدمات الإمام ، يجرها من موقع لموقع ، ومن بلدة إلى بلدة عساه أن يشردها وينأى بها عن القوة الرئيسية لجيشها الغازى إلى أبعد مقام . وما أحسبه وصاحبه إلا اختطا هذه الخطة حتى تتوفر لصاحب الشام القدرة على مباغتة جيش أمير المؤمنين وهو أبتر بلا مقدمات تستطلع له ، وتصد عنه خطر الضربة المفاجئة . فإن أصاب غايته فقد رجحت كفة معاوية وشالت كفة على في غمرة لأولهما فيها ميزة البدار للقتال ، وميزة المعرفة بطبيعة الأرض ، وميزة ولاء أهل الإقليم ... .

أما التراجع فقد أفلح ، وطوى قائده الفراسخ خارج البلدة ينأى منها عن سلاح أعدائه . وأما الموقع فسقط طعمة للأشتر غير منافس عليه ولا مغالب ، ينزل منه مكانا أفيح رحب السعة عند شاطئ الفرات . وأما المطاردة فكانت حلما سلختة الحقيقة وبددته كالدخان ... فلم يتعقب الأشتر فرار أبي الأعور ، ولم يطأ آثاره التي تركها على الرمل . إنما سكن من قنسرين بمنزل ذى جنى وظل عسكر فيه بفرقته ، يطلون منه على شريعة الماء ، ويصوغون حلقة في سلسلة المقدمات التي باتت اليوم منتشرة بشاطئ النهر ، من هذه البلدة ، إلى سور الروم ، إلى ما يواجه الرقة عند نهاية الجسر .

عن هذه الخاتمة انجلت الموقعة في قنسرين بين الأشتر وأبي الأعور ، أو انجلت في الحقيقة الحكمة المنشودة من وراء الارتداد ! . انكشف عنها الغطاء فإذا هي ثمرة مريرة كريهة المذاق تلك التي غرس نواتها معاوية ، وتعهدها زمانا بسقياه ، ثم طعمها في نهاية المطاف حتف أنفه وكان يعدها وليمة لخصمه ! . . الآن له القفر ، وله الظمأ ، وله لفحة الهجير والرمضاء . السراب وحده ، والخراب.

وحده ! . . وحين يهل بخيله ورجله على المكان فلن يجد أمامه لهم مستقرا إلا أن يصفهم عند حافة البادية ، وعلى شفير الصحراء ..

ولم يكن ثمة أدنى ريبة فى أن أمير المؤمنين قد أقر قائده على موقعه ، ودعاه أن يستمسك به ، ويحرص عليه . ويحتال لحفظه ما وسعه الحرص وأمكنته الحيل والقدرة . فهو ردء جيشه كله . وهو معبر إلى العراق تجيئه منه موارده وأمداده من عتاد وجند وميرة . وهو منزل سهل لين لا يشق على الناس ، وتخرج منه السبل وتنتهى إليه معبدة ممهدة إلى مدائن الشام .

وانحدر الإمام من جانب الفرات يزحف هونا إلى الغرب عساه يلتقى بأعدائه المصعدين صوبه من ناحية دمشق قبل أن يأخذوا مكانهم فى الميدان . لكن معاوية كان قد سبقه ، فواطئ جيشه طوال الطريق هينة ، فلا ماء ولا صحراء . . . ونزل العامل المتمرد . ونزل الإمام على كثب منه ، وتواقف الجمعان يعدان ، لم يجنحا لعنف ، ولم يشهرا السيف . إنما شغلتهما الشواغل فترة من الزمن بعد هذا إعذاره ، ويعتسف ذاك تملاته ، قبل صف الرجال وبدء القتال .

فكأنى بابن هند ، وإنه حينذاك للجانب الأذل ، قد اضطرب وتينه واسترخى عرنينه ! . . نظر لنفسه فكان الوبال المآل . يكاد يستنشق الهزيمة من الريح وهى تقبل عليه ريانة بماء الفرات ! . . توشك أطماعه أن تضل فى تيه من القلق والوساوس كهذه البادية التى تتهيأ إلى جواره لابتلاع ملئه وهو ممزق وفلول ! . . وعندما استقرت به نواه ، واحتواه فسطاطه مع الخلوة . كان جبينه قد عقدته الفكر ، وعينه قد أغمضها التصور ، وذهنه ينساح به فى عالم من الظنون والهواجس فسيح ...

غير أن الرجاء أملى له ، تلك الليلة التى لم يرقد خلالها جنبه ولم يغفل هدبه ... أم ينام على عواسج وأشواك وهذا على دونه قد احتاز الماء فغدا بمأمن لا ينوشه الخطر من ثناياه ؟ . . كلا بل سهر ، يصطلى الفكر ! . . وإن قدره الآن لجاثم بهذه الثنية من مياه النهر التى اتخذها الإمام معسكرا لجنده — الضفة ترسه ، والموج حرسه ! . . وإن عينه لتجوس فيها بلمح التصور فتراها كأنها السياج الدارع ، أدانيها الجسر قد أحال الشام عنده مرادا مباحا لأهل العراق ، وأقاصيها

موقع الأشتر فى قنسرين ، الذى اختلبه ظلفه ، وقبضته كفه . . . وفيما بين هذه وتلك كتائب كمثل الجلاميد ، يشدها الإيمان بما أقدمت له ، ويعصبها يقينها بأنها تدفع محنة توشك أن تنال وحدة الإسلام بالانقسام . . .

وأبحر الليل . ضرب سفينه فى لجة السحر ، إلى شاطىء الفجر . . كم من ليلة عاشها معاوية فى هذه الليلة ! . . كم من سنة . . كم من جيل ! . . لولا الصباح قد تسللت منه إشماعة إلى باب فسطاطه لحسبها ليلة بلا صباح ! . . ومع ذلك فالضياء الضئيل جاءه بالرجاء ، وراح يفىء عليه بعض السكينة . طابت الآن نفسه من بعد حيرة . هدأ جأشه من بعد قلق . قرت روحه وقد أحسها طوال أمسيته تنفلت منه فتشرد وتهيم . فإن هى إلا نفثة الشيطان فى أمنيته حتى استحضر جعبة حيله وأخاديعه ، كما يفعل ساحر ، فنثر منها وعجم ، وخبر واختبار ، ثم مضى راضيا لما انتواه .

وشهد النهار عند الثنية ، فيما يلى موقع مقدمة على ، إلى الشمال ، جمعا جما ، معهم الفؤوس والمكاتل ، قد انتحوا من البر ناحية لاحوا كأنما يختفون فيها عن الأعين ، وراحوا يحفرون الأرض ويخدون فيها الأخاديد . . أولئك لم يرم من المعسكر رقيب فيملك عليهم أيديهم . لكن الرصدة مشت ينبئهم فلقفه الناس بالعجب ، وتأولوه كل تأويل . .

وشهد النهار أيضا سهما مريشا ، أز فى الجو أزيزه ، ثم سقط فى المعسكر بين قوم من مقدمة الإمام . هنالك أخذوه وهم يحسبونه مؤذنهم ببدء القتال فإذا هو مؤذنهم ببدء التفرق ، وتمزق العزم ، وانفصام ما بين حلق هذه السلسلة التى كانت أمس السياج الحارس لجند أمير المؤمنين أن يناله مقتحم ، أو يثغره مهاجم . . .

وهمس رجل لجاره ، وعينه على السهم .

وأكبا معا يقرآن ما فيه :

« من عبد الله الناصح .

إنى أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات . .

فخذوا حذركم ! . . »

عندئذ بدت فى وجهه بهتة . أعدت الآخر ، فإذا هى بغتة ، ثم رهبة ، ثم حيرة وقلق ، ثم خوف وفرق . . .

ولغطت ألسن . ومالت شفاه على أسماع ...

وحينما ذاعت القصة ، وغدا المعسكر نخلية نحل ، كانت ملامح مغبرة ، وأوصال ميادة ، وأفئدة هواء ! . .

فأين هم من الإيمان وأهله ؟ . . أين صدقهم وصبرهم ، وحزمهم وقدرهم أولئك الذين فرقوا من رقعة ، فنشرتهم فزعة . وطوتهم فزعة ، ووثبت قلوبهم إلى الحلوق ؟ . .

لولا أن تنم عنهم مواضيهم المجيدة فترق بهم فوق الظن . لوسمهم الجبن ، ثم بقيت سمته على جباههم أبدا ذات أثر يلحق بهم إلى القبور ! . .

لكنهم ليسوا سواء . فيهم أشبال أصحاب بدر وأحد والخندق ، وأقران آساد الجمل والقادسية ، الذين يلقون الهول فيلين كحمل ، والموت فيهبهم الأجل   إنما كان ذلك المعسكر خليطا من اليقين والشبهة . فيه طائفة صبرت فبرت ، وفيه طائفة خارت فبارت وإن بدا جمعهم كله ، حين المحنة ، على غير ما كان يجمل ، فسرى الخور في نفوسهم ونخر . وهل كانوا إلا فرقة تسودها « نزعة الجماعة » التي طالما أتت ما يأباه الفرد ويترفع عنه لو ترك له الأمر ليصدر فيه عن هدى ضميره ويوحى تفكيره ؟ . . بل هم أيضاً شراذم شتى لا يجمع بين ميولها تجانس ، من قبائل وبطون ، تباينت بهم منازل الولاء للإمام والوفاء لغاياته ، وتذاءبت أحلامهم بين عمى الجهل ، وحمق السذاجة ، وجلافة البداوة ، وبين إشراقة الفهم ، واستنارة البصيرة ، وحسن التقدير ...

ليس الموت ما يخافونه وقد حركوا نحوه مطاياهم ، بل الموتة التي صورها الوهم . فلغيرها تهيأوا ، يقدمون الصدور والنحور للأسنة ، ويستبقون المصارع على قطر الدم . أما هذه فضيلة . إحناء الرقاب للذبح . ميتة السوائم ! . .

وسخر علي وقد نبأه خبر الأخدود الذي يحول الفرات عن دراجه ، وقصة السهم ذي الرقعة . وبعث برسول :

« ويحكم ! . . إن الذي يعالج معاوية ، لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه . . وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فالهوا عن ذلك ، ودعوه . . »

فكم منهم سمع ، وكم منهم وعى وهذه دقات الفئوس في الأرض ينقلها

الوهم من بعد فتصم منهم الآذان ؟ . . وكم قد استطاعوا أن يتبينوا الصواب فى الخطاب ، وما لهم من نظرة إلا تطوف حولهم قلقة ترود الأرجاء لتبحث فيها عن سيل الطوفان ؟ . . خرست الألسن عن كلمة الصبر ، وعميت الأعين عن الحقيقة ، وبات خفق القلوب نفثة ملهوف وشهقة مخوف !

« هم يحفرون ! . . هم يحفرون ! . . لترتحلن ! . . هم يحفرون الساعة ! . . يحفرون . . يحفرون . . لترتحلن ! . . والله لترتحلن ! »

وبعث على ثانية ، ينذر ويحذر :

« لاتغلبونى على رأيى ... »

فغلبوه ! . . بعضهم من خور ، وبعضهم من جهالة ، وبعضهم وهو مغلول الحيلة ، قد رحل مثلهم بعد أن أوهوا بيانه ، ولمظوا دعاءه إلى الصبر ، فهو غالب ومغلوب ! . .

٣

أفرخ الكيد ، وضحك الشيطان ، وأدل معاوية ما شاء له إدلاله بهذه الوسيلة من وسائل الخداع الذى لا يضيق عنه باعه ، ولا يقصر ذراعه ! . فقد خدت أخاديده فى صف على قبل خدها فى جانب الفرات ، وأصاب سهمه منه ثغرة مغفورة نفذ فيها بسنه وسمه ! . . فإذا المقدمات المناوئة قد تراجعت عن شريعة النهر تخلى الأرض التى كانت لها ملاذا وجنة ، وللجيش كله ستارا حافظا ودرعا منيعة ...

ولم تردهم دعوة الإمام عما اعتزموه ، ولا حث بعضهم بعضهم أن يلتزموا الأمر ، ويدعوا الخور ، ويثبتوا على قدم إنما ملكتهم حينذاك جنة فمضوا لطيتهم ، على غير وعى ، يرتدون عن الماء إلى البلقع ، وعن الخضرة إلى القفر . وكانت خشية الغرق هى ما يملأ منهم الأذهان فكرهم هباء ، ويأخذ عليهم الجنان فقلوبهم هواء يستبقون إلى الفرار حذر الموت كالسوائم ، زاغت الأبصار ، وانطمست الضمائر ، وبلغت القلوب الحناجر ! . . حتى هذه المسكة من الولاء التى

ربطتهم زمانا بابن عم الرسول ، وأوفت على الفداء ، انفصمت الآن عروتها ، ووهنت وحدتها فعاجوا عنها بالتمرد ، يعجلهم فرقهم إلى الخلاف ، ويدنو بهم من العصيان ... فلقد تهامسوا ، ثم هتفوا ، ثم صاحوا بغير تحرج ولا حياء ، وقد سرى إلى أسماعهم دعاؤه ونجواه :

« لترتحلن ! . . لترتحلن والله ! . . فإن شئت فأقم . وإن شئت فارتحل ! . . »

فإن هو إلا أن خلت منهم الشريعة حتى أسرع معاوية فاقتحمها بجنده ، معسكرا فيها بأرض يستطيع منها أن يقطع عن الإمام كل نجدة أو زاد قد تأتيه حين الحاجة من جانب العراق ، ويملك الضفة عليه أن يردها رائد من رجاله أو دوابه وقد باتوا الآن بنجوة عن الماء ، بمكان يابس عند صفين ، عزلتهم فيه عن الفرات هذه الجحافل الوفيرة من كتائب الشام ...

هكذا انقلب الميزان ، وتبادل الجيشان موقعا بموقع فساءت خيرة المخالفين ! . . لكأنى بهم ، هذه الفرقة ، وقد ثابت إليهم الخواطر ، ووعت الألباب ، فرأوا ما عملوا حاضرا ، تأخذهم الرجفة أن عصوا أميرهم وتفرقوا عنه رأيا وكلمة ، كما اختلف على موسى بنو إسرائيل ! . . هم أمس أمروا أن يثبتوا على مقرهم — وفيه ظل ومنعة وأمن — فزايلوه . وأولئك قبلهم تمردوا على منزلهم — وفيه رغد وسلوى ومن — فأنكروه . كلاهما أعماه هواه فانحرف وتمرد وشق الطاعة . فكم اليوم من رجال الإمام من رحل بخياله فاستحضر بباله — هذه اللحظة المنكودة — كلمة الله التى سخر بها حينذاك من يهود :

« أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ . . اهبطوا مصرا ، فإن لكم فيها ما سألتم ! . . »

أولئك عصوا وسخرت السماء . وأولاء عصوا وسخر على ... ثم غضب وأنكر . ثم ثار وزأر . ثم صبر . فما له اليوم إلا الصبر على عصبة خالفوه حتى غدا بهم فى محنة ، تورث الهم ، وتأكل العزم ، وتكشف منه لأعين عدوه رمية لا تخطئها رمية ! . . كأنهم إسرائيل قبلهم فعلوا . أمرهم « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » فباتوا على ضيم ! . .

وينظر الإمام فإذا القوم على الأفق كالجراد ، يهطعون من هلع وهم يوشكون

أن يخشوا الظل الذى شيعهم ، والنقع الثائر فى أعقابهم من أثوابهم ، وحركة الظلف والخف ؛ وخفقة النسيم ! . . وأسى لهم . وأسى أيضا لهذه البقية من جيشه التى ستطعم الصاب الذى جناه التمرد . . . . الآن ينبو مقامه ، وتضطرب خطوطه وخططه ، ويرى الأمن فى التحول مليا عن مواقعه ليلائم الصدع فى صفوفه الذى نشأ عن الانسحاب . . .

كم من الخواطر اليوم طاف بباله ، وهو محزون ، من وراء هذه الهزيمة التى أصابته ولا جراح ، وضربته بلا سلاح . . كم من هواجس وريب ، وكم من وساوس وظنون . . ليس هو الوهن الذى نال من خطوط قواته ما يثير شجنه ، ولا تقدم عدوه إلى الموقع ، ولا الخدعة الفاجرة ، بل التمرد الذى لطخت به نفوس فئة كان يظنها أسبق الناس إليه طاعة ، وأسمعهم له . وأسرعهم إلى الفداء فى سبيله . فمنذا يدريه أنه لن يتجدد فى كل صباح ، ويتكرر فى كل مساء ، وتتعاقب عليه أمثاله مع تعاقب الليل والنهار ؟ . .

ولكنه يرد نفسه أن تتطير ، أو تعبث بها الشكوك . فإن هم إلا أناس كأناس ، ونفوس كنفوس ، قد غلبهم حرصهم على الحياة إذ هى نفس يلقفه الصدر ويلقيه ، كما غلب إخوة لهم وأبناء ولدات ، إذ هى مغنم ومطمع وأسلاب ... فلئن عقه اليوم صحبه فقد عق غيرهم قبلهم محمدا حتى انفرجت بهم عنه الصفوف المرصوصة ، فدانته الخيل . وطالته النبل ، وسال بدمه محياه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق ، كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام !... محنة كمحنة ، ويوم كيوم ، وموطن كموطن تلك التى تطالع المرء من عهد محمد إن أرجع إليه البصر ، وحملته الذكرى فذكر .. فلولا أن ها هنا الماء والظل وهنالك الجدب والمحل ، وهنا الحاضر وثمة الغابر ، لكانتا محنة ومرآة ...

إذ ذاك مد الرسول عينه إلى الجموع الكثيفة التى أتت لتثأر ... لقد قهرها بظلها منذ عام ، وأنزل بها على ماء بدر نكبة قاصمة صدقت بها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فإذا السادة من قريش يتقصفون كالقصب الجاف . وإذا بيوت مكة مزار للموت ، لم يدع منها بيتا إلا اقتنص من شبابه أو من شيبه . وإذا العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ...

وبهت الشرك الذى كان مستعزا بنفره . وراح من بعد يلعق جراحه ، ويكتم أساه ... إن يكن يستعيد الفجيعة فلتحفزه على التأهب للانتقام . وها قد مضى على بدر الحول ، وأملى الزمان لقريش وأفسح . فأعدت ، وشحذت ، وصقلت الأسياف . ثم أجلبت بقضها على محمد ، عند أحد ، فيها المقاتلة ، وفيها النساء ، وفيها القيان . وما من فرد فى جموعها إلا أقبل وهو يرجو أن يعينها « هبل » على الله ! . .

وإذ تراءى الجمع ، خرج الرسول فى رجاله فخط لهم موقعهم ، وصف منهم خمسين على الجبل من ورائهم ، بأيديهم الأقواس ، ليحموا ظهورهم أن يأتيها عدوهم بغتة ، فتذهب ريح الإسلام :

« قوموا على مصافكم هذه . انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ... وإن رأيتمونا قد تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ... وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وظهرنا عليهم ، وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

فخالفوه ! . . خلفوا الجبل — أولئك الرماة — حين لاحت لهم بارقة ظفر ورأوا قريشا تهجر الميدان خوف المنية ... وما لهم يثبتون ، وقد تعاورت عدوهم حراب محمد وأصحابه فأثخنت فيهم ، وفرت ، وصرعت ، حتى ذهل أهل الشرك عن نفوسهم فتخطفهم الخوف ، كما يتخطف الطير الجيفة ! . . الآن أسفر النصر . الآن بانت الهزيمة . الآن تلمع الغنيمة على أرض الوقعة تدعو من طلبها : « هيت لك ! » فهى حرم مباح ! .

وليوا العرض ! . . نسوا فى هذه اللحظة ما أمرهم به الرسول فزايلوا الجبل ، يندفعون إلى السبى والأسلاب كالذئاب المنهومة ! . . ولكنها نشوة عمرها قصير ، وفرحة ما برقت فى أخيلتهم حتى خمد وهجها فعلتهم الخيل من المكان الذى زايلوه ، وطالتهم النبل ، واضطرب عسكر المسلمين كله وحصدته أسنة العدو حتى ظن أن محمدا مات ...

وصاح حينذاك أنس بن مالك لمن هدهم نبأ مقتل النبى فأذهلهم عن البأس وأوطأهم اليأس :

« مات ؟ . . فما تصنعون بالحياة بعده ؟ . . انهضوا فموتوا على ما مات عليه ! . . »

محنة أطلعت خطمها ، وحركت زبانياها تضرب بهما فى يمين وشمال بين أهل الإيمان حتى طحنت بينهم خلاصة فرسانه ... كفى بها من محنة أن أكلت حمزة بن عبد المطلب ، وطرحت به فى يدى هند فريسة هامدة ، لا تستطيع دفعا فنهشتها المرأة ، ولاكت منها ، واتخذت بعض مزقها قلادة ! . . وحين ارتوى زوجها من شماتة ، وطابت نفسه بالمصيبة ، وقف تهزه عاطفته المجنونة فيهتف وهو نشوان :

« أنعمت فعال ! يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! . . اعل هبل ! . . »

ولم يعل هبل ! . . وما كان ، فالله أعلى وأقدر . .

ولم يمت محمد . وما كان ، فقد استأخره ربه لساعة نصر تأتى إليه بهند ، وبأبى سفيان ، وبالملأ كله من أهل الشرك قمأة صاغرين ..

ولم تضق أيضا نفسه السكريمة عن الصفح عمن أوقفه نهمهم ، واختلافهم على أمره ، هذا الموقف الضنك ، بهذا الموطن ، فى هذا اليوم الذى دمى فيه قلب الإسلام وتفجر الحزن من جراحه كالينابيع ... إنما صفا لهم . مسح غضبه عليهم حين مسح دماءه عن محياه . فالنصر قدر . والفشل قدر . ولن يخزى الله حزبه وإن بهت — حينا — الأمل ، وإن شمت ذو غل ، وإن امتدت الرقبة وطال الأجل ...

* * *

وصفح على الليلة كصفح هاديه . لم يضق قلبه عن الصبر ، ولا عن الأمل ، ولا عن المغفرة .. فإن هى إلا نار مطهرة — هذه المحنة — تخلص فيها نفوس قومه من شوائبها ثم ترتد مجلوة . فالذى اكتنفه الظلام يهفو للنور . والذى شرد به الفقر يحن للظل . وإن ربه لمجنب رجاله العثرة من بعد ، ومسدد خطوهم إلى رشاد ، وجامع قلوبهم على تعزيزه فهم بقية الخير ...

وعندما وعت عيناه كتائب مقدماته ، والتأمها وجيشه المنزل الجديد ، لم يكن انسحابهم ما يهيج خشيته ، ويدفع به إلى الجزع ... إنما يحز فى فؤاده اللحظة

أن تتسع الهوة بينه وبين صاحب الشام سعة تنذر ولا تبشر . فليس معاوية بصغ إليه ، ولا حائدا عن مجافاته ، ولا خافضا جناحه لدعوة السلام وهذه أزمة الأمر كله فى يمينه ، لو شاء غدر أو شاء صبر ... بانت الحرب وحدها هى المركب — القتال ، دون الحسنى ، وسيلة الوحدة المنشودة ...

وابتسم حينذاك صاحب الشام ...

ساعة كساعة . وموطن كموطن . وصل كأفعوان ...

« هذا والله أول الظفر ! » ...

وفرك كفيه من غرور ... وانتفخ نحره ولمعت عيناه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق كأنها صورة تمددت حيالها مرايا الأيام ! . . كأبيه قبله عند أحد ، وقف الابن مستمزا بصلفه ، وبثمرة خدعة ، وبنصر ساعة أورثته إياه فرقة قوم على وليهم واختلافهم من جهالة وغفلة . على الماء وقف ، ذلك اليوم ، يتجبر ويعلو ويتيه ، كأن هذه القناة الجارية قناة مسنونة صلبة فى ذؤابتها القضاء والفناء ، ركزها رهبة ، وهزها غلبة ! . . ثم مضى وما بدأه من الوعيد :

« يا أهل الشام ! ... لا سقانى الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبدا ، حتى يقتلوا بجمعهم عليه ! » ...

٤

التيه والصلف والزهو عاشوا ليلة فى خبائه ! . . كانوا ضيفانه لم يكونوا أعوانه . ولم يكونوا كذلك مواليه ... وعندما أشرق النهار ، وملأ ضوءه الأفق ، وابتردت الشمس فى الفرات ساعة الغروب ، كان رحيلها مؤذنا بأفول كبريائه ! ...

لم يعمر الظفر ... فى البدء ظنه حليفه . توأم خطاه . مطية له إلى غاياته فوطىء به ظمأ خصمه ، وعتا عتوا كبيرا كأنما الأقدار فى يمينه ، والأعمار ، وهذه الأهداف التى غالبوا عليها الحياة والموت ... فح كالأفعوان ، وصلب كالرمح ، واستطار أشرا فى سماء زهوه كالعقاب ! . . لم يرده عن التجبر أن

السلم لم تكن تقطعت بها الأسباب . وأن الحرب لم ينشق عنها الحجاب ... لم يلوه عن عناده واعتداده أن الإمام لم يبدأه بعدوان ، ووراثه غاية الريث عسى أن يتذكر ويدع لدده فتتحد الكلمة بين شطرى الأمة ، وتبعد المحنة عن الإسلام ... لم يكفه أنه مدغل مبطل ، جانح لإثم ، متجانف لمعصية يسوقه إليها هواه ... لم يرع الله !

حتى الذين جاوروه وناصروه ، بنوا حينذاك باستكباره . فنى التراب أحيانا تبر ، ومن الوحل قد ينمو خير ! . . أقرت له طائفة بظلمه وأنكرت طائفة . هلل فريق وأسف فريق . وحينما حانت له الشماتة ، وراح غروره يحرك لسانه :

« هذا والله أول الظفر » ... انبرى له من رجاله من يجيبه :

« هذا والله أول الجور ! . . » .

فعجب له ... لكن هذا العائب عليه كان زاهدا تيمه بجهالة لم يتيمه طامعا فى دنياه ، ولم يسر مسيره فى صفوفه وهو يرنو لعرض ، أو يطمح إلى جاه ...

ثم زاد دهشة . ثم غضب . ثم هزت الجرأة كيانه والرجل يمضى غير آبه فى عتابه أو فى عابه :

« يامعاوية . . سبحان الله .. ألأن سبقتم القوم إلى الفرات تمنعونهم عنه ؟ . تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ . . أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ! . . »

فبهت العاهل المفتون من خزى . فلما ثاب ، ووسعه أن يستجمع نثار عنته ، ثار ، وسارع يردع الرجل ، ويكبت إنكاره أن يذيع فى الناس :

« اكفنى نفسك . ما أنت عندى بذى رأى ! . . »

لكنه أخطأ الرمية ... فلقد راجعه الناسك كرة أخرى بالعيب واللوم ، وراح يقذف إليه بحممه :

« هذا والله أول الجور ! . . لقد هجمت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك »

وصدق . كأنما ستر الغيب — هذه اللحظة — قد انزاح عن مكنونه فبلغ برمق عينيه خفاياه ! . .

كان هو على شبهة من الأمر الذى جاء فيه ، فأبصر ، وولى ببقية دينه يفر

إلى المعسكر الآخر ، لينضح هناك عن حق الإمام ، ويضرب باطل عدوه بملء عينه ، وبكل إيمانه ...

وكان الحذر بالأمس فى صفوف مقدمة الأشتر هو علم الفئة التى آثرت الانسحاب . فلما اجتنبت الغرق الموهوم إلى صدى محتوم ، تلاومت ، وثابت ، واستردت العزيمة .

وكانت طائفة من الناس معتزلة ، تشهد الخلاف الناشب بين الجمعين وهى تأمل أن يرأب الله بها الصدع حين تمكنها فرصة وإن احتشدت الجيوش وشرعت الرماح ونزعت لنجاز ... فجاء عنت معاوية ، وعتوه ، وعدوانه الجديد بغير ذريعة للعدوان ، يفتح لها ثغرة للنيل منه ، والانحراف عنه ، والإعجال إلى مجافاته ...

حتى ابن العاص لم يرتض الغدر من وليه ، ولم ير فيه وسيلة إلى انتصاره . فلما عرف منه العزم على حرمان خصمه الماء ولما تنتشب حرب ، راح يعظه أن يدع غروره ، ويخلى بين عدوه وبين الشريعة بغير جور ولا تحيف ، يردون ويصدرون ما طاب ورد وصدر :

« خل بينهم وبين الماء ، فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريان — وفى يده أعنة الخيل — وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ... »

فنفخ الداهل وزفر :

« ألا تدعنى ، أبا عبد الله ؟ . . »

« إنك تعلم أنه الشجاع المطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ... ولقد سمعته ، أنا وأنت ، وهو يقول : لو استمكنت من أربعين رجلا » .

أجل قد قال :

معاوية يذكر ، وابن العاص ، وفئة أخرى ممن شهدوا ذلك اليوم ، الغائب فى الغابر ، الماثل الآن بذكراه المفجعة فى الحاضر ، كيف كانت ثورة الغضب ونار الحزن تلتهبان على وجه على ، وتأكلان منه حلمه وصبره ... حينذاك لم يكن للحلم موضع بصدره ، ولا للأناة عليه سلطان . كالليث إذ يداس عرينه ويمشى على ذماره للسكين ثعلب ؟ ... فقد غمطوه . أنكروا عليه حقه وقدره

وصهره . تواثبوا فى جوعهم ، وهو معتزل ، يعصفون بداره ، ويقصفونها .
ويبثون حولها النار ...

ذلك يوم خالد فى الزمان بغله وضغنه ، بحيفه وجوره ، بحسده وشنآنه ،
ترب الطلعة مغبر الجبين . . . ما كان عمرو لينساه ، أو معاوية ، أو هذه البقية
التى بقيت اليوم من قريش ، ثم من بنى عبد مناف . ثم من بنى هاشم الذين سلبوا
حقهم فى تراث الرسول ، وود حقد قومهم لو تخطفتهم المصارع ، ووطئتهم الأقدام
وهم تناثر وأشلاء ! . . من خلال كل هذه السنين السوالف تشق أحداثه أطباق
الزمن إلى الخواطر ، كالقبس فى الظلمة . كألسنة النار التى أوشكت أن تندلع
حول البيت تهم بحصده وتدميره . كالصرخة المدوية التى أطلقتها حينذاك فاطمة
تجأر فيها بشكواها إلى رسول الله ! ...

ولم يكن محمد ، وهم يعدون هذه العدوة على دار زهرائه ، قد عزب ذكره
من الأذهان . قبره ندى بدمعهم .. جسمه رطيب كأنما لم تفارقه كل الحياة ...
شبحه حاضر يملأ عليهم الفضاء ، كالشذى العاطر ، يغيب الطيب وهو ماثل
لا يغيب ! . . ومع ذلك فلم يكادوا يشيعونه إلى الجدث ، حتى استرقهم مس ،
وملكهم هوس ، فانطلقوا إلى دار ابنته كمردة الشياطين ! . . . معهم الشعل .
فى أيديهم الحطب والحراب . ظلالهم دمار ونار . . .

الموجدة على على ، والحسد لقدره ، والخشية أن يفسد اعتزاله هذه البيعة التى
أدلوا بها إلى أبى بكر بغرة من آل بيت الرسول ، قد حركتهم جميعاً على حرد
نهاية المطاف فيه احتلاب صفى محمد تراث ابن عمه ، وإخراج الأمر من عينه فلا
تجتمع الرسالة والخلافة فى هذه الدار من هاشم ، التى نبت قريش كلها بشرفها ،
وسؤددها ، وعزها إبان حقبة الجاهلية وبعد مولد الإسلام . . . كرهوا لها أن
تطولهم بالأمرة بعد سموها بالنبوة ، وأن يقوم منها سيد بعد موت سيد . وأن
يستأثر رجالها بالحكم ، ويستأسروا بأقدارهم ومزاياهم هذه الجزيرة الفسيحة التى
تعج بالقبائل كأنما عقمت عن إنجاب أمثالهم سائر البطون ! . .

وعلى ضياء شعلة مما طوق الدار ، ولون الأفق ، وأشاع فى الجو حرة ، لاح
عمر وقد تغير وجهه بحنقه ، وتبلل بعرقه . وتخلل الدخان لحيته ، ولمع حسامه
فى عينه كجذوة النار . . . إنه أحمس شديد فى دينه ، أحمس شديد فى عدله ،

ولكنه اللحظة أحس شديد فى عنفه واندفاعه وهو يؤم الباب ... إنه ليثير الجمهور ويهيج الفتنة ، ويهيئ الحطب ليؤرث الحريق . . .

واستأسد وتنمر . وتصايح وزأر . ثم اندفع من خلال الجموع كالشرر ، يدق البيت على ساكنيه . . . ليس هذا بعمر ! . . ما هو بابن الخطاب ! . . الذى جرى بقدميه إعصار . . . الذى انفجر بصدره بركان . . . الذى استوى على لبه مارد ! . . . إنه الآن مخمور الأمس ، عاد سيرته الأولى كحاله من بضع سنين ، حين أعماه شركه ، وأضله هواه ، وخذله عن الهدى غروره فسل حسامه وانطلق على درب مكة ينشد النبي ، ولسانه إذ ذاك يجرى بكفره وخمره :

« لأقتلن محمدا بسيفى هذا ! — هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها وضيع بهارجها ! . . . »

واليوم أيضا ختله اندفاعه ، وبقية بنفسه لا تزال راسبة من حسد الجدود وبغضاء الأجيال ... هوى كهوى يعضى به ، ويحيد بخطوه الثابت ، فيغدو ويروح على لهيب المشاعل ، يوسوس لنفسه ، ويهتف بالعصبة التى تؤازره على هجم الدار :

« والذى نفس عمر بيده ، ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها ! » . .

قالت له طائفة خافت الله ، ورعت الرسول فى عقبه :

« يا أبا حفص ، إن فيها فاطمة . . . »

فصاح لا يبالى :

« وإن ! . . »

واقترب . وقرع الباب . ثم ضربه واقتحمه . . .

وبدا له على ...

ورن حينذاك صوت الزهراء عند مدخل الدار ..

فإن هى إلا رنة استغاثة أطلقتها « يا أبت رسول الله .. » تستعدى بها الراقد بقربها فى رضوان ربه على عسف صاحبه ، حتى تبدل العاتى الدل غير إهابه ، فتبدد على الأثر جبروته ، وذاب عنفه وعنفوانه ، وود من خزى لو يخر صعقا تبتلعه مواطئ قدميه قبل ارتداد هديه إليه ...

وعندما نكص الجمع ، وراح يفر كنوافر الظباء المفزوعة أمام صيحة الزهراء ، كان على يقلب عينيه من حسرة وقد غاض حلمه ، وثقل همه ، وتقبضت أصابع

يمينه على مقبض سيفه تهم من غيظه أن تغوص فيه ... أكذلك ينتهبون حقه ، وتراث هاديه ، ثم يلوون على انتهاب عمره وعمر أهله : البقية الباقية للرسول؟.. أكذاك الهوى يضل ؟ ... الآن ظهيره قل يستبيحون منه ما لا يباح لحرمه لهم حل ، وأمنه عليه حرام ! . .

ومد طرفه نحو قبر محمد يناجيه :

« يا ابن أم ... إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ... »

وتقلصت شفتاه . وعضت راحته كرة أخرى على حسامه من أسى وحنق وحسرة ... ثم أغضت عينه ...

لا حيلة ! . .

فاته الزمن ...

بيت القوم أمرهم بليل ... هذه الفروع والأصول فى الجزيرة أزهر اليوم نجمها فغدت تمد الأعناق مستطيلة تختال . أصابت ثأرها . بلغت وطرها من هاشم . فضلته بعد كل هذه الأعصر الطويلة ! . .

الآن عزت قريش . علت تيم بابن أبى قحافة وقد انتهت إليه الخلافة . زهت عدى بابن الخطاب إذ هو صاحب المشورة والوزارة فى الدولة الجديدة . طابت نفسا زهرة وأمثالها من البطون والأبيات وقد نالت جميعها مبتغاها من هذه الدار التى سمت عليها فى الغابر حتى أمس بالشرف والمجد والمكارم إلى ذروة كانت عزيزة عن تطلع العيون ، وتصور الأخيلة ، وشطحة الأحلام والظنون ! . .

كلهم عقدوا النية ، وتناصرت حفائظهم القديمة على على فنازعوه سلطان رسول الله حتى انتزعوه وهو حينذاك فى غفلة من الأمر ، مشغول عنهم ، وعن تدبيرهم وتآمرهم ، بالجثمان الطاهر المسجى يجهزه ليرحل الرحلة الأخيرة ! . . مضى محمد لغير أوبة . فرغت الدنيا من نوره . غاب فى قبره وغاب معه ولاء طالما تسابقوا به يولونه آل بيته ، قربانا وزلفى وفريضة ... وعندما انجاب ظلهم عن باب فاطمة ، وانقشع جمعهم العادى ، وخلصت ساحة الدار من مواجدهم وحسدهم إلى حين ، تلفت على يرود ببصره المكان ، ينشد العون ، ويبحث عن النصير ...

وكن يعصر الماء من صخرة ، ومن يطلب الجنى من سراب ، ومن يحاول ملء راحتيه بالريح ؟ همس فى حسرة وقد ارتد بصره إليه وهو حسير :

« لو استمكنت من أربعين رجلا ! . . . »

عمرو يذكر . . . ومعاوية . فما كان له من سبيل إلى النسيان وأبوه قد تصدى إذ ذاك يعرض العون على آل بيت رسول الله ، ويغنيهم النصرة لو أطاعوه فأثاروها فتنة على الصديق ، تشرد به ، وتنزل المزيز من عليائه ! . . ومع ذلك فالابن اليوم لا يجرى على سنن أبيه . أحلامه ترده وتقصيه . تحضه أن يشاق ، تهم به تراوده وتغريه . .

ومال بجيده عن صاحبه ، وعن الذكرى ، وعن مياه الشريعة وقد وقفت دونها شراذم رجاله تمنع روايا الإمام أن تبلغها أو تبل بقطرها الأوام . ولقد أوشك الناس أن يقتتلوا عليها . بل تسرع فوارس من فوارس على صوبها إلى ناحية معسكر معاوية فوزعهم أمير المؤمنين عن القتال حتى يأخذ عدوه مصافه ، فيحاجه بالحسنى ، ويعذر إليه . .

لكن معاوية لم تكبحه هذه الأريحية النادرة من غريم ، فمضى وما اعتزم من عدوانه . . إن حوله الآن جمعا من آله لهم ترات تحرك فيهم مكامن الضغينة ، راحوا كالأبالسة ، ينفثون في روعه وينفخون في غروره ؛ وكالسياج ، يضربون أكنة على فؤاده فلا يرى الرشاد . . إن جراح أسلافه نكأتها أطماعه فسال قيحها ودمها وعفنها تلبس الهدى بالضلالة . إنه مفتون . البأس والظفر والغلبة الآن أعلامه ! . . الظمأ والصدى من جنوده ! . . بيده الآجال . وإليه المآل !

وعندما أتاه حارس من رجاله يعلن قدوم وافد ، تلفت اختيالا وكبرا ، ثم عقص قرنه ، وألقى بنظرة متفضلة على مدخل الخباء . .

وقال له صعصعة بن صوحان دون أن يستقر به المجلس :

« يا معاوية . . إن أمير المؤمنين يقول لك » .

فسأله بغير اكتراث :

« رسول ؟ . . »

« نعم . . . إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم . فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . . وهذه أخرى قد فعلتموها : حلتم بين الناس وبين الماء . . فخل يا معاوية بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم . . »

فمد المتجبر طرفا ساخرا يقتحم الوافد ، ثم يميل عنه إلى من حضره من شياطينه وفيه من الشماتة شعاع . .

وأكمل الرسول فى طمأنينة ونبرات صوته الهادئة تتنغم برنة وعيد :

« . . إن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له ، وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا ! . . » .

وصمت برهة يذرع الجمع بنظره ، ويلم فى نهاية طوافه بسيدهم الذى ناشه الفكر وعقد ما بين حاجبيه . . . ثم عاد يسأل :

« ما ترد على ؟ . . »

قال معاوية وبصره على أعوانه :

« ما ترون ؟ . . »

فتحدثت الأحقاد ! . .

انفلت منهم الوليد بن عقبة ، يعصف :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه أربعين يوما ، يمنعونه برد الماء ولين الطعام . . اقتلهم عطشا ! . . »

فجهد عمرو ليتقى مغبة الدفعة ، ومضى يراجع بنصحه :

« بل خل بينهم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم . . »

وثار يزيد بن أسد القسرى :

« كلا والله ! . . لنقتلنهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين . . »

وهاج الوليد ثانية :

« اقتلهم عطشا ، قتلهم الله ! . . »

وقفى ابن أبى سرح على آثاره ، وهو يحاول أن يبدو من خلال حقده فى ثياب القائد الماهر الذى يهدف للغلبة :

« امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . . امنعهم الماء ، منعهم الله يوم القيامة ! . . »

عندئذ نبا بصعصعة حلمه ، ولم يطق صبرا على سفههم فهتف بلا مبالاة :

«-إنما عنمه الله يوم القيامة الـكفرة ، الفجرة ، شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق ! . . »

ثم نهض يحدث أميرهم :

« ما ترد على ؟ . . »

« سيأتيكم رأيي . . . »

وقد أتاهم ، ولما يبلغ الرسول مأمنه . . .

دعا إليه أبا الأعور فأمره :

« ياسفيان . . . امنعهم الماء ! . . . »

٥

الشريعة حرم . نأت الآن عن اللسان اللاهث ، وعن الحلق الجاف ، وعن الشفاه التى شققتها حرق الأجواف . . . لا واردة . لا راوية . لاشربة ولا زاد ماء . . . الآن لا يتربص الرجل للرجل من خصومه ، ولا الفارس للفارس تربص الأمس الذى أملته حينذاك الخصومة أو توازع اللدد والسخيمة . بل تجيش الجمع . اعتد وتأهب كما تحتم طبيعة الصراع . . . هذه عدة وعدد وعتاد . جنود على تعبية . أداة حرب على أهبة وحرب على الباب ! . .

استوت الصفوف . شرعت الأسنة . جرت الرصدة خفية تشم الأنباء ... على طول المجرى انتثرت قوات الشام فى نظام . فيهم الراجل والفارس . عليهم الدرق والدروع . بأيديهم السيوف والنبل كأنهم سور من السلاح واليقظة دون اقتحامه . المنايا الحاصدة ، والموت القاصف ، والجراح والدم ...

وعلى كثب منهم فى الجانب الآخر يجثم الصدى والهم . واللوم والحسرة . والمنى القعيدة التي تمد عينها إلى سراب ! . . الدواب تلهث . والأناسى تشرق بقية الريق . رغاء كبكاء وصهيل كعويل . ورنين كأنين ... كلما مضت بالإمام بينهم قدم سمع الزفرة فى النبرة . وجرس الندم فى آهة الألم ... من ديار مذحج . من منازل كندة . من ألوية الأنصار ، ورايات الأزد ، وخيام بجيلة

كلهم أسيف مغموم . الرثاء خفقة القلب . والدمع طرفة العين . والأسى والحسرة اختلاجة اللسان . . . ففيم مكثهم هنا على الرمل الجاف يمتص جلودهم بقية مياه الحياة ويعتصرها قطرة قطرة ، ثم يدعهم لقى ضائما تنتهبه السباع والعقبان ؟ . .

لموتة على الضفة هناك ، عند حد الأفق ، يليها الدم أشرف وخير ... إن يكن الصدى يحفهم ، ويشف منهم الحلوق والألسن ، وينهش أجوافهم بحرقة . فالقتال الآن فى أكفهم ظماء ! . . إنهم ليرجون مناجزة . يحنون إلى قتال . يشتفون لو انطلقت بهم إلى الغاية القدم والظلف والحافر تحمل النصال الحديدة ، والعزائم الصلبية الشديدة إلى هذا السور الذى حمى الفرات دونهم كالحرم ، تنال منه ، وتثغر فيه ، وتخط على جدرانه الحية — بأحرف حمراء — عقبي أخدوعة ! . .

ورن فى الفضاء ، تحت هدأة الليل الساكن صوت وجيعة ولوم ودعوة :

« فما بالنا أمس أسـد العرين وما بالنا اليوم شاء النجف ! . . »

من ديار مذحج انطلق النـداء . من قوم الأشتر . من بين الفئة الذين عاج صاحبهم بالارتداد عن مواقع الماء إلى القفر حين تبين الخور فى جنوده يذهب اللب ، ويأة كل القلب ، ويهد عزيمة الأبى الصابر ... فـكيف اليوم أمنهم ؟ . . كيف هجرة لم كانت فى الله ؟ . .

وهمس الإمام ، مع رجعة الصدى الحزينة ، بسمع رفيقه :

« ألم تغلبنى على رأيى ، أنت والأشعث ؟ . فدونكما ! . . »

فارتج الأشتر ...

ولو كان يسعه الفرار من هذه الملامة الساخرة ، كما وسعه أمس التقهقر ، لبذل من عمره سلخة ليهرب من النبرة الزارية ... ولـكنه يصبر على هذا اللوم ، ويثبت له ، ثم يغضى الجبين وهو يقبل على نفسه يحاسبها وإنه لخزيان . . فلقد غلبه . بل غلبه وهو حينذاك مغلوب على ركوب ما يكره ، ويكره الإمام منه ... غير أنه لم يتمرد . حاشاه ! ما كان ليعصى أمير المؤمنين فى أمر أمره وإن علم الطاعة ستقتضيه أجله وتبتزه الحياة . إنما هذه الظروف التى ألمت به ، قد جرت بخطوه ، على غير رغبة منه ، وفى حين غفلة ، إلى وجهة ظن فيها السلامة ...

كان قد حاز نصرا مرموقا فى حساب الاعتبار الحربى وطهر الأرض أمام القوة الرئيسية لجيش الإمام عندما دق شراذم أبى الأعور السلمى ودفع بها مهرولة إلى ما وراء قنسرين ، لـكن الفتنة لم تطعمه ثمرة نصره ، ولم تمل له فى البقاء بالموقع الجديد إلا زهاء ليلة طلع صبحها ومعاوية يدب فى فيالقه على الطريق . فعندئذ لزمه التدبر ، وغدا حقا عليه أن يستحضر فى تقديره طاقة جنده وجهده . . إن هو بقى حيث أقام ثم ثار به خور أصحابه تقسمه وإياهم الآلاف ، وشردت بهم أجمعين مخاوفهم الموهومة . وإن هو ظهر على تخاذلهم . فصبر وثبتوا معه بموقعهم وقعوا إذن بين مثل الرحى الطاحنة من جحافل الشام : مقدمتهم التى تراجعت أمس فرارة ، وحشودهم المقبلة اليوم تزحف نحوها زحفها السريع . فلقد سبق معاوية جيش الإمام عند صفين ، ونزل منزلا وسطا بينه وبين الأشتر ، يشطرهما، ويبتر المقدمة الظافرة عن جيشها المتخلف حتى لتوشك أن تغدو بمعزل هى فيه فريسة مفلولة الحيلة ، مغلولة الوسيلة ، حيال جمعه الوفير ذى الحول التام على المصف بكل دفاع ، والبدء بأى هجوم .

هذا الوضع الذى أصبحت فيه فرقة الأشتر هو الذى أملى على قائدها حركة التقهقر على غير رغبة الإمام . ومع ذلك فلم تـكن بالحركة اللازمة التى لا حيلة دونها لمحتال ، ولا محيص عنها فى ضرورات فن القتال غيرها كفيل بالغلبة . ونهجها سرف من الأشتر فى التطير والحذر ، وفى التماس مسارب الفرار والنجاة حيثما يجدر الصبر الضمين بالظفر . ولئن كانت الظواهر البادية حتمتها مرة ، فحكمة الحرب حرية بأن تنـكرها مرات . فالموقع المهجور جدار يحتمى به الجيش ويمنعه أن يلتف حوله عدوه من سبيل مأمن . وهو مشرب الجند والدواب . وهو معبر الزاد والمدد والعتاد . وهو منفذ الرجعة . وهو بعد هذا كله شق رحى يرهب هذه الفيالق الـكثيفة العادية ، التى قدر عليها أن يسلمها زحفها السريع إلى الوقوع فيها يشبه الـكمين ، بين معسكر الإمام عند صفين ، وبين الشقة الممتدة إلى الشمال من الرقة ، إلى سور الروم ، إلى قنسرين التى سيطرت عليها المقدمات المنصورة . . .

كانت خطة لاشك مكفولة لها عناصر النجاح لو أحسن العمل على نسقها ،

واستمسك الأشتر وأصحابه بالتزامها ، والصبر جهدهم على بلوغ حدها المقدر وما نبيح هنا الادعاء بأنها اختطت من قبل أو رسمها على قبيل مخرجه أو إبان مسيره إلى الشام قبل نزوله منزله المعلوم . ولكنها انبثقت له ، فيما يبدو ، عندما قر به وبفرعه القرار . وهى تنم عن بديهة فيه لماحة ، وتبصر بالأمور غير منكور ، تراه من خلالها على خير ما يجب أن يكون قائد ماهر ، ومحارب قادر مداور ، يستطيع أن يفيد من جماع الظروف والغير والمفاجآت التى تجد — دون توقع — على حلبة القتال . . . فلقد كانت مجموعة جيوشه ، قبل الانسحاب ، تستند بظهرها إلى الفرات ، وتؤلف فى انتشارها من معبر الرقة مثل القوس ، طرفها البعيد فى قنسرين ، وطرفها القريب عند صفين . وكانت فيالق معاوية المبتورة المقدمات ، فى موقع وسط ببطن القوس ، محفوفة بالعدو من جهاتها الثلاث . حتى لترسم حولها حشود العراق والحجاز مثل منجل الحصاد . . . من الشرق والشمال والجنوب حصرها على وأغلق عليها المسالك . لامنفذ لها إلى النهر ، إلا أن تقتحم دونه الشقة على كتائب زياد وشريح ، المنبثة على طول مجراه ، والمتخذة لها قاعدة حربية فى سور الروم . ولامهرب لها صوب حلب ، إن أرادت الاتصال فى مشارفها بفرقة أبى الأعور المبتورة ، لأن الأشتر كان يسيطر على منفذ المدينة . وحتى إذا وسعها التسلل إلى شريعة الماء شرق صفين من الفضاء الواقع بين معسكر على ومراكز مقدماته ، فسوف تجابه حينذاك فرقا أخرى من كتائب الإمام ، قد خلفها حلفه على أهبة ، عند المعبر ، لتؤمن خطوطه ، وتكون ردءا يدفع عنه أيما هجوم مفاجىء قد يشنه عدوه ذات يوم ، فيقطع صلته بالعراق . . .

لم يكن إذن لمعاوية من خلاص ، إن هو آثر الفرار من مأزقه ، إلا فتحة عند الغرب ، تسلم جنده إلى البادية — اجتيازها حقيق بأن يوقع جيشه فى هلكة ، أو يقوده إلى ضياع فما مغامرة بانفلات من ثغرة يتربص له الخطر على كلا جانبيها ، خيرها قتال وشرها وبال وسوء مآل ، وعقباها هزيمة أو استسلام على أية حال ؟ . . ليوشك أن يتبدى له مصيره الرهيب وهو حينئذ يستقره الضنك فلا تطالعه من قتامة الأفق إشماعه سلامة ... الحلقة عليه محكمة . الإمام

عن يساره ، والأشتر عن يمينه ، والحائط المسلح على الفرات من وراء ظهره تصب كلها الويل ، وترميه بالموت والمصارع حين يجنح إلى المشاقة أو إلى الانسحاب أم يحسب غريمه عند ذاك تاركه يجوز الثغرة فلا يسدها ، ولا يهز منجل الحصاد ؟ . .

هو فى شرك . غدا العنف لا يجديه ، فالهلاك والمغامرة سواء ، وشق الطريق عنوة قضاء عليه بالفناء . . . هذه محنة . أحبولة لا يبرحها إلا بالحيلة . وعندما تطبق عليه الأمور ، وتشتبك خيوطها ، وتضيق رحبة الفضاء ، فالإقدام نائلة ، والإحجام هو الفرض ، والسلامة الغاية ! . . إنه فيما علمنا أريب ، وفيما يحسب على دهاء . . . وله أسوة فى الغصن اللدن الذى ينثنى إذا عصفت الريح ! . .

لهذه الساعة كان يرنو الإمام وهو عندئذ بمستقره قرب صفين يبعث الرسول بعد الرسول ليحمل الأشتر على الثبات . فقد خايله النصر . وشم رائحة القهر تنطلق من لدن معاوية وهو كالثعلب فى حبالة الصياد ، إنه صبر ساعة ، أو سويعات أو بضعة أيام تعدها الأصابع إن امتد بصاحب الشام أجل كفاحه ولم يعل من أول لحظة إلى المبادرة للنجاة عن طريق التسليم . وما كان ليستمسك حينذاك بعناد يورثه هلاكا لا مراء فيه ، تجهمت فوقه غيومه ، وقطر قطره فأنذر بوبل هطال ما كان ليلوى جيده كما هو الآن يلويه ، ولا ليمقص قرنه ، وينفخ نحره نفخة المدل الغرير . ولكنه كان حريا بأن يروض من شماس نفسه . ويعلك من جماحها فيدع أحلامه وأوهامه ، ويميل إلى الموادعة ، ويقبل وهو كظيم يهادن الإمام فيرتفع الدم ، ويخمد الخصام ، وتتحد كلمة الإسلام . . .

غير أنها فرصة ولت . ذهب أوانها فلا معاد . وعندما أدرك القوم قدرها ، وأبصروا مزاياها ، كانوا كالصائد ، أفلت الطير وفرغت بالشراك ! . . فلقد قضى عليها الخور ، وتقهقر الأشتر ، وانساب الأشعث على آثاره حتى أصبح الجيش وهو فصائل مقطعة ، ووصائل بلا عصابة . ولولا أن بادر على فصمد مليا عن معه ليلتقى بالمخالفين ، لما استوت صفوفه ، ولبقيت جموعها بقضها وحشدها تتهددها هذه الثغرات التى خلفها بينها الاضطراب وفتحتها فوضى الانسحاب . . .

* * *

وأقبل الأشعث يحدث الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات ، وأنت فينا ومعنا السيوف ؟.. خل عنا وعن القوم ، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . . . »

وضح له الآن خطل ما أعان عليه ، وعقبى خلافه ، والنتيجة التي أسلمته العوبة في يدى معاوية ، لو شاء عابث ، ولو شاء حطم وهو حينذاك غير مدافع ولا مردود . . .

وعاود حديثه ثانية . هذه المرة لم ينكر الوزر الذى بثه فى طريق الانتصار الضيع كغرسه الشوك والمواسج تحت أقدام طفل غرير :

« . . . سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك . . . »

ولم ينم على وعده . . .

الموت الآن هو مجاز الحياة الفداء ، والبذل ، وإنكار الذات . إنه امرؤ جسور . لا تعوزه الشجاعة ، ولا يتردد اللحظة الواحدة فى التقدم ورأسه على يمينه إلى اقتحام الأهوال . . . ليس بخوار . ما هو الذى يفرق أو تهتز تحته أوصاله إن حمى البأس ولاح الحين ، وامتلأت المجاج والمفاوز عليه بالمصارع . فالسلاح ملهاته ، والحرب رياضته ، وهذه الحياة البدوية التى عاشها عمره الطويل زودته بزاد من الخشونة ، والجلد ، والحمية راض نفسه على الكفاح . . .

ويمضى يؤذن الناس بالتأهب للصراع المقدر :

« من كان يريد الماء ، أو الموت ، فميعاده الصبح ! . فإنى ناهض إلى الماء . . »

ثم ينثنى إلى أهله يقوى فيهم الهمم ويشد العزائم :

« يا معشر كندة . . . لا تفضحونى اليوم ولا تخزونى . إنما أقارع بكم أهل الشام . . . »

حتى فى هذا الموطن ، لا ينسى الرجل تلكم الخيلاء التى أفعمت فؤاده ، ووضعته وقبيله ، فى عينى نفسه على رءوس غيرهم من المعاشر عندما يثين اللقاء ، وتدعو الدواعى إلى الصبر فى البلاء . . فلقد علم أنه ليس وحده الناهض فى حرب ، الناهد اليوم إلى مناجزة عدو مدل بأقداره ، مترصد لهم على شريعة الماء . . . ليس وحده السائر إلى الحتوف الرواصد ، والمنايا الحواصد . فحين

رفع صوته بالنداء يدعو الناس للأهبة ، كان موقناً غاية اليقين أنه غير مغن فتيلا فى الوقعة المرقوبة ، إلى أن يعينه عليها معين ، ورفيق جهاد ، وعدة أجناد : فوارس على خيول كأنها الأعاصير ، تنطلق أمامه فتمشى على وجار خصمه العنيد بالدمار ! . .

يقول حينذاك للإمام ، يستأذنه ويستمده المعونة :

« يا أمير المؤمنين . . . أنا أكفيك . فر الأشتر فليعل بخيله فيقف حيث تأمره . . . » .

فيجيئه الإذن :

« ذاك إليكم . . . » .

لكنه امرؤ فخور ! . . يود لو يتعلق به الفضل حين يأزف الفصل ، وتنتهى إليه الأسباب عندما يشرق النصر ، بعد التقاء النصال والحراب ، وتقضب الجذوع والرقاب ! . . إنه مختال ، ذو سرف فى كبره وخيلائه . مزهو ، له غلو فى علوه وازدهائه . ولقد يأنف الموبقة ، ولقد يأبى السقطة ، ولقد يأتى المكرمات . ولكنه فى فعله ، يكاد لا يصدر عن سليقة مستقيمة أو طبيعة سخية كريمة : بل بقية من نخوة الجاهلية أو حمية البداوة هى التى تسدد خطاه . . .

السيرة المستطيرة ، والذكر ، والأحدوثة مأمولة . . . أن يلغط باسمه السامر . أن يتحدث الندى . أن يبيت ثم يصبح وهو مذاق الشفاه ورواية الرواة ! . . ودعه ينطلق فى الحومة ، يهجم ويكر ، ويغدو على شلو ويروح على شلو ، وتتقصف أمامه المقاتلة كالأعواد — أيما محنة جازها ، وأيما خطر دهم ، وأيما بلايا وأرزاء لا تذهله لحظة عن الوفاء لنفسه وجنسه وإن نسى ، فى كلا الأمن والغمة ، الوفاء لمن حق له عليه الوفاء . . .

. . . يرى الأشتر يبلى بخير ما يؤمل من مثله ، ويضرب بسيفه جموعا تتدفق عليه كالطوفان حتى يكشفها عن الماء ، فلا تهزه هذه الشجاعة النادرة بالرضا بقدر ما تزلزله بالغيرة ، فيصرخ هاتفا بحامل لوائه :

« لله أنت ! . . ليس النخع بخير من كندة . قدم لواءك . فإن الحظ لمن سبق . . . »

. . . ويلتقى بعمرو بن العاص قبيل التحام الأسنة ، فيزجره ، ويخوفه أنفة قومه البدو الأباة ذوى النخوة :

« ويحك يا عمرو ! . . أترانا نخليك والماء ؟ . . تربت يداك وفمك ! . . . أما علمت أنا معشر عرب — لقد رمت أمرا عظيما ! . . »

. . : وتدور دائرة الواقعة فى النهاية على البغاة ، فلا يرى النصر ، الذى أسهم هو فيه بحظ وافر ، كفاء لبعض حق وليه أمير المؤمنين ، ولا لبنة فى بناء الهدف العظيم الذى أقبلوا من أجله . . . إنه ليبدو على ريبة كمن لا يدرى ما هى الغاية ، وفيم القدوم . أو لا ، فإيمانه بحق على — أن يكن آمن به — تسليم ، وولاؤه لمثله ونواياه ولاء مريض سقيم . . . يقوم غب انجلاء الوقعة عن الظفر :

« ... والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة ! . . ولكن معى من هو أقدم منى فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة . . . »

ولكنه امرؤ — كما رأينا — فخور . هدفه السيرة المستطيرة ، وتذاكر السمار ، ورواية الرواة . وحافزه الغيرة ، والحمية . . . حتى عندما انتدب نفسه للقتال على الماء ، لم يكن الندم ما دفعه ، ولا شعوره بخطأ ارتداده ، ولا الرغبة الخالصة فى مظاهر غاية الإمام . إنما تحركت نفسه بزهوها وكبرها وتلك الخيلاء حينما سمع من دياره هاتفا يحثه على حمل السيف ، ويدعو للنجدة ، ويثير فيه مكامن الغرور :

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة ... من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه ... فهبنا أناسا قبل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ، ... وتلق التى فيها عليك التشتت
فمن ذا الذى تثنى الخناصر باسمه ... سواك ، ومن هذا إليه التلفت ؟ »

٦

وقف الأشتر بين فرسانه ، على فرس له أشرف ، محذوف ، أدهم كحلك الغراب ، يرنو إليهم بمين ، وإلى الفرات البعيد بمين . ثم أقبل يحثهم ويحرضهم ، وقد حان وقت اللقاء :

« فدتكم نفسي ! . . شدوا شدة المحرج الراجي الفرج . فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون الرأس . . . »

وهتف الأشعث بن قيس برجاله :

« بأبي أنتم وأمي ! . : تقدموا قاب رمحي هذا . . »

وراح يلقي برمحه ويتبعه ، والقوم على آثاره ، سيوفهم على عواتقهم ، والحمية تلتمع بمثل ومضة الغضب في لحظ الأعين . . .

تقدم الرجلان للحومة وما في الخاطر إلا العنف والقتال والشهادة . كل جهد بذلاه للإبقاء على السلم عبث ، وكل سبيل فتحاه للموادعة على الماء دون لقاء ، سده معاوية وصحبه . . . اليوم لا مهادنة . لا فرجة لصلح وإن يكن هذا الماء غير ما اختلفوا فيه ، وقدموا له ، وتذرع العسكران بالصبر والسلاح والجموع الكثيفة لبلوغ مداه . . .

في غمرة هذه المحنة التي طوقت بعلي ، وأحاق شرها بأجناده ، نسي صاحب الشام والذين معه تلك الذريعة التي اتخذاها لجيشهم راية ، ورفعوا على رءوسهم ديباجتها المصبغة بلون الدماء ! . نسوا ثأر عثمان الذي احتجوا به ، وجاءوا فيه ، وحركوا القلوب والألسن لتقيم عمرها على اللغط به وترديده . . إنما أمس لفقوا الحجة ليبلغوا من الدنيا جاهها وسطوتها ، فأتتهم اليوم فرصة خير من حجة ، وسانحة دونها كل ذريعة ، إذا أرادوا التوسل إلى هدفهم بالسبل الموطأة دون الأسباب المصنوعة ! . .

الآن لم تعد لهم إلى التعلات حاجة ! . . بلغ طموحهم مأمنه ، غدوا على قيد خطوة من هذا المجد الذي سبقوا إليه الزمان والقدرة والمزايا الخلقية التي يجب

أن تتوفر لكل طامح سلطان . القوة فى ملاكهم . العدة أعدت والحشود حشدت . اليد الطولى يدهم فى موقف أصبح غريمهم فيه كمن شد وثاقه وكبلته الأغلال . فما لهم اليوم والمطل ، وقد كان المطل أمس مركبهم حين كان البدار حريا بأن يقودهم للدمار ؟ . .

بل يبادرون لحظتهم هذه إلى اهتبال الفرصة التى لم تجدهم بمثلها الأيام ، ولم تهنأهم بصنوها أضغاث الأحلام . فلقد مات الآن عثمان فى خواطرهم فلا تفكير فيه . ومات أيضا ثأره فلا حديث عنه ولا محاجة ولا ادعاء . ومات كذلك كل جدال كانوا يزعمونه وسيلة فيئهم إلى الجماعة ، والدخول فى رحبة الإمام ، ونبذ الانقسام .

لم يدع منهم داعية بدعواهم القديمة : أن ينال قتلة الخليفة الشيخ الجزاء ، أو يسلمهم على عن يد وهو صاغر لسيد الشام ، أو ترجع الأمور شورى فى الناس فيؤمر الملأ من يشاء . . . كلا ، فما هذه كلها — الساعة — مطلب . لا أرب لهم فيها . لا غاية يأمنون أن يبلغوها من ورائها ، وهى تعلات ، كهذه الغاية المؤكدة المضمونة التى خايلت عيونهم ، وخالجت ألبابهم ، وأوشكت أن تطولها أكفهم ، وهم بموقفهم الحريز المنيع على ضفة الفرات . . .

ويهتف الأشتر بابن العاص وقد تواقفا عن كثب ، يتهيآن للنزال :

« . . . يا ابن العاص والله لقد نزلنا هذه الفرضة والناس تريد القتال على البصائر والدين . وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية . . . »

أجل حمية . فلغير الهدف الذى أقبلوا جميعا ، من هنا ومن هناك ، من أجله يقاتلون . . . لغير الاحتجاج بدم عثمان . لغير شق الطاعة على جماعة الإسلام . لغير الوحدة المنشودة . إنما انتهز زعيمهم ابن أبى سفيان ، هذا الموقف الضنك الذى أصبح فيه خصمه ، فهزه سلاحا باترا ليفتح به ثغرة تنفذ من خلالها مآربه ، فيسقط دولة ، ويقيم دولة على أنقاضها لنفسه طالما غازلت فيه عرائس الخيال .

وينادى الأشعث حينما يقارب القوم ، وهو يحسر لهم عن رأسه ليروا شعثه فيعرفوه :

« أنا الأشعث بن قيس ! . . خلوا عن الماء . . . »

فيبادره أبو الأعور :

« أما والله لا ، حتى تأخذنا وإياكم السيوف »

« قد والله أظنها دنت منا ! . . »

وبمثلها أجابه عمرو :

« والله لانخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينا اليوم أصبر ! . . »

وعلم ربهم صبرهم ، بل خورهم ، ذلك اليوم على النهر ! . . فما أن بلغ عنتهم غايته ، وأبوا الشرب على عدوهم ، وحسبوا موقعهم الحصين مانعهم ، حتى أرسل الأشعث إلى صاحبه :

« أقحم الخيل ! . . »

عندئذ انطلق الأشتر بفرسانه كأنهم مردة أطلقوا من عقال طال فيه احتباسهم منذ عهد سليمان ! جاءهم الفرج بعد ضيق . تنسموا الحرية فى ريح الموت . وما الموت ، وهم يرونه اليوم فى الوثوب ، كما رأوه فى التقاعد ؟ . . . وما غاية حياة يحفها الضيم ، ويحدها الخسف ، وتباعدها الكرامة ؟ . وفيم ذلتهم الآن لذليل ، رقيق طليق ، استرقه أمس كفره حتى حطم محمد هبل والعزى ومناة ، وغيرها من مسوخ مؤلهة ، فأكره حينذاك وأبوه وأهله على الخلاص من قيود الضلالة ، وشرك الشرك ، وأغلال الجهالة العمياء ؟ . .

لود الأشتر لو تمهد له طريق الاستشهاد ، أثناء هذا الصراع ، عسى أن تغسل دماؤه حوبته ، وتمحو خطأه عند ما خالف الإمام . . . لكن أجله أمهله . لم ينؤ به . ظل ثابتا تحته كفرسه لأدهم الأسحم ، يقفز به على مهاوى الردى ، ويحمل معه من غبارها الفاتك ، الذى يتناثر من حوافر جواده ، ما يبثه على رءوس مناوئيه ! . . بقية الأجل كانت درعه ، وذلك الفرس الكريم المنطلق به فى النهار كقطعة من الليل كان مركبه . والإيمان فى فؤاده هو الذى كان يحمل ويشد ويقصف عن عارضوه من صفوف المقاتلة ، فيجرعهم الحمام فى الخوف قبل أن يذوقوه فى قذفة الرمح وضربة السيف . . كان شيطانا على شيطان ! . . وكان جواده نذير شؤم للذين يستقبلونه ، إن ثبتوا عصف ، وإن التووا عن مهبه انعطف كأنما حينهم كان يشده إليها بخيط موصول ! . . هو كالموت ، له سواده ولونه الحزين ، وله رهبته ، وعلى دبيب خببه ، وركضه ، وعدوه ، كانت تتراقص أبالسة المنايا المنهومة ! . .

ومضى يحمل الثكل واليتم والفواجع . . . يقط ويقد الأجسام والهام وسيفه غير ناب فى كفه ، وفرسه الحالك بلون الغراب ، كغراب ، أو عقاب ، يطير به فوق نصال السيوف وأسنة الحرب . . . فى البدء كانت الخاصة أهدافه . الفوارس الأمجاد . الأبطال الذين سرت لهم سيرة فى الشام يجل مثلها عن شطحة الأساطير . . فما أن عثر بابن فيروز ، صاحب البأس فيهم ، وسمعه يرتجز وهو يناديه : « يا صاحب الطرف الحصان الأدهم . . . أقدم . . . » حتى أقدم يلبيه ، ودهم ، فلم يدعه إلا شقين ، قد فلق ظهره برمحه ، وبعث بروحه وذكره على السواء ، إلى حيث لا معاد فى خاطر مفتون ! . .

ثم ثنى بعده بغيره : فئة كثيرة لها بلاء وبسالة ، من الفرسان الأشدة الأعلام ، فيهم زامل حامل اللواء ، وفيهم مالك بن أدهم فارس الشام ، وفيهم الأجلح الذى عدوه فيمن ذكرت العرب من أبطالها القساورة . لكنهم تخطفتهم عينه ، وكان الموت يتأرجح فوقهم وفوقه حتى ليوشك أن ينثنى عنهم إليه ، ثم يميل صوبهم دونه ، كأنما اجتلى فيه رهبة ترده وتقسر شبحه على الفرار ؟ . . .

شد عليه ابن أدهم وهما راكبان حتى غشيه ، وظن الناس أنه قاتله . فلما اندفع نحوه الرمح مال عنه إلى بطن فرسه فى روغ . وأخطأته الضربة بمثل شعرة ، وغريمه حينذاك مبهوت . . . وإن هى إلا لحظة حتى التوى ، ثم استوى ، ثم ثبت على ظهر أدهمه ، وهو يصيح كالساخر :

« خانك رمح لم يكن خوانا . . . . »

وعاجله ، فجندله . . .

وانبرى له زامل يود لو أصابه بأصحابه الصرعى ، فينال ثأر قومه فيه . يمشى إليه على حذر ، على جواد مدرب أصيل . ويلقى إليه كل عينه ، وكل ذهنه . ويتربص به غرة يجوزها إليه القضاء . . . فما أسرع ما احتبست الانفاس ، والنواظر عند ذاك عالقة بجسد الأشتر قد أطاحت به الطعنة الصارعة بين القوائم السود ! . .

ولكن قبره لم يكن هناك ! . . درأ الطعنة درعه . انثنى عنه رداه . . . وقبل أن تطرف عين ، هز سيفه مرة وهو راجل فقط قوائم جواد خصمه ، ثم هزه أخرى فإذا زامل صريع ! . .

ولم يكن للأجلح عنده نصيب يفضل مصاب صاحبيه ، وإن أصاب ذكرا في موته سطرته المدامع ، ورددته المجامع ، وسار في الناس مثلا يعز شبيهه في الوفاء . . . فلقد ضاقت أخته بعده بدنياها ، وأكلها الحزن ، وبرى البكاء عينيها إذ غدا لها دمعها العزاء ، وحزنها الشراب والغذاء ! . إنها لا تنساه . لا تطيق أن تصبر نفسها على الفجيعة فيه . لاتنى الليلة بعد الليلة ، والنهار بعد النهار ، ترثيه بذوب الروح ومن شؤون الفؤاد حتى قضت حسرة عليه . . .

ويسمع الإمام ذات يوم من رثائها الحزين :

« ألا فابكى أخا ثقة فقد والله أبكينا
أتانا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا
كريم ما جد الجدين يشفى من أعادينا ...... »

فلا يتضح لها بغير التوجع لنكبتها ، والأسى عليها . حتى إذا بلغ الرواية من نظيمها :

« شفانا الله من أهل الـ مراق فقد أبادونا ! . . »

دار بوجهه فى أصحابه يهون عليهم من دعوتها ، ثم رفعه إلى السماء :

« أما إنهن ليس يملكهن ما رأيتم من الجزع . أما إنهم قد أضروا بنسائهم فتركوهن أيامى حزانى بائسات ، من قبل ابن آكلة الأكباد ... اللهم حمله آثامهم وأوزارهم ، وأثقالا مع أثقالهم ؟ ... » .

وكم تركوا اليوم وراءهم من أيامى ويتامى — أولئك الذين أبوا إلا أن يشعلوها فتنة كنار الجحيم اصطلوا حرها من أجل جاه الحياة ! . . طاش عن المدى صوابهم ، وضل فيها حسابهم ولم يجدهم الأمل المأمول . ولا عتوهم بما امتلكوا اليوم من بأس الحرب ومنعة الموقع قد أغنى عنهم ، إنما غدوا وقودا للنار ، تتقد لها ألسنة نقادة تتخير منهم الجياد ، وتأكل الفوارس ، وتحرق الأبطال الأجلاء . . . الأشتر يضرب ويصرع ، والأشعث يضرب ويصرع . والمنجل يحصد والرحى تدور ...

ولا يطول صبر ولا كر . بل هى حملة ثم أختها يخلص بها القائدان من خاصة خصمهم إلى جمهوره . فإذا الأول بفرسانه يشد فى ناحية ، وإذا الآخر برجله يشد فى أخرى . فما يثور النقع حتى تتهاوى صفوف العدو المدل وتفتلم ، وتنفرج

عن زعيمها الذى حسب زمانه آتيه الساعة بالمجد والنصر والصولجان أسارى أذلاء يعرغون الجباه فى تراب قدميه ! . .

وعندما بانت الهزيمة لمعاوية ، وتخايلت أمام عينيه سوداء مغبرة ، كهذا الأدهم الذى أركضه إليه الأشتر فوق هام عصبته ، لم ير صاحب الشام فى الصبر نجاء ... إنما مال عن موقعه ، ولاذ عن خصمه بالفرار ينحاز بقومه ثلاثة فراسخ ، ثم ينأى ، ثم يمعن وسمه عسى المكيدة فى غد تنيله ما لم ينل بسيفه ! . .

وبعث إلى البقية من أصحابه التى استمسكت بالدفاع :

« لا تقاتلوا ... خلوا بينهم وبينه ... » .

وهل كان ثمة مجال لقتال ؟ . . بل المجال كله وسيع فحسب لمن يؤثر الحياة فى ضيم ، ويلتقط أجله وهو مبعثر على الأديم الندى بالدم ، بين نثار الأبدان ومزق الأجساد ثم لا يكاد ! . . فلقد ظفر من باع نفسه لله ، وخسر من باع حظه من آخرته بشهوة الحياة . علا الحق فهو سماء ، وزهق الباطل فهو جفاء ...

وعندما غمست خيل على سنابكها فى مياه الفرات . وفر معاوية وجنوده مقهورين بملاذهم البعيد الجديد ، انفلت إليه صاحبه عمرو ، على ثغره مع قترة القهر بسمة صفراء ساخرة :

« يا معاوية . . . ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم ، كما منعتهم أمس . أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ؟ . . . » .

فأشاح عنه وهو يهمس عن كمد وغيظ :

« دع عنك ما مضى منه ! . . » .

ثم ألقى بعينه إلى الماء ، تسبح هناك هنيهة بين الحشود المظفرة ، إلى غاية نظره ومداه . إلى مناط فكره . إلى الدخيلة الصافية للإمام ، والطبيعة النقية الكريمة . . . فإن هى إلا برهة تقضت عليه وهو يفكر ، ويقدر ، ويستخلص عواقب الأمور حتى شاع الرضا على محياه . . .

وقال بعد هذا لصاحبه :

« ما ظنك بعلى يا ابن العاص ؟ . . » .

فأجابه وقد حدس مرماه :

« على ؟ . . ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت منه . وأن الذى جاء له غير الماء . . .

٧

طلع ذو الحجة بالأمل فى سلم ترد عليهم جميعا الوحدة ، وتنزع من القلوب الغل ، وتدع الناس وهم على جادة سواء ، لا تلتوى الطرق بهم ولا تتشعب المذاهب . بدت غرته كوضاءة البدر فى الليل ، كالجبين الأبلج ، كالشامة البيضاء فى جبهة الأدهم . لها من إشراقة الرجاء شعاع . فيها أمن ، عليها طمأنينة ودعة . حتى الذين نالت منهم الجراح ، وخضبهم الدم ، طابت نفوسهم بمولده . . .

كلا الفئتين هدأ منهم الروع . لاح قرارهم فى بشائر صباحه ... الآن يتنسمون الأمان حاضرهم عليه سكينة ، غدهم القابل مأمول ، يوشك ملاءهم أن يتخيل فيه عروة غيرمفصومة توثق بين الحزبين فتعيد الأمة ، كأمسها القريب ، مؤتلفة ، تجمع النازل الدانى والنازح القريب . . . وما لهم لا يأملون وشهرهم هذا يلمهم الألفة ؟ . . وهو موعد التواصى بالتعاصب ولأم الصدوع ، وهو موسم خير ، تهوى فيه أفئدة كل مسلم ومسلمة ، وعيونهم وأبدانهم ، إلى بقعة ذات أمن وعين ، بأرض مكة قد طهرها الله ، وأقام فيها قواعد بيته الحرام بيد أبيهم إبراهيم . . .

ومضوا على صفاء . . . يومان كاملان مرا قبل هذه الغرة وهم إخوة ، نأت عنهم المواجد وخلفتهم الأحقاد . المحنة التى باعدت بينهم ، ولوت زمانا بأجيادهم عن الوفاق ، وأرسلتهم يتراشقون بالموت على مشافر الأسنة غدت الآن فى ظل الغابر . توارى وجهها بعد وقعة الفرات كأنما أغرقتها إحدى لججه حين اقتحمه جند على بخيله ورجله وغمسوا فيه القائمة والساق ! . . فما أملى لهم أمير المؤمنين فى الشماتة . ولا أعانهم على البطش . ولا أمكن لهم فى الثأر من عدوه الذى منعه شربة الماء ... وعندما جاءه الأشعث بن قيس ، وعليه رهج القتال ، يدل بالنصر:

« أرضيتك يا أمير المؤمنين ! . . قد غلب الله لك على الماء » .

قال للناس :

« خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكركم » .

فلما سمعهم يزأرون :

« لا والله لا نسقيهموه ! » .

أبى عليهم ما أرادوه :

« أيها الناس . . . إن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم . . إن الخطب أعظم من منع الماء ! . . »

ثم بعث إلى معاوية يهدئ جأشه ويبث فى نواحى نفسه الأمان :

« إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء . . » .

وكذلك شاء أن يخلص لمثله الكريمة ، وطبيعته النبيلة السمحة فلم يبادر خصمه بمثل عدوته ، ولم يسل عليه سيف الصدى الذى ابتزه إياه . وكذلك اختلفت الروايا من الطائفتين إلى الشريعة ، والخيل والدواب ، ترد وتصدر على طمأنينة . . . يومان كاملان انقضيا لم تهز كف رمحا ، ولم ينطلق من قرابه حسام . فلم يكن الخطب فى الحقيقة شربة تبل عطش الظامىء وتنقع غلة الصديان . بك هو خطب هذه الأمة التى جمعها فى الزمان عهد ، وفرقها الآن عهد ، وأخذت تنوشها الأهواء الجامحة والمقاصد المفتونة بما ينذر بالتدهور والانهيار ! . . إنه خطب الحرب . خطب الإسلام الذى توشك الحوادث الدامية أن تعصف بأعواده ، فتقصف فروعه الطرية النضر ، وتجتث جذوره الفتية الخضر ولما تشب بعد دوحته وتصلب على الأيام . . . فلقد أجلبت العرب : نصفها على نصفها . بأسها بينها شديد ، فغالبها خاسر ومغلوبها خاسر ! . . .

وأحضر الإمام بعض صحبه إليه :

« ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل ، وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى أمر الله تعالى . . . » .

كأنما عسى أن يرعى معاوية ربه ، فى قومه وأمته — إن لم يرعه فى دينه — فيبادر وهو على شفا الويل حينذاك بإلقاء سلاحه ، ضنا بالدم ، وإبقاء على الناس . عسى أن يرشد من بعد غواية . عسى أن تعطفه الرحمة على عشيرته أن تنالها المصارع . عسى أن تستميله هذه السماحة والنبل والرفق من على بعد وقعة الفرات فيقابل إحسانه بإحسان . .

وساءله منهم سائل :

« ألا نطعمه ، يا أمير المؤمنين ، في سلطان توليه إياه ، ومنزلة تكون بها له أثرة عندك إن هو بايعك ؟ . . . » .

فأبى أن يرضخ له الرضائخ ، أو يساومه في الحق :

« ائتوه فالقوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه . . . » .

فلم يجئهم معاوية بجديد . إنما عنت وعناد وإصرار . يأتونه من آخرته فينأى ويحيد ، من أطماعه فيسرف ويزيد ، كأن قد عقد النية على أمر ، ومضى إلى غاية له على مزلق ، كالهاوى مع جرف السيل ما لقدمه من ثبات ! . . .

قال له أحدهم :

« يامعاوية . إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . . . فأنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمه ، وأن تسفك دماءها بينها . . . » .

فأجاب كالساخر :

« فهلا أوصيت صاحبك ؟ . . » .

« صاحبي أحق البرية في هذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة والإسلام والقرابة من رسول الله . . . وإني أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق — » .

« ويطل دم عثمان ؟ . . لا والرحمن لا أفعل ! . . » .

وعندئذ انبرى له شبث بن ربعي . لم يطق أن يسمعه يلوك حجة مردودة عليه ، هو يعلم وهو يلوكها أنها زيف ، ومنطق باطل ، ودعوى منقوضة . . .

« لا يخفى علينا يامعاوية ما تقرب وما تطلب ! . . إنك لاتجد شيئا تستغوى به الناس ، ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : (قتل إمامكم مظلوما فهلموا نطلب بدمه !) . . فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التي تطلب — ورب مبتغ أمرا يحول الله دونه ! . . . . . والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا . ولئن أصبت ما تتمناه لاتصيبه حتى تستحق صلى النار ! . . . » .

جبهته صراحة شبث حتى أخرجته عن طوقه من هدوء الطباع ، فثار به وبأصحابه :

« كذبت ولويت أيها الأعرابي الجلف الجافى ! ... انصرفوا من عندى ، فليس بينى وبينكم إلا السيف ... » .

ولم تكن هذه أول مرة ركب فيها معاوية عناده ، وأسرف سرفه فى المشاقة حتى تهدد وتوعد وأوشك أن يسل الحسام فى وجه دعوة السلام . ولم تكن هى الأخيرة ، فلقد سبقها كثير وتلاها كثير . ولكنه فى كل مرة كان يمعن فى عنته وإن بدا هو أمام أناس كالساعى إلى الوحدة ، العامل على الوفاق ...

... ... كان همه ، إذ لعلى فى النفوس قداسة ، أن يشغل عنه قلوب القراء فلا يلوذ به لائذ منهم ، ولا يظاهره على ابن هند ظهير ... فلما أن ضاق خلافه بأبى الدرداء وأبى أمامة الباهلى ، وهما حينذاك عنده بالشام ، ووجدهما يراجعانه :

« يا معاوية . علام تقاتل هذا الرجل ؟ ... فوالله لهو أقدم منك سلما ، وأحق بهذا الأمر ، وأقرب إلى النبى » .

لوى بهم :

« أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ... فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام .. » .

وفعل بالساذجين مكره ، وقد فاتهما أن القصاص حق ولى الأمر فى المسلمين وحده أو يضطرب حبل النظام . وما لمعاوية إذن والقود وهو فرد من الرعية ؟ . وفيم دخوله فى هذا الأمر إلا أن وجده مطية تحمله إلى سواه ؟ ... وأين هذه الساعة دماء عثمان وهى هدر وكانت أمسها حرما يوشك أن يستعصى على صارعيه لو سارع إليه معاوية بنصره حين عزت النصرة له إلا من الإمام ؟ ...

وخرج الرجلان يظلعان بهذه الحجة المفلوكة إلى صفوف على وفى ظنهما أن سعيهما سيثمر الوفاق . فكيف لقيتهما حينذاك الجموع ؟ ...

دخلا على أمير المؤمنين يسألانه مطلب معتسف الشام ، فلم تغب عنه المكيدة المستترة ، والطلبة المستحيلة التى دونها ندور الهام ؟ ... ولكنه أخذهما معه إلى صفوفه ، ثم أشار :

« هم الذين ترون ... » .

فما أن جالا فى القوم ، وسرى فيهم نبأ ما قدما فيه ، حتى انبرى لهما قرابة

عشرين ألفا من المقاتلة مسربلين فى الحديد ، لا يرى منهم سوى الحدق ، يهتفون بمثل قصف الرعود :

« كلنا قتلة عثمان ! . . » .

. . . . . . وأخرى أيضا . . .

أخرى من هذه الحيل التى تواترت تكشف لنا عن عنت معاوية ، واعتسافه الذرائع والتعلات التى تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! إنه ها هنا ليبدو كمن يعيد للخواطر خرافة الذئب الذى اشتهى الحمل فراح يتذرع إلى افتراسه بعشق التلفيق وصوغ صنوف من الأسباب والمعاذير تخفى منه عنت التحيف وتظهر منه هيئة المنصف ! . . . أو هو فى الحق تلك القدوة التى تأثرت خطاها الملتوية فيما بعد كافة الذئاب ! . . تأتيه من القراء ، مرة ، طائفة ودت لو ترده عن عزمه ، وتميل به عن سبيل العناد الذى يوشك أن ينتهى بالأمة الإسلامية إلى محنة حازبة مآلها إلى بوار ، فلا يكاد يشم منهم اللوم حتى يمضى به طريقه الدائر : بحلقة من تعلاته تسلم من حجة إلى حجة ، ومن ذريعة إلى ذريعة كلها مفتولة مصنوعة ! . . فإذا صدموه ببيان ، أو جبهوه ببرهان ، فمين زعمه لا يغيض . . :

يجيئهم بدعواه . ثم يقفى بعدها على آثارها بسلسلة طويلة مبطلة ، حلقة حلقة . كلما راجعوه أتاهم المرة بختل جديد :

« أطالب بدم عثمان ، من على . . . هو قتله وآوى قاتليه . . . » .

« إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ . . . » .

« إن لم يكن فعل هذا فليمكنا من قتلة عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعضده . . . » .

« فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ؟ . . . » .

« الناس تبع المهاجرين والأنصار ؟ . . فما بال من ها هنا منهم لم يدخلوا فى هذا الأمر فيؤمروه . . » .

علة وراء علة ، وذريعة وراء ذريعة تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! . ولكنها معاذير مفضوضة ، وحجج منقوضة لا ثبات لها

أمام منطق الحوادث ، ولا في سيل الحقائق الدافق الذى لا يحتاج لبرهان . فما كان عثمان ضحية ثأر ، ولا صريع نقمة فردية نضحت بها نفس رجل من الناس . ولكنه حاكم ضاقت بحكمه رعيته ، وملكها غضبها عليه حتى ثارت به ثورة عامة انتظمت الكبير والصغير ، والخاصة والحثالة ، والدانى والقاصى من سكان المدينة إلى أهل الأمصار والأقاليم . . .

ويقول على الذين أرادوه على القصاص من أولئك الثوار وقد علموهم يعدون بالألوف :

« تأول القوم عليه القرآن ، ووقعت الفرقة . وقتلوه فى سلطانه وليس على ضربهم قود . . . » .

ويراجعه من أذناب معاوية من يقول :

« أتشهد أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . » .

فلا يتوانى عن الجواب :

« إنى لا أقول إنه قتل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . . . »

وقبيل الفتنة كان يحذر عثمان :

« الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ! . . »

فلما أساء فيهم السيرة وقتلوه ، طالعهم الإمام برأيه فى القتيل ، ورأيه فى القاتل ، بغير إخفاء :

« استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ! . . . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . . . »

غير أن معاوية كان لا ينى ، كلما توطأت له مناهج المعارضة والخلاف ، يلوح بهذه الراية الدامية أمام الأبصار ، عسى أن يلف رمقها إليه ، ويحتوى برقعتها المصبغة غوافل العقول فى أحضانه . . . فالناس عبيد الحية . والعرب عامة أمة يفتنها الثأر . والشام من بينهم درجت على طاعته ، وشبت تحت ظل سلطانه ، فليس فيها من يقابله بغير التسليم برأيه والامتثال لأمره ونهيه . . . حتى فى هذا اليوم الذى طمع فيه وجنوده ذلة الهزيعة ، لم يراجعه من قومه مراجع ، ولم يحملوه أو يعظوه أن يلين جانبه فيسمع لدعوة الوفاق التى دعا بها الإمام .

وعندما أقبل الليل ، وغابت غرة الشهر الحرام فى الظلمة ، كانت أمانى السلم قد توارت كذلك عن النفوس الراجية إلى وهدة من اليأس بعيدة المهوى عميقة القاع . . .

ودخل عليه حينذاك ، والمساء يرسم ظلال غسقه على السحب البيض حمراء كالدم ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب . . . فما أن شهده الإمام يزدلف إليه فى مشية المعجب ، حتى هتف به بما يهد كبرياءه :

« أنت قاتل الهرمزان ! . . لقد كان أبوك فرض له الديوان وأدخله فى الإسلام . . . »

فأسعف الفتى صلفه :

« الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان ! . . »

وعندئذ تبين الإمام عنت أخصامه ، وعزمهم الثابت الذى لن يلين ، فقال للمفتون بصوته الوئيد الرزين :

« لا عليك . . . سيجمعنى وإياك الحرب غدا . . . . . . »

وفى غد تسبر العزائم ! . . .

٨

بدت صفين كالإهاب المرقش . كجلد الحية : به سواد وبياض . . . كانت رقعة من السلم خرقها العنت ، أو ديباجة من الحرب خرقتها الأناة . . . كانت هدنة هفا إليها دائماً على ، وسعى سعيه لتكون مجازه إلى سلام دائم يؤمن سرب أمته ، ويهبها الأمن والحياة . . .

لم تكن سلماً كالسلم . ولا هدنة كالهدنة . ولا حرباً كالحرب . إنما أخذت من أولئك كله بطرف حتى ضاع وجهها بين ألفاف هذه العوامل المضطربة الخطوط ، والمختلفة الظلال والألوان . فيها عداوة وفيها صفاء . فيها قرار وفيها دم . فيها رقبة للخير وفيها تربص بالأحيان . . . الحياة تصطرع آنا تذود عن مقوماتها فتغلب الموت . والموت يصطرع آونة يدافع عن خرابه فيقهر الحياة .

وفى كل هذه الأثناء كان الناس فى هم من رجاء يخطف سناه ، وقنوط يدهم سواده . على شبهة من يومهم ومن غدهم ، فلا يدرون أنومهم على طمأنينة أم إصباحهم على قتال . . .

على هذه الهيئة انطلقت الأيام . سلم ولا سلم ، وحرب ولا حرب ، كأنما أمانيهم حلم حالم طالت الرقدة به فلم تتفتح عينه على حقائق الصباح . . . وكان الإمام دائماً حليف الحياة . وكان ابن هند دائماً حليف الموت ، يعده بالزاد بعد الزاد من الوقيعة والعنت والعناد . ويلوى جيده عن الوحدة المنشودة إلا أن ينتكس عليه تقديره ، وتشتبك أموره فيخفض حينذاك جناحه ساعة أو بعضها لدعوة الوفاق . إذا خايله الظفر تجبر ، وإذا لاحت الهزيمة صانع وخادع حتى يفلت من أنيابها بحيلة تدنيه فى الأعين الماشية من الله ، وتبعد به عن الملامة . .

لكن الموادعة والمخادعة كليهما لم ينجيا القوم من قدر لازم حق عليهما قبل أن تتحرك بهم الأقدام . فالحق بين والباطل بين ، والمطل إن جاز مرة على المطول فإنها أناة ترث وتزول ، وفترة من الزمن لا تطول . وعند ما يفيض بالنفوس صبرها لا تمسكها حيلة . وعندما تطفح الكأس تميل . ولقد انحط الناس : ضجت طائفة ، وشكت طائفة ، وهم يرون عدوهم أمامهم مدلا لاهيا لا تزعه دعوة ولا يناله حسام . العاذل تقبضه عيبة وتبسطه عيبة . والشاك تنشره ريبة وتطويه ريبة . والإمام بينهم غرض تقاذفه نثار الظنون التى حسبت صبره على غريمه مرة شكا منه فى لزوم القتال ، ومرة كراهة الموت . فلما أن نبا به اللغط ، وساءه الهمس السارى من الشفاه للمسامع . لم يعد له معدى عن مصارحتهم بخافية ما اختلفوا فيه :

« . . . أما قولكم : أ كل ذلك كراهية الموت ؟ — فوالله ما أبالى أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . . . وأما قولكم : شكا فى أهل الشام — فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى وتعشو إلى ضوئى ، وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها . . . »

وقديما كان يقول مثل هذا القول ، ويسير على نهجه ، ولا يني يتريث عسى الله أن يعد عدوه بالهداية ، ويجنبه غواية إبليس . وهو اليوم أيضا يصبر ليفسح لأمله . وهو فى غد يطاول معاوية وما أبه بحوله وطوله ، ولا بخيله ورجله . . .

لقد كان إبان القتال الذى حمى من بعد يأسه ، وفارت سعره ، يحث أصحابه على الثبات أمام هبة الهلاك العاصفة ، ويهون عليهم المصير ، فيتلو لهم :

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . . . »

وكان يهتف بالذين ينثنون عند ما تضيق عليهم حلقة الأسنة يسرعون من فروجها إلى النجاة :

« أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لن تبقى لكم ! . . »

وكان ينطلق فى الصفوف المتربصة به حين احتدام الوغى وفوران رهجه ، حاسراً بلا عصابة ، عاطلا بلا درع . فإذا خاف صحبه عليه مغبة إقدامه ، ابتسم وقال بغير مبالاة :

« أبالموت تخوفونى ؟ . . إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى . فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ الكلم ! . . »

كلا لم ترده عن قتال أعدائه خشية الموت ، والموت على الخلائق لزام ، وعلى المؤمن صلاة وقيام ! . . إنما كان يستأنى بأهل العناد طاقة جهده واصطباره لعل أحلامهم تصيب من بعد جهالة ، أو تؤوب للهدى من ضلالة . فالقضية قضية الكافة . قضية الإسلام . لا لمعاوية ولا للإمام . وحين يتهيأ للنجل ، ويهتز للحصاد ، لن يتخير من الثمار ! . .

ومضت صفين . مضت على وجهها إلى غايتها فى طريق لين من الأمن قد اعترضته صنوف كثيرة من صخر الحرب ، ومن حفر الموت ، ومن جداول الدم المسفوك ! . . عاشت من عمر الدنيا نحوا من مائة يوم ، ومن أجل القتل نحوا من تسعين وقعة . ولكنه قتال — فى أعظم حالاته — كأنى أدنى إلى المناوشة والغارة . لا حسم فيه ولا فصل ، ولا تجيش بالعدة كلها وبالمدد كله . إنما كان على يأمر الرجل من أصحابه ، فيخرج فى جماعة من المقاتلة تلقى جماعة من عدوه ، فيقتتلان فى اليوم مرة ، وفى اليوم مرتين ، ثم تؤوب كل فرقة إلى جيشها عند ما يغرب النهار . يخرج الأشتر آونة ، ويخرج قيس آونة ، ويخرج غير هذا وذلك ، كل فى يوم ، من أعوان الإمام الأباة ، أبطال يناجزون من جنود معاوية النظائر الأمثال . . .

مناجزات أوشكت أن تكون فردية . حرب ولا حرب . صراع مائع استغرق كل ذى الحجة كأنما خشى كلا الفريقين أن يتقدم بكل جمعه إلى القتال مخافة الهلكة والاستئصال . فدعوة الصلح آسرة . والرجاء فى السلام لم يغض معينه . ودعاة التوفيق من أهل الورع والقراء لا يزالون يحرثون النفوس ليغرسوا السكينة — النية خالصة ، أو حسبها جلهم كذلك ! . .

وحين أقبل المحرم ، أغمد السيف ، وجف الدم ، وانبرى اللسان والقلم ! . . الشهر الحرام فاء بالناس للموادعة . حنهم أمنه على تلمس الأمن . دفعهم عرفه لطى الضغينة . . . فلما استهل الهلال جرت الرسل كرة أخرى تلوح براية السلم ، وتعمل لحقن الدماء ومنع البلاء . . .

حتى معاوية بدا فى قومه كالساعى للوحدة . ما كان ليحجم ، والملأ أوشكوا أن يعقدوا الأمل على صلح لمع بريقه فى الخواطر ، وتجاوبت ببشراه الأنفس حتى خايل العيون النواظر . . إنه لم يرم وحدة ، ولم يجد لألفة ، ولم يتطلع إلى وئام يجيئه على حساب أطماعه وأنقاض طموحه ومراميه . ولكنه شهد الناس قد هفوا إلى الحياة الرخية فى ظلال الإخاء والطمأنينة ، فشق عليه أن تذوب أحلامه العريضة كما تذوب الظلال فى سطعة النور : وأن يخالف جمعهم فيكشفوه داعية شقاق وعدو وفاق . لم تكن له حيلة إلا التظاهر بالسير فى غمار هذه الرغبات التى انبثقت عينها من قلوب الجموع . . . وإنه ليفكر . وإنه ليدير أمره ويشحذ حرصه وحذره فلا يعييه أن يصطنع الوسيلة التى تبديه مسهما فى الهدف العام ، ثم تدنيه من أحلامه ! . .

يبعث برسل إلى على ، ظاهر دعوتهم ألفة وخبيئها خلاف يرددون عنده ثانية ما أسلف به صاحبهم ، ويطلبون منه المحال ، وهم يعلمون أنه محال ؟ . . يقول قائلهم :

« . . . إن عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله . فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه . . . فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به . فإن قلت إنك لم تقتله ، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . . . »

فكم من ذريعة مصنوعة . وكم من حديث مثله معاد ! . .

ويتلهب بينهم وبين الإمام النقاش . هم على إفكهم ، وهو على حقه ، لا ينحرفون شعرة عن عنادهم وغيهم ، وإن أتاهم بالحجة الواضحة ، والبينة المسفرة الوضيئة كإشراقة النهار . فما لهم من سبيل سوى خلافه ولا من غاية إلا نزعه من حيث نصبه الناس . . . وحتى عند ما يحاول أن يثير فيهم عاطفة الولاء التي يكنها كل مسلم غيرهم للرسول الكريم ، بعد أن غلفوا قلوبهم عن براهينه ، يبدون كأنهم فى غير واديه . أفئدتهم صخر . آذانهم بها وقر . أبصارهم عليها غشاء . . . لا يكادون يفقهون قوله أو تهزهم دعوته وهو يعظهم وينشدهم الله :

« . . . عجبنا لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس . . . إنى أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ، ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة » .

غير أنها دعوة إن لقيت اليوم منهم الصم وهى وسيلة إلى رأب الصدع ، فسوف تكون فى غد صرختهم وهى وسيلة لبذر الفتنة . . . فالله ليس غايتهم : لكنه — علا وجل — سيلوحون باسمه راية لهم قد لونوا أديمها النقى بالبهتان . وعندما يضطرب أمرهم بينهم ، ويأكلهم الوهن ، وتستشرى فى صفوفهم حريق الهزيمة ، سيحملون الكتاب ، ويهتفون بالله ، ويتنادى شياطينهم بدعوة حق سخروها لباطل ، ولوثوا وجهها بالضلال .

وكذلك تظاهر معاوية بالرغبة الجادة فى تلمس وسائل الوئام والسلام وهو ينفخ غير وان فى نيران الفتنة ويعمل جاهدا للانقسام . . . وما كانت رسله إلا غشاوة تخفى غرضه عن نظرة الغافل ، وفهم الجاهل ، وإدراك الفئة المفتونة من عصبته الذين يشدهم هواهم إليه ، ونشب دنياهم ، ومواجد قلوبهم كما يقاد البعير الغرير لنصل الجزار ! . . وما كان دعاؤه سوى نفاق ، أريد به لى الأعين عن حقيقة آرابه التى شف عنها كدحه الحثيث لاحتلاب السلطة ، وامتلاك أعنة الأمور فى الإسلام . فلقد علم ولما يبعث برسله هؤلاء ، ومن قبل علم ، ومن بعد علم ، ألا رأى له فى بيعة أبرمها من لهم وحدهم حينئذاك حق الإبرام — وهم خلاصة

المهاجرين والأنصار بالمدينة — إلا أن يوافق فتنتظمه الجماعة وتلزمه الطاعة ، أو يخالف فيخرج على النظام . ولكنه أباح نفسه ما لا يباح ، وأقحمها غير حقه وموضعه . . .

فشل وفده ، وعادوا إليه ينبئونه بما هو به عليم ! . . وفشل قبله وبعده غيره من الوفود . لكن ابن هند كان دائما يتصيد من الفشل كل نهزة قد تدنيه هونا من هدفه ، يعز بها عند رجاله ، ويشغر بسنها فى صفوف خصمه وأسواره ما وسعه تحين الظروف . فلم يكن يدع الوعيد ، يلوح به كلما جاءه من على رسول يحدثه ، إن حسب وعيده مبلغه من نفس الوافد بعض ما يرتجيه . ولا كان يكتم المصانعة واكتساء الرياء حين يظن فى التملق الشفاء . ولا قعد مرة عن إثارة طمع الأنفس إذا قدر أنها تسترقها الشهوة وتستذلها العروض ، أيما باب ولجه وأيما محراب اعتلاه ! . . وهو فى هذا كله كان دائبا على خلط الدماجاة بالوقيعة :

عب وقعه الماء ، يأتيه بشير وشبث وسعيد ، بعثة من لدن أمير المؤمنين ، يدعونه إلى الطاعة . فما يكاد شبث يتقدم رفيقه سعيد بن قيس إلى الكلام ، حتى يلقف العامل المرائى هذه البادرة ، فيدع الأمر الذى جاءوا فيه ، ويحاول أن ينفذ بين الصاحبين بدسه الرخيص . . .

يقبل على شبث معنفا يلومه وهو يظهر الغضب عليه من أجل سعيد :

« . . . إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك : قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه — ! » .

لكنها وقيعة رمى بها الرفيقان دبر الآذان ! . . .

. . . وفى المحرم . حين يعوده شبث وعدى ويزيد وزياد ، وفدا آخر من لدن على ، لا يكاد الرجل يلقى باله إلى دعوة السلام إلا بقدر ما يبيحه إياه حرصه على الظهور كالموادع المسالم . فإذا صك سمعه من الدعوة نبأ نكبة الزبير وطلحة ، استأسد وثار . . .

يقول له عدى بن حاتم :

« إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن الله به دماء المسلمين . . إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام آثارا . وقد اجتمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد

غيرك وغير من معك . . . فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل » .

عند هذا يثور . لاتنفعه الذكرى ، ولا يصغى للعبرة . ولكنه يسرع — كأنما رأى فى هذه الإشارة الخلاص — فيزوق الكلام وعيدا حافلا برشاش زئيره ، يتهددهم به :

« كأنك جئت متهددا ولم تأت مصلحا ! . . هيهات ياعدى ! . . كلا والله ، إنى لابن حرب ، ما يقعقع لي بالشنان ! . . . » .

ثم لا يثوب به إلي فىء الهدأة أن يقطع علته زياد بن خصفة جنوحه إلى تلمس الأسباب المشاقة .

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا ! . . دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . . . » .

لاتثوب به هذه الملاينة إلى الهدى ، ثم لاتحمله إلى السكون إلا هنيهة يعد فيها دعاواه وافتراءه . فإذا أعد وهيأ فقد أتى كرة أخرى — وكم من كرة ! — بأباطيله التى جهد زمانا لتثير الشبهة حول مسلك الإمام . فهو عنده قاتل واتر ، أو محرض مؤامر ، أو منافح عن الجناة ناصر . ما لابن هند وسيلة يفلت بها من تقبل الدعوة الجامعة إلا هذا التيه من الجدال والإفك يلف فيه ويدور . ولا غاية له يرنو إليها بروحه إلا إفساد كل سعى هدفه الأمن وانتظام الأمور .. فلما أن فشلت الوفادة كمبتغاه ، وخرج الرسل من خبائه ، راح يدعو إليه خدعه يستنهضها أن تمده بالدسيسة .

وعندما يدهم الليل ، وتغفل الأعين إلا عين دساس خاتل ، يبعث الرجل إلى زياد من دون أصحابه الأخر يدعوه . . .

حينئذ خسب يلبس الأسد جلد هرة ! . يبرد إرعاده ، ويختفى وعيده وتهديده ، وتتوارى فيه عزة المدل بنفسه وبأبيه خلف ستر من الملق والرياء ، نسجه كيده ، ورقشه وعده ، وزركشه نفثه وعقده ! . .

يقول لزياد بصوت لين تسيل منه الضراعة :

« يا أخا ربيعة . . . إن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلة

صاحبنا . وإنى أسألك النصرة عليه بأسرتك وعشيرتك ، ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحببت . . . » .

حسب كل النفوس سلعة يشتريها الجاه . حسب كل القلوب بضاعة مزجاة فى سوق الحياة . حسب هذا التيمى مستجيبا لنفثه وتأليبه ثأرا لدم طلحة ابن أسرته الذى أراقه على على ثرى البصرة . . .

ثم يتربص . إنه ليرمق بطرف حيى — ما هو بحيى — آثار تحريضه وعهده على محيا الرسول . يخالسه النظرة ، وينتظر الغرة ، ويتبين الثغرة أقد أغارت عميقة فى ضميره فهان أم هو جل عن الهوان . . .

ورنا نحوه زياد بطرف ثابت ، جمدت أجفانه ، وقر إنسانه ، وبرق وميضه كوهج النار . . . هذه عين لا يعميها نشب . بصيرة لا يطمسها ذهب . هذا ذهن لا تفتله الحيلة إن بالمطية الشهية وإن بحمى الحمية وإثارة الغضب للدم . هذا رجل يسير فى النور ! ..

وفى هدوء وسكينة تنفرج شفتا زياد عن كلمات ، قاطعة كالسيف ، لاسعة كالجذوة ، فيها عزة وكبرياء :

« يا معاوية ... إنى لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ! . . » .

٩

تلا الإمام :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

فلقد جف الصبر . ذبل الرجاء والأمل . ذهبت الأيام والليالى السوالف جفاء لا غناء فيه ، ولا جنى أطلعته مع جهد الغرس ، ونصب السقيا ، وحرص الرعاية . فمن يطلب النبع فى سراب ؟ ومن ينشد الثمر فى صخر ؟ — الأنفس الموات لا تنضح بخير ! . .

ولم يندم على الزمان الذى تسرب من بين يديه تسرب القطرة فى الرمل بقدر ما أسى للمصير القدر ، والمحنة المقبلة ، والدم المضيع بثرى صفين يهم أن يسطر بسن الموت على أمته الثكل والوهن والخراب . . . فهو أسيف . وهو واله محزون . وهو جو براه شجنه ، يكاد دمعه يبل صدره لولا أن بكى القلب فغاض النبع فى مآق العيون ! . . فما هذه إلا معركته — هذا الجهاد السلمى الذى شمر له قرابة العام ، ولهج به ، ودعا إليه ليعلى كلمة الإسلام ، وهو الوقعة الكبرى التى ود بروحه ولبه وعصبه لو حاز النصر من غمارها ونال لقومه الأمن والإخاء والعزة . . . لكن حملة السلام التى أعدها . ثم قادها ، لقيت الهزيمة ! . . كسرها الجشع والهوى والأحقاد . وعندما يظهر ذات يوم عدوه ، ويطأ الأمة المنكوبة بقدميه ، وينشر فوق ربوعها الحزينة حكمه كالظلال السوداء التى تبسطها الظلمة ، فلن يكون نصر ذلك الغريم صدى لخطره وقدره ، ولا نتيجة لجلده وصبره ، ولا وليد نصيره ونفره ، بل النهاية الطبيعية لهذه الدبرة التى أصابت عليا وهو يكافح كفاحه المرير فى وقعة السلام ! . .

فلولا أن قد علم المبغضون للإمام نيته ، وسبروا غوره وسره ونجواه ، لجنى الناس على الحقيقة فظلموه . . . وكم ظلمه إلى الساعة أناس ، وقد ألزموه هذه النتيجة التى انجلت عنها فى البدء صفين ، ثم من بعد الخدعة الضالة المضلة التى انفرجت عنها مهزلة التحكيم ! . . تترفق طائفة فتراه غفل . وتغلو طائفة فتراه ضل . ثم يوشك الذين يقيسون الأمور بالخواتيم ، ويحكمون على الخطة بعقباها دون تدبر الظروف الطارئة والعوامل الدخيلة التى تنكث الخيوط وتمحو الخطوط ، أن يصوروا ابن أبى طالب قد مد يده عن غير تبصر فصاغ بنفسه المصير المؤسف الذى آل إليه عهده المقلقل القصير . . .

هذه المصابرة التى طاول بها على خصمه الشهور الطويلة كانت الحجة القائمة عليه من كل ناقد ألصق به مغبة انتكاث الأمور وألزمه بوار نضاله وسعيه : « فلو أنه عاجل غريمه ! » . . . . . . « فلو اقتحم على معاوية الشام غداة ظفره العزيز فى البصرة » . . . . . . « فلو حرمه وجنده شربة الماء ثم أباحهم الظمأ والسيف عقيب وقعة الفرات ! » . . . . . . ولكنها ومثلها فروض

معتسفة ، تهاوت جميعا تحت طرقات الواقع الذى هدمها بمعوله ، وأقام الإمام على أنقاضها وخرائبها ، رافع الرأس ، منيع الجانب عندما انتزع النصر من براثن عصبة عاتية ، مثل ضعفين من جنوده . جمعها الجشع فأدلت ، ثم أكلها الفزع فتولت تنشد السلامة فى الهرب بجلدها من ميدان صفين ! . .

كلا ، لم تضاره المصابرة ، لم تنل من عزمه ، ولم تفل حده المشحوذ للقتال . لم تعد خصمه المتربص بأى عامل من عوامل الفوز والتفوق . ما من علة أزجاها ناقد . وما من فرض ساقه عاذل ، كانت له أصبع فى النتيجة الحربية التى انجاب عنها غبار المعركة . بل هى كلها ، فيما أحسب ، ذرائع مصنوعة أريد بها بعد الوقعة النيل من تبصر على ، ومن قدره السياسى إن لم تكن ستاراً حاجزاً يخفى خلفه هذه الخيانة التى قارفها دعاة التحكيم فإنما ضاره رفاقه . حفنة منهم لها حول ، وفيها نزغ ، ومن مواضيها القديمة انبثقت الإحن والشكوك والغيرة ، ونظائرها من النوازع النفسية ، انبثاق القيح من القروح ! . وما كان للعامة فى جيشه عند ذاك إلا أن يتابعوا خاصتهم وقد رأوهم اللحظة — والأسنة حواصد — يدعونهم إلى كتاب الله كما طالما ردد الإمام . . .

فكأنى بعلى قد شفت له الأنفس المغشوشة عن دخيلتها ، فسبق بذهنه ضعفها وترددها ، حينما حث قومه على الصدق عند اللقاء ، والجد فى المناجزة ، والتشبث بحقهم أن ينفرط منهم عقده إذا مسهم ضر . أو جنحت طائفة من النفوس المستريبة لخور . . . يحضهم وقد مارى معاوية ورجاله ، وحادوا حيادا عن دعاء السلام :

« لا يكون هؤلاء بأولى فى الجد فى ضلالتهم منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . . . . . »

ثم يتلو عليهم :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين . »

فإن يكونوا تنازعوا من بعد وهان أمرهم عليهم ، حتى غدوا وقد أضلهم عنادهم ، لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ، ولا يبطلون الباطل كإبطالهم الحق . وحتى بلغ من جحودهم ومن كنودهم أن بات على وهو الغرض الذى أوشكوا أن

يرموه بالنواصل ، ويطأوه بالمناسم . . . وحق ذلوا كذلة الساعة فود لو صارفه بهم معاوية واحدا من رجاله بكل عشرة منهم — إن يكونوا قد لجوا فى العمى والجهالة ، وأخذتهم الغفلة — وهم الأعلون — فسهم الوهن ، وحصبتهم الفرقة ، وتداعى اجتماعهم تداعى الرداء الخلق مزقته الخروق ، فما انفراجهم حينذاك عنه إلى رجع نزعات أنفس مريضة مال بها عن الجادة خيال ذهن ، أو ضيق عطن ، أو غرور حمق ، صورت لهم جهلهم معرفة ، وغفلتهم حكمة ، وعماهم بصيرة . . .

وندع الذى يكنه الزمن فى ضميره إلى ساعاته . . . فالحوادث وشيكة أن تسير فى طريقها المقدور . والمحن تهم أن تتلاحق بأخذ بعضها بذيل بعض كإبل القافلة ... فإن هى إلا أيام ثم يسفر الصبح الذى ننتظر إقباله – وما ارتجيناه — كئيب الطلعة ، علية غبرة أعلته فى الأعصر . . .

* * *

ومضى المحرم . .

مضى بالأمل والرجاء وحلم هانىء رلود الخواطر وخالج القلوب ببشراه حتى أوشك السلام أن يكون بعض خفقها الرتيب . . .

وحل صفر ...

لمع هلاله فى سمائه ، والنفوس مشحونة بيأسها وهمها وشكها فى لياليه ، حتى رأته كالجذوة الكفيلة بإرسال شررها على الأنام ، وملء الدنيا بسحب الدخان ولظى الحريق . . .

النهار ينسلخ من نوره . الشمس تنحدر نحو العتمة بقايا الضياء القرمزى الذى يسكبه الشفق يغمر جانب الأفق بألسن حمراء متقدة تشيع فى القوم العرق والفتور ... فالصيف فى أوجه ، وحره يلفح الخضرة فتذبل ، ويلمس القطرة فتجف ، ويلوح البدن بمثل سمرة السنابل . . . حتى فى هذه اللحظة التى سرحت خلالها ظلال الغروب ، ولف ثوبها الأغبر الساحة ، وخطر الجند فى غواشيها كالأشباح لا تتبين الأعين منها خطوط الملامح ، كان الهواء أنفاس ثكلى محزونة ! . . .

ومن بين أطياف العتمة الوليدة . انطلق مرثد بن الحارث الجشمى ، تزاحمت على ردائه الناصع غبرة الغسق ، وحمرة الشفق ، ونقع الرمال الذى نثرته نسمة الليل ، يوسع الخطا وهو ساكن الجأش جامد القسمات ، كأنما يسر همه عن محياه ! . . فلما غدا على مسمع من معسكر عدوه ، تحدث شجوه على ملامحه ، وعلا صوته يملأ الفضاء والسماء :

« يا أهل الشام ! . »

وكان الصدى يردد وراءه :

« يا أهل الشام ! . . »

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتكم ، واستأنيت بكم ، لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه . واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق . . . والله ما كففنا عنكم شكا فى أمركم ! ولا بقياً عليكم . . . وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم — ثم انسلخ ! . .

يا أهل الشام ! . .

« إنى قد نبذت إليكم على سواء . . . إن الله لا يحب الخائنين . »

وترك فيهم نذيرا راعدا رددته الفلاة ، هز القفر ، وحرك الماء ، ورج دويه السمع والفؤاد . مضى جمعهم يقلبه بين جد وحيرة ، وبين وجل وأمل ، وبين ندم على الوعد الذاهب ، ورهبه للوعيد القريب . . .

وعند ما آب مرثد إلى معسكره ، كان الإمام قد قام فى رجاله يدور عليهم بمنازلهم : يحثهم ، ويهيىء صفوفهم ، ويعقد الألوية والرايات . . . الليلة بطولها لم يزرهم النوم . إنما عنوا لأمره وهو ينطلق بينهم كالنسمة السارية ، من جانب إلى جانب ، ومن قوم لآخر ، لا تكل حركته . . . حتى إذا بدا لهم خيط الفجر فى ناحية المشرق ، كانوا كتائب مرصوصة ، تخفق أعلامهم ، ويلتمع سلاحهم فى ضياء النهار . . .

ووقف بينهم يبصرهم . . . ما من مرة مثلها توافقوا والسيوف شرع ، والحتوف دانية ، وإلا أخذهم فيها بمناهجه ، وحثهم أن يستمسكوا بسنة الفروسية ، وشريعة النبل والمروءة :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركـكم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لـكم عليهم . . .

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تـكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . . .

فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتـكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضـكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول . . . . . . » .

غير أن القتال لم تتأجج ناره وتعلو هجيره عقب هذا النذير . انتهى حقا ترفق الناس بالناس ، وسياسة الموادعة واللين ، والاغترار بالرجاء والألفة . ولـكن صفر شهدهم مرة أخرى ، كما شهدهم قبله ذو الحجة ، يقدمون الحذر ، ويؤخرون الشدة ، ويجعلون على نفوسهم رقيبا أن تغلو فى خصومتها غلوا ينجب الفناء ويجتث منهم الأصول والجذور . إنما حركوا الألسنة فى أكفهم بمقدار ، يجتزئون بهذه الفرقة لهـذه الفرقة ، وبذلك اللواء لذلك اللواء . لم يصطرعوا كافة ، لم يحركوا الرحى الحاصدة كرحى هواها لتطحن الثمر والزهر والبراعم ! . .

عشرة أيام تقضت عليهم وهم بهذه الحال . من ثانى أشهر العام السابع والثلاثين للهجرة ، من صبيح غرته ، فى ذات الأربعاء . . . وكان العراق فى الحلبة نصف الشام . هان دونها عدة ، وإن لم يهن عليها قدرة وشدة . وكان أجناده قد استووا على القدم والأهبة . صفوفا متراصة : أحد عشر ، تقابل مثيلاتها من كتائب العدو ، ويواجه الصف منها قرينا يضم من أهل بطنه أو قبيله أو عشيرته من دفعته الخصومة إلى اللياذ بمعاوية . فإذا تنادوا بينهم بالنجاز ، انبرى الصف للصف ، فالتقى الأهل . يحارب الولد أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه . . . الجياد تجاول . والفوارس تصاول والرجالة تنازل ما وسعهم صبر اليوم ، ثم لايكاد يحمزهم البأس وتحفزهم الوقدة حتى يتراجع الجمعان : كل فرقة إلى صفوفها ولما يقاربوا النصر أو تقارعهم الهزيمة . .

فـكأن النفوس كانت ما تزال تختزن — حتف لددها — بقية من حرص على الدم ، وطمع فى السلم ، فى كلا العسكرين كانت الرغبة فى تلمس الأمن والأمان

كالجذوة الحمراء تحت الرماد . . . حتى الأشتر عند ما قاد أولى الكتائب . في أول وقعة ، في أول يوم لم يعض بعنفه إلى مداه أو إلى عتمة الليل . . . وحتى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . . . وحتى ابن عباس أيضا طاول جهده إلى الظهيرة . . . .

ولم يكن هذا منهم شكا في هدف . ولا قعودا عن غاية . ولكنها كانت حينذاك طبيعة القتال الذي يمسكه الحرص على الدم ، وتمنعه الخشية من الهلكة أن تجمح أداته إلى صراع موصول يأكل الناس بغير رخصة أو تحرز . وهي كذلك حال المعارك في ذلك الزمن ، تسير بمقدار ، هينة رخوة ، أولها شرار ، وآخرها دمار ونار . . . ومع هذا فلم تكن كلها مناوشات تجتلد فيها السيوف ساعة ثم تسكن . بل قد غلبت على بعضها سمات الوقائع الجادة التي يبدؤها اللقاء والكر وتختمها الهزيمة والنصر . . . وها هو عمار . حينما تثين نوبته ، يندفع إلى الغمرة وهو على بينة ، ويخوضها على متن عزمه ، فلا يكاد حسامه يتشرع في يمينه ، وصفوفه تستوى أمامه ، ورجاله وفرسانه ينصتون له ، حتى يراها حرجة للجهاد ، ليست غارة موقوتة للمصاولة والجلاد . . .

ويهتف الرجل بجمعه ، وإن شوقه إلى الكفاح ليتألق على ملامح وجهه المضيء المعروق :

« يا أهل الإسلام . . . أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ؟ — ألا إنه معاوية ! . . فالعنوه لعنة الله . وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله . ويظاهر أعداء الله ! . . . »

وعندئذ يهمس له امرؤ من رجاله :

« يا أبا اليقظان . . . ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم . . »

فيجيبه حازم الرأي قاطع النبرة بغير إمهال :

« بلى ! . . . والله ما أسلموا ، ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا . . . »

ثم يشد بفريقه شدة الواثق المطمئن على صف عمرو بن العاص . لا رخصة ترده ولا رهبة تثنيه . كطفرة النمر ينطلق . كثورة السيل . كهبة العاصفة ! . . فلا يزال يخوض المنايا إلى عدوه — والمنايا حسيرة ! . . — حتى يحصد ، فيقتل ويثخن وتتداعى أمامه المقاتلة كالبناء المنهار ، تنفرج عن صاحبها ، وتكشف عنه كشف الرداء الخلق عن عورة ! . .

ويتلفت عمرو . . . الصبر مزق ونثار . المنعة نسيج عنكبوت . المنافذ إلى الحياة مسدودة ! . . وفى غير ونى أو تردد يستجمع الثعلب المغلوب بقايا أجله ، ويصوغ من فزعه جناحين ، ثم يروغ — فالفرار أمن ، والهرب سلامة ! . .

١٠

ليست هجمة ابن ياسر وقعة فصل كتبت الخاتمة أو حسمت النزاع . كانت غارة بدأها كر ، وختمها نصر ، وتلتها بعد ذلك معارك جادة ، إن لم تكن قضت فى الأيام القلائل الباقية على خصمه القضاء الأخير ، فقد صاغت الحروف التى تؤلف الهزيمة . . . كانت ضربة عنيفة سددتها إلى العدو دعوة حارة إلى الله ، وغضبة دوت لدينه ، وتهمة ألصقت الكفر والضلالة — دون ريث ولا تحرج — بصاحب الشام . . .

كانت حملة صدق وصبر ، لم يقف بها عن بلوغ غايتها نصب المقاتلة ، أو حذر المصرع . أو انحراف النهار . وكانت أيضا معركة دعوة ، سل فيها عمار سلاح العقيدة يلوح به ، ويهزه مشحوذا قاطعا فى وجه غريمه ، كهزه القناة والرمح فما معاوية بخصم سياسى حين يرد الخلاف إلى المبادئ لا إلى الأهداف . ما هو بمسلم وإن استسلم . ما هو أليف إيمان . إنما قهره على المدى — بل الطاعة — خوف الحتف وشفرة السيف ، والجزيرة حينذاك تجثو على ركبتيها طوعا وكرها أمام شوكة محمد ، وتخفض الجباه لله . . . وما حزبه الذين يظاهرونه اليوم إلا على نهجه ، لفهم بنزغه ، وطواهم كطيك السجل للكتاب فى غلاف زيفه وزيغه . إن أضلتهم الغفلة فمعذرة لا تسعها مغفرة ، وإن فتنتهم الدنيا عن الآخرة

فتنة إلى حين ، ظلها زائل ، وعهدها حائل ، ومجدها خيال . . . والنفوس التى عنت له ، لم تغض منها كلها ينابيع الخير . فيها بقية ترعى الله . فيها قلوب تقشعت أكنتها ، كما انجاب الغيم — من هبة الريح — عن صفاء السماء . فيها أعين كشف الحق عنها غشاوتها فأبصرت النور . . . وعندما تسلل شمر بن أبرهة من معسكر معاوية ، فى طائفة من قراء أهل الشام ، فلحقوا بعلى ، كان ندمهم نذيرا زلزل على العاهل العاصى غروره ، وأوشك أن يذيقه التخاذل . . وقال له عمرو :

« يا معاوية . . . إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ، ورحم ماسة ، وقدم فى الإسلام لا يعتد أحد بمثله . . . إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين ، وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم ، ولهم فى النفوس مهابة . فبادر بأهل الشام مخاشن الوعر ، ومضايق الغيض . واحملهم على الجهد ، وأتهم من باب الطمع . . ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل ! . . »

لكن معاوية كان أقدر من خدينه على معالجة الموقف ، ومعاجلته بما يصلحه . فليس الجاه هو الذى يرد وحده إليه النفوس الشوارد ، والقلوب التى غدت تتذاءب اليوم بين دعوة باطل ، إن تكن مجزية فهى مخزية ، وبين دعوة حق تطيب لها الضمائر النقية ، وإن تأجل لها عن الحياة الجزاء . . ليست الدنيا هى التى تفتن المتشبث بآخرته . . ليست المنافع سبيل أصحاب الأنفس التى عليها من خشية ربهم حارس ومن إيمانها الخالص رقيب . إنما الدين وحده السبيل . التلويح به طلاؤه يمحو ويستر الأباطيل ! . .

وكذلك وقف معاوية فى أجناده ، على لسانه منطق التقى الخاشع ، وفى دخيلته نزغة المضل المخادع ، يقول بفيه ما ليس بقلبه :

« أيها الناس . . أعيرونا أنفسكم وجماجمكم ! . . لا تفشلوا ولا تخاذلوا ، فإن اليوم يوم خطار ، ويوم حقيقة وحفاظ . . إنكم على حق ، وبأيديكم حجة . إنما تقاتلون من نكث البيعة ، وسفك الدم الحرام ، فليس له فى السماء عاذر ! . . »

حتى ابن العاص قد ذهب أيضا يحاول امتشاق نفس السلاح الذى سله عليهم عمار . إنه خشى فتنة قومه ، وربما فتنة عدوه ، فتراءى للناس بين الجمعين وقد

رفع رقعة سوداء فى رأس رمح كانت لواء عقده له ذات يوم رسول الله . فلما امتدت إليها الأعين . ولغطت بأمرها الألسن ، وحسبت فئة أنها علامة أدنت الرجل إلى الهدى . وبعدت به عن الريب فيه ، بادرهم الإمام يحذرهم الفتنة :

« هل تدرون ما أمر هذا اللواء ؟ . . »

قالوا له :

« هذا لواء عقده له رسول الله . . »

فأجابهم على :

« إن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال : (من يأخذها بما فيها ؟ ...) فقال عمرو : (وما فيها يا رسول الله ؟) . . . قال : (فيها ألا تقاتل بها مسلما ، ولا تقربها من كافر) . . . فأخذها . فقد والله قربها من المشركين . وقاتل بها المسلمين . . . »

ثم رفع وجهه إلى السماء ، وأصبعه تومئ إلى قبة العاهل المتمرد المشاق ، وجأر بقسمه ودعواه :

« ... والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعوانا رجعوا إلى عداوتهم منا — إلا أنهم لم يدعوا الصلاة ! . »

واهتزت أنفس وترنحت خواطر ... الرأى ينقلب لنقيضه . الثقة تتزلزل وتنهار . الشكوك التي راودت فى معسكر الشام فئة ممن لم يبيعوا بعد قلوبهم للشيطان ، غدت يقينا باسق الفروع ، ثابت الأصل كجذور الدوحة . . . وكان عمار هو الذى حرك البركة الراكدة ، ورج ماءها الآسن الثقيل . وكان عزمه وصدقه وإصراره على الثبات فى الميدان حتى ينتزع النصر من عدوه ويثبيه عليه الهزيمة ، هى النواة التى أطلعت فى نفوس أقرانه من رجال الإمام زهرة الصبر ! ... فما مسح عن جبينه عرق الحرب ورهق النصب عندما غرب يومه ، حتى نشط أصحابه مثله إلى مواطن اللقاء يطلبون النزال ، ويتعجلون الآجال ، وينشد الرجل منهم الغلبة أو الشهادة ...

وحميت الوقدة . كل واحد من رفاق الإمام وخلصائه كان له فيها دور ، وله حملة ، وله جولة أدته ساعة من الظفر وساعة من الموت ... حتى ابن عباس

قد خرج إلى القتال مخرجه .. وحتى ابن على : محمد بن الحنفية . فلقد غدا القتال دولة بينهم يتركه كابر ليلقفه كابر ، كأنما القوم يحرصون على اقتسام شرفه بقسطاس ! ... بل الإمام أيضاً أوشك أن تدفعه النجدة إلى الغمار ، يقتحم عليه حرمه ولما يلتق الجيشان فى وقعة جامعة . فما هو أن قام عبيد الله بن عمر يتحدى محمدا ويدعوه : « أن اخرج إلى ! » حتى أخذه شغفه القديم بالمناجزة ، فنخس دابته إلى المدل المفتون :

« أنا أبارزك فهلم إلى ! ...

فبغتت الدعوة عبيد الله ، وبددت شجاعته ، وغاض على الأثر ماء اعتداده وزهوه . فإذا محياه يشحب . وإذا فرسه تستدير لتدبر . وإذا رمحه فى يمينه يسترخى كالسوط ! ...

وهمس الفتى وهو ينأى بعمره :

« ليس لى فى مبارزتك حاجة .. »

وعتب محمد على أبيه :

« منعتنى من مبارزته ! ... فوالله لو تركتنى لرجوت أن أقتله .. »

فابتسم على بسمة نضحت بحنانه وقال له :

« لو بارزته أنا لقتلته . ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله ، وما كنت آمن أن يقتلك ... »

لكن الحسرة لإفلات الفريسة الفارة دعت محمدا أن يراجعه :

« أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله ! ... والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه ! ... »

وعندئذ زجره الإمام ونهاه :

« يا بنى لا تذكر أباه ولا تقل فيه إلا خيرا ! ... يرحم الله أباه ... »

* * *

غير أنها — فترت أو استمرت — كانت كلها مناوشات لم تجل بأى الفريقين عن مواقعه ، ولم تنل منه إلى الغاية التى تكتب عليه الخذلان ... كانت تجربة ! .. هكذا يشحذ الهمة ! ... نارا تصقل الصبر والعزم ! .. وحين لاحت الثمرة المريرة

جنية ، لم يكن هناك معدى عن اقتطافها ، ولوك لبها وقشرتها ثم انتظار كلمة القدر ! ...

وغدا الناس — ذلك اليوم الذى استنهض فيه معاوية أولياءه باسم الدين — والإمام بين أصحابه ، قد غلبت على محياه عبسته ، وتحدث الجد فى جبينه وعينيه ... فأصغوا له :

« حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ ... »

ولم تبارحهم الشمس ، أصيل يومهم وفى أدانى غروبه ، حتى رأوه متوكئاً على قوسه ، محيطة به الصفوة الباقية من أصحاب الرسول ، وهو يخاطب جموع المقاتلة والفرسان من جنوده :

« أيها الناس ...

اسمعوا مقالى ، وعوا كلامى !

إن الخيلاء من التجبر . وإن النخوة من التكبر . وإن الشيطان عدو حاضر يعدكم الباطل ... ... شرائع الدين واحدة . وسبله قاصدة . من أخذ بها لحق ، ومن تركها مرق ، ومن فارقها محق ...

ليس المسلم بالخائن إذا اؤتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . ونحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا الفضل . منا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ...

ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبى سفيان الأموى وعمرو ابن العاص السهمى أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ! . . وقد علمتم أنى لم أخالف رسول الله قط ، ولم أعصه فى أمر قط . أقيه بنفسى فى المواطن التى ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائص : نجدة أكرمنى الله بها ، فله الحمد ...

أيها الناس . .

وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله . . . »

فرجف عمار . . .

لقد كان الشيخ الجليل ذا بصيرة نفاذة تستطيع أن تبلغ من اللفظ مدلوله الحق الذى يتسلل إلى اللب ولا يطرق المسامع . فلما انتهى الإمام من قوله ، زلزله ختامه وأحزنه ، وخد فى وجهه الهزيل خطوطا أعمق مما حفرت أصابع السنين ! . . .

وهمس الرجل للذين حوله وهو مهموم :

« أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا ! . . »

وسجل القدر ! . . .

١١

فى معسكر معاوية ، ساد الهرج ، وشاع الهمس ، واضطربت النفوس والأنفاس حين حملت إليه نسمة الصبح نذير الحرب ينادى به عليهم منادى الإمام :

« يا أهل الشام ! . . اغدوا على مصافكم . . . »

ومضت الصيحة . وكان صباح كالليل ! . . .

كان اليوم غرة الأربعاء . . . الشمس تدرج فى مهدها البعيد عند حد المشرق . خطاها وسنانة . نهارها يحبو على خيوط الأشعة . سناها تصبغ السكون أطيافه . . وكان دفؤها رطيبا كريح الشمال . رفيقا كقطرة الطل . رقيقا كأوراق الزهرة ليس فيه من وقدة حامية تنبئ بهذه الشعلة التى ستجتاح الموقع عندما ينتهى البكور . . . وكان أفقها من عسجد ولازورد ولجين ، نقى الصفحة كقلب الوليد . لم تشبه الحمرة القانية التى لن يلبث أن يعكسها على صفاته مكان الحومة حينما يبله الدم ... السلام على الأرض ، والهلاك فى الخاطر . وهذه الهدأة التى لفت الميدان ساعة البكرة بستر السكينة ، كانت غشاء خادعا ، كسطح الماء فى المحيط ، يخفى تحته اصطراع الحياة والموت ، العسف والقوة ، جواهر الحقيقة وأصداف الزيف ! . . فما من سنة الطبيعة أن يتوافق ضدان ، ويأتلف نقيضان . . .

ظهرت المنايا وبرزت الأحيان ! . . الآن توشك الرحى أن تدور . الوغى الحاصدة تتربص وتشحذ الظفر والناب . الأرواح توافقت على مخارج الجروح . والمفاتيح : رءوس الأسنة ومشافر السيوف ، فى يد القدر ، ثم عدها فتفتح بها محابس الدم ، ثم تدعه والانطلاق ! . . .

عشية الأمس خطب على رجاله :

« الحمد لله الذى لا يبرم ما نقض . ولا ينقض ما أبرم .. لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر فى شىء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ... ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده دار الجزاء والقرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . . »

ثم مزق رقعة البقيا وأعلن الجد فى الشدة :

« . . . ألا إنكم لاقوا العدو غدا . . . اسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين . . . »

ومضى يهيئهم . طوال ساعات تلك الليلة الفاصلة راح يعدهم للصراع الخطير الذى سيسفر النهار عنه ، فيكتبهم ، ويسوى صفوفهم ، ويقدم دارعهم على حاسرهم ، ويعدهم للقاء ربهم بالشهادة فيحصن نفوسهم بذكره ، ويطيل وإياهم القيام ، ويتلو القرآن ...

وعندما برح الليل . وانقشع سواده انقشاع الغمامة ، وأقبلت من المشرق طليعة النور ، دعا عدوه للنزال ، فليس يرضى أن يأتيهم من غرة ، وما من طبعه مباغتة غافل ...

وعندما صاح داعيه ، ودوى فى الهدأة نذيره ، أصبح معاوية وجنوده على بينة ...

ومع ذلك فقد شاع فيها الهرج ، وسرى الهمس ، واضطراب نفس وأشفقت نفس ... الأفئدة فى صدورها توائبت . والقلوب فى مقارها ارتجت . لا بقيا بعد ، لا هوادة اليوم فقد مضت فترة التجاوز الرخى التى حسبوها موصولة على

النهر والليالى ، ومطوها جهدهم ليسأم على مقامه ، ويثلم سيفه ، وتفتر عزائم رفاقه عن القتال ...

* * *

وهتف صاحب الشام فى عجلة ، ولما تنفض النوم أهدابه :

« أين الجند المقدم ؟ ... »

فخرج له أبو الأعور السلمى على كتيبة

ثم هتف ثانية ، وقد ثبت قليلا لحظ عينيه :

« أين أهل الأردن ؟ . »

فجاءوا يسعون . . .

ثم هتف ثالثة ، وقلبه ركين كالصخرة :

« ... وجند الأمير ؟ . . »

وما فتئ يهتف والكتائب تأتيه ، كتيبة كتيبة ، وفرقة فرقة ، فى سلاحها وأدراعها ، وعلى ألويتها وراياتها : جموعا غفيرة تشد عزمه وهمته يفوق نصفها كل أعدائه ...

وحينما غدوا على أهبة ، وجال بين الصفوف ينظر ، ويمجم القدر ويسبر الغور ، لم تهزه فيهم بادرة من بوادر الخور والتخاذل . . . فقد ذهب عنهم الروع ، وانجاب الهرج الذى أشاعته بغتة الدعوة . الثقة فى القلوب ، والعزيمة على الملامح . فما بهم هياب . ولا هم بأحلاف جبن ، وإن شطحت بهم منازع الهوى وحملتهم بعيدا عن الجادة . وعند ما بان الجد ، انبرت فرقة إلى معاوية فبايعته على الموت ، وأخذت نفسها بالذود عنه ، أو تتخطف رءوسها المصارع . فإذا بهم يطيفون به ، ويبنون حوله سياجا ساترا : خمسة صفوف كأنها قلعة حصينة ذات أسوار ، إن انثلمت فى سور ثغره . سارعت صدور من الذى يليه تسدها بالقلوب والجماجم ! . . فهو بها فى جنة غير مخروقة . عزيزة على الهجمة والغارة . منيعة على الإقدام والجسارة ، لا تنفرج عنه إلا أن تشقها جميعا المنية ... وعند ما تواقف المقاتلة ، وتهيأوا لخوض الحومة أقبلت « عك » تهزها حميتها فتعاقد رجالها على الصبر كالأوتاد فوق أرض الموقع . وجاءوا بحجير فوضعوه بينهم ، ثم تهاتفوا بلسانهم الذى كان يبدل الكاف بالجيم :

« لا نفر حتى يفر هذا العسكر ! . . »

وقد صدقوا وعدهم وكانوا رجال صبر ، لهم فى سجل البطولة أقدار مسطورة وصحائف مسجورة ، يعصف الفناء بهم فلا يرعون ، ويعيي فيلتى ولا ينثنون . كأنما سمروا أقدامهم فى مواطئها ، وحالفوا الموت والثبات ! . .

على أن هذه العزائم الجبارة لم تكن بالتى تلهى معاوية ورفيقه عن تلمس الحرص والتشبث بأسباب الحذر والحيطة . فما إن تواقف الجمعان على أهبة تهفو قلوبهم إلى التحاجز قبل اشتباك الأسنة ، حتى تذاكر الرجلان الأمر ساعة أفضت بهما إلى وجوب تنظيم الجيش على أسلوب مغاير ...

وقال العاهل لصاحبه :

« فما الرأى ؟ .. »

قال عمرو بن العاص :

« قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد ، فاعصب هذا الأمر برأسى »

« إنى أفعل » .

« وأرسل إلى أبى الأعور فنحه عنى ودعنى والقوم ... »

فسرح معاوية صاحب مقدمته عن موقع ابن العاص إلى غير بعيد ، على تل :

« يا سفيان . إن لأبى عبد الله رأيا وتجربة ليست لى ولا لك . وقد وليته أعنة الخيل فسر ... ودعه والقوم ... »

وأقبل عمرو بعد ذلك على واجبه ، ينظم ويغير ويرتب صفوف المقاتلة من فرسان ورجالة ، حسبما رأى بنظرة القائد الذى صقلته تجربته ومرسته الحروب ... وكان يعينه على أمره ابناه : عبد الله ومحمد . فالعدو الماثل حياله عنيد ، على الذكر فى مجالى الطعان ، يرمى عن القدر والمنية ! .. والجنود الذين يظلهم لواؤه ، أقدموا لأمر أقصاه شهادة وأدناه نصر ! ... وعند ما تركوا خلفهم ديارهم التى نأت عن الضوامر الجرد والرواحل الشديدة ، كانوا قد ادرعوا بالإيمان ، وتحصنوا بالخطة ، وإن قل نفرهم وناصرهم . فليست تغنى فى لقائهم ساعة الحومة حشود ككسف الليل لا ينتظمها نهج محكم يسدد خطوها فى القتال ...

وقال عمرو لولديه :

« إن هؤلاء قد جاءوا بخطة بلغت السماء ! .. قدما لى هذه الدرع ، وأخرا عنى هذه الحسر ... »

فمضيا ينفذان ...

ثم راح يمشى بنفسه بين الزمر ، فغير وبدل ، وأقر وعدل ... فلما أحسن الصف والتسوية ، وطاب خاطرا بما فعله ، أقام لنفسه منبرا بين جيشه فى موقع يشرف منه على المكان ، ويحرك وهو فيه أجناده إلى خطوطهم عندما يدوى النفير . ويتسعر السعير ... وإنه ليأمر فتطيف به جحافل من اليمن ليكونن فى جنة مانعة ويكونوا حوله كأسوار القلعة ، لا يخلص من خلالهم إليه حاسر أو دارع ، ولا يستطيع امرؤ أن يروعه بشر :

« لا يقربن هذا المنبر أحد إلا قتلتموه كائناً من كان ! .. »

كذلك دبر ، وكذلك فعل . غير أنها حيطة لم تسكن كلها لوجه النزال . ولا بدافع من حرصه على التفوق واحتلاب راية النصر من ابن أبى طالب الرابض لهم على قيد الخطوة كأنه الليث يترصد الفريسة ! .. فما هو بغافل عن حقائق الحال : لغيره الظفر إن هو ظفر . ولغيره الثمرة إن هو غرس ، ثم سق ، ثم اقتطفها وهى جنية شهية من سياج الأشواك ... إنه عبد طبعه ! .. إنه عمرو !. وحين يفى فليس وفاؤه وليد شغفه بالخلال الكريمة ، ولا صدى لطبيعة نقية قويمة أو سجية سوية سليمة ... كلا ، لا يهزه النبل ، ولا يهيم بالأريحية ، بل النفع وحدة هدفه ومرماه . الوفاء عنده له شرطه ، وكل جهد على قدر ثمنه ، والمحامد كلها مطايا لغايته ، كأنها فى جعبته سلعة يبيع منها بمقدار ! ..

هكذا بدا ذلك النهار ، وأمسه أيضا ، وبقية عمره على السواء . لم يتحيف على طبعه ، ولم ينحرف عن طريقه المرسوم الذى شقته نفسه المنهومة أبدا تجاه الحياة وزخرف السطوة ، فما همس برأى . ولا أدلى لصاحبه بمشورة ، ولا أشار بكلمة تسكشف فرجة يستطيع معاوية من خلالها أن يستقبل القتال وهو آمن على مصيره إلا بعد أن أمن هو قبله على غايته التى رنت إليها أطماعه .. فلهذه الغاية قد جاء . ومن أجلها خاصم الحق ، وعنا للباطل ، ومال راضيا عن الجادة السواء ... من أجل النسب والنفع والمأرب ! إنه ليصغى إلى معاوية فيميل

نحوه بكل سمعه ، ويشهد قلقه حين بغتته دعوة الحرب فيقلق له ، وينظر معه إلى جيشه وفيه ما فيه من اضطراب الخطوط وخلل المنازل فيهتم همه — ولكنه مع هذا كله يكتم الرأى عنه إلا بثمن ! ..

يشترط وقد استعانه معاوية :

« على أن لى حكمى ! ...

فيدهش الداهل :

« حكمك ؟ ... »

« نعم — إن قتل الله ابن أبى طالب ، واستوسقت لك الأمور ... »

« أليس حكمك فى مصر ؟ . . »

وعندئذ تنفرج شفتا المساوم عن بسمة لينة صفراء ، فيها تملق وجشع وسخرية :

« وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ؟ ... وقتل ابن أبى طالب ثمنا لعذاب النار ؟ ... »

فلا يراجعه صاحب الشام ، إنما يحذره نقلة القالة إلى الآذان المتربصة للمآخذ ، ثم يمنيه :

« رويدا لا يسمع الناس كلامك ! ... ولك حكمك أبا عبد الله ... »

وما رآه أسرف حين منى ، ولا مولاه شط عندما تمنى ، فإنما هى حلبة محلبة ، وعطية بجهد ، وسلعة بدينار أو دنانير ! ... ومن يطلب الحسناء يرخص المهر ! ...

أما على فقد صف على الأهبة رجاله ، كلهم راغب فى القتال مشوق له ، يكاد يسبق إليه أجله . فلما أن توطأت لهم مواقعهم ، وحشدت الكتائب ، وخفقت البنود ، مر بهم يحرضهم :

« ... إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفكم كالبنيان ... قدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ... أميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل . والتووا فى أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة . وراياتكم فلا تميلوها ، ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها إلا فى أيدى شجعانكم ، المانعى الذمار ، الصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ... ... »

لـكن أرفع راية وأمنها كانت فى عين صاحب ميمنته : عبد الله بن بديل ابن ورقاء . ولم تـكن فى يد راعدة هيابة . ولم تـكن رقعة من قماش ... وعند ما خطا القائد بين الصفوف فى رجاله ، يخاطب منهم الروح والقلب والبصيرة ، علقت الأعين بذلك العـلم الذى نسجه الله ، وابن بديل قد رفعه إلي مدى ذراعه ...

وسمعوه يقول :

« أنتم والله على نور من ربـكم ، وبرهان مبين ... قاتلوا الطغام الجفاة ، ولا تخشوهم . وكيف تخشونهم وفى أيديـكم كتاب من ربـكم طاهر مبرور ؟ »

وهز فى عينه رايته : كتاب الله ، ثم زأر ، ونظره يرمى إلى عدوه بنار :

« قوموا إلى عدو الله ! . أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديـكم ، ويخزهم، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ... ... »

١٢

غلبته الرحمة ! . . .

الجحافل التى استقبلت فى الوغى جنوده لم تنل من عزمه . حشودها التى غشت الأرض كالضباب ، وانتشرت عليها كأرجال الجراد ، وأخفت معالم البقعة عن الأعين ، لم تمس قلبه برهة ... كانت الثقة موطئه ، والطمأنينة ملاذه ، والإيمان بالنصر هو السلاح الذى تهزه يمينه . وعند ما دفعه النهار على موجة ، ورده الليل على موجة ، وراحت حركة القتال فى مدها وجزرها ، تقبل به حينا وتدبر به حينا على متون أمواج تليها أمواج ، لم يطف بباله أن يدرأ الهزيمة المخوفة بالصلح إذ الهزيمة لم تدرله مطلقا ببال ، ولـكنه كان ينظر إلى حمية أعدائه ، وإلى اندفاعهم فى غمرة الموت اندفاعة السهم عن قوسه . وإلى جموعهم الـكثيفة كسحب الشتاء ، فيحميه عن الرهبة إيمانه ، وعن الفرق يقينه ، ثم يغنيه عن الـكثرة المدلة بوفرتها روح له رق أمامه ستر المجهول حتى ليراه ! . . إنما ذاق من مرارة القلق والوجيعة حينما كسرت قلبه هذه الحرب التى أخذت تأكل وهى

مهزومة كل مقدس من الصلات يجله البشر ، وتهدم كل آصرة ، وتستبيح كل حرمة للنسب والقرابة . فلقد مضى اليوم كله ، وبقى من الليل أقله ، والناس كافة ، من فريقه ومن مناوئيه ، فى حلبة كأنها غاب وكأنهم ذئاب ! .. حكمت بينهم شريعة القرون الأولى ، وطبيعة النسر والضيغم . يقتتلون كالوحش ، فينهش الرجل لحم ولده ، ويقطع الأخ جوارح أخيه ، وتسيل بينهم دماؤهم كالماء ! ..

وكان هو إبان الحومة يهتف برجاله كلما لاحت له من جانب العدو طائفة رفعت الأعلام وشدت القسى وهزت النبال وهى تبتدر للقتال :

« من هذه القبيلة ؟ .. »

فيقال :

« الأزد ... »

فيدعو إليه أزده ، ويأمرهم :

« أكفونى الأزد ؟ »

ثم يسأل :

« من القبيلة ؟ ... »

فيخبره قومه :

« خثعم ... »

فيقول لخثعم التى معه :

« أكفونيهم ! »

فأ كانت العرب نفسها ! . جزت عنقها بيمناها وهى تنقاد للحمية ، ودعوة الدم ، ذلك اليوم من صفر فى صفين ، وقد حمزها الطعان ...

ولم يكن عليه فى هذا حرج ، فليس فى الحرب حريجة . ولم يعد به طوره كقائد ، ككل قائد قدير راشد ، يستقبل الأكفاء بالأكفاء ، ويوفر الأهبة للغلبة قبل أن يحين اللقاء ... فمن قوسه يرمى السهم . وآفة الشىء من جنسه . وليس أعرف بهذه الفئة أو بتلك من بليها ، الذين جمعتها وإياهم وحدة الطبع ، وحد الاحتيال ، واتفاق حيل القتال . . .

غير أنه لم يصغ فيهم لدعوة الخصومة كل الإصغاء . فالضغن داء داوى نفسه من بلائه . والصبر اليوم على الأسنة فناء ، والسلم بقاء . . فكأنه اطلع من

مكانه ذلك بصفين على الدخائل المكنونة فأشفق أن تبذر محنة الحرب بكل قلب بذرة ، ثمرتها مرة ، سوف يجنيها على الزمان قومه فتطعمهم الصاب وتشربهم العذاب ! .. إنه الغد ، أو بعضه ، أو سويعات قلائل من الذى يليه ، ثم يلتهب ثأر بكل صدر ، وينشق قبر بكل دار ، وتنعقد على الرءوس سحب الأحزان ...

وخاف على قومه الهلكة . وخاف القلة والذلة بعد الوفرة وعزة الجناب . وخاف أيضا على هذه الصلات ذات القداسة ، التى خلقتها الأصلاب . وربطتها الأنساب ، وجعلها الله كالحرم أن تضطرب بها زلازل المواجد ، ثم تتهاوى على الثرى صريعة ...

عندئذ غلبته الرحمة ! ...

وكانت نتيجة القتال فى أصحابه ، ذلك اليوم ، عدل عقباه فى عدوه ، لم تعل كفة النصر بأولئك ، ولم تشل كفة الهزيمة بهؤلاء . ومع ذلك فقد أهاب بأعوانه الذين خضبهم العرق ، وملكتهم الحمية ، وهاجهم لون الدم يدعو فيهم ، ونفسه تسيل رقة ، بدعوة السلام :

« من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم ، فيدعوهم إلى ما فيه ؟ ... »

فبهت الناس . وأرسلوا نحوه عيونا محلقة جامدة الجفون والأهداب ، تفرسته مليا دون أن تطرف أو تريم كأنها خواء ! . . سلبها قوله الحركة وسل منهم اللسان والبيان . ولولا مكانة له فى نفوسهم علية رفيعة ، تجل عن الريبة لأنكروه . . .

ولكنه على عهده . على سجية السخى الكريم ، وطبيعة السمح الذى يقدر فيغفر ، ويملك فيسجح ، ويدين فيصفح . على شريعة القلب الذى فيضه حب ، وغيضه حب ، ووقده صفاء ، ورجمه صفاء ، ووسعه يحتوى البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب سواء . . .

وأعاد الدعوة . . . أولئك الذين كانوا معه فى أرض البصرة ، من بضعة أشهر ، شهدوا له موقفا كهذا قبل أن يحرق الجمل ويذريه فى الريح . كرت الذكرى بهم إلى الوقع ، وإلى عدة وأجناد ، وصلف وعناد ، وجنوح إلى الهوى صرف عدوه هناك أن يصغوا إليه وهو يدعوهم الى كلمة الله فأبت نفوسهم إلا الغى

حق تـكفنوا بالعراء ! .. وإنه الآن لـكأمسه ، على نفس دأبه وخطته ، يشاء أن على لخصمه الجديد ، ليقبس العظة من عقبي العصيان ...

ونهض إليه من بين صحبه غلام ، غض العمر كالزهرة ، وقد هزه النداء فاستجاب :

« أنا صاحبه ، يا أمير المؤمنين ...

ولم يلبه من الجمع سواه .

فلعلهم إذن قد خشوا غدرة العدو . أو لعلهم قدروا تأبيه وعناده . أو لعلهم أحيوا الأمس فى خواطرهم فآمنوا أنها قضية السلام الذبيح ! .. فما ينفع رفق ، ولا تجدى هوادة ، ولات حين اتفاق ...

ونقل بينهم عينه وبين الغلام ، فلم تتحرك لأحدهم جارحة ، ولم يهمس فم ، ولم تنم عن حياتهم إلا الأنفاس ...

ثم ألحف الفتى الطرى العود ، الصليب العزيمة :

« أنا صاحبه .. »

« فدونك ! »

وخلاه وقصده إلى صفوف الأعداء ...

* * *

لم يعد الراحل . كصاحب له قبله فتك به جنود البهيمة الذين كانت تقودهم عائشة ، ذهب هو الآخر إلى قدره ! .. كفه التى رفعت المصحف بترها البغاة . ونفسه التى هفت للســـلام لفظتها جراحه . وعوده الأخضر قصفه الموت وما اكتمل ، وألقى به فى الرغام جيفة ! ..

وعندما أصبح الصباح ، وغابت عن المشرف الخطوط الدكناء ، وصحا السكون الذى ضاق ذرعه بحمق البشر ، طويت صحيفة ونشرت صحيفة ، فغفا الأمن ونام ، وطفرت الحرب إلى غايتها الحمراء ، شعواء مستعرة . تطأ الرحمة والرحم ، وتبذر الحزن والوجيعة ، وتحصد الحقد والثأر ! .

ونحى الإمام عنه بغله الذى كان يمتطيه ، ثم صاح :

« ائتونى بفرس ! ... »

فسمعوا الجد من صيحته ، وقرأوا العزم على محياه ...

الآن اختفى فيه الأريحى المهاود . رقد أخو السلم الذى يضن بالدماء أن تهدر ، وبالحرمات أن تباح ، وبالحياة البشرية أن تتخطف مثلها ، وتهدم تراثها زبانية الحديد والنار — رسب فى القاع ، وطفا على الأثر آخر ، مارد قوى جبار ، يفرق الرفق من هيئته ، وتهرب الهوادة ، وتفر الأعمار ! ... الفارس الذى يركب الردى إلى أهدافه ، ويقتحم على الهول عرينه ، نفض عن نفسه نومه وقام كباشق الجبل حينما يطالعه النور ، هز قوادمه ، وحرك خوافيه ، وتأهب على القمة السامقة يذرع بعينه الأفق حتى تلوح الفريسة ! ..

وأتوه به أدهم كالليل ، له صلابة الرمح ، وخفة الفهد ، وسرعة العاصفة . أقبل معهم يخب على خيلائه . شديدا يقاد بشطنين ، متحفزا لا يطيق عرفه على جيده ، قلق المنزل يبحث الأرض بقائمته كأنما يضيق بالقرار ويتوق إلى طى المراحل وإثارة الرهج والغبار ! .. شثن الصدر فى غير ثقل ، ضامر البطن فى غير هزال ، ضخم العضلة نحيل القوائم . إذا حمحم فجلجلة ، وإذا صهل فزئير ! ..

وهدأت الدابة حينما لمسها بنانه ، فتلا :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ... »

وما استوى على الظهر ، حتى استقبل القبلة ، ورفع يديه إلى السماء فى ضراعة وابتهال ، وهو يناجى الله :

« اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى . وشخصت الأبصار ... نشكو إليك غيبة نبينا ، وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا ، وشدة الزمان ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ... أعنا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق ... »

ثم هتف برجاله :

« سيروا على بركة الله .. »

فإن هى إلى سويعة حتى انطلقت المنايا من العقال ! ..

كان النهار لم يعل الضحوة حين تحرك الإمام ، يتقدم الكتائب المشوقة إلى

اللقاء ، المفتونة بالشهادة ، الغالية فى إيمانها بنصر الله . يتبختر به فرسه الأدهم وهو يحث الرمل فى تهاديه ، ويخط ذيله المترسل الطويل فى نقاه ... وكان هو على الظهر كقطعة منه . لا يرتج إن عدا الجواد ، ولا يتمايل إن تفى وحاد . وجهه الوضيء يكسف النور ، ويكاد يبهر غداة الصباح ! .. على جبينه هدوء آمن ، وفوق ثغره وميض إيمان ، وطرفه الأدعج ارتخى جفناه ، والتفت أهدابه كأنما الوسن يناغيه ..

ليست هذه بهيئة حرب ! .. فالأدهم تحته يختال فى رقة ، ويتحرك بدلال ، ويرفع الحافر بمقدار ويضعه بمقدار ، كأنه يخطو على زهر ! .. ليست هذه بسحنة محارب ! .. فالوجه سكينة ، والعين هدوء ، والثغر صفاء ... الطمأنينة التى نقبت محياه لا تشى بجبروته . ملامحه دعة . لمحاته فيض دافق من السلام عذب الينبوع ! .

غير أن جسده الذى استوى على جواده ، ولصق به لا يريمه ، كان يوحى بالرهبة ... فكالصخرة كان . له جهامة الصوان ، وخشونة الجلمود . وهذه المسربة التى امتد شعرها الكثيف الغزير بين بطنه وصدره بدت كأنها شظايا الصخور ! .. وإن كفه لتنبسط فتلوح كالرحى الحاصدة . وإن كتفه لتميل حين يتلفت فإذا عظامها مشاش ليث ! .. وما يبين فى ذراعه عضد من ساعد ، فكلاهما استوت ضخامة وتكافأ صلابة ، وأدمجا معا وحدة متسقة كالصفاة المنحوتة قدها الله من جبل ! . .

واستقبلت الأعين المتربصة فى المعسكر المقابل هذا الفارس الحاسر ، العاطل الرأس من جمة ، ومن لمة ، سوى خفاف كأنه بقية الأثر ، البادى الصدر دون درع ، سوى شعره الكثيف كاللبدة ! .. استقبلوه من خطوطهم ، من بعيد ، فأرهفوا الحقد فى النواظر ، وهيأوا الثنايا على المشافر ... كلهم إليه ساق . أسيافهم يهزها نحوه الحنين ، والنهم ، والظمأ للدم ! .. جموعهم تدافعت صوبه تدافع الجواد المخضرة ، كأنها طوفان . خيالهم مزقه ، وشق له فى الفلاة قبره ! .. ليس فيهم من تمهلوا به حتى يدانيهم بهذا الجواد الدل المختال ، الذى راح يقطع الرمل فى ونى ثقيل كمشية السلحفاة : بل قد طفرت بهم مطاياهم . وجرت الأقدام ، وعدت النفوس والشخوص والظلال لتعجل به إلى حينه ! ...

وبقى هو على هدوئه . وعلى سيره الرتيب الوئيد . وعلى هذه الإغفاءة التى بدت تغشى عينيه وماهو بوسنان . لا يزيده قربهم منه سرعة فى مشيه، ولا دنوهم إليه ميلا عن سمته . إنما امتد رمق بصره إليهم من خلال أهدابه ينظر ويرقب ويعد الخطوات ... عن يمين وعن يسار يقبل الجناحان . الأرض الخالية يطويها الزحف . الشقة بينه وبينهم تضيق — ولكن الطائر الذى بدا على هيئته جيش الشام قبل التقدم ، التوى قوامه ! .. اختلت وحدته وتضعضع انسجامه ! .. ليوشك بدنه أن يكون قد لفظ ريشه أو انفصلت عنه قوادمه وخوافيه وهى منطلقة وحدها إلى أمام ؟ .. أما جسدها فستأخر ، يثبت بذات مكانه الذى برحه جناحاه فهو عار مكشوف

وتبسم الإمام . لهذه اللحظة كان يدخر الابتسام ! .. لمعت عيناه من وراء أهدابه المرتخية . وشاعت الحركة فى كيانه الفتر نشاطا خافيا فى دمائه وعزمه وخاطره لم يرتسم ظله على محياه ..

إذ ذاك كانت ميسرة عدوه — أدنى الجناحين منه — تنطلق نحوه انطلاقة السهم للهدف . وكانت أختها الميمنة ، من مقرها البعيد ، تقطع الشوط جادة إلى موقعه كأنها تضن على صاحبتها وحدها بفخر مصرعه ! .. أما هو فعلى ذات الصورة : سكينة ووسن وإيمان ... صخرة على ظهر ، ومشية على زهر ! ...

ومد عينه ترود الأفق ثم تثقب بلمحها الجحافل المغيرة ، المندفعة إليه فى عنف. الهادرة كالعاصفة ، المنحدرة كالشلال ... من خلالها انسرب نظره على جناح فكره وتقديره ، إلى قبة عظيمة هناك ... إلى سياج من المقاتلة حولها قاموا صفا وراء صف . وحلقة وراء حلقة . إلى غريم تستر عن المنية بحصون حية ، بناؤها أجساد ، وملاطها عزائم ! ..

خلف هذه القلاع والأسوار ، أخفى معاوية عمره من أصابع الصراع النابشة كما يوارى البخيل كنزه . كنه بفسطاطه . ولفه بخمسة صفوف من مقاتلته المقلين ، الواحد يليه تاليه ، والفرد لاصق بصنوه حتى ليعسر أن تمر من خلالهم خفقة الريح ! .. وكان الماهل بقلب جيشه ، ذلك القلب الذى ثبت مكانه إلا قليلا عندما تحرك الجناحان ، وكان حماته من خاصة جنده ، وأخلص قومه

وأنصاره له والغاية التي أطلعتها أحلامه . وكانت الجموع تزحف وهم ينظرون . على أهبة وحذر ، حتى تحين لهم ساعة الفداء . فلقد بايعوا أميرهم على الموت دون أن تنكص بهم قدم . عهدهم ثبات وصبر . هدفهم فناء أو نصر . شعارهم : « هنا القبر ! » إذ استقاموا على مكانهم كالأوتاد ! ... فلعلهم ، حيثما وقفوا ، جعلوا آجالهم تحت أرجلهم ، فلا تقدم ولا تقهقر ولا ميل ... أو كأنهم نخل بدت الجذوع والفروع ، وغاصت الجذور في الأغوار ...

ثم تلفت الإمام ..

كانت لفتة مباغتة ، على حين غرة من المغيرين الذين قروا لوناه وهو جاثم على فرسة ، رخي الهدب ، مفتر الأوصال ، يحاكي بدنه وأعضاؤه قطعا ضخمة من الجنادل ! .. كومضة البرق في خطفه . كلمة السيف إذ ينشال ثم ينحط في انقضاضه . ما بدرت منه حتى فاض من قوامه المربوع زخر الحياة . ثم رجت في رجاله الساكنين مكامن الثورة من القاع . ثم أخذت منهم الميمنة وكانت قبلها تسير مثل سيرة ، بخطو قصير كأنها لا تسير ! ... فإن هي إلا لحظة كطرفة العين حتى أسرع القدم والحافر . عدا الرجالة وطفرت الأفراس . برقت الصوارم وأزت السهام ...

وعلى الأثر اضطرب الميزان .. حين تحركت حشود الشام من قليل ، كانت الأرض تحتها ثابتة ، والهدف بينا ، والطريق مفتوحة ... أما الأرض فسهل مبسوط ، قر وطاؤه ونامت حصباؤه ، وأما الطريق ففرجة بين جناحي الإمام يكاد لا يسدها رجاله الذين أقبلوا الهوينى معه كأنما يثقلهم وقر أو يعييهم السير . وأما الهدف فراكب على أدهم ، الجواد خائر والفارس نعسان ! ...

كذلك انطلاقهم كان ، بدء الهجمة ، والسلاح في أكفهم كالعيون الرواصد ، أطرافه تشخص إلى الغريم لا تريم . بأعين السيوف رمقوه . وشخصوا إليه . وطوت ظباهم صوبه المسافة بلا كلال وهي ظمأى إلى دمائه ... ولولا طاقة للمطى محدودة ، وأشفار لحقدهم مفلولة مثلومة ، تثلب ولا تجرح ، لجنبوا النجائب والخيل ، وركبوا دونها عقائل الغل عساها تعجل بهم إليه فيدفنوه حيث قام ! ...

ولكنها لفتة ثم اضطرب تقديرهم ، وشال ميزانهم ، وتزلزل الميدان تحتهم زلزاله — أولئك الحالمين بقبر له غير معلم في العراء بجانب صفين ! رمى إليهم بعين ، والشقة بينه وبينهم لا تطويها الرمية . ورمى إلى ميمنته بعين ، وخطوها إلى جواره هين وئيد ، فإذا السكون ضجة ، وإذا الغبار إعصار ، وإذا الهجمة التي وجهوها إليه التحام ، ثم تقلقل ، ثم نكول ، ثم تقهقر وفرار ...

ونالت البغتة من الجحافل المغيرة إنها أخذت الحصا ، وغطت الرمل ، وسترت الأفق عن العين . ولكن المفاجأة التي بادرتها بها ميمنته أذهلتها عن البأس ، ولوت بعنان خيلها وجندها وقادتها إلى وجهة لم تكن تريد . كر عليها ابن بديل . وركز عنف حملته على أدنى فرقة فيها رامت الإمام بالغارة حتى انتكث نظامها كالخيوط ، وتداعت ، ثم تهاوت على ماوراءها من صفوف أصحابها كما تهاوى جدار ...

ولم يعل لها الحظة في التدبر . ولا في التصبر ، وما كان ! ... لم يمهلها هنيهة لتثوب أو تستعيد جأشها المسلوب . إنما انطلق ، بغير وني ، يحرض رجاله : « أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه ! ... » وهو يتبع الضربة الضربة ، والشدة الشدة وفي يديه سيفان يختلفان على رقاب أعدائه كأنهما مقص الأجل ! ...

١

ثلاث ليال وأيامها سطرت ساعاتها الخاتمة الحزينة للصراع المسلح الذى سجلته صفين . وثلاثة رجال .. والثغرة التى فصلت بين هذا الزمن وهؤلاء الأناسى وسع القدر أن يجتازها على جسر قائم من نزغ الأنفس ، وعبث الأهواء ، واضطراب الجوانح بالغرور والجشع والضغينة ...

وكانت الأقدار ساخرة . فكان تدهور فى ناحية ولم تكن هزيمة . وكان تصبر فى أخرى ولم يكن نصر ... معاوية تقوضت خطوطه ، وانتكثت عليه خططه وخيوطه ، ولكنه بات يملك الزمام ! والإمام تقدم رجاله ، وأبلى أبطاله ولم ينل نيله من شراذم الشام ... والذين مدوا له على الأديم من أشلائهم مهادا لينا يسير فوقه إلى الظفر كان فداؤهم هواء ، وفناؤهم فى سبيله هباء وجفاء : تناءت جسومهم على الرمل فكان بذل ولا نيل ، وتضحية كأنها رنين طبل ضائع الصدى والدوى فى عالم فسيح من الصمم والفراغ ... والذين ضنوا من رجاله على الحرب بالجراح ، وادخروا الدم ، لم يهنهم بعده فى حياتهم عيش ، ولم يقر لهم فى هـــذه الدنيا قرار حتى باعوا العمر سلعة رخيصة فى سوق الغفلة ...

ولكنها نهاية محتومة : وغاية فى لوحة المصير مسطورة ، مقدورة المقدمات والخواتيم من قبل أن يرسم البشر من صورتها أول الخطوط ، أو يحددوا من رقمتها مواقع الظلال والأضواء ... فما الناس إلا همل حينما يشرع القدر سنانه ويهىء مداده وألوانه . ما هذه الليالى الثلاث وأيامها الحوالك إلا ديباجة النقش وأديمه . وما أولئك الرجال الذين خطوا النتيجة الحزينة إلا أقلام : وما تلكم الأنفس المفتونة عن الحقائق المغيبة والأسرار المستورة إلا المادة التى أذاب سيالها جمد الألوان ، وألف منها بين الشتيت والضريب ، والمثيل والقريب ، حتى جرت منظرا حافلا بالهدى والحكمة ، بالحسم والتخاذل ، بالموت والحياة فكان الصورة المجتباة ! ...

أما الليالى فمن صفر ، رأس العشرة الثانية فيه . وأما الرجال فمن على ، أئمة نصيره وأوليائه . وأما الأهواء فغرة وغرور وتخاذل ، أخذت سمتها إلى قلوب غلت فى الوفاء له ، والذياد عنه ثم لم يجنبها ولاؤها المفروض سقطة عارضة بجعته بددها فى أهدابه .. وكان ابن بديل الفاتحة ، وفى عقبه أضاف الأشتر خطوطا وعناء ، وعلى الأرجاء الأشعث فأكمل الصورة الحزينة ...

ودع القدر يذيب ، ويمزج ، ويؤلف ، ثم عد إلى الرقعة بأقلامه . دع اللوحة الخالدة على الزمان ، الماثلة أبدا أمام أعين الخواطر ولمح الأذهان ، يقترب فيها الضوء من الضوء ، ويلتقى الظل بالظل ، ويفنى الخيال فى الأصل ، حتى تبرز مقيتة الهيئة ، قاتمة السمات ، شوهاء ... دع هذا كله إلى مقدماته . إلى الخطوط المبكرة فيه ، إلى الخيوط التى تبدت — عندما عطف ابن بديل فى ميمنة على ميسرة الشام — كأنها بشارة الفجر ، لمحة النهار ، طليعة الغلبة والانتصار ، فإذا هى بعد ساعة أو سويعات تستبين : فاتحة ظلمة ، وغسق ليل ، وبداية دبر ، إن تسكن حدة الدم ، فقد أكلت الظفر ، وأوهت العزم ، واستذلت المثل والمكارم ! ..

ومع ذلك فليس ابن بديل الخزاعى بالمتهم فى إخلاصه ، ولا فى قدرة إمامه ، ولا فى هذه الشجاعة التى تمهر الغلبة وتستقدمها عروسا مليحة تزفها الحرب للجندى المقدام . ولكنه بدا امرأ تغلبه الدفعة فينسى العقبى ساعة الزهو بالنصر كما ينساها الذى أعلته خمر . أطاح بجند حبيب بن مسلمة ، فتفرقوا عن كفاحه فلولا منهوكة ، وشراذم نالت منها المفاجأة قبل أن تنال السيوف ، وضاقت عليها الرحاب الوسيعة فى جنبات صفين كضيق المصاف والصفوف . حتى حينما استجاشها معاوية فى محنته ، أذهلها البأس والخوف عنه ، فلم تصغ له وهو يدعوها ، ووضعت صرخاته دبر الأذن مرة ومرتين وثلاث مرات . وإذ ذاك لم يعد لعاهل الشام رده يحميه من عصفة القائد المغامر إلا تلك المعقلة الذين بايعوه أن يموتوا دونه ، والتفوا بفسطاطه حلقة بعد حلقة فى خمسة أسوار ، ثابتى الأقدام كالأوتاد المغروسة ، ملتصقة جدرمهم بعزمهم كأحجار جدار . . .

ولم يعى صبرهم هذا الخزاعى ، ولم يفل من إصراره على بلوغ سيدهم المستتر

عنه بالقبة العظيمة البيضاء ، وبالمفدين والفداء من أمام ومن وراء ... إنما انطلق يضرب بسيفيه جميعا ، وبعنفه وحزمه وصبره جميعا ، ولو كان يسعه لأنفذ إليهم الأحيان من كل ثغرة وكل باب وإن كادمهم بالتواجذ وأعمل فيهم الأنياب !. إنه يروم منهم معاوية ، قدمهم الغالى فى التمرد ، المفرق الأمة ، الصادع عليها شملها ووحدتها ليسقيه الهلكة فيكفى الناس الانقسام ..

ومضى يهدم الجدار بعد الجدار — يقصف الصف بعد الصف فتتهاوى جموع المعقلة تحت أقدام أصحابه ، وتتكسر تكسر الأعواد الجافة ... ولم تكن محاولته أولى الحملات للقضاء على ابن هند وهو بين عسكره ، بل سبقتها أمس أخرى لم تسارع إليها الجحافل المغيرة والقوى المحشودة الغفيرة . وإنما انطلق بها امرؤ فرد على جواده ، لم يزل يحمل ويقتحم ، وينساب بنفسه بين العدو انسياب ثعبان حتى دخل على معاوية خباءه ، ولم ينجه منه إلا الفرار ...

على أن الجرأة فشلت فى ميدان لا مجال فيه للدفعة . فخبطت حيلة المقتحم الجسور ، ورقد هامد النفس ، بارد الجوارح والأطراف ، قد ناشه الصخر من كل جانب ، فشدخه ورضخه ! .. وحبطت أيضا حملة ابن بديل وإن تبدى بدؤها كلمة الفجر بشرت بطلعة النهار ! .. فأما فشلها فقدر . وأما هدفها فأمنية حالم ذابت فى الدم . وأما الحافز الذى التوى بقدمى القائد المغامر عن تتبع الميسرة المدحورة إلى اختراق القلب صوب القبة البيضاء فهى الغفلة المستترة من الجرأة الرعناء بستار ! ..

الغفلة هى التى عدلت لا ريب بابن بديل عن مطاردة جند ابن مسلمة حتى يكف خطرها عنه ثم عن بقية جيوش العراق . ولكنه تعجل الخاتمة . ودفعت به حماسته ، وذلك النصر السريع الذى اهتبله ، إلى مركب صعب حسبه سيورد معاوية الهلكة ... كان يأمل غير مستريب أن يقضى بحركته على غريم الإمام دون حاجة إلى واقعة جامعة تشتبك فيها كتائب العراق وجحافل الشام . وكان الذى قر فى ضميره أن هجمة أخرى خاطفة تنحرف به عن سمته المقرر من ميسرة أعدائه إلى قلب جيشهم المتخلف عن الطعان كفيلة بأن تجرع الذعر معقلة الماهل الأموى ، وتشيع فى صفوفها الفرق والاضطراب فتتفرج ذاهلة عن ابن هند

هدفا بين المقاتل ، لينا للمناصل ، هينا على الغوائل . فلو كان أجدى حسابه لجنب المسلمين بهذه الجرأة غمرة فاجعة ، جالت فيها بعد ذلك أبالسة الحرب وهي صديا منهومة تجرع وتبلع فلا تشفيها الدماء المهدرات من أوام ، ولا يشبعها من الرءوس الطائحات غذاء وطعام ؟ ..

ثم خابت ظنه الجسور ! .. في حساب الشجاعة جرت له سيرة هي أمثولة للبطولة . وفي حساب الحروب تنهمه الحنكة والدراية بما يجب أن تكون عليه إدارة المعارك وقيادة الجيوش . فما على شاكلته يكون قائد يقدر خطوه ، ويقيس أبعاده وآماده ، ويتقبل الخطر وإن هان بالحذر ثم يزنه بمثقال ؟ .. إنما كان ينبغي أن يدير في باله كل مقدرات النصر واحتمالات الهزيمة دون أن تفتنه الجرأة أو يضله التفاؤل ولكنه افتتن . وخف عليه شأن تلك الميسرة الفرارة فلم يهدها بالمطاردة . وعندما حسب نصره الأول عليها مفضيا به إلى نصر ، كانت هي قد نفضت عن قلوبهم أثارة الجزع التي أنجبتها البغتة ، واستمدت بالجلد ، واستعانت العزيمة ..

وأتاه حينه من مأمنه ... إنها سويعة من النشوة قصيرة ثم ذاق القائد المغامر الصعاب ! .. شق بين أعدائه طريقه وهو يضرب ويثخن ويقتلع هذه الشخوص الثابتة في مواطنها ثبات الأوتاد . وكان يهتف بصوته العريض : « يالثارات عثمان ! » ... ولم يكن بطبيعة الحال من الذين ينتصرون للخليفة الصريع الذي أشعلت دماؤه نار الحرب الأهلية بين أمة الإسلام . ولم يكن أيضا مخادعا يروم بندائه أن يحول العدو عن الثبات له أو الوقوف في طريقه وهذه دعوتهم يلوكها لسانه وهذا شعارهم الرامز إلى الثأر شعاره . ولكنه في الحقيقة إنما مضى يحث نفسه على التصبر بذلك النداء الذي أشكل عليهم مغزاه وهو يطلب منهم دما أهرقوه ، عزيزا عليه . يوم جندلوا أخا له كان يدعى عثمان ! ..

وكانت نفسه الموتورة تسدد خطاه . وكان قلبه الأسيف الحزين يوجه سيفه إلى القبة الكبيرة البيضاء ... للفريسة الآن في الجو رائحة ! .. لهيكلها الشحيم الجسيم طيف يكاد يملأ الفضاء ! .. للقضاء أنشودة وقعتها الحوافر ودقتها الأقدام على طبول الرمال وهي تنطلق للواتر . فليس معاوية ببعيد . على مرمى حربة . العين تناله وإن كان الحسام لا يطوله ...

هذه اللحظة الحازبة كانت المنجل المسنون وكان ابن هند سنابل الحصاد : إن عوده ليضطرب . إن عنقه ليتشبث بموضعه . إن عنفه ليذوب ... وعندما دنا القدر منه استشعر الحياة فى ريقه حلوة شهية فبخل بها على الكفاح ! ..

وكذلك أمن الغمرة ، وهو يستأخر بعمره وينأى عن مواطن الجراح . فما بدت له طلعة العادى ، واستيقن الخطر فى الثبات حتى مال غير وان ينشد الأمان فى الفرار .. تراجع ببقية أجله . ومن بين يديه ومن ورائه اندفع معه قلب جيشه ميلا آخر عن الفرقة المغيرة والقائد الخاطر العنيد ، وغدا احتمال الظفر ، تلك اللحظة ، أمام الخزاعى ، كاللمحة البارقة من جانب العين ، يبعثها جفن ليسترها جفن ! .. أو كخفقة الذبالة الجافة أو كومضة الحلم فى عمر نائم . فلقد عدلت حركة التقهقر صفوف العاهل المخرقة فعادت سوية قوية . ثم أمدتها خيله ، ثم كرت إليها فلول حبيب بعد زوال فزعتها وهرجها وجأشها الذاهب الشتيت . ومع ذلك فلم يبدل الموقف من عناد ابن بديل ولم ينل من عزمه وإصراره . إذا مضى وغايته . وظل وهدفه الأول لا يشغله شاغل عن رقبة معاوية . لا يذهله بأس ، لا ترهبه كثرة ، لا تحمله على التردد أو النكوص خيل ولا نبل ، ولا رده عن التقدم والاقتحام هذه الجحافل الناجزة التى أطبقت عليه كالسوار من يمين ومن يسار ، ومن وراء ومن أمام ...

حتى عندما تساقط رجاله حوله كأوراق شجيرة عبثت بها يد العاصفة لم يكف لحظة عن غلوائه ، ولم يلتمس مفاوز الأمن والنجاء ، فللموت جاء . المنية لخصمه أو لنفسه على السواء ... وإن قوام جمعة لتهده الحرب ، ويتمزق شلوا شلوا ، وجارحة جارحة .. وإن النكبة لتلد النكبة ، والخطر يفرخ الخطر ... وإن الرحى الحاصدة لتنطلق تدور فتكسر وتعصر ، وما هو علق باله إلا لذلك العنق الذى مطه الباطل ، ونفخه الحقد وأتلعته الخيلاء ... فإن يكن فقد جنده فلديه بقية يشوقها الجلاد ويطيب عندها الاستشهاد . وهذه الفئة الصابرة معه حرية أن تظفر أو تقبر وكلا الأمرين جنة ورضوان ! ..

وتقدم بهم . لايفى حلقه المكدود من نصب القتال وحرقة العطش وحر الظهيرة يهتف عرضا هتافه الذى سمعته منذ سويعة لحظات نصره : « أتخشونهم؟..

فالله أحق أن تخشوه ... » ولاتنى قدمه تشق فى الطريق للأمام وسيفه يدق أو يخرط الهام ... ولاتنى لعزمة تتلألأ فى ناظريه تلألؤ البرق فى اليوم الماطر وبلل العرق على حاجبيه كقطر الغمامة ! ... كلما شد عليهم عدوهم شدوا ، وكلما أحكم حولهم حصاره لم تخنهم الحيلة ولم تقصهم الوسيلة فانفلتوا خفافا من شركه المحبوك انفلاتة الرقط والأراقم . ولكنهم مضوا فى كفاحهم وإن أسلمهم الكفاح المرير من شرك إلى شرك ، ومن أحبولة لأحبولة ..

ظهرا لظهر ، وكتفا لكتف ، تساند فريقهم وتماسك كالسور . لا ثغرة بينهم لاقتحام ، ولا فرجة لسن سهم . جلودهم دروعهم . سوقهم مطاياهم ... كانوا قلعة من البشر ، جراحهم وحدها منافذها وأعينهم الوامضات بالصبر والبشر والعزيمة هن المراقب على أجساد سلب بناؤها وشمخ إباؤها كأنها بروج . وهذه الدماء المهرقات منهم خد مسيلها مثل الخندق حول القلعة الحصينة . . وكانوا مائة ! ...

٢

لم يطل كثيرا عمر الجهد الذى بذله عبد الله بن بديل لاقتطاف رأس معاوية من فوق بدنه ... كان هجمة خاطفة تبعها سريعا ذلك التوقف على أبواب العالم الآخر الفسيح يدقها الرجل بسيفه ويديه وقدميه ، وبعزمه وصبره ، وبشوقه وشغفه إلى مبارحة دنيا لا تعيش فيها المكارم إلا كعيش الزهرة الرقيقة فى رعاية زهار ، مبتورة الجذر ، كسيرة العود ، غريبة الدار . فهى مجاز وهى معبر إلى راحة ، وهى عناء لقرار . وهذا القطر ، من الدموع والعرق والدم ، هو الجدول الذى تنطلق عليه السفائن الراحلة للآجلة ، دراكا خفافا ، تحمل الأرواح العانية والموصوبة والضائقة بذلة الحياة ...

وكانت الحياة فى فم الرجل كريهة المذاق ، قد أفسدتها عليه أهواء الناس ، خليطا من قتاد وعلقم . فيها حسد وبغض وأثرة . وجوهر الحب النقى الذى أودعه الله دخيلة القلوب كان كدرة فى صدفة ، الصدفة فى صخرة ، الصخرة فى غور من الرمل والحصا والأعشاب ، الغور فى قاع بحر بعيد المهوى ، معتكر الوجه ،

عاصف النوء ، طاغى الأمواج ... حتى حينما نال منه الوهن ، وأكلت من بأسه وآد صحبه شدة النضال ، وخارت بهم أقدامهم مهيضة على الثرى القانى الندى بالدم ، كان طعم التراب الذى حشا أفواههم وهم حتى أحلى مذاقا عنده من طعم حياته . ومع ذلك فلم يؤثر الموت وإن سعى إليه . ولم يتعجل لنفسه القضاء إلا بقدر تعجله اقتناص الرأس الذى جر جشعه كل هذه الداهية الدهياء . وليس بين الذين صاحبوه فى مصيره امرؤ واحد خطر بباله التماس السلامة فى التسليم أو فى الهروب ...

وكانوا مائة ! ... كانوا حفنة بين أمة من الأعداء . قطرة فى خضم . حصاة على أديم صحراء ! .. حين خرجوا والضحى تقارب الظهيرة كان لهم العنفوان وإن لم يكاثروا الغريم المدل المختال ، وكانت لهم العزة بالجلد دون العدد ، وبالعزم دون النفر ، والإيمان قبل العدة من الخيل والجياد ومن السلاح والعتاد .. وشهدتهم الضحوة عمالقة انكمش أمامهم عدوهم كالأقزام . وشهدتهم الوغى مردة على حلبة الصراع لا تنكص بهم قدم ، ولا تفتر ذراع ، ولا تهمد حركة . وشهدتهم الأرض كأن لم تشهدهم ، فأقدامهم ما تكاد تلمس ثراها حتى تطفر خفيفة سريعة تخوض لجة الهواء ! ...

لكن الظهيرة اقتربت وهم حتى ، رقد همد على صفين كالموات . هى سويعة إقبال ، ثم سويعة أدبرت فإذا نصرهم ذلك غيمة بددتها الهزيمة ... ولم يفت أمرهم إمامهم وإن هم فاتوا هدفه — فيما أحسب — ومالوا عنه إلى اقتناص صاحب القبة البيضاء . فكأنى بعلى قد حذر غايتهم منذ اقتحموا بجحافل القلب وأشفق أن تغولهم دونها الغوائل فقدم نحوهم سهل بن حنيف فى فرقة المدينة لعله أن يخفف عنهم ، ويعد هونا من أزرهم وبأسهم إذ تعاورهم القوم وحميت وقدة الصراع . غير أن فسحة الزمن كانت قصيرة . فهى ساعة وبعضها أقام السكر وقيتها ، هم يسكرون ثم لاتلبث الحرب أن يميل ميزانها عليهم فى مثل خطفة البرق فيكر عدوهم من كل جانب : معقلته وخيله وميسرته ، وتبدأ الرحى تدور . ما بين الضحى والظهيرة كان النصر وكانت الهزيمة انتظما فى خيط ! ... ولو أوتى سهل سرعة الريح ، ومشت بأقدام جنده الأعاصير والصواعق ، لما وسعته قدرته أن يبلغ موضع القتال قبل أن ينقلب مجنه .

إنها حركة لم يسبقها الإعداد تلك التي غامر بها الخزاعي ، كانت مفاجأة لمعاوية ولعلي على السواء . وعندما فشل تدبيره ، وقعدت به قلة جنده وكثرة غرمه دون غايته ، كان أوان إصلاح خطته الحربي قد فات . ومع ذلك فثمة عوامل أخرى نزلت حلبة المعركة ، أضافت الكثير إلى خطوط المحنة التي انجلى عنها بعد ساعة واحدة الغبار . فالميمنة التي انفلت من يمينها سلاح المبادأة هدتها القوى التي تكتلت عليها وقطعتها شرازم . ومدد سهل ردته حسيرا خيل كالليل قد أفسحت لها هزيمة الخزاعي واضطرب أمره في حرية الحركة وسرعة الكر والهجوم . وقلب جند العراق لم يخل حينذاك من عناصر كانت تؤمن بحق علي على حرف ، فلم يكد يبدو في الأفق تفوق الأمويين حتى انسحبت اليمنية من صفوف الإمام كأنها آثرت الا تهز سيفا في وجوه إخوانها من يمن الشام ، بل مضر أيضا تلكأت عن النجدة ، وجنحت هي الأخرى إلى مبارحة الميدان في لحظة كان ينبغي خلالها الصبر والثبات إن لم يجدر التقدم والاقتحام . وعندما حسب الناس أن المأزق الذي وقع فيه ابن بديل وميمنته ليس سوى هزة طارئة هي جانب من طبيعة الحرب التي تتسم دائما بالتقلب ، ويختلف تيارها بين لحظة ولحظة من حظ لحظ ، من مد لجزر ، كان الموقف كله في حقيقته أبعد عن رجاء الآمل ، وبشر المتفائل ، وأدنى إلى خطر داهم يوشك أن ينجاب عن نكبة مستطيرة ...

حدث هذا كله في سرعة مذهلة . في كسفة قصيرة من نهار . في دقائق قلائل التأمت فيها ساعة مرت كاللمحة ، وثقلت كالدهر ، وتسابقت خلالها الأحداث نحو الغاية كأنها ريشة يجرفها التيار ! ... العيون قصرت عن متابعة الصور التي حركها الزمن . الأذهان كلت عن استكناه النتائج لأنها عجزت عن ملاحقة البواعث أو الأسباب . حوافر الجياد التي تداركت تركض وتعدو وتطوى المسافات بدت كأنها تقفز وتطفر وتتوثب وهي بنفس مكانها لا تريم ؟ ... فأما النصر فغيمة ، وأما الهزيمة فغيمة ، وأولئك الجند في الفريقين استظلوا السحاب المترحل يترى فوقهم قطعة قطعة ، لا يحركونه بل تسوقه الريح ...

وانتبه الإمام مثل غشية ... فإذا ميمنته انهارت . وإذا مدده قد ضربته

خيل عدوه وردته فرادى ومثانى ومزقا محاولة تهطع مهيضة إلى النجاة . وإذا الميدان حيث نشب الصراع يستحيل جزرا وقطائع من الأقطاع فى بحر طام من الهرج والموت والفواجع ... هنا شرذمة وهناك شرذمة . هنا فلول من جنوده لصقت جسومها بالثرى المبلل وهناك فلول تصارع الهلكة على بقية أجل وعلالة أمل كما يضطرب فى الحبالة الطير وهو يحاول أن يتحرر وينفذ إلى الفضاء . هنا وهنالك دحرة ودبرة ، وهى وتهافت ، مصرع ودم — أينما انطلقت عينه طالعتها صور شتى من النكبة القاصمة ، فى الميمنة .. فى الميسرة ... فى القلب ... فى كل بقعة من أرجاء الميدان ...

ومع ذلك فلم يفقد الجنان . لم يفقد القلب الذى يترنم بين ضلوعه بالخفقة ورجعها وهما جسارة وإيمان . لم يفقد بعد عن يديه ولا يسراه وهما له جناحان !. هو جيش وحده . وفرة من عزم ، وعدة من بسالة . فما تخلف النصير عنه ؟ — ما تألب العدو ؟ — ما الموت ؟ ... وعندما عزم على أن يلقى إلى المعركة بيديه . كان عليه أن يشق طريقه إلى حديقة الموت بين صحبه قبل خصومه . فلقد انبرت له من أولئك طائفة ، فيها أبناؤه ، تجهد جهدها لتفتديه وتنأى به عن الغمار . والتفت به . وتقدمت إلى محلة الخطر مهجها دونه ، والصدور والنحور والأبدان تؤلف حوله سياجا مانعا أن يخترقه إلى فم الهلاك المفغور ...

لكنه عصف بهم . مضى يدفعهم دفعا عن نفسه وهو يشق بينهم طريقه واثقا إلى الغريم . راح يتجرد من هذه الدروع . ويقصف تلك الحصون المؤلفة من دم ولحم ، ومن أنفاس وحياة ، ومن تضحية وحب وإيثار ، ليخرج خالصا إلى العراء يدق على الهول بابه ، ويشق إهابه ، ويقتحم نوبه وأنيابه ! ..

وكان عاطلا غير دارع ، حاسرا بلا ترس ، أعزل اليد من السلاح سوى رميح كالعصا القصيرة . ومع ذلك فقد بدا كمن لا يحذر ، ولاح لصحبه لا يحترز من الردى المتربص له على مقربة فى صفوف أعدائه الذين ظفر اللدد من عيونهم ، وحرضهم الحقد ، ورددت صدورهم أنفاس الضغينة . إنما مضى يدنو منهم ، ويحاول أن يخالط جموعهم فى لحظات كان خلالها قبلة لكل عدوان ، وهدفا هينا لكل طعان ... وعجب له صاحبه سعيد بن قيس فهم يرده عما اعتزم وما هو فيه .

« أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك ؟ ...

فلم ينل منه تخويفه ، بل رد نصحه وأباه وهو يجيب فى طمأنينة :

« يا سعيد ... إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى فى قليب ، أو يخر عليه حائط ، أو تصيبه آفة . فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه ... »

وانطلق . كلما اعترضه من ولده من يبتغى أن يستقبل عنه بصدره سهام قناصة الشام أسرع فدفعه ، أو نحاه ناحية ، أو احتمله فألقاه بين يديه أو وراء ظهره لتنفسح سبيله إلى الصفوف المغيرة ... كان فى هذه الآونة يواجه جيشا برمته . وكان ظاهرا كالعلم فى أديم سواء لا تخطئه عين ، وكالهدف ترنو صوبه الأسنة المشهومة . كانت النبل تنطلق إليه كالصواعق ، وتئز حوله بصوت الرعود ، وتتناثر كقطر منهمر وهى تكاد تبل عنقه ومنكبيه بدمائه . عند ذلك غلبت الرقة ابنه الحسن فأقبل أيضا يحاول معه محاولة سعيد :

« ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ »

فألقى الإمام نظرة عابرة إلى جانب الميدان حيث ميسرته ، ثم ابتسم غير آبه :

« يا بنى .. إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطئ به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ...

وعاود انطلاقه ...

كيف يهاب ؟ ... العمر قدر ، والأجل كتاب . ونفحة الإيمان التى تفيض بفؤاده كانت له الملاذ والجنة . هو لا ينكص . هو لا يحرص على بدنه إذ البدن ثوب وغشاء ، ولا يتشبث بهذه الحياة فهى زبد وجفاء . إنما البقيا للروح . للسيرة دون الصورة . للمثل والمبادئ لا للجيفة النابضة بالدم ، المصوغة من عظم ، الملفوفة بلحم وإهاب ! ..

ثم انطلق لم يتردد فى انطلاقه المنقض هنيهة ، ولم يتوقف عن التقدم سابحا على الهول ، غائصا فى الحراب والنبل يضرب فيهم ويقتلع ـــ أولئك الذين تقدمت بهم مصارعهم يروم حقدهم أن يذوق من دمائه ! .. وكأنما غرهم به انفراده ، وقلة النصير خلفه ، وهذه السمات البوادى للهرج والخور فى صفوفه على طول

جبهة القتال فأقبلوا إليه مهطعين تزدهيم الكثرة وتخايلهم الظفر وكأنما بدا لأحمر ، مولى أبى سفيان ، أن قد آنت اللحظة ليحسم الأمر ويثيب وليه ابن هند على كفاحه الزنيم للتاج . فما هو أن بصر بالإمام يخطر ، وأيقن أن نيله قريب ، حتى انفلت يركض فرسه ، ويشرع سيفه ، ويسبق إليه النظير والقرين ليعود وحده بفضل اغتياله . ولكنه أخطأ الحساب . حظه خاب . حينه كان قد دعاه ! . فلم يكد يدنو ، ثم يرفع النصل ، ثم يسدد الشفرة المصقولة إلى الصدر العارى ، ثم يهوى بها تحمل الموت كالقضاء ، حتى كانت يد الإمام أسرع إليه من ومضة الحسام فى عينه ، فإذا هى تختطفه من صهوة جواده ، وتعلو بجسده فى الفضاء كالدمية ، وتجلد به الأرض جلدة قوية هشمت عظمه ، وعجنت لحمه ، وخلفت له من علائم اللدد والغرور والحياة آهة بلا صدى ، وأنة بلا ترجيع ! ...

كانت ربيعة حينذاك وحدها فى ميسرته ، ثبت رجالها على قدم . لم يفزعها الهول . لم تذهلها هذه الموجات المتوالية من قوات العدو التى راحت تحتور جوانب الموقعة . لم تمل بها خشية الخطر ، التى تملكت نفوس بقية الجند فى الجيوش العراقية ، إلى حركة انسحاب أو إلى فرار ... ومع ذلك فلم يلذ بصبرها ، أو يتخذ من صفوفها الراسخات جنة . وعندما انكشفت عنه اليمنية ، وخلا القلب إلا منه ، وهربت مضر بالأعمار ، أقبل وحده ، كما شهدناه ، يقتحم الغمرة ..

غير أنه لم تشغله شاغلة إبان تألب المتهومين لدمائه عليه عن إدامة النظر فى حال رجاله الذين حزبتهم المحنة ، وحربتهم الحرب ، وفرق شملهم وأعدادهم اختلاط الأمر واضطراب حبل الكفاح : إنما كان يضرب وهو يرتب ، ويهجم وهو ينظم . فلم تكد المعركة فى إقبالها وإدبارها تلقى به فى جانب البقية الباقية من ميسرته ، حتى راح يستثيب الذين هجروه ، ويحثهم على الصبر ، ويحذرهم مذلة الفرار .. وكان الأشتر قد دفعه إليه مد القتال ، فدعاه :

« يا مالك »

« لبيك يا أمير المؤمنين ... » .

« ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لا تبقى لكم ؟ »

أينما كانت حركة فى جنبات الحلبة ، وأينما كان نفس ، كان على يرسل بصره ويشرك تدبيره . وفى خلال الأيام والليالى الثلاث التي استغرقها القتال ، وحمى فيها أو فتر وطيسه ، كان يشهد — وإن نأى — تقدم الجند واستئخاره ، الهجمة والدحرة ، الكرة والفرة . كل هنة وصغيرة لم تخف عنه من مواطن الخطر خافية ، لم تغب لحظة عن إدراكه خطوة راجل أو وثبة فارس مهما نأى بها الميدان ... إنه لينظر إلى المعركة كمن يتصفح صحيفة . ويعمل كمن يخط على أديمها بقلمه فيمحو أو يضيف ما يشاء ... ولم تهن قط عزمته . ولم تحزبه الشدة فى إبانها بقدر ما حفزته فإذا هو مضاء وأنفة وإيمان . وعندما استشعر المحنة التى تردى فى قلبها رجاله ، كانت عينه تسبق العلة ليمد لها ذهنه الدواء — جمعهم ولى إلا حفنة . صبرهم هاض ما عدا مسكة — ريحهم ذهبت سوى أثر كأنه بقية الربوع الدوارس . أما هو فله صبره ، وله أيضا بشره وإن كرثه الانهيار ، وله ثقته واعتداده : فلم يكد يبدو له من صفوفهم خوار ، حتى انطلق يقتحم الغمرة ، بغير ونى أو فتور ، يهجم ويصول ، ويناضل وحده موجا عاتيا من جموع الأعداء ، لا ليظفر ، بل لينفث الثقة فى القلوب ، ويرسم الأسوة لكل متردد ، ويحمل على الصبر كل فرار ...

وكان له نهج ناجح يهد الكثرة التى خايلها النصر ، ويعد القلة التى أفزعتها الهزيمة . فحين تقطعت أوصال جيشه ، وغدا شراذم كالجزائر فى طوفان من جحافل الشام ، سارع هو فنفض جعبته ، ثم بادر بما يرد عن صحبه العادية ، ويزلزل خصمه ، ويطفئ جمره ، ويكفئ قدره ! ... حينذاك شحذ الحيلة ، فقدم الولاء والفداء والتضحية طليعة مناصرة إلى أولئك الذين تحلق حولهم عدوه . وتركهم من حصاره فى شر ، أعتاه أسر ، وأهونه هلكة ، وكان تضليله خصومه الأقوياء عن حقيقة الحال ، وبثه الذعر فى قلوبهم ، وإيهامهم أنه الأعز هى الخطوط التى وضعها تدبيره . وكانت قوة الإيمان ، والجرأة ، وحب الإيثار هى الدعائم التى أقام فوقها جسرا مر عبره جنوده المفصولون عائدين للحرية ... فذات ساعة فى الوقعة ، حملت خيل لمعاوية كثيفة على فرسان من العراق فقهرت منهم ، ومزقت ، وبترت ألفا حيل بينهم وبين الخلاص : عند هذا نادى الإمام :

« الا رجل يشترى نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. » .

فأتاه رجل من جعف ، مقنع فى الحديد ، تشع عينه نظرة تخيف الموت :

« يا أمير المؤمنين ... مرنى بأمر ، فوالله ما تأمرنى بشىء إلا صنعته ... »

فقال له على يسدد خطاه :

« أبا الحارث ، شد الله ركنك ! .. احمل على أهل الشام حتى تأتى أصحابك فتقول لهم : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام . ويقول لكم هللوا وكبروا من ناحيتكم ، ونهلل نحن ونكبر من هاهنا : واحملوا من جانبكم ، ونحمل من جانبنا على أهل الشام ... »

فأسرع يفعل ، وشهده اليوم يعدو به جواد كالليل ، أدهم الجلد والغرة . خف حمله على الريح ! .. لم يزل يعضى به فى صفوف العدو المرصوصة ، مرة خلسة ، ومرة عنوة ، وهو قابع على ظهره كالقلعة ، لا يصيبه سهم ، ولا يناله حسام .

وبلغ الجعفى هدفه . فلما لمحت من بين قناعه الحديدى عيناه . قرأ أصحابه المحاصرون فى نظراته بشير السلامة ...

وسألوه :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« صالح ، يقرئكم السلام . . »

ثم أدى لهم رسالته .

فإن هى إلا لحظة حتى اهتزت الأرض بالتهليل والتكبير ، من هذا الجانب ، ومن ذلك البعيد . ووقعت جماعة الشام فى حلقة منه . وفى حيرة من هذه الحملة المفاجئة التى بادرها الفريق المحاصر المستضعف . وفى فزعة من تلك التى أنبأهم التكبير خلفهم أنها ستحمل إليهم المصارع ... غلب على أوهامهم حينذاك أن عليا قد استفاء جندا ضخما — ثم ذلك الزئير عن أعداده — وأقبل فيه من ورائهم ، فخافوا الوقوع بين فكى القراض ...

وكذلك نجت الفرقة المحصورة . وانفسح لها سبيل الخلاص واسعا فى صفوف العدو الذى خشله عنها التهليل ، وفرقه الخوف ، وأوفت به حيلة رجل ، وجرأة

آخر على القناء ... وكذلك نشهد الإمام دائما خلال الوقعة قد جمع حواسه ، وإدراكه ، وعلمه بالقتال والرجال ، عدة وأهبة تكبح عنه جمحة النوازل ، وتدرأ غائلة الويل . فإذا أجزى الختل ختل ، وإذا أجدت الجرأة غامر ، وإذا أعز الضراب صال ...

٣

بدأت دعوة الأشتر الناس للثبات كالصرخة فى الربع الخالى ! .. شغلهم عنه الخطب . أذهلهم الروع . وكانوا يفرون من حوله كالجراد . وكالظباء الشوارد . وكالحمر المستنفرة فرت من ضيغم ! .. ولم يردد الفضاء صيحة كصيحته فيها اللهفة والاستغاثة ، والرقة مع العنف ، والتوسل مع الوعيد . وكان يجأر بصوته الهابل : « أنا الأشتر .. إلى أيها الناس ؟ » فيقبل واحد ويدبر عشرة . وكان يرميهم بوحشى لفظه : « عضضتم بهن أبيكم ! » فيلقونه بسمع أصم ...

فاستفاء منهم قومه :

« أخلصوا إلى مذحجا ! .. »

عندئذ أخذت غشية الذهول تنجاب هونا عن النفوس المفزوعة : وبدأت الأرجل تثبت ، والقلوب تثوب . لكأنما هز العرب من غير قبيله أن رأوه لا يباليهم ، ويكفر بنخوتهم ، ويؤثر النخع عليهم ، فراحوا ينعتون عيونهم إليه بعد لى الأجياد عنه ... ولكنه انطلق يستجمع أهله . رويدا رويدا كان نفرهم يقبل ، وأعدادهم تأتلف وتتكتل . فلما شهدهم قوة تستطيع أن تقف على قدم ، فتدفع خطرا أو تسد ثغرة ، وقف بينهم يخاطبهم ونبرات اللوم تتناثر من بين شفتيه كالحمم :

« عضضتم بصم الجندل ! .. والله ما أرضيتم اليوم ربكم ، ولا نصحتم له فى عدوه ، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومذحج الطعان ! .. »

وتركهم برهة يلوكون فيها تقريعه . حتى إذا نضحت سيماهم بالندم والتوبة ،

رق صوته ، ولان لهم محياه . ثم مد يمينه ، وهو يحرضهم ، يشير بها إلى مقاتلة الشام :

« ... اجلوا سواد وجهى يرجع فى وجهى دمى ! ... والذى نفس مالك بيده ، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله ... »

قالوا له وقد حركتهم حميته :

« خذ بنا حيث أحببت ... »

كان عليه أن يعيد بناء ميمنة على التى تهاوت ، وخرقت جدرها الشقوق والثغرات . فلم تعد سوى خرائب وأنقاض ، وأوشكت معاول الهدم التى تناولها بها رجال ابن هند أن تدكها وتأتى عليها من القواعد . ولئن كانت المهمة التى أخذ نفسه بها عسيرة ، فإن المادة الصالحة للترميم ، ورتق الفتق ، وإقامة الدعائم ، كانت لاتزال على مدى عينه . هنا ملاط وعمد وأحجار ! — هنا طوائف لم تكن لتستكين أو تفر بالعمر وفيها بعد ذماء من روح ، ونفثة من دم ، ونفس حياة ... ولكنها تلفتت لتجد الميدان قاعا خاليا حولها إلا من نفيرها المهشم الذى نهكته الحرب ، وأكل منه الكفاح . أما عدوهم فسبقهم إلى النصر . وأما حليفهم فهجرهم إلى الهرب ، وأما هم فرقأوا أدمع الحسرة ، وامتقوا دم الجراح ، وساروا الهوينى على محجة الموت لعل هذا الفضاء من حولهم يطلع جحفلا من الغريم المدل يبلغون ثأرهم أو يثيبهم لقاؤه الشهادة ! . . .

ولقيهم الأشتر . أولئك شوية من همدان . شباب يواصل شم صلاب ، مزقتهم الوغى الخوانة ، وحالفتهم الخطوب فلم يغضوا لها ذلة الجباه . بالدماء ضمخوا قتلاهم . بالثرى كفنوا أحياء . فات حظهم غار النصر فآثروا وهم أعزة ركام القبور . بالرضاء والبشر والطمأنينة استقبلوا الأحيان .

وكانت لهم راية عزيزة فى الرايات ، ظلت على مدى القتال ثابتة كالطود ، رافعة كالقمة ، تطاول غيوم السماء ، لم يقصفها حدث ، ولم تمل بها محنة ، حملها رجال غير أمجاد . وركزوها فى قلوبهم فلم يدعها واحد منهم إلا وهو يودع آخر نسمة من أنفاس العمر ، ينفثها الصدر ويلفظها النحر ، ولا يتوسد على الأديم رمسه حتى يتلقفها من فؤاده قلب آخر . وحين هذا تطيب نفسه ، ويهدأ باله ، وتومض عينه ببسمة رضاء ، ثم يخر على الثرى القانئ المبلل وينام ...

دونها قتل ستة أخوة ، ثم ثلاثة ، ثم اثنان . ضمهم فى الردى التراب كما جمعتهم فى الحياة الأصلاب . فلما أن خاصمت قومهم ربة الحرب ، وفنيت منهم القدم والحافر ، وتقطعت بهم عن الطعان الأسباب تهاتفوا بحسرتهم :

« ليت لنا عديدا من العرب يحالفوننا . . فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر ! . . »

وعندئذ لقيهم الأشتر . فأهاب :

« إلى ! . . » .

فلبوه . . .

* * *

ولم يطل به التجوال — كما أسرع الناس منذ ساعة للتفرق بادروا الآن إلى التجمع حوله كلما بلغهم نداؤه ودعواه . فلقد هدأ منهم الجأش ، وسكن الروع ، وتبددت غمة الضعف والتخاذل فما بقى منهم إلا نادم وأسيف . فى جموعهم تلك لم يكن خائن . إنما زلزلتهم البغتة ، وجمحت بهم أقدامهم عن غير وعى إلى مسالك النجاء . وإنه ليهتف فتأتيه من هنا طائفة ، وتلحق به من هناك فرقة ، وتأتلف عنده الفلول والشراذم وهى تنفض عن أردانها غبرة الخور وعن وجوهها معرة الفرار . وإنه ليمضى وشمس الظهيرة تنطلق للعصر ، فيكون سيره كميلها ، ونفره كظلها ، كلما استقدم نما نصيره واستفحل ، وكلما مالت امتد ظلها وطال ! . . .

فردا فردا جمع رجال الميمنة المدحورة ، حجرا حجرا لم جدارها المنقوض ، وشيئا شيئا راح يرسى له القواعد ويقيم العمد والدعامات . . . ولم يلبث جهده أن أجدى جدواه . فالعيون القلقة ثبت حملاقها على مواطن الخطر . والقلوب الفزعة أمنت من خوف ووقع خفقها نغم الجهاد . والجوارح المرتجة فاءت للعزم فصليت للملامح ، ورسخت السوق ، وشدت الأيدى على الصوارم . وعندئذ أخذ الأشتر بهم حيث كان زحف ابن بديل قبله ، فلا يكاد يصمد لكتيبة من عدوه إلا كشفها ، ولا لجمع صلف منهم إلا حازه . . كانت ربة القتال هاديته . كانت تسبق خطواته . كانت تفرش له الأرض بالنصر . . . أما صحبه فقد حلت لهم خمر الغلبة فراحوا يعبون من كؤوسها حتى النشوة . وأما خصمه فقد بهتهم بلاؤه ، وثبات جنانه ، وارتماؤه على الأسنة المشرعات صوبه كأنه يستعجل حينه . إذا ثبتوا له اقتحم .

وإذا انحرفوا عنه طارد . وإذا حركوا القدم للهرب كان أسبق منهم إلى منافذ النجاة يسد عليهم الخروق والمسارب . وأينما نقلوا العين فى جوانب المكان لم تقع إلا على حديدة سيفه ، الخاطفة خطف الشعاع ، المتلألئة كالماء الجارى ، الصافية كالمرآة راحت تعكس على صقالها منايام ! . .

حتى رجاله الذين جاوروه فى الحومة بهرهم صدقه القتال ... تحادث أخوان عنه وهما يشهدانه يقصف ويعصف ، خارا فيه . قال منقذ :

« ما فى العرب رجل مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيته ... » .

فتساءل حمير :

« وهل النية إلا ما ترى ؟ . . » .

وعندئذ هز منقذ رأسه وهو مستريب حيران :

« إنى أخاف أن يكون يحاول ملكا ! » .

ولكنه كان لا يبتغى وجه دنياه . كان يرجو الآخرة ، ونصرة المكارم ، وإحدى الحسنيين : غلبة أو شهادة . ولقد ساقه الزحف حتى رأى امرأ من رجال الإمام يحمله نفر وهو على أكفهم خضيب ، فسأل الناس :

« من هذا ؟ » .

فأخبروه :

« زياد بن النضر . استلحم عبد الله بن بديل ، فتقدم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حتى صرع . . . » .

ثم رأى بعد هنيهة جريحاً آخر فسأل :

« وهذا ؟ . » .

فقيل :

« يزيد بن قيس ، لما صرع زياد ، رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع . . »

وعندئذ غمر رضا محياه ، وقال :

« هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم . ألا يستحي الرجل أن ينصرف لم يقتل ولم يشف به على القتل ؟ . . . » .

فالصبر فريضة ، والجرح فخر ، والموت فى معامع القتال مثوبة وذكر . أما الملك فنشب يفتتن الذين استذلتهم الحياة . . .

وزحف بجمعه . . .

كان ماردا على صهوة جواد . خف لحمه فكان كشبح . وطال قوامه كأنه برج ، وأفعم بدنه توثبا وحركة فلاح كثعبان . . . وكان يذرع الميدان كالإعصار الغاضب ، ويجتاح اجتياح عاصفة . لا تكاد تثبت تحته القوائم ، ويوشك من نشاطه وسرعته أن يظهر هنا وهناك ، وهناك وهنا فى آن ! .. ولم يكن همه فحسب أن يلتحم ويقتحم ، وأن يقنص ويصيد ، وأن يقسط وهو يفرق الردى على أعدائه قسمة عادلة وحصصا سواء ! . . إنما كان يرجو أن تنجاب له غمرة النقع فيشهد الخزاعى ورفاقه الذين تعاقدوا معاً على الموت وهم الآن جثى بناحية كلت منهم الجوارح ولم تذل الأرواح . . .

حينذاك كان النهار يترحل . الشمس تميل . الأصيل يلتهب . الأفق يصطبغ بالشفق فيبدو جانب السماء كالحريق . . . وكانت الأرض مسرحا لأطياف المساء الذى تقدمت طلائعه . فهاهنا بقعة قانية هى من ترى غريق فى الدم أم انسكابة الشفق نحلتها الحمرة ؟ . . وهنا كثيب من حجارة غبر ، أثمن لفحة الرمضاء أم قد مسها ظل الليل؟ .. والرمال الصفراء كانت منعكس النهار الباهت ، الذى خفت نوره وحال لون محياه ...

وتحت ظلة الغروب رآهم لصقا بالأديم كالإبل البرك بعد نصب الإصحار . فلما أن أحسوا فى جوارحهم بالقوى الزاحفة ، وحركوا نحوها العيون الكليلة ، ودبت الحياة فى أوصالهم دافقة عندما رأوا تلك الشارات من خطوط بيضاء تزين رءوس القادمين ومناكبهم ، وتنبئ أنهم من رجال الإمام ..

وتهاتفوا يسألون فى قلق :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ »

فأجابهم من أصحاب الأشتر من ردهم إلى الطمأنينة :

« حى صالح فى الميسرة ، يقاتل الناس أمامه » .

فرجع الفضاء بشرهم وشكرهم :

« حمداً لله ! .. قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم ... » .

وقام ابن بديل يتوثب بقدميه ألف شيطان ! نسى وصبه . ونفض إعياءه . ورده ذكر على جبارا عاتيا كما كان ، يبحث عن الخطر ، يتحدى الهول . . .

وأهاب بعائذه :

« استقدموا بنا ! . . » .

كرة أخرى عاود المغامر مجازفته . وجه بصره إلى القبة البيضاء ، وسيفه ، وقلبه الذى كان يضطرب بالمقت والزراية ... وعلى أثره سار رفاقه يستبقون الطريق ، ويوسعون الخطى حسبما أمكنتهم الجسوم المنهوكة ، وحمى الجراح ... وكانوا قد تساندوا بالمناكب ، يدبون دبة رجل واحد ، ورجل واحدة ، وقلوبهم فى جنوبهم تطفر شوقا إلى الردى أو الظفر . وكان الخزاعى عليهم ، خلفه انطلقوا ، ومشماهم ، قبلهم مضى يشق المجهول ، وعندما أتاه تحذير الأشتر : « لا تفعل ! . . » ابتسم ، ولم يضق ذرع خطاه ... وعندما جاءه نصحه : « البث مع الناس فهو خير لهم وأبقى ... » أبى السلامة ، وزود قدمه الزاحفة بجناح ! ..

وعبر لقدره ، دونه من عدوه سياج من المقاتلة كالغاب . جند ضخم تكاثفت جموعه تكاثف الظلمة فى الليالى المطيرة . صفوف كالموج . فبأى سيفيه أصاب ، وكم من رقاب ؟ .. كان كزورق ، وكان حسامه مجذاف ملاح . كلما خاض لجة برزت لجة فتحرك هذا وتحرك ذاك وانساب القارب على التيار الأحمر ؟ ..

ثم بدا الشاطئ فإذا هو وعر تحطم الزورق على صخوره ! .. على مدخل القبة البيضاء . على مرساه ! .. فلم يكد يخلص إلى معاوية حتى زلزلت جرأته أولئك الذين أحاط جمعهم بماهلهم فذهلوا عنه ، وغدوا عيونا جوفاء وأكفا مشلولة ! كانوا فى مثل حلم . كانوا رجالا كظلال . ولكن حرارة الحياة التى هجرتهم بغتة وتركتهم ممسوخا صماء كالأصنام ، تركزت كلها فى حلق ابن هند الهلوع ، فراح يصرخ :

« ويلكم ! .. الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ! .. »

فردهم إلى الوعى صياحه ...

من كل جانب تطاير الصخر والحجر إلى ابن بديل ليسلبه عمره . فذائف فذائف اندفع نحوه ! ورجما ورجما غمره بطوفان . ما من رجل منهم مشى إليه مشية جندى بسيف أو حربة . ما من امرئ جرؤ فدناه . إنما تناولوه عن بعد بهذا النوع من العدة الذى يكفيهم لقاءه ويكف عنهم شرة حساميه ، كأنهم

في غمرة ، وكأنه إبليس يحصبونه بجمرات ! .. وحين أوهى قوى وناء ، وفته الصخر والحجر ، ورقد جسده الهامد كومة من مزق ودماء ، هتف معاوية برجاله وقد فاءت نفسه إليه :

« انظروا من هو ... »

قالوا :

« ابن بديل » ! ..

فأقبل نحوه يمد يده ليرفع غطاء كان قد ألقاه عبد الله بن عامر على الصريع . وعندئذ ابتدر دمع ابن عامر ، ثم صلبت ملامحه ، ثم رد اليد الممدودة ، بعنف وقسوة وهو يزأر :

« لا والله ، لا يمثل به وفي روح ! .. »

قال معاوية وقد هزته عزمة رفيقه :

« اكشف عن وجهه فإنا لا نمثل به .. قد وهبتهُ لك .. »

ثم ألقى بنظرة على المحيا الشائه ، فيها شماتة وفيها إكبار ، وهمس يقول :

« لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلا عن رجالها لفعلت ... والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمى ، إذا ما الموت كان لقاؤه

قدى الشبر .. يحمى الأنف أن يتأخرا

كليث هزبر كان يحمى ذماره

رمته المنايا قصدها فتقطرا »

ومضى إلى قبته ...

ورقأ ابن عامر دموعه ، ثم جر على محيا الراقد الهامد الغطاء ...

٤

حق الأصيل . كانت الوقعة مضطربة السمات ، خليطا من تقهقر وصبر وإقدام ، خطوطاً مختلفة ، رفيعة وعريضة ، ذات معالم من هزيمة ونصر ، ومد وجزر ، كتلك الخطوط التي راحت الشمس في غروبها تصبغ بها جوانب الأفق بريشة الشفق ، فيتجاور فيها النهار والليل ، الضوء والظل ، صفاء اللآلئ وعتمة العنبر ، وتنبثق منها أشعة الطيف كنثير اللجين والتبر ، وتنظيم اللازورد والمرجان . . .

في الميمنة ذهب الأشتر يرم ويقوم . . . وفي الميسرة ثبت على يناضل ويصاول ، بغير ظهير ولا سند سوى هذه الطائفة من ربيعة التي دقت القدم في الأرض ، وألصقت السلاح بالأكف حتى لاح كل واحد منها كأن له إصبعا سادسة هي الرمح أو العنزة أو السيف ! . . . من اعتدال النهار لغروبه ، من الضحوة إلى الغسق ، والمساء لما تنتشر ظلاله ، وقفوا جميعا يقارعهم الموت ، وينازعهم الثرى الذي وطئوه حبة حبة وحصاة حصاة . ولكنهم غالبوه بالعناد وإن لم يكاثروه بالأعداد . ما كان لامرئ حينذاك أن يقهرهم . لاقبل بهم لقوة ، وقد تحصنوا دون عدوهم ، بالإيمان يدرأ عنهم عادية الخوف وهي أفتك بالنفوس من أسنة النضال .

وسأل الإمام حين دفعه تيار الوقعة إلى هذه الفئة الصابرة ، التي ثبتت للموت :

« لمن هذه الرايات ؟ . . »

قالوا :

« رايات ربيعة »

فدعا لهم وهو يكبرهم :

« بل هي رايات الله . . . عصم الله أهلها . وصبرهم ، وثبت أقدامهم . . »

ثم أشار إلى غلام حدث منهم ، كان يرفع رايتهم الحمراء :

« يا فتى . . . ألا تدني رايتك هذه ذراعا ؟ . . »

« نعم والله ، وعشر أذرع ! . . . »

وقفز يتقدم . ثم قفز ليغوص في جحافل العدو الكثيفة بغير مبالاة ، وقد

أذهلته الحماسة عن الناس ، ومواطن الردى ، ومهاوى الهام . . لكنه سمع عليا من ورائه يحذره :

« حسبك ، مكانك ! . . . »

فثبت حيث قام . وثبت خلفه رفاقه لا يتخلل صفهم مغير ، ولا يهزم عن مواقع القدم مغامر . ناضلوا على الباع والذراع ، وعلى الشبر والفتر ، وعلى الحبة من الثرى والرمال . ولم تختلهم قط عن صبرهم تلك الحيل التى انتفخت بها جعبة ابن هند وود لو أبلغته هدفه . . فأنى له أن يختل ويخادع ، وأن يراوغ ويحتال ، والإمام على بصيرة من خافية ضميره ، لم يغب عنه أسلوبه فى التمويه ؟ . .

من قبل ومن بعد جرد معاوية خيله ليبعد الخطر عن نفسه ، وليخذل الناس عن على ، وليأتيه من حيث يأمن البغتة أو ترق خطوطه فى مواقع القتال فلا تستعصى على الثغرة . بالمال بالمنصب . بالغرور الذى يستأسر قلوب الرجال . بكل وسيلة وحيلة احتال . . .

أنت تراه حين يوقن أنه بات غرضاً واضحاً ترصده الأعين ، وهدفاً بينا تسعى إليه المنايا الظمآنة على شفرات بضعة من المغامرين فى معسكر الإمام ، قد حصن نفسه عن النوازل الداهمات فنأى عن الميدان بفسطاطه . ثم اتخذ سياجا من الحماة . ثم أمعن فى الحيطة فقدم فارسا من مواليه شبيها به ، كان يلبسه مثل ثيابه ، ويزوده بمثل عدته ، ويقدمه فى الغمرات لعل الأعين العادية والأسنة المشرعات أن تنخدع فيه . .

وأثمر حقا هذا التمويه . فكان الناس حين يخطر أمامهم حريث يتهامسون بغير تردد : « ذاك معاوية ! » . . وكان العاهل طيب الخاطر بحيلته . وكان دائم النصح لفتاه ، دائب الحرص عليه ، ففى سلامة مولاه أمان له هو نفسه وضمان لحياته . وكان كلما رأى دفعه إلى الميدان حذره قبل أن تنطلق فى غمرة الصراع قدماه :

« يا حريث . . . اتق عليا ، وضع رمحك حيث شئت . »

لكن الغرور أرداه ! — أردى الغلام المدل المختال الذى ود سيده لو ادخره واستأخر بأجله بعد هذا اليوم . ولغير هذه الداهمة القاصمة التى أتت بحينه ،

ورسمت اللحظات الأخيرة من عمره بكف صناع دون حذقها ودربتها جمحة الخيال وشطحة الأساطير ! . .

وكان الشيطان دليله . . مضى يهون عليه ، ويزين له ، ويلون قدره بكل زاه وبراق حتى هانت الأخطار ، وخفيت عنه قيم الأقدار . فلما انتفخ سحره ، وورم صدره ، ومال خده من الكبر ، أقبل يمشي على خيلائه وكأنما الدنيا تضيق عن خطوه ! . .

وكان عمرو شيطانه ! . .

قال له ابن النابغة يغريه :

« إن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

وكان على حينذاك على رأس جنوده . . .

ثم قال ثانية :

« . . . إنه كره أن يكون لك حظها . . . »

« من ؟ . . »

« معاوية ! . . إنك والله يا حريث لو كنت قرشيا لأحب صاحبك أن تقتل عليا ! . . لكنه كره أن — »

فصرت أسنان الفتى من الغيظ . . . وفح فحيح ثعبان :

« كره ! . . »

« فإن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

فاقتحم ! . . ولم يكن بالجبان الرعديد ، بل كان ذا بأس ، جلد القلب ، شديد البنيان ، له ساعد دوار يطيعه سلاحه ! . .

وصاح المغرور :

« يا علي ، أقدم ! . . »

فإذا هي آخر دعواه ، وكل ما لفظه حلقه من علائم الحياة ! . . حتى النفس لم يتردد بعدها فيه ، ولا كان له رجع . وحتى خفقة القلب التي ختمت عمره لم يهتز بها إهابه . وحتى اختلاجة العين وهي تظلم لم تختلج لها أهدابه . . . إنما هي كلمة رفع بها الإمام صوته ، يسخر ، وهو يقبل عليه : « يا أيها العبد المغرور — اثبت ! » . . . فإذا الغلام قد ثبت . ثبت كيانه على الأديم المبلل بدمه . على باب

رمسه ! . . هو فى الحق لم يثبت وإن همدت منه أعضاؤه ، وسكنت أنفاسه ، وصار جيفة يرنو لها الوحش والطير . لم يرقد بدنه على الأرض وهو جميع . لم يقع وحدة موصولة إلى وطائه . إنما تفرق . تمزق . انفلق جسده كحبة الفول : رمة فى اليمين ، ورمة فى اليسار وقد شطرته الضربة ! . . .

فأى المشاعر خالج الآن نفس ابن العاص ؟ . . الأسى أم الأسف ؟ . . الألم أم الندم ؟ . . أم الذى كان أدنى إلى طبعه غير هذا وذاك من عواطف وخلجات ؟ . . إنه لم يكن غافلا عن خطر على ، ولا هو حين أغرى الغلام ، كان يرجح أنه سيظفر . إنما أراه كان يعلم أن الحرف فى وسوسته ، واللفظة فى تغريره ، وكل ما احتواه أسلوبه الزائف المذاع هى جميعها إبرة تحيك كفن حريث ومعول يشق الثرى له عن قبر غائر يتوارى فيه ! . . ومع ذلك فلا عن ضغينة للفتى نزغ نزغه ، ونفث نفثه القاتل المسموم . .

لا لنقمة ولا لثأر . ولكنه كان رجلا يعرف نفسه ويعرف حليفه . وكانت نفسه هى بضاعته . وكان حليفه هو شاريها . فلو تعددت معها السلع فى سوق البيع لبخسها معاوية ، أو زهدها ، أو هان شأنها لديه . .

بهذه النظرة الثاقبة الحاسبة كان عمرو يقيس العلاقة بينه وبين ابن هند . فالصالح الذاتى وحده هو مؤلفهما على هدف ، وجامعهما على غاية . وبقدر حاجة الواحد منهما لصاحبه يتوثق العقد ، وبقدر تغانيه عنه ينفرط . . ولقد أيقن ابن العاص دائما أن الزمن الذى أوشك أن يحقق له أطماعه إذ جعله ناصحا لسيد الشام لن يظل إلى الأبد فى ركابه إلا أن يؤمن التابع بفضل المتبوع ، ويعرف قدره ، ويقدر خطره . وما كان معاوية ليؤمن مثل هذا الأيمان حتى يهبط درجة من سمائه ، وتنتقص أطراف خيلائه ، وتقفز الأرض حوله من الأعلام والمشارف التى تخفى حليفه الوصولى عن عينيه ! . .

أدنى إلى طبيعة ابن النابغة إذن هذه الشماتة التى أراقها ثغره ، ذلك اليوم ، وحريث يدنو إلى حافة قبره وهو غرير . . فهو علم يندك . وهو مشرف ينهار . وهو ريشة فى قوادم الماهل أو خوافيه حين ينتزعها الموت ستعوق الباشق أن يحلق ويستطير ! . . وما كان عمرو ليرجو أن يوهن من قوة وليه إلا بالقدر الذى يخفضه به إلى مستواه ، فيقهره على اللجوء دائما له ، والتعويل عليه . .

حتى حينما كان يسعى إليه بالرأى ، كان يبطن الشورى بعكره ، ويعزجها بما ينال من كبرياء العاهل المستشير واستعلائه . فلم ينقطع عن غمزه ، وعن كشف هناته ، وعن تهوين شأن نفسه عليه ، هو الولع دائما بأن يبدو الأريب اللبيب الذى يختل المكر ، ويفتل النكر ، وتعنو له جباه الدهاة ! . يخرج على أليه ذات ساعة من القتال ، يناديه :

« يا معاوية ... »

ويكررها المرة بعد المرة ، والعاهل مجفل عنه لا يزيد على أن يقول لمن حوله :

« اسألوه ما شأنه ... »

« أحب أن يظهر لى ... »

عندئذ يدفعه عمرو إلى ما بين الصفين وهو فى الأغلب كاره ، ليسمعا الدعوة ...

« يا معاوية . ويحك ! ... علام يقتتل الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ؟ ...

فيرجه العجب .

ثم يصغى لغريمه

« ... ابرز إلى ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له ...

فيرجه الخوف ! ..

ثم يسأل حليفه :

« ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا . أبارزه ؟ ... »

« اغتنمه منتهزا ! ... »

« ويحك ! ... »

« أنصفك الرجل ... »

فيكاد حلقه يغص بألفاظه الحيرى المكتومة ، وهو مشدوه :

« يا عمرو بن العاص ؟ ... »

« ... إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى ... اغتنمه منتهزا ! ..

غير أن وسواسه لم يغلب ابن هند على حرصه ، ولم يلهه عن تبين القبر الذى

يغفر فاه على قيد الخطوة : إنها قدمه ترتفع ، ثم تنحط ، ثم لاتسكون الحياة ! ...

وصاح معاوية فى مشيره اللئيم :

« ما أحمقك ! ... ليس مثلى يخدع عن نفسه ... والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه ... إن تريد إلا أن أقتل ! ...

وحفظ معاوية بقية أجله ..

وضحك على ...

وسخر عمرو :

« إيهاً أيها الرجل ! ... أتجبن عن خصمك ، وتتهم نصيحك ؟ ..

ثم انتفخ حتى حسب أن قد ضاق به مكانه . واكتسى محياه مسحة من خيلائه وهو يملق لأميره فى اعتداد وصلف :

« والله لو علمت أنى أموت ألف موتة لبارزت عليا فى أول ما ألقاه ! ...

ولكنها سخرية عابث ونفخة مغرور ، فلم يمهله القدر حتى سلخ عنه إهابه الزائف الرقش وتركه عاريا أمام النواظر الزارية النقادة ... عاريا بدخيلته ، وعاريا بسوأته ، وبين هذه وتلك لا فرجة لفخر بطل ولا لعجب مختال ! ...

فلقد خرج يجتلد ، والرحى تدور ، فكادت النخوة ، وحمى الحرب ، ونجمه العاثر العاثر تقع به تحت كف الإمام . عند هذا تبدد الكبر من نفسه ، وجفت الخمر فى كأسه ، وغدا بدنه وذهنه وعينه جميعا مطايا له ذات أجنحة تطير بعمره إلى نجوة بعيدة ...

وأقبل على . إن رأى فالخطر ، وإن دنا فالحمام ، وحينذاك لن ترده الصوارم القواطع عن رقيق دنياه ! ... وقد رأى . ثم دنا . ثم هم أن يدهم . فإذا ابن العاص أسرع بالحيلة من دهمة الداهم ، وضربة الباتر القاصم ... إلى ملاذ الحياة ... الداهية الخبيث تفزعة المهجمة ، فيلقى بدرعه ، ويلقى بسيفه ، ويلقى بنفسه تحت قدمى غريمه مفلول الحول ، مكشوف السوأة ، كله ضراعة ووهن ومذلة ...

ويأبى الإمام أن يلوث يديه بدم أعزل خافض الجناح ، تكرما وعفة ، فيخليه ..

ويقول الناس :

« أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . . . » .

فيبتسم لهم :

« وهل تدرون من هو ؟ . . » .

« لا . . . » .

« فإنه عمرو بن العاص ، تلقانى بعورته فصرفت وجهى عنه . . . » .

وعندما رجع الرجل إلى معسكره ببقية أجل سبحت ناجية على ماء حياته ، سأله هناك صاحبه الشامت وهو لا يكاد يكتم سخريته :

« ما صنعت يا عمرو ! . . » .

فلم يرده الخجل عن جوابه :

« لقيني على فصرعني ... » .

وضحك معاوية . ما خفي عنه استخزاء رفيقه ، ولا هذه الملامح من الضعة والهوان ترهق وجهه بغبرة عاره وإن غشاها بنقاب خادع من الجمود ...

وزجى حديثه له بعد قليل ، رفيقا لينا كوجه اليم فى يوم صائف ، الصفاء على السطح ، والشوائب فى القاع ! ... قال وظاهر لفظه الفرحة بنجاته ، وباطن مدلوله السخرية :

« احمد الله ، وعورتك ! . . . » .

فثار ابن العاص وقد وخزته الغمزة :

« ما أشد تغبيطك عليا فى أمرى هذا ! . . وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ! . . . أفترى السماء قاطرة لذلك دماء ؟ . . : »

فكانت الكلمات الوانية التى أرسلها الماهل الساخر ، فى تماوت وخبث :

« كلا . . . ولكنها معقبة لك خزيا أبا عبد الله ! . . » .

على أن هذه المساجلة بالمثالب بين الرجلين ، الحليفين الغريبين ، لم تكن لتفسد عليهما الألفة التى خلقتها المصلحة ، ووطدتها عبادة الذات . . . إنها اصطراع الموجة والموجة لا يعقد بهما عن التهاوى إلى الشاطئ الوسنان والاعتناق فوق فراشه الرملى الناعم . . . إنها سباق إلى التفوق بالجنان واللسان ، وبالدهاء والذكاء ، وبالزهو والخيلاء . . . إنها رياضة ذهنية مارساها وهما معا على بينة

من أهدافها ومراميها التي لم تكن قط لتحيد بالعين عن المرمى الأكبر ، والهدف الأوحد الذي رمقاه . .

ذلك وحده غرض الشوط وغاية المباراة ! . . فما كان عمرو جادا حين راح يدفع إلى المبارزة صاحبه وهو يعلم أنها دفعة إلى فكي الأسد ودعوة سافرة للموت ! . . ما كان ليفعل أو يفقد على الأثر هدفه ، ومأرب حياته ، ومنتهى المأمول من دنياه . إنما عمل كمهده ليبدى سوأة الضعف فى معاوية ، ويضمه حينما يحب أن يكون . وفى الفترة التى انعقد خلالها بينهما الحلف ، كان الرجلان فرسى رهان نحو السكر ، يحاول كل منهما أن يسبق رفيقه ، وأن يغلبه بحيلة . أن يركبه بخدعة تنال من كبريائه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بنصيبه الموفور من الذكاء والدهاء الذى ظن أنه يبوئه مكان الصدارة بين الدهاء والأذكياء . . . ومع ذلك فلم يدخرا الوسع فى إيقاع على بشراك من الغدر محبوكة ، أملا أن تسد عليه المنافذ أو ترم الفروج لتوهن منه كلما أعياهما أن يلقياه جهرة لقاء أكفاء . . . وهما هنا والوقعة تضطرب ، والحرب تحرب ، وكفتهما فى مجال الصيال أثقل : بصف أثبت ، وجند أوفر وأغلب ، ونصر أدنى وأقرب ، يضمان معا أصابعهما العشرين . لتبتدع للإمام المزالق وتحفر الحفر ، وتنسج الأحابيل ... إنك تشهد لها ظلا ينشر سواده على كل عمل يطوى خدعة وإن غلفاه بالنبل ، وموهاه بالمروءة ، ولفا لبة القتال بثوب خاتل من الكرم والأريحية كجلد الحية الرقش البراق ! . . يرسل عبد الله بن حنش رأس خثعم الشام إلى أبى كعب الخثعمى نصير على ، يحاول أن يفسد ولاءه :

« ... لو شئت تواقفنا فلم نقتتل . فإن ظهر صاحبك كنا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضا . . . »

لكن هذه المداجاة لم تخدع أبا كعب عن حقيقة الدعوة . فالظل بين . والنبل البادى الذى يقدس وشائج النسب والقرابة ويأبى لها أن تتمزق كان يشف من تحته عن تنكر للعهد وخرق للذمة . فما هو بحياد أريد به وجهه ، لكنه فى صميمه تخذيل عن الإمام ، وإغراء لأعوانه لينفضوا عنه . ولن يضير معاوية بحال ، وهو الأعز بالنفر والعتاد ، أن تنجح دعوة ابن حنش ، وتغمد خثعمة السلاح ، بل الغرم محيق حينذاك بعلى على أية حال . . .

وفشلت الخدعة ، أو فشلت خرافة الحياد ، ولم يحول من قلوب خثعم العراق عن أمير المؤمنين وقوف زعيم قومهم بالشام بيدى أسفه ، على ملأ من الفريقين ، ويتحدث لطائفته بلسان من ينشد السلام والحرص على صلات الأرحام :

« يا معشر خثعم ... قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة صلة لأرحامهم ، وحفظا لحقهم ، فأبوا إلا قتالنا ... فكفوا أيديكم عنهم ما كفوا عنكم . . . »

ورد أبو كعب وهو يزحف بفريقه :

« يا معشر خثعم ، خدموا . . . »

قال ابن حنش ليثنيه :

« يا أبا كعب ، الكل قومك فأنصف . . . »

فما رد توسله . إنما انطلق وشرعة الحرب ، وواجب الولاء لإمامه ، يخوض المنايا غير ناكل عن قصده ، حتى فرغ دون بقية الصراع أجله ، فحاز الشهادة . .

وعندئذ بكى عليه قاتله ، وضمخ جسده الطعين بالدموع والحسرة :

« رحمك الله يا أبا كعب . . . لقد قتلتك فى طاعة قوم أنت أمس بى رحما منهم ، وأحب إلى نفسا منهم . ولكن والله ما أدرى ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا أرى قريشا إلا قد لعبت بنا . . »

ثم لعبت أيضا الأصابع المشرون لعبة جديدة ، أفدح وأخطر ، وأبعد أثرا فى تقويض دولة على وهدم سلطانه . . . فما تضعضعت أركان ميمنته ، وأضحى جيشه فرقة تذهل ، وفرقة تنكل ، وفرقة تؤثر الأجل فتهرب وتبور ، حتى سعى عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن على يغنيه :

« إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شنئوه . . . »

وكان قد وترها حقا الإمام وترها وهى فى شركها غارقة ، قد عنت للحجارة الصم وأبت أن تسجد لله . ووترها وقد صفت للإسلام ثم ملكتها الفتنة فخفضت لجاه الحياة الجباه ... فى بدر كما فى الجمل ، وفى أحد كما بصفين . وبين هذه وتلك كانت الترة بالدم ، والترة بالعلم ، والترة بالمحامد الزاكية والمكارم الرفيعة التى حسدت يوما عليها محمدا وهو مستضعف ، فلما ظهر ، وعلت به كلمة الله ، وآوى

الغارد لظله ، وجدت ضغائن القلوب المقروحة معدى عنه إلى صفيه النبيل تناله بالحقد والأذى والمكيدة . . .

وأكمل ابن عمر مراودته :

« . . . فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟ . . »

فصاح الحسن وقد لدغته عقرب الخيانة :

« كلا والله ، لا يكون ذلك ! . . »

ثم تفرس مليا في محدثه الغرر المغرور ، بنظرة تفيض بالترفع ، يقطر منها ذلك السم الذى خرق أذنيه ، وقال بامتهان وزراية :

« ... أما إن الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلوق ، ترى نساء أهل الشام موقفك ! . . . يا ابن عمر ، سيصرعك الله ، ويبطحك لوجهك ، وكأنما أنظر إليك مقتولا في يومك أو غدك . . . »

وتركه بعد ساعاته ! ..

٥

حان العمل بعد الحيلة ..

الآن كفة معاوية ثقيلة . ميمنة على ما تزال فلولا يحاول أن يلم الأشتر شعثها من هنا ومن هناك . عن قلبه مولية . مضر الميسرة متخلفة عن مواقع القتال . . جموعه مفرقة ، وخطوطه ممزقة ، وليس يمسك المعركة أن تنجلى عن هزيمة ساحقة إلا جلد الإمام واصطباره

ونادى ابن عمر في طائفة من الميمنة الأموية ، وهو يومئ لهم إلا ربيعة :

« يا أهل الشام .. إن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان ، وهلك علي وأهل العراق . . . »

فشدوا القامة ، وهزوا الحسام ، وخرجوا معه ، معلنين بالحضره

كانوا أعداء حمير ، عليهم ذو الكلاع . قد حرك فيهم معاوية تلك المواجد القديمة التي انطوت زمنا في قلوب أمثالهم من عرب الجنوب على عرب الشمال . وكانوا نفرا وأربعة آلاف ، تعاقدوا معا على الفناء أو النصر . وكان النهار حينذاك

فى اعتداله ، الأفق ضياء ، والأرض رماد ، والنسمة لهب . لا تكاد وجوههم تصافح إلا لفحة ، وأقدامهم تطأ إلا جمرة ، وعيونهم ترى إلا قطر العرق الذى تجمع على أهدابهم ضبابا كثيفا اختلطت به حبات الرمل .

ولم يكن الجهد قد نال منهم وإن تبدى على ملامحهم القاسية بعض رهبة الموقف ، وبعض مشقة الطريق ، وبعض جد القتال لم يضيقوا الخطوة . ولا تهيبوا اللقاء . ولا خطر ساعة بأخلادهم أنهم يزحفون فى باطل . حتى ذو الكلاع لم يضطرب بالقلق فؤاده . . قبل نهوضه لهذا المسير ، من ليال ، كان الشك يحزه ، ويدمى ضميره ، ويوشك أن يشد قدمه إلى طنب فسطاطه ، ولكنه اليوم ، إذ زحف ، غسل من الحيرة نفسه ، ومن الريبة قلبه ، وبدد عن خاطره سحائب القلق فطاب . .

وردد الرجل بذهنه حديث ليلة فى الليالى أوشك حينها أن يفتنه عن أهل الشام ، وعن معاوية وأهدافه ، ويلوى به وبقومه اليمنية وراءه إلى مظاهرة على والانحياز لصفوفه . . وكان ذلك ذات أمس قريب . وكان مبعث التردد حينذاك كلمة جرت فى الغابر بسمعيه ، من بضع سنين ، ما كاد الزمن يعكس لفظها على ذاكرته حتى مشت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدره ، والألم العاصف النابض فى محياه . . .

إن تكن هزيمة فالهزيمة فى الله نصر . وإن يكن نصر فالنصر فى الخطيئة هزيمة ... وذو الكلاع لا يحب أن ينام على ريبة أو ينطلق شوطه وهو عن الحق مخدوع . ليس بجمل يقاد بخطامه . ليس أداة صماء ... ولئن ربطته بمعاوية روابط من الود والولاء والعهد ، فدينه أولى بولائه ...

وبعث ذلك اليوم إلى ابن عمه ، أبى نوح ، حليف الإمام ، يستقدمه لبيته ، ويلتمس لديه راحة الروح :

« إنى أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه . . .

فلما أقبل عليه ، بعد استئمان ، قال ذو الكلاع له :

« إنما دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص ، قديما ، فى إمارة عمر بن الخطاب . . .

فسأله ابن عمه :

« وما هو ؟ . . . »

« حدثنا عمرو عن رسول الله قال : يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفى إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار . . .

قال أبو نوح فى ثقة ، وقد توجهت عيناه :

« لعمر الله إنه لفينا . »

« أجاد هو فى قتالنا ؟ . . »

« نعم . ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم منى . ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمى ! . . . »

عندئذ هتف ذو الكلاع وهو مفزع مهموم . قد زلزلته لهجة الحسم فى حديث صاحبه .

« ويلك ! . . علام تتمنى ذلك منا ؟ . . والله ما قطعتك فيما بينى وبينك . وإن رحمك لقريبة ، وما يسرنى أن أقتلك . . . ؟

فلم يعطف فزعه ولين خطابه قلب هذا القريب الغريم الذى لا يداجيه . بل سمعه ثانية يعنف ويلهب وجهه وقلبه بسوط الصراحة :

« إن الله قطع بالإسلام أرحاما قريبة ، ووصل به أرحاما متباعدة ، وإنى لقاتلك أنت وأصحابك . . . نحن على حق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورءوس الأحزاب . . . »

واهتز فزع الحليف الأموى . وغدت قدمه كأن على ماء ! . . ما لعينيه غامتا ؟ . . ما لبدنه وهن ؟ . . ما لقلبه خار ؟ . . إنه حديث عمرو . ذات ألفاظه . من ذات شفتيه وإن بعد العهد وكرت عليه الأعوام . . . أفلا يؤمن الآن ، ويفىء إلى جانب الهدى وقد وضحت المعالم ؟ . .

وصاح بابن العاص وهو مستوحش :

« ويحك يا عمرو ! . . »

فخفله الخاتل الداهية . وأشرق عليه بوجه رائق فيه تألق الشعاع الهادى ، وصفاء النبع يتفجر من صخرة ، وطهر الوليد . . . وكانت بسمة ناعمة كلمسة النسيم تمسح شفتيه ، وصوته الخافت الرقيق ينساب :

« إنه سيرجع . . . سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب . »

ولم لا ؟ . .

بلى ، فهذه سمات يقين ، وعلائم إيمان . والغد القابل القريب سيكشف الغطاء . .

وتفكر مليا الرجل الحائر . . الريبة تقبل عليه مرة ، وتدبر مرة ، تغيم وتقلع كأنها سحاب ليلة ذات ريح . تخف عن قلبه وتثقله . . . فإن يكن كذب ابن العاص ، فعلى نفسه عقبى كذبه ، ووبال هذه الفرية التى أول بها رأى محمد فأساء التأويل وخادع وخذل عن قدر الله . وإن يكن صدق فليست هذه أول مرة يصبأ فيها من هنا رجل ، ويثوب فيها من هناك آخر . . طوال الليالى التى عاشتها المحنة الدامية فوق أرض صفين ، كان الكثيرون على شبهة ، يستبدلون بالفكرة الفكرة ، وبالمعسكر المعسكر ، وبمعاوية وعلى عليا ومعاوية . وقد يصبح الصباح فيتابعهم عمار ! . . .

هنا استشعر بعض طمأنينة . . . إن هذه الحرب حرباء ! . . غير قلب ذات ألوان . أرته الأضداد والنقائض بدهته بالغريب والعجيب . الحق فيها حيران قارب تائه . بلا شراع . وبلا ملاح . الرياح سكانه . والموج ربانه ، وهذا الشاطئ الدانى كذلك الشاطئ البعيد . كلاهما بسط رجاءه ، ومهد رمله وحصباءه ، ونحى وعره وصخره ، وفتح صدره ينتظر أوبة الشريد ! . .

ثم نام الليلة فى أحضان رجائه ! . . وحلم وأصبح . وأضحت الضحوة عليه وهو مستبشر . فابن ياسر الآن منهم قريب ، على رمية رمح : على قيد النظرة من الأمل حالفهم النصر وفرت أمامهم عوامل الهزيمة فرار الظلمة أمام الشعاع . فما الباطل بغالب . وما الأمر إلا ساعة أو بعضها ثم ينبلج الحق ، ويفىء أهله إلى ظله ، ويقبل عليهم عمار من هناك ، يدع الظلمة ، ويجتنى النور . . .

إنها أمانى . رؤيا حالم . آمال غرير مخدوع . ولكنها ليست وحدها ما أراح باله . فعدة الظفر فى عينه ، والغلبة لها سفراء ورسل بعث بهم معاوية للمعسكر الآخر ، يعبدون الطريق لجيشه ، ويكشفون القلوب لسلاحه ، وينفثون السموم فى الصدور . . .

وكانت الخيانة من رسله ! .

ثمة رجل في عينه الآن مفتاح الوقعة ، وغاية الغايات من ذلك الصراع الناشب الذى تهيأت حمياه تأكل الظلف والقدم ، كما يحرق اللهب الحطب وتذرو الزوابع الهشيم . . .

وثمة آخر توطدت له بين أهل العراق الكلمة ، وتمكنت في عنها السيادة . وكان لقومه في الغابر ملك ترنمت العرب بأخباره ، ولهجت بذكره وسيرته حقبة من الزمان . . .

وكان أولهما من الشمال . من ربيعة التي تثبت اليوم للهول من دون الناس ، تدفع عن على بالسيف وبالكف ، بالروح وبالقلب ، بالظفر وبالناب ، وإن تفرق عن نصره الحماة وتقطعت به عن مناجزة خصمه ، القوى الوفير ، الأسباب . . .

وكان ثانيهما من الجنوب . ما زال بنفسه بعض الولاء للإمام ، والإقامة على عهده . ولكنه امرؤ به زهو ، وآثار عزة وكبر تخلفت عن أسلافه الملوك من كندة الذين راوده ذات يوم شيطانه على امتشاق صولجانهم البالى ، ووضع تاجهم المحطم الدارس على مفرقيه وإن ارتد وخلع الإسلام ! . .

لهذين الكبيرين زحفت الخيانة !... لخالد بن المعمر صاحب اللواء في ربيعة ، وللأشعث بن قيس صاحب الأمر في كندة ، وكلا الرجلين كانت لهما يد من بعد في مصير الصراع . . .

وكانت البذرة الأولى الخبيثة ، التي ألقاها معاوية في الأرض الحثة ، يوم دعا إليه عتبة أخاه فناجاه :

« اتق الأشعث بن قيس ، فإنه إن رضى رضيت العامة . . »

فخرج عتبة إلى صاحب الردة يدعوه ، والناس حينذاك قد أكلتهم الحرب ، وجنحت أنفس منهم إلى رخاء السلام .

« أنا عتبة بن أبي سفيان . . . »

فزها الحالم أمسه بتاج الجنوب ، وقال :

« غلام مترف ، ولا بد من لقائه . . . »

واستقبله ، يسأله :

« ما عندك يا عتبة ؟ . . »

قال باذر الحبة الخبيثة وهو يهيء لها من صدر المدل المغرور مغرسها الصالح:

« يا أبا محمد . . . إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير على للقيك . . . »

« إن لقيني والله لما عظم عني ولا صغرت عنه » .

فثنى عتبة عليه بالمصانعة والنفاق :

« . . . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل . ولست كأصحابك ... ... »

ولقد كان

فهو عامله قديما على أذربيجان . وهو صهر له ، ربطهما النسب ، منذ زوج ابنته عمرو بن عثمان بن عفان . فكادت الصلة : عملا ونسبا تميل به — لولا أن عيره قومه — إلى مظاهرة الشام وابن هند على العراق والإمام

ورد والنخوة تحرك لسانه :

« . الرأس المنيع والسيد المطاع على بن أبي طالب ! ... وأما ما سلف من عثمان إلى فوالله ما زادني صهره شرفا ، ولا عمله عزا ... وأما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك مني ، ولا يباعدني عنهم .. »

وعندئذ رفع عتبة بسن محرانه إلى الأرض السبخة :

« يا أبا محمد . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا . . »

فتفكر الأشعث برهة يزن الأمر وهو تياه إذ انتهى إليه وحده حقن الدم وإقرار السلام . ثم ما لبث أن أجاب :

« .. سنرى رأينا إن شاء الله . . . »

وقال معاوية لاخيه حينما عاد :

« يا عتبة . الرجل عظيم عند نفسه . . . وقد جنح للسلم . . . »

وما أخطأ الداهل الصواب . فالتربة قلبها الحراث . والبذرة وضعها الباذر . والسقيا تمت : دهانا ورياء ومداجاة ، وعما قليل ، بعد ساعات . في إبان الدعوة إلى الاحتكام لكتاب الله ، ستكون هذه النواة نمت ، وفرع عودها وطال . وغدت دوحة سامقة ذات ثمر مسموم !

* * *

وكانت البذرة الخبيثة الثانية قد استوت منذ ليال فى الأرض الخئة ، ساقا مورقة ، لها براعم ، وطلع كأنه رءوس الشياطين ! ذلك ما راب الناس ، وعلم على وخاضت الألسن الزارية فيه بالسر حينا وبالجهر آونة عند ما حمل ذو الكلاع فى حمير ومعهم ابن عمر على ربيعة الباقية وحدها على الخط . الصابرة للخطر . . فإذ ذاك مال خالد بن المعمر السدوسى للانسحاب ببعض قومه كأنما لينأى بهم مشفقا عن المصارع . فلما رأى من عداه من أصحاب الرايات فى ربيعة ثبتوا ، انثنى فعاد . . .

وتغامز الناس . . .

وتهامس فريق بشكه القديم :

« إنا لا نرى خالد بن المعمر السدوسى إلا قد كاتب معاوية ! . . . »

ولغط فريق :

« أراد الانصراف فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا ! . . . »

ودفع هو التهمة عن نفسه :

« لما رأيت رجالا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إليكم ، فأقبلت إليكم بمن أطاعنى منهم . . . »

ثم لم يغن عنه بلاؤه من بعد فى القتال ، وتحريضه القوم على الصبر . والدعوة التى دعاهم للجنة ! .. . كل هذا الغشاء لم يستر سره . لم يقتلع الدوحة النابتة فى ضميره . لم يجتث جذرها السام .. وإنها الليلة وركل النصر — يبيعه سلعة رخيصة فى سوق الغدر والنكث والغواية ، ثم يمم وجهه شطر الشيطان » .

* * *

على أية حال ، كان ذو الكلاع وابن عمر حين زحفا بالكتيبة الخضرية الرقطاء قد آمنا أنها تسير للغلبة ، عدوها مهيض أوهنته الفرقة ، وأرضها لينة عبدتها الخيانة .. ولم يكن ثمة أمامها إلا ربيعة ، إن جالدت فحمية ، وإن صابرت فساعة . أما بقية جيش على فإلى الآن كالقطيع الضال ..

لكن ربيعة أبت أن تبور ، لا وهن ولا تخاذل ، ما تتهاوى منها فرقة حتى تقوم فرقة ، كأنما تعاقد الرجال فيها أن يتزاحموا على الموت دراكا تزاحم الإبل

الهيم على المورد العذب بعد شقة الرحلة تحت وقدة الهجير ! .. شهد الله كيف صبروا . وكيف ذاقوا المر فى الصبر ، وشهد أيضا تلك الجماجم الذى استقبل منهم الهامة فوق الهامة ، كأنها الركام والحجارة ، تشمخ بها قمة ذلك الكثيب لسبح السحب ، بهذه البقعة الحمراء يصفين ! .. حتى عندما نال اليأس من عزم خالد ، أو نالت الغواية ، فمال بشرفه ورايته إلى نجوة ، لم يفتن الناس عن الجلاد ميله ، ولم تستهوهم منه هذه الدعوة الصامتة إلى الحياة . . . إنما أنكروا عليه . وشنئوا فعله ، وساطت جسده ألسن حداد دفعت به ثانية إلى صفهم ، وردت حياءه فى محياه ؟ ..

من اعتدال النهار لغروبه ظلت الحضرية تهز نصالها فى وجه ربيعة ، وربيعة أمامها تناضل ، كانت الصولة تقابل الصولة ، والكرة تقابل الكرة ، وإن همت الكثرة فى أحايين كثيرة أن تعصف وتقصف لولا هذه الإشاعة من الإيمان التى كانت تكشف دائما اضعاف العدد عن مغانى الجنة من خلال الدماء ! . . ما من رجل واحد بين الفئة التى ناشها سلاح الكتيبة الرقطاء كان يستبيح أن يترك الغمرة ليستريح ، أو يركز رمحه ليلقف أنفاسه . . . بل الزفرة التى يلفظها كانت تحز فى فؤاده لأنها هنيهة من عمره وات سيقصر بعدها أمد نزاله ! . بل الصلاة كانت رمزا : التكبيرة تغنى عن الشعيرة . والخشوع يترجم عن السجود والركوع ! .. وفى خلال النهار كله لم تسر قدم إلا إلى أمام ، ولا يغمد سيف ، فالأغماد على سيوفها حرام ! ..

وغدت الحياة وليجة شهية للموت طعمها صحوة ، وفى الظهر ، وساعة العصر ، وإبان تلون الأفق بصبغة الأصيل ، وذوبان الشفق فى ظلال العشية .. وكانت فكرة الفناء تطوف بأنفس ربيعة الصابرة فلا تفزعها بل ترفعها درجة فى مراقى الفداء . . وكانت فكرة الغلبة السريعة والنصر العاجل تذوى رويدا رويدا فى نفوس رجال الحضرية وابن عمر وذى الكلاع .. فما عدوهم هؤلاء إلا مردة للرحمن [illegible] الناس أجل ، وللرجل منهم عدة آجال ! ..

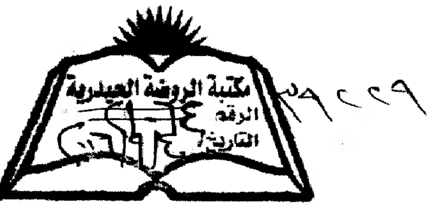
[illegible] وصاح خالد بن المعمر يحثهم وقد أخذته حمية القتال فأنسته ما ألقى به معاوية فى روعة :

«يا معشر ربيعة . . الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجية ! ..»

وأسرع زيادة بن خصفة إلى عبد القيس يلتمس عندها وقودا جديدا يبقى لظى هذا الـكفاح مستعرة :

« لا بكر بعد اليوم ! . . . إن ذا الـكلاع وعبيد الله بن عمر أبادا ربيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلـكوا ! . . .

وما كانت هذه الطائفة لتبيد ، فالحياة لمن زهد الحياة . والموت يرهب الشجاع المصابر . . . وإن عزمها ليصلب وإن عنادها ليشتد ، وإنها لتقذف غير هيابة بأعدادها إلى فم الهلاك فيخدش ولا ينهش ، ويكلم ولا يلتهم ، كأن مذاق لحمها كريه ، أو هو أتخم فخشت نفسه وعاف الطعام ؟ . . .



توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ ل.ل.